المرد المورد

مهربان القراءة للبميع

المحربات

فجرالضمير

جيمس هتري بريستيد

ترجمة د. سليم حسن



المصيريات

ترجمة ، د. سليم حسن





الهيئة الصرية العامة للكتاب

فجرالضمير

تألیف: چیمس هنری برستید ترجمـة: د. سلیم حسـن



مهرجان القراءة للجميع ٩٩ مكتبة الأسرة

برعاية السيكة سوزاق مبارك

(سلسلة المصريات)

فجرالضمير

تألیف: چیمس هنری برستید

ترجمـة: د. سليم حسـن

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

د. سمير سرحان التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندى وزارة التنمية الريفية

المشرف العام:

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يشرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية في تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع في ملايين النسخ الذي يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التي تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

« يعترف بفضل الرجل الذي يتخذ العدالة نبراساً له ، فينهج نهجها » .

(من أقوال الوزير الا كبر « بتاح حتب » المننى الأصل فى القرن السابع والعشرين ق . م .)

« إن فضيلة الرجل المستقيم أحب (عند الله) من ثور الرجل الظالم » (أى من قربان الرجل الظالم) .

(من النصيحة الموجهة للأمير « مم يكارع » من والده فرعون أهاسي الأصل عاش في القرن الثالث والعصرين ق . م .)

« ان العدالة خالدة الذكرى ، فهى تنزل مع من يقيمها إلى القبر . . . ولكن اسمه لا يمحى من الأرض بل يذكر على مم البسنين بسبب العدل » .

(من قصة الفلاح الفصيح الأهناسي الذي عاش في القرق الثالث والعصرين ق . م .)

« إن فضيلة الرجل هي أثره ، ولكن الرجل السي الذكر منسى » . (من شاهد قبر مصرى عاش حوالي القرن الثاني والعشرين ق . م .)

« قد يفرح أهل زمان الانسان وقد يعمل ابن الانسان على تخليد اسمه أبد الآبدين . . . إن العدالة ستعود إلى مكانها والظلم ينفي من الأرض » .

(من أقوال « نفرروهو » وهو نبي مصرى عاش حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م .)

« يا آمون أنت أيها الينبوع العذب الذي يروى الظمأ في الصحراء . انه لينبوع موصد لمن يتكلم ومفتوح لمن يتذرع بالصمت ، فإنه حينا يأتى الصامت ، تأمل ! فانه هنالك يجد الينبوع » .

(عن حكيم مصرى قديم عاش حوالي ١٠٠٠ ق . م .)

فهرس الكتاب

مفتخة												1	
1	•		•	•		• ,	•			•	•	المعرب	مقدمة
٨		•			•	•	•		٠				تمهيد .
17	٠	•	•	•	•	•	•		•	٠, •	•		مقدمة
4.		•						•			•	•	إيضاح
41	•	• '	•		بد .	الجد	الماضى	اس وا	الأس	:		الأول	القصل
44					الإنسا							الثانى	القصل
٤٨		•	ية .	أخلاق	ىء الأ	ِ الْمِبَادُ	و فجر	لشمس	إله ا	:		الثالث	القصل
71			•	رت	فحة المو	ومكا	مسية	دة الش	المقيا	:		الرابع	القصل
٨٢	٠.				. فرعو			۵.				الخامس	القصل
4.4					خرة ا				***			السادس	
P +. F					الإنسا								القصل ا
14.	رأوزير					_						-	الفصل ا
179			•		_							_	الفصل ا
امهدا	e											-	الِفصل ا
190 (شىر	لحادي ء	
`		,			یل تو							اثانی عث	
441					٠ ٦								
J	ية	-			اعتناق						ئىنى	لثالث عنا	الفصل ا
747					نتشار		•				_		
444.		•			اسحر			_			نبر	لوابع عث	الفصل أ
791 ·					عقيدة	-						الحامس ·	
. (-	سى	الشخه	نسك	مارالت	سر انتش	عص	تون ـ	ل إخنا	سقوط	. :		لسادس	
441			•		•	٠ لو	خاعت	لهانة و					
441		•	•		•	للقي	نا الح	ر إرث	مصاد	:	ئىن	لسابع عثا	الفصل ا
٥١٥	•				•						ئشىر	لشامن ء	الفصل ا
					تهاللبشه		-						
277						•							
	يب .	ن بجار	بيراعو	فته تع	ے: ۔	عظيم	نال ال	الانتة	4	•			
٤٣٩		•	•		•		٨.	المبشر					
241		•	جديد	خلقي -	كھۇ ئر ۔	ديد	با الج	الماضو	— :	Ę			t
\$5.						خلاق	VI .	القمة	4	3		5	

مسم الله الرحن الرحيم

مقددمة المعرب

مثل الباحث فى تاريخ الحضارة المصرية القديمة ، كمثل السائح الذى يجتاز مفازة مترامية الأطراف ، يتخللها بعض وديان ذات عيون تتفجر المياه من خلالها ، وتلك الوديان تقع على مسافات فى أرجاء تلك المفازة الشاسعة ، ومن عيونها المتفجرة يطنى ه ذلك السائح غلته ويتفيأ فى ظلال واديها ؛ فهو يقطع الميل تلو الميل عدة أيام ، ولا يصادف فى طريقه إلا الرمال القاحلة والصحارى المالحة ، على أنه قد يعترضه الفينة بعد الفنية بعض الكلا الذى تخلف عن جود الساء بمائها فى فترات متباعدة ، وهكذا يسير هذا السائح ولا زاد معه ولا ماء إلا ما حمله من آخر عين غادرها ، إلى أن يستقر به المطاف فى واد خصيب آخر . وهناك ينعم مرة أخرى بالماء والزاد . وهذه هى نفس حال المؤرخ الذى يؤلف تاريخ الحضارة المصرية القديمة . فالمصادر الأصلية لديه ضئيلة شيئا عن ناحية من عصر معين من مجاهل ذلك التاريخ ؛ فإن النواحى الأخرى لنفس ذلك العصر قد تستعصى عليه ، وقد تكون أبوابها موصدة فى وجهه ؛ لنفس ذلك العصر قد تستعصى عليه ، وقد تكون أبوابها موصدة فى وجهه ؛ لان أخبار تلك النواحى قد اختفت إلى الأبد ، أو لأن أسرارها لا تزال دفينة تحت تربة مصر لم يكشف عنها بعد .

فالمؤرخ فى مثل هذا الموقف الحرج ، لايحد مندوحة مر. أن يصول ويحول ويشنى غلته بما لديه من المعلومات عن الناحية المعروفة ، ثم يمر مر الكرام بالنواحى المجهولة له ، وقد يستعين أحيانا بما لديه من قوة الخيال ، وما فطر عليه من تجارب على مل مذلك الفراغ المقفر الذي يعترضه في طريقه

وهو فى ذلك لا يأمن شر العثار ، وبخاصة إذا تغالى فى إرخاء العنان لخياله الخصب . ثم نرى هذا المؤرخ بعد التقدم فى سيره فى تلك الفجوة المقفرة ، يستقر به المقام كرة أخرى فى واد آخر تتفجر عيونه بالمعلومات الممتعة ، فيتحفنا بها بقدر ما يجود به ماء ذلك الوادى ، وهكذا يتابع المؤرخ السير من واد خصيب إلى واد غير ذى زرع ، حتى يصل إلى نهاية المطاف .

على أنه عندما يتصفح مثل هذا المؤلف أحد المؤرخين المحدثين ، أو الذين لم يجربوا الكتابة فى التاريخ القديم وما فيه من فجو التكبيرة ، لا يسعه إلا أن يكيل اللوم جزافا للمؤرخ القديم ويصب عليه جام انتقاداته ، ويرميه بالتقصير فى بعض المواضيع وفى التطويل فى غيرها ، وما شابه ذلك من الانتقادات التى يجب أن توجه بحق لمؤرخ التاريخ الحديث الذى لا عذر له فى التقصير عن إيفائها حقها .

والواقع أننا لا نبالغ إذا قررنا أن المؤرخ الذي يؤلف في التاريخ القديم، يشبه من كان على سفر ليلا في مركبة بخارية تشق به المسافات الشاسعة في ظلمة حالكة يتخللها بعض أقباس ضئيلة من النور هنا وهناك ، إلى أن يصل المسافر إلى محط مضاء بالانوار الساطعة ، فيستيقظ على ضوئه ويرى ماحوله من أناس ومبان وسلع ، وبعد أن يقضى لحظة بها يتابع سيره ثانية في ظلمة حالكة إلى أن يصل إلى محط آخر ، وهكذا حتى ياقي عصا تطوافه . فهذه الظلمة هي مجاهل التاريخ القديم ، وتلك المجاط هي المعلومات التي جاء بها الزمن ، وأبق عليها الدهر .

وخلاصة القول: أن المؤرخ فى التاريخ القديم، لا يستطيع أن يكتب كتابا متصلة أفكاره بعضها ببعض تمام الاتصال فى تاريخ أى بلدة قديمة قد ضاعت معظم آثارها أوكانت لا تزال دفينة نحت تربتها لم يكشف عنها بعد . وتنحصر براعة المؤرخ الذى يتصدى لكتابة تاريخ دولة قديمة فى سعة اطلاعه وقوة خياله ، وقدرته على استنباط الحوادث العظيمة وربطها بما لديه من المعلومات الصئيلة الهزيلة التى أبقت عليها يد الدهر ، فهو بنلك المقدرة يمكنه أن يتغلب

على الفجوات التي تعترض سيره . ولست مبالغا إذا قررت هنا أن خيركتاب أخرج للناس في هذا العصر من ذلك الطراز هو كتاب: « فجر الضمير ، الذي وضعه الاستاذ . برستد ، في عام ١٩٣٤ ، وهو في الواقع مؤلف يدلل على أن مصر أصل حضارة العالم ومهدها الأول؛ بل في مصر شعر الإنسان لأول مرة بنداء الضمير ، فنشأ الضمير الإنساني بمصر وترعرع ، وبها تكونت الأخلاق النفسية . وقد أخذ الاستاذ . برستد ، يعالج تطور هذا الموضوع منذ أقدم العهود الإنسانية ، إلى أن انطفأ قبس الحضارة في مصر حو الى عام ٥٢٥ قبل الميلاد . فَمُصر في نظره حسب الوثائق التاريخية التي وصلتنا عن العالم القديم إلى الآن ، هي مهد حضارة العالم ؛ وعن هذه الحضارة أخذ العبرانيون ، ونقل الأوربيون عن العبرانيين حضارتهم ، وبذلك يكون الاستاذ . برستد ، قد هدم بكتابه الخالد هذا ، النظريات الراسخة في أذهان الكثيرين القائلة بأن الحضارة الأوربية أخذت عن العبرانيين. على أن هذا الرأى لايزال يعتنقه بعض من لم يقر أكتاب « برستد ، إلى الآن ، وكأن هذا الأثرى العظيم بكتابه هذا قد أظهر للعالم أجمع بأن المصدر الأصلى لكل حضارات الإنسانية ، هي مصرنا العزيزة . لذلك يخيّل إلى أن « مصطفى كامل ، حينها قال : « لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا » كان يحس في أعماق قلبه وفي دمه ما سيظهره الاستاذ « برستد » للعالم عماكان لمصر من السيادة المطلقة والقدم السابقة ، في تكوين ثقافة العالم، وفي وضع أسس الآخلاق وانبثاق فجر الضمير الذي شع على جميع العالم . ولا غرابة في إحساس « مصطفى كامل ، بهذا الشعور ، وبتلك العرة القومية والعظمة النفسية التي عزز صدقها « برستد » عام ١٩٣٤ وهو العام الذي ظهر فيه كتابه و فجر الضمير ، ، فإن البلاد العريقة في المجد كالشجرة المباركة الطيبة ، تأتى أكلها كل حين ، وتنبت بين آونة وأخرى أفذاذا تجرى فى دمائهم قوة العزة القومية والمجد التليد ؛ فيشعرون بعظمة بلادهم ، وماكان لها من تاريخ مجيد، فتنطلق ألسنتهم معبرة عن ذلك بالإلهام المحض.

والعظيم يقدر العظيم؛ فالأستاذ . برستد، قد شغف فى بادى، حياته بدرس تاريخ الشرق القديم عامة ، ولكن لما اشتد ساعده مال بكل نفسه وروحه لدرس تاريخ مصر وحضارتها ، وأنفق فى سبيل الوصول إلى معرفة مكانة مصر بين دول العالم القديم ما يربى على ألف ألف جنيه ، جمعها من رجالات أمريكا الذين يشجعون العلم والبحوث القديمة . وقد انتهى به البحث بعد دوس حضارات الامم الشرقية القديمة كلها ؛ إلى أن مصر أصل مدنيات العالم ، ومنبت نشوء الضمير ، والبيئة الأولى التي نمت فيها الاخلاق ، فهو إذن رجل عظيم كشف عن ماضى أمة عظيمة .

ولعمرى لقد قضى الأستاذ « برستد » بكتابه « فجر الضمير » على الخرافات والترهات التي كانت شائعة بين السواد الأعظم من علماء التاريخ القديم والحديث قضاء مبرما ، ففريق منهم ظن أن الصين والهند ثم بلاد اليونان كانت مهد الحضارة العالمية وعنها أخذ العالم الحديث ، والواقع أن مصر كما ذكرنا آنفا هي التي أخذ عنها العالم حضارته عن طريق فلسطين التي ليس لها فضل في ذلك سوى انها كانت نقطة الاتصال بين الحضارة الأوربية والحضارة المصرية . على أن العبرانيين قد نقلوا الحضارة المصرية إلى أوربا مشوهة بعض الشيء ثم صقلها الاوربيون بطورهم حسب أمزجتهم وألبسوها ثوبا جديدا كل نسجه من خيوط الدنية المصرية . فما نراه الآن من روائع المؤلفات اليونانية القديمة ، وما نسج على منواله الكتاب الاوربيون قديما وحديثا يرجع في عنصره إلى أصل مصرى قديم . كل ذلك قد شرحه الاستاذ « برستد » شرحا فياضا مستفيضا تدعمه الوثائق الأصلية القديمة عما لا يترك مجالا لأى ناقد يفهم الحقائق على وجهها الصحيح ولا يتعصب إلى فريق دون فريق .

إنّ الذي يتصفح كتاب الاستاذ « برسند ، و بخاصة الفصل الاول منه يلحظ لاول وهلة أنه يريد أن يلفت نظر العالم إلى أهمية ضرورة البحث والتنقيب عن تاريخ الشرق القديم ووضعه أمام أعين العالم و تدوينه بصورة واضحة ، حتى يكون وسيلة لمعرفة أصل الحضارة الحديثة . وفي الحق قد أفلح الاستاذ و برستد ، فلاحا منقطع النظير بقدر ماوصلت إليه معلوماته في تجديد الماضي القديم وجعله حيا أمامنا يتكلم و يناقش ، وسيجد القارى أن الاستاذ هو أول من قسم تاريخ الإنسانية عصرين بارزين : الاول عصر كفاح الإنسان مع المادة

والقوى الطبيعية والتغلب عليها نهائيا ، والعصر الثاني هو عصر الكفاح بينه وبين نفسه الباطنة ، وذلك حينها أخذ ضميره يبزغ وأخلاقه تتكون ، ويقدر « برستد » زمن كفاحه المادى بنحو مليون سنة ، أما عصر بزوغ ضميره فقد بدأ يحس به منذ أن عرف كيف يدون أفكاره بالكتابة ، ويقدر عمره بنحو ...ه سنة تقريباً . ويعتقد الاستاذ , برستد ، أثنا لا نزال في مستهل عصر تكوين أخلاقنا وأنناما زلنا على أبواب مملكتها الشاسعة المترامية الأطراف التي لم نرد مجالها بعد ، وأنه بيننا وبين الوصول إلى نهاية حدود تلك المملكة أهوال ومصاعب شاقة ربمــا استغرق التغلب عليها مئات الآلاف من السنين ويعني بذلك الوقت الذي يصل الإنسان فيه إلى التحلي بالمثل العليا من الأخلاق ويقلع عن المادة وما يجلبه حبُّ الاستحواذ عليها من المشاحنات والحروب والآحقاد التي يغلي مرجلها في كل نواحي العالم ولا يزال يشتد غليانه الآن . ولعمرى إذا سما الإنسان إلى تلك المرتبة المنشودة ، فإن أرضنا تكون الجنة التي وعد بها المتقون ، ولكن أنى للإنسان أن يصل إلى تلك المرتبة ، ونحن كلما تقدمنا خطوة نحو الآخلاق الفاضلة رجعناها ثانية ، بل تقهقرنا إلى ما وراءها ، وهل نحلم بأن ننتقل إلى تلك المنزلة العالية التي تلحقا بالملائكة ونحن لا نزال نتفنن في إجادة آلات القتل والفتك والتدمير ؟ والواقع أن العالم الآن فى درك خلق مشين ونشاط مادى قتال، وإن أخلاقنا تنجذب بقوة نحو المادة والوحشية حتى ارتمت في أحضانهما، وسيبقي الحال كذلك إلى أن يتيح الله للعالم من يطغى تغلغل نار المادة في قلوب الشعوب،ويمطرنا من فيضه سيلًا من الأخلاق الفـاضلة يسير بالعالم ويتقدم به في مجاهل مملـكة الأخلاق والضمير الحي إلى أن يصل به إلى الغاية المنشودة .

ولا إخال القارى الكريم بعد هذه المقدمة الطويلة إلا قد فهم القصد الذى من أجله ترجمت كتاب الاستاذ وبرستد ، هذا ، وفضلا عما بينت من مناقب هذا الكتاب فإنه لو رزقنى الله علم الاستاذ وبرستد ، وطول خبرته بدراسة أمم الشرق القديمة عامة ودراسة آثار مصر خاصة لما كان فى وسعى أن أدون خيرا من هذا الكتاب فى فصاحته وبيانه وانسجام عباراته وقوة منطقه وأخذه بتلابيب القارى حتى ليجعل مجاهل التاريخ المصرى القديم المقفر من المعلومات

كأنها رياض وحداثق غناء لا تسأم النفس قراءته ، ولا يمل النظر تصفح فصوله ، وإذا قدر وكانت لى تلك الهبات العظيمة التي وهما الله الاستاذ « برسند » في إخراج كتابه بما فيه من فصاحة وبيان وحسن تعبير وعلم فياض فإنى قد أتهم بمحاباة بلادى ويكون كتابى لذلك موضع ريبة وشك عند جمهرة العلماء عامة ومن لايميلون للمصرية أو يتنصلون منها خاصة ، لانه أتى على لسان من يحب بلاده فينسب إليها ما يرفع قدرها تعصبا منه ومحاباة وإشادة بذكرها وتغاليا في إعلاء شأنها ـ من أجل ذلك اعتقدت في قرارة نفسي أن أكبر خدمة أقدمها لوطني العزيز أن أترجم كتاب . فجر الضمير ، للأستاذ . برستد ، إلى لغننا العربية وأنا على علم بما سألاقبه من مشقة وجهد في إبرازه في ثوب عربي مقبول لا أخرج فيه عن الاصل الإنجليزي في معناه وثوبه الفلسني . وقد ساعدنى على حل غوامض بعض فقرات هذا الكتاب وجم غفير من تعبيراته العويصة الملغزة دراساتي المصرية القديمة التي بدونها ما استطعت أن أصل إلى ترجمة هذا الكتاب ، ولا يفو تني هنا أن ألفت النظر إلى أن القارئ الكريم إذا أراد أن يقرن بين الاصل الإنجليزى والترجمة العربية فإنه سيجد أحيانا بعض الفوارق الدقيقة قد حتمتها الفروق بين التعبير في اللغتين أو قد يكون منشؤها أن الاستاذ « برستد » يشير إلى حوادث وأشخاص تاريخية لا يفهم كنهها إلا منله دراية بالآثارالمصرية خاصة والآثار الشرقية القديمة عامة ،واقد حرصت دائمًا على شرح تلك الأشياء الغامضة في هوامش طويلة أو قصيرة حسب المقام.

وفى حتام هذه المقدمة أحب أن أذكر أن الاستاذ و برستد ، قد قال فى مقدمة كتابه : وإنه يجب على نشء الجيل الحاضر أن يقرءوا هذا الكتاب الذى يبحث فى تاريخ نشأة الاخلاق بعد بزوغ فجر الضمير فى العالم المصرى ، لذلك رأيت أنه إذا كان المؤلف يحتم على شباب العالم الغربي أن يقرءوا هذا الكتاب فإنه يكون من ألزم الواجبات على كل مصرى مثقف أن يستوعب ما احتواه لانه تاريخ نشأة الاخلاق فى بلاده التى أخذ عنها كل العالم .

وإنى أرجو فى النهاية أن أكون قد قمت ببعض ما يجب على نحو بلادى كما أرجو أن يهتم كل مصرى يحترم نفسه ويقدر منزلة بلاده بقراءة هذا الكتاب لعل فى ذلك باعثا لإحياء الماضى المجيد الذى لا يزال العالم الغربى يرد مناهله ويسير على هداه منذ أقدم عهده حتى يومنا هذا دون أن يشعر أحد منا بذلك حتى أبرزه لنا الاستاذ « برستد » فى « فجر الضمير » أو كما أسميه « مصر أصل مدنيات العالم ، م

سليم حسن

يناير سنة ١٩٥٦

June 8

لقد أصبح من الآراء العامة المؤسفة الشائعة بين أبناء الجيل الذي أعقب الحرب العالمية ، أن الإنسان لم يتورع يوما ما عن استعمال قوته الآلية المتزايدة في الفتك بأبناء جنسه ، وقد برهنت الحرب العالمية على إمكان وصول قدرة الإنسان الميكانيكية الهائلة على القيام بأعمال التخريب إلى حد مروع فليست هناك إذن إلا قوة واحدة في استطاعتها أن تقف في وجه هذا التدمير: هي الضمير الإنساني . وهو شيء اعتاد نشء الجيل الحديث أن يعده مجموعة محددة من الوساوس البالية . إذ كل فرد يعلم أن قوة الإنسان الآلية المدهشة ليست إلا نتاج تطور طويل ولكن لسناكلنا ندرك أن هذه الحقيقة نفسها تنطبق كذلك على القوة الاجتماعية التي نسميها الضمير ، مع التسليم بفارق واحد هام بينهما وهو : أن الإنسان بصفته أقدم المخلوقات صنعا للآلات ،كان بجدا في صنع أسلحة فناكة منذ نحو مليون سنة ، في حين أن الضمير لم يبرز في شكل قوة أجتماعية إلا منذ مدة لا تزيد على خمسة آلاف سنة ، أي أن أحد التطورين قد سبق الآخر بشوط بعيد ؛ فأحدهما عتيق ، وإلآخر وليد عهد ﴿ قريب لايزال أمامه ممكنات لا حصر لها. أليس في مقدورنا أن نعمل بجد لإنماء هذا الضمير الحديث الميلاد ؟ حتى يصير مظهر ا من مظاهر حسن النية ، " ويصبح من القوة بحيث يخمد أنفاس القوة الوحشية الباقية في نفوسنا ؟ إن القيام بهذا الواجب يكون بالطبع أقل صعوبة بكثير بما عاناه أجدادنا المتوحشون في هذا المضمار لأنهم خلَّقوا ضميرًا في عالم لم يكن فيه أول الأمر أى شعور بالضمير .

إن أعظم ظاهرة أساسية فى تقدم حياة الإنسان هو نشوء المبادئ الخلقية وظهور عنصر « الاخلاق » ، وهو تحول فى حياة الإنسان ، يدلنا التاريخ على أنه وليد الامس فقط ، وقد يكون من الخير أن نعيد الإشادة بتلك القيم القديمة

التى أصبحت فى زوايا الإهمال لاستخفافنا بها، وبخاصة فى هذا الوقت الذى أصبح فيه الجيل الحديث ينبذ الأخلاق الموروثة ظهريا، ولسكى نتمثل صورة حقة لقيمة الأخلاق الفاضلة وتأثيرها فى الحياة الإنسانية بيجب أن نجتهد فى الكشف عن الطريقة التى وصل بها الإنسان للمرة الأولى إلى إدراك الأخلاق وتقدير قيمتها. فحينها نلقى بنظرنا إلى الوراء فى بداية وجود بنى البشر ينكشف لذا فى الحال أن الإنسان قد بدأ حياته متوحشا بجردا من الأخلاق، فكيف أصبح فى وقت ما صاحب وازع خلق، وكيف خضع فى النهاية للوازع الحلق عندما أحس به وتلتى وحيه ؟ وكيف ينهض عالم خال من أى تصور للأخلاق عندما أحس به وتلتى وحيه ؟ وكيف ينهض عالم خال من أى تصور للأخلاق المنبعثة من قرارة نفسه ؟ وكيف أنه رغم الفوائد الظاهرة الملموسة التى تفيدها المنبعثة من قرارة نفسه ؟ وكيف أنه رغم الفوائد الظاهرة الملموسة التى تفيدها المنبعثة من قرارة نفسه ؟ وكيف أنه رغم النوائد الظاهرة الملموسة التى تفيدها ولماذا لا يكون من واجب شباب اليوم رجالا ونساء أن ينبذوا المبادى ولماذا لا يكون من واجب شباب اليوم رجالا ونساء أن ينبذوا المبادى ألل كفرة عن الماضى باعتبارها مبادى ، تلك المبادى التى لانعرف أى شيء عن أصلها ؟

فالوثائق القديمة التي تمدنا بالجواب على هذه الأسئلة ، وتكشف لنا عن أصول مثلنا الوراثية ، قد عرضناها في هذا الكتاب مترجمة ومصحوبة بتعليقات وشروح تجعلها سهلة الفهم ، إلى حد لابأس به ، والواقع أن هذه الوثائق تكشف لنا عن فجر الضمير ونشوء أقدم مثل للسلوك ، وما نتج عن ذلك من ظهور عصر الأخلاق ، وهو تطور لا تنحصر أهميته في كونه خلابا لمن يتتبعه خطوة فخطوة ، بل لأنه يعد فضلا عن ذلك رؤيا جديدة للأمل في مثل زماننا هذا . وبعض هذه المصادر القديمة عبارة عن قصص شرقية مشوقة قد تجعل القارئ يتنقل في أرجائها براحة وبهجة وغبطة . وبعضها الآخر مصادر لا يمكن تناولها ولا هضمها بسهولة . فإذا كان القارئ الناشي الذي وضع هذا الكتاب من أجله خاصة يجد نفسه متعثرا في سيره في تفهم هذه وضع هذا الكتاب من أجله خاصة يجد نفسه متعثرا في سيره في تفهم هذه الأصول الأخيرة ، ويجنح إلى التخلي عن متابعها ، فإني أقترح عليه أن يقر أ

الوحشية إلى عصر الآخلاق ــكا يظهر فى هذا الكتاب ــ فى موضعه الصحيح وعلى أساسه التاريخي المناسب .

لقد حفظت في طفو لتي مشل إخواني من الصبية « الوصايا العشر » ، وعلمت أن أحترمها لأنه أكد لى أنها أنزلت من السموات على « موسى » ، وأن اتباعها كان من أجل ذلك لزاما على ، وإنى أذكر أنى كلما كذبت كنت أجد لنفسي سلوة في أنه لا توجد وصية تقول : « يجب عليك ألا تكذب ، ، وإن الوصابا العشر لا تحرم الكذب إلا في شهادة الزور فقط . أي عندما يؤدى الإنسان شهادة أمام المحاكم يمكن أن تضر بجاره . ولما اشتد ساعدى بدأت أشعر في نفسي بشيء من القلق وأخذت أحس بأن قانون الأخلاق الذي لا يحرم الكذب هو قانون ناقص ، وبقيت هذه الفكرة تجول مخلدي زمنا طويلا قبل أن أضع لنفسى السؤال الهام التالى: كيف ظهر في نفسي الشعور بهذا النقص ؟ ومر. أين حصلت بنفسي على المقياس الخلقي الذي كشفت به عن هذا النقص في الوصايا العشر ؟ ولقدكان يوما أسود على احترامي الموروث للعقيدة الدينية القائلة , بنزول الوحي ، حينها بدأت عندي تلك النجربة النفسية . بل قد ظهرت أمامي تجارب أشد إقلاقا لنفسي وذلك عندما كشفت وأنا مستشرق مبتدى أن المصريين كان لهم مقياس خلق أسمى بكثير من الوصايا العشر وأن هذا المقياس ظهر قبل أن تُكتب تلك الوصايا بألف سنة .

على أن أمثال هذه التجارب الشخصية قد أصبحت الآن في مخيلتي من الذكريات الضعيفة كلما التفت إلى الوراء ناظر المايها بعد أن قضيت أكثر من أربعين عاما في البحث محاولا تحديد الأدلة التي وصلت إلينا بين الآثار القديمة الشرقية عن هذه المسألة الأساسية الحاصة بأصل الأخلاق. وعندما تقدمت في هذه البحوث، ازداد اقتناعي بأن نتائج تلك البحوث ستصبح سهلة التناول لأي قارى عادى. وأن الجيل الحالي من الشباب الذين قد يشغل بالهم بمثل تلك المسائل الأساسية كاحدث لي ، يجب أن يكون في متناولهم وسيلة للتثبت من هذه الحقائق.

ولقد وضعت من وقت لآخر مو جزات تاريخية عن ارتقاء حياة الإنسان المبكرة قبل ظهور أوربا المتحضرة وبخاصة عن الحقائق التي استقيتها من الآثار المصرية، فني عام ١٩١٢ وضعت بعض هذه النتائج في صورة كتاب تاريخ للمدارس الأمريكية ثم قدمت في نفس العام بحثا أنضج من سابقه عن التطور الأخلاقي والديني عند الإنسان القديم ، إلى طلاب اتحاد المعهد الديني في محاضرات «مورس » Morse Lectures ثم إلى طلبة جامعة كورنل Messenger Lectures في أبحاث تحضيرية عرفت بمحاضرات «مسنجر » من هاتين السلما الدكتور ومسنجر » من هاتين السلملتين من المحاضرات طبعت ، محاضرات مورس » في ذلك الوقب .

وأخيرا أخذ المؤلف على عاتقه فى كلية برين نور Bryn Nawr College فى سلسلة دروس تمهيدية تحت رعاية مؤسسة محاضرات مارى فلكسترالجديدة بأن يقدم صورة أوسع من الصور السابقة عن الموضوع كله ، غير أنها لم تطبع قط مثلها فى ذلك مثل محاضرات ، مسنجر ، فى «كورنل ، ويجد القارى فه فلا الكتاب بعض النتائج الاساسية المستخلصة من تلك المحاضرات وبعض متون عاضرات ، مورس ، نفسها بدون نص على الاقتباس . وإنى مدين هنا بالشكر دينا عظيما للدكتور إديث ويليمز وير Ware للاقتباس . وإنى مدين هنا بالشكر المساعدة فى ترتيب تلك المواد القديمة وفى وضع التصميم الإيضاحي وفى تحضير الفهرس وقراءة تجارب الطبع وغير ذلك .

وقد سجل المؤلف اعتقاده من زمن يرجع إلى عام ١٩١٢ فى محاضرات مورس ، أن مجموعة من ورق البردى المصرى ألفت فى العهد الإقطاعى حوالى ٢٠٠٠ ق. م. تدل محتوياتها على أنها أكثر من إنتاج أدبى مزخرف الالفاظ مخالفا فى ذلك الفكرة التى كانت سائدة عن تلك الأوراق عند جهرة علماء الآثار حتى ذلك الوقت. ويرى المؤلف أن هذه المقالات تحوى فى ثناياها آراء اجتماعية تعتبر أقدم بحوث معروفة فى الاجتماع كتبها مؤلفوها الاقدمون لشكون حملة دعاية لاول جهاد مقدس فى سبيل العدالة الاجتماعية. ولذلك

يعد مؤلفوها أول المصلحين الاجتماعيين. وقد قضى المؤلف أكثر من عشرين عاما فى تأمل هذه الوثائق فلم يزده ذلك إلا تثبتا من صدق رأيه وأن قبول هذا التفسير الاجتماعي للمصادر المذكورة إنما هو بالنسبة لنظرية تطور المدنية المصرية مثل العمل الذي قام به منذ عهد بعيد النقاد المؤرخون المستنيرون الذين يطلق عليهم نقاد دار الكتاب المقدس فى سبيل تطور الحضارة العبرانية ، مع فارق واحد هو أنه فى خدمة قضية تطور الحضارة العبرانية كان النقد التاريخي يسير ببطء نحو فهم وقبول هذا التصوير والتفسير الاجتماعيين.

ولقد كان الحال كذلك فى تصوير المؤلف للتطور الاجتماعى فى الديانة والمبادى الاخلاقية بمصر القديمة ، وبخاصة ماكان أساسه أوراق بردى العهد الإقطاعي السالفة الذكر . وعلى كل حال فإن تفسير المؤلف لما تقدم قد وجد صدراً رحبا فى فرنسا إذ قبل هذا التفسير واستعمله صديقه المأسوف عليه «جورج بنديت ، أمين متحف اللوفر وعضو معهد فرنسا ، وكذلك سار على نهجه وأتقن التعقيب عليه «اسكندر موريه ، خلف «مسبرو » فى كلية فرنسا وخلف «بنديت ، فى معهد فرنسا . وبما لا يتطرق إليه الشك أن هذا التفسير الاجتماعي للمصادر المصرية وتصوير الديانة المصرية تصويراً اجتماعيا بجعلها أقدم مصدر عرف حتى الآن عن تطور الاخلاق والمثل الاجتماعية ، سينال ذلك القبول العام الذى ناله نظيره فى تفسير التاريخ العبرى .

ومنذ إلقاء المحاضرات التي نوهنا عنها فيها سلف كشف عن وثائق أثرية جديدة (وخاصة في مصر) لم تزد فقط في معلوماتنا زيادة ملبوسة ، بل إنها أثبتت لنا كذلك أهمية أوراق البردي الاجتماعية التي ترجع إلى العهد الإقطاعي. وقد كان أعظم كشف جاوز حد المألوف في هذه الناحية هو أننا عرفنا أن حكمة وأمينمو بي ، التي حفظت لنا في ورقة مصرية بالمتحف البريطاني ، قد ترجمت إلى العبرية في الازمان الغابرة وأنه بذيوعها في فلسطين صارت مصدرا استقى منه جزء بأكمله من كتاب الامثال في التوراة .

فكم من قس حديث طلب إليه أن يعظ جماعة من رجال الأعمال قد قوى موعظته باقتباسه العبارة التالية من كتاب الأمثال: « هل ترى رجلا جادا في التجارة ، إنه سيحظى بالمثول أمام الملوك؟ ، على أنه ليس من المحتمل أن أى قس من هؤلاء قد مهد لعظته بملاحظة تدل على أن ما اقتبسه قد نقله ناشر الأمثال العبرية عن كتاب مصرى في الحكمة الخلقية أقدم من التوراة بكثير. لقد أضاف هذا الكشف أهمية بعيدة المدى إلى الحقيقة القائلة بأن التقدم الحضارى في المهالك التي تحيط بفلسطين كان أقدم بعدة آلاف من السنين من التقدم العبرى ، ولقد أصبح الآن من الواضح الجلي أن التقدم الاجتماعي والخلقي الناضج الذي أحرزه البشر في وادى النيل الذي يعد أقدم من التقدم العبرى بثلاثة آلاف سنة ، قد ساهم مساهمة فعلية في تكوين الأدب العبرى الذي نسميه نحن « التوراة » وعلى ذلك فإن إرثنا الخلق مشتق من ماض إنساني واسع المدى أقدم بدرجة عظيمة من ماضي العبرانيين ، وأن هذا الإرث لم ينحدر إلينامن العبرانيين ، بل جاء عن طريقهم . والواقع أن نهو ض الإنسان إلى المثل الاجتماعية قد حدث قبل أن يبدأ مايسميه رجال اللاهوت بعصر الوحي بزمن طويل ، وأن هذا النهوض نتيجة للخبرة الاجتماعية التي مارسها الإنسان نفسه ، ولم يزج إلى هذا العالم من الخارج .

إن الحقيقة القائلة بأن أفكار الإنسان الأول الخلقية أتت نتيجة لحبرته الاجتماعية الشخصية تعد من أعمق المعانى لرجال الفكر فى عصر نا . فالإنسان قد نهض إلى مرئيات الأخلاق من وحشية عصر ما قبل التاريخ على أساس تجاربه الشخصية . فإن ذلك العمل العظيم الذى أوجد على كرتنا الأرضية تلك الحياة المستمرة الرقى ، سواء أكان ذلك فى حياة الإنسان أم فى حياة الحيوان ، كان عمل انتقال من عالم يجهل الأخلاق إلى دنيا ذات قيم باطنة تسمو على المادة أى إلى دنيا تشعر لأول مرة بمثل تلك القيم ، ولأول مرة تحس بالأخلاق وتسعى للوصول إليها . وجذا العمل العظيم وصل الإنسان إلى الكشف عن عملكة جديدة لم يرد مجاهلها بعد . على أن الكشف عنها فى حد ذاته كان أصعب على عنها فى حد ذاته كان أصعب

منالا بالنسبة إلى ارتباد مجاهلها المقبل ، ويعد هذا الكشف حادثا قريب العهد ، أما ارتباد تلك المملكة فإن الإنسان لا يزال فى بدايته . فهو إذن منهاج لم يتم قطع مراحله بعد ويجب أن تستمر فيه على يدكل جيل مقبل .

وعلى ذلك فإن ما نحتاج إليه نحن أبناء الجيل الحاضر أكثر من أى شىء آخر هو الثقة في الإنسان ، وإني أعتقد أن قصة نهوضه تعتبر قاعدة لا مثيل لها للثقة التامة به. ويعد الكشف عن الأخلاق أسمى عمل تم على يد الإنسان من بين كل الفتوح التي جعلت نهوضه في حيز الإمكان . وقد انبثق عصر فجر الضمير والاخلاق على العالم دون أن يزج به من العالم الخارجي عن طريق منهاج خني يسمى الإلهام أو الوحى ، بل كان منشؤه حياة الإنسان نفسه ، ويرجع ذلك الانبثاق إلى مدة ألني سنة قبل بداية عصر وحى رجال اللاهوت ، فأضاء ظلمة الحيرة الاجتماعية ، والكفاح الباطني في نفس الإنسان ، فكان بذلك دليلا قاطعا على قيمة الإنسان . ومهما قبل إن نورا سماويا ساقته القدرة الإلهية على فلسطين خاصة فإن ذلك لم يحرم الإنسان من التحلي بتاج فار حياته الذي ناله على الأرض ، وأعنى بذلك التاج كشفه للأخلاق ، فإنه يعد على ما نعلم أعظم كشف حدث في مجال حياة التطور البشرى .

وقد حددت الآن مكانة العبرانيين في هذا التطور من الوجهة التاريخية وسيحاول المؤلف في هذا الكتاب أن يجعل تلك المكانة أكثر وضوحا وجلاء.

ولهذه المناسبة يهم المؤلف أن يسترعى الانظار إلى أمر واقع وهو اهتهامه طولحياته بالدراسات العبرية. فقد درس اللغة العبرية سنين عدة لفصول جامعية ويوجد الآن من بين تلاميذه كثيرون بمن أصبحوا ربانيين (حاخامات) وله من يهود الجيل الحاضر أصدقاء كثيرون من ذوى المكانة العالمية في المجتمع من يهود الحيل الحاضر أحدقاء كثيرون من ذوى المكانة العالمية في المجتمع لقد اعتمدنا في تدوين الآراء الخاصة بمكانة الحضارة العبرانية في التاريخ على استنباطات سليمة استنبطت من الوثائق القديمة ولذلك نرى من الحكمة أن نشير هنا ، وبخاصة في عصر لايزال يوجد فيه بكل أسف شيء من التعصب ضد الجنس السامي ، إلى أن هذا الكتاب قد ألف بروح خالية من كل شعور مضاد

الساميين ، بل على العكس من ذلك قد كان إعجاب المؤلف بالأدب اليهودى الذى أخذ فى دراسته منذ صغره عاملا مؤثراً فى نفسه لدرجة أن حكمه عليه كان دائمًا تحت تأثير عامل المحبة دون أى عامل آخر .

إن فى تاريخ الحضارة العبرانية القديمة دليلا ساطعا على تقدم الحياة البشرية وعلى رقى الإنسان نحو مرئيات جديدة من الأخلاق والمثل العليا الاجتماعية، وعلينا الآن أن نتعرف منهاج التطور البشرى فى مداه الواسع الذى يسمو على الفواصل الجنسية ـ ذلك المنهاج الذى احتل فيه اليهود مكانة وسطى ـ وأن ندرك الأهمية العظمى للحقيقة التاريخية الثابتة وهى أن الإنسان قد سما إلى تصور خلق عال قبل أن تظهر الامة العبرانية فى عالم الوجود بألنى سنة بى

جیس هنری برستر

جبل یورو همستد نیومکسیکو ۲۷ یونیه سنة ۱۹۳۳

مقترمة

أعتقد أن « ديدرو ، هو الذى حاول أن يوضح لابنته الأصول الفلسفية للأخلاق الفاضلة حينها كانت تنتقل فى مجال حياتها من مرحلة الطفولة إلى سن الشباب ، فلما أخفق فى كشف مثل هذه الأسس وجد نفسه فى ورطة محيرة . ومع ذلك فإن « ديدرو » فى ممارسته لشتون الحياة الواقعية لم يتنح عن اعتقاده الجرى " فى قيمة السلوك الفاضل .

فني عصر كالذى نعيش فيه — وهو العصر الذى نجد فيه خلقا كثيرا لا ينكرون عقيدة و ديدرو «كل الإنكار وإنما يتمسكون بمقاييسهم الشخصية للفضيلة — يشعر الإنسان بحاجته إلى وسيلة تمكنه من النظر إلى الوراء في الأجيال الغابرة من حياة البشر ، ليتدبر بعين بصيرته بعض الاسس التاريخية التي بنيت عليها آراؤنا في السلوك الفاضل .

ولقد مرت على الإنسان فترة من الزمن كان لا يحس فيها مطلقا بعنصر السلوك، وذلك حينها كان كل ما يأتيه من الأعمال يأتى عن طريق الغريزة . لذلك يعد شعوره لأول مرة بالسلوك أو الأخلاق تقدما هاتلا في حياة البشر، وقد صار هذا التقدم أعظم خطرا عندما سما الإنسان إلى درجة أدرك فيها أن من السلوك ما يستحسن وما يستهجن . فكان ظهور هذا الإدراك خطوة نحو انبثاق الضمير . فلما أخذ الضمير في النمو أصبح في النهاية قوة اجتماعية عظيمة وصار له بدوره أثر في ذلك المجتمع الذي أخرجه من قبل إلى عالم الوجود .

فنى حياة الصياد فى عصر ما قبل التاريخ الذى كان يكافح بين ذوات الثدى المتوحشة الهائلة التى كانت تحيط به ، بدأ يسمع همشا من عالم جديد كان ينبثق فجره فى باطنه ، وكان هذا الهمس بمثابة بوق جديد يختلف عن همس ألم الجوع أو الخوف الذى يشعر به الإنسان للمحافظة على كيانه ، إذ لم يكن يقتصر هذا البوق على تحريك إحساس واحد فحسب تاركا كل المشاعر

الآخرى هادئة مطمئنة ، بل حرك لأول مرة كل العوامل النفسية معا . فما هو المنبع الذى خرجت منه كل هذه الأصوات الباطنة ، وكيف اكتسبت تلك القوة الآمرة فى حياة الإنسان الفردية ، وكيف أنها نهضت حتى أصبحت قوة راسخة مسيطرة فى المجتمع الإنسانى ؟ لاشك أن ذلك كان تقدما عظيا وتغييرا أساسيا . ونحن نكرر هنا أن كل هذا التقدم كان رحلة اجتماعية تقع مراحلها الآخيرة فى متناول مدى والمحظائنا ، لأنها حدثت فى العصر التاريخي أى فى العصر الذى ظهرت فيه الوثائق المدونة . وقدساعدنا حل رموز اللغات الشرقية القديمة على قراءة ماوصل إلينا من السجلات المكتوبة فكشفت لنا عن فجر الضمير وعن الأطوار التي صاربها قوة اجتماعية وتمخضت لنا عن عصر الأخلاق ، ذلك العصر الذى ما زلنا نقف عند أول مرفأة فيه . والأرجح في نهايته أن يبني تلك الحياة الراقية التي بدأ يبرز منها عصر الأخلاق . ولم يبلغ هذا الانتقال البطيء ذروته إلا بالأمس وإن كان الإنسان في يومنا لا يشعر حتى الآن بأنه دخل حديثا جدا في مملكة جديدة لم يتعلم حتى الآن كيفية الاستيلاء علها .

على أن إخفاق الإنسان في إدراك أنه يتجول في مملكة مجهولة له لم يدخلها إلا حديثا، يرجع بعض الشيء إلى مؤرخيه ، فإنهم يعلمونه أن التاريخ البشرى ينقسم إلى عصور عظيمة مثل عهد الملكية وعهد الإمبراطوريات وعهد الديموقر اطيات الخون التقسيم على هذا النمط مفيد مهذب للأذهان غير أنه مع ذلك لا يتعمق بعيدا في طبيعة حياة الإنسان السائرة نحو الرقى . ويوجد طراز آخر من المؤرخين يعترفون بأهمية وعصر الآلات وما يتبعه من الانقلاب الصناعي ، في حين أن المهندسين المتحمسين ينشدون للحكم (الآلي) الميكانيكي يلخصون وقي الإنسان بتعبيرات كلها تتعلق باستخدام القوة . ومن جهة أخرى يجد علماء الآثار أنه من السهل عليهم أن يقسموا تاريخ حياة الإنسان إلى عصور عدة : العصر الحجرى وعصر استعمال الشبه (البرنز) وعصر استعمال الشبه (البرنز) وعصر استعمال الحديد .

فى حين أن مؤرخ علم الأحافير النباتية والحيوانية Palaentologist أن يعدد سلسلة عظيمة تشمل الأطوار المتتالية لحياة الحيوان الناهضة، ويقص علينا أننا نقترب الآن من ختام عصر ذوات اللدى . ومع أن هذه التقسيات ملائمة أو ضرورية فإنها من غير شك لاتزال من بعض الوجوه سطحية . بل إن الاصطلاحين وعصر الديموقراطية ، و وعصر الميكانيكا ، على حسمما لايدلان إلا على القليل من التحرر الفكرى الذى كان سببا فى وجودهما . أما التقسيات التي تكون أكثر فائدة وأعظم أهمية وتدل فى آن واحد على أطوار التقدم الإنساني فهى التي تكون على نحو و عصر الصمير والأخلاق ، (الذى بدأ منذ نحو خمسة آلافسنة) ، وعصر العلوم الذى جاء به و جليليو ، منذ أكثر من ثلثائة سنة .

والواقع أن كتابة التاريخ حتى الآن لم تعط سوى القليل من العناية لهذه التطورات الإنسانية الأساسية .

لقد صار الإنسان أول صانع الأشياء بين مخلوقات الكونكله قبل حلول عصر الجليد، والأرجح أن ذلك كان منذ مليون سنة ، بل ربما قبل ذلك الأمد. وقد صار في نفس الوقت أول مخترع للأسلحة ، وعلى ذلك بتى نحو مليون سنة يحسن هذه الآلات ، ولكنه من جهة أخرى لم يمض عليه إلا أقل من خمسة آلاف سنة منذ أن بدأ يشعر بقوة الضمير إلى درجة جعلته قوة اجتماعية فعاله . أى أن القوة الجسمانية تشد أزرها قوة العلم السامية مدة الثلاثة القرون الأخيرة بقيت تعمل في صنع الآلات الحربية الدقيقة الصنع فيزداد تحسنها باستمرار ، والى مليون سنة ؛ في حين أن قوة الإنسان الباطنة التى تفوق تلك القوة المادية في رفعتها وأعنى بها القوة التى نهضت من التجارب الاجتماعية ، لم تعمل في المجتمع إلا منذ حوالي خمسة آلاف سنة فقط . فلا شك إذن في أن عصر السلاح يبلغ عمره مليون سنة مع أن عصر الاخلاق قد شق طريق بدايته البطيئة تدريجا منذ نحو أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة . وقد حان الوقت البليئة ، المناه على العالم الحديث أن يدرك شيئا من أهمية هذه الحقيقة البالغة ، الذي يجب فيه على العالم الحديث أن يدرك شيئا من أهمية هذه الحقيقة البالغة ، الم يجب أن تصبح دراسة ذلك جزءا من التربية الحديثة ، لذلك كان الغرض بل يجب أن تصبح دراسة ذلك جزءا من التربية الحديثة ، لذلك كان الغرض بل يجب أن تصبح دراسة ذلك جزءا من التربية الحديثة ، لذلك كان الغرض

من هذا الكتاب هو إبراز الحقائق التاريخية، واستعراض المصادر القديمة الهامة التي استقيت منها أمام القارئ فيظهر لنا بذلك أننا مازلنا واقفين في غبش فجر عصر الأخلاق . لابأس أن يكون ذلك قاعدة لأحلام ضحى لايزال في الواقع بعيدا جدا عنا ولكنه لا محالة آت وراء ذلك الفجر .

وبعد الفراغ من وضع هذا المؤلف فطنت إلى ملاحظة و إمرسون » فى مقاله السياسى تلك الملاحظة المتنبئة التى وضعتها على صفحة عنوانهذا الكتاب، وهى ملاحظة غابت عن ذاكرتى منذ عدة سنين مضت . ولقد أصاب وإمرسون » وهى ملاحظة غابت عن ذاكرتى منذ عدة سنين مضت . ولقد أصاب وإمرسون » (قس مقاطعة نيو إنجلند)كبد الحقيقة بما أو تيه من قوة التصور الإلهامية بهذه الكلمة التى قالها والتى تعد أبرز حقيقة فى مدى الحياة العصرية قاطبة . وذلك أنه فى عصر و إمرسون » كانت تلك الحقيقة التى فاه بها لا يمكن أن يدلل على صحتها بأكثر من كونها مجرد اعتقاد أو إحساس شخصى ولكن منذ أن تو ارى ذلك الحكيم كشفت لنا بحوث تاريخ الشرق القديم أنها حقيقة تاريخية . ولذلك كان الغرض من هذا الكتاب أن يجعل فى متناول القارئ المتوسط الاطلاع الأدلة التاريخية التى كانت أساسا لمعرفتنا الجديدة لهمذه الحقيقة العظمة الشأن .

إيضاح

عن ترجة النبذ المقتبسة في هذا الكتاب

لقدكان هم المؤلف أن يضع فى هذا المجلد الترجمة الإنجليزية لكل المصادر الهامة التى أخذ عنها ، أو ترجمة النبذ التى وجدت ضرورية لتدعيم التدرج التاريخي اللازم . على أن القارئ لم يثقل كاهله فى معظم الكتاب بذكر أسماء المصادر . وفيها يختص بمتون الأهرام العظيمة فإن القارئ الذي يريد أن يرجع إلى تحقيق مصادرها فإنه يجدها فى «محاضرات مورس ، المطبوعة للمؤلف . وقد أخذ عنها المؤلف بكثرة دون أن يضع علامات اقتباس . ويجب على القارئ أن يلاحظ فى الترجمة الإنجليزية ما يأتى: —

الكالمات التي وضعت بين نصني قوسين [هكذا] تدل على أن معناها ليس محققا في الأصل .

الكلمات التى وضعت بين قوسين تعتبر تصحيحا مفروضا فيه ، إما أنه قد كان موجودا فى الأصل ثم فقد الآن ، وإما أن يكون هو المعنى الذى يفهم من الأصل بالتغلب .

الـكلمات التى توضع بين شرطتين هى تفسيرات من عند المؤلف ولا وجود لها فى الأصل.

الفضِّ للأولّ

الأساس والماضي الجديد

تطالعنا الصدف أحيانا فى بعض بقاع أوربا بوجود أثرين متجاورين مبحورة تدعو إلى الغرابة — أحدهما ينتسب إلى أقدم عصور متوحشى ما قبل التاريخ ، والثانى ينتسب إلى ما يسمى المدنية الحديثة ، وكلا الأثرين يمثل تاريخ الجنس البشرى فى عصره . فأولها يمثل التاريخ القديم وثانيهما يتحدث عن التاريخ الجديد أى أقدم عصر وأحدث عصر يمكن اقتفاؤهما فى مجال حياة بنى البشر . فني شمال فرنسا وعلى أديم تلك التلال المشرفة على «نهر السوم» والتي كانت مسرحا لكثير من المواقع الحربية ، انغرست الألوف من شظايا قذائف الفو لاذ على عمق كبير فى المنحدرات والمستويات التى مهدها النهر لنفسه منذ أزمان خلت . واليوم بعد أن سكت المدافع الضخمة التى كانت ترمى تلك القذائف ، يستطيع المرء بعد أن يعمل بفأسه بضع دقائق فى حافة ترمى تلك القذائف ، يستطيع المرء بعد أن يعمل بفأسه بضع دقائق فى حافة ما خلفه الإنسان من الأسلحة تجاور نثارا من شظايا مسننة ، لقذائف الفولاذ المفرقعة ، فبالآلة الأولى كان يستطيع أول أجدادنا المتوحشين أن يهشم ما خلفه أيودى بحياته . وبالمهلكات الثانية اعتاد نسله المتحضر أن ينسف عدوه و عرقه إربا .

وفيها بين الجارتين (البرت والشظايا) يقع تاريخ حياة بنى الإنسان وهو قصة لايقل عمرها عن عدة مثات من آلاف السنين، بل ربما بلغ مليون سنة. وقد كان المجهود البشرى خلال هذه السنين يسير بالإنسان من طور إلى طور حتى انتقل من الطرق الفطرية للهلاك إلى تلك الطرق البالغة حد التفنن في السحق والتدمير.

إن تاريخ حياة الإنسان هو في الغالب قصة التغلب على القوى المادية بتدابير منوعة لاحصر لها من الآلات والعدد ، ولكن لاننسي بجانب ذلك النتائج الصناعية والاجتماعية والسياسية والفنية والعقلية التي نجمت عن اختراعها ، فأسطوانة الآلة البخارية أو آلة الغاذولين هي رمن العصر الحاضر كما أن و البرت ، المصنوعة من الحجر هي العلامة الدالة على حياة العصر الحجري الذي يرجع عهده إلى ألف ألف سنة على الأرجح (١) على أن العثور على تاريخ الماضي بهذا المعني الواسع يحتاج إلى بحاثة من طراز جديد ، بحاثة عالمي يجمع إلمامة بين علم الإنسان وعلم الآثار وعلم الأجناس وعلم الديانة المقارن ، ويكون مع ذلك متضلعا في الفن والأدب متفقها في كل من اللغات القديمة من أوربية وشرقية .

وعلى الرغم مما يقتضيه تكوين عالم من هذا الطراز من جهود مضنية وسنين كثيرة فى الدرس والتعليم فإنه يوجد الآن بعض علماء من هذا النوع يقومون بهذه البحوث فعلا فتطلع علينا جهودهم المخلصة بقصة ذلك المنهاج الطويل العمر الذى أفضى فى النهاية إلى حلول مداخن المعامل الحديثة ، وكل مانتج عنها من أمراض اجتهاعية واقتصادية ، محل تلك الآحراج الفطرية التى كان يجول فيها صياد العصر الحجرى . ومع ذلك فإن المجهود الجدى فى البحث عن تاريخ ماضى الإنسان لم يمكد يتعدى مراحله الأولى ، فإنه لم يمض قرن على عثور الإنسان لم يمكد يتعدى مراحله الأولى ، فإنه لم يمض قرن على عثور

⁽۱) وبعد عشر سنين من كتابة العبارة السابقة عثرت على ملاحظة «برجسون» القديمة الصائبة: «إذا أمكننا أن نحلص أنفسنا من كل كبرياء وإذ كنا — لأجل أن نعرف نوعنا — نتمسك بشدة بما يقدمه لنا التاريخ وما قبل التاريخ من خاصية ثابتة للرجل الفاضل فمن المحتمل أننا لن نقول Homosapiens ولكن نقول H. Bergsin, L'evolution Credtrice, P (الرجل الصائع). راجع 151 Paris, 1921. وهارى لويس برجسون هوفيلسوف فرنسى من أصل يهودى ولد سنة ١٨٥٩ م.

«بوشيه دى برت » (۱) Boucher des perthes الذى يعد طليعة الباحثين في علم آثار ماقبل التاريخ — في حصباء نهر «السوم » على « البرت » الذى يرجع تاريخها إلى أقدم إنسان أولى متوحش وبجانبها عظام بعض الحيو انات الهائلة من ذوات الثدى التي انقرضت منذ زمن سحيق ، فأعلن « دى برت » إذ ذاك أنها معاصرة لتلك البرت المصنوعة من الظران . ومنذ جيلين تقريبا زار العلماء الإنجليز « هكسلى » (۲) (Huxley) و « برستويتش » (Prestwich) و والسير شارلس ليل (۲) (Sir Charles Lyell) و غيرهم وادى « السوم » و تأكدوا من الحقائق التي لاحظها « بوشيه دى برت » وكانت نتيجة هذه الزيارة أن نشر « ليل » الحقائق التي لاحظها « بوشيه دى برت » وكانت نتيجة هذه الزيارة أن نشر « ليل » باساقفة الإنجليز على أثر الاعتراف بعظم قدم عمر الهزيمة التي ألحقها « هكسلى » بأساقفة الإنجليز على أثر الاعتراف بعظم قدم عمر الإنسان ، لأن بعضنا قد قرأ المناقشة في أيامنا الأولى في المجلات السائرة .

ومن الأشياء الحديثة كذلك إماطة اللثام عن التاريخ الشرق لعدة آلاف السنين الخوالى مما لم يكن معروفا من قبل عن الشرق القديم.

فلا يزال كتاب التاريخ القديم الذي ألفه ران (1) Rollin Ancient History فلا يزال كتاب التاريخ القديم الذي ألفه ران (1) معروضا للبيع في المكتبات مترجما إلى الإنجليزية مع أنه لم يكن بين يدى مؤلفه

⁽١) «بوشيه دى برث» (١٧٨٦ –١٧٨٦) باحث عظيم فى علم الإنسان وكاتب مشهور وله أشعار وأسفار فى السياحة وكتب فى علم الإنسان ، وأهم مؤلفاته كتابه : فى الخليقة De la creation راجع كتاب المعرب مصر القديمة ص ٣ جزء ١ .

⁽ ٢) توماس هنرى هكسلى ولد فى ايلنج Ealing من أعمال إنجلتره عام ١٨٢٥ وقد دافع عن نظرية داروين عن أصل الحليقة ،وقد كان أشهر المحاضرين فى انجلترة فى العاوم وقد مات عن سبعين عام .

⁽٣) « السير شارلس ليل » من أكبر علماء طبقات الأرض . ولد في إيقوسيا سنة ١٧٩٧ وهو الذي أظهر أن الأسباب التي جعلت الدنيا التي نعيش فيها على ماهي عليه لاتزال سائرة في عملها هذا أمام أعيننا .

⁽ ٤) هو « شارلس رلن » المؤرخ الفرنسي ١٦٦١ — ١٧٢١ م .

كثير من المصادر فوق تاريخ ، هر دوت ، والتوراة ، وفى حداثة سنى كان هذا الكتاب لا يزال يقرأ بكثرة . ونسخة والدى من كتاب « ليرد ، (١) نينوه وبابل ، الكتاب لا يزال يقرأ بكثرة . ونسخة والدى من كتاب « ليرد ، (١) نينوه وبابل ، Leyard, Nineveh and Babylon التى أدهشنى منها فى طفولتى مارسم على غلافها من الثيران الرمزية المجنحة ذات الرأس الآدى _ أخذت مكانها فى مكتبته سنة ١٨٦٩ كما ينبيء بذلك التاريخ المكتوب على ورقة الغلاف ، على حين كانت صفحة عنو ان الكتاب تحمل تاريخ سنة ١٨٥٩ م .

وكان حارموز الخط المسمارى للبابلية والآشورية قد تم قبل ذلك التاريخ ببضع سنين فقط . أما أول نقش مصرى فقد حل عام ١٨٢٢ أى قبل حل الخط المسمارى بنحو ربع قرن . والحقيقة أن معر فتنا بهذه اللغات ونظم كنابتها لا تزال بعيدة عن حد السكال وإن كانت تسير في سبيل التقدم المطردكما ببرهن على ذلك حل رموز الحط المسمارى الحيثي حديثا ، والتقدم المحسوس كذلك في فك هيروغليني الحيثيين . وبذلك أصبح فحص الوثائق القديمة الكثيرة العدد والتي بدأ العالم يفهمها بسهولة ، والحفائر التي أحيت فصو لا بأكلها من حياة الإنسان مصدرين يكشفان الآن بوضوح متزايد عن رواية تمثيلية خطيرة في تاريخ التقدم البشرى . وهكذا قد أزيح الستار في أيامنا تقريبا وبسرعة مدهشة تنيسر لنا النظر إلى الوراء في أعماق ماض متغلغل في القدم لم يتسن للفكر ولا للتعليم حتى الآن أن ينسجم معه . ولندع الآن أبصارنا تسبح في هذا المدى الرهيب من التقدم البشرى الذي كشف لنا عنه البحث في إنسان ما قبل التاريخ وفي مدنيات الشرق التي كنا قد فقدناها .

ويكادكل امرى يعرف قدرتنا الآن على تعقب الخطوات التى خطاها أقدم إنسان فى أوربا إلى الامام خلال آلاف من السنين قضاها فى نضال مع دنيا المادة فالغطاء الجليدى القطبى الذى انحدر أربع مرات على الجانب الشمالى للبحر الابيض المتوسط فأجلى متوحشى أوربا أهل العصر الحجرى القديم إلى الجنوب، ثم تقهقر بعد ذلك ببطء نحو الشمال ثانية وهكذا فى كل من الدفعات

⁽١) « السير هنرى أوستن ليرد »مستشرق وأثرى إنجليرى ولدعام ١٨١٧ ميلادية .

الأربع جعل هذه الظاهرة فى نظرنا بمثابة ساعة جيولوجية هائلة يدل تذبذب (رقاصها) الضخم أربع مرات متتالية منتظمة على مرور فترة عظيمة من الزمن ظهر فيها ذلك التحسن المتدرج فى أسلحة الإنسان الحجرية وآلاته وتقدمه البطىء فى قطع الطريق الطويل من الوحشية إلى المدنية .

على أن الحيال يقف حائرا أمام هذه الكشوف التى تنبثنا عن المعركة الطويلة الأمد التى خاض غمارها جدنا المتوحش ، وذلك حينها نرى فى تغلبه البطىء على القوى التى تحيط به مشهدا دنيويا يملؤنا بنفس العاطفة الدنيوية التى نشعر بها أمام حدوث ظاهرة عظيمة من ظواهر الطبيعة .

وإذا فرضنا أن كثيرا من المتعلمين في عصرنا يعرفون الحقائق البارزة الآنقة الذكر فإنه من غير المعلوم لدى الجميع أن كشوف السنين القلائل الأخيرة قد أماطت اللئام عن تفاصيل حياة العصر الحجرى التي وجدت حول جميع البحر الأبيض وانتشرت على شواطئه كما انتشرت حكومة الدولة الرومانية حوله بعد ذلك بآلاف من السنين ، فكانت على ذلك تشمل شمال أفريقيا وغرب آسيا(۱) .

وعلى ذلك كانت هناك و دنيا شرق أدنى و شاسعة لإنسان العصر الحجرى القديم و تشمل شمال أفريقية وغرب آسيا مكونة بذلك مسرحا شاسعا تمتد جبمته من البحر الأسود شمالا مخترقة سوريا وفلسطين إلى الشلالات النائية في أعالى النيل جنوبا و أما الجزء الخلني لهذا المسرح فتحده الجبال الفارسية وهذه الصورة عميقة في القدم عمقها في المساحة ولا لا يقل عمرها عن مئات الآلاف من السنين وقد يصل إلى ألف ألف سنة و منذ بدأ الغطاء الجليدي القطي يزحف جنوبا على أوربا وكان الناس قد بدأوا فعلا يحيشون عيشة الصيد على مسرح الشرق الأدنى هذا وإذا جاز لنا أن نحكم من شكل عيشة الصيد على مسرح الشرق الأدنى هذا وإذا جاز لنا أن نحكم من شكل

إنسان ما قبل التاريخ الذي كان يعيش في شرق آسيا قريبا من « بكين » الحالية ؛

⁽١) ولاشك الآن فى أن مدى إنسان العصر الحجرى القديم (البالبوليتى) قد امتدكذلك إلى مسافة بعيدة نحو الشرق إلى آسيا القصوى .

فإن مخ صيادنا الغربى كان أقل حجما بمقدار الثلث من مخ سلفه الذى عاش في العصر التاريخي في نفس الإقليم . وقد ترك أسلحته الحجرية منتشرة على سطح الأرض في الشمال الشرقي من إفريقية ، وعلى تلال آسيا المجاورة ووراء جيال فارس .

وحرى بفترات الزمن التي تضمها هذه العهود أن تقاس بمراحل جيولوجية لا بالسنين . فأولى مراحل هذه العصور الجيولوجية كان عصر تكوين أودية الأنهر العظمي للإقليم. ولا شك أن أناس الشرق الذين عاشوا في عصرما قبل التاريخ كانوا بطبيعة ألحال يجهلون أنهم يرقبون تكوين وادى النيل ووادى الدَجَلَةُ والفراتُ في وقت كانت فيه دلتُ النيل الحالية لا تزال خليجا للبحر الأبيض المتوسط ، كما كان الخليج الفارسي يمتد شمالًا فوق ما هو معروف الآن بسهل « بابلون » إلى خط عرض الركن الشمالي الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. أما ثانى تلك المراحل الزمنية فقد تحدد لنا الآن (وقد كان يسير جنباً لجنب مع تقدم حياة الإنسان) ونعني به عصر د نضو ب الماء ، ذلك النضوب الذي كَان ينتشر تدريجاً . فالصحارى المعروفة لنا تمــام المعرفة في هــذه الاقطار لم تكن قد ظهرت بعد ، إذ كان كل شمال أفريقيا إقليما ذا أمطار غزيرة ونباتات وفيرة مكونا ميدان صيد أنموذجي . وقد عثرت على ثلاثة قوارب نيلية لصيادى الهضبة محفورة على الصخور الواقعة فى مجاهل صحراء النوبة فيما وراء ﴿ أَبِّو سَنْبُلَ ﴾ . وقد كشف حديثاً الدكتور ﴿ سَنْدَفُورِدٍ ۗ مَدَّيْرُ مُسَاحَةً . المعهد الشرق أسلحة الظران التي كان يستعملها هؤلاء الصيادون مبعثرة في أقاصي الصحراء الجنوبية على مسافة ألف ميل أو أكثر من النيل. ولا تزال هذه الآلات والأسلحة الحجرية الملقاة حيث فقدها أصحابها منذمئات الآلاف . من السنين شاهداً صامتاً على المجال الفسيح الذي كان يرتع فيه الصيادون والحيوانات التي كانوا يقتفون أثرها في وقت كان فيه جميع شمال أفريقية بمرعا خصب الجناب. ولا يغرب عن ذهننا أن الأماكن التي توجد فيها تلك الأدلة. الصامتة عن حياة الإنسان الغابر، هي الآن مناطق منعزلة قاحلة موحشة لا يجسر أى صياد حديث أن يدلف إليها في الصحراء لأنه لا يأمل أن يعود على قيد الحياة بعد أن يخترق تلك المجاهل المـــاحلة .

وقد كان منتصف زمن العصر الحجرى القديم مبدأ انحسار المامر، وفي أثره حل الجفاف العظيم الذي حول هضبة شمالي أفريقية الخصبة إلى تلك البيداء الشاسعة التي نسميها الآن و الصحراء العظمى « (۱) و ولقد كانت العوامل الجيولوجية في ذلك الوقت آخذة منذ زمن بعيد تعد موطناً جديداً أكثر ملاءمة وأحسن موقعاً لصيادي العصر الحجرى في الركن الشمالي الشرقي من أفريقية فهناكانت أفريقية الحارة تمتد عبر الصحراء إلى الركن الجنوبي الشرقي من البحر المتوسط وهو بمر خصب منبطح زاخر بالاعشاب النضرة وبحيوان أفريقيا الداخلية بما أعطى صيادي العصر الحجرى مأوى لا تنفد مو ارده في موقع لا مثيل له من الأمن والحماية من الدخلاء المغيرين .

ولا بدأن حيوانات أفريقية الشمالية الشرقية بعد أن طردها من الهضبة تناقص الطعام المستمر عند ما أصبحت النباتات قليلة جدا لا تكنى دفع غائلة الجوع وحفظ الحياة قد لجأت إلى شواطئ النهر العظيم عند الجزء السفلى من وادى النيل فجعلت منه مرتعا للصيد منقطع النظير . وجنة الحلد هذه الواقعة فى الجزء السفلى من وادى النيل والتى نسميها الآن مصر كانت تجذب إليها أحيانا منذ البداية صيادى العصر الحجرى الذين كانوا يسكنون هضبة شمال أفريقية ، ولكن لما اضطرهم الجفاف فى النهاية إلى اقتفاء حيوان الصيد فى هذا الاتجاه بدأوا يتخذون وادى النيل الضيق موطنا مختارا لهم . وقد أقام الجفاف فى النهاية حول جنة الصياد هذه حاجزا منيعا من الصحراء لا يمكن اختراقه من النهاية حول جنة الصياد هذه حاجزا منيعا من الصحراء لا يمكن اختراقه من

Prehistoric Survey إن الأبحاث التى قامت بها مساحة ما قبل التاريخ Oriental Institute of the university التى يديرها المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو Of Chicago حت إشراف الدكتور «كنث س . سندفورد » Of Chicago «كنث س . سندفورد » S. Sandford» بصفته المدير ، قد أظهرت أن جفاف شهالى أفريقية قد بدأ في العصر الموسترياني من الزمن الباليوليق (العهد الحجرى القديم) أى في منتصف العهد الحجرى القديم واستمر في العصر الحجرى الجديد (النيوليتي) ، انظر كتاب :

K. S. Sandford & j. Arkell; Paleolethic Man & the Nile Fairyum Divide, (University of Chicago Press, 1928.)

ثلاث جو انب من حدود مصر ـــ الشرق والغرب والجنوب ــ وحول وادى النيل الأسفل إلى معمل اجتماعي منعزل لا مثيل له في سائر بقاع العالم ، لأن النيل هو النهر الوخيد على كرتنا الأرضيَّة الذي ينبع من المناطق الحارة وينساب نحو الشمال مخترقا نحو ٧٠٠ ميل في • المنطقة الإقليمية ، التي ظهرت فيها أول النظم القومية العظيمة ، وهي المنطقة المعتدلة للدول القديمة بين خطى عرض ٤٥،٢٥ أشمالا ، وفيها نمت (١) كل العاهليات القديمة . هذا فضلاعن أن وادى النيل في عصور ما قبل التاريخ كان يتمتع بمزية فريدة إذ لم يكن معرضالشدائد عصر الجليد بل كان منفصلا عنها ومحتميًا منها بمياه البحر الابيض المتوسط الملطفة الواسعة الأرجاء ، على حين أن حياة صيادى العصر الحجرى الأوربي في شماله قد عاقها عن التقدم الرياح القطبية واندفاع الثاوج التي لا تقاوم . ولقدكان غربي آسيا على تمام النقيض من مصر تحوط دائرته الشمالية تلك الهضبة الجبلية الممتدة من البوسفور حتى بلاد إيران ، فكان معرضا بدرجة عظيمة لأخطار ذوبان الجليد المخربة وزمهرير برده القارس . وقد ترجع قصة الطوفان العام التي ورد ذكرها في ﴿ بابل ، ثم في التوراة إلى فيضان جليدي من هذا النوع . ولقد كانت هذه القوة الطبيعية المزعجة المغيرة من اار تفعات الشهالية الواقعة في غرب آسيا نذيرا لغارات بشرية متتابعة كانت كذلك تنزح من هذه المرتفعات وتغمر الإقليم فى دورات معلومة فتقلب النظام الاجتماعى والحكومى القائم. ولذلك كان التقدم البشرى فى الإقليم إذا خطا خطوته الأولى نحو النطور الاجتماعي لايلبث أن يعثر وتزل به قدمه فيرجع إلى سيرته الأولى فيحاول النهوض مرة أخرى ويعانى نفس العملية المرة بعد المرة. يمثل هذا تناوبت القوى المغيرة من طبيعية وإنسانية على وقف التطور الاجتماعي في بابل، وقد كان لزاما علينا أن نعتبر دوافع الغزو الاجنبي قوة مجددة لولا ماظهر لنامن ان تلك الفكرة قد غالى في تقديرها بعض المؤرخين. فالشجرة الضخمة تقف فى وجه الرياح بفضل قوة تلك الحلقات الصلبة التى تنمو فى جذعها

⁽١) انظر المقال المفيد الذي كتبه .

سنويا ، والتي ربما كانت تنمو فيها منذ قرون و تبقى متأصلة فى داخل تركيب جذعها العظيم . فالقوة فى مثل هذه الشجرة يمكن أن تتخد مثالا لتوضيح نمو النظام القومى الذى اكتسب زيادة قوته بالبناء المستمر ، ولكن الشجرة التي تعصف بها الريح مرارا وتزعزعها من الأرض أحيانا تبقى دائما قصيرة عارية . ولم يكن من باب الصدفة أن سقوط المدنية البابلية فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وغزوها على يد الدولة الكاسيلية بعد أن بلغت قوتها فى عهد أسرة الميلاد وغزوها على يد الدولة الكاسيلية بعد أن بلغت قوتها فى عهد أسرة «حمورابي ، أعقبه نضوب ثقافى استمر مدة ألف سنة أو يزيد .

وعلى العكس من ذلك نرى كما أسلفنا أن الجفاف الذى حدث فى شمال أفريقية قد جعل وادى النيل فى معزل وكون منه ذلك المعر الضيق المحمى المناع لامثيل له على سطح عالمنا ، وهو يمتد شمالا وجنوبا ، فأحد طرفيه فى المناطق الحارة ، والطرف الآخر يشرف على بحر داخلى عظيم فى المنطقة المعتدلة . وكان يتمتع بميزات طبيعية فريدة فى نوعها ، فقد كان منعزلا و محميا بشكل جعل التطور البشرى فيه سهلا ، ذلك التطور الذى رغم بعض المغزوات الأجنبية ظل مستمرا آلافا من السنين دون أى عائق جدى . وفى أيامنا هذه تتكشف التربة المصرية على حدود الصحراء عن قبور أقدم الجبانات المعروفة فى العالم كله ونجد فى هذه القبور خلف صيادى العصر الحجرى فى وادى النيل عندما كانوا فى بداية الانتقال إلى عصر المعادن وذلك قبل ٠٠٠٤ سنة ق ٠ م بزمن يذكر، ومن الجائزان يكون قبل هذا العهد بكثير ، وكانوا قد استأنسوا أهم الحيوانات المنزلية ، وانتقلوا إلى دور حياة الفلاح .

والدلائل تؤيد رأى من قال إن هؤلاء المصريين الذين عاشوا فى عصر ماقبل التاريخ المدفونين فى أقدم الجبانات — هم وأجدادهم كانوا أقدم مجتمع عظيم على الأرض استطاع أن يضمن لنفسه غذاء ثابتا باستئناس الموارد البرية من نبات وحيوان ، على حين أن تغلبهم على المعادن فيما بعد وتقدمهم فى اختراع أقدم نظام كتابى، قد جعل فى أيديهم السيطرة على طريق التقدم الطويل نحو الحضارة .

فيتضح مما تقدم أن وادى النيل المعشب الواقع شرقى أرض الصحراء لم يحذب إلى داخل جدرانه الصخرية المنكمشة صيادى ما قبل التاريخ المشتتين على ساحل أفريقيا الشمالى فحسب بلهياً لهم مجتمعين التسلط على كل الموارد اللازمة للتقدم الإنسانى فى أحوال حسنة جدا لدرجة جعلت الجماعات المحلية التى كانت تتألف منها البلاد تتوحد تدريجيا ، حتى أصبحت أول مجتمع عظيم مؤلف من عدة ملايين يحكمهم ملك واحدوفى أيديهم كل الاسس الرئيسية اللازمة للحضارة. فني القرون التى تقع بين ٥٠٠٠، ٥٠٠٠ ق.م قامت أول دولة متحضرة كبيرة في وقت كانت فيه أوروبا ومعظم غربى آسيا لاتزال مسكونة بجماعات مشتة من صيادى العصر الحجرى.

والأرجح أن أول اندماج تألفت به أمة واحدة حدث في وقت لا يتجاوز سنة وقد كان من نتائجه أن بقيت البلاد متحدة مدة بضعة قرون أطلق أنا عليها الآن اسم « الاتحاد الأول » وكان من نتيجته تأسيس حكومة مكزية قوية تعد أقدم نظام إنساني معروف يضم عدة ملايين من الأنفس (١) مكزية قوية تعد أقدم نظام إنساني معروف يضم عدة ملايين من الأنفس (١) ولما تألف « الاتحاد الثاني » فيها بعد بدأ تطور قومي في شكل هائل في نظام الحكم ونواحي الاقتصاد والاجتماع والدين والعارة والفن والأدب أخذ يسير بخطي ثابتة مدة ألف سنة من القرن الخامس والثلاثين إلى القرن الخامس والعشرين ق.م، وهذا العصر البالغ ألف سنة هو مرحلة فريدة في حياة الإنسان على الأرض لأنه يوضح لنا أن أول فصل في تقدم الحياة البشرية إنما هو عملية اجتماعية ، تكشف لنا عن مبدأ ظهور العوامل الاجتماعية و تأثيرها في المجتمع الإنساني . ومن المهم أن نؤكدكلمة « فريدة » التي استعملناها في العبارة السابقة ، لأنه لم يكن في هذا العصر البعيد نمو مطرد متعاقب في أي بقعة أخرى من الوجهة بقاع العالم القديم . وإن مدة الألف السنة هذه هي التي وضعت مصر من الوجهة بقاع العالم القديم . وإن مدة الألف السنة هذه هي التي وضعت مصر من الوجهة بقاع العالم القديم . وإن مدة الألف السنة هذه هي التي وضعت مصر من الوجهة بقاع العالم القديم . وإن مدة الألف السنة هذه هي التي وضعت مصر من الوجهة بقاع العالم القديم . وإن مدة الألف السنة هذه هي التي وضعت مصر من الوجهة بقاع العالم القديم . وإن مدة الألف السنة هذه هي التي وضعت مصر من الوجهة المعديد علي المعرود المعرود المعرود المعرود المعرود الوجهة العالم العرود المعرود المعرود المعرود المعرود المعرود المعرود المعرود المعرود العرود العرود العرود المعرود العرود ا

⁽١) إن الآعاد الأول هو كشف حديث ولم يكن معروفا عند مانشأت طريقة تقسيم تاريخ مصر . إلى أسرات ملكية أما عهد الأسرات كا هو فبدايته مايسمي «الآعاد الثاني » .

الخلقية والثقافية في مرتبة تفوق بكثير ماكان في بابل حيث كانت الشحناء قائمة بين بعض المدن وبعضها الآخر . تلك المدن التي كانت تؤلف بمالك صغيرة . تناصل عن شئون محلية صئيلة واستغرق نضالها مدة الألف السنة السابقة بعينها ، بل بقي بعضها على هذا النحو بعد ذلك مدة طويلة . ولقد كان الاتجاه الرئيسي في معترك الحياة فيها قبل السنين الألف المذكورة التي تعد أساسية وهامة في التقدم الاجتماعي هو العمل على تقدم الإنسان في التغلب على عالم المادة ، وعلى ذلك يكون وادى النيل في نظرنا هو أول مسرح اجتماعي يمكننا أن نلاحظ فيه الإنسان خارجا منتصرا من كفاح طويل مع الطبيعة وداخلا مسرح العوامل الاجتماعية الجديدة ليبدأ كفاحه الشاق بينه وبين نفسه وهو كفاح لم يكد يتخطى بدايته حتى يومنا هذا .

وإنا معشر الأمريكيين على استعداد خاص لندرك ونقدر الانقلاب العجيب الذي جعل من الأرض القاحلة أرضا ذات مدن زاهرة .. فإن آباءنا الذين قامت مجهوداتهم بإنشا. مدن عظيمة ثرية على طول أراضينا الشاسعة ، إنما تسلموا الفن والعبارة والصناعات والتجارة والتقاليد الحكومية والاجتماعية بطريق الوراثة عن أجدادنا الأوربيين ، ولكن فى ذلك العصر السحيق المذى نحن بصدده بدأ الانتقال من الوحشية إلى المدنية بكل مظاهره الخارجية فى الفن والعبارة من لاشيء . وليست أهمية ظهور المدنية فى وادى النيل منحصرة فى بهاء مبانيها فحسب بل لأنه كان أيضا تطورا اجتماعيا مستمرا دون أي عائق أكثر من ألف سنة أشرق لأول مرة على كرتنا الارضية ، مقدما لنا أول برهان على من ألف سنة أشرق لأول مرة على كرتنا الارضية ، مقدما لنا أول برهان على أن الإنسان الذي هو أرقى المخلوقات الفقرية التي ظهرت على وجه البسيطة أمكنه أن يخرج من الوحشية إلى للمثل الاجتماعي الأعلى ويظهر الحياة الإنسانية . مظهر لم ير الكون كله على مانعلم أرقى منه .

وفى أيامنا يدخل السائح وأدى النيل وكأنه دخل أرض العجائب على أبوابها تلك الأهرام الضخمة التي طالما تخيل منظرها منذ نعومة أظفاره. وعندما يصعد فى الوادى مع النهر يرى فيها وراء الشواطىء التي تحفها النخيل أسوار معابد واسعة توصل إليها من الشاطىء طرق مزينة بتماثيل أبى الهول ويشرف عليها

مسلات ضخمة شاهقة الارتفاع وقاعات وعمد فخمة ولكن قلما يخطر ببالذلك السائح أنه فى أمريكا ووادى النيل سواء بسواء يسبق القفركل ما يرى من فن وعمارة. فحيث تقوم الآن هذه الآثار الحجرية العظيمة كانت تمتد يوما ماتلك الغابات الكثيقة التي كانت تمتد في أوديه النيل الضيقة ، وكانت خالية من السبل آلافا من السنين اللهم إلا مسالك الصيادين الضيقة التي كانت ترى ملتوية بين الأعشاب ومؤدية إلى حافة الماء . ولم يكن لسكان وادى النيل في عصر ما قبل التاريخ أجداد متحضرون يرثون منهم أى ثقافة ، ولا بد أن تجدأن في خبرة هؤلاء القوم التي كانت آخذه في التعمق وفي أفقهم الذي كان آخذا في الانساع ذلك السحر الذي حول هؤلاء الصيادين السذج ومساكنهم الصغيرة المصنوعة من الطين وأخصاص من الخوص إلى مجتمع عظيم يسيطر عليه رجال ذوو سلطان وخيال واسع وأصحاب آمال ضخمة ، أحرار لم تغل أيديهم التقاليد فعمرت تلك البقاع التي كانت يوما ، غابة ، ولم يكتفوا بنشر هذه الآثار فيها على طول النهر وعرضه بل أدركواكذلك المعنى السامى لقيم الأشياء الاجتماعية والأخلاق السعيدة عن الآنانية ، ممالم ينبثق فجره على العالم من قبل . وإن الذي يعرف قصة تحول صيادى عصر ماقبل التاريخ في غابات النيل إلى ملوك ورجال سياسة وعمارة ومهندسين وصناع وحكماء وأنبياء اجتماعيين فيجماعة منظمة عظيمة مشيدين تلك العجائب على ضفاف النيل في وقت كانت أوربا لا تزال تعيش في همجية العصر الحجرى ولم يكن فيها من يعلمها مدنية الماضي . من يعرف كل هذا يعرف قصة ظهور أول مدينة على وجه الكرة تحمل في ثناياها صورا خلقية ذات بال؟

فالمدنية فى أعلى معانيها قد ولدت إذا فى الركن الجنوبى الشرقى فى البحر 'الأبيض المتوسط . ومع ذلك قدكان هناك منذ البداية تقدم هام نحو المدنية فى غرب آسيا المجاورة وبخاصة فى بابل حيث ظهرت فى نهاية الأمر ثقافة ما تمتاز بتقدمها المطرد فى الشئون العملية والتجارية والقضائية ، وفى الوقت نفسه كان من عناصرها البارزة الاعتقاد بأن مصير الإنسان يمكن قراءته فى

النجوم حتى أن حذقها المدهش لدرس الأجرام السماوية وضع مقدمة أصبحت في يد الإغريق أساسا لعلم الفلك ، غير أن الحضارة البابلية كانت تسودها في جميع أدوارها روح الاقتصاد التجاري والكد في الحاجيات الآلية بما حرم التطور الاجتماعي البابلي حتى من الأسس الأولية للتدرج نحو مراعاة ألغير ، والعمل على نفعهم ، فكان الأساس الخلقي اللازم للعدالة بين الجميع معدوما كلية حتى أن دستور قوانين « حمورابي ، يقضي في العدالة حسّب المركز الاجتماعي للمدعى أو المذنب. أما الانعدام التام للفوارق الاجتماعية أمام القانون الذي هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية فلم يكن معروفا في بابل، وكان نتيجة ذلك أن المبادى الأخلاقية في بابل لم تساهم إلا بالنزر اليسير إن لم تكن لم تساهم بشيء مطلقاً في الإرث الأخلاقي الذي ورثه العالم الغربي . وقد أدى اندماج المدنيات القديمة في الشرق الادنى إلى نشوء ما يمكن تسميته الثقافة المصرية البابلية ، أو نواة ثقافة الشرق الأدنى ، وظلت أمم الغرب لاتكاد تحس حتى جيلنا الحاضر بالحقيقة البالغة الأهمية، وهي أن كلاً الحضارة المصرية والحضارة البابلية قد بلغت قتها ثم أخذت في التدهور قبل قيام الحضارة العبرانية . كلنا نعلم أن الثقافة المصرية البابلية قد دفعت الحضارة الأوربية نحو السير ، ولكن ليس من بين أهل العصر الحديث إلا القليلون ممن يعرفون تلك الحقيقة البالغة الخطورة في تاريخ الأخلاق والدين وهي أن كلا من الثقافة المصرية والبابلية قد غذت ودفعت الحضارة العبرانية إلى السير . ونجد فما بعد تيارا من المؤثرات الشرقية القديمة التي تعد المسيحية من أظهرها مستمرا في المسير نحو أوربا ، وانتهى به الأمر أن قلب الدولة الرومانية في القسطنطينية إلى حكومة استبدادية شرقية بتى أثرها ظاهرا إلى ما بعد الحروب الصليبية يزمن بعيد.

ومثل هذه التأملات تميط لنا اللثام فى الحال عن الوحدة العجيبة فى تاريخ حياة الإنسان ، فإن تاريخ الشرق الأدنى يقع وراء تاريخ أوربا ، كما أن تاريخ أوربا يقع وراء تاريخ أمريكا . وبالرجوع إلى الوراء بالشرق الأدنى القديم خلف الازمان التاريخية نصل إلى عصور تطور إنسان ما قبل التاريخ فيطول

بذلك مدى المراحل المكونة لحياة الإنسان المتصلة هكذا بأمريكا فأوربا فالشرق الأدنى فإنسان ما قبل التاريخ فالأزمان الجيولوجية . وهذا التقسيم الحديث جدا الذى هو من وضع أحدث المؤرخين يكشف لنا لأول مرة أن حياة الإنسان وحدة لا تتجزأ ظلت تتطور تطورا متعاقبا من «البُرت» (البلطة) الحجرية إلى شظايا قبلة سنة ١٩١٤، وكلاهما مدفونتان جنبا لجنب في ميدان قتال السوم . لذلك فإن بحثا شاملا للشرق الآدنى القسديم نقوم به بأعين مفتوحة وبأغراض أرقى من حذق الأرقام التاريخية التي كانت محببة منذ زمن طويل إلى قلوب زملا تنا المؤرخين القدامي ، تظهر لنا لأول مرة العصور التاريخية المعروفة في حياة الإنسان الأوربي كمنظر مرتكز إلى لوحة عظيمة تتناول مثات الآلاف من السنين . وفي هذا المنظر الضخم الذي لا يمكن تصوره البشرق ، تنكشف أمامنا صورة شاملة بهيجة كمجال حياة البشر في عصورها المتعاقبة عالم يستطع أن يتصور مثله أي جيل سبق ، هذا المبشر في عصورها المتعاقبة عالم يستطع أن يتصور مثله أي جيل سبق ، هذا المباضي الجديد » .

ومهما يكن من أمر العلوم والفلسفة فإن التاريخ والآخلاق وعلم اللاهوت لم يكن لها شأن يذكر في هذا البحث الضخم ، فني تاريخ علم الآخلاق يكشف لنا و الماضي الجديد ، فجأة تلك الحقيقة التي ظلت مجهولة منذ زمن بعيد ، وهي أن المدنية العبرانية بكل ما اشتملت عليه من و ثائق ذات تأثير عميق في المبادى الدينية والحلقية ، ليست إلا مرحلة من المراحل النهائية للرقى البشرى القديم ، ذلك الرقى الذي سبقته عصور تجريبية منتجة ومبدعة في الناحيتين الاجتماعية والحلقية على ضفاف النيل والفرات . ويجب علينا إذن أن نمهد أذهاننا إلى قبول الحقيقة القائلة بأن الأرث الحلق الذي ورثه المجتمع المتمدين الحديث يرجع أصله إلى زمن أقدم بكثير جدا من زمن استيطان العبرانيين فلسطين ، وإن ذلك الأرث قد وصل إلينا من عهد لم يكن فيه الأدب العبراني المدون في التوراة قد وجد بعد .

وفى خطبة وعظ ألقاها حديثا واعظ من أقدر الوعاظ الأمريكان ، أجد أن اللمحة الآتية تنطلع إلى وقت إذا تصفح فيه مؤرخو المستقبل أخبار عصرنا رحبوا به «كعصر خطير »، أشرقت فيه شمس العدالة بالشفاء من جناحيها^(۱). وهذه الاستعارة المتداولة مأخوذة بلا شك من الادب العبراني، ولكن كا سنرى قد استعارها العبرانيون من مصر حيث أشرقت «شمس العدالة » قبل أن تشرق على فلسطين بأكثر من ألني سنة . وإذا قدر لهذه الشمس أن تشرق ثانية على جيلنا الحالى فإنها ستكون القمة لنهج الرقى البشرى الذى ظل يرقى بحياة الإنسان منذ آلاف السنين قبل عصر « الأنبياء ، المعترف به من زمن بعيد عند رجال اللاهوت .

وسنرى الآن ماذا يكشف لنا « الماضى الجديد » كما أظهرته لنا أحدث البحوث الجديدة عما يختص بالخبرة الإنسانية القديمة التى وصلت بالإنسان لأول مرة إلى الشعور بأعلى القيم حتى انتهت مغامرته بانبثاق فجر الضمير وفتح عصر الآخلاق .

⁽۱) من خطبة دبنية ألقاها الدكتور «هنرى ساوان كفن » فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٣٧ كا اقتبست فى جريدة The New York Times الصادرة فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٧ ص ١٣٠ . على أن ما سبق ذكره لايقصد اعتبار الدكتور كفن واحدا من رجال اللاهوت التقليديين .

الفضالات

آلهة الطبيعة والمجتمع الإنسانى

إله الشمس

مما هو جدير بالاهتمام أن نلاحظ ما صار إليه الجنس البشرى في مصر التي كانت تعتبر « جزيرة المنحمين » في مدة خمسة آلاف سنة ، وأن نقتني — كاهو في مقدورنا الآن — آثاره وهو متطور خلال بضعة أجيالكان يستعمل فيها الآلات والأسلحة الحجرية العتيقة إلى استعمال الأزميل النحاسي وبلوغه تملك الدقة البنائية العجيبة التي تتجلي لنا في بناء الأهرام مع ضخامتها المدهشة ، وار تقائه من سكني الكوخ المصنوع من غصون الشجر إلى إقامة القصور الفاخرة الزاهية المجملة بالقيشاني والمؤثنة بالرياش الفاخر والذهب المرصع ، ثم بعد ذلك نأخذ في تفصيل تلك الحيوط الذهبية التي حيكت منها حياته المتعددة النواحي التي صارت في النهاية تؤلف نسيجاً متينا فحماً من المدنية . وأننا نحاول هنا اقتفاء أثر خيط واحد فقط من تلك الحيوط التي حيك منها هذا النسيج ، وذلك لأنه يتعرج هنا وهناك بالتواءاته الدقيقة المعقدة في كل جهاته.

والواقع أنه لا توجد قوة أثرت في حياة الإنسان القديم مثل قوة « الدين » ، لأن تاثيرها يشاهد واضحاً في كل نواحي نشاطه ، ولم يكن أثر هذه القوة في أقدم مراحلها الأولى إلا محاولة بسيطة ساذجة يتعرف بها الإنسان ماحوله في العالم ويخضعه بما فيه الآلهة لسيطرته ، فصار وازع الدين هو المسيطر الأول عليه في كل حين ، في يولده الدين من مخاوف هي شغله الشاغل، وما يوحي به من آمال هي ناصحه الدائم ، وما أوجده من أعياد هي تقويمه السنوى ، وشعائره من تمال هي ناصحه المربية له والدافعة له على تنميته الفنون والآداب والعلوم .

على أن الدين لم يمس حياته فى جميع نواحيها فحسب ، بل الواقع أن الحياة والفكر والدين امتزجت عنده بعضها ببعض امتزاجاً لا انفصام له يتكون منها كتلة واحدة تتداخل بعضها فى بعض مؤلفة من المؤثرات الخارجية والقوى الإنسانية الباطنة . ولذلك كان طبعياً ألا يقف الدين جامداً من غير أن يتمشى مع هذه العوامل الدائمة النطور من مرحلة إلى مرحلة . هكذا كان الحال منذ أقدم العصور التي وصل إليها علمنا ، وكل الأسباب تحملنا على الاعتقاد بأن الحال ستستمر كذلك : تطور وارتقاء ، وسنرى الآن شيئاً من هذا النطور الذى ظل فيه الكفاح قائماً بين العالم الظاهرى المحيط بالإنسان ، والعالم الباطني الكامن فى نفسه ، حتى تكوتن الدين وتحدد وأفضى بالتدريج فى نهاية الأمر إلى ظهور المبادئ الأخلاقية عند أقدم مجتمع بشرى عظيم فى خلال مدة تربو على ثلاثة المبادئ سنة .

وسيكون في قدر تنا تتبع سير هذا المنهاج بأظهر بيان إذا ابتدأ با باستعراض ملخص تاريخي بسيط يكون بمثابة نظرة عجلي على مراحل تطور الرق الآخلاق عند المصريين الأقدمين . وجدير بنا إذ وصلنا إلى هذا المكان ألا ننسي الحقيقة المتفق عليها الآن وهي : أن الدين في طوره الأولى لم تكن له علاقة بالأخلاق كا نفهمها الآن ، كما أن المبادي الأخلاقية الأولى لم تكن سوى عادات شعبية قد لا تكون لها علاقة بالشعور بالآلهة أو الدين . وقد كانت مظاهر الطبيعة أول ما أشعر المصرى بوجود الآلهة ، مثله في ذلك مثل الشعوب الأخرى القدامي . فكانت الاشجار والينابيع والأحجار ، وقم التلال ، والطيور والحيوانات في نظره مخلوقات مثله أو مخلوقات حلت فيها قوى طبعية غريبة لا سلطان له عليها . ومن ثم كانت الطبيعة أول مؤثر مبكر في عقل الإنسان فوصف له العالم الظاهري أو لا بعبارات دينية رهيبة ، وصارت مظاهر الإلهية الأولى في نظره هي القوى المسيطرة على العالم المادي ، فلم يكن في تصورات الإنسان القديم بادئ أمره معني لمملكة اجتماعية أو سياسية ، بل ولا معني لمملكة روحية تكون السيادة العليا فيها للاكهة . وكان أبعد ما يتوهمه عباد إله لمن هذه الآلهة أن إلههم يحمل في نفسه فكرة الحق أو الباطل ، أو أنه يرغب من هذه الآلهة أن إلههم يحمل في نفسه فكرة الحق أو الباطل ، أو أنه يرغب من هذه الآلهة أن إلههم يحمل في نفسه فكرة الحق أو الباطل ، أو أنه يرغب

فى وضع هذه المطالب على كاهل عباده الذين كانوا يرون من جانبهم أن غاية ما يطلبه إلههم منهم هو تقديمهم القرابين زلنى له كماكانوا يفعلون لرئيسهم المحلى سواء بسواء. على أن أمثال هذه الآلهة كانت فى جملتها آلهة محلية كل منها معروف لدى منطقة معينة فقط، ولكن كثيراً ماكان يمتد الاعتقاد فى إله ما إلى جهات بعيدة فى العالم القديم بسبب الهجرة أو انتشار السكان.

وفى العهد الذى جاء بعد سنة ٤ ق . م . بدأت الحكومة ، أى النظام السياسي الذى كانت البلاد تحكم به فى عهد الاتحادين المنعاقبين ، تحوز مكانة فى أذهان القوم بجانب ما حازته دنيا المظاهر الطبعية . وهذان الاتحادان اللذان يعدان أقدم ما عرف من الانظمة القومية العظيمة فى تاريخ الإنسان قد وضعا أمام أعين الناس صورا خلابة لمظاهر الحكومة ، فسكان لذلك على ممر الزمن أعمق أثر فى الدين ، ومن ثم بدأت المظاهر الحكومية تغنقل إلى عالم الإلهية حتى صار الإله العظيم يسمى فى بعض الاحيان ، ملسكا ، .

وفى الوقت نفسه كانت علاقات الحياة الاجتماعية تؤثر تأثيرها فى الدين من زمن بعيد أيضا . فوصلت دائرة حياة الآسرة إلى درجة سامية من الرقى تزينها العو اطف الرقيقة التي أوشكت على التعبير عن مظاهر الرضى أو السخط، وأفضت إلى تصورات عن السلوك الحميد والسلوك المعيب . وبذلك بدأت المشاعر الباطنية « للضمير ، تسمع صوتها للإنسان . ولاول مرة صار الإنسان يدرك القيم الأخلاقية كما نعر فها نحن الآن . وعلى ذلك أصبحت قوة الإنسان الظاهرة المنظمة ، وقوة الوازع الحلق الباطنة فيه ، تؤلفان قو تين مبكر تين فى تشكيل الديانة المصريون الأقدمون قبل أن يوجد الشعور به فى أى صقع آخر ، قد شعر به المصريون الأقدمون قبل أن يوجد الشعور به فى أى صقع آخر ، فإن أقدم بحث عرف عن « الحق والباطل » فى تاريخ الإنسان عثر عليه فى أن مسرحية « منفية ، تشيد بعظمة مدينة « منف » وسيادتها ، ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الرابع ق . م .

ويدل شكل هذه المسرحية بداهة على أنها بحث فى أصول العالم ما بين دينى وفلسنى، وهي من تأليف طائفة مفكرة من الكهنة فى المعابد المصرية، غير أن

موضوعها لم يتناول ماكانت عليه حياة الشعب المصرى بأسره فى ذلك الحين . وسنرى كذلك كيف أن عامة الشعب أخذت بدورها فيها بعد تشعر بالوازع الخلق الذى يصر فها فى حياتها . وعلى ذلك يكون الشعور الحلقى قد انحدر تدريجاً من طبقة أشراف رجال البلاط الملكى وطائفة كهنة المعابد إلى أشراف رجال الإقاليم أولا ثم إلى عامة أفراد الشعب ثانيا .

وقد ظهرت أقدم فكرة عن النظام الحلقى تجرى على قواعد راسخة فى عهد الاتحادالثانى تحتسيط قحكومية ثابتة ، وهذا النظام كان يعبرعنه فى اللغة المصرية القديمة بكلمة مصرية قديمة واحدة جامعة لها خطرها هى كلمة ، ماعت ، ويراد بها الحق أو العدالة أو الصدق . وقد مكث هذا النظام راسخا مدة ألف سنة من القرن الحامس والثلاثين إلى القرن الحامس والعشرين قم . وقد كان لهذا النظام الاثر العميق فى العقل البشرى ، فلما سقط هذا النظام فى نهاية ألف السنة المذكورة حلت بالحياة البشرية كارثة تشبه المكارثة التى حلت بالمدينة الحالدة فى أوربا(١٠) وغيرت نظر بنى البشر نحو الحياة ، إذ فى فترة الضعف السياسي التي جاءت عقب سقوط هذا النظام بدأت القيم الحلقية الباطنة التي لا يمكن محوها تدرك من جديد بعالة واضحة أكثر من ذى قبل . فني القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد كتب أحد ملوك ، أهناس ، (وهو مجهول الشخصية فيما عدا ذلك) لا بنه وخلفه أحد ملوك ، أهناس ، (وهو مجهول الشخصية فيما عدا ذلك) لا بنه وخلفه كتابا بذكر فيه ما للقيمة الخلقية من سمو المنزلة .

ولما أصبحت الأخلاق منبوذة أثر سقوط النظام الخلق القديم، وتدهورت الفضيلة نفسها دماعت، حتى صارت لا تدرك الا بشعور خلق أكثر حساسية عن ذى قبل، ظهر المجتمع الفاسد الأخلاق المنحل النظام الذى جاء بعد عصر الاهرام بشكل لاأمل فى إصلاحه فى نظر بعض فلاسفة الاجتماع الذين هالهم مارأوه من تداعى ذلك النظام الخلق القديم، ثم ظهر على أثر ذلك لأول مرة فى التاريخ عصر التشاؤم وزوال الوهم، فان رسل الاجتماع فى ذلك الوقت رسموا لنا صورة بشعة عما كان موجودا من الفساد والفوضى فى ذلك العهد،

⁽١) يقصد بالمدينة الحالدة : روما .

فأظهر وها بعبارات مملوءة بالتهديد والتوعد، وبالغوا في وصف ذلك أيما مبالغة، حتى انهم في إحدى الحالات وجهوا تلك التهديدات لشخصية الملك نفسه . غير أنه على الرغم من ذلك كان لايزال هناك نفر من بين هؤلاء الحكاء المصريين بمن لم يفقدوا الأمل في الإصلاح، فقاموا بأول جهاد مقدس لإنقاذ العدالة الاجتماعية . ومن المدهش حقا أن كان المثل الأعلى لحكاء الاجتماع هؤلاء آخذا شكل رسالة التبشير بقدوم المخلص التي جاءت فيما بعد، وهي الاعتقاد بمجيء حاكم عادل يكون فاتحة عصر ذهبي لإقامة العدالة بين جميع بني البشر، وقد ورث عنهم العبرانيون هذا الاعتقاد فيما بعد .

وفى العهد الذى عادت فيه الحكومة المنظمة للبلاد وتقدم المجتمع الاقليمى فى العهد الاقطاعى الذى ابتدأ قبل حلول عام ٢٠٠٠ ق.م. ظهر تأثير هذا الجهاد المقدس فى شكل المطالبة بالعدالة الاجتماعية ، وتمثل ذلك فى تصور نظام ملكى سمح أبوى رحيم يحمى المثل العليا للمساواة الاجتماعية . ولما كان عالم الآلهة لا يزال على اتصال وثيق بشئون الأمة السياسية ، فاما لم تلبث أن أحست بذا التأثير الجديد ، فانتقلت صفات العدالة الاجتماعية من وصفها للحكومة الملكية الفاضلة إلى صفات إله الدولة ، فازدادت بذلك المزايا الحلقية التي كانت تنسب إلى حد ما للإله طوال مدة تربو على ألف سنة ، فقد كان الإله فى نظر أتباعه من زمن بعيد يعتبر ، ملكا ، فأصبح الآن زيادة على ذلك ، ملكا فاضلا ، بالمعنى الاجتماعى ، يريد من أتباعه أيضا أن يعيشو اعيشة فاضلة .

واننا نجد الاعتقاد بوجود إله يهب الحياة للطيب ويقدر الموت للخبيث، واردا في والمسرحية المنفية، التي كتبت في منتصف الألف الرابع، قبل الميلاد، أما فكرة المحاكمة في والحياة الآخرة، وقد أخذت تتحدد بوضوح مطرد امتد إلى ما بعد عام ٢٠٠٠ ق . م . فلم تكن الفكرة في أقدم أشكالها تفترض حضور جميع الناس أمام المحكمة ، إنما افترضت محكمة عدالة كالتي توجد على وجه الأرض يحضر أمامها الأفراد لإصلاح الخطأ، فكان في أول الأمر لزاما على الشخص المتهم فقط أن يحضر أمام المحكمة في و الحياة الآخرة ، ليظهر براءة نقسه . على أن فكرة المحاكمة العامة نشأت في باكورة العهد الاقطاعي قبل عام نفسه . على أن فكرة المحاكمة العامة نشأت في باكورة العهد الاقطاعي قبل عام

ألفين قبل الميلاد، ثم أصبحت المحاكمة فيها بعد فى أوائل عهد الدولة الحديثة (حوالى ١٦٠٠ ق.م.) لاتقتصر على حصر تفصيلي لكل المخالفات الحلقية، وإنما صارت امتحانا خلقيا قاسيا، بل معيارا شاملا للقيمة الحلقية لحياة كل إنسان.

وقد أصبح الشعور بمثل هذه المحاكمة وازعا خلقيا قويا كما أراده أولئك الحكاء الذين خلقوه ، غير أن سلطان تلك المحاكمة مالبث أن مسخ مبكرا بالعوامل السحرية التي جاءت في كتاب الموتى الذي ألفه كهنة المعابد للكسب منه . إذ زعموا فيه أن يكون وسيلة تساعد الميت على التخلص من العقوبة بمخادعة وتضليل ذلك القاضى الرهيب .

وفي القرن السادس عشر ق . م ابتدأ عصر الفتوحات الدولية : السياسية منها والدينية ، فاتسع بذلك أفق التفكير الديني حتى وصل بعد عام ١٤٠٠ ق . م . إلى قمته بظهور أول عقيدة للتوحيد عرفها التاريخ . على أن وجود السيادة لإله واحدعالمي لم تزد شيئا في الرق الحاق عند المصريين الأقدمين ، لأن ثروة العاهلية قد أفسدت أخلاق الكهنة . وأن آخر تطور خلق عظيم في الديانة المصرية عماحدث فيها بعد ، نشأ على ما يظهر خارج المعابد بعيدا عن ديانة الحكومة إذ ذاك احتراف المؤمن بحقارة نفسه مع امتزاج ذلك بالثقة الشخصية العميقة في رحمة الته وعدله وعنايته الأبوية إلى أن يؤدى ذلك بالثقة الشخصية العميقة في رحمة أحدثت تعاليم الحكماء المصريين في ذلك العصر بوجه خاص تأثيرا عميقا في التفكير العبر الى الدينى ، وباستيطان هذه التعاليم في فلسطين قطعت المرحلة الأولى في مصر نفسها أخذت هذه الحال التي تعتبر أقدم ما عرف عن الزهد والورع . في مصر نفسها أخذت هذه الحال التي تعتبر أقدم ما عرف عن الزهد والورع . قطر فو ابتغاليهم في دينهم في أيام الحكم الإغريقي الروماني في مصر .

وهكذا يمر أمامنا دور عظيم من الخبرة البشرية كاشفا لنا فى مدى ثلاثة آلاف سنة من حوالى ٤٠٠٠ سنة ق . م · ، عن ظهور أول مجتمع إنسانى عظيم لمجتمع السانى عظيم المدر المعاد الم

وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة أخرى فى أطول تطور أخلاقى يمكن للباحث تعقبه فى مدة حياة أى مجتمع بشرى. وتظهر لنا خطورة هذا التطور بوجه خاص إذا راعينا أنه على مانعلم كان أول شى، فى بابه وأنه بذلك أثبت وجود حقيقة لم تكن معلومة من قبل وهى: ان أرقى ذوات الثدى التى برزت على هذا الكوك لم يكن فى مقدورها فحسب أن ترقى إلى ذلك الأفق من التمدن الذى عيناه من قبل، بل إن هذا الرق كان يشتمل كذلك على إدراك قيم جديدة سامية انتقلت بالتطور الإنساني إلى أسمى عالم خلق لم يسبق له نظير. وبإماطة اللثام عن ذلك العالم الجديد للإنسان دخلت لأول مرة أمثال هذه العناصر الخلقية فى ذلك التطور العظيم فى حياة البشر الأولى فى مصر وخارجها. ولا بد أن تطور ذلك التطور العظيم فى حياة البشر الأولى فى مصر وخارجها. ولا بد أن تطور خلة مثل هذه الأمة العظيمة وآدابها خلال ثلاثة آلاف من السنين قد أثر تأثيرا عيقا مطردا على أقرب جيرانها فى فلسطين خاصة بل على كل أنحاء الشرق الأدنى، وأن النهضة التي أوجدتها هذه الحركة بين العبرانيين قد أفضت المنتقد خلقي وديني انقل فيما بعد إلى المدنية الغربية واستمرت بذلك مراحله الإخيرة عاملا خلقيا قويا فى حياتنا إلى اليوم.

ويمكننا الآن بعد أن استوعبنا المختصر العاجل أن نتعقب بحثا أوسع عن ذلك النطور الطويل المدى الذى ارتق به أهل وادى النيل إلى المثل العليا فى الاخلاق. على أن المصادر التى لدينا لدرس الرقى الخلق فى العصور الأولى لمثل هذا الشعب القديم منشلة جدا ، وبجدها كذلك إلى أن نصل إلى عصر اختراع الكتابة التى أفضت إلى وجود ، المصادر المدونة ،

وأقدم هذه والمصادر، لا تبدأ تفيدنا في مصر إلا يعد عام ٣٠٠٠ ق م م مع أنه توجد لدينا ومصادر ، متأخرة عن ذلك تلقي ضوءا هاما على ما سبق هذا العهد من مراحل رقى الأجداد وتقدمهم . ولكن والمصادر ، المكتوية وحدها لا يمكن أن ترجع بنا قط إلى بداية التطور .

أما ما نعتمد عليه في معلوماتنا عن أقدم حياة عرفت للإنسان في وادى النيل فهو الوثائق المبادية المحضة ، وهي تكاد تنحصر في الأسلحة والآلات الحجرية ، وفيها بلي ذلك تكشف لنا وجبانات عصر ماقبل التاريخ ، التي تحثوى

على الآلاف من القبور العتيقة المنتشرة على حافة الصحرا. شيئا عن المعتقدات الدينية التي كان سكان وادى النيل يدينون بها فى الأيام الخالية التي يرجع عهدها إلى العصر الحجرى الأخير. والزمن الذى بين أقدم أمثال هذه المصادر التي هي من عصر ما قبل التاريخ إلى أحدثها زمن يقدر بمثات آلاف السنين وذلك على أقل تقدير بمكن .

ولا نكون مخطئين إذا قررنا هنا أن أقدم المصريين عهدا كانوا يعبدون آلهة ليست لهم صفات خلقية ، كما كانت لهم طائفة من العادات لم تكن قد بلغت بعد مرحلة الأخلاق ، فهم فى ذلك كالأقوام الذين لا يزالون يعيشون فى طور السذاجة الفطرية البحتة ، وإذا فحصنا الديانة المصرية كما نجدها فى أقدم الوثائق التى وصلت إلينا وحاولنا أن نستخلص من تحليل أهم الانطباعات التى نجدها مصورة هنالك ، تلك الانطباعات التى أخذها المصريون عن عالم الطبيعة ، فإن ذلك يلتى بعض الضوء على الآراء التى كانت متداولة فى العصر الذى سبق ذلك يلتى بعض المنابة .

فن الواضح أن ظاهر تين عظيمتين طبيعيتين قد أثرتا أعظم تأثير في سكان وادى النيل ، فقد تصور القوم في هاتين الظاهر تين إلهين اثنين كان لهما السيطرة على كل من النطور الديني والعقلي منذ أقدم العهود التي عرفت ، وهاتان الظاهر تان هما الشمس والنيل [أو الحضرة التي تروى من مائه] . وأما الإلهان فهما إله الشمس ورع ، وإله الحضرة «أوزير » ، وكانا الإلهين العظيمين في الحياة المصرية القديمة ، وقد دخلا في دور تنافس منذ عهد مبكر جدا ، فكان كل واحد منهما يبغي لنفسه أسمى مكانة في ديانة القوم ، ولم ينقطع عذا التنافس قط إلا عند ما محيت الديانة المصرية في ختام القرن الخامس المسيحي . ومن يقف على أصول قصة هذا التنافس الطويل يقف على المنهاج الرئيسي في تاريخ الديانة المصرية القديمة ، بل لا نكون مغالين إذا قلنا إنه يقف على دور عظيم من أهم الأدوار في تاريخ حياة الإنسان .

وإن أبرز حقيقة هيمنت على وادى النيل هي قوة الشمس في مصر وجلالها الشامل لكل الكون ، ولا يزال ذلك ماثلا إلى أيامنا هذه يشاهده

السائح الحديث العهد بالبلاد المصرية عند ما ينظر إلى الشمس لأول مرة . ولاشك أن المصرى شاهدها فى أشكال متنوعة كانت فى الأصل أشكالا محلية . ومن المحتمل جدا أن أقدم صورة تخيلها المصرى لإله الشمس يرجع تاريخها إلى العهد الذى كان لا يزال فيه مصريو عصر ما قبل التاريخ يعيشون عيشة الصيد فى مناقع الدلتا ، وذلك عند ما تخيلوا إله الشمس فى شكل صياد يدفع أو يجدف فى زورق يشبه الرمث مؤلف من حزمتين من الغاب ليعبر به مستنقعات الغاب ، ولا تزال لمحات عن هذا التصور العتيق محفوظة لنا فى أقدم فقر ان « متون الأهر ام » ، إذ كثيرا ما نجد فيها إله الشمس مصورا بصورة إنسان يجدف عبر المستنقعات السهاوية فى زورق الغاب المزدوج . وهذا هو « رع » يحدف عبر المستنقعات السهاوية فى زورق الغاب المزدوج . وهذا هو « رع » أى الشمس المجسمة التى تصورها أقدم سكان وادى النيل من قبل فى شكل إنسان جعلوا مقره « هليوبوليس » (عين شمس) حيث حل محل إله شمس قديم يدعى « آتوم » وأصبح أعظم إله فى مصر .

وفى وإدفو ، بالوجه القبلى تقمص إله الشمس صقراً ، لأن تحليق هذا الطائر المرتفع كان يخيل للقوم أنه يكاد يكون رفيق الشمس فى علوها، وهذا ما ساق خيال فلاحى وادى النيل المبكرين الأول إلى أن الشمس لا بد أن تكون صقراً مثله ، يقوم بطيرانه اليومى عبر السموات ، ومن أجل ذلك أصبح قرص الشمس ذو الجناحين المنشورين أعم رمن فى الديانة المصرية القديمة وقد انحدرت إلينا هذه الفكرة عن طريق الأدب العبرانى فى تشابيهه التى منها وجناح الصباح ، و وشمس العدالة ، . . . التى تحمل الشفاء فى جناحيها . وكان إله الشمس بصفته صقراً يسمى ، حور ، [حوريس أو حوروس أو ، حور أختى ،] أى حور الأفق ، ولا تزال توجدا آثار بعض المميزات بين آلمة الشمس المحلية العتيقة فى متون الأهرام ، وقد ابتدأت عملية مزج فى عهد مبكر الشمس كان هذه الآلهة فضمتها كلها بعضها إلى بعض ووحدتها حتى أن إله الشمس كان يسمى ، رع حور أختى ، أو ، رع آتوم ، ، وقد أسرع كبراء رجال المعابد يسمى ، رع حور أختى ، أو ، رع آتوم ، ، وقد أسرع كبراء رجال المعابد المحلية إلى التعجيل بهذه العملية إذ كان كل من تلك المعابد يجرى وراء نيل الشرف ما دعائه أن مكانه هو الذى ولد فيه إله الشمس .

وقد بتي إله الشمس إلها يمثل الطبيعة عصوراً طويلة فيما قبل التاريخ ، فكان يذلك إله الشمس في أقدم العصور الغابرة مقصوراً على الوظائف المـــادية ، ولذلك كان يظهر في أقدم معابد الشمس بأبي صبر بأنه منبع الحياة والخير ، وقالت عنه الناس: . لقد أبعدتَ العاصفة وأزجيت المطرُّ وحطمت السحابِ ، وكانت هذه الظواهر في نظرهم أعدا. له ، وكانت بطبيعة الحال مجسمة كذلك في أساطير العامة إذ ورد في إحدى الأساطير أن إله الشمس فقد عينه بيد عدوه. ولماكان وادى النيل الذي ظهر فيــه إله الشمس منذ زمن بعيد بمظهر قوة من قوى الطبيعة قد أخذ ينتقل بالتدريج إلى مكانة أمة عظيمة ، فإن ميدان عمل إله الشمس أصبح بالضرورة ميدان الحياة البشرية والشئون القومية . أما الخطوات التي نتج عنها الاتحاد الأول للبلاد فلا نعلم عنها شيئاً ، غير أنه من المؤكد أن أميرا من مدينة ﴿ إيون ﴿ وَهِي التَّى أَطَلَقَ عُلِيهِ ۗ الْإِغْرِيقِ فيما بعد اسم . هليو بوليس ، قام بإخضاع الأمارات المصرية الأخرى في عهد ما قبل التاريخ ووحد المملكة لأول مرة تحت حكم ملك واحد . ومن الجحتمل أن هذا العمل حدث قبل سنة . . . ٤ ق . م . ومع أنه لم يصلنا عن اسم هذا الملك صدى واحد في خلال الفترة التي انقضت منذ ذلك العهد، وتقدر بنحو سنة ، فإن عمله قد ترك أثرا خالدا في حياة مصر ومدنيتها ، لأنه أسس وأدار أول نظام قومى عظيم خضعت له حياة عدة ملايين من الانفس . ولا يفو تنا أن نعيد إلى ذاكر تنا هنا أن هذا الاتعاد الأول ظل ثابتا في البلاد بضعة قرون، وبعد انهياره عمت البلاد ثانية فترة انحلال أعقبها حوالي ٣٤٠٠ ق٠ م فتح آحر للإقطاعات السياسة فانضم بعضها إلى بعض وتالف منهاجميعا ما نسميه « بَالاَتِحَادِ الثَّانِي » . وقد أُعطت زعامة « هليوبوليس » في عهد الاَتَّحَادِ الْأُولَ ، . . نفوذا وشهرة لهذه المدينة لم تفقدهما قطفيها بعد ، فقد أثرت على المدنية المصرية تأثيرًا عميقًا كانت فيه المكانة السامية لإله الشمس ، وإلى تأثير عهد الاتجاد الأول يرجع السبب في انتقال الأوضاع والمميزات الحكومية الدنيوية التي كانت تسيرً عليها الحكومة المصرية إلى أنظمة إله الشمس في « هليو بوليس » يصفته الإله القومي، فأصبح ملككل الآلهة وخاطبه الناس بقو لهم: ﴿ إِنْكُ أَنْتُ

الذى تشرف على كل الآلهة ولا يشرف عليك إله ما ». وكذلك أصبح هو في الوقت نفسه الحاكم الأعلى المتصرف في مصير كل الناس . بذلك انتقل إله الشمس من عالم الطبيعة إلى عالم الناس فأصبح فيه ملكا قديماكان قد حكم مصريوما ما ، كما حكمها الفراعنة من بعده . وقد تغيرت مظاهره الحارجية تبعا لهذا التحول ، فتحول زورق الغاب المزدوج الذى كان يسبح فيه إله الشمس فيها قبل التاريخ إلى سفينة ملكية فاخرة مثل سفينة فرعون الأرضية ، وكان الاعتقاد أن إله الشمس يعبر بأبهته في هذه السفينة الشمسية الساطعة المحيط السماوى كماكان فرعون يعبر النيل ، وكانت له سفينتان : واحدة للصباح وأخرى المسأه . وقد ظهرت أساطير عدة تتحدث عن حكم إله الشمس على الارض ، فير أنه لم يبق منها إلا قطع صغيرة ، فنها الاسطورة التي تقص علينا ما أظهره غير أنه لم يبق منها إلا قطع صغيرة ، فنها الاسطورة التي تقص علينا ما أظهره معاقبتهم ، وكاد يفنيهم قبل أن يترك الارض و يعتزل في السماء .

ومع أن المصريين ظلوا يشيرون بغبطة وسرور إلى حوادث هذه الأساطير الساذجة وأمتلاً أدبهم الديني بالتلميحات إلى تلك الخرافات حتى آخر عهده ، فإنهم عند ما ظهروا في شكل أمة موحدة كانوا قد أدركوا أن إله الشمس يقوم بوظائف رفعته فوق مثل هذه التخيلات الصبيانية . وجعلته المتصرف والحاكم العظيم على الأمة المصرية .

وهذا الانتقال الأساسي الذي يعد أول ماعرف في التاريخ من نوعه قد نقل بذلك نشاط إله الشمس الذي كان منحصرا في دنيا المادة وحدها إلى مملكة الشئون البشرية. ولدينا أنشودة للشمس في متون الأهرام يحتمل أنها نشأت في ذلك العهد للاتحاد الأول؛ ونجد في هذه الأنشودة التي تعد أقدم ما وصل إلينا من نوعه أن موضع الإشادة بإله الشمس هو سيادته على «شئون مصر» إذ تبسط لنا الأنشودة المعاونة الصالحة التي يقوم بتقديمها الإله لأرض مصر والإشراف عليها، بل إنها تنشر أمامنا في أسطر متعاقبة عقود المدح لما يقوم به هذا الإله العظيم لحماية مصر من أعدائها.

وكذلك كان إله الشمس حليفا لفر عون وحاميا له، فإن متون الأهرام تقول عنه: « إنه يمكن له مصر العليا، ويمكن له مصر السفلي ويهدم له معاقل آسيا، ويخضع له كل الناس (۱) [المصريين] الذين سو اهم بأصابعه، . وهكذا فإنه بدخول اله الشمس في عالم الشئون البشرية أخذ هذا الإله (في عرف القوم) يشعر كأى فرد تابع لحكومة بشرية ، أو كأى عضو في جماعة دنيوية ، بنأ ثيرات المجتمع الإنساني، تلك التأثيرات التي صارت عاملا يعمل على تهيئة الإله و تسويته في نهاية الأمر ليجعل منه أول إله خلق عادل عرفه التاريخ .

⁽١) كلة الناس هنا لانطلق إلا على أهل مصر فقط .

الفصل لتاليث

إله الشمس وفجر المبادى ً الأخلاقية

لم يعثر للآن على أثر ملكى واحد من عهد الاتحاد الأول. وإذا كان لايزال في الوجود شيء من هذه الآثار فلا بد أن تكون مدفو نة على عمق بعيد تحت غرين النيل المشبع بالمباء في مصر السفلى ، ذلك للغرين الذي ظل يتراكم مدة آلاف من السنين على بقايا ودمن بلدة ، هليو بوليس ، (عين شمس) التي وجدت في عصر ماقبل التاريخ . ومع ذلك فإن الأزمان التي تلت تلك العصور قد حفظت لنا ذكريات عن تلك العهود القديمة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ، بل إنها حفظت لنا ذكريات عن تلك الازمان السحيقة جدا التي سبقت عهد توحيد مصر تحت حكم ملك واحد . والواقع آنه قد وصل إلينا صورة من المتن الحقيق لوثيقة دونت في بداية عهد الاتحاد الثاني ، وهذه الصورة منقوشة على الحجر أسود محفوظ الآن بالمتحف البريطاني ، وذلك الحجر كان قد استعمله بعض القرو بين أخيراً قاعدة لحجر طاحون لطحن غلالهم ، وقد استمروا في إدارة حجر الطاحون الأعلى عليه مدة أعوام دون أن يفقهوا شيئا ما كانوا يحونه بذلك من النقوش .

على أن ما بقى مقروءاً على ذلك الحجر الهام من الفقر ات المشوهة ، له أهمية لا تقدر بشمن . على أننا نفهم فى الحال شيئا عن أصل ذلك الحجر من سطر فى أعلاه ، نقو شه الهير غليفية غاية فى الوضوح ، فنجد فيه اسم « شبكا ، ذلك الفرعون الأثيوبي الذى حكم مصر خلال القرن الثامن قبل الميلاد ، ويلى اسم ذلك الفرعون نقوش تقول : « إن جلالته [يعنى نفسه] نقل هذه الكتابات من جديد فى بيت والده « بتاح جنوبي جداره » وقد و جدها جلالته بمثابة عمل خلفه الأجداد قد أكله الدود حتى أصبح لا يمكن قراءته من البداية للنهاية ،

وإذ ذاك قام جلالته بكتابته من جديد حتى أصبح أكثر جمالا مما كان عليه من قبل ». ومن ذلك نرى أن ملك مصر الأثيوبي الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد اهتم بالمحافظة على الكتابة القديمة التي خلفها « الاجداد » ولا بدأنها كانت مدونة على ورق البردي و إلا لما استطاع الدود أن يأكلها.

وقد نقل «شبكا ، لحسن حظنا نسخته الجديدة على الحجر لتبق محفوظة على الدوام ، ومع ذلك لو بق هذا الحجر يطحن عليه بضع سنين أخرى لقضى على أقدم مسرحية فى العالم وعلى أول بحث فلسنى وصل الينا من العالم القديم .

وقد انقضى الآن جيل على الفترة التي كنت أقضى فيها أيام الصيف الخانقة جالسا على كرسي منخفض تحت نافذة في المتحف البريطاني أحاول أن أعكس بعض الضوء من النافذة التي كانت فو قي بمرآة يد على الحجر الذي كان موضوعا تحت عتبة تلك النافذة بشكل لم يترك مجالا لسقوط نور تلك النافذة عليه. وقد كان ذلك قبل ظهور كشافات اليد الكهربائية القوية ، ولذلك كان نقل مثل هذه النقوش يسير بيطء وبصعوبة لتآكلها حتى إنهاكانت أحمانا لا بمكن الاهتداء لقراءتها كلية ، ولا سيما أنها نقشت على حجر أسود حالك. وكانت نقوش ذلك الحجر موزعة في أعمدة أو أسطر عمو دية . وبحوز في الكتابة المصرية القديمة أن يكون ترتيب الإعمدة عند قراءة مثل تلك النقوش من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين وذلك حسب اتجاه وجوه الحروف الهير عليفية التي تواجه عادة بداية النقش. وكانت كل الإشارات فيذلك النقش تواجه اليمين دالة على أن بدايته كانت من جهة اليمين . وعلى ذلك بدأتُ بنقل المتن من العمود الأول على اليد اليمني ، وكنت أتدرج في النقل من عمود إلى عمود متجها نحو الشمال ، ولكن لاحظت مع ذلك بغتة عند أسفل عمود من الأعمدة، أن معنى إحدى الجمل كان مستمرًا في العمود التالي من اليمين لا في العمود التالي من اليساركماكان متوقعا .

ومن ذلك ظهر لى فجأة أن هذا النقشكان من النقوش القليلة المعروفة التي كتبت بإشارات معكوسة [أى أن الإشارات لم تتجه الاتجاه العادى].

وعلى ذلك كان العلماء يقرء ونها إلى الآن بوضع مقلوب نتجت منه سلسلة فقر ات متقطعة يتبع بعضها بعضا بدون أى ارتباط بينها من النهاية إلى البداية ، فلما قر أت هذه الأعمدة بترتيبها الصحيح بدأت تقص على قصة مر. أروع القصص ، غير أنها قصة مؤ لفة من نتف وبعض أجزائها لم تمكن قراءته مطلقا حتى انه كان من العسير جدا فهمها . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن حجر الطاحون العلوى كان يلف على وسط قاعدة حجر الطاحون المكتوبة ، فضلا عن أن الطحان كان يلف على وسط قاعدة حجر الطاحون المكتوبة ، فضلا عن أن الطحان التي تخرج من قطب العجلة ، وقد محا ذلك الطحان الغشوم تماما ثلث النقش القديم من جهة الوسط تاركا ثلثا ضئيلا منه على اليسار عند البداية و ثلثا آخر عند الطرف الأيمن ، ولذلك أصبح من المستحيل أن ندرك أى اتصال فى المعنى بين الأعمدة التي على اليسار والأعمدة التي على اليسار .

ومن يوم أن نشرت متن النقش مع محاولة مبدئية لترجمته قضى العلماء في البحث جيلا بأكمله حتى أمكن الوصول إلى فهم صحيح لنوع المتن ومحتوياته بل لتحديد تاريخه . ونخص بالذكر من بين هؤ لاء العلماء الذين درسوا هذا النقش « إرمان ، ثم « زيته » . وقد سمى « شبكا » الأثيو بي هذا المتن في القرن الثامن قبل الميلاد ، تأليف الأجداد » ، وهو تعبير مهم يوحى لنا أن كتاب هذا الملك المتفقهين لم يكن لديهم فكرة عن أن الكتابة التي كانوا ينسخونها كان عمرها إذ ذاك يزيد عن ٠٠٥٠ سنة . ولكن لغة هذه الكتابة القديمة ومحتوياتها لم تدع مجالا لآى شك عن شدة قدم أصلها لأرف لغة الوثيقة تحتوى على اصطلاحات تدل على أنها قديمة جداً . كما أن المتن يكشف لنا عن موقف تاريخي يدل بداهة على أن وقوعه لا يمكن إلا من بداية الاتحاد الثاني [أى في عهد تأسيس الأسرة الأولى على يد مينا حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م .] . وعلى ذلك يكون ذلك المتن من إنتاج الحضارة المصرية في منتصف الألف وعلى ذلك يكون ذلك المتن من إنتاج الحضارة المصرية في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ، وبذلك يكون قد أعطى لنا صورة من أفتكار أقدم البشر لم يصل إلينا مثلها مدونة إلى الآن .

وقد تركت لنا الفجوة المؤلمة التي في وسط الحجر كما أسلفت ــ جزءاً من المآن على اليسار هو البداية ، وجزءاً على اليمين هو الحاتمة ، ويقسم المآن الذي في البداية فو اصل متكررة تجعله على صورة فصول صغيرة معظمها في شكل عبارات مخاطب بها الآلهة المختلفون بعضهم بعضاً . ونجد غالبا عند مدانة كل عبارة من تلك العبارات علامتين هير غليفيتين تدلان على اسمى إلهين، والعلامتان مرتبتان في وضع يجعل كلا منهما تواجه الأخرى كأنكلا الالهين يحادث أحدهما الآخر ، وهـذا يطابق محتويات المتن فإنها تثبت أنهما كانا يتحادثان فعلا . وقد عثر الأستاذ « زيته » فيما بعد على بحموعة محادثات منظمة على مثل هذا النمط ومدونة على بردية يرجع تاريخها إلى سنة ٢٠٠٠ ق . م . ٠ و تلك المحادثات مصحوبة بملاحظات وصور يستدل منها على أنها لابدأن تكون تعلمات مسرحية (١)، أي أن الردية التي درسها الأستاذ وزيته ، هي مسرحية قدمة ونجد أن ترتب أعمدتها مطابق تماما لمتن حجر المتحف البريطاني - الذي نحن يصدده - وهذا جعل الاستاذ «ارمان» (٢) يظن أن المدون على هذا الحجر هو مسرحية قديمة أيضا. وقد محست خاتمة هذه المسرحية التي تعد بلا شك أقدم ما عرف من نوعها من جراء الثقب الذي حفر في وسط حجر الطاحون المذكور . وفيها وراء الفجوة تجاه الطرف الأيمن من الحجر نجد بحشا فلسفيا يبدو مر. الصعب أن نربطه بالمسرحية . ويرى وزيته ، أنه من الضروري أن نفهم أن أحد رجال الدىن المشهورين أو كاهنا مرتلا كان يلقى جزءاً كبيرا من الرواية التمثيلية في شكل خطبة مطولة يظهر الآلهة المقصودون خلال إلقائها عند قص حادثة فى الأسطورة فيلقون أقوالهم في شكل محاورة ، وذلك هو السبب الذي من أجله نجد المحاورات التي

K. Sethe, Dramatische Texte Zur altaegyptische : راجع (۱)
 Mysterienspielen (Leipzig, 1928.)

A. Erman ,Ein Denkmal Menphitescher Theologie : () in Sitz Der Konigtish Preussisthen AK. der wissenschaft, vol. XLIII. (1911)

كان يقوم بإلقائها الآلهة المختلفون الذين ساهموا فى التمثيل منتشرة بين أجزاء المسرحية، بشكل جعل أمثال هذه المحاورات أيضا تمثيلية فى شكلها. والوثيقة تشبه كل الشبه بحالة تلفت النظر القصص المقدسة التي مثلت فى المسرحيات المسيحية الرمزية فى القرون الوسطى، والمسرحية المنفية التي تعد أقدم سلف لها.

وبحد فى كل من الجزء المسرحى والبحث الفلسنى أن « بتاح » إله منف يقوم بدور إله الشمس الذى يعتبر إله مصر الأسمى . وذلك يفسر لنا العاذة التى أشرنا إليها من قبل (ص ٤٣ — ٤٤) والتى كان يسعى بها الإله المحلى للحصول على عظمة إله الشمس وبهائه ، بأن يتقلد مركزه ويلعب الدور الذى لعبه فى تاريخ مصر الخرافى ومنشأه . وإن سيادة « بتاح » فى تلك المسرحية تدل بوضوح على تزعم مدينة « منف » تزعما سياسيا ، وتلك الزعامة ترجع فى هذه الحالة إلى انتصارات « مينا ، مؤسس الآسرة الأولى . وذلك الملك وإن كان مولده فى تنيس بمصر العليا هو الذى أسس « منف » لتكون عاصمة له ومقرا لملك . وبالرغم من ظهور أصل تلك المسرحية فى منف فإن المنبع الأصلى لمحتوياتها العجيبة كان بلا شك بلده « هليوبوليس » . فإننا نجد فيها تلك الفلسفة اللاهو تية التى اشتهر بها كهنة « عين شمس » والتى وصلوا بها فى عهد الفلسفة اللاهو تية التى اشتهر بها كهنة « عين شمس » والتى وصلوا بها فى عهد الاتحاد الأول إلى المرحلة التى أخذ عنها كهنة « منف » فى تمجيد إلههم «بتاح» .

فهذه المسرحية تبرز لنا إذا إله الطبيعة القديم وهو إله الشمس ورع، متحولاً بماما إلى قاض يحكم في شئون البشر ، تلك الشئون التي أصبحت ينظر إليها من الناحية الخلقية ، فهو يحكم عالما يرى من واجبه توجيه حياة البشر فيه طبقا لقواعد تفصل بين الحقوالباطل . وانه من المدهش جدا أن نجد أن أمثال هذه الأفكار كانت قد ظهرت فعلا في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد .

ويمكن تلخيص محتويات هذه المسرحية بأنها محاولة لتفسير أصل جميع الأشياء ويدخل فى ذلك نظام العالم الحلقى، وأن هذه الأصول جميعا ترجع إلى « بناح ، إله « منف ، . أما كل العوامل الآخرى التى ساعدت على خلق العالم

أو المخلوقات التى كان لها نصيب فى ذلك فلم تكن إلا مجرد صور أو مظاهر لبتاح إله « منف » المحلى المسيطر على أصحاب الحرف والصناعات والذى يعتبر إله كل الحرف .

وتدلك المسرحية على أن فتح « مينا » مصر واتخاذه « منف » الواقعة في الوسط بين الوجه القبلي والوجه البحرى عاصمة له ومقرا لملكه لم يكن إلا خطوة نحو إظهار بتاح بمظهر الصانع الاعظم الذي خلق العالم. وقد ساعد على إلباس بتاح ثوب هذا الدور مساعدة جدية ما نسب إليه من استيلائه على السلطة والسيادة الفريدة التي كان يتمتع بها الإله « رع » الذي ظل يتزعم مدة قرون طويلة آلهة مصر من مقره الزاهر الممتاز في مدينة هليو بوليس. وتبرز لنا هذه المسرحية المنفية المكانة السامية التي احتلها « بتاح » في الفقر ات الحتامية التي يجب علينا فحصها الآن. فنجد فيها أولا أن (« بتاح » العظيم هو قلب الآلهة ولسانهم) . وهذا التعبير الخارق للمألوف يصير أكثر وضوحا لنا عندما نعلم ولسانهم) . وهذا التعبير الخارق للمألوف يصير أكثر وضوحا لنا عندما نعلم أي القلب معناه « العقل » أو « الفهم » . أما « اللسان » فهو رمن للنطق أي للأداة التي تبرز أفكار العقل وتعبر عن أوامره ، أي أنها تخرج ما فيه إلى حيز عالم الحقيقة الملمون ، ونصبح الآن في مركز يمكننا من تعقب معني هذه القديمة عندما تشرع القصة في التحدث عن أصل الأشياء:

(١) الفكر والتعبير عنه بصفتهما الأصل والقوة المساعدة لكل من نظام الأرض ونظام السماء:

«حدث أن القلب واللسان تغلبا على كل عضو فى الجسم وعلما الإنسان أن « بتاح »كان فى كل صدر على هيئة القلب وعلى هيئة اللسان فى كل فم ، سواء فى ذلك جميع الآلهة و جميع الناس و جميع الماشية و جميع الزواحف وسائر الاحياء، وفى الوقت نفسه يفكر « بتاح » فيما يشا، ويأمر بكل ما يريد » .

وبعد أن تقص علينا الوثيقة كيف أن بجموعة آلهة «منف ، لا تزال فى فم «بتاح » ، « الذى نطق بأسماءكل الأشياء ، (١) ، فعلمنا أن هؤلاء الآلهة الذين

⁽١) « وعلم آدم الأسماء كلها » (قرآن كريم) ·

كانوا ميعرفون من قبل بأنهم صور لبتاح قد أوجدوا بصر الأعين وسمع الآذان وتنفس الأنف لتصل جميعا إلى القلب، وأن القلب هو الذى يصدر كل قرار وأن اللسان هو الذى يعلن فكر القلب. وبمثل ذلك فطرت كل الآلهة أى. أنوم، وتاسوعه الإلهى [بحموعة تسعة آلهة] على حين أن كل كلمة مقدسة خرجت إلى الوجود عن طريق ما فكره القلب وأمر به اللسان، وكذلك المراكز [الوظائف الرسمية] فإنها أنشئت، والمناصب [الحكومية] وزعت (وهي التي قدمت جميع الغذاء وجميع الطعام) بو اسطة هذا النطق المتقدم، وأى طبقا للنظرية السالفة الذكر].

(٢) النظام الدنيوى:

« [أما من جهة] الذي يفعل ما هو محبوب والذي يفعل ما هو مكروه فإن الحياة تعطى للمسالم، والموت يحيق بالمجرم، .

« وبذلك يسيّركل عمل وكل حرفة ؛ فنشاط الذراعين وسير الساقين وحركة كل عضو تكون حسب هذا الأمر الذي يديره القلب والذي يخرج من اللسان وهو الذي يجعل لكل شيء قيمة » .

(٣) النظام السماوى:

« وحدث أنه قبل عن « بتاح » انه خلق « آ توم » (إله الشمس القديم في هليو بوليس) وأوجد الآلهة ، وهو « تاتن » [اسم قديم لبتاح] مصور الآلهة ومنه خرج كل شيء سواء أكان طعاما أم غذاء أم مئونة للالهة أم أى شيء طيب في الوجود ، وبذلك أصبح من الظاهر المفهوم أن قوة « بتاح ، هي أعظم من قوة كل الآلهة ، وبذلك اطمأن بتاح بعد أن خلق كل شيء وكل كلمة مقدسة . وهو الذي صور الآلهة وأقام المدن وأسس المقاطعات فأقام الآلهة في أماكنهم المقدسة و ثبت دخلهم المقدس وأعد محاريبهم ونحت تماثيل لاجسامهم كما تحب قلوبهم وبذلك حلت الآلهة في أجسامها المصنوعة من كل نوع من الخشب ومن كل صنف من المعادن ومن كل نوع من الخشب ومن كل صنف من المعادن ومن كل نوع من الخشب ومن من المعادن ومن كل ما ينمو عليه (أي على بتاح بصفته إله الأرض) من الأشياء التي صنعت منها هذه التماثيل » .

وبذلك أصبحت فى قبضة « بتـاح » (الححب للسلام والصلح) الآلهة ووظائفها بصفته رب الأرضين (مصر) . وكانت مخازن الغلال المقدسة « هى العرش العظيم » « منف » التى تدخل السرور على قلب الآلهة الذين فى بيت بتاح ، وهى سيدة كل الحياة ومنها تستمد الارضان (مصر) حياتها .

وعند هذه النقطة تنتقل بنا القصة إلى أسطورة « أوزير ، لتفسر لنا السبب الذي من أجله أصبحت ومنف ، مخزنا لغلال مصر . غير أننا سنضطرهنا لإرجاء فحص مو ضوع « أوزير » في هذه المسرحية المنفية إلى أن نتم فحص وظائف إله الشمس التي رأينا أن بتاح قد انتحلها لنفسه . وإذا أنعمنا النظر في محتويات بحث موضوع « بناح » الذي سبق ذكره اتضح لنا أن الكثير من الأفكار قد تكررت بنفسها مرات عدة . وعلى ذلك نجد أن الأقسام الثلاثة التي حاولتُ فيها سلف أن أفصل بعضها عن بعض ، وأميزها بعناوين فرعية ليست بحال ما مستقلة عن بعضها بل متداخلا بعضها ببعض بشكل واضح، فلم يكن في مقدور فكر الكهانة العتيق أن يعدل عن إقحام ذكر انتاج الطّعام في أية مناسبة تمس النظام السماوى ، بالرغم من أن موضوع إنتاج الطعام في الأصل خاص بالنظام الدنيوى وذلك لا نه إجراء يرتكن إلى قوة الآلهة . ويرجع الأساس المدهش لهذا النظام الأرضى المبكر إلى الغرض الرئيسي الذي يُرجع منبع كل شيء إلى العقل أو الفكر ، لأن جميع الأشياء ظهرت إلى حيز الوجو د بما فكره القلب (العقل) وأمر به اللسان (الكلام) . وقد استعمل المصرى كلمة « قلب ، لتدل على « العقل ، أو « الفهم ، وذلك لا لأنه كان معتادا استعمال المعنويات بلكان يعتقد أن القلب هو مركز الفهم. أما الأداة التي أصبح بها العقل قوة منشئة فهي الكلمة التي تلفظ فتعلن الفكرة وتلبسها ثوب الحقيقة وبذلك تظهر الفكرة إلى حين الوجود في عالم الكون الملموس، بل صار الإله نفسه هو القلب الذي يفكر واللسان الذي يتكلم (١) . فهل بعد ذلك يمكننا أن

⁽١) وهو يشابه ما قاله الشاعر العربي :

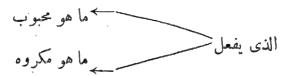
لسان الفتي نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

نتعرف الأساس التاريخي السحيق في القدم لعقيدة « السكامة » في أيام كتاب العهد الجديد [الإنجيل] ؟ « في البدء كانت « السكامة » وكانت السكامة مع الله والكلمة كانت الله ». وهل نجد هنا صدى لتجارب انسانية عتيقة على شاطئ "النيل ؟ من البدهي أن هذه الفكرة الهائلة التي ظهرت في عصر مبكر كهذا في تاريخ البشر — أو بتعبير أحسن في عصر ما قبل التاريخ — هي في حد ذاتها برهان على تقدم ناضج بدرجة مدهشة للعقل الإنساني في مثل هذا التاريخ البعيد ، إذ ننتقل فجأة وبدون وجود مراجل انتقال تدريجية من عالم آلحة الطبيعة إلى عهد حضارة ناضجة نامية ينتج فيها منظمو الديانة والحسكومة تفكيرا معنويا ناضجا . وقد رأوا أن العالم الذي يحيط بهم يعمل بعقل ، فاستخلصوا من ذلك أنه مخلوق ومحمى الآن بعقل عظيم محيط بكل شيء ، وأنه قد صبغ بالعقيدة القائلة علول الإله في كل شيء ، ولذلك كانوا يعتقدون أن هذا الإله لايزال يعمل علمه في كل صدر وفي كل فم في جميع الكائنات الحية . وقد استمرت هذه الفكرة موجودة مدة طويلة ، ولذلك نجد أن المصرى الذي عاش بعد ذلك غيره إلى « الإله الذي فيكل ، وحي الإله الذي فيكل الناس ، أو يشير مخاطبا العهد بألني سنة كان يعتقد في «وحي الإله الذي فيكل الناس ، أو يشير مخاطبا العهد بألني سنة كان يعتقد في «وحي الإله الذي فيكل الناس ، أو يشير مخاطبا العهد بألني سنة كان يعتقد في «وحي الإله الذي فيكل الناس ، أو يشير مخاطبا

ومن الظّاهر جدا أن الجماعة المنسقة والحكومة المنظمة كان لهما أثر عظيم على عقول هؤلاء المفكرين القدامى ، إذكان الاعتقاد بأن المركز السامى والمراتب الرسمية والوظائف الحكومية التى يسير بمقتضاها المجتمع الانسانى هى من وضع عقل سام ، وانها برزت إلى الوجود بكلمة هذا العقل السامى ، ولذلك كانت الشئون العملية فى الحياة العامة والحرف الصناعية تسير حسب «الأمراكانى يفكره القلب ويخرج من اللسان » .

والواقع أنه فى هذه المرحلة السحيقة من التقدم البشرى أخذ الإنسان يدرك أن بعض السلوك بمدوح وبعضه مذموم، وأن كل إنسان يعامل بحسب ذلك . فالحياة تمنح للمسالم، (الذى يحمل السلام) ويحيق الموت بالمجرم (الذى يحمل الجريمة) . على أنه بما يلفت النظر جدا أن هؤلاء المفكرين القدامي لم يستعملوا في هذا المقام الكلمتين «طيب» و « خبيث « . فالمسالم في

نظرهم هو الذي يفعل ما هو محبوب، و « المجرم ، هو الذي يفعل ماهو مكروه . وها تا نالعبارتان هما حكمان اجتماعيان يحددان ما هو ممدوح (محبوب) و ماهو مذموم ، مذموم (مكروه) . وفي هذين التعبيرين (« ما هو محبوب » و «ما هو مذموم») نجد أقدم برهان عرف على مقدرة الإنسان على التمييز بين الحلق الحسن والحلق السيء لانهما ذكر اهنا لأول مرة في تاريخ البشر ، ولهما تاريخ طويل فيما يلى ذلك من الزمن . وظل استعمالهما مستمر ا قرونا عديدة ، ولم يحل محلهما كلمتا « الحق » و « الباطل » إلا بعد ذلك بزمن طويل . وهناك بعض الغموض بشأن أصل الجمل الافتتاحية للفقرة القصيرة الخاصة بالنظام الخلق ما جعل إنشاءها من جديد معلقا . فقدر تبت الكمات على الحجر نفسه هكذا .



ويظهر أن هذا التركيب مفصول عما يتلوه من المآن بأداة فصل، والآن نتساءل عما إذا كانت تلك الترجمة السالفة (أو الإنشاء الجديد) قد أدت كل المعنى المطلوب أم لا؟ فنجد أولا أن الكلمة التي ترجمت بلفظ ويفعل ، تعنى أيضا ويصنع، ولما كانت هذه الكلمة هنا في صيغة اسم الفاعل والذي يفعل ، فإنه يمكن أن تعنى أيضا الذي يصنع أي الصانع وبذلك تنسب إلى الإله أنه صانع ما يحب وما يكره وإذا كان الأمر كذلك فيكون لدنيا هنا نص بتسمية الإله وخالق كل من الطيب والخبيث ،

غير أن الاستاذ و ارمان ، رأى أن هذا التفسير غير مقبول وترجم التعبيرين المتقابلين و بالنعم ، و و النقم ، .

ومن جهة أخرى لاحظ الاستاذ وزيته ، أن هذه الترجمة غير سائغة مع التعبيرين المتضادين و مسالم ومجرم ، وهما بجلاء تعبيران خلقيان ، يضاف إلى ذلك أن لهذين التعبيرين تاريخا لاحقاكما ذكرنا يظهران فيه مستعملين بمعنى خلق لا يقبل الجدل .

وأراد الأستاذ « زيته » أن يربط هذين التعبيرين أحدهما بالآخر بعض الربط فقرر أنه سقطت بعض الألفاظ من الكاتب القديم عند قيامه بالنسخ ، ولذلك يقترح أن الكلمات المحذوفة يمكن إعادتها بالاستعانة بفقرة وردت عن مثل ذلك في كتاب الموتى ، فيكون الترتيب هكذا :

[وبذلك أعطى الحق إلى] / من يفعل / ما هو محبوب [وأعطى الباطل إلى] / من يفعل / ما هو مكروه

والاعتراض المهم على هذا التصحيح هو إدخال التعبيرين وحق و وباطل المأخوذين عن ومصدر ومتأخر عن ذلك بكثير وككتاب الموتى و على أن خلو مسرحيتنا من هذين التعبيرين الأخيرين يشعر بحقيقة هامة جدا وهى أن وجودهما جاه متأخرا وفيها عدا ذلك نجد تصحيح الاستاذ وزيته ومغريا رغم أنه يدل على منتهى الجرأة وكما أنه فى نفس الوقت يمدنا بموازنة تامة للتعبيرين المذكورين فى ذلك التركيب المصحح .

ومن بين الصفات أو المميزات ــ التي يمكننا إدراكها بوضوح عن إله الشمس بعد سنة . ٣٠٠٠ ق . م . ، ميزتان اثنتان تسميان و الأمر ، و و الفهم، ويمثل كل منهما في صورة إله كما مثل العبرانيون و الحكمة ، في شكل إله ، ولذلك كان رجال البلاط يحيون الفرعون بصفته خليفة إله الشمس هكذا: و الأمر في فلك ، والفهم في قلبك ، .

وقد رأى العالم ، جاردنر ، فى ذلك رأيا جذابا فقال : إنه عندما انتحل الإله « بتاح ، هذه الصفة لنفسه قام مؤلفو المسرحية المنفية بتعديل التعبيرين اللذين وجدوهما فى اللاهوت الشمسى فوضعوا كلمة « قلب ، بدلكلمة « فهم » الشمسية ، وكلمة « لسان » بدلكلمة « أمر » الشمسية ، وبذلك يكون لدينا زوجان متو ازبان من الألفاظ هكذا :

- (١) الصفتان الأصليتان لإله الشمس: الفهم ــ الأمر.
- ` (٢) الصفتان اللتان حلتا محليهما للإله بتاح: (القلب، ــ (اللسان ، .

ومن ذلك يتضح أن فكرة وجود شخصية عليا قد أخذ فجرها ينبثق في هذا العهد على العقل البشرى لأول مرة في التاريخ.

وكان هؤلاء المفكرون الأوائل يكافحون فى تصور تلك الفكرة الخطيرة الشاملة محاولين أن يتعرفوا ويحللوا الخصائص الأصلية التى تميز مثل هذه الشخصية ، وقد كان لهذه الفكرة أثر عميق فى الحياة الإنسانية . ومن الواضح أنها نبت من الملكية أو بعبارة أصح من نفس حكم الملك الفعلى وإدارته للبلاد حيث كانت الفكرة مجسمة فيه بحدافيرها . فرأى الناس فى فرعون لأول مرة فى تاريخ البشر صورة فاخرة لشخصية بارزة وسلطان مجسم ، وبذلك أخذت الفكرة تتحول إلى قوة ، وقد ظهر تأثير رد فعلها أولا فى النواة الصغيرة التى يألف منها رجال الفكر وأخيراً فى المجتمع الإنسانى .

وتكشف لنا المسرحية المنفية عن أقدم تقدير للسلوك بصفته مرضيا أو غير مرضى. وهاتان الصفتان المتقابلتان كانتاكما أسلفنا صفتين اجتماعيتين وكان ظهورهما نتيجة للتطور الاجتماعي. غير أن الذي يعوقنا عن إدراك كنه هذا التطور ومنشئه افتقارنا التام ولمصادر معاصرة ووسنجد في الأدوار المتأخرة من الرقى عدة براهين لاتزال باقية تكشف لنا عن أصل تلك العوامل التي حدت بالناس القدامي إلى أن يدركوا أن بعض السلوك ومجبوب وبعضه وكان التقدم حتى في تلك المرحلة المبكرة قد خطا خطوات بعيدة لدرجة أن السلوك صار موضوع تفكير في أذهان أقدم المفكرين المعروفين لدينا من عهد القرون السحيقة التي ترجع إلى عصر الاتحاد الأول. وبعبارة أخرى نجد في تلك المسرحية المنفية إشارة وجيزة عن أقدم مبادئ جاءت عن طريق التفكير والتأمل، فالرجل الفاضل يسمى ومجباً المسلام، وبالنص الحرفي وحامل السلام ، وهو تعبير أخلاق بلاشك يعرف الرجل الفاضل بعلاقاته بمن حوله وعلى النقيض منه وحامل الجريمة ، أو والمجرم ، فهو الذي يخطئ في حق من حوله . والواقع أنه كان لا بدأنه قد وجد في ذلك الوقت قانون مسنون من حوله . والواقع أنه كان لا بدأنه قد وجد في ذلك الوقت قانون مسنون

يعترف بهذين النوعين من السلوك ويقرر إحاقة الموت بالمسىء ومنح الحيساة لغير المسيء.

ولا شك فى أن كل ما سبق من الأبحاث دليل على ظهور رقى اجتماعى وخلقى يقع فى أفق سابق بكثير لأقدم أفق تاريخى عرف لدينا إلى الآن .

ومن المهم أن نحدد بالضبط آخر مدى وصل إليه ذلك الرقى عند ما ظهر لأول مرة فى فجر التاريخ . فإن الأحوال التى أتت فيما بعد توضح لنا تماما أن فرعون كان مصدر القانون ومنبع الحياه ، وأن تأثير السلوك كان مجرد أمر ظاهرى خاص بهذه الحياة الأرضية ، وأن فرعون وحده كان فى مقدوره أن يتطلع إلى آخرة فاخرة فيقلع فيها فى المحيط السياوى مع إله الشمس والده . أما فيما يخنص بأى إنسان آخر فإن سلوكه سواء أكان مقبولا أم مذموما ليست له سوى عواقب أرضية محضة ، وليس لها أى تأثير على أية حياة فى الآخرة . ولذلك كان الحق والباطل أمرين يقررهما فرعون ، فكان يقوم بفحصهما كما يرى من المسرحية المنفية رجال الفكر من طائفة الكهنوت ، ولذلك كان لابد من الانتظار طويلا إلى أن تصبغ هذه الأفكار بصبغة إنسانية اجتماعية وتصير قوة اجتماعية عظيمة مهدت لفاتحة ، عصر الضمير » والأخلاق بعد ذلك بعدة قرون .

الفصِّ الرابعُ

العقيدة الشمسية ومكافحة الموت

لقد كنا أثناء تعقبنا لظهور أقدم الآلهة المصرية نلاحظ عهودا من التقدم البشرى قبل العصر التاريخي في وادى النيل، فرأينا أن دنيا الطبيعة قد تركت أثرها تدريجاً في عقول أقدم سكان وادى النيل، فكان نور الشمس والخضرة النياتية مظهرين طبيعيين بارزين أثرا باستقرار على أفكار أقدم مصرى وحياته. ورأينا أن ذلك المصرى صور هاتين القوتين الطبيعيتين الخفيتين في صورة إلهين عظيمين. ونذكر أن هذين الإلهين كانا في بادئ أمرهما مجرد قوتين المجينتين واستمرا يعملان عملهما في دنيا الطبيعة بهذه الصفة فقط على الوجه الأغلب. ورأينا كيف أن إله الشمس انتقل تدريجاً إلى عالم الشئون الاجتماعية المنظمة، وسنلاحظ فيما بعد كيف أن إله الخضرة (١) أيضا سار على نفس المنهاج الذى سار عليه إله الشمس، فكان على كل من هذين الإلهين أن يدخل مع زميله في علاقات أخرى بعد أن اشتركا في ميدان عمل واحد.

وصارت الدنيا التي أصبحا مندمجين فيها معا دنيا جديدة عظيمة . فصياد عصر ما قبل التاريخ ، الذي كان يكتني في التعبير عن عمله بآلة حفر مصنوعة من الظران ينحت بها خطوطا منتظمة على مقبض عاج لسكين حجرية لتمثل حيوانات الصيد ، قد انتقل بعد مرور خمسين جيلا من التقدم الاجتماعي ، إلى مهندس ملكي يستخدم جماعات عظيمة من أصحاب الحرف المنظمين في محاجر ضفاف النيل فاستخرجوا منها أعمدة فخمة منسقة ومعابد للاكمة العظيمة ، وأسوارا للا هرام الضخمة التي تعتبر أعظم مقابر أقامتها يد الإنسان قاطبة . والآن نتساءل ماذا كان من أمر إلهي الطبيعة القديمين في مثل تلك الدنيا التي وصفناها ؟ إن تلك الدنيا لم يقتصر تغيرها العظيم على مظهرها الخارجي ومجرد أساليها

⁽١) أى أوزير.

المادية التي تدل على تقدم أنظمتها الاجتماعية والحكومية ، بل تعدى رقيها إلى نمو حياة الإنسان الباطنة ، فإن هذه الحياة كانت تسير بلا ريب بخطى متساوية مع للك الحقائق الظاهرة التي لم تدون . وظهور أقدم بناء عرف من الحجر وأول مبنى ذى عمد لا يعد فقط برهانا على تقدم كفاءة حياة الجماعة الإنسانية المنظمة ، بل يعد كذلك دليلا على ظهور أفق جديد للشعور البشرى يزداد اتساعه باطراد . فكان بناءو هذا العصر أول شعراء ، إذ مدوا أيديهم بين خمائل النخيل ومستنقعات النيل وقطفوا منها أزهار البشنين والبردى وسعف خمائل النخيل ومستنقعات النيل وقطفوا منها أزهار البشنين والبردى وسعف النخيل ونسقوا بها أروقة ذات عمد على طول مساحات المعابد ، فهم بذلك يعدون أول الفنانين الذين حملوا إلى ردهات المعابد شيئا مقتبسا من جمال العالم لخارجي المنير اليانع . وبذلك صارت المعابد تجمع بين نور الشمس والخضرة لتجميل أشكالها من الحارج ، كما أثرت ها تان القو تان في عقائد ذلك العصر الدمنية من الداخل .

ولما بدأت عظمة الحكومة تظهر فى أشكال العبارة ذات الأبهة والبهاء كان معظم تلك الأشكال دينية . وأن المظهر الفخم للديانة المنظمة يعتبر مقياسا للأثر البالغ الذى أحدثته الحكومة الجديدة فى الديانة . وأن تنظيم الديانة رسميا بتلك الكيفية الطريفة جعلت المؤثرات الاجتماعية بطيئة الآثر فى الديانة ولكن تلك المظاهر الدينية الحكومية كانت صالحة لتبادل التأثيرات بين رجال جماعة من الكهنة أو رجال طو ائف المعابد وجماعة أخرى . وعلى ذلك نجد أن الاعتقادات المحلية أخذ بعضها يندمج فى البعض ، وقد تبينت لنا هذه الظاهرة فى حالة إله الشمس ببلدة عين شمس والإله الصانع « بتاح ، ببلدة ، منف ، غير أن حقيقة هدذا الاندماج تظهر بشكل أوضح فى حالة نور الشمس والخضرة أى حالة إله الشمس و « أوزير » .

م وأن حقيقة الموت قد تركت تأثيراً عظيما فى الديانة المصرية، كما أنها أثرت تأثيراً عميقا فى كل من اللاهوت الشمسى ، واللاهوت الأوزيرى .

وإذا بحثنا الاعتقادات المصرية الجنازية القديمة بوجه خاص أمكننا أن

ندرك ذلك الامتزاج الذى حدث بين المذهب الشمسى والمذهب الأوزيرى ، على أنه لن يكون فى وسعنا فهم امتزاج هذين المذهبين إلا إذا وجهنا نظرنا قليلا إلى تصورات المصرى للحياة بعد الموت وإلى التقاليد المدهشة التى تولدت عن تلك التصورات .

والواقع أنه لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت في نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكأنة العظيمة التي احتلتها في نفس الشعب المصرى القديم . ومن الجائز أن ذلك الاعتقاد الملح في الحياة بعد الموتكان يعضده كثيرا ويغذيه تلك الحقيقة المعروفة عن تربة مصر ومناخها وهي أنها تحفظ الجسم الإنساني بعد الموت من البلي إلى درجة لا تتوافر في أي بقعة أخرى من بقاع العالم . فعندماكنت أشتغل بنقل نقوش بلاد النوبة منذ سنين طويلة (مضت)كانت الأحوالكثيرا ما تضطرني إلى المرور بطرف جبانة . فيها قدما إنسان ميت مدفون في حفرة قريبة الغور ، وقد حسر عن هاتين القدمين وصارتا ممتدتين في عرض الطريق الذي كنت أمر به ، والواقع أنهما كانتا تشبهان كل الشبه الأقدام الخشنة للعمال الذين كانوا يعملون معنا في حفائرنا في تلك الجهة ، ولست أعرف عمر ذلك القبر ، ولكن كل إنسان خيبر بجيانات مصر قديمها وحديثها لا بد أنه عثر على جثث بشرية كاملة (أو على أجزاء منها) قديمة جدا ولكنها باقية محفوظة أحيانا إلى درجة تجعلها تشبه تماما أجسام البشر الأحياء. ولا بد أن مثل تلك المشاهدات حصلت كثيرا للبصريين الأقدمين أيضاً . ولعمرى كان مثل المصرى فىذلك كمثل « مَمْلت »(١) وهو يحمل فى يده جمجمة ويورك ، فلا بدأنه فكر من أعماق نفسه عندما تأمل هؤلاء الأشهاد الصامتين.

ولا بد أن حالة الحفظ التامة المدهشة للأجساد البشرية التي وجد المصرى عليها أجداده الذين كان يكشف عنهم عندما يقوم بحفر قبر جديد في ذاك الوقت قد زادت اعتقاده في بقاء تلك الجثث البشرية إلى الأبد وأيقظت في

⁽١) يشير هنا إلى رواية « هملت » تأليف « شكسبير » أكبر شعراء الإنجليز .

خياله صورا عظيمة في تفاصيلها عن عالم الأموات الذين رحلوا إلى الآخرة وعن حياتهم فيها .

وقد بدأ أقدم تلك الاعتقادات وأبسطها فى زمن سحيق فى القدم حتى انه لم يبق لها ذكر بين الآثار التى وصلت إلينا . على أن جبانات سكانوادى النيل فيها قبل التاريخ ، وهى التى كشف عنها وقامت فيها الحفائر منذ سنة ١٨٩٤ ميلادية ، تدل على أن الاعتقاد بالحياة الآخرة بعد الموت قد وصل إلى مرحلة متقدمة من الرقى ، وقد حفرت آلاف من هذه القبور الواقعة على طول حافة وادى النيل الخصب عاير جع تاريخ أقدمها وجودا بلا شك إلى الألف الخامسة قبل الميلاد ، فكان يوجد الجسم البشرى فيها راقدا فى قاع حفرة لا يزيد عمقها على بضع أقدام وركبتاه مطويتان تجاه ذقنه ، ويحيط به متاع ضئيل من أوانى الفخار وآلات المظر ان والأسلحة الحجرية والأدوات المنزلية الآخرى فضلا عن بعض الحلى الساذجة ، وكان المفروض من وضع كل هذه الأشياء بجانبه هو بطبيعة الحال إعداد المتوفى لحياة أخرى مقبلة بعد الموت .

والمفروض أنه قد مضى ما لا يقل عن ١٥٠٠ سنة مر. عهد المعتقدات القديمة الممثلة فى أقدم هذه المدافن إلى وقت ظهور أقدم الوثائق المدونة التى وصلت إلينا، وهى الوثائق التى اعتمدنا عليها فى أبحاثنا السابقة: تلك الوثائق التى تكشف لنا عن عقيدة دينية نامية لشعب يسمو بسرعة نحو حضارة مادية راقية ، إذ يمكننا بما لدينا من المصادر المدونة أن نتتبع طريق هذا الرقى أثناء عهد الاتحاد الثانى الذى ابتدأ حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م .

وإذ ذاك نجد أمامنا نتائج معقدة جاءت من اختلاط معتقدات كانت فى أصلها نميزة ثم اندمج بعضها بالبعض الآخر وتداولت بذلك الشكل عدة قرون حتى صارت تشبه حزمة خيوط معقدة نما يجعل حلها الآن صعبا جدا بل يكاد يكون مستحيلا.

ويزيد تلك الصعوبات تعقيدا الصورة التي كان يتصورها المصرى القديم لطبيعة الإنسان. فإنه كان يتصور أن شخصية الإنسان الحقيقية في الحياة تحتوى على الجسم المادى الظاهر وعلى الفهم الباطن. ومقره فى اعتقاده هو « القلب » أو « الجوف ، وهما التعبيران الرئيسيان عن « العقل » . وتحتوى هذه الشخصية أيضا على الجوهر الحيوى المحرك للجسم ويقصد به « النفس » كا يلاحظ عند الكثير من الشعوب الآخرى . غير أن هذا الجوهر الحيوى لم يكن بميزا بشكل ظاهر عن « العقل » ، وكان الاثنان يمثلان معا فى رمز واحد هو طائر له رأس إنسان و ذراعاه ، و نجده مصورا فى المناظر التى على القبور وعلى توابيت الموتى يرفرف على المومية ويمد لأنفها بإحدى يديه صورة شراع منشور ، وحمل فى وهذا الشراع هو الرمز المصرى القديم « للهواه » أو « للنفس » . ويحمل فى يده الأخرى علامة هير غليفية ترمز للحياة (١) ، والمصريون يسمون هذا الطائر الصغير الممثل برأس إنسان وجسم طائر « با » .

وبما يدعو للدهشة أن المؤرخين فاتتهم الحقيقة الهامة وهي أن «البا» تظهر للمرة الأولى في الوجود عند موت الإنسان . فقد التجأ القوم إلى كل أنواع الحيل والاحتفالات الدينية ليصبح المتوفى « با » عند موته .

ولما كان من الواضح أن المصرى القديم مثلنا نحن معشر الأحياء لم يكن في مقدوره أن ينتزع شخصا آخر من جسمه ، وذلك باعتبار الجسم وسيلة للإحساس ، فإن المصريين لجأوا إلى استعبال حيل متقنة لتزويد الجسم الميت بكل وسائل الإحساس المختلفة بعد أن تنفصل عنه الروح (با) التي تضم كل هذه الإحساسات . وكان المصرى القديم يعتقد أن صاحبه المتوفى موجود في داخل جسمه ، أو على أقل تقدير لا يزال يملك جسما له مظهره الخارجي كما داخل جسمه ، هذا إذا حاولنا أن نصور المتوفى بصورة ما في نظر المصرى القديم . ومن ثم كان يظهر المتوفى عند ما كان يمثل في الرسوم الجنازية كما كان يظهر في الحياة الدنيا . وكانت رغبة أقارب المتوفى حما المتوفى عند مطابقة لهذه

⁽١) هذه العلامة هى فى الحقيقة رابط الحذاء كما لاحظ ذلك لأول مرة بتكوم جن وهى كلة مصرية تشتمل على نفس الحروف الساكنة التي تحتوى كلة « الحياة » فى المصرية ، غير أن تفسير جن هذا الذى اعتقد أنه صحيح لم يقبله كل عاماء المصرية .

الأفكار _ وهي أن يضمنوا بعث المتوفى بجسمه الذي كان عليه مرة أخرى . ومن أجل ذلك كان يقف الكاهن الجنازى مع أقارب المتوفى وأصدقائه عند قبره مجتمعين عند جسمه الهامد ويخاطب المتوفى الراحل هكذا: « إن عظامك ان تفنى ولحمك أن يمرض وأعضاءك ليست بعيدة عنك » . ومهما تكن هذه الوسائل فعالة فإنها لم تكن تعتبر كافية ، إذ كان من الضرورى للجسم الهامد البعث مرة أخرى والعودة لاستعمال أعضائه وحواسه ، وقد كان يتم ذلك البعث على يد إله معين (Favouring God) أو إلهة مقربة كالإله «حور» البعث على يد إله معين (Favouring God) أو إلهة مقربة كالإله «حور» أو الإلهة « أزيس » ، أو كان الكاهن يخاطب المتوفى مؤكدا له أن آلهة السماء ستبعثه مرة أخرى : « إنها تعيد لك رأسك ثانية ، وتجمع لك عظامك ، وتضم لك أعضاءك ، وتحضر قلبك لجسمك ، . غير أن المتوفى عظامك ، وتضم لك أعضاءك ، وتحضر قلبك لجسمك ، . غير أن المتوفى ولم تكن لديه قوة اضبط جسمه وأعضائه واستعمالها ، ولذلك كان من الضرورى أن تخترع عدة حيل حتى تصير موميته الصامتة إنسانا حيا قادرا على المعيشة في الحياة الآخرة .

ولما كان المتوفى يعجز عن أن يكون ، با ، او روحا بعد الموت كان من الضرورى مساعدته حتى يصير «با». وكان «أوزير ، قد صار روحا بعد موته ، وذلك بعد ان تسلم من ابنه ، حور ، عينه التى انتزعها من محجرها ، ست ، اثناء الشجار الذى قام بينهما . ولمكن ، حور ، لما استرد عينه اعطاها والده ، اوزير ، ، فلما تسلمها الآخير صار روحا . ومن ذلك العهد صارت العادة المألوقة أن يسمى أى قربان يقدم للمتوفى ، عين حور » . وبتلك المكيفية صارت تحدث تلك العين للمتوفى نفس ذلك المفعول كما حدث ، لأوزير ، ولذلك يقول المكاهن : «قم لخبزك هذا الذى لا يمكن أن يجف ، وجعتك التى ولذلك يمكن أن تصير فاسدة إذ بها تصبيخ روحا » .

فكأن هذا الطعام الذي قدمه الكاهن يحتوى على القوة الحفية التي تحول المتوفى إلى روح كما حدث أن حوات ، عين حور ، . أوزير ، روحا .

ومن تلك الحقائق السابقة ، يتضح أن المصريين قد ابتدعو اللبتو في فلسفة نفسية ساذجة حاولوا بها أن يعيدوا إليه حياة الفرد بطرق وعوامل خارجية عن ذاته ، وذلك بإشراف الأحياء وبخاصة الكاهن الجنازى الذي كان يسرف الاحتفالات الدينية الضرورية للوصول إلى ذلك الغرض .

ويمكن تلخيص كل هذه النظريات فى أنه بعد بعث الجسم لا بد من إعادة قوى الإنسان العقلية إليه واحدة فواحدة، ويتم حصوله عليها بوجه خاص، بصيرورة المتوفى روحا « با » . وبتلك الكيفية يعود المتوفى إلى الحياة مرة أخرى وهو حائز لجميع قواه التى تساعده على المعيشة فى الحياة الآخرة ، قلبس من الصواب إذن بعد ظهور تلك الحقيقة أن نعزو إلى قدماء المصر يبن الاعتقاد بخلود الروح أو أنهم عبروا عن الروح بأنها لا تفنى ، أو أن تسكلم عن « آرا » المصرى فى الخلود » بعد الموت .

وعندما يبتدى، المتوفى حيا، جديدة فى الآخرة لا يعرفها كان يساعده فى ذلك ملاك يحرسه يسمى «كا » يظهر فى الوجود مصاحبا الكل إنسان من وقت ولادته ويرافقه فى كل حياته حتى ينتقل قبله إلى عالم الآخرة . اذلك تجعد مرسوما على جدران معبد الاقصر التى مثل عليها ولادة «أمنحتب الثالث » فى مناظر محفورة يرجع تاريخها إلى أو اخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد الأسير الصغير «أمنحتب ، محمولا على ذراع إله النيل تتبعه صورة طفل آخر ، وهذه الصورة التى تنطبق تمام الانطباق فى شكلها الظاهرى على صورة الأمير هى الدكائن الذى يسميه المصريون الاقدمون «كا » ، وهو نوع من الملائكة سام كان الغرض منه على الأخص إرشاد المتوفى إلى ما قدر له فى الحياة الآخرة التى يحد فيها كل متوفى من المصريين ملاكه «الكا» فى انتظاره ، وجدير بنا أن نلاحظ فى هذا المقام أن «الكا» يحتمل أنهاكانت فى الأصل خاصة بالماولك فقط ، فكان كل ملك يعيش فى حراسة ملاكه الحارس . ثم صار هذا الامتياز الملكى بطريق التطور التدريجى حقاً مشاعا لكل عامة الشعب .

و لا يمكننا أن نشك في أن أسلحة ذلك الصائد الفطرى وأو اني طعامه وشرابه مضافا إلى ذلك حليه الشخصية قد وضعت كلها في قبره قبل وجود أى ملك أو قيام أية مملكة في وادى النيل بآلاف من السنين . وقد أخرج للناس تدريجا عهد الملكية والحضارة الراقية التي كانت تصحبها عناداً مادياً متقن الصنع في صورة قبر ضخم مشتمل على أثاثه الجنازى . وأقدم قبر ضخم بناه القوم كان يشبه هرماً ناقصاً ، جو انبه شديدة الانحدار — و يطلق المصريون الآن على مثل ذلك البناء لفظة . مصطبة ، .

وهذا القبر وليد كومة الدفن ذات الشكل المستطيل التي تراها في مدافن ما قبل التاريخ ، وحوطت فيما بعد بجدار حاجز . وكان يصنع أو لا من الأحجار المنحوتة الحشنة ، فصار في ذلك الوقت الذي نحن بصدده يصنع من الأحجار المنحوتة المرصوصة بعناية وإتقان . وقد صارت المصطبة منحدرة بعض الانحدار على غرار ماكانت عليه سابقتها كومة الرمل ، أو الرابية التي لاتزال تشاهد محصورة في داخل جدران المصطبة . وفي الجانب الشرقي للبناء الخارجي من المصطبة الذي كان في الغالب ذا حجم عظيم كانت توجد حجرة مستطيلة الشكل ، يستحسن أن نسميها ، مزارا ، ، وكان يقدم فيها القربان المتوفى كما كانت تؤدى فيها الاحتفالات الحاصة به ، وذلك لأنه لم يكن في مقدور المنوفي بالرغم من بعثه من جديد إنسانا حيا أن يعول نفسه في الحياة الآخرة من غير مساعدة أقاربه الأحياء . وكانت جميع تلك الاحتفالات الجنازية ترجع في معظم طقوسها اللاحيا الأوزيرى ، لأن إله الشمس في المذهب الشمسي لم يقض نحبه بين المناس مثل ، اوزير ، ، ولم يترك بعده أسرة تحزن عليه و تقيم له الاحتفالات الجنازية ، فكان من الطبيعي إذن أن يوضع المنوفي في حماية ، أوزير ، بصفته ابن ، جب ، إله الأرض .

وقد صار من المعتاد من القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد فصاعدا أن يدفن الموظفون المقربون وأشياع فرعون فى الجبانة الملكية كما نشاهد ذلك فى مقابر الاسرة الأولى بالعرابة المدفونة. فكان هؤلاء المذكورون يؤلفون

بذلك نوعا من البلاط الجنازى حول قبر مليكهم الذى خدموه مدة حياتهم الدنيا، وقد صار الملك بذلك مقيدا شيئا فشيئا بالتزامات لمساعدة رجاله الأشراف فى بناء مقابرهم، ومدهم من خزانة الدولة بما يساعد على بهاء جنائزهم وكالها، فكان طبيب الملك المقرب يتسلم إذنا على الخزابة والمحاجر الملكية ليعمل له وباب وهمى ، عظيم فحم من الحجر الجيرى الأبيض الضخم وينقل ليعمل له ويقص علينا المتوفى تلك الحقائق بسرور عظيم وتفصيل مبين في نقوش قره .

وفى نقوش أخرى نشاهد فرعون محمولا فى محفته الملكية على الطريق الصاعد من الوادى إلى هضبة الصحراء ليشرف على بناء هرمه فيشاهد هناك مقبرة لم يكمل بناؤها بعد لأحد أشراف رجاله المقربين و دبحن الذى ربما كان يعتمد على سنوح فرصة رضا ملكى مثل هذه تلفت نظره إلى قبره الذى لم يتم بناءه بعد، ويخصص الملك فى الحال خمسين عاملا يقومون بالعمل فى مقبرة ذلك الشريف ، ثم أمر فيما بعد المهندسين الملككيين والحجارين الذين كانوا يعملون فى معبد الملك المجاور للمقبرة أن يحضروا ولدبحن الذى أسعده الحظ و بابين وهميين ، وأحجارا لواجهة مقبرته وكذلك تمثالا ليقام فى قبره .

⁽١) يشير هنا إلى الموظف الكبير «وني» (انظر مصر القديمة للمعرب جزء أول).

وفى مثل تلك المناسبات التى كانت كثيرة الحدوث كان ينتظر من الملك أن يقوم بتحنيط الشريف المقرب ودفنه من أمواله الحاصة . فمن ذلك أن الفرعون بعث طائفة موظفيه الجنازيين من كهنة ومحنطين لاستقبال الشريف «سبنى» عند عودته من السودان حاملا جثمان والده (۱) .

وبمثل ذلك أرسل الملك أحد قواده لإنقاذ جثمان شريف منكود الطالع كان قد ذبح مع كل جنو ده عن بكرة أبيهم بيد البدو عند شاطى. البحر الأحمر أثناء بناء سفينة كان يراد الرحلة بها إلى بلاد . بنت ، أي ساحل الصومال، ويحتمل أن ربنت، هذه هي أرض وأوفير، الوارد ذكرها في التوراة. ومن الواضح أن الفرعون قد رغب في إنقاذ جثمان ذلك الشريف لكي يجهزه بعناية إلى الدَّار الآخرة ، وإن كان منقذه لم يذكر لنا شيئًا عن ذلك في نقوشه القصيرة. ويرجع السبب في اهتمام الملك بذلك كل هذا الاهتمام إلى ماكان بينه وبين أي موظف مقرب من المودة الشخصية . وقد ظهر ذلك واضحا في حادث «وشبتاح ، أحدكبار وزراء الأسرة الخامسة حوالى سنة ٢٧٠٠ ق · م · · إذ حدث أن الملك وأسرته وحاشيته كانوا ذات يوم يتفقدون مبانى عمارة حديدة لا يزال العمل جاريا فيها تحت إشراف , وشبتاح ، الذي كان رئيسا اللوزراء ورئيسا لمهندسي العمارة أيضا. فيعجب جميع الحاضرين من المبني، وعندنُذ يلتفت الملك إلى رئيس وزارته الامين مثنيا عليه ، ولكنه يلاحظ أن . وشبتاح ، الايعي كلمات العطف الملكي فيصيح الملك حتى يزعج صياحه رجال حاشيته ثم ينقل ذلك الوزير الذي أصيب بالفالج سريعا إلى البلاط ويطلب الملك على عجل الكهنة وكبار الأطباء لإسعافه . ويحضر الملك صندوقا به قراطيس طبية ، غير أن كل ذلك لم يجد شيئًا لأن الأطباء أعلنوا أن حالة الوزير مو تسة . وعند ذلك ينزل بالملك الحزن ويعتزل في حجرته مصلياً ولرع، ، ثم يقوم بكل التر تيبات اللازمة لدفن . وشبتاح ، ويأمر له بصنع تابوت من الأبنوس ويأمر بتضميخ الجثة بالعطور في حضرته شخصيا . ثم أذن ابن ذلك الشريف المتوفى في بناء القبر الذي منحه الملك المتوفى وحبس عليه الأوقاف.

⁽١) انظر مصر القديمة للمعرب جزء أول..

كذلك تمتع بشبه هذا العطف الملكى شريف آخركان قد أراد أن يدفن ابنه البار معه فى نفس المقبرة ، فيقول الابن « لقد التمست من جلالة سيدى الملك « بيبى الثانى » عاش إلى الابد أن يمن علينا بتابوت وملابس وعطور من عطور الأعياد لأجل « زاو » [والده المتوفى] » ، فأمر جلالته مدير الأوقاف الملكية بإحضار تابوت من الخشب وعطور من عطور الأعياد ، وزيت وملابس بما يقدر بنحو ٢٠٠ قطعة من نسيج الكتان الجيد ، ومن كتان الجنوب الجميل . . . على أن تؤخذ كلها من البيت الابيض [الخزانة الملكية] التابع للبلاط لاجل « زاو » هذا .

وبعد أن يحتفل بدفن المتوفى بتلك الأبهة الملكية ويجهز بمثل ذلك الأثاث الفاخر تبق مسألة من يعوله بعد ذلك ؟ لقد كان الشعور فى جميع العصور ولو نظريا — أن المتوفى ما كان ليجسر على وضع كل تلك المسئولية فى يد الأحياء من أسرته ، إذكانت الآسرة تشول فى النهاية إلى فرع منها تفتر عنايته بالأمر حتما ثم تأخذ فى الزوال حتى تختنى جملة واحدة ، ومن أجل ذلك كان الشريف يقوم بعمل وصايا مدونة بعناية وهبات يوقف دخلها كله لتموين قبره وتقديم القرابين من البخور والدهان والطعام والشراب والملابس بمقادير وفيرة وفى فترات متعددة . ومن الجائز أن يكون هذا الدخل مصدره أملاك الشريف نفسه ، وقد يكون من المربوط على وظائمفه السابقة ومرتباته الإضافية التى تقتضيها مرتبته فى الدولة . وعلى كل حال كان يخصص من كل ذلك الدخل جزء ثابت لصيانة قبر المتوفى وإقامة شعائره اليومية .

وقد شاهدنا في عدة أحوال أن الوثيقة القانونية الضامنة لتلك الأوفاف ، قد نقشت على جدار مزار القبرنفسه ، ومن ثم حفظت لنا حتى الآن . فقد خلف لنا « حبزافي » إحاكم المقاطعة وأميرها] في أسيوط عشر وثائق مدونة بإتقان على الجدار الداخلي لمزار قبره ، وكان الغرض منها تخليد بيان الخدمات التي كان يرغب في استمرار إقامتها في قبره أو من أجله بوجه عام .

وكان ذلك الوقف بالمغ أحيانا مقدارا عظيما من المال بحالة مدهشة . فني القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد أوقف على قبر الأمير « نكاورع » ابن الملك

«خفرع» ما لا يقل عن اثنتي عشرة بلدة من أملاكه الحاصة، وربطكل دخلها على الصرف على صيانة قبره . وفي عهد الملك « وسركاف » في منتصف القرن الثامن والعشرين ق . م . عين مدير قصره ثمانية من الكهنة الجنازيين لحدمة قبره. وبعد ذلك بقر نين نجد أن أميراً من الوجه القبلي وقف على قبره محاصيل إحدى عشرة قرية وضيعة . وفي قبر من تلك القبور نجد أن دخلكاهن جنازي كان وحده يكني للصرف على قبر ابنته على النمط الذي سنه صاحب القبر لنفسه . يضاف إلى هذه المخصصات التي هي من موارد الشريف الخاصة ما كان يهبه الملك في كثير من الاحوال من هات جديدة لاى شريف بعد وفاته ، وبذلك كان يزيد في المخصصات التي ربطها الشريف بنفسه على قبره أثناء حياته ، أو كان الملك يقوم بصرف كل المخصصات اللازمة للقبر من الدخل الملكي .

والظاهر أن هذه المخصصات فضلا عن كونها تتى المتوفى شر مخاوف الجوع والعطش والبرد فى الحياة الآخرة كان يقصد بها أكثر من أى شىء مساعدته على الاشتراك فى إقامة أهم أعياد السنة ، واحتفالاتها الدينية ، فإن شأن المصرى فى ذلك كشأن أى شرقى آخر يجد السرور العظيم فى الاحتفالات الدينية فلم يرض أن يتخلى بعد ما فارق الحياة الديبا عن الملاذ المحيلة التى كانت تتاح له كثيرا فى مثل هذه الفرص . لذلك كان تقويم الأعياد عنده بمكان عظيم من الأهمية ، فكان مستعدا لتخصيص دخل وفير يساعده على إقامة تلك الاحتفالات الحاصة بكل أيام التقويم الهامة فى عالم الآخرة ، كاكان ينفق عليها بسخاء بين أصدقائه فى حياته الدنيا . بل إنه كان فى الواقع ينظر أن يشترك فى الاحتفال بهذه الفرص المرحة بين أصدقائه فى المعبد كاكان معتادا فعل ذلك فى حياته الدنيا . فكان يأس تنفيذا لذلك أن يشاد له تمثال فى ردهة المعبد . وكان الملك أحيانا يأمر حفاريه بنحت هذا التمثال وإقامته داخل المعبد ليكون منه بمثابة عطف سام يميز به من يشاء من أشراف رجاله العظاء .

وكذلك كان شريف عصر الأهرام ينصب فى قبره أيضا تمثالا من الحجر أو الخشب يمثل صورته الحقيقية تمثيلا تاما فى حجمه الطبعى وملونا بالألوان

الطبيعية ، وكان هذا التمثال يخنى فى حجرة سرية مخبوءة فى أصل بناء المزار ، وكثيرا ما كان الملك يهدى أمثال هذه التماثيل لرعماء الأشراف الممتازين من رجال حكومته وبلاطه . ومن البدهى أن ذلك التمثال الذى يمثل المتوفى [وهو أقدم شيء عرف من نوعه فى الفن] كان الغرض منه أن يقوم مقام المتوفى الذى صاع جسمه ، وبذلك يكون فى مقدوره أن يعود إلى المعبد ليتمتع على الأقل بشبه حضور جماى [بتقمصه هذا التمثال] مم يعود بنفس تلك الطريقة إلى مزار قبره حيث يحتمل أن يجد صورا أخرى لجسمه فى الحجرة السرية الملاصقة للمرزار فمتقمصها .

من مثل هذه الطقوس نرى ظهور الحياة الآخرة في شكل أكثر تقدما وأحب إلى الناس من ذى قبل، وقت أن كانوا يتصورونها في شكل ساذج بسيط. وتدل هذه الآراء الجديدة على ظهور أول ميل نحو الاعتراف بشخصية الفرد كما يلاحظ ذلك في تلك التماثيل التي تصور هيئة صاحبها بالضبط، والتي تعد أقدم ما عرف من نوعها. وهي تمثل لنا علية القوم المتعاظمين فقط آى تمثل طبقة الاشراف رجالا ونساء]، أما عامة الشعب فكانوا وقتئذ لا يزالون من غير شك يعتقدون أن موتاهم يسكنون القبر أو يعيشون في عالم الغرب المظلم، أى في تلك المملكة السفلية التي يحكمها الآلهة الجنازيون القدامي الذين صار زعيمهم في النهاية «أوزير». أما عظهاء البلاد أى الملك وبطانته على الأقل فقد انبثق أمامهم الآن فجر مصير أسعد حالا من مصير عامة الشعب، إذ كان في مقدورهم أن يسكنوا حسب رغبتهم مع إله الشمس في علكته السهاوية الفاخرة. ومن ذلك الوقت فصاعدا نجد في القبور الملكية ما مدل على هذه الآخرة الشمسية.

وقد كان من المعقول أن الملك نفسه ينتظر أن قبره العظيم يتغلب على عوامل الدمار والفناء التي قد تصيب مقابر أشراف رجاله التي هي أقل متانة من قبره، وكذلك كان يعني بتنظيم أوقافه لتبقى ثابتة أكثر من أوقاف معاصريه الذين هم أقل منه قوة. والواقع أن الهرم اعتبر في كل الأزمان أثبت شكل مجر الضمير

هندسى فى البناء . فقد كان الفرعون الراقد تحت هذا الجبل الضخم من الأحجار المنيعة يتطلع إلى خلود جسمه وشخصيته التى كانت مرتبطة به ارتباطا وثيقاً لا انفصام له . وقد يمتد بنا البحث إذا فحصنا أصل الهرم من جهة هندسة بنائه ، ولكن من المهم أن نلاحظ فى هذا المقام أن القبر الهرمى الشكل كان رمزا شمسيا بالغا حد الغاية فى التقديس قد أقيم فوق جثمان الملك ليحيني مطلع الشمس التى كان الفرعون من سلالنها .

والواقع أن الملككان يدفن قديماً تحت نفس رمز إله الشمس الذيكان منصوبا في حجرة قدس الأقداس بمعبد « عين شمس » . وهذا الرمز الهرمي الشكل كان إله الشمس قد اعتاد أن يظهر جائماً فوقه في هيئة الطائر مالك الحزين (فنكس) منذ اليوم الذي خلق فيه الآلهة . لذلك لما ظهر الهرم الملكي بشكل جبل شاهق فو ق ضريح الملك، وقد أشر فعلى المدينة الملكية التي كانت مبنية في أسفله ، وعلى الوادى الممتد إلى ما بعده بعدة أميال ، كان من غير شك يعد أسمى شيء يرحب بإله الشمس في كل البلاد عندما يرسل أشعته الصباحية الساطعة على قمة الهرم الوهاجة قبل أن ينشر ظلاله على مساكن الفقراء المنتشرة بأسفله ببرهة طويلة . وقد عترنا فعلا على قمة هرم وهي قطعة من الجرانيت المصقول البديع هرمية الشكل ملقاة عند قاعدة هرم الملك « امنمحات ، الثالث بدهشور وقد نقش على أحد جوانب هذا الحجر وهو من غير شك الجانب الذي كان يواجه الشرق رسم شمس مجنحة فوق صورة عينين نقش تحتهما هاتان الكلمتان وجمال الشمس ، . فالعينان تشيران هنا بطبيعة الحال إلى فكرة المشاهدة التي تفهم من تينك الكلمتين وجمال الشمس ، . ونجد أسفل ذلك نقشا آخر يتألف من سطرين يبتدى ْ بقوله : ملقد فتح وجه الملك « امنمحات الثالث ، ليتمكن من رؤية رب الأفق عندما يقلع في عرض السهاء، [أنظر صورة ٦].

ويجب أن نرى فى اختيار الشكل الهرمى ـــ الذى يعد أعظم رمز شمسى ــ لقبر الملك برهانا آخر على سيادة المذهب الشمسى فى البلاط الفرعونى . ومما

يجدر بنا ملاحظته فى هذا المقام أن من أهم دواعى المحافظة على الشكل الهرمى. عند إهداء قبر ملكى ، الاحتماء من «أوزير » بوجه خاص وطائفة آلهته .

ولم يكن الهرم مبنى منعز لا قائماً بذاته ، بل كان جزءاً من بحموعة ، وبعبارة أدق الجزء الأعظم من بحموعة رائعة من البناء تشغل موقعاً بارزاً على حافة هضبة الصحراء المشرفة على وادى النيل . إذ كان قائماً على الجانب الشرقى للهرم معبد منخفض ملاصق لمبنى الهرم نفسه ، له رواق ذو عمد جميلة قائم بمقدمته ، يؤدى إلى ردهة ذات عمد خلابة تحيط بها حجرات المعبد على كلا الجانبين ، وكان يقوم في مؤخرة المعبد مكان مقدس ، وكان الجدار الذى خلف ، قدس الاقداس ، هذا ، هو واجهة الهرم نفسه الشرقية . وقد أقيم أمام هذا الجدار باب وهمى ملاصق له يمكن للملك المتوفى الخروج منه من ضريحه ليتسلم القرابين المقدمة له و يتمتع بها في ذلك المكان .

ويلى ذلك طريق مؤدية من وادى النيل إلى حيث مستوى الهضبة المقام فوقها الهرم أو المعبد، وكانت تلك الطريق مسقو فة ذات طول عظيم، وكانت مقامة من أحجار صلبة ضخمة وممتدة إلى نفس باب المعبد، وكان يقوم عند الطرف الأسفل من ذلك الطريق معبد آخر فخم ذو عمد يعتبر بمثابة باب هائل للطريق، وقد سمى الاستاذ، ريزنر، هذا المعبد بحق « معبد الوادى » . ومن المحتمل أن ذلك المعبد كان يوجد بداخل جدران مدينة المقر الملكي ومن المحتمل أن ذلك المعبد كان يوجد بداخل جدران مدينة المقر الملكي التي كانت في أسفل الوادى . وبهذين المعبدين كانت بطبيعة الحال تقام الشعائر الدينية الجنازية التي كانت تجرى بنظام على روح الملك ، فهما شبيهان في أصلهما بمزار قبر الشريف الذى تمكلمنا عنه فيها سبق .

و تؤلف مجموعة العمائر المركبة من الهرم والمعبد الجنازى والطريق المسقوفة ومعبد الوادى أعظم فكرة فى هندسة البناء ظهرت فى ذلك العصر المبكر. وقد أضاف ما بق من آثارها المكشوفة فى السنوات الاخيرة إلى معلوماتنا فصلا جديدا فى تاريخ العمارة.

وقد أنفق كل من فراعنة الأسرتين الثالثة والرابعة [حوالى٣٠٠٠—٣٧٥٠-ق.م.] جزءا كبيرا من ثروتهم فى إقامة ذلك القبر الشاسع ليحوى جثمان. الفرعون ويضمن بقاء بعد الموت ، وبتلك الكيفية صار الهم الآكبر لبقاء الملك في الحياة الآخرة الشغل الشاغل للحكومة ودولاب أعمالها . وكثيرا ماعجز الملك عن إتمام تلك المجموعة البنائية قبل موته ، وبذلك كان يلتي على عاتق خلفاء الملك أعباء إتمامها كما كانوا يعملون كل ما في وسعهم في الوقت نفسه لإتمام مقارهم أنفسهم . وكان الكهنة عند الفراغ من بناء تلك المجموعة يهدون صيغا منظمة لتحفظ المعبد والهرم . أما لوازم الملك وهو راقد تحت بناء الهرم فكانت راعي بكل عناية وذلك بإقامة الشعائر الرائعة في المعبد الملاصق لقبره ، ولا نعرف من تلك الشعائر شيئا سوى الأجزاء التي حفظت لنا منها في متون الأهرام ، وهي تدلنا على أن ما كان مألو فا إقامته في الحياة من الأعياد كان يقام مثله للملك المتوقى ، وبطبيعة الحال يكون ذلك بأعظم درجة من البهاء .

ومن البدهي أن تلك الشعائر كانت تتناول بوجه خاص تقديم الطعام الوفير والملابس وما أشبه ذلك. وكائنت الصيغ التي يلقيها السكهنة الجنازيون تقدر بمائة وثمان وسبعين صيغة، أى أنها كانت تشغل به من متون الأهرام. وكانت تشمل أسماء ما يقدم من الطعام والشراب والملابس والدهان والروائح العطرية والبخور، ويظهر لنا من تلك الأسماء ما كانت تحويه مائدة الملك من الألوان التي لا يحصيها العد _ ومثل ذلك عن ملابسه ومواد زينته وغير ذلك من لوازمه في الحياة الآخرة.

ونجد فى الأوانى الفاخرة التى كشفها الاستاذ ، برخارت ، فى معبد الملك « نفر اركارع ، بأبى صير [من القرن الشامن والعشرين قبل الميلاد] دليلا آخر على الابهة الملكية التى كانت تقام بها شعائر القربان ، فى حين أن جمال معبدى الهرم وعظمتهما قد هيئا فى حد ذاتهما مكانا فريدا تؤدى فى داخله كل تلك الفخامة الجنازية ، فكان السكاهن بتلاوة نحو ثمانين صيغة من تعاويذ قربان الشعائر الجنازية يضع أمام الملك المتوفى تلك الملاذ الصورية التى كان يتمتع الشعائر الجناذية يضع أمام الملك المتوفى تلك الملاذ الصورية التى كان يتمتع المهرام . وفى أثناء تأدية هذا العمل كان الكاهن يدخل إلى الحجرة السرية الواقعة خلف ردهة المعبد والمؤدية إلى واجهة الهرم نفسه ، وهنا يواجه الكاهن الواقعة خلف ردهة المعبد والمؤدية إلى واجهة الهرم نفسه ، وهنا يواجه الكاهن

الباب الوهمي العظيم الذي كان يمكن روح الملك أن تأتى منه لتدخل المعبد ثانية عند خروجها من الضريح الملكى الذَّى يقع على عمق يعيد تحت ذلك المبنى الشامخ المقام فوقه . وكان الكاهن وهو واقف أمام هذا الباب الوهمي يخاطب الملك كأنه حاضر أمامه ، مقدما له معرضاعظيما من أثمن الهدايا، ويصحب كل هدية منها بصيغة معينة عند تقديمها طبقا لما ذكرناه عن ذلك فيما سبق . غير أن خقيقة الموت الصارخة كان من المستحيل تجاهلها في تلك الصيغ التي لم توضع إلا للاعتقاد بأن الملك المتوفى لا يزال حيا ويشعر بكل ما يحتاجه الأحياً. في الدنيا ، إذ نجد أن الكاهن كان يشعر وهو في تلك الحجرة التي كان السكون مخيها عليها شعورا شديدا بصمت ذلك الملك الراقد المدفون تحت ذلك الهرم الهائل. ومن أجل ذلك كان يناديه من وقت لآخر ليستيقظ من سباته العميق ويشاهد الطعام والهدايا المبسوطة أمامه . وخوفا من سقوط شيء من هذه المواد المقربة كان الكاهن يلخصهاكلها في وعده للملك فيقول: « ها تقدم لك كل القرابين وكل الضحايا وكل ما ترغب فيه وكل حسن لك إلى الأبد مع الآلهة » . وعلاوة على كل هذه الصيغ الخاصة بالهدايا الجنازية كانت توجد بعض تعاويذ لطرد الجوع من أعضاء جثمان الملك ، فكان الكاهن يرتل هذه التعاويذ للملك من وقت لآخر أيضا .

ولما كان ملوك عصر الأهرام المبكر [أى فى القرن الثلاثين قبل الميلاد] يعتقدون فى صيانة جثمانهم بالمحافظة على تلك الإجراءات، فإنه كان بالبديهة أن يتطلعوا بثقة إلى أنهم سيعيشون عيشة خالدة فى الحياة الآخرة. ولكن هل كانت سلالة ذلك الملك الشرق لا تسأم من استمرار تقديم تلك القرابين الجنازية له دائماً أبدا؟ سنرى!

والواقع أن مثل هذه الصيانة تحتاج في استمرارها إلى توظيف طائفة عظيمة من الكهنة ليظلوا قائمين بأعباء تلك الخدمة في معبد الهرم على الدوام، ولم يبق لنا التاريخ أية قائمة تتضمن أسماء كهنة أي معبد ملكي كان. وكان أولئك السكهنة يعيشون على الهبات السخية التي كان في وسع سلطة البيت المالك أن يضمن استمر اربقائها مدة طويلة.

فمن ذلك أفّ هيئة كهنة هرم الملك « سنفرو » بدهشور وأوقافه [القرن الثلاثين ق م] قد بقيا محترمين حتى لقد أعلن إعفاء طائفتهم من كل الرسوم والضرائب الحكومية بمقتضى مرسوم ملكى أصدره الملك دبيبي الثانى، في عهد الأسرة السادسة ، أى بعد وفاة الملك « سنفرو ، المذكور بثاثمائة سنة ، وذلك بالرغم من حدوث تغيير في الاسرة المالكة مرتين منذ وفاة الملك « سنفرو » . وكان من المحتم في أمثال هذه الأوقاف المتراكمة من جيل إلى جيل أن يظل توزيعها قائما إلى أن تبطل في نهاية أمرها و تزول من جراء ذلك .

فنى القرن الثلاثين ق. م . مثلا حوّل الملك « سنفرو » نفسه إلى أحد أشراف رجاله مائة رغيف يوميا من أوقاف المعبد الجنازى الخاص بأم أولاد الملك المسهاة « نيها عتحب ، وكانت هذه الملكة قد توفيت فى ختام الأسرة الثانية ، أى قبل العهد الذى عاش فيه «سنفرو» المذكور بنحو جيلين . وبذلك نرى أن الملك « سنفرو » نفسه ، إن لم يكن قد اغتصب دخل تلك الملكة الجنازى ، فإنه قد تصرف فيه بمكافأة أحد رجاله من دخل ذلك الوقف ، بعد أن أدى ذلك الدخل المهمة التى خصص من أجلها نحو قبر تلك الملكة .

وكذلك نجد بنفس تلك الطريقة أن الملك « سحورع » عندما أراد أن يكافى « برسن » (أحد رجال الاشراف المقربين إليه) ، حول إليه دخلا من الخبر والزيوت التي كانت فيما سبق تصرف كل يوم للملكة ، نفر حتبس » . وقد اضطر الملك إلى اتخاذ ذلك الإجراء لعدم وجود أى مورد آخر تحت تصه فه .

ومن تلك الإجراءات السالفة الذكر يتضح لنا أن القرابين الجنازية لم تمح من الوجود، بل كانت مستمرة سارية الاستعمال بعد وقفها قربة لأى قبركان. غير أننا نجد فيما فعله كلمن الملك «سنفرو» والملك «سحورع» تلميحا للطريقة الوحيدة الممكنة الحصول للتخلص من تلك الالتزامات المورطة التى نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور، وذلك بتحويل القرابين التى كانت ملتزمة فيما مضى لقبور عتيقة تقادمت عليها العهود إلى قبور أخرى

جديدة حديثة العهد . وحتى مع اتباع تلك الطريقة فإن عدد القبور الملكية الذي كان آخذا في الازدياد جعل استعمالها باطراد أمرًا صعباً ، بلكان مجرد الإشراف على تلك القبور ومباشرة إدارتها بقصد المحافظة عليها أمرا صعبا أيضا . ومن ثم وجدكهنة الملك مسحورع، في ختام القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد عندما أصبحوا غير قادرين على المحافظة على معبد هرم الملك، أن الأفضل والأكثر اقتصادا أن يقيموا جدرانا على مداخل المعبــد الجانبية ويتركوا للدخول بابا واحدا هو الذي في طرف الطريق المؤدى للمعبد . والظاهر أن ذلك كان في اعتقادهم عملا صالحا لأنهم دونوا أسماء طائفة الكهة الدين قاموا بهذا العمل على جدران الأبواب التي سدوها مهذه الطريقة ، ثم عثر بعد ذلك على صورة للإلهة وسخمت ، رسمت في المعبد فقدست عرضا إذ كانت تلك الإلهة موضع احترام وعبادة من أهالى القرى المحبطة بالمعبد، وقد بقيت تلك القرى تقوم باحترام تلك الإلهة وعبادتها عدة قرون، فكان ذلك سببا في صيانة جزء كبير من المعبدكان لا بد من مصيره إلى الخراب والدمار منذ زمن طويل لولا حرمة تلك الإلهة . وقد كان حظ الملك ، نفر أركارع ، خلف " سخورع ، أسوأ منذلك ، إذ هدم أحد خلفائه ، نوسررع ، بعد وفاته ببضع سنين الطريق المؤدية إلى المعبد الجنازي حتى يتمكن من تحويلها إلى طربق لمعبده القريب من تلك الجهة . وقد نتج من ذلك أن كهنة « نفر أركا رع » لما صاروا غير قادرين على الإقامة في أسفل الوادي هاجروا إلى الهضبة وأقاموا مساكنهم المبنية من اللبن حول ذلك المعبد تارة أو ملاصقة لواجهته تارة أخرى ، وكانوا لا يزالون يقومون بنأدية وظائفهم بالمعبد، ولما كانت مواردهم آخذة فى النقصان والتقلص فقد كانت مساكنهم المذكورة تتحول تبعا لذلك إلى أكو اخ حتى انتهى أمرها بالزحف إلىردهة المعبد وحجراته. ولما صار الـكهنة · إذ ذاك في حالة فقر باد فقد استولوا على جميع المعبد وجعلوه حياً لهم. ولما صاروا في نهاية الآمر ولا عائل لهم هجروا أكواخهم المتداعية نهأئيا فاختلطت أنقاضها بأنقاض المعبد نفسه ، ولما جاء عصر الدولة الوسطى بعد وفاه الملك « نفر أركا رع ، بنحو ٢٠٠ سنة كان معبد هذا الملك قد صار مدفونا

على عمق عدة أمتار من التراب المتراكم فوقه ، ثم استعملت تلك الأكوام التي تعلوه جبانة للدفن ، وقد كشفت الحفائر لنا فيها عن مدافن على عمق متر أو متربن من رقعة ذلك المعبد .

وقد أصاب نفس ذلك المصير جبانة الأسرة الرابعة العظيمة بالجيزة ، وذلك أن الكهنة الجنازيين الذين كان أجدادهم يديرون الأوقاف الفخمة التي حبست على أعظم الأهرامات حجها — قد حشروا مدافنهم في الطرقات والمساحات الحالية بين المقابر الملكية القديمة الحاصة بالسلالة البائدة ، على أن أو نثك الكهنة أنفسهم قد انقرضوا أيضا حوالي سنة ٢٥٠٠ ق . م . أي بعد أن أسس الملك ، خوفو ، جبانته بالجيزة بنحو . . ٤ سنة . والواقع أنه لم يمض زمن طويل بعد سنة . ٢٥٠ ق . م . حتى صارت منطقة أهرامات الدولة القديمة البالغ طولها نحو ٢٥ ميلا من « ميدوم » جنوباً إلى « الجيزة » شمالا خلاء مقفرا .

وإننا ندرك كنه هذه الحالة المحزنة من آراء رجال الفكر فى العهد الإقطاعى الذى جاء بعد ذلك بنحو ٥٠٠ سنة ، وذلك عندما تأملوا فى انهيار تلك المقابر الضخمة .

على أن ما صار أمراً واضحاً جداً بعد انقراض فراعنة عصر الأهرام العظيم كان أمراً قد أخذ العقل يدركه قبل سقوط الدولة القديمة بزمن طويل، فإن أهر امات مصر تمثل لنا ذروة الاعتقاد فى كفاءة العتاد المادى التامة لضمان سعادة المتوفى فى الحياة الآخرة. فهى المظهر الرائع للكفاح الطويل للتغلب على القوى المادية المحضة، وهذا الكفاح ربما ترجع بدايته إلى نحو مليون سنة قام به صيادو عصر ما قبل التاريخ بمفردهم، أما فى ذلك العهد الذى نحن بصدده فقد قامت به قوى أمة مدربة بأسرها، فأهرام الجيزة الكبيرة التى تمثل لنا جهوداً جبارة استنفدت كل مو ارد دولة عظيمة ترمى جميعها إلى غرض واحد سام هو وقاية جثمان رجل واحد هو رئيس الدولة وقاية أبدية داخل غطاء من المبانى الضخمة جدا، حتى يتسنى لذلك الجثمان الملكى أن يقاوم بتلك الطريقة المبانى الصخمة جدا، حتى يتسنى لذلك الجثمان الملكى أن يقاوم بتلك الطريقة

المادية المحصة غائلة كل الآباد ويقهر بتلك القوة الآلية الأسباب المانعة من الحلود . على أن التخلى عن بناية الأهرام الصخمة مثل أهرام الجيزة ، والاكتفاء فى نهاية الأمر بكتابة متون الأهرام منذ عهد آخر ملك فى الأسرة الخامسة حوالى سنة ٢٦٢٥ قبل الميلاد داخل أهرام صغيرة ، يؤكد لنا الاعتقاد بوجود السعادة فى الحياة الآخرة فى مكان ما آخر ، أى الاعتقاد فى وجود نعيم فى مكان ما بعيد لا يعتمد فى إدراكه على الوسائل المادية فقط . فهذا الاعتقاد فى مكان ما بالحديد يؤكد إلى حد ما أن الأكوام من المبانى لا يمكنها أن تهب الإنسان الحياة الابدية ، بل يجب أن ينالها بروحانيته ؛ وبذلك أخذ أقدم أتباع أعقيدة القوة المادية يتعلمون أول درس لهم ، وأوشك عصر الاخلاق يظهر وإيشل ما عمله بناة الإهرام .

الفصِّل لخامِنُ متون الأهرام وصعود فرعون إلى السماء

تمد آلا متون الأهرام والمسرحية المنفية بأقدم مصدر وصل إلينا عن التفكير البشرى عند الأقدمين . فلدينا في هذين المصدرين أقدم مدى يمكن لنا الآن إدراكه عن تاريخ الإنسان العقلي . وكان الظن السائد أن كل الأهرام كانت عارية من النقوش إلى أن اقتحم العبال المصريون الذين كانوا يعملون في الحفائر تحت إشراف « مريت » في سنة ، ۱۸۸ ميلادية — وهي السنة السابقة لوفاته — هرم ، بيي الأول ، ، ثم دخلوا فيما بعد هرم الملك م مرنزع » ، فو جدوا جدران أروقة هذين الهرمين و عمراتها و سجراتهما مغطاة بآلاف الاسطر من النقوش الهيرو غليفية ، وهذه النقوش هي التي يطلق عليها الآن اسم « متون الأهرام » .

وتوجد هذه اللتون منقوشة فى خمسة من أهرام سقارة التى كانت تعد جبائة « منف ، القديمة (١) . وقد قام بوضعها هنالك طائفة من الفراعنة وهم : الملك الأخير فى الأسرة الخامسة ثم الملوك الأربعة الأول الذين خلفوه فى الأسرة السادسة . وقد حكموا حسب ترتيمهم المذكور مدة تقرب من قرن ونصف قرن تبتدئ حوالى ٢٦٢٥ ق . م . وتنتهى حوالى سنة ٢٤٧٥ ق . م . وتنتهى حوالى سنة ٢٤٧٥ ق . م . أي أنهم حكموا طوال القرن السادس والعشرين ، وعلى الأرجح ربع قرن قبل هذا التاريخ أيضا وربع قرن آخر بعده .

غير أنه يظهر لنا أن محتويات هذه المتون تشتمل على مادة أقدم سن عصر النسخ التى وصلت إلينا، وتشير النسخ الحنس التى بأيدينا إلى مادة كانت موجودة فيما مصى، ثنم اختفت بعد، فإنك تقرأ فيها عن « فصل أولئك الذين يصعدون» و « الفصل الخاص بأولئك الذين يرفعون أنفسهم » . وذلك يدل على أن هذين

⁽١) عثر حديثاً على متون أخرى في سقارة مثل هرم الملكة « نيت » .

الفصلين كانا مستعملين قديما في مناسبات لحوادث مختلفة في أساطير ذلك العهد القومية ، وبذلك يعتبر هذان الفصلان أقدم عهدداً من متون الأهرام التي بأيدينا.

وكذلك توجد فى هذه المتون إشارات إلى الخصومات التى كانت قائمة بين ملوك الشمال [الوجه البحرى] وملوك الجنوب [الوجه القبلى] مما يدل على أنها كندت قبل عهد الاتحاد الثانى أى قبل القرن الرابع والثلاثين ق . م . ، هذا إلى فقرات آخرى يرجع تاريخ عهدها إلى باكورة عهد الاتحاد الثانى أى فى الوقت الذى كانت فيه تلك الخصومات ما زالت مستمرة ، وكان فيه ملوك الجنوب بالرغم من تلك الخصومات قابضين على زمام الحكم فى الشمال ومحافظين على وحدة الدولة ، وقد كتبت كل هذه الفقرات بوجهة نظر أهل الجنوب على وحدة الدولة ، وقد كتبت كل هذه الفقرات بوجهة نظر أهل الجنوب

على أننا نرى من ناحية أخرى أن بعض متون الأهرام قد ألفت فى زمان متأخر معاصر لنفس الدولة القديمة ، مثل الصيغ التى وضعت لحماية الهرم والتى لم تكن بطبيعة الحال أقدم من ظهور الشكل الهرمى فى القرن الثلاثين ق م م وظهر كذلك فى خلال مدة القرن ونصف القرن المذكورة التى كتبت فى أزمنتها نسخ متون الأهرام الحسة اختلاف بين بعض النسخ وبعضها الآخر؛ فإن لدينا حججاً قاطعة تدل على إدخال تنقيح ظاهر على النسخ المتأخرة العهد منها ليس له نظير فى النسخ القديمة ، وذلك يدل أيضاً على أن مراحل التفكير ونمو العادة والاعتقادات التى أخر جت هذه المتون إلى حيز الوجود كانت لا تزال مستمرة فى تطورها حتى ظهرت النسخة الأخيرة منها فى باكورة القرن الخامس والعشرين ق م . لذلك تمثل لنا هذه المتون حال عصر لايقل عن ألف سنة ، والواقع أن مثل هذا القدر العظيم من الوثائق أر بعة آلاف وخمسائة سنة ، والواقع أن مثل هذا القدر العظيم من الوثائق المتون تؤ لف خزاية من التجاريب التى كانت تدور فى حياة الإنسان القديم ، المتون تؤ لف خزاية من التجاريب التى كانت تدور فى حياة الإنسان القديم ، المتون تؤ لف خزاية من التجاريب التى كانت تدور فى حياة الإنسان القديم ، ومذه ومعظمها مما لا يزال ينتظر دوره تحث محك الدرس والبحث .

م ولقد كانت الغاية المطلوبة من متون الأهرام على وجه عام هى ضمان السعادة للملك فى الحياة الآخرة ، لكنها مع ذلك تصور لنا دائما جزر الحياة الحيطة بها ومدها ، شأنها فى ذلك شأن كل أدب قومى ، فإنها تنطق بعبارات تدل على خبرة القوم الذين أخرجوها ، وهذه العبارات تتناول الحياة القومية فى القصور والطرق والأسواق ، وبعضها عبارات أنشأتها العزلة والعكوف فى المعابد المقدسة ، وإن صاحب الخيال السريع ليجد فى هذه العبارات صورا كثيرة عن ذلك العالم الذى تقادمت عليه الدهور وبقيت هى مرآنه .

ومع أن هذه الصور تهتم بوجه خاص بذكر أحوال والملك و فإنها لم الحياة الآخرة تقول: وهذا الذى سمعته فى البيوت وتعلمته فى الطرقات فى هذا اليوم الذى طلب فيه الملك بيى للحياة و ومنها نلتقط لمحات عاجلة عن تلك الحياه فى البيوت وفى الطرقات التى مضى عليها خمسة آلاف سنة: وفا لخطاطيف الحياه فى البيوت وفى الطرقات التى مضى عليها خمسة آلاف سنة: وفا لخرام حاملا تشقشق على الجدار، والراعى يعبر الترعة خائضا فى الماء حتى الحزام حاملا عبر الماء رضيعها عند الغسق، ويشاهد الصقر عند الغروب مخترقا السياء، وتشاهد البطة البرية مخلصة قدميها فارة من يد الصياد الذى فشل فى اقتناصها فى المستنقع، وعابر الماء واقف عند زورق العبور ولا مال معه يقدمه للنوتى مقابل مقعد فى الزورق المزدحم بالمسافرين ولكن يسمح له أخيرا بالنزول إلى الزورق على أن يعمل مقابل نقله فى نزح الماء من الزورق المثقوب، ويشاهد الشريف خالسا عند حافة بركته فى حديقته تحت ظلال الخيلة المصنوعة من سيقان الغاب ».

وهذه الصور وكثير غيرها هى مما تزخر به الحياة الدنيوية لغهار سكان وادى النيل . أما الحياة فى القصور فقد انعكست صورتها فى تلك المتون بشكل أتم وأبهج من حياة العالم الحارجية عنها وعما يحيط بها ، فإن الملك يشاهد فى بعض الأوقات مثقلا بأعباء مهام الدولة وبجانبه أمين سره يحمل محبرة وقلمين أحدهما للمداد الأسود والآخر للمداد الاحمر لكتابة العناوين ، وكذلك

نراه فى أوقات فراغه متكناً بدون كلفة على كنف صديقه الحميم أو مستشاره ، أو يشاهدان وهما يستحان معاً فى بركة القصر والحاجب الملكى يقترب حتى يحفف جسميهما وكثيراً ما يشاهد على رأس موكب باهر مخترقا طرق مدينته سيتقدمه السعاة والمقدمون مفسحين أمامه الطريق ، وعندما يعبر إلى الشاطئ الثانى وينزل من الزورق الملكى الوهاج يشاهد عامة الشعب ملقين أحذيتهم وملا بسهم راقصين أمامه رافعين أصواتهم بتمليلات الفرح عند رؤيتهم طلعته ، أو يرى عند باب قصره وقد أحاطت به فخامة البلاط وبهاؤه ، أو يشاهد مرتقيا . وشه العظيم المزين برءوس الأسود وحوافر الثيران ، وفى ذلك تقول المتون : عرشه العظيم المزين برءوس الأسود وحوافر الثيران ، وفى ذلك تقول المتون : يشاهد الملك فى قاعة قصره وهو جالس على عرشه العجيب وصولجانه المدهش فى قبضته ثم يرفع يده نحو أولاده ليقفوا أمام هذا الملك ثم ينزل يده مشير ا نحوهم فيجلسون ثانية » .

والحقيقة أن هذه المشاهد قد صورت على أنها حوادث تنتظره فى الحياة الآخروية ، غير أن عناصر الحوادث والألوان التى صورت بها تلك الحياة مأخوذة من الحياة الدنيا والتجاريب الدنيوية ، فن ذلك أن أولئك الذين مر وصفهم بأنهم كانوا يلقون نعالهم وملابسهم ليرقصوا أمامه فرحا عند وصول الملك حينها يعبر النيل السهاوى هم الآلهة ، ولكنهم مثلوا طبعا كأنهم يفعلون فى السهاء ما اعتاد رعاياه فعله فوق وادى النيل الارضى . وكذلك هم الآلهة الذين نراهم يحففون أعضاء فرعون عند ما يستحم مع إله الشمس فى « بحيرة البردى » فهم هنا أيضا يفعلون لفرعون ماكان حجابه يفعلون له على الأرض .

ولكن بالرغم من أن هذه المتون العتيقة غاصة بمناظر الحياة الدنيوية التى نقلت عنها فإنها في محموعها تصور أرضا غيرمعروفة لنا تقريبا، فإنه عند مايحاول الإنسان ارتياد مجاهل هذه الارض يحس كأنه يرود غابة فطرية شاسعة الارجاء كأنها غياض مسحورة مفعمة بأشكال غريبة وأشباح مخيفة تتراءى كأنها تقطن فى تيه لامنفذ فيه . فإننا نجد فيها كتابة عتيقة التهجية تضم فى ثناياها كليات ذات معنى غامض ، قد يجوز أن يكون القارى قد عرفها وهى مرتدية

لباسها المعتاد الذي لبسته فيها بعد ، وكذلك كانت تستعمل تلك الـكلمات في. مواقف ومعان غريبة عن القارئ الحديث غرابة تهجيتها.

ويوجد في هذه المتون بحموعة أخرى كبيرة من الـكلمات البالغة حدالغرابة المخالفة لنلك الكلمات المعروفة المتنكرة ، وأعنى بذلك طائفة من المكلمات العتيقة المهجورة التي عاشت حياة طويلة دائرة في الاستعمال في دنيا قد محيت. تماما وصارت نسأ منسا ، فهي بعد أن وخطها المشب كانت كالعداء المنهوك القوى تترنح على مرأى منا مدة قصيرة فىأقدم أفق معروف لديناً ، فقد ظهرت فقط في هــذه المتون العتيقة ثم اختفت اختفاء أبديا بعد عصر تلك المتون ،. ومن ثم لا نصادفها مرة ثانية في متون مصرية أخرى . فهي تكشف لنا في شيء من الإبهام عن دنيا من التفكير والكلام بادت من الوجود ويعتبر عهدها آخر العصور العديدة التي لاتحصيُّ والتي مرت بها حياة الإنسان فيها قبل التاريخ حتى صار قاب قوسين أو أدنى من الدخول فى العصر التاريخي . ولكن هذه الحكلمات الغريبة التي وخطها الشيب، وهي البقية الباقية لنا من عصر منسي مهجور ، استمرت مستعملة مدة جيل أو جيلين في متو ن الأهر ام ، وتستمر غرابتها بالنسبة إلينا عادة حتى يزول استعمالها نهائياً . وليس لدينا من الوسائل ما نعرف به معناها أو إرغامها على أن تبوح لنا بأسرارها أو عن الرسالة التي كانت تحملها في غضونها ، وليس لدينا من فنون معرفة اللغات القديمة ما نحاول به إرغامها على كشف ما تكنه من الأسرار . ويوجد بجانب تلك الـكلمات أيضا طائفة أخرى منالتراكيب العو يصة التي زاد في صعوبتها طبيعة ما تشير إليه من. المعاني المبهمة الغامضة ، فهي مفعمة بتلبيحات عن حوادث أساطير ضاعت. معالمها عنا ، وعادات ومعاملات تله فات زمانها منذ عهد بعيد. وقو امها عناصر حياة وفكر وتجارب ضاعت معالمهاكلها في بيدا. المجهول التام .

ذكرنا فيما سلف أن الغاية المهمة من متون الأهرام هي في الأصل ضمان سعادة الملك في الحياة الأخروية ، لذلك نجد أبرز شيء في هذه المتون الاحتجاج الحاسي ضد الموت ، ويمكن اعتبارها صورة لأقدم ثورة عظيمة قام بهام الإنسان ضد المظلمة والسكون العظيمين اللذين

لم يعد منهما أحد. وكلمة الموت لم تذكر قط فى متون الأهرام إلا فى صيغة النفى أو مستعملة للعدو، فترى التأكيد القاطع مرة بعد الأخرى أن المتوفى حى يرزق دالملك تيتى لم يمت موتا بل جاء معظها فى الأفق، وهيا أيها الملك ووناس، أنك لم تسافر ميتا بل سافرت حيا، لقد سافرت لكى يمكنك أن تعيش، وإنك لم تسافر لكى تموت، وإنك لن تموت، هذا الملك بيبى لن يموت». والملك بيبى لا يموت بسبب أى ملك . . ولا بسبب أى ميت مل قلت إنه مات ؟ إنه لن يموت، هذا الملك «بيبى» يعيش أبدا، عش ا إنك لن تموت ، هذا الملك وبيبى » يعيش أبدا، عش ا إنك لن تموت ، هذا الملك «بيبى» يعيش أبدا، عش المنك الن تموت » . وإذا رسوت [استعارة للموت] فإنك تحيا [ثانية] » . وهذا الملك «بيبى» قد فر من موته » .

وهكذا نجد تجنب ذكر الموت باستمرار في هذه المتون ، وكثيرا ما تحتم صيغة نفي الموت بالتأكيد الآتي : « إنك تعيش ، إنك تعيش ، إرفع نفسك ، إنك لن تموت فقم ، ارفع نفسك » أو « ارفع نفسك أيها الملك بيبي السامي بين النجوم التي لا تفني [وهي النجوم الثوابت] إنك لن تفني أبداً . وإذا لم يكن بد من الإشارة إلى حقيقة الموت المرة فإنه يسمى « النزول من البحر » أو ربط حبال السفينة في المرساة كما سبق ذكر ذلك ، أو كان يفضل في مثل هذه الحالة ذكر كلمة الحياة منفية ، ولذلك كان يستحب قول « ليس حيا » بدلا من النطق فرينة لسعادة مفقودة قد تمتع بها الناس ذات مرة « قبل أن يأتي الموت » .

ومع ان أسمى موضوع فى متون الأهرام كان الحياة ، أى حياة الملك الأبدية ، فإن هذه المتون كانت تتألف من مصادر متنوعة جدا ، ولما كانت كل طريقة وكل نفوذ يستعمل للوصول للغرض المقصود (الحياة بعد الموت) فإن الكهنة الذين وضعوا تلك المجموعة من الأدب القديم ، والتي هي أقدم ما وصل إلينا للآن ، ضمنوها كل أنواع التعاويذ القديمة التي كانت تعد في نظرهم مرعية مستجابة ، أو التي وجدوا أنها تفيد لذلك الغرض .

ويمكن القول بأن متون الأهرام تحتوى بوجه خاص على سنة موضوعات: شعائر جنازية ـــ وشعائر خاصة بالقرب المأتميـة عند القبور ـــ وتعاويذ سحرية _ وشعائر قديمة خاصة بالعبادة _ وأناشيد دينية قديمة _ وأجزاء من أساطير قديمة _ وصلوات وتضرعات لفائدة الملك المتوفى . وتقع هذه المتون في طبعتها الحديثة الآن في مجلدين من القطع الكبير يشتملان على القراءات والتوجيهات المختلفة لنصوصها ، وهذان المجلدان يحتويان من المتون أكثر من ألف صفحة ، وقد قسمها الناشر الأول إلى أربع عشرة وسبعهائة صيغة .

وإذا أمكننا الإشارة إلى متون الأهرام بصفة عامة كما فعلنا فلا يمكننا معرفة معانيها معرفة تامة ، فإن ذلك يعد من أصعب الأمور ، ولكن لحسن الحظ يمكن فهم شكل الأدب الذي تحويه هذه المتون واستساغته . فمن بين أقدم القطع الأدبية في هذه المتون الاناشيد الدينية ، وهي عبارة عن تركيب شعرى قديم بهيئة أبيات من الشعر الموزون المقني ظاهر فيه التوازن بين كلماته ومعانيه . وقد نقل العبرانيون هذا التركيب الشعرى إلى أدبهم بعد ذلك بألني سنة ، وهو التركيب المعروف لنا في « المزامير » باسم « توازن الأعضاء » . ويرجع الشعمال ذلك التركيب في متون الأهرام إلى الألف الرابعة ق . م . وعلى ذلك يعد وجوده في هذه المتون أقدم من وجوده في أية بقعة أخرى من العالم يعراحل بعيدة . والواقع أنه أقدم صورة أدبية بين جميع أنواع الأدب المعروف لدينا .

وهذا النوع من الادب لا ينحصر استعماله فى الاناشيد المذكورة فقط ، بل يوجد كذلك فى نبذ أخرى من متون الاهرام ، ولكنها لم تصل هنالك إلى درجة الكمال الذى نلمسه فى هذه الاناشيد .

وزيادة على ما ذكر من التركيب الشعرى الذي يرتفع بهذه النبذ إلى مرتبة الأدب بالمعنى المعروف لدينا الآن فإنناكثيراً ما بجد بعض كتابات مبعثرة تحمل في مظهرها صفات الادب من الوجهة الفكرية واللغوية. فمثلا نجد أثراً دقيقا من مجال الخيال في أحد الأوصاف الكثيرة التي وردت عن بعث ورير ». إذ جاء فيه : و فك لفائفك إنها ليست لفائف بل هي خصلات

شعر ، نفتيس » ؛ و « نفتيس » هى الإلهة المنتحبة المنثنية على جسم أخيها المتوفى . فالكاهن القديم الذي كتب ذلك السطر قد رأى في اللفائف التي تلف الصورة الجامدة خصلات الشعر الغزيرة التي تتدلى من شعر الإلهة وتختلط باللفائف . ونجد كذلك قوة عنصرية في ذلك الخيال الوثاب الذي يلح العواطف الودية لـكل العالم فيجعل العناصر الطبيعية تشعر بالنازلة الرهيبة التي تتمثل في موت الملك ، وفي حلوله بين آلهة السماء ، إذ يقول المحزونون على الملك : « السماء تبكى من أجلك » والارض تزلزل من أجلك » ، ويقول المناس عندما يرونه في الخيال صاعدا إلى القبة السماوية : « السحب تظلم السماء للناس عندما يرونه في الخيال صاعدا إلى القبة السماوية : « السحب تظلم السماء كلاب جهنم ترتعد _ والو ابون واجمون عندما يرون الملك « وناس » يشرق في شكل روح » .

وليس لدينا شك فى أن الغرض من تلك المبتون الجنازية كلها هو لمصلحة الملك، بل هي بوجه عام تحتوى على معتقدات لا تنطبق إلا عليه وحده، وبخاصة عندما نذكر أنها لم تكتب إلا فى المقابر الملكية فقط. فمن الحقائق الهامة التي يجب التنبيه عليها أن رجال أشراف ذلك العصر لم يستعملوا أبداً متون الأهرام في نقوش مقابرهم.

ولما لم يكن في مقدور متون الأهرام زعزعة العقيدة السائدة في وجود الحياة في القبور ، فإنها لم تعر هذا الرأى اهتماماً كبيراً ، بل وجهت جميع همها تقريبا إلى حياة في نعيم تقع في بملكة بعيدة . وبما يستحق الذكر والاهتمام أن تلك المملكة البعيدة لا يراد بها إلا « السماء » ، وأن متون الأهرام لا تعرف شيئا تقريبا عن الحياة الأخروية المظلمة التي توجد في العالم السفلي . ولذلك فإن عالم الأموات عندهم لايراد به إلا « العالم السماوي » ، ونحن في التعبير عنه بهذه الصيغة لا نعبر عن أي معنى من معانى كلمة السماء اللاهوتية المتكررة في اللغة الإنجليزية . على أنه لا يكاد يوجد عندنا شك في أن فكرة تصور جنة سماية — وهي تلك الفكرة التي شاعت فيما بعد في العهد المسيحي — تصور جنة سماية إلى نفس هذا الاعتقاد المصرى القديم المتوغل في القدم . في العلم الفيدة الإنجليزية المتحقاد المصرى القديم المتوغل في القدم .

وقد اختلط في تلك الآخرة السماوية المذكورة في متون الأهرام مذهبان قديمان : أولهما يتصور المتوفى في صورة نجم ، والثاني يتصور المنوفي حالاً في إله الشمس، أوهو إله الشمس نفسه. وبدهي أن هذين المذهبين اللذين يمكن تسميتهما: بالآخرة النجمية والآخرة الشمسية على التوالى كانا في وقت ما مستقلين ، ثم دخل كل منهما في شكل « آخرة سماوية » هي التي نجدها في متون الأهرام . ولقد كان من التصورات الطبيعية عند ساكن وادىالنيل ذى السماء الصافية أن يرى في سماء مصر ليلا جموع أولئك الذين سبقوه إلى الحياة الأخروية ماثلين أمامه ، فقد طاروا إلى السهاء كالطيور مر تفعين فو ق كل أعداء الهواء، فكانوا عند حلول الظلام في كل ليلة يجتازون أقطار السماء بصفتهم نجوماً أبدية . وخص المصرى ، في تخيله جهور الموتى ، تلك النجوم التي تسمى « غير الفانية » . وكان يعتقدان تلك النجوم تقع في الجهة الشمالية من السماء ، ولذلك لا يكاد يوجد شك في أن النجوم المقصودة بالذكر هي النجوم المحبطة بالقطب التي لا تغرب ولا تغيب. وقد قام جدال كبير بين علماء التاريخ القديم عن سراتجاه بمر مدخل الهرم المنحدر شطر النجمة القطبية . ثم بينت نقوش متون الأهرام السر في هذا الإتجاه الذي لم يهتد إليه أحد قبل ذلك ، وهو أن روح الملك عندما تخرج من ذلك الممر يحملها هذا الإتجاه فورا نحو النجوم القطسة.

ومع أن المذهبين المذكورين النجمى والشمسى يوجدان معا جنبا لجنب في متون الأهرام، فإننا نجد أن المذهب الشمسى هو السائد فيها بدرجة عظيمة حتى يصح لنا بوجه عام أن نصف متون الأهرام بأنها شمسية الأصل. ومن المحتمل أن الاعتقاد بالمصير الشمسى قد نشأ فى عقيدة قدماء المصريين عن طريق شروق الشمس ثانية كل يوم بعد غروبها، فكأن الموت إنما يحدث على الأرض، أما الحياة فتكتسب فى السماء فقط، وهو المكان الأعلى الذى يرفع إليه الملك فوق المكان المحتوم الذى يصير إليه عامة البشر. «الناس يفنون وأسماؤهم فوق المكان المحتوم الذى يصير إليه عامة البشر. «الناس يفنون وأسماؤهم تمحى، فأمسك أنت بذراع الملك « تبتى » وخذ أنت الملك تبتى إلى السماء حتى لا يموت على الأرض بين الناس ».

وتلك الفكرة القائلة بأن الحياة توجد فى السياء هى الرأى السائد، وهى أقدم بكثير من المذهب الأوزيرى فى متون الأهرام. وقد بلغ هذا الرأى درجة من القوة جعلت نفس «أوزير» كينح بضرورة الحال آخرة سماوية شمسية، وكان ذلك فى المرحلة الثانية التى دخلت فيها اسطورته فى متون الأهرام. والموضوع الهام فى متون الأهرام هو تطلع المتوفى لحياة أخروية فاخرة فى حضرة اله الشمس، حتى أن نفس القبر الملكى قد اتخذ من أقدس شكل يرمزبه إلى إله الشمس، كما أوضحنا ذلك فيما سبق.

وقد عمد لا هوت الحكومة الذى جعل الملك الابن المجسم للإله «رع» وممثله على الارض، إلى تصوير الملك يسبح فى السماء عند الموت ليسكن مع والده إلى الأبد، أو ليحل محله ويكون خلفه فى السماء كما كان خليفته فى الآرض. وعلى ذلك نجد أن الآخرة الشمسية هى فى الواقع المصير الملكى، ولا يحظى به إلا فرعون وحده، ثم صار ذلك المصير فيما بعد بالتدريج حقا لسائر البشر يشاركونه فيه . غير أنه لم يكن فى الإمكان كما سنرى إعطاء ذلك الحق لهم إلا بعد أن يتصف كل مطالب بذلك المصير بالصفة الملكية أيضا .

وبانتقال الفرعون إلى تلك المملكة العتيدة التي مقرها في السياء [بالرغم من عدم انسجام الآراء الخاصة بموقفه هناك] كان يدعى للقيام بعملية تطهير فرضتها وأكدتها المتون بتكر اربملول . وكان ذلك التطهير في العادة بالماء بصبه فوق البدن (۱) أو بالاستحهام في البحيرة المقدسة الواقعة في الحقول المباركة، حتى أن الآلهة كانت تقوم بخدمة الملك في وقت انجاز ذلك الاستحهام فيقدمون إليه المناشف ثم الملابس . ومن المحنمل أن يكون ذلك التطهير ذا مغزى خلق هام ، وخاصة إذا رأينا هذا الاحتفال التطهيري الشرقي العتيق قد استمر معمولا به إلى عصرنا الحالي في الاحتفال التعميدي الموجود إلى الآن عند المسيحيين .

⁽١) أظن أن ذلك يقابل بالضبط في الديانة الإسلامية غسل الميت قبل دفنه .

وكانت القبلة التى يتجه إليها الملك فى المذهب الشمسى هى الإقليم الواقع شرقى السماء، حيث لم تكن الشمس وحدها هى التى تولد فى تلك الجهة بل كانت كذلك الآلهة الأخرى تولد هناك. وفى تلك الجهة المقدسة توجد أبواب السماء العظيمة التى تقوم أمامها تلك « الجميزة العالية شرقى السماء التى يجلس فوقها الآلهة »، وكذلك نسمع عن الجميزتين اللتين فى الجانب الأقصى من السماء «، وهما اللتان يمسك بهما الملك عندما «يعبرون به إلى الشاطى "الثانى ويجلسونه فى الجانب الشرق من السماء ». ويجد الملك المتوفى فى ذلك المكان المقدس أيضا إله الشمس ، أو يجده إله الشمس ، ومن ذلك المكان يرتفع إلى السماء، وكذلك يرسو فى هذا المكان القارب الذى يعبر به .

ولا يكاد الملك المترفى يولى وجهه شطر الجهة الشرقية نحو ذلك الإقليم المقدس حتى تعترضه بحيرة واقعة فى الشرق ، وكان لا بدله أن يعبرها حتى يصل إلى بملكة إله الشمس . وكانت عين «حور» قد سقطت على الشاطى الأقصى أى الشاطى " الشرقى لهذه البحيرة خلال شجاره مع «ست» ، وكانت تسمى «بحيرة السوسن»، وهى طويلة إلى حد يجعلها تحتوى على «متعرجات» ولا بد أنها تمتد إلى مسافة بعيدة شمالا وحنوبا على طول الأفق الشريق فى كل وكان يو جد خلف تلك البحيرة أرض العجب الزاخرة بالقوى الشريرة فى كل جهاتها ، وكان كل شى وفيها حيا ، من ذلك المقعد الذى يجلس فوقه الملك ، إلى السكان الذى كان يقبض عليه بيده ، إلى القارب الذى نزل فيه ، إلى الأبواب التي يمر بها ، ولدلك كان في مقدوره أن يتحدث مع كل هذه الأشياء أو مع أى السكان الذى كان يقبض عليه بيده ، إلى القارب الذى نزل فيه ، إلى الأبواب شيء آخر يحبه هناك . وهذه الأشياء الشريرة كان فى قدرتها أن تتكلم معه ، مثل قارب « بجعة لوهنجرن » الكداه الشريرة كان فى قدرتها أن تتكلم معه ، مثل قارب « بجعة لوهنجرن » الكداه فى قصص البجعة أو فى قصص « نبلونجن » ")

⁽١) قارب البجعة للوهنجرن كان سفينة خرافية تجرها بجعات مسحورة وهوالذى حمل البطل الألمانى « لوهنجرن Lohengrin » إلى بحيرة مسحورة دون أن يقوده هو أو يدير دفته .

⁽٢) نبلونجن : هم جنس من المخلوقات خارق للطبيعة مثل الأقزام وكان في حراسته كنز ضخم من الذهب قد استولى عليه البطل « سيجفرد » .

(Nibelungen في الخرافات الآلمانية ، وهي تشبه دنيا «مورت د أرثر» (۱) Morte (۱) التي يقابل فيها ابن السبيل العجائب في كل منعطف .

وكان أوضح طريق في نظر سكان ضفاف النيل لعبور « بحيرة السوسن » أن يركب الإنسان قارب العبور ، وهذا ما يجده الملك المتوفى بين سيقان غاب شاطئ البحيرة ، وملاحه واقف عند الشُّـكان يدفعه بسرعة ، وكان على الملاح أن يلفت وجهه خلفه عند دفع القارب ولذلك سمى « انظر إلى الخلف » أو « الناظر إلى الخلف » ، وهو لا يتكلم إلا نادرا وإنما يقف صامتا في انتظار راكبه. وماكان أكثر التوسلات والتضرعات اللينة التي يحاول بها الملك المنتظر تملق ذلك الملاح صاحب الوجه الملفوت . فنسمعه وهو يؤكد له تأكيدا قاطعا يدل على المكر والخداع فيقول له : « إن هذا الملك « بيبي » : هو راعى قطيعك والمشرف على حظيرة ماشيتك » ، ولذلك كان من الضرورى لمصلحة الملاح نفسه أن يعبر به في الحال . وقد يحضر الملك معه إناء سحريا لا يقوى الملاح على مقاومته ، أو يقال للملاح بصفة قاطعة إن الملك طاهر من كل ذنب في السماء والأرض والجزيرة التي هم ذاهبون إليها. أو كان الملك يتفمص شكل القزم المهرج الذي كان يأخذ مكانه بين الراقصين أمام الملك في الدنيا ايسرى بذلك عن قلبه أمام العرش العظيم . وكان حتما على الملاح إذن أن يعبر به سريعا إلى قصر « رع » وبلاطه ليسر بذلك إله الشمس . والواقع أن ذلك كله كان من المعلومات العامة الشائعة ، إذ كان الملاح يُخاطب بعد ذلك هكذا : «هذا ما سمعته فىالبيوت وما تعلمته فى الطرقات فى اليوم الذى طلب فيه هذا المالك بيبي للحياة ».

⁽١) «مورت» «دأرثر» Morte D,Arthur هىرواية خرافية عن الملك «أرثر» ملك بريطانيا وفرسانه أصحاب المائدة المستديرة ألفها السير «مالورى» Sir A. Mallory وبعد ذلك صاغها في قالب شعرى «تنيسون» الشاعر الانجليزى تحت عنوان «أناشيد الملك » Idylls of the King أنه في كل تلك القصص يطلب فيها إلى القارئ أن يتصور عالما خرافيا تسكنه محلوقات خارقة للعادة تجد فيه الحيوان والأشجار، وحتى الجادكان في قدرته أن يتمكيم مع الناس.

ونجد كذلك معارضة الملاح للقادم العتيد (المراد به الملك) فيقول له: ه من أين أتيت؟ وعند ذلك كان حما مقضيا على الملك أن يقيم الحجة على أنه من أصل ملكى . فاذا اتفق أن كان الملاح عنيدا رغم ما بذل معه من الجهد وأبى أن يرسو بقاربه إلى الشاطى فإن الملك عندئذ يخاطب المجداف الذى فى يده قائلا: «هيا أنت يا من فى قبضة الملاح» فإذا كانت كلماته قوية مستجابة فإن المجداف يأتى بالقارب إلى الملك .

وكان فى مقدور ملاح عصر ما قبل التاريخ منذ أقدم العهود أن يعبر النيل على رمثين من الغاب مربوطين معا باحكام جنبا لجنب كأنهما لفافتا دخان ضخمتين (١). وقد صورت لنا أسطورة من أقدم الأساطير الخاصة بسياحة إله الشمس كيفية عبوره المياه السهاوية على زوج من تلك الأرماث التى اتخذها أله الشمس لعبوره رغم سذاجتها وبساطتها وصار استعمالها من الاعتقادات التي لامناص منها فلم يبق للاعتقاد باتباعها إلا نقل قوة استعمالها عن طريق التآلف من « رع » إلى فرعون المتوفى حتى يضمن الأخير لنفسه سياحة ناجحة التآلف من « رع » إلى فرعون المتوفى حتى يضمن الأخير لنفسه سياحة ناجحة كالتي قام بها إلى الأفق حتى يصل إلى « رع » كما هيئا « لرع » ليعبر بهما حتى يصل إلى الأفق .

ومن الجائز أن تخفق جميع تلك الحيل المتعددة التي تعمل لعبور البحر الشرقي . وحينئذ يكون محتما على الملك أن يسلم نفسه إلى الهواء حتى يصعد به

⁽۱) وقد اتفق لمؤلف هذا الكتاب ذات مرة أنه لم يجد قاربا ، مثل فرعون ، ليمبر به النيل في بلاد النوبة فأسرع أحد أهالى القرية المجاورة وأحضر في الحال رمثين من ذلك النوع مصنوعين من الغاب المجفف الذي ينموعلى شاطى النيل ، وعبر بالمؤلف خليجا واسما إلى جزيرة في النهر بهذا القارب المنذر بالخطر . وقد كانت هذه أول مرة رأى فيها المؤلف مثل هذه الطريقة لعبور الماء ، وقد كان من الأمور الهامة أن يجد المؤلف أن قاربا لم يسمع بمثله إلا في متون الأهرام فقط التي يرجع عهدها إلى خسة آلاف سنة مضت كان لا يزال باقيا مستعملا كل يوم في هذا النهر القديم في بلاد النوبة النائية ، وليس مضت كان لا يزال باقيا مستعملا كل يوم في هذا النهر القديم في بلاد النوبة النائية ، وليس مناك من شك في أن هذا القارب هو الذي يسمى غالبا «الرمثين» في متون الأهرام .

إلى السماء. فيقول متكلم مختف الملك: « جناحاك منشوران مثل الصقر ذي الريش الكثيف، ومثل الباشق الذي يرى مساء يخترق القبة الزرقاء » . « أن الطائر يظيروهذا « الملك » بيبي يطير بعيداً عنكم أيها الأنام. أنه ليس من أهل الأرض بل هو من أهل السماء . . . هذا الملك « بيبي » يطير كسحابة في السماء مثل الطائر Masthead . هذا المالك « يدي » يصل إلى السماء على هيئة صقر ، هذا الملك « بيبي » يصل إلى السماء مثل إله الأفق [حار أختى] . وكذلك يراه المتكلم مفلتا من أيدى الناسكما تفلت الأوزة البرية من يد الصَّائد الذي يقبض على سأقيها و تطير إلى السهاء « إن أطراف جناحيه هي أطراف جناحي أوزة عظيمة » . وبتلك الكيفية يطيركأوزة ويرفرف كما يرفرف الجعل » . « ووجهه وجه ضقر وجناحاه جناحا أوزة . » ان الملك « وناس » ير فرف بجناحيه كالطائر « زرت Zeret » ، والهوا. يحمله مرتفعاً به إلى السماء . « إن الملك ، و ناس ، يذهب إلى السهاء ! إن الملك و ناس يذهب إلى السهاء على الريح » ! « إن سحب السماء قد.حملته بعيداً وهي تعظم الملك ، وناس » عند « رع ، . . و لقد صعد الملك على سحب المطر » . أو كان الكاهن يرى أشياحا غريبة في سحابة دخان البخور التي تتصاعد فوقه فيصيح قائلا: ﴿ أَنَّهُ يُصْعِدُ على دخان البخور العظيم » .

وكدلك رأى القوم فى أشعة الشمس سلما إليها هو تلك الأشعة المائلة المصوبة نحو الأرض من بعض فتحات فى السحاب، وهذا السلم المشع أدلى من السهاء لكى يصعد عليه الملك. وإن الملك «بيى» قد وضع هذا الشعاع بمثابة سلم تحت قدميه، وصعد عليه الملك «بيى» ليصل به إلى أمه وهى الصل الحى على رأس رع». وكذلك تظهر أشعة الشمس الشاسعة التى تنحدر تجاه الأرض كأنها مصعد قد تخيله أولئك القوم القدامى، ولذلك يقولون: «إن الملك» «وناس» يصعد على السلم الذى صنعه له والده «رع» [إله الشمس]» وكان منظر صعود الملك يدعو إلى إعجاب الآلهة، ولذلك يقولون: «ما أجملها من رؤية وما ألذها من مشاهدة عند ما يصعد هذا الإله (يقصدون الملك) من رؤية وما ألذها من مشاهدة عند ما يصعد هذا الإله (يقصدون الملك) إلى السماء إذ يحمل هيعته على رأسه، وبجانبه الفرع منه، وتعاويذه السحرية إلى السماء إذ يحمل هيعته على رأسه، وبجانبه الفرع منه، وتعاويذه السحرية

موضوعة أمامه » . ثم تدعى الناس والآلهة معا بواسطه تعاويذ قوية التأثير ليرفعوا الملك: « أيها الرجال وأيها الآلهة ضعوا أذرعتكم تحت الملك « بيبي » الرفعوه ، اصعدوا به إلى السهاء كذراعى « شو » (الجو) اللتين وضعتا تحت السهاء ، وهو (أى « شو ») يرفعها ، إلى السهاء ا إلى السهاء ا إلى الكرسى العظيم بين الآلهة » .

غير أنه كان لا يزال محتملا أن أبو اب المملكة السماوية قد لا تفتح للقادم العتيد. ومن أجل ذلك نجد تأكيدا مكررا بأن أبو اب السماء المزدوجة مفتوحة أمام فرعون: « إن أبو اب الآفق المزدوجة مفتوحة ومزاليجها مزاحة » . ونقابل هذا النداء دائما في متون الآهرام . ولا شك أن نفس الوسيلة التي فتحت الباب ، لعلى بابا ، والآربعين لصا — كما وردت في كتاب ألف ليلة وليلة — قد فتحت لغيره أبو ابا كثيرة في الشرق القديم قبل أن تصير معروفة لنا نحن معشر العالم الغربي عن طريق قصة ألف ليلة وليلة بآلاف من السنين .

وكذلك نرى أنه بالرغم من افتناع أولئك القوم بوجود الحياة الآخروية ، بل بوجود حياة عظيمة قد ملئت بذكرها متون الآهرام ، فإن هده المتون نفسها تكشف لذا عن حالة الحوف من تلك الحياة ، ذلك الحوف الذى كان يملأ قلوب سكان ذلك الشرق القديم ، كلما تأملوا فى أخطار عالم تلك الآخرة التى لم يكونوا يعرفونها ولم يسبق لهم أن جربوها . فإنه كان يعترض ذلك القادم الملكى مخاوف احتمال عدوان الآلهة عليه أينما ولى وجهه وهو ينظر فى عرض البحر الشرقى ، حيث كانت تزدحم بمخيلته آلاف الإخطار والمعارضات التى يكون من شأنها تكدير صفو تلك الصورة الجيلة التى كان يتخيلها فى نعيم الحياة الأخروية ، كما نجد فى الشجاعة الجريئة التى يظهرها الملك مسحة قصصية ، فإن الملك ، وقدصار وحيدا فى السجاء ، ينهض فجأة فى شكل مارد ها ممل مدعياً السيادة على الآلهة أنفسهم ، وبمو اجهته المملكة السماوية يخاطب إله الشمس هكذا ! « إلى على الآلهة أنفسهم ، وبمو اجهته المملكة السماوية يخاطب إله الشمس هكذا ! « إلى أعرف اسمك ، انى لست جاهلا اسمك ، فاسمك هو «غير المحدود» ، واسم أعل في كل صباح والدك هو «مالك العظمة » ، واسم أمك « الرضى » وهى التى تحملك فى كل صباح والدك هو «مالك العظمة » ، واسم أمك « الرضى » وهى التى تحملك فى كل صباح

وستمنع ولادة «غير المحدود » فى الأفق إذا منعت هذا الملك «بيبى » من المجى، إلى المحكان الذى أمنت فيه ». فكان الملك باستعماله قوته السحرية بتلك الكيفية يجعل نفسه ملكا على العالم ويهدد بوقف شروق « ولادة » الشمس نفسها إذا حجز هو عند الباب العظيم لمملكة إله الشمس.

وهكذا يقترب الملك الراحل أخيرًا من الشاطئ الشرقي « لبحيرة السوسن » . ﴿ وهذا الملك يجد المعظمين بسبب « تسلح أفو اههم » (١) جالسين على شاطئ تلك البحيرة . . . وهو مكان مورد الشرب لكل من صار معظما بسبب تسلح فمه . . ولكنهم عندئذ يعارضون القادم العتيد (أى الملك) فيجيبهم: « إنَّى واحد من المبجلين بسبب فمه المسلح ». فيقولون للملك بيبي: «كيف حدث ذلك وكيف وصلت إلى هذا المكان الأَخْم ومن أى مكان؟ » عندئذ يقول قارب الصباح: «إن « بببي » قد أتى إلى هذا ألمكان الأفخم من مكان ما لأن رمثى السماء هيئا لأجل « رع ه ، وعند ما يفص الملك خبر عبوره الناجح كما قد عبر من قبله « رع » يصيح أهل السموات مهللين بالفرح والسرور . وعندئذ ينزل فرعون معهم ويعيش عيشتهم ويجلس أمام القصر الذي يحكمون منه . وبعد ذلك يسمع الملك مرة أخرى صوتا منفردا يخرج من عالم الأموات معترضا الملك عند ما ينزل ويمر بالابواب العظيمة للسماء يقوده «جب» : . هيا ! من أين أتيت. أنت يا ابن أبي؟» فيجيبه صوت آخر : « إنه أتى من عند التا سوع المقدس الذي في السماء حتى يمكنه أن يشبعهم بالخبز». ثم تعود المعارضة مرة ثانية : « هيا ا من أين أنت آت يا ابن أبي ؟ » . وعندئذ يسمع الجواب « إنه أنَّي من عند الناسوع المقدس الذي على الأرض ليمكنه أن يشبعهم بالخبر ». غير أن ذلك السائل لا يزال غير مقتنع بالجواب: « هيا! من أين اتيت أنت يا أبن أبي ؟ » « انه أتى من قارب « زند زندر » . وبعد ذلك يسمّع السائل لآخر مرة يسأل : « هيا ! من أين أتيت أنت يا ابن أبي ؟ » « إنه آت من و الذتيه هاتين الرخمتين ذواتى الشعر الطويل والثدى المتدليّة وهما اللتان يوجدان على جبل وسهسه » ، لقد ضمنا ثدييهما حول فم الملك ، بيبي ، غير أنهما لم يفطها، ولن يفطها، إلى الأبد». وبعد ذلك ينقطع الصوات المعارض ويدخل الفرعون مملكة السهاء الابدية .

⁽١) هذا التعبير الغريب يعنى أفواها مسلحة بتماويذ ســحرية جعلت الذين علـكونها يصيرون مبجلين .

الفِصُّ للسَّا دُسُّ المذهب الشمسي والآخرة السماوية

لقد تتبعنا ذلك الراحل الملكى أثناء مروره بالأبواب السماوية حيث كان ينتظر إعلان قدومه إلى إله الشمس الذى كان لا بد للملك أن يحاوره من الآن فى مملكته. عندذلك يرى حجاب الملك متسابقين لإعلان مقدمه: «إن رسلك يذهبون، ورسلك المسارعين يعدون، وحجابك يسرعون في سيرهم وهم يعلنون ورع، اللك قد أتيت ياهذا الملك بيبى ، . ثم نسمع رسالتهم عندما يصيحون فيقول وسبهو، : صه اتفرس أنه يأتى ا و ثم يقول وسبهو، تفرس إن ابن رع يأتى ا محبوب و رع ، يأتى . ثم تزدحم الآلهة عند الشاطىء : ولقد وجد هذا الملك بيبى الآلهة واقفين مزملين في ملابسهم، وفي أقدامهم نعالهم البيضاء فيخلعون نعالهم البيضاء على الأرض ويلقون بملابسهم بعيدا ويقولون : «إن قلبنا لم يدخله الفرح حتى مجيئك » . ثم تستولى عليهم الرهبة عندما يسمعون نداء الحجاب ويشاهدون الملك يقترب منهم . فيقف و رع ، أمام أبواب الأفق متكنا على صولجانه والآلهة من حوله . وعندئذ ينادى صوت الحاجب : وإن الآلهة على صامتون أمامك . إن تاسوع الآلهة قد وضعوا أيديهم على أفواههم . »

إننا نحن أبناء الجيل القديم من أهل هذا العصر الحديث نشأنا نعتقد منه صغرنا بوجود مملكة أخرى وراء السهاوات تسكنها كائنات سماوية تعيش في نعيم مقيم ، فمن ألذ الامور لدينا أن نطلع على أقدم التأملات العقلية للإنسان ، تلك التأملات التي صورت له حياة أخروية كالتي وصفناها ، والواقع أننا نجد في متون الاهرام أقدم صور بقيت لنا عن هذه الآخرة السماوية _ وهي آراء نشأت ونمت منذ خمسة آلاف سنة مضت ولكنها تحملنا على أن نرى فيها الاساس الاصلى الذي نبع منه الاعتقاد بوجود مملكة فيها نعيم مقيم مقرها السماوات ، ذلك الاعتقاد الذي لقنه لنا آباؤنا وأساتذتنا في طفة لتنا .

والواقع أن السماء كان لها دائماً التأثير العميق على عقول البشر وأن ذلك الشعور بوجود سر خنى فى السماء ذات القبة الزرقاء المكونة أرضها من السحب قد ترك أثره بشكل ما فى الآداب القومية ، من العصر الذى وجدت فيه تلك الصور الرهيبة التى نشاهدها فى متون الأهرام إلى زمن القصيدة الرائعة التى أبدعها خيال الشاعر الانجليزى «شيلى» وهو يتأمل جمال سحب الصيف.

ولقد وجد قدما. المصريين الذين نمت على أيديهم متون الأهرام أعظم السرور في تدوينهم تلك الصور ، حيث نراهم يذكرون بتنميق وترديد ذلك النعيم المقيم الذي كان يلقاه ويتمتع به الملك وهو في حماية وصيانة و تـكريم في مملكة إله الشمس السماوية ، فكان خيالهم ينتقل بهم من منظر إلى منظر ومن صورة إلى صورة. ولما كان المجال الخيالي فسيحا أمام أمكارهم أمكن لخيالهم الانطلاق فيه دون أن يلقي ما يمانعه أو يعارضه ،كنبات البردى لا يجد ما يعوقه عن الظهور بنفسه فوق الأرض. فكان خيالهم بسبب ذلك ينسج نسيجاً معقداً ضم من الألوان ألف لون محيث صار غير قابل للاندماج في وحدة منسجمة متماسكة متجانسة . فنرى الملك مرة معتلياً عرشه في بها. شرقي بماثل لما كان يحدث فى عالم الأرض. ومرة ثانية تجده يهيم في حقول البردى طالبا للقوت ؛ ثم يظهر فى بعض الجهات فوق مقدمة سفينة الشمس ، وفي مرة أخرى يظهر كانه أحد النجوم الثوابت قائمًا في خدمة إله الشمس، ومع أننا لا نجد أية محاولة تنسجم بها تلك الصور المتناقضة ، فإننا نخرج منها في الجملة بفكرة عامة هي السعادةُ الأبدية لملك يشبه الإله : فهو يضع تواريخه (سجل أعماله) بين شعبه وحبه بين الآلهة . « إن الملك يصعد إلى السَّماء بين الآلهة الساكنين في السَّماء ويقف على المنصة العظيمة ويستمع (في جلسة قضائية) لشئون الناس (القضائية) . . . إن ، رع ، يمد لك ذراعه على السلم المؤدى إلى السماء ، . وتقول الآلهة : « إن من يعرُّف مكانه يأتى . يَا أَيُّهَا الْواحد الطاهر تربع على عرشك في سفينة ورع، واسبح في السهاء... ليسبح أنت مع النجوم الثوابت... اسبح أنت مع النجوم السيارة (التي لا تغيب) . . . عش أنت هذه الحياة اللغيدة التي يحياها رب الأفق وإن هذا الملك وبيعي ، يذهب إلى (حقل الحياة)

الذي هو مكان ولادة « رع » في السماء . ويجد « قبحت ، مقتربة منه ومعها هذه الأواني الأربع التي تنعش بها قلب الإله الأعظم « رع » في اليوم عندما يستيقظ (أو بالهار عندما يستيقظ) فتنعش بها قلب هذا الملك ، بيي ، ليحيا وهي تطهره و تنظفه . ويتسلم رزقه مما في هُرْي (مخزن غلال) الإله العظيم ، وتكسوه النجوم الثوابت». ثم ينادي الصوت « رع». و « تحوت ، ، (وهما إلها الشمس والقمر) : « خذا أنتها هذا الملك . و اس ، معكما ليأكل مما تأكلان ويشرب مما تشربان ويعيش على ما تعيشان عليه ويحلس فيما تجلسان فيه وليصير قويا بما صرتما به قويين ويسبح [في السماء] فيما تسبحان فيه . إن خص الملك . و ناس ، مجدول (مبنى) من الغاب و بركة الملك « وناس » موجودة في (حقل القرابين) وقرابينه موجودة بينكم أنتم أيها الآلهة . وماء الملك « وناس ، خمر مثل خمر « رع » . والملك « وناس ، يدور في السماء مثل « رع » ويخترق السماء مثل « تحوت » . ثم يطلب الصوت الغذاء الإلهي للملك : أحضروا لبن ، إزيس ، للملك « تيتي ، وفيضان ، نفتيس ، ، ومنطقة البحيرة وأمواج البحر والحياة والفلاح والعافية والسعادة والخبز والجعة والملابس والطعام ليعيش الملك « تيتي » عليها » · « تأمل ا إن الاثنين اللذين على عرش الإله العظيم « رع ، يطلبان الملك « بيبي ، للحياة والسرور إلى الأبد وهذان الإثنان هما الفلاح والصحة ، . وبهذه الكيفية يجد الملك أن . الحال معه اليوم أحسن مماكانت عليه بالأمس . ثم نسمع الصوت يناديه: هيا أيها الملك « بيبي » الواحد الطاهر ا إن « رع » يجدك وأقفا مع أمك « نوث » [إلهة السماء] وهي تقودك على صراط الأفق حيث تستقر في مكان إقامتك هناك. فما أجمل تلك الإقامة مع روحك «كا ، أبد الآبدين ، .

و تأتى أمامنا قصة انتقال الملك إلى السهاء مرارا و تكرارا فى صور مقنعة و تأكيد ملح ، مما بجعلنا نعتقد أن المقصود من ذلك هو أن تصير كلمات تلك العبارات ذات قوة و سلطان نافذين . و تعرض أمامنا فى كل حين حياة الملك فى السهاء مخمصرة فى فقرة و احدة تشتمل على تلبيحات قليلة عاجلة كل منها يشبه شعاع الشمس الذى يبدو لحظة على مر تفعات منظر طبيعى على مدى البصر .

ولذينا من تلك الفقرات معرض عظيم تدافع فيه إحداها الآخرى تدافع الأمواج المتلاحقة تريد الغلبة لنفسها فتكتسح كأنها الطوفان الحقيقة والبحتة والقائلة بوجود الموت حتى تقضى عليها قضاء مبرما ومن الصعب أن ننقل إلى ذهن القارى الحديث والتأثير الذي تتركه تلك الآلاف من الأسطر المنقوشة وهي تمر أمام أعيننا تستخف عبارتها بمناعة حقيقة الموت استخفاف المنتصر الظافر بأعدائه وضخص بالذكر تلك المختصرات الخاصة بحياة الملك السماوية وهي التي نصادفها كثيراونعني بها تلك الفقرات التي نبحثها الآن .

ولأن ما تدين تلك الفقرات فى سلطانها هو لمجرد حجمها الذى قد أقيم أمام وجه الموتكأنه السد المنبع، فإننا لايمكننا فهم هذا السلطان إلا إذا قرأيا المجوعة « مرون الأهرام » جميعها .

ولعل أدق قطعة أدبية حفظت لنا فى متوان الأهرام هى أنشودة الشمس التى تجد فيها الملك وإله الشمس نفسا واحدة . وهذه الأنشودة تخاطب مصر بأسهاب معددة لها المنافع التى تتمتع بها فى كنف حماية إله الشمس وسيادته . ومن ثم تقدم مصر و لرع و ثروتها ومحصوطا . ولما كان فرعون وإله الشمس نفسا واحدة كان فرعون يهب تلك المنافع لمصر ، وهى من جانبها تقدم له نفس العطايا التى تقدمها لإله الشمس . ولهذا السيب نجد أن الأنشودة بأكملها معادة مع ذكر اسم فرعون مكان اسم و رع و أو « حور » حيثها وجدا فى الأنشودة الأصيلة . وبنلك الحترام وعلى كل الاحترام وعلى كل القرابين التى كان يتسلمها إله الشمس من مصر .

غير أن خيال الكهنة لم يقف عند هذا الحد، إذ لم يكن كافيا فى نظرهم مساواة الفرعون برع واتحادهما، بل نرى الفرعون المنتقل الى السماء يصور بصورة مشعة شاسعة الأرجاء تفوق أهمية إله المشمس فى الظلمة الأزلية. لهذا نسمع ذلك الصوت الحنى يناديه: ياوالد الملك « تيتى »! ياوالد الملك « تيتى » فى الظلمة ! ياوالد الملك « تيتى » إلى جانبك حتى يشعل لك النور وليحميك كما حمى « نون » (المحيط الأزلى) هذه الإلهات الأربع فى اليوم الذى حمت فيه العرش وهى: « أزيس » و « نفتيس » الإلهات الأربع فى اليوم الذى حمت فيه العرش وهى: « أزيس » و « نفتيس »

و « نيت » و «سير كت » . و يحتاز الملك المتوفى السهاء فى شكل نار ملتهمة على أثر صعود الملك ، وناس » على ذراع أشعة الشمس » ؛ كذلك نرى الملك يحتل مكانة سامية واصلة بين الأرض والسهاء : « هذه ذراعه اليمنى تحمل السهاء فى رضا وهذه ذراعه اليسرى نحمل الارض فى سرور .

وكذلك نجد خيال القوم يبالغ فى تصور صور ذات قوة كونية فيصير الملك « نتيجة المطر أى أنه خرج من منبع المبام». أو نجده يفوز بسر الأشياء وقوتها وبصفته «مدون كنابة الإله الذى يقول ماهو كائن ويسبب خلق ما لم يكن ». وقد ولد قبل أن توجد الدنيا أو الموت: «إن أم الملك « بيبي » أصبحت حاملا فيه أنتم ياسكان و السهاء السفلي » ، إن هذا الملك « بيبي » قد ولد من أبيه « آتوم ، قبل أن توجد الساء وقبل أن توجد اللاص وقبل أن توجد اللالمة ، وقبل أن يوجد الموت . إن هذا الملك و بيبي » يفر من يوم الموت كما فر و ست » من يوم الموت . إن هذا الملك من زمر تكم أنتم يا آلمة المساء السفلي الذين لا يمكنهم أن يمو توا بيد أعدائهم ، إن هذا الملك و بيبي » لن المساء السفلي الذين لا يمكنهم أن يمو توا بيد أعدائهم ، إن هذا الملك و بيبي » لن لا يموت بيد أعدائه وأنتم يامن لا تموتون بيد ملك ، هذا الملك و بيبي » لن يموت بيد ملك وأنتم يامن لا تموتون بأى ميت (١) ، هذا الملك و بيبي » لن يموت بيد ملك وأنتم يامن لا تموتون بأى ميت (١) ، هذا الملك و بيبي » لن يموت بيد ملك وأنتم يامن لا تموتون بأى ميت (١) ، هذا الملك و بيبي » لن يموت بأى ميت : ولذلك كان الملك حاضرا ودقت ولادة الألمة حينها كانوا يولدون في خلال سير الزمان »

على أن حلول الملك فى نفس جسم « رع » واتحادهما فى نفس واحدة يشبه امتزاجه بكل الآلهة كمجموعة . ومن أهم فقرات متون الآهرام الفقرة التى تتلى عند الاحتفال بحرق البخور وما يقوم به هذا البخور باعتباره عاملا مسيطرا له جاذبية متبادلة تحمل غالبا شذى الملك العطر حينها يصعد البخور العميق من الارض إلى الآلهة ليختلط بشذاهم ولذلك كان يجذبهم ذلك الشذى إليه بتوثيق عرى الروابط الصادقة والاتحاد بينه وبينهم

⁽١) كان الاعتقاد أن الإنسان بعد الموت فى قدرة روحه المادية أن تعود إلى عالم الأحياء وتؤذى الناس .

و تلك الفقرة لها أهميتها لأنها تعتبر تفسيراكهنيا مبكرا جدا لأهمية البخور بصفته رابطة الألفة بين الآلهة . وهذه الفكرة انتقلت إلى أوربا ولا تزال باقية فى بعض فروع الكنائس المسيحية إلى الآن . وها هى الفقرة بنصها :

إن البخور يوضع على النار والبخور يضى. . وشداك يأتى للملك «وناس» يأيها البخور . وشدى الملك «وناس» يأتى إليك يأيها البخور . وشداكم يأتى للملك «وناس» أنتم أيها الآلهة . وشدى الملك «وناس» يأتى إليكم أيها الآلهة . إن الملك «وناس» معكم يا آلهة .

إن النار تهيأ والنار تضيء .

وأنتم مع الملك « وناس » يأيها الآلهة . والملك « وناس » يعيش معكم يأيها الآلهة . وأنتم تعيشون مع الملك « وناس » يأيها الآلهة . والملك « وناس » يحبكم يأيها الآلهة .

فحبوه يأيها ألالهة.

على أن هذه الألفة التى رمز إليها فيما تقدم تتضارب تضاربا بينا مع صورة، مظلمة بغيضة بقيت لنا من عصور ما قبل التاريخ السحيقة في القدم، وهي الصورة التي نشاهد فيها الفرعون المتوحش ينقض بوحشيته على الآلهة كصياد في الغابة متعطش للدماء كأنه لا يزال يباشر حياة الصيد في عصر ما قبل التاريخ، بل إن هذه الصورة قد تعيد إلى أذهاننا ذكرى تلك العادة الوحشية القديمة وهي أكل لحوم البشر، مع أنه ليس لدينا برهان آخر يقوم دليلا على وجود هذه العادة عصر القديمة و والنص المشار إليه يبتدئ بوصف وصول الملك المخيف إلى السماء هكذا:

السحب تظلم الدنيا . والنجوم تمطر على الأرض .

والأقواس إ مجموعة نجوم] تترنح . وعظام كلاب جهنم ترتعد . والبوابون واجمون. عند ما يرون الملك ، وناس ، يشرق في صورة روح . بصفته إلها يعش بأكل آلاله. و يتغذى بأكل أمهاته . إن الملك « و ناس ، هو رب الحكمة . وأمه لا تعرف اسمه . إن مجد الملك « و ناس ، مو جو د في السماه . مثل والده آتوم الذي أنجيه . وحينها أنجبه كان « وناس » أقوى منه . إن الملك « وناس » يأكل الرجال ويتغذى بالآلهة . وهو رب الرسل ومرسل رسالاته . الذي يشد و ثاقهم للملك « وناس ».

وإن « قابض خصل الشعر الأمامية » القاطن في «كهو » هو .

وإن الثعبان . الرأس الفاخرة ، هو الذي يحرسهم له ويكبيح جماحهم له . وإن الذي على . الصفصاف ، هو الذي يوقعهم في الأحبولة له .

وإن «معاقبكل الآثمين ، هو الذي يطعنهم للملك « وناس » . وهو ينتزع أحشاءهم له .

ويقطعها « ششُّمو » للملك « وناس » .

ويطهو له جزءًا منها في قدور المساء (أوكقدور مسائه أي وجبته وقت المساء).

والملك « وناس » هو الذي يلقف سحرهم .

ويلتهم آحادهم الأجلا. (أي أرواحهم).

و تكون كبارهم لوجبته في الصباح.

ومتوسطو الحجم منهم يكونون لوجبته فى المساء. وصغارهم لوجبته فى العشاء.

والمستونَّ من الرجال والعجائز من النساء لحرق بخوره .

وأما (الآحاد العظام الذين يوجدون في شمال السماء) .

فهم الذين يوقدون له النار تحت القدور التي تحتويهم .

وأرجل أكبرهم سنا (هي الوقود) .

والساكنون فى السياء يختلفون على الملك « وناس » (فى خدمته) موالقدور مفعمة له بأرجل نسائهم .

وقد أحاط بجميع السهاوات [مقابل الارضين].

ودار حول القطرين.

والملَّكَ « وناس ، هو (الواحد العظيم القوى) .

الذي يهزم (الآحاد الأقوياء).

وقد استولى على قلوب الآلهة .

وأكل الآحمر .

وابتلع الآخضر.

والملك « وناس » يتغذى من أعضاء ممتلئة .

وإنه شبعان إذ يعيش على قلوبهم وسحرهم .

وتعاويذهم في جوفه .

ورتب الملك , وناس ، لم تسلب منه .

فإنه ابتلع علم كل إله .

ومدة حياة الملك ، وناس ، هي الابدية .

وحده هو مالا نهاية فى مكانته هذه .

(إذا أراد فعل وإذا لم يرد لم يفعل).

وهو الذي يسكن في حدود الأفق أبد الآبدين .

تأمل إن أرواحهم [الآلهة] في جوف و و ناس . . وآحادهم الأجلاء مع الملك و و ناس . .

وعظم نصيبه أكبر من (نصيب) الآلهة .

تأمل ! إن روحهم موجودة مع الملك « وناس . .

ويظهر لنا بوضوح تام فى هذه الصورة العجيبة الدافع لوجود عادة أكل المنان الممقوتة. فنجد أن الآلهة يصادون وتنصب لهم الشباك ويو ثقون ويذبحون كالماشية المتوحشة لكى يلتهم الملك أجسادهم، وبخاصة أعضاءهم الداخلية كالقلب الذى هو مقر العقل وذلك اعتقادا منه بأنه يمكنه أن يستولى بذلك لنفسه على صفات الآلهة وقواهم. « فتى استولى على قلوب الآلهة فقد ابتلع علم كل الآلهة ، وتعاويذهم تصبح فى جوفه ». ومن جهة أخرى فإنه لماكانت أعضاد الآلهة التى قد التهمها الملك مشبعة تماما بالطعام فإنه أصبح بذلك غير قابل للجوع لأنه أكل حتى امناد تماما.

على أن الذى سبق بيانه يفتح أمامنا باب موضوع قد خصصت له هتون الأهرام مكانا فسيحا، وأعنى به موضوع توريد الطعام فى بملكة إله الشمس النائمة المعددة.

ولأجل أن نفسر تقديم الطعام للمتوفى عند قبره ، ذلك الآمر الذى يبدو فى ظاهره عديم الجدوى بعد أن صار المتوفى بمقتضى المذهب الشمسى لا يمكث فى قبره بعد الدفن حتى يصعد إلى السهاء ، نقول إن المفروض عند قدماء المصريين أن ذلك الطعام المقدم عند القبركان ينقل إلى المتوفى بطرق شتى متنوعة وكان المتعارف أكثر من أى شيء آخر فى هذا الموضوع أن الإقليم السهاوى الذى كان يمكث فيه المتوفى هو الذى يمده بكل حاجاته . فكان الملك بصفته ابن « رع ، ومولودا من آلهة السهاء يمثل وهو يرضع منها أو من آلهة السهام أخرى لها علاقة ، برع ، ويخاصة الإلهتين المتقادمتين لمملكتي الجنوب والشهال فى عصر ما قبل التاريخ . وهاتان الألهتان تظهر ان بشكل رخمتين لهما شعر طويل وثدى مدلاة . . . وهما تمدان يديهما إلى فم الملك ، بيبي » ولكهما لا يفطها له أبداً . ويسمع الصوت من أجل هذا يقول : « إيه يا أم هدا الملك

د بيبى أعطى تديك لهذا الملك د بيبى ، أرضعى منها هذا الملك د بيبى ، وتجيب الآلهة على هذا قائلة . د يا بنى بيبى يا مليكى إن تدييى بمدودة لك لترضع منها يا مليكى ، فعش يا مليكى ما دمت صغيرا . .

وهذا الموقف يظهر لنا العاطفة الإنسانية الطبعية الحارة أكثر من أى. موقف آخر في اللاهوت الشمسي.

وعلاوة على هـذا المصدر الغذائى ومصدر التغذى بأجساد الآلهة أنفسهم يوجد مصدر آخر وهو قرابين كل مصر ، كما جاء ذكر ذلك فى أنشودة ، رع ، ، وقد كان من المسلم به أن الدخل السماوى كان ملكا للملك وأنه كفيل بسدكل حاجاته .

وأخيراً كان من أهم المصادر العدة التي يستمد منها المتوفى قوته فى مملكة . رع ، إن لم يكن أهمها كالها . شجرة الحياة » الواقعة في الجزيرة السرية وسط «حَقُولُ القربان»، وهي التي كان الملك يبحث عنها وبصحبته نجم الصباح. ونجم الصباح هذا هو صقر أخضر فاخر وهو إله شمسي، ويعتبر هو والإله ه حور دوات » نفسا واحدة ، وله أربعة أوجه مقابلة لصقور الشرق الاربعة ، وكان نجم الصباح بلا شك موحدا معها أيضًا ، فنجده واقفا على مقدمة زورقه السهاى الذى يبلغ طوله ٧٠٠ ذراعا وهناك يخاطبه الصوت قائلا : . خذ هذا الملك « بيبي * معك في حجرة رُورقك . . . وخذ أنت خطافك هذا الحبب إلبك وهو عصاك الني تخترق الترع، وهي التي في طرفيها أشعة الشمس وأسنامها مخالب «مفدت، وبها يقطع الملك « بيبي » ر.وس الأعدا. القاطنين في «حقول القرابين » حينها يكون قد نزل فى البحر . فأحن رأسك يا أيها البحر وأثن ذراعيك ، فإن ابني « نوت ، (إلحة الشمس) هما هذان « بيبي » و « نجم الصباح ». اللذان نزلا فيك لابسين أكاليل الزهر على رأسيهما ومتقلدين تيجان الزهر حول نحريهما ». وقد طلب هنا خضوع البحر لأن كلاً من « بيبي » و « نجم الصباح » كان عاكفا على القيام برسالة كريمة لأجل. أزيس، و «حور». وبعد ذلك تستمر القصة قائلة : « إن هذا الملك « بيبي » قد فتح طريقه مثل صائدى الطبور ، وتبادل التحيات مع أرباب الارواح ، وذهب إلى الجريرة العظيمة الواقعة في وسط «حقل القرابين ، الذي تهتيئ فيه الآلهة للبجع النحليق فوقه . والبجع هي النجوم التي لا تفني (النجوم الثو ابت) ، وهي التي تعطى هذا الملك ، بيبي » و « نجم الصباح » في الوقت نفسه أن تعشا منها » .

ومن الممكن إضافة تفاصيل عدة لهذه الصورة التي تمثل الآخرة السماوية. ولكن الصورة الإجمالية التي رسمناها فيما سبق تدل في أقل مظاهرها على العناصر الحامة للمعتقدات التي كان يعتنقها قدما. المصريين عن الآخرة الشمسية في عهد الدولة القديمة [حوالي ٣٠٠٠ — ٢٥٠٠ ق م].

وليس لديناً شك فى أن عقائد هذا المذهب كانت تؤلف فى وقت ما مجموعة معينة ، ليس لها علاقة مباشرة بمجموعة عقائد المذهب الأوزيرى بل كانت المجموعتان فضلا عن هذا تناقض إحداهما الآخرى . وقد بتى لنا بعض البراهين الدالة على عدم تلاؤم هذين المذهبين ، بل إن تلك البراهين تدل أيضا على تعاديهما . فقد قيل عن إله الشمس إنه : « لم يعطه [أى الملك] لأوزير وأنه [أى الملك] لم يمت الموت [الحقيق] وأنه وصل مبجلا إلى الأفق ، وفيها يأتى أبين من ذلك : «أن « رع ، آتوم « لم يعطك لأوزير ، وأنه [أى أوزير] لا يحاسب قلبك ولا يملك سلطانا على قلبك » .

ومن الواضح جدا أن و أوزير ، كان فى نظر أتباع المندهب الشمسى فى زمن ما يمثل مملكة الموت وسلطانها، وهى المملكة التى لم يكن أتباع ورع ، من يحشرون إليها . فطبقا لهذه الفكرة كان يخاف أن تدخل طائفة «أوزير » إلى الهرم بأجمعها لقصد سي من فكان من اللازم إذن الآخذ بالمحافظة على الهرم بصفته الرمز العظيم للشمس ، خوفا من حدوث عادية من وأوزير » ، أو من «حور ، الأوزيرى أو الآلهة الآخرى الذين هم من عصابة «أوزير » ،

ولقد كان من المحتم فى تلك الآونة الشروع فى إيحاد بعض التوفيق بين هذه المعتقدات الشمسية وبين تلك المعتقدات الأوزيرية . وحينها نتعقب سير هذا التوفيق بين المذهبين فيها بعد ، ندرك كيف أن هذا السبيل قد أدى إلى فوز أوزير فى النهاية .

الفص لالسابغ

آلهة الطبيعة والمجتمع الإنساني:أوزير

لقد تتبعنا إله الشمس منذ بداية ملكه القديم الذي كان يعد فيه مجرد قوة طبيعية عظيمة الى وقت الانتقال الذي دخل به الى المجتمع الإنساني بصفته ملكا أرضيا مسيطرا على الحياة البشرية ، وبذلك صار ميدان نشاطه هو ميدان الشئون البشرية . وقد حدث من جراء سيره في ذلك الميدان بفخار لا يداني وسر ليس في الإمكان اختراق حجبه ، أن حياته اليومية لم تترك مجالا لأن يشاركه الإنسان في أي عمل من أعماله أو حركاته . على أننا نجد مجانب ذلك على طبيعية أخرى بدأ الإنسان يسهم فيها ويقوم باعمال الآلهة التي يصعب تحديدها ويوجه قواها الخفية ، فتمكن بذلك من القيام بنصيبه في أعمالها الخيرة ، وتلك القوة الطبيعية التي أسلمت قيادها للإنسان أكثر من غيرها والتي مكنته من القيام فيها بنوع من المساهمة هي قوة الحياه النباتية .

فقد ذكرنا فيما مرأن استنبات الإنسان للقمح البرى والشعير قد غير مجرى حياه أهل ما قبل التاريخ تغييرا كليا ، إذ انتقل الإنسان بذلك من حياة الصيد والقنص الداعية للتجوال الى حياة الزراعة الداعية للاستقرار والاقامة . وقد ترجع بداية ذلك العهد الى نحو ٨٠٠٠ أو ١٠٠٠ سنة مضت . وقد خلق هذا التحول عالما جديدا ترجع أقدميته إلى العصر الحجرى الأخير .

ولما انتهى الأمر بآن صارت الزراعة تشغل المساحات الشاسعة في كافة أرجاد الشرق الأدنى، مكونة بذلك أول إقليم زراعى ظهر في حياة النقدم البشرى المديد، أدى ذلك الى ظهور شعور قوى بحاجة الناس في كل بقعة إلى الاعتباد في معايشهم على ثمرات الارض الخضراء. وهذا الشعور أنشأ في النساس عراطف يمكن مضاهاتها بتلك العواطف التي حدت بآبائنا الى تعيين يوم من أيام الخريف لتقديم الشكر فيه ننه على إنعامه عليهم بخيرات الحقول .

وعند ما انتقل الإنسان القديم من معيشة الصيد الى معيشة الزراعة صار شعوره بالاعتباد على قوة استنبات الأرض هو العنصر الناطق فى تعبيره الدينى عما يخالجه بشأن النغير البين الذى حدث فى حالة معيشته. فإن الحياة الدائمة التي يراها فى الأرض المثمرة التي تموت ثم تحيا ثانية مرات عديدة لانهاية لها قد مثلت فى شكل إله يموت ثم يحيا وهكذا دائما أبدا.

ولذلك لم يكن هذا الاعتقاد وقفا على « أوزير » ، أحب الآلهة المصرية إلى قدما المصريين ، بل تخطاه إلى كثير من الآلهة المحلية فى غرب آسيا ، حيث كان هذا الإله يعرف هناك باسم « تاموز » « أو أدونيس » ، وقد اعتقد القوم فيها أنها عاشت ثم ماتت ثم بعثت مرة أخرى . ولم ينس قدما المصريين قط تلك العلاقة العتيقة التي أحدثها هذا الاعتقاد مع آسيا . وهي التي عبر عنها في النهاية في أسطورة « أوزير » التي تقص عليناكيف طفا جسد الإله الميت على وجه البحر وسار إلى شاطئ « جبيل » ، ببلوص ، الواقعة على الشاطئ "الفينيق في آسيا ، وقد عاد هذا الإله هناك إلى الحياة مرة أخرى متقمصا جسم شجرة خضرا » وننا عن ذلك الحادث عيد جميل كان يقام في كل سنة تذكرة لتلك المناسبة وذلك برفع شجرة مقتلعة وغرسها في الأرض في محفل عظيم ، وكانت تجمل فتغطى وذلك برفع شجرة مقتلعة وغرسها في الأرض في محفل عظيم ، وكانت تجمل فتغطى بالأوراق الحضراء عند ارجاعها إلى الحياة على ذلك الوجه المذكور ، وتلك الشيعرة هي التي انحدرت الينا في صورة « عمود مايو (۱) ، الذي لا نزال نقيمه ونزينه بالابتهاج والرقص احتفالا بعودة الربيع .

ومع أن هذا الحادث العظيم — حادث الاهتداء للزراعة عير مدون بالطبع في وثائن تاريخية ، لوقوعه قبل عصر الاهتداء الى الكتابة بعصور طويلة ، فإننا نستطيع بلاريب أن نتعرف في مذهب ، أوزير ، صدى ذلك التغير العظيم الذي تمخض عن ظهور أقدم الزراع في الأرض ، وذلك لما تتضمنه العقيدة الأوزيرية من سماع أول صوت ديني يتحدث عن نعمة التمتع بالزراعة ، وان ذلك الإلهام

⁽١) عيد الربيع عند الفرنجة .

الذي ألهمه عقل الإنسان حينها صار متصلا اتصالا وثيقا بحياة الارض الخضراء ومتعاونا فيها تعاونا فعليا يعد الآن من أقدم الافكار التي خطرت في الفكر الإنساني. وقد كان لذلك أثر عميق في الآراء البشرية عن الحياة فيها بعد الموت؛ فانتقلت تلك الفكرة إلى العقائد الاغريقية حيث صارمن أصول تدشين المتدين الجديد أن تقدم له حزمة من سنابل القمح أو سنبلة منه واحدة. كما نجد صدى هذه الفكرة حتى في كتاب العهد الجديد: «الحق الحق أقول لكم إن حبة الحنطة التي تقع على الارض إن لم تمت فإنها تبقى وحدها وإن ماتت أتت بشمركشير » [يوحنا ١٢ — ٢٤].

وقد امترجت تلك الفكرة عند قدماء المصريين فى النهاية بطائفة من المعتقدات الخاصة بالثواب والعقاب فى الحياة الآخرة ، ومن ثم تغيرت الآراء الخلقية المصرية القديمة من أساسها بسبب تلك الفكرة .

على أنه لا بد لنا قبل الانتقال إلى بحث الخلق الأوزيرى أن نسبر غور أهمية موضوع «أوزير » بصفته إله طبيعة ولو إلى حدما ، وبينها لانجد شكا فى كنه الظاهرة الطبيعية التى كان يقوم بتمثيلها كل من « رع » و « آتوم » و « حور » و آلمة الشمس الاخرى فإننا من جهة أخرى نلقى شكا عظيها وجدالا شديدا في الظاهرة التى كان «أوزير » يقوم بتمثيلها .

إن أوضح بيان عن أصل و أوزير ، هو حادثة العثور على ذلك الإله المتوفى بوساطة ابنه و حور » كما جاءت فى متون الأهرام : « أن و حور » يأتى و يتعرف والده فيك ، شابا باسمك و الماء العذب » . و بمثل ذلك الوضوح نجد الفكرة نفسها بادية فى كلمات و رعمسيس الرابع ، إذ يقول للإله : « إنك النيل حقا ، عظيم فى الحقول فى باكورة الفصول ، فالآلهة والناس يعيشون بالندى الذى فيك . فني هذين المصدرين القديمين قد وُحد و أوزير » والماء و مخاصة ماء النيل . ومع أن و أوزير » صار مع الماء ، بل مع ينابيع الماء العظيمة نفسا واحدة فإنه من الواضح ، أن وظيفة خاصة للماء هى الى امتزج بها ، فالماء بوصفه مصدرا فإنه من الواضح ، أن وظيفة خاصة للماء هى الى امتزج بها ، فالماء بوصفه مصدرا على التربة . يمن ثم فإن « أوزير ، كان يتصل بالتربة أيضا اتصالا و ثيقا .

وقد أيد هذا الرأى وأكثرمنه ماجاء فى أنشودة من عهد القرن الثانى عشرق. م. إذ أنها لم تقتصر على تأحيد وأوزير، بالتربة بل أحدته هو والارض كلها، فتقول عنه تلك الانشودة: وأما أنت فإن النيل ينبع من عرق يديك وأنك تنفت الهواء الذى فى حلقومك إلى أنوف الناس فوهبت القداسة لما تعيش عليه الناس. وكذلك توجد فى أنفك الشجرة وخضرتها والاعشاب والناتات والشعير والقمح وشجرة الحياة. وعندما تحفر الترع ... و تبنى البيوت والمعابد، وعند ما تنقل الآثار و تزرع الحقول، وعندما تنحت المقابر و من اراتها فإنها ترتكز عليك كلها وأنت الذى تصنعها فهى على ظهرك رغم أنها أكثر من أن تدون، وظهرك لا يوجد عليه مكان خلو لانها جميعها موضوعة فوقه ... و فكاتب هذه الانشودة يعتبر أن وأوزير، هو الارض نفسها و بخاصة الارض المنتجة للخضره.

ولذلك فان الاشارات إلى أوزير المعروفة لنا تقرنه بحياة النبات أو توحده معها. ولعلنا نذكر أن المسرحية المنفية (التي يرجع عهدها الى بداية والاتحاد الثانى، حينها كانت قيادة الآمة في عاصمتها ومنف ،) أطلقت على تلك البلدة اسم « مخزن غلال الإله ، ومن أجل ذلك أدخل رجال الفكر في و منف ، الى و أوزير » في مسرحيتهم المقدسة توضيحا للسبب الذي من أجله صارت ومنف ، و مخزن غلال الإله ، ولما كان القوم لا يزالون متجهين بتفكيرهم الى صفات وأوزير ، الطبيعية فإنهم يقولون إن إطلاق هذا الاسم على و منف ، نشأ من أن وأوزير ، أغرق في مياهه عند منف ، وبذلك صارت و مخزن غلال الإله ، و

ثم أن الآرا. الواردة في منون الأهرام المبكرة التي تعتبر أقدم من تلك المسرحية تمثل . أوزير » مرتبطا ارتباط وثيقا بالحياة النباتية .

ويؤحد , أوزير ، أيضا فى أقدم نسخة من كناب الموتى مع الحنطة ، إذ يقول المتوفى معبرا عن نفسه : , إنى أوزير ، وإنى أعيش كحبة (١)حنطة وأنمو كبة حنطة . . . وإنى شعير ، .

⁽١) الحبة هنا عمل إله الحب (نبر) والفقرة مقتبسة من متون توابيت الدولة الوسطى .

ويجب أن نقرن بهذه الأقوال المبكرة تلك الصور المشكررة التى تمثل القمح نابتا من جسد «أوزير » الراقد فوق الأرض ، كما تمثل شجرة نابتة من قبره أو تابوته ، أو تجعل تماثيل الإله المصورة على هيئة مومية فى قالب مكون من الدشيشة والتراب مدفونة مع المتوفى أو موضوعة فى حقل القمح ليضمن به الزارع محصولا موفورا من أرضه .

وعلى ذلك فقد صار واضحا فى اقدم المصادر التاريخية التى عرفت للآن أن «أوزير، والمياه (وبخاصة فى الفيضان) والتربة والنبات كانت جميعا نفسا واحدة. وتبدو لنا تلك نتيجة للاتجاه المصرى إلى التفكير بالصور الواقعية.

فهذا الإله فى التفكير المصرى القديم كان من غير شك عنصر الحياة الذى لايفنى أبدا أينها كان ، وكثيرا ما نرى له صورا تظهره حتى فى حالة الموت محتفظا بالقوة التناسلية . فحياة الارض التي تموت ثم تحيا ، والتي تنصل أحيانا بالمياه التي تمنحها الحياة وأحيانا أخرى بالتربة الخصبة ، والتي تظهر فى النبات نفسه ، كل أولئك وأوزير شيء واحد .

ولماكان النيل مثل النبات الذي يسقيه وينميه يعلو وينخفض في كل سنة فقد كان من السهل تصور «أوزير » ممثلا في النيل ، الذي يعد أهم ظاهرة في الاقليم المصرى ، أكثر من تصوره في أي شكل آخر غيره (١). والواقع أن النيل لم يكن في نظر القوم سوى المنبع الظاهر والرمز لهذه الحصوبة التي كان عملها «أوزير » .

ثم إن وظائف « أوزير » بحكم طبيعتها قد أدبجته منذ القدم في دائرة الشئون البشرية مما جعله يتصف سريعا بالصفات البشرية والاجتماعية . ولهذا فإن هذا

⁽١) وأن الدايل الذي جاء متأخرا على لسان المؤلفين من الإغريق والرومان يؤيد على وجه عام النتيجة التي ذكرناها هنا، وليس لهذا الدليل المتأخر سوى أهمية ثانوية عندما يقرن بالمصادر القديمة التي ذكرناها فعاسبق. وأهم الفقرات التي وردت في المصادر الإغريقية الرومانية مجدها في كتاب «فريزر» ,345 - 340 - 345 كتاب «فريزر» ينقصها التوسع في معرفة المصادر المصرية القديمة وبخاصة متون الأهرام .

الإله الذي كان من شأنه أن يموت ثم يحيا وهكذا دواليك، والذي ظهر بأنه عرضة لمصير البشر من الموت وغيره، قد كان لا محالة ينبوعا صالحا لا ينضب لوضع الأساطير والخرافات - وتأليفها . فكان مثل وأوزير ، كثل إله الشمس ، قد صار ملكا من ملوك مصر الاقدمين بعد أن ظهر الملوك فوق الشمس ، وكان في العادة يسمى و وارث جب ، إله الأرض ، « الذي أعطاه قيادة البلاد لفائدتها ، ووضع في قبضته هذه الارض وماءها وهواءها وخوانات وكل ماشيتها ، وكل ما يطير وكل ما يرفرف فوقها وحشراتها وحوانات الصيد في محاربها ، فصار كل ذلك مملوكا شرعا لان « نوت (۱) ه [أي أوزير] » ، بناك الكيفية بدأ « أوزير » حكمه الصالح بصفته ملكا على مصر ، وكانت البلاد راضية بذلك عند ما أشرق على عرش والده ، مثل « رع » حيما يطلع في البلاد راضية بذلك عند ما أشرق على عرش والده ، مثل « رع » حيما يطلع في الخص ملك على مصر الخون بعد أن من زمن طويل على « أوزير » وهو ملك على مصر الخص ملك الأدلة السالمة) . ثم دخل بعد ذلك بالتدريج إلى الميدان السياسي أيضا . فتقول عنه نفس الانشودة السالمة الذكر : « إنه هزم أعداه وذبح مناهضيه فتقول عنه نفس الانشودة السالمة الذكر : « إنه هزم أعداه وذبح مناهضيه بساعد قوى ، وجعل خوفه يدب بين خصومه ومد تخوم بلاده »

ويبرز لنا بوجه خاص «أوزير» مصبوغا بصبغة إنسانية في العلاقات الأسرية التي نجدها مذكورة في الأسطورة التي نسجت حوله، فنجد « إزيس » أخته وزوجه في آن واحد قد وقفت إلى جانبه في ولاء لتصد عنه أعداءه ، ومع ذلك وحافظت عليه « بأن طردت أعداءه وصدت عنه [الخطر] » . ومع ذلك فإن أعداءه استدرجوه إلى الموت بالحيلة إن لم يكن جهارا حتى تغلبوا في الهماية عليه كما قص ذلك المؤرخ « بلوتارخ » ، ولو أنه لا توجد لدينا أنه وثيقة في المصادر المصرية القديمة عن قصة الصندوق التي رواها « بلوتارخ » . ذكر فيها أن خصر م ، أوزير » المنآمرين عليه قد أغروه حتى دخل في الصندوق مم أغلقوه عليه حتى مات بداخله . وكان رأس أعداء « أوزير » الطيب ، أخاه « ست » الذي كان مع ذلك يخاف الماك الطيب .

⁽١) « نوت » إلهمة السهاء كانت أم « أوزير » .

وقد نصت متون الأهرام التي تعد من أقدم المصادر القديمة على قتله ، فإنها قالت : «وصرعه أخوه « ست » على الارض في « نديت » ، أو تقول : وطرحه أخوه « ست » على جنبه على الشاطئ الاقصى لارض جحستى » .

ولكننا من جهة أخرى تجد أن المسرحية المنفية التي تعد أقدم ماوصل إلينا من المصادر القديمة لدرجة أنها أقدم من عصر الأهرام تقول: إن « أوزير » أغرق في مائه الجديد [أي ماء الفيضان]»

وعندما وصلت الآخبار إلى « إزيس ، التعسة عن مقتل أخيها هامت على وجهها فى حزن شديد باحثة عن جنة سيدها : « باحثة عنه بلاكلل ، فسارت فى أنحاء هذه الأرض محزونة غيرهادئة البال إلى أن عثرت عليه »

وزيادة على ما ذكر فإن أقدم ما وصل إلينا من الأدب المصرى القديم مفعم بالإشارات عن تلك الزوجة المخلصة التي كانت لا تزال تواصل البحث عن زوجها القنيل: «لقد أتيت باحثة عن أخيك ، أوزير، بعد أن هزمه أخوه «ست».

أما قصة «بلوتارخ» فإنها تجعل « إزيس » تواصل الهير في محمّا حتى عرض البحر الأبيض المتوسط الى أن تصل الى « جبيل » (ببلوص) ، وهو المسكان الذي حملت إليه المياه جمّة «أورير » كما مرذكره . غير أن متون الأهرام تشير إلى أن «أوزير » وجد أخيراً فوق شاطىء « نديت » وهو المسكان الذي ذبح فيه « أوزير » بيد «ست » ، ويحوز أن «نديت » كان في الأصل إسما قديما لإقليم « ببلوص » ، وإن كان موقع « نديت » المذكورة قد حدد فيما بعد في « العرابة المدفونة » بصر ، ولذلك كان أحد فصول رواية « أوزير » يمثل على شاطىء « نديت » القريبة من « العرابة المدفونة » بمصر

إما الإلهة «نفتيس » فكانت غالبا ترافق أختها « إزيس «فى هذا البحث . الطويل عن جثة «أوزير» ، وكانت كل منهما ممثلة فى شكل طائر : «إن «إزيس » تأتى «ونفتيس » تأتى إحداهما على اليمين والأخرى على الشمال ... وقد وجدتا «أوزير » كما صرعه أخوه «ست » على الأرض فى «نديت » ، وعندما رأتاه قالت «نفتيس » : «لقد وجدته صريعاً على جنبه على الشاطىء . . يا أخى لقد

بحثت عنك . . . إبكى أخاك يا و إزيس ، ا إبكى أخاك يا و نفتيس ، ا إبكى أخاك ، . ومن ثم صار عويل و إزيس ، و و نفتيس ، على أخيهما و أوزير ، أقدس تعبير معروف عن الحزن لدى قلب المصرى القديم . وقد تقلب ذلك العويل فى صور متنوعة شتى حتى ظهر أخيرا فى الإساطير الاوزيرية الاوربية فيما بعد ذلك العهد الذى نحن بصدده الآن بنحو ثها ثم آلاف سنة .

و بعد ذلك قامت الآختان بتحنيط جثمان أخيهما حفظا له من الفناء . وبعد أن وضعتاه فى قبره نبتت به شجرة جميز ثم أحاطت بجسد ذلك الإله المتوفى . والجميزة المذكورة هى مثل شجرة «الآريكا» النى ورد ذكر ها فى قصة « بلوتارح » ، وتلك الشجرة المقدسة تمثل الرمن الظاهر لحياة «أوزير » الخالدة التى لاتفنى . "وقد كانت فى أقدم المصادر القديمة مقدسة أيضاً وكانت تخاطب كأنها إلهة . .

وهكذا كانت قصة حياة «أوزير ، وموته ، على أن حياته التى كانت تمثل لنا دورة من الظواهر الطبيعية لم تسكن تقف طبعاً عند ذلك الحد ، فإنها استمرت في بعثه من جديد كما استمرت أيضا في قصة أخرى أضيفت فيها بعد مأخوذة عن اللاهوت الشمسي وهذه هي قصة «حور» بن «أوزير ، المذكور والنزاع الشمسي الذي قام بين «حور» و «ست » مع أن هذا النزاع لم يكن «أوزيريا» في الاصل .

وكذلك نلاحظ أن القوة الحيوية عند ، أوزير، لم تنقطع أبداً حتى فحالة الموت ، إذ أن د إزيس ، المخلصة قد اقتربت من سيدها المتوفى ثم احتضننه و وأسدلت عليه بريشها فينا و بجناحيها نسيا . . . وبذلك بعثت الحياه ثانية في أعضاء صاحب القلب الساكن المتعبة فوضع فيها نطعته ، وبذلك أنجبت منه وريثا له ، ثم ربت هذا الطفل في مكان منعزل لم يعرف بعد موضعه ، وعندما اشتهد ساعده قدمته أمام القاعة العظيمة في عين شمس » .

وقد كان خيال عامة الشعب مغرماً بتأمل صورة الأم التي أخفت نفسها في مستنقمات الدلتا التي قامت فيها بتربية دحور ، الشاب ، حتى إذا د ما اشتد ساعده ، صار قادراً على الانتقام من قاتل أبيه . وفي خلال تلك المدة التي ولد

وترى فيها «حور» لم يقعد «ست «مكتوف اليدين طبعاً ، فقد لق ذلك الطفل «حور ، على يده كثيراً من المخاطرات والمآزق ، وقد حفظت لنا من هذه الحوادث نتف صغيرة جداً لا يمكن تأليف قصة متصلة منها . ولكن حتى بعد بلوغ ذلك الصبي أشده وارتفاع قامته ثمانية أذرع (نحو ١٤ قدما) اضطر مع ذلك لصنع صندوق صغير طوله نحو نصف ذراع يكون مخبأ له يتتى بالاختفاء فيه شرور «ست ، وعاديته . وعندما بلغ ذلك الإله الشاب سن الرجولة وصار في مكنته مدافعة الاخطار خرج من مكنه الذي كان فيه بالدلتا ، وأتى مطهراً ليتمكن من الانتقام لابيه .

وكذلك كان موضوع بر «حور » بوالده محببا إلى عامة الشعب السرح خيالهم ويجول مبتدًا بحادث تصدى «حور » لمحاربة أعداء أبيه والانتقام له من «ست » . وقد اشتد وطيس الموقعة التى نشبت بين «حور » و «ست » (وهى كما ذكرنا فيها مر ، مأخوذة عن المذهب الشمسى) حتى أن ذلك الإله الشاب فقد عينه بيد «ست » عدوه وعدو أبيه ، شم غلب «ست » على أمره ، واسترد الإله «تحوت » أخيراً عين «حور » المفقودة بأن تفل ذلك الإله الحكيم على الجرح فصحت وشفيت . وتلك الطريقة التى سلكها الإله «تحوت » الشفاء العين هى بطبيعة الحال نوع من التطبيب الشعبي ، تردد ذكره فى تلك الاسطورة فنال شهرة وذيوعا شم تحول إلى آسيا حتى لقد يلوح لنا أن استعماله ظهر مرة أخرى فى كتاب العهد الجديد عند ذكر الحادث الذي يصور لنا المسيح مستعملا تلك الطريقة نفسها لإبراء الاعمى ، وفى ذلك بلا شك إذعان المادة منتشرة بين العامة فى مثل تلك الحالة .

ثم إننا بعد ذلك نجد وحور ، قد أخذ يبحث عن والده القتيل عابرا البحر في سبيل البحث عنه حتى يرفعه من بين الموتى ويقدم له عينه المصابة التى ضحى بها من أجله . وهذا العمل الذى يدل على البر بالوالد كما جاء مذكوراً في متون الأهرام ضاعف تقديس وعين حور ، التى كانت مقدسة من قبل في التقاليد وفي الشعائر المصرية القديمة حتى صارت رمزاً لكل تضحية ، ولذلك صارت

كل هبة أو قربة يصح أن تسمى عين حور ، وخاصة إذا قدمت باسم القربان المدوق . وإذا استثنينا والجعل المقدس ، فإن والعين المقدسة ، كانت تعتبر أعظم رمز منتشر نال احتراما عظيما فى الديانة المصرية القديمة ، ولذلك برى عشرات الآلاف من الأعين المصنوعة من الفخار المطلى ذات اللون الأزرق أو الأخضر وغيرها بما صنع من الاحجار النفيسة الغالية ، ولقد ملئت بتلك الاعين متاحفنا ، هذا فضلا عما كان يحضره آلاف السياح معهم إلى بلادنا ، وما كانت تلك الاعين فى الواقع إلا تذكارات ورموزاً لتلك القصة القديمة التى تحدثنا عن وحور ، وبره بوالده .

ولدينا فصل فى متون الأهرام يحدثنا عن جميع ما جاء فى قصة بعث ذلك الإله القتيل، نجد فيه حادث بعث وأوزير ، مرددا مرارا وتكرارا . وذلك لأن معارضة الإنسان للموت قد عبرعنها بإلحاح بترديد ذكر تلك الحقيقة القاطعة القائلة ببعث وأوزير ، فنرى فى تلك المتون أن القبر فتح له: ولقد أخرج لأجلك اللبن (۱) من القبر العظيم ، بعد ذلك يستيقظ وأوزير ، ويفيق الإله المتعب من رقدته ، ويقف الإله منتصبا ويتمالك جسمه . وقف إنك لن تفى المنك لن تفى ،

غير أن حقد «ست ، على «أوزير » لم ينته بعد هزيمته النكراء على يد «حور »، وحتى بعد إحياء «أوزير »؛ بل إنه دخل إلى محكمة الآلهة فى «عين شمس »، وأودع لدى هؤلاء الآلهة انهامات باطلة ضد «أوزير » وليس لدينا بيان واضح عن تلك الخصومة أوعن نوع تلك الانهامات التى اختلقت ضده ، الا أن «ست » قد اتخذ منها وسيلة للاستيلاء على عرش مصر ، ولا بد أنه كانت توجد ولو رواية واحدة تدل على أن المحاكمة كان موضوعها جريمة قتل «ست » لاخيه «أوزير »، ولكن «أوزير ، فاز فى النهاية بالحكم لصالحه وأعيد عرشه إليه ، ذلك العرش الذى كان ادعاه «ست » بالباطل .

⁽١) لا يزال وضع لبنة تحترأس المتوفى عادة متبعة عند المصريين الحالمين في الوجه البحرى . (المعرب) .

وكان الحسكم الذى صدر الصالح ، أوزير ، فى قالب يعبر عنه فى الحقيقة بكلمة ، صادق ، أو ، حق ، أو ، عدل ، أو ، صوت الحق ، ... ولا بد أن ذلك النعبير كان اصطلاحا رسميا مستعملا بمعنى يضاهى فى الغالب كلمة ، منتصر ، أو ، نصر ، وذلك المعنى يحمل فى ثناياه المعنى الأصيل لكلمة ، فائز ، أو ، فوز ، عند استعمالهما فى معنيهما الحلق والمادى . وتدل الخصومة بين «أوزير» و «ست ، بعد تطورها على أنها قد اكتسبت معنى خلقيا فى تلك المناسبة إن لم يكن لها ذلك فى بادى الأمر . على أنه ستأتى هنا الفرصة الكافية فيما بعد لاستقراء وملاحظة فى بادى التطور الخلق الذى حمله فى ثناياه انتشار تلك الواقعة وذيوعها فى أسطورة ، أوزير » .

ومع أن «أوزير » تسلم فى النهاية زمام مملكته بعد بعثه من الموت وانتصاره على أعدائه بعد المحاكمة ، فإنه بالرغم من كل ما ذكر لم يكن فى الواقع من أهل على الأحياء ، بل كان ملكه هو العالم السفلى المظلم الواقع تحت الأرض ، وكان لا بدله من النزول إليه فوراً .

وتقول المسرحية المنفية إنه بعد أن مات « دخل الأبواب السرية في بهاء أرباب الأبدية ، مقتفيا أثر ذلك الذي يشرق في الأفق بل أثر « رع » في العرش العظيم » [يعني منف] ... وهكذا حضر « أوزير » إلى الأرض « في قصر الملك » بالجهة البحرية من تلك الأرض التي وصل إليها (منف) ، وطلع أبنه « حور » كالفجر ملكا على الوجه البحري ، بين ذر أعي والده وأوزير » أوزير « أوزير » خليفته على دنيا الأحياء ، وأما ماكان تحت حكم «أوزير» فهو مملكة الأموات السفلية . وقد نال «أوزير» مكانته العظيمة السامية في الديانة المصرية القديمة باعتباره بوجه خاص صديق الأموات وحاميهم.

⁽١) ولقداستمر «ست » الحقود يؤكد ادعاءه للعرش ضد «حور » الفق . وتقص علينا ورقة بردية عثر عليها حديثا ونشرها الدكتور « ألن جاردنر » فى سنة ١٩٣١ فى شكل قصة عامية ، الأدوار التى مرت بها هذه القصة :

The Library of A. Chester Beatty; Description of a Hieratic Papyrus with a Mythological Story etc. by Alan H. Oardiner, London, The Oxford University Press, 1931.

الفصير النامن

نور الشمس و الخضرة امتراج ، رع، مع ، أوزير ، وظفر ، أوزير »

. إن الذي تزرعه بنفسك لايحيي إلا ليموت.

(ياجاهل إن ما تزرعه أنت لايحيي إلا إذا مات)

ليست هذه الكلمات التي فاه بها القديس بولص إلا تلميحاً لما تركته الدورة السنوية في الحياة النباتية (التي من شأنها الموت ثم الحياة) من التأثير العميق في عقول الاقدمين.

ونحن نذكر أن الاساطير الآغريقية كانت مفعمة بمثل تلك الافكار .

كذلك كانت دنيا البحر الابيض المتوسط فى كل مكان متحفّرة لاعتناق الآراء والشرقية التى من هذا النوع ، فكان تأثيرها من أجل ذلك ظاهراً فى الإنجيل .

وإن أقدم مظهر لنأثير الخضرة فى آراء الاقدمين التى لها علاقة بشأن الموت نراه بحالة واضحة فى ذلك الانتصار الباهر الذى أحرزته تلك والعقائد الاوزيرية ،
على ماسبقها من العقائد الخاصة بالحياة فى الآخرة ، وليست وصلاة عيد الفصح ،
الحالية حطعاً حلالا أحدث المظاهر الباقية لنلك القوة الملحة التى نشأت عن أثير للطبيعة فى روح الإنسان ،

وقد ذكرنا من قبل أن كل المعتقدات الشمسية والأوزيرية قد اندمج بمضها ببعض منذ عصر مبكر. ومع أنه يمكن تمييز نواة كل بحموعة من أساطير كل عقيدة بسهولة، فإننا من جهة أخرى نجد أن اندماج الآراء الشمسية بالآراء الاوزيرية عن الحياة الآخرة قد ترك لنا مشكلة صعبة الحل جداً إذا نحن حاولنا فصلها من ذلك الاندماج لتتميز كل عقيدة منها عن الاخرى.

وذلك أن كلا من نور الشمس والخضرة كانا مندمجين في الديانة المصرية القديمة بعضها ببعض بحالة لايمكن معها فصلهما من ذلك الاندماج، مثلهما في ذلك كثلهما في الطبيعة لا يمكن فصلهما من ذلك الامتزاج. ولهذا كانت توجد بحموعة معتقدات خاصة بالحياة الآخرة يمكن تسميتها « معتقدات شمسية ، وبحموعة أخرى خاصة بالحياة الآخرة أيضاً تسمى بلانزاع «معتقدات أوزيرية»، غيرأن هذين المذهبين قد اندمج بعضهما ببعض حتى صار لدينا مناطق محايدة عن ذلك الاندماج لا يمكننا اعتبارها لو احدة منهما خاصة دون الاخرى. ومع ذلك يمكن عيين المذهبين، من الانظمة الخاصة بكل منهما، بسهولة أكثر.

فهن الواضح أن المذهب الشمسى كان لاهوت الدولة تحيط به أبه الملك ونفوذه، على حين أننا نواجه فى مذهب أوزير ديانة الشعب التى اجتذبت إليها كل فرد متدين.

ومن المحتمل أن الناريخ القديم لتتابع هذين المذهبين كان كا يأتى :كان المصريون فى عهد ماقبل التاريخ يعتقدون اعتقاداً ساذجا بوجود عالم سفلى الأموات مآل كل الناس إليه حتما . وخُص الملوك بآخرة سماوية جليلة خصوا بها فى أول الامر ثم شملت فيما بعد جميع عظهاء القوم وأشرافهم ــ وقد تكلمنا عنها فيها سبق ــ ثم انتهى أمرها أخيراً بأن صارت عالما شمسيا لحؤلاء الموتى .

ولما حل نفوذ ، أوزير ، الذي كان آخذاً في الازدياد محل الآلهة الجنازيين الذين كانوا أقدم منه صار هو بذلك رب العالم السفلي .

وكان من نتائج ذلك أن أخذ « أوزير » وعالمه السفلى يناهضان الآخرة الشمسية السياوية فى سلطامها . وندرك فى ظهور هذين المذهبين جنبا لجنب الكفاح الطويل الذى قام بين دين حكومى ودين شعبى لأول مرة فى تاريخ العالم البشرى .

والآن يجب علينا أن نبتدى بتحديد أصل معتقد وأوزير» عن الحياة الآخرة بقدر مانستطيع، ثم نقتني بعد ذلك أثر سير الكفاح الذي لايزال حتى الآن غير محدد بينه وبين ذلك اللاهوت السهاوي العظيم الحاص بعقيدة الملك المتوفى فجر الضمير

وهى التى فحصناها فيما سبق. وربما كان أعظم شىء فى حياة سكان وادى النيل الأقدمين يكسبهم تقديرنا الحاص هو أن المذهب الأوزيرى قد علق فى الحال بعد وه بخيال الشعب ثم انتشر بين طبقاته، وبذلك أخذ يناهض المذهب الشمسى الذى كان يعتنقه رجال البلاط الملكى وكهنة الحكومة. ويتضح ذلك بوجه خاص فيما يتعلق بعقائد الحياة الآخرة التى ندرك من أدوار تطورها صبغ الديانة المصرية القديمة بالتدريج بالصبغة « الأوزيرية »، وبوجه خاص فى التعاليم الشمسية عن الحياة الآخرة.

على أنه لا يوجد فى أسطورة « أوزير » ولا فى أخلاقه ولا فى المتأخر من تاريخه ما يشعر بوجود حياة أخروية سماوية . بل إننا نذكر أنه لا يزال يوجد بعض نصوص واضحة لا يتطرق إليها الشك ترجع إلى عصوركان فيها « أوزير » يعتبر عدو الموتى الذين يعتنقون المذهب السماوى الشمسى ، وهذه النصوص يعتبر عدو الموتى الذين عمنقون المذهب السماوى الشمسى ، وهذه النصوص لا يزال فى مقدورنا تعرفها بين متوق الأهرام وهى تشتمل على تعاويذ كان الغرض منها منع « أوزير » وأقاربه من دخول الهرم — وهو قبر شمسى — الغرض منها منع « أوزير » وأقاربه من دهب « أوزير » (الذي كان فى وقت مامذهبا بقصد سى « . وفيما قبل التاريخ كان مذهب « أوزير » (الذي كان فى وقت مامذهبا بقصد منها كانت فى الوقت نفسه معادية للعقائد السماوية الخاصة بعالم الحياة الآخرة وما فيها من نعيم .

ولما هاجر ، أوزير " من الدلتا إلى ، أبيدوس " تصور القوم أن ملكه يقع في الغرب أو تحت الأفق الغربي ، ومن ثم أخذ « أوزير ، مكانه في العالم السفلي وأصبح ملكا على عالم الأمر ات تحت الأرض ؛ وتلاحظ تلك الظاهرة حتى في متون الأهرام ، وبلغ «أوزير ، قة فوزه بصفته رب مملكة الأموات السفلية ولما لم يكن في أسطورة « أوزير » ووظائفه ما يحمله ير تفع إلى السهاء فإننا كذلك نجدان أبسط صبغ متون الآهرام لا تقول برفعه إلى عالم السهاء ، و تشتمل قصة المصير « الأوزير » على صور متنوعة كالتي نجدها في اللاهوت الشمسي، ولكن الخضرة التي كان يمثلها «أوزير » تستمر بعد موتها ، ولذلك كان من المحتم أن يبعث « أوزير » من بين الموتى أيضاً . وكانت قيامته تعد فوزا على الموت

وقوة لا يعدلها شيء في العقائد الجنازية المصرية القديمة . وكان من نتيجة ذلك أن الملك و «أوزير » قد أُحدا ، ولذلك كان الملك المتوفى يفعل كل ماكان يفعله «أوزير »؛ فكَّانَ يتسلم قلبه وأعضاءه كما فعل ذلك «أوزير »، أو كان يتحول إلى «أوزير » نفسه . وكان ذلك أحب معتقدات القوم في المذهب الأوزيرى ، أي أن يتحول الملك إلى «أوزير » ويقوم من الموت ثانية كما قام «أوزير » نفسه من الموت .

ويبدأ تأحيد الملك بأوزير عند ولادة الملك، وقد جا، وصف ذلك في متون الأهرام مشتملا على كل العجائب والمعجزات الخاصة بالمولد الإلهي. ولم يقتصر الحال على تقمص الملك شكل وأوزير » فحسب بل إنه أحد معه تأحيداً تاما، وذلك مانجده مدونا عن تلك العقيدة في متون الأهرام. ولذلك نرى وأوزير » ففسه تستحلفه الملوك على اختلاف أسمائها: «إن جسمك هو جسم هذا الملك وناس »، ولحمك هو لحم هذا الملك وناس »، وعظامك هي عظام هذا الملك وناس »، وعالم في عظام هذا الملك وناس »، وعلى هذا الملك وناس » وعلى أنه (أى أوزير) يعيش فإن هذا الملك ووناس » يعيش، وعلى هذا الفرض يتسلم الملك المتوفى عرش وأوزير » ويصير مثله ملك الموت : «هيا أيها الملك والدك وزير » اإنه أعطاك عرشه وأنت تحكم أولئك الذي صنعه لك والدك «أوزير » اإنه أعطاك عرشه وأنت تحكم أولئك الذين في الأماكن والدفية (أى الموتى) إنك تقود الصالحين منهم ويتبعك كل الأجازير».

ولقد كان أسمى نفع نتج عن تأحيد الملك و «أوزير » أنه ضمن للفرعون المتوفى الحدمات الطيبة التى كان يقوم بتقديمها «حور » الدى يتمثل فيه البر البنوى لوالده «أوزير» فقد صارت كل الرعاية الصالحة التى كان قد نالها «أوزير» يوما ما على يد ابنه «حور» من نصيب الملك المتوفى أيضا ، وفى متون الأهرام بحوعة طويلة من الصيغ تشرح لنا نلك المناضلة التى قام بها «حور » ذلك الابن الشجاع لنصرة والده الملك المتوفى بصفته ، أوزير » ، ولكننا لا نكاد نجد في كل ذلك أثراً للمصير السهاوى ولا إشارة إلى ذلك المكان الذى حدث فيه ذلك النضال العنف .

ومع أنه من الواضح أن كهنة عين شمس هم الذين صبغوا بادئ الأمر العقائد الجنازية بصبغة شمسية وسماوية ، برغم أنهاكانت فى أول أمرها أرضية فى أصلها وصبغتها ، فإن هؤ لا ـ الكهنة الشمسيين لم يكن فى مقدورهم أن يقاوموا النفوذ القوى الذى نشأ من انتشار مذهب «أوزير ، بين الشعب ، وانتهى الحال بأن صبغت منون الأهرام بصبغة «أوزيرية » .

وإن التطور المستمر الذي نتعرف منه في ذلك البحث سير الكفاح بين المندهب الشمسي الذي كان متبعا في معابد الحسكومة وبين المعتقدات الشعبية لديانة وأوزير، كما يتضح من متون الأهرام، يعد من أهم ما بتي لنا من أخبار العالم القديم، فقد حفظ لنا حقا أقدم مثال الصراع الروحي والعقلي بين ديانة الحكومة وديانة الشعب وذلك الصراع يسوقنا إلى موازنته بالكفاح الذي حصل فيها بعد في عهد الدولة الرومانية وهو اعتقاد الشعب في وعيسي، الذي رفع إلى السهاء وهو المذهب الشعبي من جهة، وبين عبادة الحكومة المنظمة لقيصر الذي كان يعتبر في نظر القوم أنه والشمس التي لا نقهر، من جهة أخرى، ولا نزاع في أن الديانة المسيحية المبكرة قد حملت في ثناياها صدى ذلك الكفاح القديم الذي قام على ضفاف النيل بين الحضرة التي تحيا ثانية باستمر الروبين إله الشمس . فكان إله الخضرة [أي أوزير] البشرى في نظر الشعب من ثراء أن يقاوموا قوة ذلك الميل.

ويمكننا أن نتبع سير عملية صبغ العقائد بالمذهب و الأوزيرى ، فى متون الأهرام حسب النسخ التى نشرتها الكهنة من حكم إلى حكم خلال عهد خمسة ملوك متتالين تمثلهم خمسة أهرامات تحتوى على خمس نسخ محنلفة من متون الأهرام تختلف كل منها عن الأخرى فى قراءتها . وقد يكون فى إيراد بعض الأمثلة ما يظهر البرهان على ذلك ويوضح سير عملية هذا التطور .

فالسلم الذي يؤدى إلى السماء كان فى أصله عنصراً من عناصر المذهب الشمسى. والدليل على أنه لم تكن له أية علاقة بأوزير ، يظهر بأمور منها: أن إحدى الروايات الخاصة بقصة السلم تمثله فى حيازة «ست ، عدو « أوزير »

التقليدى . و يمكننا اقتفاء صبغ قصة السلم بالصبغة الأوزيرية بسهولة فى أربع روايات ذكرت عنه . و تلك الروايات فى الحقيقة روايات محتلفة مأخوذة عن أصل واحد قديم ، و تمثل هذه الروايات الأربع عصراً يمتد إلى نحو قرن من الزمان أو على أقل تقدير نحو ٥٥ سنة . فيظهر أمامنا فى أقدم هذه الروايات التي حفظت لذا أن السلم لا يظهر منه إلا جزء يسير والصاعد عليه هو فرعون نفسه . على أننا نجد أن قصة السلم قد تم تطورها بعد مضى جيل ، إذ كان الصاعد الأصلى الأول عليه هو و آتوم ، إله الشمس ولكننا نجد أن الإلهتين الصاعد الأصلى الأول عليه هو و آتوم ، إله الشمس ولكننا نجد أن الإلهتين و إزيس ، و «نفتيس» الأوزيريتين قد ضمنا إلى القصة . وفي آخر رواية عرفت من هذه الروايات وهي التي جاءت قد الرواية الأولى فى متون الأهرام بنحو ٥٥ سنة نرى أنه قد وضع فى فم « إزيس » و «نفتيس » ذلك الترحيب الذي كانت ترحب به الآلهة القذامي عند ماكانوا يشاهدون الفرعون صاعداً إلى السماء ، وصار الصاعد هو « أوزير » نفسه . ومن ذلك نرى أن « أوزير » نفسه . ومن ذلك نرى أن « أوزير » نفسه . ومن ذلك نرى أن « أوزير » قد انتحل لنفسه الرواية الشمسية القديمة الخاصة بالسلم ونسب لنفسه المتن الشمسي القديم .

و ما هو جدير بالملاحظة هنا أن هذا التغيير قد حدث بالرغم من وجود تعقيدات محيرة ، فقد مثلت تلك العقيدة الشمسية القديمة كلا من «ست» و «حور » مساعدين للملك عند صعوده فى السلم الذى نصبه «رع» و «حور» و ذلك وفقا لفكرة اشتراك «حور» و «ست» فى خدمة المتوفى، ولكن يظهر أن الكاتب لحذه النسخة لم يشعر بالنضارب الذى ينجم عن ذلك عند ما يتحول الملك المرفوع إلى السماء إلى ، أوزير » . وهو تضارب واضح إذ أن يتحول الملك المرفوع إلى السماء إلى ، أوزير » . وهو تضارب واضح إذ أن «ست » هو عدو «أوزير » الخلق وقاتله فصار يساعده على الوصول إلى مقره السماوي .

ولم يظهر تدخل «أوزير » فى أى مكان آخر من متون الأهرام بصورة تلفت النظر أكتر من ظهوره فى الصيغ الحناصة بالخدمات التى تقدمها للمتوفى الآلهة الشمسية الأربعة المعروفون بصقور الشرق الأربعة . وكانت الطريقة المحببة لصعود السماء ، وفتح أبواب السماء ، والعبور من شاطئ والى شاطئ ، وعملية

التطهير، وما شاكل ذلك، هي أن تعمل كل تلك الأمور أولا لمكل من الصقور الاربعة بالتوالى ومن ثم تعمل للملك بجاذبية محتمة. وقد كتبت أربع صيغ عظيمة بهذه الكيفية، يحتوى كل منها على بيان للإجراءات التي كانت تجرى لمكل من أولئك الصقور الأربعة المذكورين، ثم بيان لما يعمل مثلها للملك. ونجد في أقدم تلك الصيغ أن أولئك الآلهة الأربعة كانوا جميعا آلهة شمسيين وهم:

و بعد ذلك العهد بجيلين نجد الصقور الأربعة أنفسهم لم يتغيروا، ثم نجد بعد ذلك تطورا آخر حصل في تلك المجموعة بظهور متطفل جديد حل محل أولئك الصقور الأربعة، فنبدو بحموعة من الآلهة هكذا.

وبذلك نجد أن وأوزير وقد حشر نفسه فى تلك الطائفة الشمسية باحتلاله مكان وحور الأفق والذى هو أقرب الآلهة الأربعة نسبة إلى الشمس ويعد دخول وأوزير وهنا أكبر مثل مقنع لعظم قوته وكا يعد أظهر مثل لخطوات صبغ متون الأهرام بالصبغة الأوزيرية .

ويوازى ذلك المنل أيضا بحالة تلفت النظر تاريخ مولد الشمس ، فإنها يحتفل بوقو فها فى سيرها جنوبا وبداية عودتها شمالا ، وكان مولد الشمس هذا فى باكورة عهد المسيحية قد تحول إلى مولد الإمبراطور الرومانى الذى كان مؤحدا مع إله الشمس ، ولاشك أن اتخاذ المسيحيين لذلك العيد الشمسي القديم والاحتفاء به فى ٢٥ ديسمبر يقابل بالضبط حلول ، أوزير ، محل إله الشمس فى متون الأهرام منذ ثلاثه آلاف سنة قبل ذلك العهد المسيحى .

وبمثل ذلك صبغ بالصبغة الأوزيرية من زمن بعيد كل من السلم وقارب العبور والعوامات البردية ، وبالاختصار كل العناد الذي كان لازما للوصول إلى السماء ، مع أنه لم يكن لأوزير بالسماء أية صلة ، فلا عجب بعد ذلك إذا ندمجت

السهاء وسكانها في «أوزير » حتى صارت النجوم الثوابت (التي لا تفنى) تسمى «أتباع أوزير » . وكذلك صار من الممكن أن نجد الملك ينقل إلى السهاء بنفس الطريقة عند ما يولد مثل «أوزير » ممثلا في صورة نيل السهاء ويفيض على السهاوات كفيضان النيل على الأرض فيجعل كل السهاء يانعة خضراء : « إن الملك « « وناس » يأتى إلى بركته التي في إقليم الفيضان عند النيل العظيم ، إلى مكان السلام ذي الحقول الحضراء التي في الأفق ، و « وناس » يجعل الحضرة نضرة في إقليمي الأفق » .

وبالرغم من أن كل ذلك قد أدى إلى صبغ العقائد الجنازية الشمسية والسهاوية بصبغة وأوزيرية وأن الحياة الآخرة مع ذلك بقيت سماوية الذلك كان من الواضح أن إله الشمس عند ما كان يأخذ «أوزير » إلى جواره فإن معنى ذلك أن مكانة إله الشمس فى تلك العقائد الجنازية المركبة كانت لا تزال هى المكانة الأولى ، وحينئذ تبقى الحقيقة القائلة بأن العقائد السهاوية عن الحياة الآخرة هى السائدة فى متون الأهرام كلها ، أما عالم ، أوزير » السفلى الذى ظهر فيا بعد ، وكذلك سياحة إله الشمس فيه ، فإنهما كانا ولا يزالان يعدان فى مركز أنوى بصفة قاطعة فى تلك العقائد الجنازية الملكية . أما عامة الشعب فكان فى على الأموات ، ويعتبر ذلك مر . أهم البراهين الدامغة الدالة على قوة وأوزير » عند عامة الشعب . أما فى لاهوت الملك والمعابد الحكومية فكان ه أوزير » يرفع إلى السهاء ، ومع أنه كان مصبوغا هناك بالصبغة الشمسية فإن مذهبه كان هو الآخر يصبغ العقائد الشمسية الحاصة بمملكة الأموات السهاوية بعض الشى ، بصبغة العقائد الأوزيرية ؛ فكانت نتيجة ذلك أن حدث ارتباك بعض الشى ، عدوئه عند اختلاط تينك العقيدتين إحداهما بالآخرى .

فنحن نذكر أن الملك فى كلا المذهبين قد تأحد مع الإله ، وعلى ذلك نراه يسمى من غير تردد « رع ، و « أوزير ، فى الفقرة الواحدة من فقرات متون الأهرام. وتوجد في متون الأهرام فقرات كبيرة تدل على الارتباك والتعقيد الذي نتج من امتزاج تلك العناصر التي لا انسجام بينها ، إذا كان النوفيق غير بمكن في مثل تلك الفقرات بين ظهور كل من « رع » و « أوزير » بمظهر الملك الأعلى في الحياة الآخرة : على أن مثل تلك المعتقدات الدينية المتضاربة لم يكن يشعر المصرى القديم من جراء تضاربها بأى قلق أكثر بماكانت تشعر به أية حضارة قديمة أخرى باستبقاء طائفة من عقائدها الدينية جنبا لجنب مع عقائد أخرى تخالفها أو تتنافض معها كل الناقض. ولم تفلت العقائد المسيحية نفسها من تلك المتناقضات ، كما أمها لم تفلت من تغلغل نفوذ الآراء المصرية القديمة عن الحياة وبحار اللهيب قد قامت بدورها في تصوير جهنم الحامية في الديانة المسيحية في الديانة المسيحية في أمه من المحتمل أن بملكة إله الشمس السهاوية بما فيها من شجرة الحياة هي أصل فكر تنا نحن معاشر أهل الغرب عن الجنة التي في السهاوات وهي التي ظهرت في بعد في الصور المسيحية الفنية واضحة خلابة .

وعلى أية حال فأنه يوجد فرق ملموس بين ، أوزير ، و ، رع ، . فأوزير يعتبر ملك الأموات دون غيرهم ، ووظيفته سلبية حتى أنه يندر أن يقوم بعمل إيجابى حتى ولوكان لصالح عالم الأموات . ونعمة المصير الأوزيرى ينحصر معظمها في التمتع بالخدمات الطيبة التي كان يقدمها « حور » قائما بدور ابن المتوفى حينما يتحول الاخير إلى « أوزير » ، فالخدمات التي كان يقوم بها الآخرون (أى التي لا يقوم بها هو) هي التي يتمتع بها المتوفى (كما تمتع بها ه أوزير » من قبل) وبذلك بقي م أوزير » إلها للموتى .

أما « رع » فإنه كان صاحب قوة عظيمة فى شئون عالم الأحياء ، ومع أنه كثيرا ما يشفع للموتى فإن سلطانه الأعظم فى هذا العالم الدنيوى ، حيث يمند وينموحتى يسيطر على مملكة ذات قيم أدبية ؛ وهى بملكة سنحصل منها على أقدم لمحات سنحت لنا عن كل هذا العالم ، وذلك حينها نحاول الكشف عن عوامل هى فوق العوامل والمقاصد المادية التى رأينا أمها كانت فيها استعر ضناه من المراحل صاحبة السيادة والسلطان على التصور المصرى القديم عن الحياة الآخرة .

الفصر الهتاسع

السلوك. والمسئولية ، وظهور النظام الخلقي

كان غرضنا من ذكر ماجا. فى الفصول السالفة أن نضع أساسا نبنى فوقه المخيصا معقو لا لأبحاثنا عن تطور الحياة الخلقية عند قدماء المصريين ، تلك الحياة التي بدأت فى النطور من عهد الاتحاد الثانى ، أى فى الفترة التى وصلت فيها مدنية الدولة القديمة إلى أوج عظمتها بعد سنة ٠٠٠٠ ق . م . وقد لاحظنا فيها تقدم أنه منذ عهد الاتحاد الأول [أى قبل منتصف الألف الرابع ق . م .] كان موضوع الخلق الانسانى تحت محك البحث ، فكان يعبر عن هذا الخلق أو ذاك فى المجتمع بأنه محبوب أو مكروه (أى ممدوح أو منموم) . ولعلنا نذكر أن تلك الحقيقة قد كشفتها لنا وثيقة يرجع تاريخها إلى بداية الاتحاد الذاكى وهى المسرحية المنفية ، فقد رأينا فيها ترديدا لأصداء من العصر السابق لذلك وهو ماقبل نهاية الاتحاد الأول .

والواقع أن نتف المصادر الضئيلة المدونة التي وصلتنا من القرون الأربعة الأولى من عصر الاتحاد الأول لم تزد معلوما ننا إلا الشيء القليل عن المعتقدات المصرية القديمة. ولكننا نجد بعد عام ٣٠٠٠ ق. م. (أي عندما بدأ عصر الاهرام) أن المقابر الضخمة الواقعة في جباني الجيزة ومنف (سقارة)، وهي معروفة لكل من ساح في مصر في عصرنا هذا ، قدبدأت تبدو من نقوشها صور عن المجتمع المصرى المستحدث في عهد الدولة القديمة ، وضرنا نرى منها بعض لمحات عن معتقداتهم الخاصة بالخلق الانساني وبواعثه .

وأهم ما تكشفه لنا هذه اللمحات النطورات الظاهرية ، وذلك لأن الحياة المصرية القديمة كانت تشغلها فى ذاك الوقت تلك الانتصارات المادية التى لم يسبق لها مثيل . إذ لم يوجد شعب آخر فى بقاع العالم القديم نال من السيطرة على عالم المادة بجالة واضحة للعيان تنطق بها آثاره الباقية للآن مثل ماناله المصريون

الأقدمون فى وادى النيل. فقد بنى المصريون القدماء بنشاطهم الجم صرحا من المدنية المادية يظهر أن الزمن يعجز عن محوه محوا تاما. وأما الأخلاق فهى اتجاه جوهر الحياة المنوع، الذى لا يدرك باللمس واللون، من العادات والتقاليد والصفات الشخصية المشكلة بتأثير القوى الاجتماعية والاقتصادية والحكومية التى تعمل باستمرار فى مناهج الحياة اليومية.

وهذه الأشياء التي تكوّن اتجاه الفرد وتدفع بالنفس الباطنة إلى اتخاذ موقف وقتى حاسم تمكون جوآ أسمى للعالم القديم يصعب تحديده ، ولم يصل إلينا عنها سوى لمحات جزئية نراها في مبني القبر واتجاه باب الهرم. وقد وجدنا عنها بعض إشارات ضئيلة في منون الأهرام وفي نصائح ،بتاح حتب، المشهورة، وحتى هذه الإشارات تدوركما شاهدنا بوجه خاص حول ذكر حالة الرفاهية المادية والنعيم المقيم الذي ينعم به المتوفى في عالم الحياة الآخرة ، وعلى أية حال فإن ما تكشفه لنا المصادر الباقية يعد ذا فاتدة فريدة في بايها ، إذ تظهر لنا هذه المصادر الخطوة التالية في النطور الخلقي ، بعد المسرحية المنفية التي تؤلف مع تلك المصادر أقدم دور في تطور الإنسان الحلق كما هو معروف لنا، وهو الدُّور الذي كون أعظم الخطوات الأساسية في تطور الحضارة . يضاف الى ذلك أن تلك المصادر التي من عصر الأهرام لم تجمع (١) الكتاب لم تكن دهشتي لكثرتها نقط ، بلكانت دهشتي أكثر عدما أدركت أنها تصور لنا الحياة في الأسرة عند قدماء المصريين بصورة لاتذع مجالا للشك ف أنها هي العامل الأول في ظهور الأفكار الخلقية ونموها. فقد كان المصري في عصر الأهرام يشمر بوجود جو من الوازع الحلق يزعه حتى أن متون الأهرام قد أظهرت لنا الآن ذلك الوازع مطلا على ما قد مضى من تلك

Dev. lopment في كتاب المؤلف المعاولة لجمعها معافى عام ١٩١٢ في كتاب المؤلف Dev. lopment في كتاب المؤلف ١٩١٢ في هذا البحث of Religion & Thought in Ancient Egypt, P. 166. لم يكن تاريخ حكم «بتاح حتب» التي ترجع بالتحقيق إلى عهدالدولة القديمة ، قد عرف بعد .

العصور التى لم تكن تعرف معنى للخطيئة والشجار بين « أفراد تلك الجماعة الأولى » من طائفة الأبرياء الذين ولدوا قبل أن يوجد «الشجار» و«الصوت» و«السب » و«النزاع » أو «التشويه المروع(١) » الذى ارتكبه كل من «حور» و «ست » ضد الآخر . على أن الاعتقاد بوجود عصر للثال الأعلى أو على الأقل بوجود عصر للثال الأعلى أو على الأقل بوجود عصر للدالة والسلام يجب أن نربط بينه وبين ذلك العصر الذى يشار اليه فى متون الأهرام بأنه العصر الذى «قبل أن يظهر فيه الموت ».

وفى ذلك العصر المبكر الأقدم جماعة بشرية وصلت الينا أخبارها ، ساد الاعتقاد بأن حق كل فرد فى النحلى بالآخلاق الفاضلة يمكن أن يقوم على أساس النهج والسلوك اللذين يعامل بهما أفراد أسرته ، وهم والده ووالدته وإخوته وأخواته . وهذه الحقيقة تعتبر ذات قيمة بالغة ومنانة عظيمة فى ذلك البحث الجليل ، وقد أكدها لنا أحد أشراف رجال الوجه القبلي الذي كان يعيش فى القرن السابع والعشرين ق . م . إذ قال فى نقوش قبره بعد أن عدد لنا كثيرا من أعماله الطبية : « إلى لا أقرل كذبا لا فى كنت انسانا محبوبا من والده ، ممدوحا من والدته حسن السلوك ع أحيه ودودا الاخته » . كا نجد بعد فترة من تاريخ هذا النقش أن أحد المقربين من الملك من أهل الصعيد الاقصى يؤكد أيضا : « إن الملك مدحنى ، وترك والدى وصية لمسلمتى لانى كنت طيبا . . . وإنسانا محبوبا من والده ممدوحا من والدته ويحبه كل إخوته » . وكثيرا ما نرى الأشراف فى عهد الاهرام يجمعون صفاتهم الحسنة فى العبارة الآتية : «كنت انسانا محبوبا من والده وممدوحا من أمه محبوبا من اخوته وأخواته » .

وكان البر بالوالدين من أهم الفضائل البارزة فى عصر الأهرام، فإننا نجد مذكورا فى النقوش القديمة مرارا وتكرارا فى جبانات الأهرام أن المقابر الصخمة التى مها ،كانت من صنع الأبناءالبررة لآبائهم المتوفين ، وأن الابن كان يعد لوالده مدفنا فاخرا . بل إن أحد الأبناء من أهالى ذلك العصر قد فاق

⁽١) وذلك أن «ست » اقتلع عين «حور » من محجرها . وأما «حور » فقد سلت خصيتي «ست » .

كل من كان سواه من الأبناء فى بره بوالده ، فقد ذكر فى نقوش قبره ما يأتى:
« والآن قد عملت على أن أدفن فى نفس القبر مع « زاو » هذا (يعنى والده)
لكى أكون معه فى مكان واحد ، على أنى لم أفعل ذلك لأنى لست فى مكانة
تؤهلنى لبناء قبر ثان ، بل فعلته حتى أتمكن من رؤية « زاو » هذا كل يوم ،
ولكى أكون معه فى المكان عينه » .

ولدينا حالة أخرى أعظم من هذه في بر الإبن بأبيه أيضا ، وهي قصة «سِبْني ، (حارس الباب الجنوبي) أى المحافظ على الحدود المصرية ، ن جهة السودان عند شلال النيل الأول ، فقد حدث أن « مخو » والد « سبني » قد قام برحلة خطيرة في قلب السودان طلبا للاتجار ، وهناك انقض عليه بعض القوم من الهميج وذبحوه . فلما سمع ابنه « سبني » بذبح والده قام على الفور برحلة تحفها المخاطر في قلب ذلك الإقليم المعادي واستخلص منه جثمان والده بعد أن تعرضت حياته خلال ذلك المروت ، وأحضر جثمان والده ليحفظ في مصر . ولا يزال قبر « سبني » باقيا في أسوان حتى الآن ، ويحتوى ذلك القبر على النقوش الدالة على ما قام به الابن « سبني » نحو أبيه « مخو ، من ضروب الشجاعة النقوش الدالة على ما قام به الابن « سبني » نحو أبيه « مخو ، من ضروب الشجاعة عصر الأهرام العتيق .

على أن الأدلة المنقوشة على تلك الآثار التي تركتها لنا أقدم طائعة أرستقر اطية عرفت في الناريخ القديم يؤيد صحتها وجود تلك الرسوم الجميلة الزاهية الألوان التي كانت تلك الأسر الشريفة قد اعتادت أن تزيز بها جدران مزارات القبور وبخاصة تلك التي بقيت إلى يومنا هذا بجبانات منف المترامية الأطراف وتعرف تلك الجبانات الآن بجبانة «سقارة» . وإن تلك المناظر الفخمة التي نجدها أحيانا حافظة لألوانها الأصلية الزاهية للآن ليست في الواقع إلا بيانا خلايا عن الحياة اليومية لأشراف عصر الأهرام .

و تلك المناظر المذكورة تؤلف فى وقتنا هذ صورة جذابة يتمتع بمشاهدتها للآن غالب رواد وادى النيل ، والسائحون الذين يفدون زرافات ووحدانا فى كل شتاء إلى مصر لمشاهدة آثارها القديمة . غير أنى أشك كثيرا فى أن واحداً من أولئك السائحين الذين يمتطون ظهور الحمير فتسير بهم وسط خمائل النحبل التي تغطى الآن طرقات مدينة « منف » القديمة وبيوتها يفقه أن ما يراه ويشاهده الآن في أطلال جبانة مدينة « منف » يعد أقدم مظهر عرف لنا في التاريخ عن حياة الأسرة . وعند ما يجتاز ذلك الزائر الحديث خمائل النخيل المذكورة يقع بصره على منحدرات من كثبان الرمال المنتهية إلى قمة هضبة صحراوية تغطيها الرمال . تلك هي جبانة « منف » القديمة . ومن ثم يمكنه أن يطل على ما بق من آثار تلك المدينة الشاسعة الأطراف التي تغطيها الآن الحقول . الزاخرة بالزرع والنخيل الدانية القطوف .

فنى هدنه البقعة كان يسكن أهل أولنك الاجيال الاقدمون البائدون. في مدينة عظيمة أقاموها منذ آلاف مضت من السنين، وعند نهاية أجلهم كانوا يحملون إلى تلك الهضبة التي يصعد إليها الآن ذلك الزائر الحديث، حيث كانوا يدفنون فيها في مقابر فسيحة مبنية بالحجر الجيرى الضخم، وتلك المقابر القديمة التي يبلغ عمرها الآن حوالي خمسة آلاف من السنين ترى الآن صامتة خربة تغطيها الرمال القاحلة، غير أنه ما زال في مكنتنا أن ندخل مزارات تلك المقابر ونتجول في حجراتها.

وجدران تلك الحجرات مغطاة بكثير من النقوش والمناظر ذات الألوان الزاهية التي تمثل لنا صورا من الحياة القديمة . (١) فني تلك المناظر المحفورة نشاهد صاحب إحدى تلك الصياع التي كانت تحيط بمدينة منف ، منقوشا على الجدار بحجم عظيم وهو يقوم بالاشراف على رجال ضيعته الذين نقشوا معه في الصورة بحجم أصغر منه كثيرا ، فنراه يتفقدهم وهم يبذرون الحبوب أو يحصدون محاصيل الحقول أو يسوقون الماشية والقطعان غادين أو رائحين ، أو يخوضون

⁽١) إن معهد جامعة شيكاجو الشرقى يقوم الآن بنفقات بعثة للرسم أرسلها إلى هذه الجبانة العظيمة تحت اشراف الأستاذ « برنتيس دول » Prentice Duell للقيام بعمل أول نسخ كاملة من نقوش الدولة القديمة هذه . وهذه الرسوم تعمل بالرسم التخطيطي وبالألوان وتطبع في مجموعات من الألواح بالقطع الكبير . وقد ساعد على امكان تنفيذ هذا المشروع ما قدمه « جون ركفار » من المساعدة المادية السكريمة ،

ترع الرى أو يعملون فى أحواض بناء قواربهم أو حوانيت تجارتهم أو مصانع عمل النحاس أو مكان صنع الفخار ، وغير ذلك من مثات الصور التى تنبئنا عن كثير من نواحى نشاطهم وأعمالهم فى حياتهم الدنيوية .

بهذا قد صورت على تلك الجدران جميع مظاهر حياتهم الواسعة النطاق من زراعة وتربية ماشية وصناعة مما درجت على أساسه تلك المدنية القديمة وترعرعت . وترى فيها الشريف المصرى القديم يصحب معه زوجته فى كل تلك الجولات الفسيحة فى أرجاء ضبعته الشاسعة ، فكانت ترى تهادى بجانيه حينما كان يدخل من الباب العظيم المؤدى إلى حديقته الغناء التى أقيمت فى وسطها كرمته البهبجة . فكانت زوجته فى الواقع تشاطره كل حياته وكل أعماله كانت ترافقه فى الوقت نفسه فى كل لحظة ، وكانت أطفالها فى صحبتهما دائماً . ومن أمنع المناظر التى نشاهدها بين تلك الصور المنقوشة على جدران تلك القبور منظر يصور لنا طفلا صغيرا يحرى بجانب والده ويقبض بإحدى يديه القبور منظر يصور لنا طفلا صغيرا يحرى بجانب والده ويقبض بإحدى يديه على هدهد صغير . كما نشاهد رب البيت يصطاد فى المستنقعات المخصصة لذلك الغرض وبجانبه زوجته وطفله وكلهم فى قارب من القصب يسمح بهم بين أزهار البردى الطويلة . ويلاحظ فى هذه الصورة أن الطفل كان منحنيا نحو الماء ليقطف زهور السوسن المائية . أو نشاهد كذلك الشريف مرسوما جالسا ليقطف زهور السوسن المائية . أو نشاهد كذلك الشريف مرسوما جالسا يحديقته ، وأطفاله أمامه يلعبون الكرة أو يعبثون فى ماء بركة الحديقة و هم يصطادون السمك .

وهذه النقوش التي نشاهدها على مقابر «منف» تمثل حياة نحو ٥٠٠ سنة أى من ٢٥٠٠ق. م. إلى ٢٥٠٠ق م. أو بعد ذلك، وهي تؤلف أول مظهر معبر عن حياة الأسرة بتي لنا من العالم القديم. وكان الاعتبار الأول في اهتهامنا بتلك الرسوم حتى الآن أنها آثار فنية ، ومصادر نستقي منها معلوما تنا عن حياة المسريين الاقدمين في الزراعة والرعاية والصناعة ، ثم إلى حد ما عن الحياة الإجتماعية عندهم . على أن العلاقات الاسرية المرحة المنطوية على الود ، التي الاجتماعية عندهم . على أن العلاقات الاسرية المرحة المنطوية على الود ، التي تنطق بها تلك النقوش تعد كشفا جديدا ذا أهمية أساسية في تاريخ الاخلاق .

وذلك لأن هذه الصورة، مضافا إليها النقوش المدونة فوق جدران القبور، مع حكم و بتاح حتب ، التي سنرود مجاهلها بعد، تقدم لنا برهانا تاريخيا قاطعا على أن الإدراك الخلق نبتت جذوره من حياة الأسرة.

من ذلك يتضم أنه هنا ، في المصادر المصرية التي يرجع عهدها إلى النصف · الأول من الألف الثالث لما قبل الميلاد ، نجد بحموعة من الآدلة تظهر لنا تاريخيا لأول مرة ما وصل إليه علماء النفس الاجتماعيون المحدثون من ملاحظاتهم عن حياة الإنسان كما نجده في عصرنا الحاضر. وإني أشير بذلك إلى ما وصلوا إليه من ﴿ أَنَ الْوَارَعُ الْحُلْقِي فَي حَيَّاةُ الْإِنْسَانُ نَبْتُ مِنَ الْمُؤْثُرَاتِ الَّتِي تَعْمَلُ فَ العلاقات الأسرية . . وفي ذلك يقول مكدوجال(١) : « فمن هذه العاطفة (أي حنان الوالدين) ومن الدافع الذي يحدو بها إلى الحب والرعاية ، ينشأ الكرم والاعتراف بالجميل والحب والشفقة وحب الخير الحقيقي وكل أنواع الخلق المجردة عن الأنانية ، فني تلك العاطفة تنبت الجذور الرئيسية لكل تلك الصفات التي لولا هذه العاطفة ما وجدت قط » . ويشير « مكدوجال » وهو يناقش التطور الذي تمريه مثل تلك العواطف إلى الحقيقة القائلة: « إن كل غلطة ترتكب ضد الطفل الذي يعد موضع حنان والديه يكون من نتائجها المحتومة إثارة الغضب والحقد . . ثم يستمر فيقول : « وهذه الرابطة الوثيقة بين عاطفتي الحنان والغضب تعد من الأهمية بمكان في حياة الإنسان الاجتماعية ، ويعد فهمها على حقيقتها أمرا أساسيا لتكوين نظرية صحيحة عن العواطف الخلقية، وذلك لأن الغضب الذي يثار بنلك الكيفية هو جرثومة كل سخط خلتي. وعلى السخط الخلق بنيت بصفة عامة أركان العدالة ، والجزء الأكبر من القوانين العامة . ولذلك يتضح بالرغم مما قد يظهر من تضارب ، أن كلا من الرأفة والعقاب تضرب بوشائجها العريقة في الغريزة الأبوية .

وعلى ذلك نجد أن كلا من آثار مقابر عصر الأهرام و«حكم بتاح حتب» التي سنأتى على ذكرها، بالرغم من أنهما لايمثلان إلا مرحلة ثانوية في التطور

⁽¹⁾ W. Mac Dougall, An Introduction to Social Psychology, P. 74 (Rev. Ed., Boston, 1926.)

الخلق عند الانسان في العالم القديم ، يلقيان بالبديهة ضوءا مفيداً على المرحلة الأولى التى سبقت عصرهما من التقدم الإنسانى من تلك الوجوه ، وذلك حينما نلاحظ أن تلك المصادر تمثل لنا صورة حقة عن عواطف المحبة في حياة الأسرة من جهة علاقتها الوثيقة بالشعور الأخلاق ، وأن معلوماتنا عن الحياة البشرية البدائية نجدها اليوم لها أهمية عظيمة جداً من هذه الناحية بالذات . وقد لخص «وسترمارك ، بدقة ملاحظات علماء الجنس البشرى عند فحص ما بتى لنا من الحياة الفطرية في قوله : «توجد حقائق كثيرة جداً يمكن في الواقع اقتباسها . للدلالة على أن حنان الوالدين لم يكن نتيجة من نتائج المدنية الحديثة بل هو طاهرة طبعية للعقل البشرى المتوحش كما هو معروف لنا ، (1)

فنذ العصور المتوغلة فى القدم كانت مثل تلك المشاعر موجودة بلا أقل شك ، وذلك وقت أن كان نضوب المياه فى هضبة شمال إفريقيا يضطر الصيادين المنوحشين إلى النزول إلى وادى النيل ، وكانت تلك المشاعر تنمو فى ظلال فترة ذلك التطور التاريخى الذى انتهى بالاتحاد الأول للبلاد الذى لم يتجاوز عمره سنة . . . ؟ ق . م . وبعد ذلك التاريخ بخمسمائة سنة أى فى القرن الخامس والثلاثين ق . م . ظهرت أمامنا أقدم الحقائق المدونة — ونعنى بذلك المسرحية المنفية ، وبعد سنة . . . ٣ ق . م كشفت لنا جبانة « منف ، وحكمة « بتاح حتب » عن مرحلة أكثر تقدما من سابقتها فى حياة الإنسان الخلقية التى كان يتسع عام مرحلة أكثر تقدما من سابقتها فى حياة الإنسان الخلقية التى كان يتسع عام ماط اد .

وعلى ذلك فإننا نتناول فى مصادر الدولة القديمة أقدم طائفة من البيانات التى تكشف لنا تاريخيا أن آراء الانسان الخلقية هى من ثمرات معالجته للشئون الاجتماعية ، وتسكون جزءا من التطور الاجتماعي . وهذا الاستنتاج التاريخي يتفق تمام الاتفاق مع الملاحظات الاجتماعية الحديثة ، كما ذكرنا ذلك فيما تقدم بالنسبة للأسرة . وقد أصاب « جرين »(٢) حيث قال : « إنه لا يمكن

E. Westeronark, Origin & Development of Moral Ideas, vol. 1, (1) P. 531. London.

T. H. Green, Prolegomena to Ethics, P. 387, 5th. Ed., Oxford (). University Press, 1912.

لإنسان ما أن يكون لنفسه ضميراً ، وإنه يحتاج دائما إلى الجماعة لشكو"نه له ، -

فنحن اذن نرقب فى هذا العصر العتيق النواحى الراقية لمهاج فى التطور لا يمكن أن نلاحظ مثله فى أى عهد آخر قديم من تاريخ حياة الانسان بأية جهة أخرى ، ونتأمل ظهور شعور بالمسئولية الخلقية فى الوقت الذى كانت فيه تلك المسئولية قد بدأت تأخذ تدريجا شكل قوة وازعة متزايدة تسيطر على سلوك الانسان، وهو تطور يسير متجها نحو توطيد مكانة «الضمير» حتى يصير قوة اجتماعية ذات نفوذ فى حياة البشر أجمعين.

يدل على ذلك أنه فى الوقت الذى كان فيه مدى السلوك الحسن محصورا على الأرجح فى أول الأمر فى دائرة الاسرة ، فإن نطاقه قد أخذ يتسع حتى صار يشمل الجيرة أو الطائفة قبل عصر الاهرام بزمن طويل ، فمن ذلك أننا نجد أن أحد الموتى يقص علينا فئ نقوش قاعدة تمثال جنازى له منصوب فى قبره ، وقد صوره المثال بصورة ناطقة له كأنها هو : « لقد طلبت إلى المثال أن ينحت لى هذه التماثيل ، وقد كان مرتاحا للأجرالذى دفعته إليه » . كما يقول مدير ضيعة يدعى «منى ، فى نقوش مأخوذة من مقبرته التى من عهد الاسرة الرابعة (٢٩٠٠ - ٢٧٥ ق م م) وموجودة الآن فى متحف « جلبتو تيك » بمدينة مو نيخ ما يأتى : « أما فيما يخص كل رجل عمل هذا لى (أى ساهم فى إقامة هذا القبر) فإنه لم يكن قط غير مرتاح ، سواء أكان صانعا أم حجارا ، وأن قد أرضيته » . فمن الواضح جدا أن كلا من ذينك الرجلين أراد أن يعلن أنه حصل على معداته الجنازية من طريق شريف وأن كل من عمل فى يعلن أنه حصل على معداته الجنازية من طريق شريف وأن كل من عمل فى اعدادها قد تسلم أجره كاملاغير منقوص .

وكذلك ترك لنا أحد حكام المقاطعات عن عاشوا فى القرن السابع والعشرين ق . م . البيان التالى عن حياته الصالحة حيث يقول : « لقد أعطيت خبرا لكل الجائعين فى « حبل الثعبان » (ضيعته) وكسوت كل من كان عريانا فيها ، وملأت الشواطئ بالماشية الكبيرة وأراضيها المنخفضة بالماشية الصغيرة ، فيها ، وملأت الله وطيور السهاء بلحوم الحيوان الصغير . . . ولم أظلم وأشبعت كل ذئاب الجبل وطيور السهاء بلحوم الحيوان الصغير . . . ولم أظلم معجد المصمير

أحدا قط فى ممتلكاته حتى يدعوه ذلك إلى أن يشكونى لإله مدينتى ، ولكنى قلت وتحدثت بما هو خير . ولم يوجد إنسان كان يخاف غيره بمن هم أقوى منه حتى جعله ذلك يشكو للإله . ولقد كنت محسنا لأهل ضيعتى بما فى حظائر ماشيتى وفى مساكن صيادى الطيور، وإنى لم أنطق كذبا لأنى كنت امراً محبوبا من والده بمدوحا من والدته رفيع الأخلاق مع أخيه ، وودوداً [لأخته] »

ونجد مرارآ و تكراراً أن أولئك الناس القدماء الذين هضى على انقضاء رمنهم نحو . . . ٤ أو . . . ٥ سنة يؤكدون لنا براءتهم من عمل السوء؛ فيقص علينا رئيس أطباء الملك « سحورع » في منتصف القرن الثامن والعشرين ق. م . ما يأتى : « إنى لم آت أى سوء قط صد أى إنسان » .

وبعد ذلك العهد بقليل نجد كاهنا يقول نفس ذلك السكلام أيضاً : . إنى لم أرتكب أى عنف ضد أى إنسان ، . وبعد ذلك العهد بقرن أيضا نجد كذلك مدنيا رقيق الحال قد أقام نصباً على واجهة قبره ليقرأه الأحياء منقوشاً عليه الخطاب التالى : . أنتم أيها الأحياء الذين على وجه الأرض المارون بهذا القبر ، حودوا بقربان جنازى بما عندكم فيؤتى به إلى لأنى كنت إنسانا مجبوبا من الناس ، فلم أجلد قط فى حفره أى موظف منذ والادتى ، ولم أستول على متاع أى شخص قسرا ، وكنت أفعل ما يرضى جميع الناس ». ونرى مثل ذلك فى نقش قبر آخر الإنسان كان على ما يظهر موضع اهتمام جيرانه إذ يقول : « لقد فعلت ما كان يحبه الناس ويرضى الآلهة حتى يجعلوا بيت أبديتى (أى قبره) يبقى واسمى موضع الحمد على ألسنة الناس ».

ويتضح من مثل تلك الخطابات التي كانت توجه إلى الاحياء أن أهم غرض كان يرجوه المتوفى من الإدلاء بتلك النأكيدات الدالة على حسن سيرته فى المجتمع هو استدرار عطف الاحياء من جيرانه عليه حتى يقدموا له القرابين الجنازية من الطعام والشراب عند قبره .

وقد كان المتوفى فى اعتقاد القوم عرضة لأن يُطلب للمحاسبة فيما بعد الموت عن أى خطأ يكون قد ارتكبه أو ظلم اقترفه أثناء حياته الدنيوية ،

فيقف هناك أمام إله الشمس الذي كان يجلس بصفته القاضي الأعلى لمحكمة العدل أسوة بمحاكم عالم الدنيا، ولذلك وضع « منى » مدير الضيعة، الذي سبق أن لاحظنا عنه فيها تقدم اهتمامه بدفع أجور العمال بمن قامو ابيناء قبره، التحذير الآتى على واجهة باب قبره: « إن التماسيح ستكون ضده في الماء! والثعابين ضده على اليابس، جزاء لكل من يقترف أي سوء ضده (أي ضد قبره) فإن الإله العظيم هو الذي سيحاكمه من أجل ذلك ، وعلى ذلك يتضح أن القيم الإخلاقية كان لها تقديرها في نظر الآلهة مما يجوز أن يؤثر ماديا على سعادة المتوفى في الحياة الآخرة .

وكلا الباعثين قد وجدا مجتمعين في خطاب واحد موجه الأحياء على باب مقبرة « حَرِخوف » الألفنتيني الموطن، الذي توغل في السودان في القرن. السادس والعشرين ق . م . ، والذي يعتبر أكبر الرواد القدامي الذين جابوا مجاهل افريقيا ، وقد نحت قبره في الصخور الغربية المطلة على بلدة « أسوان » `` الحالية ، حيث يمكن لأى سائح قوى السانين أن يتسلقها لزيارة ذلك القبر . ومن بين مانقشه على واجهة ذلك القبر قصة حياتها لمليئة بالخاطرات ، ومنها قوله : «كنت . . . محبو با من والده ممدوحا من والدته يحبه كل اخوته ، ولقد أعطيت خبزا للفقير وملابس للعريان وعديت من لا قارب له . وأنتم أيها الأحياء الذين على وجه الأرض والمارون بهذا القبر، سواء أكنتم نازلبن مع النهر أم صاعدين فيه ، قولوا : ألف رغيف وألف إناء جعة (تقدم) لصاحب هـذه. المقبرة ؛ وإني في مقابل ذلك سأشفع لـكم في العالم السفلي لأني إنسان مجهز « بالسحر » ، وكاهن مرتل فه على علم . وأما من يدخل هذا القبر مدعيا ملكيته الجنازية فإنى سأقبض عليه كما يقبض على طائر برى ، وسيحاكم على ذلك أمام الإله العظيم، وإنى كنت إنسانا يقول الحسن ويردد المحبوب، ولم أنطق قط بأى شيء قبيح لرجل صاحب سلطان ضد أي إنسان ، وقد كانت غايتي أن تكون حالتي حسنة أمام الإله العظيم ، على أنى لم أفصل بين أخوين بمــا يحرم ابنا متاع والده ۽ .

ويلاحظ فى ذلك الخطاب أن التهديد بالمحاكمة لم يستعمل فقط لمنع الإنسان الحارج على القانون من الاستيلاء على قبر المتوفى ، بل ان له ، فضلا عن ذلك ، مغزى آخر هو فكرة المحاكمة التى تعبر عن المسئولية الحلقية فيها بعد الموت ، وأنها بالتأكيد هي الباعث الذي حدا بذلك الرائد العظيم أن يعيش عيشة فاضلة . أى أن غرض المتو فى أن يتوقف مصيره على حياته اليومية فى عالم الدنيا ؛ مثال ذلك قوله : « لقد رغبت فى أن يحسن حالى فى حضرة الإله العظيم » . ومن ذلك نعرف أنه كان ينتظر طوال حياته احتمال وقوفه أمام الحضرة الرهيبة فيما بعد الموت ليحاسب على كل سيئة يكون قد ار تكبها فى أثناء حياته الدنيوية .

ولا شك أن تدوين مثل تلك الأقوال فى جبانات عصر الأهرام (أى منذ خمسة آلاف سنة) لم يكن أمرا قليل الأهمية والجدوى؛ لأنه أقدم برهان على الشعور بالمسئولية الخلقية عند قدماء المصريين فى عالم الحياة الآخرة ، إذ نجد فى بلاد أخرى بعد مرور مايربو على ألنى سنة من ذلك التاريخ إن الخير والشركانا يحالان معا الى عالم واحد من عالم الأموات من غير أن يكون بينهما أى تميير . فكأن ماذكرناه عن ذلك فيما تقدم كان مشهدا خلقيا فريدا لا نظير له ننظر من خلاله ذلك التسامى رغم ما يحيط به من حالك الظلام الكثيف ، فكان مثله مثل شعاع الشمس ينفذ فى حوالك الظلمات .

على أن الوازع الحلق لم يبق منحصرا نفوذه فى العوامل الشخصية ، مقتصرا على علاقة الإنسان بأسرته وجيرانه أو المجتمع الذى يعيش فيه فحسب ، بل كان قد بدأ تأثيره يظهر فى ذلك الزمان فى الأوساط العليا من المجتمع البشرى ، حتى صار تأثيره يظهر فى واجبات الحكومة نحو عامة جميع الشعب ولوأدى تنفيذ تلك الواجبات الى عدم رعاية حقوق الأسرة أصلا . فقد وجدنا فى عصر مبكر مثل عصر الأهرام أن الوزير العادل « خيتى » قد صار مضرب الأمثال بسبب الحكم الذى أصدره ضد أقاربه عندما كان يرأس جلسة للتقاضى كانوا فيها أحد الطرفين المتخاصمين ، إذ أصدر حكمه ضد قريبه دون أن يفحص وقائع الحال ، وكان ذلك منه تورعا عن أن يهتم بمحاباة أسرته أو عالاتها ضد

حصومها . وقد جاء فى أحد النقوش القديمة التى تعرضت لإعادة ذكر الحادث: وحينها أراد واحد منهم أن يستأنف الحكم . . . فإنه (أى الوزير) صمم على رأيه الأول ، . وبعد مضى ألف وخمسمائة سنة على ذلك الحادث كان اسم «خيتى» المذكور يقتبس فى الحياة الحكومية مثلا للاجحاف بالغير يجب ألا يحتذى حذوه . وقد أخبر الفرعون وزراء القرن الخامس عشر ق . م . : « ان الحكم المشهور الذى أصدره « خيتى « السالف الذكر كان أكثر من العدالة ، لما فيه من الشطط فى التحرز عن محاباة الأقارب) .

وتحتوى متون الأهرام أيضا على أدلة قاطعة لا تقبل الشك على أن طلبات « العدالة » و « الحق ، كانت قوتهما أقوى من سلطان الملك نفسه . فلم يكن الملك معنى من القيام بما تحتاجه قبور الأشراف، التي تنطق نقوشها بأنهم كانوا مهتمين بإقامتها كل اهتمام، وكان الإله الذي يعمل الملك على إرضائه هو ورع، وهو نفس الإله الذي كانت تعمل الرعية على إرضائه . وإليك ما جاء في أحد النقو ش : « لا توجد سيئة اقترفها الملك « بيي » . وهذه الـكلمة ذات وزن في الله ك يا ورع» » . ونجد في صيغة شمسية الطراز أن نوتي «ع ، يخاطب هكذا: ه أنت يامن تعبَّر بالبرىء الذي لا سفينة له ، يانوتى حقل القصب ، إن الملك « مريرع » (بيبي الأول) عادل أمام السياء والأرض » . ومن ذلك أيضا : « إن هذا الملك « بيي » برىء ، إن هذا الملك « بيي ، ممدوح » . وكذلك كان «نجم الصباح» (وهو إله شمس) يقدر المركز الخلق لفرعون المتوف، فترى في النَّقش مَا يأتي : «أنت يا «نجم الصباح » إجعل « بيبي » هـذا يجلس لأنه برىء ، واجعله يرتفع لأنه مبجل » . وكان لابد بالطبع من تحديد قيمة المتوفى الحلقية بصفة قانونية وإجراء قانوني طبقا لما وهبه المصرى القديم من الإدراك القانوني الحاد . فقد رأينا أن الأشراف يشيرون إلى المحاكمة في نقوش قبورهم ، وأن الملك نفسه عرضة لهذه المحاكمة ، بل ان الآلهة لايفلتون منها، إذ قد ذكر أن كل إله يساعد الفرعون في رفعه إلى السماء يبرأ أمام ه جب، (إله الأرض).

على أن الفرعون الذى أعلنت براءته ورفع إلى السماء بنلك الكيفية كان يستمر فى إظهار نفس الصفات الحسنة فى القيام بأعمال ملكه السماوى الذى يسند إليه: « إنه يقضى بالعدل أمام « رع » فى يوم العيد (المسمى) رأس السنة ، فالسماء فى سرور ، و الأرض فى حبور حينما سمعا أن الملك « نفر كارع » السنة ، فالسماء فى سرور ، و الأرض فى حبور حينما سمعا أن الملك « نفر كارع » فى قاعة العدل [مكان الباطل] ، و الذين يجلسون مع الملك « نفر كارع » فى قاعة العدل مرتاحون للقول الحق الذى خرج من فه » . و ما يلفت النظر أن الملك كان يقضى بتلك العدالة فى حضرة « رع » إله الشمس . و كذلك نجد تصريحا شمسيا يؤكد بأن الملك « و ناس ، قد « أقام العدل فيها وكذلك نجد تصريحا شمسيا يؤكد بأن الملك « و ناس ، قد « أقام العدل فيها (أى فى الجزيرة التى استقر فيها) مكان الباطل » .

ونجد فى القرن الثامن والعشرين ق .م. أن أحد ألقاب الملك «وسركاف» الرسمية لقب «مقيم العدالة» (ماعت) ، وعلى ذلك نرى أن اعتبار الملك الراحل إلى السماء حاكما بها (أى بالعدالة «ماعت») فى الحياة الآخرة إن هو إلا استقرار للنظام الخلق الذى كان يرعاه فوق الأرض ، ولذلك تقص عليتة متون الأهرام: «أن الملك «وناس » يخرج للعدالة (يعنى ماعت) ليأخذها معه (أى ماعت) » .

وكذلك تقص علينا متون الأهرام: ﴿ إِنَّ المَلْكُ ﴿ وَنَاسَ ﴾ يخرج في يومه هذا ليسكن من إحضار العدالة (ماعت) معه » .

ولمناسبة التأمل فى لقب الملك ، وسركاف ، الملكى السالف الذكر يتجه نظرنا إلى ذكرى أخرى ممتعة ، وهى أنه فى خلال حكم تلك الاسرة ختم أحد وزرائها العظام بحموعة من حكمه الطريفة بالسكلمات الآتية : « لقد بلغت من العمر العاشرة بعد المائة منحنى الملك فى خلالها هبات تفوق هبات الاجداد لانى أقمت العدل للملك حتى القبر » . فهذا الوزير الأول الذى فاه بذلك البيان هو « بتاح حتب ، الذى اعتزل منصب الوزير الأول للملك ، إسيسى » أحد ملوك الاسرة الخامسة فى القرن السابع والعشرين ق . م وليس من شك فى أن مبتاح حتب ، هذا بلغ سن الرجولة الناضجة فى عهد الفرعون ، وسركاف ، ،

وبذلك يمكننا أن نرى بعض الصلة بين قول ذلك الوزير الحكيم : ﴿ إِنَّى أَقْمَتُ العدل ، وبين لقب ﴿ وسركاف ، الرسمي وهو « مقيم العدالة ، .

وإن حِكم « بتاح حتب » تمدنا بأقدم نصوص موجودة في أدب العالم كله للتعبير عن السلوك المستقيم . وفي حين أنه لم يصلنا من العهود السابقة لها سوى نتف مبعثرة للتعبير عن السلوك الخلقي وعن التقدم المدهش في مجاري الإدراك الخلقي الذي وصل إليه الإنسان في عهد الاتحاد الثاني ، فإننا نجد أن حكم « بتاح حتب «الغزيرة المادة تلخص لنا مقدارا كبيرا من أدب ذلك العصر. وحينها شعر ذلك الوزير المسن بضعفه الناشي من تقدمه في السن ، كما ذكره هو في مقدمة حكمه ، طلب إلى الملك أن يسمح له بتعليم ابنه (أى ابن الوزير) ليعده للقيام بأعباء الواجبات الحكومية حتى يكون مساعدا لوالده وخلفا له ، وقد وافقه الملك على ذلك ، وحينئذ قام الوزير الكبير بالنصح لابنه بألا يسيء استعمال الحكمة التي سيلقنه أياها بل ينتهج سبيل التواضع، فيقول: ولا تكونن متكبرا بسبب معرفتك ، فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها وليس هناك عالم بلغ في فنه حد الكمال، وإن الكلام الحسن أكثر اختفا. من الحجر الأخضر الكريم، ومع ذلك فإنه يوجد مع الإماء اللائي يعملن في إدارة حجر الطاحون ». ثم يعقب ذلك ثلاث وأربعون فقرة تحتوى على نصائح مختلفة المواضيع ، لم يبذل أي جهد لنرتيبها أو تنظيمها ، بلكتبت كل فقرة منها عفو الخاطر بحسب ماكان يخطر في ذهن رجل مسن حنَّكته تجاريب الحياة ومسئولياتها التي أراد أن يطرحها عن كاهله إلى كاهل غيره .

ويؤكد فى حكمه التأكيد القوى وجوب مراعاة حسن الذوق واستعمال الذهن، الذى أطلق عليه كالمعتادكلة « القلب » . وأحسن الصفات القيمة التي يجب على الشاب أن يتحلى بها أن يكون قادرا على الإصغاء أو الطاعة [يقابلها حرفيا: يستمع] فنجده يقول: « إن المستمع هو الذى يحبه الإله ، أما الذى لا يستمع فإنه هو الذى يبغضه الإله . والعقل (القلب حسب النص الآصلي) هو الذى يجعل صاحبه مستمعا أو غير مستمع . ان ثروة المرء العظيمة هي عقله .. فما أفضل الابن عند ما يصغى لابيه ، والابن إذا وعي لما يلقيه عليه والده فإنه

لن يخيب فى مشروع من مشروعاته . وعليك أن تملّم من يستمع إليك كأنه ابنك ، ومن سيكون ناجحا فى نظر الأمراء ، ومن يوجه فهمه حسبها يقال له ... ما أكثر المصائب التى تنزل بمن لا يستمع . والرجل العاقل يبكر فى الصباح ليصلح من شأن نفسه ، أما الجاهل فإنه يصبح فى حالة ارتباك ، كما أن الأحمق الذى لا يستمع ، فإنه لم يسى "إليه أحد ، بل هو يعتبر الحكمة جهلا ، وما يفيد كما لا نفع يرجى منه . والابن المطيع (الذى يستمع) ... يصل إلى الشيخوخة وينال الاحترام . وهو يسكلم بدوره لأولاده معيدا لهم نصائح والده ... فهو إذن يتحدث لأولاده وهم بعد ذلك يتحدثون لأولاده » .

من ذلك يتضح أنه منذ القرن السابع والعشرين ق . م كان السلوك قد أصبح أمرا تقليديا وحكمة ذات معيار يرثها الابن عن أبيه .

وكان للنجاح الدنيوى المكانة السامية إذ ذاك، وكانت السبل للتحقق من الوصول اليه عظيمة الأهمية، ولذلك شغلت هذه الأمور نحو ثلث نصائح ذلك الوزير المسن (أى ١٤ فقرة من ٤٣ فقرة). وبعض هذه النصائح يوصى بالتخلق بالحذر في حضرة العظهاء، حتى أن بعض فقر اتها تعر فنا آداب المائدة في حضرة الرئيس، فتقول: «خذ ما يقدم لك حينها يوضع أمامك دون أن تنظر إلى ما هو أمامه، ولا تصوبن لحظات كثيرة إلى الرئيس أى لا تحملق فيه وانظر بمحياك إلى أسفل إلى أن يحييك، وتكلم فقط بعد أن يرحب بك، واضحك حينها يضحك، فإن ذلك يدخل السرور على قلبه، وما تفعله يكون مقبو لا لأن الإنسان لا يعلم ما في القلب، ومن المهم جدا ألا يكون الإنسان كثير الكلام في أى موقف، وأن يتجنب على وجه خاص السلوك العدائى والتعجرف على الناس.

وقد خصص جزء أكبر بكثير مما تقدم الى الحسكمة الصائبة فى تسيير أعمال الإنسان الرسمية . فمن ذلك قوله : « إذا كان رئيسك فيها مضى من أصل وضيع فعليك أن تتجاهل وضاعته السابقة واحترمه طبقا لما وصل إليه ، لأن الثمرة لا تأتى عفوا . ولا تعيدن قط كلمات حمقاً وخرجت من غيرك فى ساعة

غضب . والزم الصمت فإنه أحسن من أزهار « تفتف » . و تكلم فقط إذا كنت تعلم بأنك ستحل المعضلات ، وإن الذي يتكلم في المجالس لفنان (يعنى في : الكلام) وصناعة الكلام أصعب من أي حرفة أخرى . وعليك أن تقدم للأمير النصيحة التي تساعده لأن قو تك يتوقف على من اجه ، وبطن الرجل المحبوب تملأ وظهره يكسى تبعا لذلك . كن عميق القلب نزر الكلام وكن ثابت الجنان طو الكلامك ، فعسى أن يقول الأمير الذي يسمع كلامك : ما أصوب الكلام الذي يخرج من فه ! » .

والدافع البديهي لمثل تلك النصيحة هو اتباع سياسة دنيوية مبنية علىاليقظة والتفطن . ومن المدهش أنها لم تلوث بشيء يذكر من العقيدة الميكيافلية (١) في مثل ذاك العهد العريق في القدم . ومن الواضح أن ذلك السياسي الممن كان ذا نظرة خارقة في انتهاز الفرصة الهامة لمصلحته ، مع أنه في الوقت نفسه لم يحرم حاسة الإدراك لما هو أثمن من ذلك . وعلمه بتقلبات ظروف الحياة الإنسانية قد علمه التواضع ، ولذلكقال ينصح ابنه : ﴿ إِذَا أُصْبَحَتْ عَظِيمًا بعد أن كنت صغير القدر وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجا فلا تنسين كيف كانت حالك في الزمن الماضي ، ولا تفخر بثروتك ، التي أتت إليك منحة من الإله (أى الملك)، فإنك لست بأفضل من غيرك من أقرانك الذين حلبهم ذلك ، . وفضلا عن ذلك فإن حياة الموظف المدنى محفو فة بالمخاطر ، ولذلك يقول: « إحذر الأيام التي يمكن أن يأتي بها المستقبل ». وإذن من الحكمة أن تكون سخيا مع غيرك بحسن نية عملا للستقبل ؛ وفي ذلك يقول: وأشبع أصدقاءك بماجد لك بسبب نيلك الحظوة عند الإله (أى الملك) إذ لا أحد يعرف مصيره إذا فكر في الغد ، وإذا اعتور حظوته لدى الملك شيء فإن الأصدقاء هم الذين لا يفتئون يقولون : مرحبا . . . فعليك أن تستبق ودهم لوقت السخط الذي يهدد الإنسان، ولكن سترى فيما بعد: أنه حينها تسوء حالك فإن فضيلتك ستكون فوق أصدقائك » ·

⁽١) وهي القائلة : فرق تسد ، والغاية تبرر الواسطة .

ويجب على المرء أن يتحرى أخلاق أصدقائه: « فإذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته فلاتسألنه عن شيء ولكن اقترب منه و تعامل معه ، على انفراد معه ، وامتحن قلبه بالمحادثة ، فإذا أفشى شيئا قد رآه أو أتى أمرا يجعلك تخجل له ، فعندئذ إحذر حتى من أن تجاوبه » .

على أن مسئوليات الاسرة كانت فى نظره أهم من الاصدقاء؛ فتراه يقول: « إذا كنت رجلا ناجحا ، وطد حياتك المنزلية ، وأحب زوجتك فى البيت كما يجب » .

وبعد أن ذهب هذا الكتاب إلى المطبعة أحضر إلى أحد فلاحي والاقصر، الذين يستخرجو ن السماد من وسط الخراثب الآثرية بشظية من الحجر الجيري الأبيض عثر عليها في تلك الخرائب. فوجدت عليها كتابات يرجع عهدها إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة كنبت بالحبر ، وهي بضعة أسطر آقتبسها كاتبها من نصائح « بتاح حتب ، التي كان قد انقضي على وضعها إذ ذاك نحو ١٥٠٠ سنة . وكان المداد الذي كتبت به لا يزال أسود يقرأ بوضوح. وتلك الاسطر هي صورة معدلة من نصائح ذلك الوزير المسن عن الزوجة . فخيل لي أن ذلك-الحكيم القديم قد دخل فجأة إلى حجرتى في الاقصر ليزودني بشيء أكثر مماعلت عن أفكاره ، لأن إحدى الفقرات المعدلة كانت جذاية في محتوياتها إذ جاء فيها: ﴿ إِذَا كُنْتُ رَجَلًا نَاجِحًا فَأُسُسُ لِنَفْسُكُ بِينَا وَاتَّخَذَ لِنَفْسُكُ زُوجَة تُـكُونَ سيدة قلبك ، . ولكننا نجد في المتن القديم الذي كان أقل من ذلك شاعرية : « وأحب زوجتك كما يجب » . وقد عرف « الحب الذي يجب أن يكون ، بأنه حب يحمل في ثناياه الحب العملي الذي يجب على الزوج لزوجته إذ يقول: واشبع جوفها واستر ظهرها . . ومع أنه لا يوجد حد لمتع الحياة الـكمالية تقف عنده مطالب المرأه فإن ما تعزه المرأة الحديثة وتشاركها فيه أختها القـديمة فوق ضفاف النيل من العطور ينحصر في الروائح والدهان الغالية ، وهي التي لم ينس ذلك الحكيم السياسي المسن أن يضمها إلَّى قائمة حاجات زوج ابنه إذ يقول: « إن علاج أعضائها هو الدهان » . وبذلك يرى ذلك الوزير المسن العاقل أن الزوج الكيس هو الذي يجعل زوجته سعيدة أو لا بالمحبة التي يلزمه أن يفسح لها فى قلبه الاعتبار الأول، ثم يأتى بعد ذلك بمستلزمات الجسم من غذاء وملابس، ثم بالكاليات كالعطور والدهان؛ فنراه يقول: « اجعل قلها فرحا ما دمت حيا، فهى حقل مثمر لسيدها»، وهذه الملاحظة الأخيرة قد سبقت ما جاء فى القرآن المنزل على الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) بعد مضى خمسة و ثلاثين قرنا(١).

اما عن الأبوة فقد كان فيها « لبتاح حتب » آراء حاسمة ، فني ذلك يقول : « إذا كنت رجلا ناجحا وأسست لك ببتا وأنجبت ولدا اكتسب رضا الإله (يقصد الملك) ، فإذا عمل صالحا ومال إلى طبعك وسمع نصائحك وكانت خططه ذات نتائج حسنة في ببتك ، ومعتنيا بمالك كما يعب ، فابحث له عن كل شيء حسن فهو ابنك الذي ولدته لك « كا » (نفسك) ولا ينفرن قلبك منه . ولكن إذا جنح إلى السوء وأعرض عن خططك (يعني أواهرك) ولم يعمل حسب نصائحك وصارت خططه لا خير فيها وتحدى كل ما تقوله . . . فعدئذ أقصه عنك لانه ليس ابنك ولم يولد لك . . . » .

ومع أن ذلك الوزير المسن كان يقدر تماما قيمة النجاح الدنيوى واحراز الثروة فإنه كان يرى من الواجب ألا تطغى على روابط الاسرة ، فتراه يقول: ولا تكونن شرها فى القسمة ، وانبذ الطمع حتى فى حقك ، ولا تطمعن فى مال أقاربك فإن الالتماس اللين يجدى أكثر من القوة . . . وإن القليل الذى يؤخذ بالخداع يولد العداوة (حتى) عند صاحب الطبع اللين (يعنى الحليم) » . ولما كان الطمع من أكبر الصفات الذميمة الداعية لتفكيك روابط الاسرة المتماسكة ، تراه يحذر من ذلك فيقول: وإذا أردت أن يكون خلقك محوداً وأن تحرر نفسك من كل قبيت فاحذر الشراهة فإنها مرض عضال لا يرجى شفاق و والصداقة معها مستحيلة ، لأنها تجعل الصديق العذب مرا ،

⁽١) وهو قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم فأنواحرثكم أنى شئنم » (سورة البقرة آية ٢٢٢) وقد أشار المؤلف فقط إلى هذه الآية ولم يذكرها فأور دناها هنا للفائدة .

و تقصى ذا الثقة من سيده ، وتجعل كلا الأبوين كالغرباء ، وكذلك تفعل فى أخوة الأمهات ، وتفصل الزوج من زوجه ، فهى حزمة من أنواع الشر ، وعيبة بها كل شىء مرذول ، والشر ه لا قبر له » .

وقد شفع « بتاح حتب » هذا البحث ، الذي ينطق بما للروابط الخاصة بالأسرة من القيمة العظيمة في بيت الإنسان ، بوجوب احترام أهل بيوت غيره ولو كانوا من غير ذوى قرباه ، فنجده يحذر الزائر تحذيرا شديدا من محاولته الاقتراب من النساء ، بل يحتم عليه أن يتباعد عنهن بقدر المستطاع ، فيقول في ذلك : « إذا أردت أن تحافظ على الصداقة في بيت تدخله سواء أكنت سيدا أم أخا أم صاحبا ، فاحذر القرب من النساء ، فإن المكان الذي يكن به ليس بالحسن ، ومن الحكمة إذن ألا تحشر نفسك معهن . ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك بسبب منعة برهة قصيرة تضيع كالحلم ولا يجني يذهب ألف رجل إلى الهلاك بسبب منعة برهة قصيرة تضيع كالحلم ولا يجني الإنسان من معرفتهن غير الموت » .

على أنه توجد من تلك النصيحة صورة أخرى مستحدثة تصف طريق معاملة النساء بطلاوة أكثر بما سلف، هذا نصها: «وعند ما يفتتن الإنسان بأعضائهن البراقة [النص الحرف: أعضاء من الزجاج] فإنها بعد ذلك تصير مثل حجر «هرست» أى شيئا تافها، والآمر لحظة وجيزة مثل الحلم والموت يأتى بعده فى النهاية، وإننا نعلم أن جريمة الزنا [الخيانة الزوجية] كانت عقوبتها الموت فى الآزمان التى تلت ذلك العصر الذى عاش فيه « بتاح حتب »، ولا يبعد أن ذلك العقاب كان متبعا فى عهد الدولة القديمة.

ولقد كان رأى ذلك الوزير المسن فى الحظيات يمثل عصره طبعا، فقد خصهن بفقرة قصيرة يحض فيها على معاملة الحظبة بالرفق، ويضاف إلى ذلك أيضا أن ذلك الوزير قد حض ابنه فى تلك المناسبة على ألا يحاول قط افساد الصدية.

وتسود جميع حكم ذلك الرزير السياسي المسن روح الشفقة الكريمة ، وهي تبتدى في نظره أولا ببيت الرجل وأسرته التيكانت تعدرابطتها على أعظم جانب من الاهمية والمكانة، ثم تمتد إلى من توجد بينه وبينهم أى معاملة أو علاقة رسمية، يبدو لنا ذلك بما يوصى به هذا الحكيم المسن ابنه بأن يتوخى في مسلمك المرح والابتهاج، إذ يقول له: «كن باش الوجه ما دمت حيا». ثم يستمر في كلامه متأثراً بروح تشعر بأنها هي أصل للمثل المشهور لدينا: « لافائدة من النحيب على لبن مهراق ».

وذلك المرح البالغ البادى من روح تلك الكليات يتفق مع إلحاح ذلك الوزير المسن في طلبه للراحة والترفيه .

ومن المحنمل أن بتاح حتب لا يشير فيها يأتى من كلامه إلى شيء أكثر من الحث على الاهتهام باقتناص الفرص للتمتع بألوان الطعام اللذيذة وتشنيف الاسماع بالموسيق ومزاولة الرقص والتلهى بلعب الداما، والتلذذ بمشاهدة الحديقة الغناء والرياضة بالصيد فى المستنقعات، أو الذهاب إلى ضيعته مستريضا محمو لا فى محفة فوق أكتاف خدمه وحوله الذين يتحببون إلى سيدهم فى أغانيهم وهم يرددونها على سعه: « ما أسعد الدين يحملون المحفة! خير لنا أن تكونى علوءة من أن تكونى خالية » .

على أن « بتاح حتب » يحض ابنه بقوله له : إتبع لبك (أى روحك) ما دمت حيا ، ولا تفعلن أكثر مما قيل لك ولا تنقص من الوقت الذى تتبع فيه قلبك ، ولا تشغلن نفسك يوميا بغير ما يتطلبه بيتك ، وعند ما يواتيك الثراء متع نفسك لأن الثراء لا تتم (فائدته) إذا كان صاحبه معذبا » .

ولا غرابة فى أن تكون الشفقة عند رجل بمثل هذه الروح من الأمور المألوفة ، ولهذا نرى ذلك الوزير المسن يقول لابنه : « إذا كنت حاكما فكن شفيقا حينها تسمع كلام المتظلم ، ولا تسى واليه قبل أن يغسل بطنه ويفرغ من قول ما قد جاء من أجله ... وأنها لفضيلة يزدان بها القلب أن يستمع مشفقا ».

وليس هناك من شك فى أن تكون هذه الشفقة ذات علاقة وطيدة بالمعاملة الحسنة المبنية على الحق – ولا غرابة إذن إذا وجدنا الحق والعدالة قد اتخذا لهما مكانة فى «حكم بتاح حتب» تسامت على كل مكانة فى «حكم بتاح حتب» تسامت على كل مكانة ، حيث يقول : « إذا

كنت حاكما تصدر الأوامر للشعب فابحث لنفسك عن كل سابقة حسنة حتى تستمر أوامرك ثابتة لا غبار عليها ، إن الحق جميل وقيمته خالدة ، ولم يتزحزح من مكانه منـذ خلق لأن العقاب يحل بمن يعبث بقوانينه ، وقد تذهب المصائب بالثروة ولكن الحق لا يذهب بل يمكث وينتى ، والرجل المستقيم يقول عنه: , إنه متاع والدى قد ورثته عنه » .

ومن ثم كان نصح ذلك الشاب بأنه عند ما يقوم بأية مهمة يجب أن: « يتعلق بأهداب الصدق (أو الحق) ولا يتخطاه حتى ولو كان التقريز الذى يقدمه لا يسر القلب » . ولذلك كان لزاما على ذلك الشاب أيضا أن يبلغ رئيسه الحقائق حتى ولو كانت مرة .

ولا شك فى أن هذه السبيل كانت تتطلب قوة خلق عظيمة ، وهذا ماكان يرجوه ذلك الحكيم لابنه إذ يقول له: « حصل الاخلاق . . . واعمل على نشر العدالة وبذلك تحيا ذريتك . .

وكذلك يذكر ابنه: وبأن الفضيلة التي يتحلى بها الابن لها قيمتها عند الأب، والحلق الحسن يبقي شيئا مذكورا ». ويقول له أيضا: « فإذا استمعت ووعيت ما ألقيته عليك فإن كل صنيع لك سيكون على غرار عمل الاجداد . أما انطباق هذه الاشياء على العدالة فالفضل فيه يرجع لهم (أي للاجداد) وذكر اها لن تمحى من أفواه الناس لأن نصائحهم جديرة بالتقدير ، وكل كلمة ستنقل ولن تمحى من هذه الارض أبدا ، وسيكون للكلام قيمته حسما تنطق به الامراء وعندما يصيب رئيسك شهرة جديرة بالتقدير فإما ستبقي حسنة أبد الدهر وستخلد كل مزاياها . وإن الرجل الحكيم تنعم روحه باستمرار بقاء فضله على الارض . والرجل العاقل يعرف بعمله ، وقلبه ميزان لسانه ، بقاء فضله على الارض . والرجل العاقل يعرف بعمله ، وقلبه ميزان لسانه ، وشفتاه تصيبان القول عندما يتكلم ، وعيناه تبصران عندما ينظر ، وأذناه تسمعان ما يفيد ابنه الذي يقيم العدل ويبرأ من الكذب » . وربما كان ذلك الوزير المسن قد عبر عن روحه الخلقية أحسن تعبير حيا حذر من الطمع فيما سلف . وأننا نجده الآن في صورة المنتصر الظافر إذ يقول من غير كبير فيما سلف . وأننا نجده الآن في صورة المنتصر الظافر إذ يقول من غير كبير فيما سلف . وأننا نجده الآن في صورة المنتصر الظافر إذ يقول من غير كبير

مناسبة بما تقدم: «إن الرجل الذي اتخذ العدالة معياراً له وصار وفقا لجادتها يكون ثابت المحكانة ، ولا نزاع في أننا نجد في هذا الكلام نغمة الحكمة العبرانية كما وصلت إلينا في كتاب « العهد القديم » وإن كانت حكمتنا هنا (يريد حكمة بتاح حتب) أقدم من حكمة العبرانيين بألني سنة .

وقد ختم ذلك الوزير المسن نصائحه لابنه بعبارة تحبب إلى نفسه العدالة إذ يقول له فى منتهاها: « تأمل! إن الولد النجيب الذى يهبه الإله يقوم بأداء أكثر مما يؤمر . فهو يقيم الحق وقلبه يسير على صراطه . وبقدر ما قصل إلى ما وصلت أنا إليه سيكون جسمك سليما ويكون الملك مرتاحا إليك فى كل ما يجرى ، وكذلك قصل إلى السن التي وصلت إليها . وأن السنين التي عشتها على الأرض ليست بالقليلة ، فقد بلغت العاشرة بعد المائة ، والملك قد حبانى بمكافأة تفوق كل مكافآت الأجداد لأنى أقت العدل للملك حتى المهات » . وقد لاحظما فيها تقدم ذكره أن أحد ألقاب الملك « وسركاف » كان لقب « مقيم العدالة » ، وهذا يدل على أن حكم « بتاح حتب » المذكورة كانت ذات مكانة راجحة لدى الجهات العليا حتى في أيام شبابه ،

ويتناول أكثر من نصف حكم «بتاح حتب » أخلاق الإنسان وسلوكه و وما بق منها يختص بشئون الادارة وسلوك الإنسان الرسمى . ويلاحظ بوجه عام أن تلك الحكمة واللباقة . وكل ذلك فى الواقع ينم عماكان عليه ذلك الوزير من منتهى حسن الحكمة واللباقة . وكل ذلك فى الواقع ينم عماكان عليه ذلك الوزير من منتهى حسن الدوق وسلامته فى تقدير الأمور ووزنها بالميزان الصحيح ، ماعنى بتوصية ذلك الشاب باتباعه والسير على نهجه . فالحياة فيها الكثير بما يجعلنا نحبها ، ويجب أن يحظى فيها الإنسان بقسط وافر من الاستمتاع البرى ، وأن يحافظ على ساعات الراحة والدعة حتى لا تطفى عليها أعباء الوظيفة أو غيرها . ذلك إلى أنه ساعات الراحة والدعة حتى لا تطفى عليها أعباء الوظيفة أو غيرها . ذلك إلى أنه على مافات ، وبالجلة فإن النغمة التى تغلب على فلسفة نصائح ذلك الوزير المسن على مافات ، وبالجلة فإن النغمة التى تغلب على فلسفة نصائح ذلك الوزير المسن هى شدة اهتمامه بالأخلاق والوازع الخلق ، وأبرز واجب تنطق به سطورها هو : « إرع الحق وعامل الجميع بالعدالة » .

وخليق بهذا الحكيم القديم أن يؤكد لنا مرارا أن أعظم فضيلة دائمة يتحلى بها الإنسان في الحياة هي العدالة والحلق العظيم، فإنهما يبقيان بعد موته ولذلك تبقى ذكراه خالدة .

على أنه ليس من باب الصدفة أن تذكر مثل هذه الحقائق المقنعة فى ملف بردى قديم يكشف لنا فى الوقت نفسه عن جو مشبع بالرحمة والمحبة يسود حياة الأسرة ويوحى باحترام الوالدين وبرهما ، والتحذير بوجه خاص من وخامة عاقبة الشره الذى تقضى على وثام الأسرة بالتفكك . فإن كل تلك العواطف وليدة عالم اجتماعى واحد ونمت وترعرعت فى بيئة واحدة ، فالأسرة هى العامل الأول فى تلك العواطف ، وما بتى فهو الثمرة الطبعية لتلك الروابط الأسرية . لذلك نجد فى حكم « بتاح حتب » تأكيدا قاطعا لما نستنبطه من نقوش المقابر ، ومن الصور التى رسمت على جدرانها ، من أن حياة الأسرة هى التى هيأت للإنسان فى بادى " الآمر الشعور بالمسئوليات الحلقية .

وفى نفس ذلك العصر صارت أمثال تلك المسئوليات موضوعا للتفكير والبحث ، وفيه أيضا بدأ التأمل الفكرى فى الطبيعة البشرية يعمل عمله ، فكانت المقارنة بين الرجل العاقل والرجل الأحمق ، وحصلت الموازنة بين صفتى الحنير والشر ، فكان ذلك فجر عالم جديد قوامه هذه القيم الجديدة . كا نشأ فى ذلك العصر الشعور بالشخصية المسئولة ، وصار العالم الإنسانى ميدانا جديدا لتطاحن المشاعر الحلقية المخلفة الغاية ، فكانت تتصادم فيه قوى جديدة بأسلحة جديدة . وفى ذلك العصر الذي يعتبر أقدم العصور إدراكا لقيمة الفرد الإنسانى الأخلاقية برزت الشخصيات الممتازة فسمت على دهماء القوم من النكرات التي غمرها جوف الماضي القديم . فاستطاع الرجل القوى أن يحدث تأثيرا فى المجتمع بماكان يتحلى به من المزايا العقلية والصفات الحلقة البارزة .

وقد حفظت لنا آثار ذلك العصر الناريخي العظيم أسماء بعض أصحاب تلك الشخصيات الممتازة . في خلال القرن الثلاثين ق . م . نجد . أمحو تب ،

وهو وزير عظيم في الأسرة الثالثة استبدل لأول مرة في التاريخ ببناء اللبن والخشب والغصون ــ وهو الذي كان سائدا في عصره ــ البناء بالاحجار الضخمة وأوجد بذلك أول عمارة بالحجر في العالم، وصار يعد بذلك أول فرد بارز الشخصية في التاريخ البشرى. وأما كلما ته الحكيمة الغالية ومعارفه الطبية فقد صيرت اسمه ذا شهرة متداولة في البيوت مدى آلاف السنين، ولكونه طبيبا عظيما صار موضعا للتعظيم والإجلال واسمه لا يزال يذكر بعد اسم واسكلبويس » الإغربق، وهو المعروف عند الرومان باسم « اسكولابيس » الإغربق، وهو المعروف عند الرومان باسم « اسكولابيس » للأن فإن أخلافه ظلوا يقتبسونها مدة خمسة عشر قرنا بعد وفاته .

وهنالك وزير آخر من الحكاء يدعى «كاجمنى » عاش فى القرن الثلاثين قى . م . (أى أنه كان موجودا بعد زمن «أمحو تب » بمدة قصيرة) ويعرف أن له وصايا حكمية أيضاكان قد ألقاها على ابنه ، غير أنها أيضا لم تصل إلينا وكذلك كان يعيش بعد «أمحو تب» بقرن واحد الحركم ، حرداد ف» بن الفرعون «خوفو » بانى الهرم الأكبر بالجيزة ، وقد بقيت أمثاله الحكيمة على أفواه الناس بجانب أمثال ، أمحو تب ، أكثر من ١٥٠٠ سنة فى الأزمان الغابرة ،

غير أنه لم يبق لنا من أقوال أولئك الحكماء الذين عاشوا في عصر الأهر امات إلى يومنا هذا إلا نصائح و بناح حتب ، التي لم تكن إلا جزءاً ضئيلا بما خلفه ذلك العصر الأول العظيم عن العقل البشرى .

ويجب أن نضع مع أصحاب تلك الشخصيات أول عالم مجهول فى العلوم الطبعية ، وهو مؤلف أقدم رسالة علمية تبحث فى الجراحة ، وربما يرجع عهده إلى عهد « أمحو تب» نفسه . ومؤلف تلك الرسالة الذى هو أقدم عالم طبعى عرف لنا للآن ، يعد أول إنسان ميزبين القوى الطبعية والقوى الآلهية ، إذ ذكر فى بيانه عندما كان يفحص إصابة فى رأس إنسان أن أصلها يرجع إلى سبب خارجى ، وعبر عنها بالفاظه التى كتبها فقال : « إنها شى عطراً من الخارج » أى أن الحادث جاء من الخارج . ولكن بالرغم من الاعتراف بأن الإصابة فحر الضعيد

قد نتجت من سبب طبيعي خارجي فإنها اعتبرت في الوفت نفسه إصابة تحتمل في ثناياها « سر حسن الحظ » أو « سوء الحظ » . وقد عبر الجراح العتبق عن ذلك بقوله: « يعني نفس إله خارجي أو الموت ، لا من حدوث شيء قد تولد من لحم المريض ، . وقد ميز هنا بين مجال الاسباب الطبعية في نظام جسم الإنسان الداخلي، وبين دائرة . حسن الحظ ، أو . سوء الحظ ، الأمر الذي كانت تسيطر عليه الآلهة . وهذه الملاحظة العويصة هي على ما أعلم أول شي. من نوعه عثرنا عليه في مخلفات التفكير الإنساني الذي بقي للآن (١) . كذلك مدأ في ذلك العهد التعبير عن قوة الشخصية والقوى التي نعبر عنها بقوى الأخلاق، لا في المؤلفات المدونة التي وضعها رجال الفكر والتأمل مثل « بناح حتب ، فقط ، بل صارت كذلك تلمس بوضوح في منتجات الفن فيذلك العصر وبخاصة في إنتاج أعظم المثالين العباقرة الذين أنتجوا أقدم تماثيل وصلت إلينا للآن. فكان قد نتج عن اتباع الخطة الثابتة المتفق عليها في فن النحت لمدة طويلة أن استجد طراز في نحت تماثيل الأشخاص في الدولة القديمة يكاد ينقصه أو ينقصه كلية إبراز الصفات المميزة لشخصية صاحب النمثال، ومن الجائز أن مثالي ذلك العصر كانوا يظهرون لنا في التماثيل التي نحتوها أقدم المعايير للصور البشرية ليكشفوا لنا عن وحدة الأشكال الناتجة من التأثيرات التي أوجدها ذلك النظام الخلقي الطويل المدى الذي محا ماكان بين طبقات المجتمع من الفوارق . على أن هذه الظاهرة لذلك النوع من النحت قد بالغ في تأكيدها النقاد الآحداث ، يدل على ذلك أن أعظم ما أخرجه نحاتو عصر الدولة القديمة يظهر لنا أنهم كانوا قد بدأوا يبرزون قوة الشخصية الممتازة واستقلالها حينها أخذت تبرز لنا لأول مرة في شخص الفرعون المهيب . يظهر لنا ذلك بوضوح مؤثر في صور ذلك العصر المعبرة التي في مقدمتها تمثال « خفرع » ماني الهرم الثاني بالجيزة ، بما كان له بلاشك تأثير عميق في التصورات الخاصة بالإلهبة . ويضاف إلى ذلك بحموعة كبيرة من الصور تنقل إلى مخيلتنا

See The Author's Edwin Smith Surgical Papyrus, Vol I, P.P. (1) 212 - 214, (2 Vols. Chicago, 1930).

تأثيرات هامة عن شخصيات تلك الطائفة من عظها، الرجال الدين كانوا يحيطون بالفرعون في عصر الاهرامات، من رجال السياسة والحكماء والفنانين ورجال العهارة والمهندسين، وهم الذين جعلوا من مصر منذ خمسة آلاف سنة مضت بلداً يضم عجائب المباني التي لا تزال إلى يومنا هذا تعدمن عجائب الدنيا، في حين أن مبانى غرب آسيا أقيم معظمها من الطوب طوال العصر الذى سبق بناء القصور الإمبراطورية في فارس وقد محيت الآن عن آخرها . وهذه الموازنة لاتخلو من الأهمية وتؤيد الاعتقاد بأن مصر كانت البلد الذى ولد فيه أول عصور الشخصيات العظيمة .

على أن ظهور أولئك الرجال ذوى الشخصيات العظيمة لم يكن وليد الساعة بل كان ثمرة التجاريب والحياة النظامية مدى ألف سنة من تاريخ البشر. فكانوا أول رجال أمكنهم الرجوع بالبصر ليجيلوا أنظارهم فى ذلك الماضى حيث يشرفون على مشهد عيق من حياة الإنسان الأولى . ولا بد أنهم كانوا أثناء قيامهم بذلك يتلسون فى الظلام أحسن تعبير يعبرون به عن آرائهم نحو نظام بنى البشر ، على أن يكون ذلك التعبير منضمنا سر تلك الأعمال العظيمة التي ورثوها عن أسلافهم السابقين .

وقد انتهى بهم الأمر فعثروا على بغيتهم التى نشدوها فى التعبير عن ذلك بكلمة واحدة جامعة حوت فى ثناياها كل معانى السمو والرفعة فى الحياة البشرية، تلك الكلمة هى « ماعت » ، التى تعد من أقدم التعابير المعنوي ذات المعانى المتعددة التى وصلت إلينا من كلام بنى الإنسان منذ الأزمان الغابرة ، وهى التى سبق لنا التعبير عنها هنا بالكلمات الآتية : « الحق » و « العدل » و « الصدق » ، وذلك لأن تلك المعانى كلها قد انتهى الأمر بأن مثلت فى لغة المصريين الأقدمين بهذه الكلمة الواحدة « ماعت » ، وتلك الكلمة كانت تستعمل عند أجدادهم فى أول الامر لأداء معنى واحد فقط هو «الحق» بمعنى «الصواب» ، كما نستعمل غند أخدادهم فى أول الامر لأداء معنى واحد فقط هو «الحق» بمعنى «الصواب» ، كما نستعمل غند أخدادهم فى أول الامر لأداء معنى واحد فقط هو «الحق» بمعنى «الصواب» ، كما نستعمل غنه فى أول الامر الأداء معنى واحد فقط ها الرياضية والاخلاقية معا .

ثم إنه في بداية عصر الدولة القديمة أخذ معنى كلمة « ماعت » هذه يتسع

تدريجاً حتى صار يشمل معنى واسعا عظيما ، فلم تكن تعنى نقيض الباطل فقط بل تعنى نقيض الباطل فقط بل تعنى نقيض الإخطاء الخلقية على وجه عام أيضا . على أننا لا نعلم متى بدأ هذا التطور في معنى تلك الكلمة ، غير أن الذي يجدر بنا ملاحظته هنا أن كلمة ، ماعت ، هذه لم ترد في الجزء الذي عثرنا عليه من المسرحية المنفية ، وإن كان من الجائز أن عدم ذكرها في هذا الجزء راجع إلى مجرد المصادفة المحضة .

وبعد سنة ، ٣٠٠ ق ، م ، بدأ عظها. رجال الدولة القديمة يجدون في معانى كلمة « ماعت » ما يعبر عن الأمور التيجاءت وليدة النجارب القومية والتي كان لها أثرها في الحياة العامة للأمة . فع أن تلك الكلمة العظيمة لم تفقد شيئا من دلالتها على صفات الإنسان الحلقية الشخصية ، فإنها صارت تعبر أيضا في نظر عقول رجال الفكر في الدولة القديمة عن معنى النظام القومي أي النظام الحلق للأمة والكينونة القومية التي تسير تحت سلطان إله الشمس .

وانعد بذاكر تنا الآن قليلا إلى ذلك الماضى الذى أمكن حكاء الدولة القديمة أن برجعوا البصر للتأمل فيه ، ذلك الماضى المتسع المدى الذى كاف في أنظارهم سببا لاتساع معنى كلمة « ماعت ، أيضا حتى ألبسما كل تلك المعانى الآنفة . فقد كان لدى أولئك الحكاء قوائم بأعمال الملوك الأوائل الذين حكموا البلاد المصرية قديما قبل العهد الذى تأسس فيه الاتحاد الأول، فكانوا على على على علم بأن ذلك الاتحاد قد مهد له حكم الدويلات المحلية الصغيرة ، وأنه بما تم فيه من توطيد أركان النظام في مصر قد أفضى مرة ثانية إلى قيام الاتحاد الثانى الذى دام عهده ألف سنة ، أى من حوالى القرن الخامس والثلاثين إلى حوالى القرن الخامس والثلاثين إلى حوالى القرن الخامس والثلاثين إلى حوالى القرن الخامس والثلاثين ألى حوالى القرن الخامس والثلاثين أله مع مع المناس والعشرين ق . م .

ومن المهم جدا أن نلاحظ أن هذه هى أول مرة فى تاريخ البشر نجد فيها ألفا كاملا من السنين المنصلة الحلقات دون أن يمس فيها اتصال الخبرة القومية أو بعبارة أخرى اتصال التطور البشرى. فى هيئة قومية موحدة ، فقد كان تطورا ثابتا قامت فيه أمة يبلغ تعدادها يضعة ملايين من النسمات البشرية لأول مرة فوق الكرة الأرضية بتأسيس بناء ضخم من الحياة البشرية المنظمة دام مدة ألف سنة متوالية لا انفصام لها .

وقد كان التأثير البالغ الذي استولى على نفوس أو لئك الحكاء من تأملهم في حالة تلك الحكومة الراسخة الأركان ونظامها الدقيق الذي كان يسير بدون انقطاع طوال مدة ذلك العصر هي التي جعلت كلمة وما عت ، المصرية القديمة تتسع وتزيد زيادة محسوسة فتحمل من المعانى أكثر بما كانت تحمل من قبل ، حتى صارت في نهاية الأمر لا تدل فقط على معنى والعدل ، أو والصدق ، أو والحق ، بما كان يتصور رجال عصر الأهرام أنه شيء يترسمه ويسير بمقتضاه الفرد الإنساني ، بل صارت أيضاً تدل على معنى الحقيقة الواقعة التي تسود الناحية الاجتماعية والحكومية ، بل أصبحت تلك الكلمة تعبر عن النظام الخلق للعالم ، وصار هذا النظام وحكومة الفرعون يدلان على معنى واحد ، وقد كان كبير القضاة في المحاكم المصرية القسديمة يحلى صدره بصورة من اللازورد رمزا للإلهة وما عت ، وكان من عادة القاضي أن يشير إلى المحق من المتخاصين الواقفين أمامه بتوجيه ذلك الرمز إليه .

وكان الحكيم « بتاج حتب » يفخر بسيادة « ماعت » وخلودها فيقول : « إن م عت عظيمة و تصرفها باق فلم تخذل منذ زمن بارثها » .

وكثيرا ما نجد على الآثار القديمة أن ماعت هى الشيء الذي يعتبره الفرعون شخصا يشد أزره أمام الفوضى والظلم والحداع الذي كان يقع ضده من مناهضيه للاستيلاء على العرش ، بمن كانوا يبنلون الشعب بما يحدثونه من سوء النظام . ولقد كانت ألف السنة التي قصتها الحكومة المنظمة بتلك الكيفية هي التي وضعت أمام أعين حكماء الدولة القديمة تلك الصورة الجليلة التي تمثل الأثر الفعال والإحسان البالغ اللذين أسدتهما «ماعت » ، بما أسبغ عليها معنى تاريخيا لم يكن من المكن اكتسابه بطريقة أخرى .

ومن الواضح أن المجتمع والحكومة معا ، وكذلك التأثيرات الاجتماعية والحكومية معا ، قد أدت جميعها إلى ذلك النظام الذى قام بتلخيصه الحكاء المصريون القدماء في كلية جامعة واحدة هي « ماعت » .

فإن ماعت ، قد نشأت في أول أمرها بمثابة أمر شخصي خاص بالفرد

للدلالة على الخلق العظيم فى الأسرة أو فى البيئة التى تحيط بالإنسان مباشرة ، ثم انتقلت بالتدريج فى سيرها إلى ميدان أوسع فصارت تمثل الروح والنظام للإرشاد القومى والإشراف على شئون البشر بحيث تكون الإدارة المنظمة مفعمة بالاقتناع الخلق .

وبتلك الكيفية وجدت لأول مرة بيئة ذات قيم عالمية ، وحينها بدأ المصريون يتصورون الحاكم الإلهى لهمذه البيئة كانوا في الحقيقة يسيرون في الطريق المؤدى إلى عقيدة التوحيد السامية ، وكان ذلك الحاكم الإلهى هو إله الشمس ، وقد تخيل القوم روح حكمه في شكل شائق بأن تصوروا ، ماعت » في هيئة إلهة وجعلوها بنت الشمس . وبالسير في هذه السبيل وصل المصريون في النهاية ، كا سيأني ، إلى عقيدة التوحيد الرقيعة ، فلم يكن من مجرد الصدفة أن بلغوها قبل أن تهتدى إليها أية أمة أخرى بزمن طويل . وكذلك لم يكن من باب المصادفة أن كان ثاني الشعوب اهتداء إلى عقيدة التوحيد المذكورة أقرب جيران مصر عبر حدود آسيا في فلسطين ، وقد قال أحد أنبيائهم : ، إليكم يا من تخافون اسمى ستشرق شمس العدالة تحمل الشفاء في جناحيها () . (ملاخي ٤ - ٢) . ويشير هذا التعبير بداهة إلى إله الشمس المصرى القديم الذي يرسم عادة بصورة قرص الشمس المجنح .

وبذلك يتضح لنا على الفور عندما ننظر إلى الأمام متجهين نحو آسيا ، لماذا أثت حضارة غربي آسيا متأخرة في مثل هذا النطور ؟

فالتصور المصرى للنظام الإدارى والخلقى العظيم، الذى أطلق عليه إسم ماعت ، والذى صار أسمى مظهر للحضارة الشرقية القديمة ، كان كما رأينا نتيجة للتطور الاجتماعى الحكومى مدة ألف سنة من حياة أمة عظيمة موحدة ثابتة منظمة كانت تخطو دائما فى خلالها نحو الارتقاء والتقدم . فى حين أن فكرة ذلك النظام الإدارى والحلق ، بالرغم من تمثيله إلى حد ما فى الصورة

⁽١) وتشرق لكم أيها المتقون لاسمى شمس البر والشفاء في أجنحتها .

الجيلة التي ظهر بها الملك العادل بعد ذلك العهد بألني سنة على يد الأنبياء العبرانيين، فإنه لم يظهر بشكل واضح في غربي آسيا إلى أن جاء و روستر يعمل انظامه الحلق العظيم، وذلك بعد أن علت كلمة بلاد فارس في عهد وقورش، وخلفائه. وفي تاريخ غربي آسيا ما ينبئنا بوضوح عن سر استحالة ظهور هذا النطور فيه قبل ذلك العهد. إذ نجد في مصر التي كانت تعرج في مراقي التقدم في عهد الاتحاد الثاني وعصر الدولة القديمة، حضارة كانت ثمرة عهد لا يقل عن ألف سنة من التجارب الاجتماعية يقودها نظام قومي ذو أسس ثابتة نشطة، فيها من القوة الحيوية ما مكنها من الدوام أكثر من ألف السنة التي مكثتها، في حين أن بابل التي كانت تعتبر أشهر ممالك غربي آسيا وقتئذ قد استمرت خلال ألف السنة هذه ترزح تحت عبء الفوضي من جراء الحروب الصغيرة التي كانت في معظم ذلك الوقت تشتعل نير أنها بين دويلات المدن التي كانت تألف منها وقتئذ.

أما في مصر فإنها كانت حتى قبل بداية هذه الآلف من السنين قد انتهت من الشحناء التي كانت قائمة بين دويلات مقاطعاتها بزمن طويل . حقا إن الحضارة المادية كانت متساوية في أعمارها في كل من غربي آسيا ومصر ، ولكن الحضارة في أوسع نواحيها ليست إلا نتيجة لتطور اجتماعي طويل . ومن ثم نجد أن البراهين التي يتمسك بها الآثريون للاستدلال على أن المدنية البابلية (التي لم يكن لديها الفرصة الكافية للنمو والتطور الاجتماعي المطرد) كانت أقدم من المدنية المصرية ، بحجة ما عثر عليه من البرت النحاسية وصناعة صياغة الذهب ، ليست إلا براهين سطحية لا تستحق النقد والتفنيد . ولا جدال في أن التقدم السياسي والاجتماعي و تطور الحضارة البشرية على وجه عام ، كان ظهورها كلها في وادى النيل متقدما بعدة قرون على أمثاله في غربي آسيا . والحقيقة أن الحضارة في و بابل ، أتت متأخرة في تطورها الديني والاجتماعي والسياسي عن حضارة مصر بما لا يقل عن ألف سنة .

وتلك الحقيقة لها أهمينها إذ تعدنا لفهم الأهمية الفريدة لمدة ألف السنة العظيمة التي تطورت فيها الحضارة في مصر ذلك التطور الخطير . فعلى ضفاف النيل بالذات نرى طليعة التقدم البشرى أى بوادر شعور الإنسان لأول مرة بكنه الفتح الذى بدأه، وبعد أن جنى ثمرة التجارب القومية التي استمرت ألف سنة أخذ يعد نفسه لخوض معركة الشئون الاجتماعية التي كانت تتهيأ لمهاجمته من الداخل. فقد ظفر هو فها في تلك المدة بأعظم الانتصارات الباهرة على أعدائه الخارجين، في عالم القوى المادية. ولكنه الآن أمام الوازع الداخلي الذى صار هو الآخر بدوره يطلب منازلته لدخول ميدان جديد أسمى من ميدان المادة، بعد أن كان ذلك الميدان السامى لا يعرف عنه المصرى القديم شئا إلا القليل.

وتوجد عندنا الأدلة القاطعة على أن أقدم المبادئ الخلقية عند قدماء المصريين أخذت دورها في النمو وهي مقرونة بإله الشمس لا بالإله « أوزير ، ، لإن نصائح « بتاح حتب ، تقول بجلاء إن إله الشمس هو خالقها (أى خالق العدالة). نجد ذلك واضحا في فقرة من وثيقة يرجع عهدها إلى الدولة الوسطى حيث حشر أتباع وأوزير ، فيها أسمه حشراً . وهذا دليل هام على اشتعال نار الحرب الدينية التي كان يزكيها أتباع « أوزير » في ذلك العصر ، وبما يؤسف له في هذا الصدد أن أول إله تخيله المصريون قاضيا خلقيًا في عالم الحياة الآخرة لم يذكر اسمه بالنص وإنما وصف بأنه . الإله العظيم ، فقط من غير أن يذكر له اسم . وقد وردت هذه الصفة بتوسع فى فقرة وأحدة بالعبارة التالية : « الإله العظيم رب السماء ، ، ولذلك لا يكاد يوجد مجال لأن يكون المقصود من هذه العبارة أي إله آخر غير إله الشمس. وهذا الاستنتاج يؤيده جميع ماوجدناه من الكتابات في متون الأهرام حيث يعبر مرارا وتكرارا عن إله الشمس بأنه «رب المحاسبة في الآخرة » . ولا نزاع في أن هذا الإله هو الذي يقصده م إنتي » أحد أشراف « دشاشة ، في قوله : « أما من جهة كل الناس الذين سيعملون السو . ضد هذا (يريد القبر) والذين يعملون أي شيء يسبب خراب هذا القبر والذين يتلفون الكتابة التي فيه ، فإنهم سيحاسبون على ذلك أمام الإله العظيم رب الحساب في المكان الذي تحاكم فيه الناس. أما النطور السريع الذي ظهر فيها بعد في النصائح الخلقية في مذهب وأوزير، وكذلك استيلاء وأوزير ، على مكانة القاضي في المحاكمة الأخروية فلم يكن قد ظهر بعد في متون الأهرام ، لأن النطور الذي جعل تلك العناصر تظهر بوضوح في عهد الدولة الوسطى كان قد بدأ في ذلك العصر المظلم الذي جاء إثر انتهاء عصر الاهرام . وعلى ذلك يكون إله الشمس - خلافا للرأى السائد - هو أقدم الحامين للخلق الفاضل وأول من سمى بالقاضي العظيم في عالم الحياة الآخرة .

وأما «أوزير » فإنه ظهر بعد ذلك العهد بألف سنة قاضيا خلقيا عظيها في الحياة الآخرة ، على إثر اعتباره المدعى المنتصر في محاكمة عين شمس وحامى الأموات الذي تغلب على كل أعدائه . على أن اغتصاب «أوزير » لهذه المكانة يعد دليلا آخر على التطور الذي لم يكن في الإمكان مقاومته في صبغ الديانة المصرية القديمة بالصبغة الأوزيرية . وإلى هذه الاحداث التي جاءت متأخرة والتي استق منها العلماء الاحداث آراءهم ، يرجع السبب في التتيجة الشائعة القائلة بسيادة «أوزير » الخلقية من عهد بعيد . وعلى أية حال فإن أقدمية المذهب الشمسي واضحة تماما في هذا الموضوع كما هي واضحة في تفاصيل أخرى .

على أن هذه المطامح الخلقية المبكرة كانت لها حدودها، إذ لاننسى أننا نتناول البحث فى عصر مضى عليه الآن ما بين ٥٥ ك ٥٥ قرنا من الزمان . وقد رأينا أن أهم الانتصارات التى قام بها الإنسان فى ذلك العصر القديم كانت فى منازلة القوى المادية ، وقد خرج منها خروج الظافر الغالب، فى حين أن الإنسان القديم وهو فى وسط طائفة من الارتباكات ذات المؤثرات المضللة قد أخذ يرى قبسا صغيرا من القيم الجديدة التى تسمو فوق الاعمال المادية المجردة .

ولا نزاع فى أن سيطرة ، ماعت ، بقيت فى جملتها المثل السامى فى نظر الحكما. ، ولكن الفساد فى الجهات الرسمية جعلت تحقيقه أمرا مستحيلا . شأنه فى ذلك شأن الفساد الذى لا يزال للآن العقبة القائمة فى وجه العدالة عند الحكومات الشرقية إلى أيامنا هذه (١) .

⁽١) يشير هذا إلى أن المؤلف متأثر بتعصب الغربيين في آرائهم عن شعوب الشرق.

فيجب ألا نتخيل إذن أن الواجبات الى كان يفرضها ذلك التصور الخلق كانت شاملة عامة ، أو أنه كان في مقدوره أن يشمل كل ما ندركه نحن في معناه من الصفات . فمثلا نجد أن مستلزمات القاضي العظيم في عالم الآخرة كانت لا تتناقض مع أفظع الملاذ الشهوانية ، إذ لم تكن تلك اللذات الشهوانية المباحة في عالم الآخرة مقصورة على ما صورته لنا متون الأهرام بل نص على الطرق الفعلية التي يحصل بها إشباع تلك الشهوات ؛ ولذلك كان يؤكد للملك المتوفى خيازته على اللدة البهيمية في أشنع معانها . من ذلك ما جاء في بعض النقوش من :

أنه هو الرجل الذي يغتصب النساء من أزواجهن من أين شاء وحينها . يشتهي قلبه . .

ومهما يكن من أمر فإن نشأة الاعتقاد بأن النعيم في جميع صوره يتوقف على ما للإنسان من الصفات الخلقية في الحياة الدنيا ، تعد من الخطوات الخطيرة ، ولا بد أن يكون الشعور القوى بالوازع الخلق هو الذى جعل الفرعون نفسه ، المقدس المعتبر فوق كل قانون أرضى ، معرضا للحضور أمام ذلك القاضى السهاوى ، ومكلفا بأن يتزود لذلك بالزاد الخلق . وهذه الخطوة لا يمكن الوصول إليها طفرة واحدة . ومن الممكن أن نرى حتى في مدة القرن ونصف القرن التي شغلتها عصر متون الأهرام بعض أثر التقدم في الشعور الخلق وهو يشمل بأحكامه الشديدة حتى الملك نفسه . فنجد مثلا في فقرة من متون الأهرام البيان التالى عن الملك : « إن هذا الملك ، ببي ، برى " » وقد حدث أن تلك الفقرة التي وردت بها هذه العبارة قد وجدت بصورة مختلفة في نقوش هرمى « وناس » و « تيتى » ، وكانا ملكين حكما قبل « يبي » . في كل من النصين المعدلين لا نجد ذكر آلعبارة البراءة . وينتج من ذلك أنه بعد مضى مدة تتراوح بين الستين والنمانين سنة رأى كاتبو تلك المتون أن بعد مضى مدة تتراوح بين الستين والنمانين سنة رأى كاتبو تلك المتون أن في طرفافوها .

على أنه ليس من السهل أن يقرأ الإنسان تقدم شعب ما ورقيه الروحى والعقلى في آثار هي قبل كل شيء مادية كما لوكان يقرؤها في الوثائق الأدبية .

إذ من السهل أن يضل الإنسان ويخطى في ترجمة تلك الإشارات الصدلة التي تمدنا بها تلك الآثار المادية المحصة . والواقع أن هذه الآثار يخفي وراءها طائفة من القوى الإنسانية والتفكير البشرى لا يمكننا الاهتداء إلى معظمها . ومع ذلك فإنه يكاد يكون مستحيلا على الإنسان أن يتأمل مقابر ملوك الاسرة الرابعة الهائلة المعروفة بأهرام الجيزة ثم يوازنها بالمقابر الملكية الصغيرة التي أقامها ملوك الاسرتين التاليتين بعدها دون أن يرى وراء هذا التغيير المفاجىء والمدهش معا أسبابا فوق الاسباب السياسية المحصة ، فأهرام الجيزة العظيمة ، كا قلنا من قبل ، تمثل حرب القوى المادية الهائلة بغية الوصول بالعوامل كا قلنا من قبل ، تمثل حرب القوى المادية الهائلة بغية الوصول بالعوامل كا قلنا من المبانى المبادية المحصة إلى تخليد جنمان الملك المنادي بإحاثته بغطاء هائل من المبانى ليس في الإمكان اختراقه حتى يحفظ فيه إلى الابد مع كل ما كان يربط روح الملك بالحياة المادية قبل الموت . ومع أن أهرامات الجيزة العظيمة تدل بعظمتها على أبها أكبر شاهد باق ينطق بظهور أقدم إنسان منظم ، وبانتصار الجهود المنضافرة ، فإنها في الوقت نفسه برهان صامت يعبر تعبيراً فصيحاً عن عاولة الإنسان الحصول على نعيم مقيم خالد بالقوة المادية المحضة .

ولم يكن من الممكن لمثل ذلك النصال الهائل صد قوى التحلل والفناء أن يستمر في طريقه إلى غير نهاية ، وذلك لأسباب طبعية محضة المضمت إليها اتجاهات سياسية أيضا . ولكن مع كل هذه الأسباب مجتمعة فإن مجرد إدخال متون الأهرام في المقابر الملكية خلال القرن ونصف القرن الأخيرمن عصر الاهرام كان على وجه التقريب في حد ذاته تخليا عن ذلك الصراع الهائل المعتمد على القوى المادية والتجاء ظاهرا إلى عوامل أخرى أقل طهوراً من ذلك . كا أن الاعتراف بالحساب في الآخرة وبحاجة الإنسان إلى قيم خلقية يتصف كما أن الاعتراف بالحساب في الآخرة وبحاجة الإنسان إلى قيم خلقية يتصف بها في الحياة الآخرة يعد في الواقع أعظم من ذلك أهمية في نفس هذا الاتجاه فهذه الخطوة تعلم لنا التحول من الارتكان على العوامل الظاهرية الحارجة عن شخصية المتوفى إلى الاعتماد على القيم النفسية الباطنة . وبذلك بزغ فجر عقيدة خلود الروح لاول مرة على عقول البشر ، باعتبار الابدية أمرا يحصل عليه الإنسان بالروح لا بالجثمان .

وقد كان ذلك فاتحة عهد انتقال من المزايا المادية الظاهرة إلى الصفات الروحية الباطنة؛ ولذلك كان أيضا خطوة من الخطوات الهامة التي كنا نترقبها في ذلك المنهج الطويل، وهي ابتداء ظهور الشخصية المستقلة بعد أن كان كل شيء ينسب إلى جملة الشعب، أي أن فجر ظهور كفاية الشخصيات الفردية وتفوقها قد طلع على عقول أولئك الناس الذين عاشوا في ذلك العالم القديم. وصارت مثلهم العليا تنتمي إلى أخلاق أكبر الآلهة عندهم، كما اعتبر ملك ذلك الإله عالما خلقيا عظيما يتولى الملك في الأرض إدارته وتدبير أموره نائبا عن الإله لفائدة الأمة المصرية.

بذلك الفوز السامى القويم تم هذا التطور الذى أحرزه عصر ألف السنة التي بدأت مع بداية الاتحاد الثاني وانتهت بعد حلول سنة ٢٥٠٠ ق. م. بقليل .

الفصية اللعاشر

انهيار المذهب المادي وأقدم عهد للتخلص من الأوهام

تعد أهرام الجيزة دليلا قويا على السيطرة والثروة اللتين كانتا متجمعتين في أيدي فراعنة الأسرة الرابعة ، وبقاء تلك المباني الرائعة مدة تقرب من خمسة آلإف سنة يعتبر دليلا آخر يعزز ذلك، إذ أن الفرعون الذي كان في مقدوره أن يجمع كل ثروة رعاياه ومجهودهم وهم عدة ملايين لإقامة ضريح يبلغ ارتفاعه ٨١٤ قدما ، ومساحته لا تزال تشغل نحو ١٣ فدانا من المبانى الصلبة ، لا بد أنه كان قد جمع في يده زمام حكومة قوية مركزة . ولا شك أنه كان يستعمل تلك السلطة دون أن يكترث كثيرا بالآلام التي كانت تعانيها الإنسانية من تسخيره إياها في تلك الاعمال الشاقة . ونحن نعلم الآن أن كبار الموظفين الذين كانوا يديرون دفة تلك الإدارة العظيمة قد أثروا منها تدريحا ، و بخاصة من الاراضي التي كان الملك يهبها إياهم ، وبذلك أسسوا لانفسهم ضياعا عظيمة حتى صاروا يعيشون كما يعيش حكام الإقطاعيات في مقاطعاتهم ، وبعد انقضاء بضعة قرون وصل أولئك الموظفون إلى درجة عظيمة من الاستقلال. أي أن حكومة البلاد التي كانت مركزة في يد الملك والتي تنطق بها صنخامة المقابر الملكية الشاسعة الأرجاء بالجيزة أخذت تنحدر نحو اللامركزية التامة ، ولم يأت عام ٢٥٠٠ ق . م . حتى صارت الدولة المصرية القديمة ،ولفة من جموعة من الإقطاعات المفككة الأوصال مهددة بفقد كل رابطة بينها، تكاد تقضي عليها عوامل التمزيق والنفريق . وبذلك نرى أنه في فترة تقدر بأقل من ألغي سنة قامت أولى المدنيات بدورة التطور كاملة ، من توحيد كلمة رؤساء المقاطعات المحليين في عصر ما قبل التاريخ إلى تأليف حكومة متحدة من تلك المقاطعات جميعا عن طريق أقصى درجات تركيز السلطة ، ثم عادت ثانية إلى

اللامركزية بخطى متوالية إلى أن رجعت سيرتها الأولى، حيث صارت مكونة من مقاطعات محلية مستقلة . فكانت هذه أول دورة فى تجارب البشرية . وقد رأينا أنها تركت أثراً بالغا عميقا فى عقول رجال الفكر ، إذ صار فى مقدورهم لأول مرة عندنها ية الدولة القديمة أن يرجعوا بأبصارهم إلى ذلك الماضى القديم والتأمل فى ذلك المنهج الطويل من تطور النظام البشرى . وقد تبين لهم كيف أن أخلافهم، بتأثير سير هذا الموكب العظيم الممثل لاقدم حياة بشرية منظمة فى التاريخ، قد نقلوا تدريجا آلمة الطبيعة القدامى إلى مملكة الشئون الاجتماعية ، وسنرى الآن تأثير التجارب الاجتماعية النامى على أفكار هؤلاء الحكماء بشأن الإنسان والسلوك البشرى وعن الإله .

والأرجح أنه بعد سنة ٢٥٠٠ ق. م. بقليل انهارت حكومة الدولة القديمة أي الإتحاد الثَّاني ومزقت أوصال البلاد شر ممزق . وخلال أوقات الشجار الذي كان قائمًا بين الأشراف المحليين على أثر ذلك الانهيار ظهر عميد أسرة من حكام الإقطاعات كان يقطن ﴿ أَهْنَاسِيةِ المَدْيَنَةِ ﴾ الواقعة على مسافة ٢٥ فرسخا جنوبي . منف ، واستولى على السلطة التي كانت لملوك . منف ، مدة طويلة وأقام نفسه فرعونا على البلاد ، غير أنهذه الأسرة الإهناسية التي كانت ضعيفة في سياستها لم تترك لنا عنها إليرشيئا ضئيلا من آثارها يحدثنا عن أخبار ذلك العصر، فقد انفصل عنها النصف الجنوبي من الوجه القبلي ونال استقلاله ، كما أن المناوشات كانت قائمة أحياناً ضدها على الحدود في مصر الوسطى. ومع أن التأثير العظيم الذي نتج عن هذا الإنهيار التام في حكم الاتحاد الثاني بعد أنّ عمر ألف سنة لم يظهر في أول الأمر ظهورا تاما فإنه كان في ذلك مثله كمثل سقوط . رومة ، إذ ترك أثرا قويا على عقول القوم الذين شاهدوه ، فقد أقلع رجال الفكر عن التفكير في الأبهة الظاهرة الـكاذبة وتحولوا إلى التأمل العميق فى القيم الباطنة . ولا بد أن الحياة المتحضرة فى أمهات مدن الدولة القديمة مثل د منف ، و د عين شمس ، ، وهي التي كانت مركزا للقوة والثقافات ، كانت لا تزال باقية فيها على ما هي عليه . هذا فضلا عما في , أهناسية , نفسها ، فإننا تعلم على الأفل أن أحد ملوكها كان حكيما ذا عقل مفكر راجح. ومما يؤسف عليه أن اسم ذلك الملك مجهول لنا للآن ، ولكنه لما قارب حكمه النهاية كتب رسالة في سلوك الملك ليعلم بها ابنه «مريكارع» ، وقد سميت هذه الرسالة « تعليم موجه إلى « مريكارع » » .

وتلك الوثيقة الهامة مدونة على بردية محفوظة الآن بمتحف ولنينجراد ، وهي تحمل بين سطورها أدلة قاطعة تثبت أنها كتبت في العصر الذي تنسب إليه ، ويمكن أن نعتبرها صو تآ حقيقيا لملك « أهناسية ، المسن الذي كان يرجع بنظره إلى الوراء للاستفادة من ماضى تلك الدولة القديمة ، وذلك لعظيم احترامه للحكمة التي تمخضت عنها تلك الأزمان . إذ نرى ذلك السياسي الحنك يتحدث عن الرجل الحكيم فيقول: ﴿ إِنَّ الْحَقِّ (يَعْنَى ﴿ مَاعَتَ ﴾) يأني إليه مختمرًا حسبها كان عليه الأجداد ، فعليك إذن أن تقتدى بآبائك وأسلافك . . . تأمل ، لأن كلماتهم مدونة في المخطوطات فافتُحها لتقرأها واقتد بمعرفتهم ، وبتلك الكيفية يصير صاحب الصناعة على علم بها ، . ونحن من جانبنا يمكننا أن نلحظ في تلك الـكلمات تأثير نصائح . بناح حتب ، الذي غرّف في نصائحه الكلام بأنه صناعة وعرف المنكلم المآهر بأنه محترف، ولا بد أنه كان بين تلك المخطوطات ملف البردى الذي يحتوى على نصائح . بتاح-تب ، والذي كان الملك الإهناسي بأمر ابنه بفتحه وقراءته حتى يمكنه التبصر فيما يحويه من الحكم التي مضى عليها وقتذاك نحو ٤٠٠ سنة . ويقول ذلك المالك المسن : «كن ممن يحسنون صناعة الـكلام لتكون قوى البأس لأن قوة الإنسان هي اللسان ، والـكلام أعظم بأساً من كل حرب . . وهذا القول أشبه بقولنا : « القلمأشد بأساً من السيف . . غير أن ذلك السياسي المصرى - كما أظهر لنا ذلك «بتاح حتب ، -كان يعرف معرفة تامة أن اللسان الذرب يحتاج إلى توجيه حكيم ، إذ يضيف إلى ما سبق قوله : • إن الرجل الفطن لا يجد من يفحمه ، كما أن الدين يعرفون أنه أوتى الحكمة لا يعارضونه ، وبذلك لا تجدث مصيبة في زمانه » . وكان من المستحيل بدامة أن يتجاهل الإنسان الصعوبات القائمة في موقف البلاد السياسي إذ ذاك ، ولذلك أسديت النُّصيحة إلى الامير الصغير بالمحافظة على العلاقات

السلمية بينه وبين جنوب الوجه القبلي المستقل في ذاك الوقت . وقد خصص جزء كبير من تلك النصيحة للعناية بحدود البلاد المصرية المكشوفة من جهة آسيا شرقا ولويبا غربا .

ولقد برزت فطنة ذلك السياسي المسن بوجه خاص في سياسة البلاد الداخلية ، إذ نجده يعترف اعترافا صريحاً بقوة الأسر الشريفة العظيمة ، ولذلك فإنه يوصى بمعاملتها بتلك السياسة التي اتبعها كثير من ملوك أوربا فيها بعد ــ وهي سياسة المهادنة والتعاون . كما أبدى فطنة عظيمة في الوقت نفسه لتقديره ضرورة البحث عن الكفايات المغمورة في الأوساط الدنيا وتكوين رجال جدد يمكن استخدامهم ضد رجال الإقطاع القدامي ، ولذلك نراه يقول: وأعل من شأن الجيل الجديد ليحبّك أهل الحاضرة . . . إن مدينتك ملأى بالشباب المدرب الذين هم في سن العشرين . ضاعف الأجيال الجديدة من أتباعك ، على أن يكونوا مزودين بالأملاك وقد منحت لهم الحَقُولُ وجعلت في حيازتهم قطعان المـاشية . وإياك أن ترفع من شأنُ ابن العظيم على ابن الوضيع ، بل اتخذ لنفسك الرجل من أجل كفايته ،. ومع ذلك فإنه ليسُ من الفطنة أن تهمل الأسر الشريفة العريقة . ولذلك يقول : « عظم من شأن أشرافك لينفذوا قوانينك ، لانهم إذا لم يكونوا أهل يسار فإنهم لا يقيمون العدل في إدارتهم للأمور . إن الرجل الغني في بيته لا يتحيز (يعنى في حكمه) لأنه صاحب عقار وليس محتاجا ، ولكن الرجل الفقير (وهو فى وظيَّمته) لا يتكلم حسب العدالة (يعنى ماعت) لأن الرجل الذي يةول: « ليت ف » ان يكون محايدا بل ينحاز إلى الشخص الذي يحمل في يده العطية (reward) ، فالعظيم من كانت أشرافه عظهاء والملك الخطير من كانت له حاشية ، والرفيع من كان حوله أشراف كثيرون . وإذا تكلمت الصدق (يعنى ماعت) في بيتك فإن الأشراف المتسلطين على الأرض سيهابونك . والملك ذو العقل المحايد يفلح حاله لأن داخل (القصر) هو الذي يبعث الاحترام في الخارج . .

وفضلا عن المستولية فيها يختص بالعدالة الدنيوية يؤكد الملك المسن لابنه

بأنه على الملك واجبات هامة فى المعبد، وأنه محتم عليه أن يوجه كل عنايته لإقامة جميع الشعائر المقدسة عا يُظهر بكل جلاء اعتماده التام على العطف الإلهى. على أن فضيلة الملك على أية حال لا تظهر بإقامة أمثال هذه الشعائر الحارجية الظاهرة وحدها، كما أنها ليست ضمانا كافيا لرضى الإله، فإن أخلاق المعطى أعظم خطرا مر الهبة التي يبذلها . ولذلك نجد الملك المسن يأتى فى وصيته بما يعد من أنبل ما جاء به التفكير الخلق بمصر القديمة إذ يأمر ابنه بأن يحفظ فى ذهنه : « أن فضيلة الرجل المستقيم أحب (يعنى عند الإله) من ثور أي الذى يقدم قربانا) الرجل الظالم . فلابد إذن لذلك الشاب عندما يتربع فوق العرش أن يحكم طبقا للصفات الخلقية الباطنة ، ولذلك يقول له والده : أقم العدل لتوطد به مكانتك فوق الأرض ، وواس الحزين ولا تسىء إلى ولا تقم بالعقاب (يعنى بنفسك) فإن ذلك لا يفيدك ، بل عاقب بواسطة ولا تقم بالعقاب (يعنى بنفسك) فإن ذلك لا يفيدك ، بل عاقب بواسطة الجلادين ومن غير إسراف ، وبذلك تستتب لك الأرض . . . والله عليم بالرجل الثائر والله يجازى عسفه بالدم . . ولا تقتلن رجلا تعرف قدره بالرجل الثائر والله يجازى عسفه بالدم . . ولا تقتلن رجلا تعرف قدره وتكون قد جودت معه الكتابة (يعنى فى المدرسة بطبيعة الحال) .

أما التخلق بالوداعة التي طالما وُصي بها , بتاح حتب ، فقد أفاض في الحض عليها ذلك المسن حكيم , أهناسية ، إذ يقول مستحلفا ابنه : , لا تكونن فظا ، لأن الشفقة محبوبة ، وليكن أكبر أثر لك محبة الناس لك . . . وسيحمد الناس الله على مكافأتك لهم مقدمين الشكر على عطفك وطالبين لك العافية في صلواتهم ، .

وقد ذكرنا فيما مر أن وبتاح حتب ، كان كثير الاهتمام بالمستقبل فى هذه الحياة ، هذه الدنيا بسبب تقلبات الحظ التى تحف بمركز الإنسان فى هذه الحياة ، والملك فى تلك الوثيقة ينصح ابنه و مريكارع ، بأن يفكر فى المستقبل فى الحياة الآخرة ، فيقول له فى ذلك : وإنك تعلم أن محكمة القضاة الذين يحاسبون المذنب لا يرحمون الشتى يوم مقاضاته ولا ساعة تنفيذ القانون . . . ولا تتحدث عن طول العمر لأنهم (يعنى القضاة) ينظرون إلى مدة الحياة فولا تتحدث عن طول العمر لأنهم (يعنى القضاة) ينظرون إلى مدة الحياة فولا تتحدث عن طول العمر لأنهم (يعنى القضاة) ينظرون إلى مدة الحياة

كأنها ساعة ، فإن الإنسان يبعث ثانية بعد الموت و توضع أعماله بجانبه كالجبال . إن الخلود مثواه هناك (يعنى فى الآخرة) والغبى من لا يكترث لذلك ، أما الإنسان الذى يصل إلى الآخرة دون أن ير تكب خطيئة فإنه سشوى هناك ويمشى مرحا مثل الارباب الخالدين (يعنى الابرار المتوفين) » .

ويرى ذلك الملك المسن أن الحياة الصالحة فوق الأرض هي العباد الأعظم الذي ترتكز عليه الحياة الآخرة ، إذ يقول في ذلك : • إن الروح تذهب إلى المدكان الذي تعرفه ولا تحيد في سيرها عن طريق أمسها ، • ولا شك أنه يقصد بذلك طريقها المعتاد للخلق القيم الكريم ، على أن القبر كان في نظره في الوقت نفسه من الأشياء الهامة ، حيث يقول : • زين مثواك (يعني قبرك) الذي في الغرب ، وجمل مكانك في الجبانة بصفتك رجلا مستقيما مقيما للعدالة (يعني ماعت) لأن ذلك هو الشيء الذي تركن إليه قلوب أهل الاستقامة ، .

ولما كان أهم أمر في حياة الإنسان هو علاقته بربه ، سواء أكان ذلك في هذا العالم أم في الحياة الآخرة ، فإنه يقول في ذلك أيضا : « يمر الجيل إثر الجيل الآخر بين الناس والله العليم بالآخلاق ، قد أخني نفسه . . . • وهو الذي لا يعبأ بما تراه الآغين ، فاجعل الإله 'يخدم بالصورة التي سوى فيها سواء أكانت من الاحجار الكريمة أم من النحاس ، كالماء الذي يحل محله الماء ، إذ لا يوجد مجرى ماء يرضى لنفسه أن يبق مختفياً بل يكتسح السد الذي مخفيه ، .

وهذا التصريح الهام الذي جاء على لسان رجل من رجال الفكر في مصر منذ أكثر من أربعة آلاف سنة مضت ليس إلا محاولة منه للتمييز بين الإله وبين صنم المعبد النقليدي الذي كان يظهر في احتفالات المعبد وتهتف له الجماهير. ولكن كينو نة الإله كما قال كالماء الذي يكتسح السد أمامه ، لا يمكن أن تبق محبوسة في الصورة المحسوسة ، وهو الشيء الذي عبر عنه بأنه « لا يعبأ ما تراه العيون ، ، على حين أن الإله الحني العليم بالاخلاق قد أخني نفسه فلا يمكن إدراكه كجسم من الماء يمتزج في جسم آخر مثله من الماء على أنه من

الصعب جدا أن يدرك الإنسان معنى أمثال هذه التشبيهات وبخاصة في لغة فقيرة جدا في التعابير المعنوية.

ولكن من الواضح أن لدينا فى تلك البردية سلسلة أفكار عن إله الشمس نجد فيها المفكر المصرى القديم يقترب من عقيدة التوحيد (۱) . إذ نجد أنه يعترف بوجود طائفة من الآلهة يقومون مقام القضاة فى عالم الآخرة ، وبذلك ينتعد بعدا واضحا عن الاعتراف بوحدانية الإله ، ولكنه من جهة أخرى كان يقترب جدا من الاعتراف بالنسلط الخلق لإله واحد لدرجة أن كلمة إله صارت تدل فى بعض المواضع – مع شى، من التناقض – على مدلو لها الحقيق ونلاحظ زيادة الإمعان فى صوغ هذه التأملات بصيغة التوحيد فى الصورة الآنية التى صور فيها الحكيم الأهناسي الخالق الحاكم الروف ، فى خاتمة تأملاته ، إذ يقول : « إن الله قد عنى عناية حسنة برعيته ، فقد خلق السهاوات تأملاته ، إذ يقول : « إن الله قد عنى عناية حسنة برعيته ، فقد خلق السهاوات والارض و فق رغبتهم وأطفأ الظمأ بالماء وخلق لمم الهواء حتى تحيا به أنو فهم ، وخلق النبات والماشية والطير والسمك غذاء لهم ، وقد ذبح أعداء وعاقب وخلق النبات والماشية والطير والسمك غذاء لهم ، وقد ذبح أعداء وعاقب في النبات والماشية والطير والسمك غذاء لهم ، وقد ذبح أعداء وعاقب في السماء ليراهم ، كذلك أحاطهم بسياج من حمايته ، وهو يسمعهم عندما يكون ، وجعل لهم حكاما وه فى الارحام ليحمو اظهر الضعفاء منهم » .

والإشارة هنا إلى أن الإله ذبح أعداءه تنويه بأسطورة إله الشمس وعهد حكمه على الارض بصفته فرعونا عليها. وذلك عندما تآمرت رعيته عليه فإنه

⁽١) كان أول من أشار إلى هذه الحقيقة هو الأستاذ « جاردنر » فى ترجمته الجريئة لـكل هذه الوثيقة . وأنى أميل إلى الظن بأن المعنى النام لهذه الفقرة المدهشة التى ذكر ناها هنا لم يتمكن أحد منا من فهمها فهما ناما .

وإنى أظن أن المؤلف يقصد من عبارته كالماء الذى يحل مجله الماء الخ ، أن الإله الذى شبه بالماء إذا حل فى أى جسم كان سواء أكان من النحاس أو أية مادة أخرى فإنه لابد أن يجد لنفسه منفذا ليخرج منه ويظهر قوة ، فإذن يصير تصوير الإله فى أى شكل مادى ليس بالأمر المهم . (المعرب)

اضطر أن يوقع بهم الهلاك . فنجد في تلك الإسطورة ناحية خلقية تدل على حرمان الإنسان من العطف الإلهي. وكذلك نتعرف فيها تعرفا تاما سيادة إله الشمس الخلقية ، ومن الواضح أن ذهن الملك الإهناسي المسن اتجه إلى محاولة الموازنة بين فكرته السامية للحاجات الخلقية وبين التقاليد الموروثة الخاصة بقيمة الوسائل المادية ، ولذلك يقول لابنه : « أقم آثارا باقية للإله لأنها تجعل اسم صانعها يبقى ، ودع المرء يعمل ما فيه صلاح روحه بتأدية الطهر الشهرى وبأخذ النعلين الأبيضين وزيارة المعبد ، وإماطة اللثام عن الرموز الدينية ، والدخول فى قدس الأقداس، وأكل الخبز فى المعبد، وضاعف القربان، وأكثر من عدد الرغفان ، وزد فىالقربان الدائم ، لأن فى ذلك خيراً لفاعله ، واجعل آثارك فيه حسب ثروتك، لأن يوما(١) واحدا قد يبقى أثره إلى الآبد، ورب ساعة واحدة تنفع للمستقبل، والله عليم بكل من يقوم له بأية خدمة » . على أن محاولة الموازنة بين المادية والحاجات الأخلاقية ظاهرة في التصريح القيم الذي اقتدسناه فيما سبق عندما قال الملك المسن لابنه: « إن فضيلة الرجل المستقيم أحب عند الله من ثور الظالم . ومغ ذلك قرب القربان للإله ، ـــ ليكافئك بالمثل — ، ولتحفل به مائدة القربان وكذلك بالنقوش ، لأن ذلك هو ما يخلد اسمك، والله يعلم من يقرب له القربان. .

فنجد هنا اعترافا صريحا بقيمة الحياة الصالحة فى نظر الإله ، وهو الذى لا يقبل أن تقوم الهدايا عنده مقام الآخلاق . وهذا الإعتراف يفوق بمراحل كثيرة أعظم المثل العليا فى عصر الآهرام . وبالرغم من ذلك فإن تقاليد الأجداد فيها يتعلق بقيمة الوسائل المادية ، سواء أكان ذلك فى العهارة أم فى تقديم القربان ، كانت لا تزال تجد قبولا عند ذلك الملك المسن . وبتصريحه هذا قد استخلص الملك نتيجة من ذلك _ قد تكون بغير قصد منه _ لا يمكن أن تترك هكذا معلقة ودون أن يفصل فيها . فكان كر القرون يثبت بدون هو ادة بطلان الاعتماد على العوامل المادية البحتة للحصول على يثبت بدون هو ادة بطلان الاعتماد على العوامل المادية البحتة للحصول على

⁽١) أى عمل يوم واحد .

النعيم الأخروى لروح الإنسان ، كما كان سير الزمان ينحسر بلاشفقة عن انهيار العقيدة المادية ، وكذلك بدأت الظلال القائمة التى تنم عن أقدم صورة لعدم الانخداع بالأوهام تخيم على سماء مصر .

على أن حكمة ذلك الحكيم الأهناسي المتوج لم تفقد تأثيرها بعد انقراض أسرته بزمن طويل . وقد رأينا صداها في ترجمة حياة أحد الأشراف كتبها لنفسه على شاهد قبره في عهد الأسرة الحادية عشرة ، إذ يقول : « لقد سمعت أفواه الناس تنطق بتلك الحكمة التي توجد في أفواه العظاء : إن فضيلة الرجل هي أثره الباقي ولكن الرجل صاحب السمعة الرديئة يصير نسيا منسيا ، والواقع أننا بعد انقضاء بضعة قرون على ذلك نجد ذكريات لعظات ذلك الملك الأهناسي وردت بعبارة واحدة تقريبا في نقش كل من مقبرتي شريفين نقشا عليهما تاريخ حياتهما وكانا يعيشان في عهد الملك « سنوسرت الأول » أي بعد سنة تاريخ حياتهما وكانا يعيشان في عهد الملك « سنوسرت الأول » أي بعد سنة رأى الفخر كل الفخر في أن يقول : « إنه كان إنساناً يفصل بين المتخاصين دون محاباة ، لأني كنت ثريا وما أكرهه هو الكذب ، وكنت متزن العقل من غير ممل » .

وأما ترجمة حياة الثانى فإنها منقوشة على لوحة جميلة من الحجر الجيرى الأبيض محفوظة الآن بمتحف المترو بوليتان للفن ، وصاحبها هو الشريف «منتووسر» يقول فيها : «لقد كنت امرأ يستمع للقضايا حسب الحقائق دون إظهار محاباة لمن يحمل الهدية (يعنى الرشوة) لأنى كنت صاحب ثراء أرفل فى بحبوحة النعيم ».

Griffith, Proceedings of the Society of the Biblical (1) Archaelogy, XVIII (1896), 195 ff Plate II, 15 — 16; & Gunn, journal of Egyptian archaeology, XII (1926). P. 282.

⁽ ٢) كان أول من وجد رابطة بين هذين الاقتباسين وبين التعاليم الموجهة إلى « مريكارع » هو الأستاذ « كيس » ،

H. Kees, A. Z., Vol., 63 (1928), P. 76 - 78.

ونجد هنا حالة يكاد يحاول بها الإنسان أن يعتبر الثراء عونا على معاملة الناس بالحق في تصريف العدالة . على أن بطلان الاعتباد على العوامل المادية كان قد أخذ فى الظهور للعيان بازدياد مطرد بعد انتهاء عصر الاتحاد الثاني. فإن ارتكان الملوك العظام الذين حكموا في عهد الأهرام على مثل هذه الوسائل المادية قد جعلهم يكافحون بلاطائل ضد الموت مدة قرون عدة ، وهذا الكفاح قد اخذت آناره المتداعية تدل في كل يوم على خيبة الطرق المادية في أداً. الغرض منها . فقدكان صراع أولئك الجبابرة الذي استمر نحو خسمائة سنة ، يتعثل جليا أمام الاعين في هيئة سور عظيم من الاهرام يمتد نحو ستين ميلا على حافة الصحراء الغربية ، وكأنه خط من الحصون الامامية الصامتة يشرف على حدود الموت . وكان قد انقضى إذ ذاك ما يقرب من ألف سنة على بناءأول . هرم منها ، وكذلك قد انطوت قرون عدة منذ أن طوى رجال العمارة سجلاتهم البردية الحاوية لرسوم آخر هرم منها ، وجمع طوائف العال آلاتهم وانصر فوا الى أوطانهم . كما هجر الكهنة منذ زمن بعيَّد تلك المعابد الفاخرة والأبواب العظيمة الأنيقة التيكانت مقامة على جانب الوادى حينها صاروا ولاعائل يعولهم . فأصبحت تلك الجبانة الهرمية التي يبلغ امتدادها ستين ميلا ثاوية في صمت مقفر مدفونة في الرمال الى عمق كبير ، يغطى نصف حجم مبانيها الخربة بما تحويه من تيجان الاعمدة الملقاة على الأرض والاعمدة المطروحة فوق أديم الغبراء، فهي خرائب مهجورة ، لايرى بينها إلا شبح ابن آوي المنقرض يتسلل بين دمنها ، وكأن رؤية هذا الحيوان المقدس ، لأنوبيس ، إله الموتى العتيق تشير إلى فشل الحماية التي كان يقوم بها آلهة الصحراء الجنازيون القدامي . على أنه حتى في يومنا هذا لا يجد الإنسان منظرا رائعاً مثل منظر جبانات الأهرام المصرية القديمة في أي بقعة من بقاع العالم القديم ، ونحن لا نزال نذكر ما شعرنا به من الاحترام الرهيب الذي تركته تلك الجبانات في نفوسنا عندما زرناها للمرة الاولى . ولكن هلكان ذلك التأثير الذي ألم بنهوسنا يحس به خلفاء بناة الأهرام بعد انقضاء بضعة قرون على تشييدها ؟ وهل

صارت تلك الأهرام من الآثار القديمة فى نظر أولتك الأقوام الذين كانوا يعيشون فى سنة ٢٠٠٠ ق. م . ؟

نعم إن جبانة الأهرام قد تركت أثرا عميقا فى عقول الحكاء المصريين القدامى الذين ظهروا بعد انتهاء عهد الاتحاد الثانى . على أنه إذا كان قد وجد فى نفس عصر الأهرام بعض الفتور فى الاعتقاد بأن الإنسان بالقوة المادية المحضة يمكنه أن يتحكم فى الحلود ، فإن منظر تلك الخرائب الهائلة الآن قد أيقظ هذه الشكوك عند هؤلاء الحسكاء وزاد فيها حتى جعلها شكا علنيا . وهذا التشكيك قد عبر عنه بعد ذلك العهد بزمن قصير فى صورة أدبية ذات تأثير ظاهر .

ولاشك أن ذلك العصر قد بعد كل البعد عن عهد التسليم بالعقائد التقليدية دون معارضة فيها كما ورثت عن الآباء . فإن عقيدة التشكك تعنى تجربة طويلة للعقائد الموروثة وبحثا مستمرا فيهاكان معترفا به حتى ذاك الوقت دون تفكير ، ثم الشعور بالمقدرة الشخصية على الاعتقاد فى الشيء أو إنكاره ، وهى تعد خطوة مميزة إلى الأمام نحو نمو الوعى النفسى والوازع الشخصى .

على أن عقيدة التشكك هذه لا تنمو إلا بين أفراد الشعب الذى له مدنية ناضجة ، ولا تنبت قط فى الأحوال الفطرية . ولذلك فإن ذلك العصر ، البالغ نحو خمسمائة سنة والذى يمثل قمته أولئك المتشككون الذين جاءوا عقب سقوط الاتحاد الثانى ، يعد عصراً هاماً فى تاريخ التقدم العقلى عند البشر . وقد عبر هؤلاء الحكما، عن حالتهم العقلية فى مرثية كانت تغنى غالبا فى نوع من الأعياد (يشبه عيد «كل الأرواح») كان يحتفل به فى الجبانة أهالى الموتى وأقاربهم عند قبور أجدادهم الراحلين .

فلدينا روايتان لهذه الانشودة غير كاملتين : إحداهما مدونة على بردية ، والثانية كانت منقوشة على جدران أحد القبور بطيبة . غير أن النسخة التى دونت على البردية كانت منقولة عن نقوش قبر ، بدليل أن عنوانها هكذا : « الأغنية التي في مثوى «مزار القـبر » الملك « إنتف ، (١) المرحوم وهي المواجهة للصارب على العود » .

وإنه لمن المدهش حقا أن نجد ملكا من ملوك الأسرة الحادية عشرة (أى حوالى سنة ٢١٠٠ ق.م.) يأمر بنقش هذه الانشودة فوق جدار مزار قبره، غير أنه يمكننا أن نستنج من قراءة سطورها أن المغنى عند ماكان ينشد أغنيته كان يقف على مكان مرتفع يشرف منه على جبانة أهرام الدولة القديمة.

وها هي ذه الأنشودة:

« ما أسعد هذا الأمير الطيب (٢) .

إن المقدر الجميل قد وقع .

وتذهب الاجيال من الناس

وتبق أخرى ،

منذ عهد الذين كانوا من قبلنا .

والآلهة الذين وجدوا في غابر الزمان ،

والذين يرقدون في أهرامهم ،

وكذلك الأشراف والمبجلون قد رحلوا

ودفنوا في أهرامهم .

وأولثك الذين بنوا مزارات لقبورهم،

فإن أماكنهم أصبحت كأن لم تكن.

تأمل ماذا جرى فيها .

لقد سمعت أحاديث . أمحتب » و . حَرْدادِف. . .

وهي كلمات لها شهرة عظيمة مثل أقوالهم .

تأمل مساكنهم هنالك ،

فإن جدرانها قد هدمت .

⁽١) هو أحد ماوك الأسرة الحادية عشرة .

⁽٢) يعنى الملك المتوفى الذي كتبت في قبره الأغنية .

وأماكنها قد أصبحت لاوجود لها ، كأنها لم تكن قد وجدت قط . ولم يأت أحد من هنالك ، ليحدثنا كيف حالهم ، ` وليخبرنا عن حظوظهم ، لتطمئن قلو بنا ، إلى أن نرحل نحن أيضاً ، إلى المكان الذي رحلوا إليه . شجع فؤادك على أن ينسى ذلك ، ولتسر باتباع رغبتك ، . وأنت على قيد الحياة . وضع العطور على رأسك . وارتَّد ملابس من الكتان الرقيق، وضمخها بالعطور العجيبة . وهي أشياء الإله الأصيلة . وزدكثيراً في مسراتك ، ولا تجعلن قلبك يبتئس. واتبع ما تشتهى وما يطيب لك. وهيُّ شئونك على الأرض، حسيما يمليه عليك قلبك، إلى أن يأتى يوم مغيبك ، حينها لا يسمع صاحب القلب الساكن نعيهم ، ولا الذي في القبر يصمني للعويل . اغتنم التمتع باليوم السعيد ، ولا تجهدن نفسك فيه .

إصغ الم يأخذ إنسان متاعه معه .

ولم يعد إنسان ثانية بمن رحلوا إلى هنالك . .

هكذا كان شعور بعض المفكرين المصريين عن ذلك العصر العتيد حينها كانوا يشرفون بأعينهم على مقابر أجدادهم ويدركون عدم فائدة جبانات أهرام الدولة القديمة الشاسعة الأرجاء . ونلاحظ هنا أنه حتى بعض أسماء الحكماء الذين عاشوا قبل ذلك العهد بألف سنة مثل . أمحتب ، . وحَرْدادِف ، اللذين صارت أقو الهما مضربا للأمثال، ونالا بذكرهما في الأنشودة تخليدا لذكر اهما أكثر من تخليد الذكر بالقبور الضخمة ، قد جاءت ثانية على لسان ذلك المغنى. ومن الصعب أن نعتقد أن ذكر ﴿ أَحِتْبِ ﴾ وهو أول الآثنين اللذين ورد ذكرهما على لسان المغنى كان من باب المصادفة المحضة ، فإن « أحتب ، كان أول مهندس للعبارة أقام المباني بالاحجار في نطاق واسع. أي أنه أول منشيء للمباني الحجرية. فقد كان ﴿ أَمُحتب * مهندس العمارة للملك ﴿ زُوسُر * ، الذي عاش في القرن الثلاثين ق . م ، المشيد لأقدم مبنى كبير بالحجر لايزال باقيا إلى الآن من آثار العالم القديم وهو الذى يسمى « هرم سقارة المدرج » . ومن المواضيع البارزة الغريبة في هذه الانشودة أن يرجع المغنى بالإشارة إلى مقبرة ذلك المهندس العظيم ويذكر أنها في حالة خراب حتى صارت كأنها لم تغن بالأمس. والواقع أن مكانها لا يزال مجهو لا إلى يومنا هذا . وكذلك نجد أن . حر دادف ، الحكيم الثاني الذي جاء ذكره أيضا في هذه الأنشو دة كان ابن الملك • خو فو ، ، ولهذاً كان له اتصال بالهرم الأكبر. وكون تخليد اسمى هذين الحكيمين أتى فقط عن طريق مداومة ذكرهما والتحدث عن حكمتهما دليل آخر على بطلان تأثير العوامل المادية التي كانت معتبرة وسيلة للخلود والبقاء . كما أن اختفاء أرواح أمثال هذين الرجلين فى عالم آخر لا يُرون فيه ولا يرجع إلى الدنيا منه أحد يحدثنا عن مصيره، يعد من أعظم النغيات المشجية الحرينة التي نراها في سطور تلك الأنشودة العتيقة ، وكأننا نسمع تلك النغمة يتردد صداها ويتجاوب ترجيعها في الشرق (بعد أن انقضي على عهدها ثلاثة آلاف سنة) في بعض مواضع من رباعيات وعمر الخيام، إذ يقول:

• إنه أمر عجيب ! أليس كذلك ؟ حينها نرى أنه من عشرات الآلاف الذين مروا قبلنا بباب الظلمة لم يعد أحد منهم ليخبرنا عن الطريق التي إن أردنا أن نكشف عنها لا بد أن نمر فيها أيضا . .

وهنا ينكشف لنا الغطاء عن عقيدة التشكك التي تشك في جميع الطرق، المادية وغير المادية، التي كان يرى أنها تؤدى إلى السعادة أو أنها على الأقل تؤدى للحياة بعد الموت. ولم يكن لمثل تلك الشكوك من جواب. بل كانت هناك طريقة واحد فقطة يستطيع بها الإنسان إزالتها من ذهنه مؤقتا، وذلك بأن ينغمس في الملاذ الشهوانية التي قد تغطى على أمثال تلك الشكوك وقتا ما ولو بنسيانها: «كل واشرب وكن فرحا لاننا سنموت في الغد ، .

وأما الرواية الثانية التي كتبت بها تلك الأنشودة فإنه قد عثر عليها في قبر كاهن آمون «نفرحتب، في «طيبة ، غير أنها لا تـكاد تماثل الأولى و لا تعادلها في النأثير ، وبما يؤسف عليه أنها بمزقة ولكنها على أية حال تحتوى على بعض أسطر قيمة يجب الالتفات إليها ، منها :

وكيف يرقد هذا الأمير العادل. -

إن المصير الطيب قد نزل به ،

والأجيال من الناس تمو ت

منذ زمن الإله درع،،

ويحل مكانها أجيال أخرى .

إن ورع ، يشرق بنفسه في الصباح المبكر .

ويغرب «آتوم» ليستريح في « مُنُو » (١٠) .

والرجال تلقح والنساء يحملن،

وكل أنف يستنشق الهواء .

والإصباح يأتى ويلدن كثيراً .

⁽١) هذان السطران إنما يعيدان إلى النهن توالى طلوع الممس وغروبها بلا انقطاع . وكلة « منو » معناها جبل الغرب الذي تغيب فيه الشمس .

وهم (المواليد) يأتون فى الأماكن (المخصصة لهم). احتفل باليوم المرح ياأيها الوالد المقدس. وضع أحسن العطور كلها عند أنفك ، وتيجان البشنين على كتفيك وحول نحرك. وأختك (١) التي تسكن في قلبك تجلس إلى جانك. وضع الغناء والموسيقي أمامك، واترك ظهريا كل شيء كريه . ولا تذكر إلا ما يبهج نفسك. إلى أن يأتى يوم الوصول إلى البر (يعني الموت) ، في الأرض التي تحب الصمت. لقد سمعت کل ما حدث لأولئك فبيوتهم قد نهبت ومكانها لا أثر له فكأنها لم تكن بالأمس قط منذ زمن الإله وأولئك السادة أثريد أن تغرس لنفسك شجرا محبويا على شاطىء ىركتك لتجلس روحك تحته ولتشرب من مائها ؟ أشبع رغباتك كلها، وأعط الخبر لمن لاحقل له ،

⁽١) أُخْتُكُ = زوجتك أو حبيبتك.

وبذلك تنال اسما طيبا للمستقبل(١) ويبق إلى الآبد.

ثم تستمر الأغنية فتورد تأملات عن الاغترار بالثراء، وكأن ذلك بمثابة تفسير للسطر الوحيد الذى ورد فى النسخة الأولى مشيرا إلى أنه لا يوجد إنسان فى قدرته أن يأخذ متاعه عند رحيله عن هذه الدار، فالتراء لا فائدة منه، لأن نفس القدر قد دهم:

أولئك الذين كان لهم مخازن غلال ،
 فضلا عماكان لديهم من الخبر للقربان ،
 وكذلك (دهم) من لم يكن لديهم شيء من ذلك ،
 ومن ثم حذر الرجل الغني بما يأتي :
 د اذكر انت اليوم
 حينما تجر" (في الزحافة الجنازية)

إلى أرض ... فاتبع رغباتك كلها

فلا يوجد إنسان يعود ثانية.

فالمغنى الذى يرتل هذه الأنشودة الثانية لا يجد أملا فى التفكير فى الموت ومصيره . غير أنه يرى من الخير أن يترك الإنسان وراءه سمعة حسنة دائمة ، لا لأن ذلك ينفعه حتما فى عالم الآخرة ، بل لكى تبقى ذكراه فى الدنيا على الألسنة وفى أذهان من يأتون بعده . والواقع أن واجب الإنسان من جهة الحياة الخلقية التى فرضها الإله العظيم الذى ستأتى محاسبته للبشر فيما بعد ، وكذلك الفوائد التى يجنيها الفرد من دنيا الأموات ، وهى التى تأتى بطبيعة الحال بنتيجة للقيام بهذا الواجب ، لم يرد لها ذكر فى هذه الأغنية التى تتمثل فيها عقيدة التشكك ، فهى تتجاهل الآلهة بوجه عام ، والإله الواحد الذى تذكره هو إله التشكك ، فهى تتجاهل الآلهة بوجه عام ، والإله الواحد الذى تذكره هو إله

⁽١) فمع أن القبر والخيلة المتصلة به هو تعب لا عُمرة فيه من جهة فإن القيمة الخلقية والشفقة على الفقير وما ينجم عن ذلك من حسن الأحدوثة سيبقى من جهة أخرى .

الشمس ورع ، أو وآتوم ، وهو الذي يظهر حتى في مناسبة ذكر المومية حيث كنا ننتظر في ذلك ذكر الإله و أوزير ، وعلى ذلك يمكن تلخيص تعليم طائفة المتشككين هؤلاء الذين القوا تعاليم آبائهم ظهريا في أنها إشباع الرغبات النفسية وحسن الاحدوثة بعد الموت .

ولا نزاع في أن بداية التفكير الاخلاق يرجع تاريخها إلى عهد المسرحية المنفية ، غير أن المصريين الاقدمين لم يصلوا إلى الاستقلال النفسي الذي مكنهم لأول مرة من تصور المجتمع البشرى في كليته ، حتى صار بذلك في أنظارهم مملكة يمكن تأملها بإنعام وتدبر، إلا بعد عصر تاريخ تلك المسرحية بنحو . . ٥٠ سنة ق. م . أي في العهد الإقطاعي وبخاصة بعد سنة ٢٠٠٠ ق. م . . وقد كانت نتيجة مثل هذا التأمل عند بعض الناس أنهم وقعوا في حالة تشاؤم فظيع. ألم تمكن أخلاق المجتمع قد بلغت من الظلم درجة أصبحت معها الرغبة في ﴿ السَّمَّةُ الْحَسَّنَةِ ۚ أَقُلَ مَا تَصُورُهُ مَغَنِّي أَنْشُودَةُ الصَّارِبِ عَلَى الْعُودُ ؟ وماذا يجنى الإنسان من ذلك لو أن سمعته الحسنة ضاعت ظلما من غير جرم جناه ، أو لو أن فرص تمتعه بالملاذ قد قطعت بالمرض أوسو. الحظ ؟ والحقيقة أن هذا الموقف بذاته هو الذي مثل أمامنا في ورقة محفوظة الآن بمتحف يراين ، ريما كانت أهم وثيقة وصلت إلينا من ذلك العهد السحيق. ويمكننا أن نسميها دمجاورة بين إنسان يائس ستم الحياة وبين روحه ، ، لأن عنوانها القديم مفقود. وموضوع هذه المحاورة العام هو اليأس المستحكم الذي نتج من مثل الحالة السالفة الذكُّر ، فأفضى الشعور به إلى أن الموت هو الخلاص الوحيد من الحياة . وغنى عن البيان أن اختيار مثل هذا الموضوع فى مثل ذلك العهد السحيق هو أمر من أعجب الأمور . إذ هو في الواقع موضوع يصف الحالة العقلية والتجارب الباطنة لنفس معذبة تتألم بما حاق بها من الظلم وسوء الطالع ، وبذلك يعد هذا الموضوع أقدم قطعة أدبية تناول موضوعها الخبرة الروحية ، وهي في نظرنا تعد أقدم مقال يمثل لنا صورة بما ورد في سفر نبي الله «أيوب» عليه السلام، وقدكتب المقال طبعا قبل أن تظهر التجربة المهاثلة الحاوية لمثل هذا الشعور في شعر مماثل بين العبرانيين بنحو ألف وخمسهائة سنة .

ومن المؤسف أن المقدمة التي تقص علينا الآحوال التي دعت إلى ذلك الاضطراب الروحاني قد فقدت . ومع أنه بذلك تنقصنا مقدمة الكتاب فإن بعض الحقائق التي كانت تحتويها تلك المقدمة حتما ، وتضع أمامنا الآسباب التي أدت إلى تلك المحاورات التي يقدمها ذلك الكتاب ، يمكن استنباطها من تلك المحاورات ذاتها . والبائس الذي نحن بصدده (لآننا لم نعرف له اسماً) كان رجلا لطيف الروح ، ولكنه بالرغم من ذلك قد دهمه الحظ العائر من كل ناحية . فما كاد يصيبه المرض حتى ابتعد عنه أصدقاؤه حتى إخو ته الذين كان من الواجب عليهم القيام بمواساته في مرضه ، وبالجملة لم يحد خلا وفيا ، وفي وسط تلك عليهم القيام بمواساته في مرضه ، وبالجملة لم يحد خلا وفيا ، وفي وسط تلك المصائب سرق جيرانه متاعه أيضا . وما عمله من صالح بالأمس قد نسى . وبالرغم من أنه كان صاحب حكمة فإنه كان يصد كلما أراد أن يدافع عن حقه . وقد حكم عليه ظلما، واسمه الذي كان يجبأن يكون محل احترام صار نتماً في أنوف الناس .

والجزء من الوثيقة الباقى الذى وصل إلينا يبدأ بذلك الوقت العصيب عندما كان يضرب فى ظلمات اليأس وصمم على الانتحار ، فتراه وهو واقف على حافة القبر وروحه فزعة من الظلمة تأبى عليه اتباعه فى فعلته . ويلى ذلك محاورة طويلة نرى منها أن ذلك التعسكان يناقش نفسه ، أى يتحدث مع شخص جرده من روحه كأنه يتحدث مع ذات أخرى . وقد كان أول الأسباب فى عصيان روحه له وامتناعها عن متابعته إلى الحياة الآخرة خوفها ألا تجد قبراً تقر فيه بعد الموت .

وقد يظهر ذلك غريبا جداً لأول وهلة من رجل اتضح أنه يشك كثيراً فى فائدة مثل تلك المعدات المادية التى كانت تعد المتوفى عند ترحيله إلى آخرته. ولكننا لانلبث أن نكشف عن سر ذلك على الفور ، فنرى أن هذه كانت حيلة أدبية (كغيرها مما سيأتى ذكره فيما بعد) أراد الكاتب أن يتخذ منها فرصة للتنديد بتلك المعدات الجنازية .

والظاهر أن روحه نفسها قد اقترحت عليه فىأول الأمر الانتحار حرقا ، ولكنها فرت بنفسها من تلك النهاية الفظيعة . ولما لم يكن — من بين الأحياء — صديق أو قريب حيم لتلك النفس يقف بجانب التابوت ويحتفلي بجنازته ، أخذ يستحلف روحه أن تقوم له بكل ذلك . ولكن الروح أبت عليه الموت في أى شكل كان . ثم أخذت تصف له فظائع القبر : ثم «فتحت روحى فها وأجابت عماقلته : « إذا تذكرت الدفن فإنه محزن وذكر اه تثير الدمع و تفعم القلب حزنا ، فهو ينتزع الرجل من بيته ويلتى به على الجبل (أى الجبانة) ولن تصعد قط ثانية لترى الشمس . على أن هؤلاء الذين بنوا بالجرانيت الأحمر المبنى الجميل وشيدوا قبورهم فى الأهرام وصاروا مثل الآلهة ترى هناك مو ائد قربانهم خاوية كمو ائد أو لئك المتعبين الذين موتون فوق الجسر من غير خلف لهم فيبتلع الفيضان ناحية من أجسامهم ، وتلفحهم حرارة الشمس أيضا ، ويلتهمهم سمك شاطىء النهر ويعبث بهم . أصغ إلى ا وإنه لجدير بالناس أن يصغوا ، تمتع بيوم السرور وانس الهموم ، .

هذا إذنَ هو جواب الروح عندما تمثل أمامها منظر الموت المعتاد. وقد أكد ذلك البائس أن: منكان في هرمه ، ومن وقف أحد الأحياء بجوار سرير موته ، يكون سعيداً » . وقد سعى أن تقوم روحه « بدفنه وبتقديم القرابين له وتقف عند ألقبر يوم الدفن لتجهز السرير في الجبانة » .

ولكن كان مشله مثل ضارب العود فى الأنشودة السالفة الذكر ، إذ تذكرت روحه قبور العظهاء التي خربت ، وموائد قربانهم التي صارت خاوية مثل موائد العبيد التعساء الذين ماتوا كالذباب فى وسط الأعمال العامة على جسور الرى وقد صارت أجسامهم عرضة للحر اللافح والسمك الملتهم ، فى انتظار الدفن . فلم يكن هنالك إلا حل واحد للتخلص من كل ذلك وهو : « أن يعيش الإنسان ناسيا حزنه منغمسا إلى آذانه فى السرور » .

ويلاحظ أنه إلى هنا لم تختلف هذه المحاورة التى تنحصركل فلسفتها فى أن « يأكل الإنسان ويشرب ، ويكون مرحاً لأنه سيموت فى غده ، عما جاء فى أغنية الضارب على العود . ولكننا بعد ذلك نجدها تأخذ فى الخروج والافتراق عن زميلتها بنتيجة خطيرة تجاوزت بها حد تلك الأنشودة بكثير ، إذ أخذت تبين أن الحياة فوق أنها ليست فرصة للسرور والإسراف في اللذات ، فهي عبه أثقل حملا من الموت . وقد وضح ذلك في أربع مقطوعات شعرية خاطب بها ذلك التعس روحه . وتلك المقطوعات تؤلف المجزء الثاني من تلك الوثيقة ، ولحسن الحظ نجدها أوضح كثيرا من الجزء الثاني من تلك الوثيقة ، ولحسن الحظ نجدها أوضح كثيرا من الجزء الأول. والمقطوعة الأولى تصف لنا مقت العالم بغير حق لاسم ذلك التعس، ويكون كل ثلاثة أبيات منها مقطوعة تبتدئ بالمقطع التالى: وإن اسمى ممقوت». في حياة الشعب المصرى اليومية ومخاصة رائحة السمك والطير النتنة السارحة في حياة الشعب المصرى اليومية ومخاصة رائحة السمك والطير النتنة السارحة في حياة سكان وادى النيل. وهاك ذكر ذلك:

مقت اسمه ظلما:

انظر إن اسمى مقوت ، أكثر من رائحة الطير في أيام الصيف عندما تكون السماء حارة .

انظر إن اسمى مقوت أكثر من مقت مصايد السمك في يوم صيد تكون السماء فيه حارة.

انظر إن اسمى ممقوت أكثر من رائحة الطيور فوق تل الصفصاف المملوء بالأوز انظر إن اسمى ممقوت أكثر من رائحة الصيادين على شواطىء المستنقعات بعد الصد.

ثم يتلو ذلك ست مقطوعات بنفس الأسلوب. ومع أن ذلك الشعر مركز على و تيرة واحدة لحقيقة أن اسم ذلك الرجل التعس قد صار نتنا فى أنوف أصدقائه، فإننا نجده فى الشعر الثانى يترك ذكر نفسه ليصور لنا أولئك الذين كانوا سببا فى بؤسه . فنراه يلتى نظرة على مجتمع أهل عصره فلا يجد فيه إلا الفساد والخيانة والظلم وعدم الإخلاص، حتى بين أهل أسرته .

وهذا الشعر أيضا اتهام رهيب ، وكان يستهل كل مقطوعة داتمــا بجملة استفهامية يتردد فيها قوله : « لمن أتكلم اليوم ؟ » .

ور بماكان يقصد بذلك ، أى صنف من الناس هؤ لاء الذين أخاطبهم؟ وقدكان و البير الذي يعقب كل استفهام برهانا جديدا القاصده ، وهال ماقاله في ذلك : هجر الضميد

فساد الناس:

لمن أتكلم اليوم؟ الإخوة سوء، وأصدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب. لمن أتكلم اليوم؟ القلوب تميل إلى اللصوصية، فكل إنسان يغتصب

متاع جاره . ٔ

لمن أتكلم اليوم ؟ فالرجل المهــــذب يهلك والصفيق الوجه يذهب في كل مكان .

لمن أتكلم اليوم ؟ فإن سمح الوجه قد صار بائسا وصار الخيّر لا يحفل به في أي مكان .

لمن أتكلم اليوم ؟ فإن الذي كان ُيظن أنه يثير الغضب بأخلاقه الشريرة ، يسر منه الناس جميعا رغم أن خطيئته فظيعة .

لمان أتكلم اليوم؟ فإن الناس يسرقون، وكل إنسان يغتصب متاع جاره. لمن أتكلم اليوم؟ فإن الحائن صار أمينا، ولكن الآخ الذي يأتى بها (يعنى الأمانة) يصير عدوا.

) لمن أتكلم اليوم ؟ لا يوجد رجل عادل .

﴿ وَقَدْ تَرَكَتُ الْأَرْضُ لَأُولَئُكُ الَّذِينَ يَرْتَكُبُونَ الظَّلَمِ ﴾ .

لقد تنحت روح ذلك المتألم عن الموت ، ثم أخذت تقترح عليه أن يعيش عيشة اللهو والملاذ كطريق للخلاص مثل الذى جاء فى أنشودة الصارب على العود . ولما أحس ذلك التعس من أعماق قلبه بفظاعة الموت وأخذ يفهم عدم فائدة العتاد المادى المحض لدفع غائلة الموت ، نكص على عقبيه مدة قصيرة ثم عاد يتأمل الحياة . والقصيدتان اللئان دوناهما هنا تصوران لنا ماذا رأى عندما رجع لبحث الحياة . أما مايلي فهو وثبة منطقية ، بعد العلم بأنه ليس هناك أى بصيص من الأمل فى الحياة ، إلى الاقتناع التام بأن الموت هو الخلاص الوحيد من ذلك البؤس الذى انغمر فيه .

فالقصيدة الثالثة إذن أنشودة قصيرة فى مدح الموت ، غير أنها ليست بحثا ساميا فى مزايا الموت مثل الذى نطق به ، أفلاطون ، بعد ١٥٠٠ سنة فى قصة موت وسقر اط ، كما أنه لا يكن مقارنتها بالتشاؤم الفلسني السامى الذى نراه في سفر ابتلاء وأيوب ، النبي (صلوات الله عليه) . ولكنها تعد أقدم صيغة وصلت إلينا عبر بها الفرد عما أصابه من العذاب ظلما ، وأول صرخة من متألم برى، وصل إلينا صداها من عصور ذلك العالم القديم ، وهي تعد بحق ذات فائدة فريدة ولا تخلو من جمال بما احتوته من حرارة نفسية خلابة .

وبما يلفت النظر أنها لا تحتوى على أية فكرة عن الإله بل تتناول فقط موضوع التخلص السار من آلام الماضى التى لا تحتمل ، دون أن تتطلع للمستقبل . وقدكان من خصائص العصر والجو الذي نظمت فيه تلك القصيدة أن يصور ذلك الخلاص السار في شكل صور محسوسه مأخوذة من الحياة اليومية لسكان وادى النيل الاقدمين . وهاك ما قاله في ذلك :

الموت خلاص سار:

« إن الموت أمامى اليوم ، كالمريض الذي أشرف على الشفاء ، وكالذهاب إلى حديقة بعد المرض .

إن الموت أماى اليوم ، كرائحة بخور المر ، أو كالجلوس تحت الشراع في يوم شديد الربح.

إن الموت أماى اليوم ، كرائحة زهرة السوسن ، أو كجلوس الإنسان على شاطىء السكر .

إن الموت أمامى اليوم ، مثل مجرى الماء العذب 1 ، ومثل عودة الرجل من سفينة حربية إلى داره .

إن الموت أمامى اليوم ،كسماء صافية ، ومثل رجل يصطاد طيور الايعر فها . إن الموت أمامى اليوم ،كثل رجل يتوق لرؤية منزله ، بعد أن أمضى سنين عدة فى الأسر » :

وبالرغم من أن تلك الصور مأخوذة من الحياة فى عالم متوغل فى القدم ، ومعظمها يكاد يكون غير مألوف لنا ، فإنها لم تفقد كل تأثيرها فى أنفسنا ، إذ تجد فيها الحياة مشبهة بمرض طويل نشغى منه بالموت ، مثلها يدخل الناقه حديقة جميلة ، وأن الموت مثل عبير المر يحمله ريح النيل العذب بينها المسافر يحلس تحت الشراع الذى يزجيه الريح ، وأن الموت مثل أوبة المحارب المنهوك القوى الذى كان يسير في المياه البعيدة ثم يقترب من وطنه ، أو مثل السرور الذى يحدث في نفس الآسير العائد من المنفي النائي إلى الوطن السعيد . فتلك الصور لها تأثير شامل يؤثر في نفس كل إنسان في أي عصر وفي أي جو (١).

وموضوع المنظومة الرابعة هو النظرة العاجلة إلى المستقبل النهائى ، الذى لم تتعرض لذكره الأنشودة السابقة قط . فإننا نجد فى كل من مقاطعها الثلاثة أنه يبتدى بقوله : • إن الذى هنالك » وهو تعبير عادى ، وبحاصة إذا ورد بصيغة الجع . • إن الذى هنالك » يقصد به الاموات ، وقد سبق أن رأيناه فى النصيحة الموجهة إلى « مريكارع » . فن ذلك • أن الذى هنالك » سيكون نفسه إلها « ويوقع عقاب الشر على مرتكبه ، لا على البرى وكا هو الحال فى حياة ذلك التعس الذى نحن الآن بصدده . ومن ذلك أيضا • أن الذى هنالك ينزل فى السفينة السهاوية مع إله الشمش وسيرى أن أحسن القرابين تقدم لمعابد الألهة ولا تصرف (عبثا) فى الرشوة أو يسلم السراق من الموظفين » ومنه أيضا : « إن الذى هنالك » هو حكيم . محترم لا يطرد عندما يشكو إلى الموظفين الفاسدين بل يوجه شكايته الى إله الشمس « رع » و مهى اله تلك الفرصة وجوده يوميا مع الإله .

وقد سبق أن أعلن ذلك التعس في بداية شجاره مع روحه أنه مقنع بتبرئته في عالم الآخرة ، ثم كمو يعود مرة ثانية إلى ذكر ذلك الاقتناع في المنظومة

⁽١) أن تشبيهين من هذه التشبيهات غامضان: « فمحرى النهر الصغير » محتمل أن يكون إشارة إلى مجرى الماء الجاف الذى تشبهت به الحياة. وامتلاء هذا المجرى فجأة عياه الفيضان هو الانعاش الذى يرحب به وهو ما شبه به الموت. أما التمبير برجل يصطاد طيورا لا يعرفها ، فيحتمل أنه يشير إلى اقتراب الصائد من أقاليم غير مألوفة له . وأما التعبير « بالقعود على شاطىء السكر » فإن ذلك يمثل صورة اللذات المهيمية في حانة على جسر طريق عمومى أطلق عليه هنا كلة شاطىء .

الرابعة التي هي خاتمة تلك الوثيقة المهمة . وبذلك تكون قد اختتمت بحل كالحلول التي تصورها نبيالله « أيوب » (عليه السلام) أي الالتجاء إلى العدالة في الحياة الآخرة (ولوأن « أيوب » عليه السلام لم يتخذ من ذلك مبررا لطلب الموت) . وبذلك يكون الموت طريقا إلى الدخول في قاعة المحاكمة الإلهية . ولذلك وجب السعى إلى بلوغ تلك النهاية سعيا سريعا . فيقول : الميزات السامية للقاطنين هنالك : (يعني في الآخرة)

« إن الذي هنالك ، سيقبض على المجرم كإله حي ، ويوقع عقاب السوء على من اقترفه .

إن الذي هنالك ، سيقف في سفينة الشمس ، ويجعل أحسن القرابين هنالك تقدم للمعابد.

إن الذى هنالك ، سيكون رجلا عاقلا غير منبوذ ، مصليا « لرع » حينها يتكلم . ،

ولما كأن هذا التعس يتوق للخلاص السار الذى يهيئه له الموت ، وكان يظهر عليه أنه قد استعاد بعض الثقة بما سينعم به من الميزات السامية فى عالم الآخرة ، فإننا نرى روحه تستسلم فى النهاية ، فيدخل فى ظلال الموت ويسير فى طريقه ليكون مع « أولئك الذين هنالك ، .

على أننا نحن بدورنا نرقب بشىء من التأثر هذا الرجل المجهول (الذى يعد أقدم روح بشرية معروفة لنا) يذهب إلى تلك الحجرات الداخلية التى سمحت لنا الآحوال بأن نلقى عليها نظرة سريعة ، بعد أن مر عليها أربعة آلاف من السنين .

وكان رجال ذلك العهد الإقطاعي يحدون لذة عظيمة في مثل تلك المؤلفات الأدبية . وقد قام بنقل هذه الورقة التي نحن بصددها ، المحفوظة في برلين ، كاتب لا تزال ملاحظته الحتامية ظاهرة تقرأ بوضوح في نهاية تلك الوثيقة ، وهي : « لقد انتهيت من نسخها من البداية إلى النهاية طبق الأصل المكتوب ، : فيكون قد نقلها إذن من أصل قديم ، ولا شك أنه كانت توجد عدة صور منقولة مثلها على رفوف مكتبات رجال الفكر في ذلك العصر .

وإن قصة ذلك التعس ترجع فى أصلها إلى التجاريب الشخصية التى كان يعانيها فعلا رجال ذلك الزمان ، ولذلك كانوا يجدون فائدة من مطالعتها لأنها فى الواقع علامة واضحة فى نمو الشعور الذاتى الطويل المدى ، وهو القطور البطى، الذى انتهى بظهور الفرد باعتباره قوة خلقية فصار الفرد يشعر بأن له ضميرا مسيطرا يستطبع بإيحائه أن يواجه المجتمع وينتقده .

وذلك الموقف الذي يقفه الرجال الشاعرون بالمسئولية الخلقية العظيمة معروف لنا نحن أهل هذا العالم الحديث من الأمثلة التاريخية العديدة، مثل الإنبياء العبرانيين وعيسى ومحمد (صلوات الله عليهم أجمعين) وعدد عظيم أيضا من الأنبياء الأوروبيين من وسفو نارولا ه(١) إلى «جون ويزلى ه(٢) غير أن تجاريب البشر لغاية عصر الإقطاع المذكور (أى منذ ٠٠٠٤ سنة مضت إلى الآن) لم تكن قد انتجت لنا حتى ذلك الوقت شبيها لرجل من هؤلاء، فكان ظهور أشباههم في وادى النيل في ذلك الوقت يعد حادثا هاما من الحوادث التاريخية الخطيرة الشأن كما يعد دليلا قاطعا على ظهور ميدان جديد للفكر الإنساني، والمسئولية الإنسانية. ولنستعرض الآن ذلك بشيء من التفصيل فبالرغم من أن قصة ذلك التعس هي قصة تجربة شخصية لفرد واحد فإنها مع ذلك تحمل في ثناياها ما يصح أن يكون تحليلا لأحوال ذلك المجتمع ، الذي مع ذلك تحمل في ثناياها ما يصح أن يكون تحليلا لأحوال ذلك المجتمع ، الذي موجع إلى نقائصه بوجه عام تلك التجربة الفردية التي مرت بها حياة ذلك التعس ترجع إلى نقائصه بوجه عام تلك التجربة الفردية التي مرت بها حياة ذلك التعس

وفى نصائح « بتاح حتب » ، وفى خلال عصر الدولة القديمة كله ، وحتى إلى عصر النصيحة الموجهة إلى « مريكارع »، كان المفكرون المصريون الاجتماعيون

⁽١) «سفونا رولا جيرولامو » هو راهب من أهالى فاورنسا عاش في نهاية القرن الخامس عشر م . وقد كان مصلحا قويا دعا جميع الناس أن يتوبوا من خطاياهم وقد تغالى في إصلاحه حتى أنه أنب البابا نفسه على سوء أعماله . وكان له أعداء كشيرون منهم البابا الاسكندر السادس . وقد اتهم بالإلحاد وحكم عليه بالشنق ، ثم حرق جسمه فها بعد .

⁽۲) « جون ویزلی » John Wesely ولد عام ۱۷۰۳ ومات عام ۱۷۹۱ وهو مصلح دینی شهیر وقد أسس طائفة الوزلیة وهی مشهورة بآرائها الضیقة المتعصة .

يجدون سرورا عظيما فى البحث فى المثل العليا للخلق العظيم برزانة وتدبر ، وقد أدى بهم ذلك إلى تصورات سامية ونبيلة حقا. غير أنهم لم يوجهوا فكرهم إلى موازنة تلك النصورات السامية بالمستوى الخلق المنحط الذى كان يعيش به المجتمع البشرى بالفعل .

وفى النصيحة الموجهة إلى «مريكارع» نجد ذم «ثور الذى يقترف الظلم»، كا نجد بعض الشعور بأن خطايا الإنسان تكدست بجانبه يوم الحساب مئل الجبال، ولكننا بجانب ذلك لانجد شعورا بانحطاط المجتمع الحلقي. وها نحن الآن نقترب من الدخول فى عصر صار فيه الحكماء المصريون على علم بالفرق الشاسع بين المثل العليا الموروثة للأخلاق العظيمة وبين الانحطاط الحلق المخيف الظاهر فى المجتمع الذى يحيط بهم. وليس هناك من جديد فى تجاربنا المشابهة لذلك فى العصر الحاضر، ولكن فى تجربة التعس المنكود دار البحث أوكاد يقصر على شخص الكاتب، ومن ناحية أخرى نجد اهتماما عظما بأمر الانحطاط الخلق قد أخذ يبدو، مضافا إليه قدرة الباحث على تأمل وإدراك ماكان عليه الناس من حقارة ومهانة، يتضح ذلك من موضوع تناول الأفكار المجزنة المشبعة بروح النشاؤم عن ذلك العصر العظيم، عصر الوعى النفسى النامى وأول عصر كشفت فيه الأوهام من المجتمع.

وقد عبر لنا عن تأملاته المحزنة عن المجتمع كاهن من كهنة عين شمس يدعى وقد عبر رّع سُذِب ، كان يعيش فى ذلك العصر . وذلك فى مؤبلف كان لايزال متداولا بعد تأليفه بقرون طويلة حينها نقله كاتب من عصر الاسرة الثامنة عشرة على لوحة من الخشب محفوظة الآن بالمتحف البريطانى . وهذا المؤلف له أهمية خاصة ، إذ يدلنا بمجرد الشروع فى تلاوته على أن أمثال أولئك الرجال الذين عاشوا فى العهد الإقطاعى كانوا يشعرون شعورا تاما بأنهم يفكرون على الذين عاشوا فى العهد الإقطاعى كانوا يشعرون شعورا تاما بأنهم يفكرون على نمط جديد ، وأنهم قد أقلعوا عن التلطف التقليدى الذى كانت تتميز به حكمة آبائهم . ويفتتح كاهن عين شمس هذا مقاله القصير بما يأتى : وليتنى كنت أعرف صيغا للكلام لا يعلمها أحد وأمثالا غير معروفة أو حتى أحاديث جديدة

إنى أقول ذلك بحسب ما قد رأيت ، مبتدئا بأقدم الناس حتى وصلت إلى أولئك الذين سيأتون بعد

إن العدالة قد نبذت وأخذ الظلم مكانه فى وسط قاعة المجلس ، وخطط الآلهة قد انتهكت حريتها وأهملت نظمها ، والبلاد صارت فى هم ، والحزن عم كل مكان ، وصارت المدن والأقاليم فى عويل ، وكل الناس صاروا على السواء يرزحون تحت عب. الظلم . أما الاحترام فإن أجله قد انتهى . . .

وعند ما أريد أن أتحدث عن كل ذلك تنوء أعضاء جسمى بحمله، وإنى فى بؤس من أجل قلى المحزون، وإنه لألم أن أهدى وعى من جهته. ولو كان قلب آخر لانثنى (ولكن) القلب الشجاع فى الملمات يكون رفيقا لسيده. ليت لى قلبا يتحمل الآلم. فعند تذكنت أركن إليه . . . فتعال إذن ياقلي لأتكلم إليك ، ولتجيبنى عن كلاى ولتفسر لى ما هو كائن فى الارض . . . إلى أفكر فيها قد حدث . إن المصائب تقع اليوم ، ومصائب الغد لم تأت بعد ، وكل الناس لاهون عن ذلك ، مع أن كل البلاد فى اضطراب عظيم . وليس إنسان خاليا من الشر ، فإن جميع الناس على السواء يأتونه ، والقلوب بالحزن مفعمة . فالآمر والمأمور صارا سواسية ، وقلب كل منهما راض بما حصل ، والناس عليه (يعنى الشر) يستيقظون فى صباح كل يوم ولكن القلوب لا تنبذه ، فلا يوجد إنسان عافل يدرك ، عليه (يعنى الغضب إلى الكلام ، والناس تستيقظ فى الصباح كل يوم ولا إن مرضى ثقبل وطويل . والرجل الفقير ليس له حول ولا قوة لينجو بمن هو أشد منه بأسا . وإنه لمؤلم أن يستمر الإنسان ساكتا على الأشياء التى يسمعها ، ولكنه مؤلم أن يجيب الإنسان الرجل الجاهل » .

فنى ذلك المقال نجد إنسانا قد تحركت نفسه من أعماقها بما شاهده من فساد بنى قومه، فهو يتأمل هذا المجتمع بصفة كونه وحدة كاملة، ومع أنه كان دائما يشير إلى بؤسه فيها ذهب إليه ، فإن شقاءه لم يكن هو العبء الرئيسي الذي يقصده بكلامه ، بل كان كل همه منصرفا إلى المجتمع الذي كان مكبلا بالخود غير قادر على إدراك شقائه ، وحتى لوكان شاعرا به بأية حال فإنه لم يكن لديه الكفاية التي تمكنه من إصلاح ذاته . وإن كثيرا من تأملاته ، الخليقة بأن نجد لها المقام اللائق بها بين أقوال الناقدين الاجتماعيين في عصر نا هذا بمن امتازوا بحاسيتهم الخلقية ، فمن الواضح إذن أن الإنسان قد وصل وقتئذ إلى عصر استيقظ فيه القوم لأول مرة في تاريخ البشر وشعروا بإحساس عميق بما أصاب المجتمع اللشري من الانحطاط الخلق .

وقد كان هذا الاتجاء الجديد في تفكير أولئك المفكرين الاجتماعيين راجعا إلى حد ما إلى ظهور إدراك خلقي حساس متزايد ، ولكن أسبابا أخرى ساعدت على انقشاع الوهم . فهؤلاء المفكرون كانوا قد تأثروا تأثرا عميقا بتأملهم للحياة البشرية الاجتماعية فوق الأرض والمصير الإنساني للحياة الآخرة فيها بعد الموت . وقد لاحظنا فيها سبق بعض ما شعروا به من خيبة الأمل عندما انكشفت لهم عدم فائدة العوامل المادية المحضة لضمان سعادة الروح فىالدار الآخرة . فهذه الأمور المادية التيكانت تقليدا للأجداد يرجع تاريخه إلى أزمان غابرة قد انهدمت ، وبانهيارها ذهب معها كل ما كان يعتبر ضمانا لحياة الإنسان في عالم الآخرة . ومن المحتمل أن ثقتهم التقليدية المتينة في حكمة أجدادهم كانت قد انهارت من أساسها انهيارا عنيفا، لأنه إذا كان ذلك موقفهم من التقاليد الموروثة الخاصة بالحياة في عالم الآخرة فإنهم صاروا أقل اقتناعا بما يتعلق بالحياة الراهنة . فقد قام لمدة ألف سنة نظام قومي ثابت الأركان كان يمثله و يحافظ عليه الفرعون ، وكان اسم ذلك النظام « ماعت » (أى الصدق -الحق ــ العدالة). ولكنهذا النظام كذلك قد أخذ هو الآخر ينهار إذذاك، فقد رأينا بالفعل في النصيحة الموجهة إلى « مريكارع » أن الأمة قد انقسمت قسمين ، شمالي و جنو بي ، وأن الملك كان همه منصر فأ إلى تحصين مملسكة الشمال من حطر الغزاة الأجانب. وقد انحلت تدريجا قوة الآمة النظامية التي دامت مدة طويلة ، حتى كشف الغزاة الأجانب عن مواطن الضعف في البلاد التي

كانت فى يوم ما أمة عظيمة ، وتدفق الغزاة الأجانب إلى الدلتا من جهة آسيا شرقا ، ومن جهة لوبيا غربا . وهكذا سادت الفوضى فى البلاد تماما . ولا بد أن تلك النكبة هى التى وصفها لنا كاهن عين شمس المتقدم ذكره فى الرثاء الذى أوردناه .

وقد أظلم تفاؤل حكما، الدولة القديمة الهادئ ، الذي عبرت عنه حكم « بتاح حتب » ، على أثر وقوع نكبة مزدوجة ،كانت أولا ضياع الأمل جملة في الحياة الآخرى؛ ذلك الأمل القائم على إعداد العقاد المادي الوفير للحياة الابدية؛ وثانيا الانهيار المحزن لذلك النظام الإدارى الحلق الذي كان يبدو خالداً ، والذي كان الدعامة التي قامت عليها حياة المجتمع البشري للأمة المصرية القديمة . وقد هوى في ظلام شامل أمل الرجال المفكرين _ مثل كاهن عين شمس ــ في هذه الحياة والحياة المقبلة ، ولم يكن في مقدور أحد حتى إله الشمس نفسه كشف هذه الغمة ، إذ في خلال حياة قومية دامت نحو ألني سنة قد أقامت الإنسانية المنظمة بعض القيم الخلقية التي كان ينتظر لها الدوام. والاستمرار، ولكن ما كان يعتز به القوم من تلك القيم الخلقية قد محى كلية. وقد كان ذلك أول عصر معروف في التاريخ كشف فيه عن الأوهام الاجتماعية ، على أن مثل ذلك الانهمار التام الظاهري قد حاق بالآمال البشرية مرارا عدة منذ ذلك العهد ، وكان آخر تلك الإنهيارات ما حدث بنا بعد الحرب العالمية بما لا يزال يخيم علينا للا ن بويلاته . فهل كان العويل على تلك الحال هو الجواب الوحيد الذي أجاب به المصريون الأقدمون حينها كانت تلك الأشباح التي تقشعر منها الابدان تخيم حولهم ؟ ا

وإننا نرى من ناحيتنا نحن الذين لا نزال نحارب الفساد ونعالج سوء الإدارة الموجودين للآن فى الحكومة البشرية فى جميع العالم، أنه من الأمور الهامة فى نظرنا أن نتتبع ما أجاب به أولئك القوم، الذين مضى على زمنهم من جواب جرىء وأفكار صائبة عندما وجدوا أنفسهم قد أصحوا مغمورين فى مثل تلك النكبة الناريخية الأولى التى حفظتها لنا الوثائق الإنسانية القديمة المدونة .

الفصل العارى عشرُ الانبياء الاجتماعيون الاوائل وفحر المسيحية (التبشير)

إن ما أبرزه لنا كل من ذلك الرجل التعس وكاهن عين شمس المسمى و خع خبرورع سُذِب ، من سوء الظن المطلق بالحياة الدنيا ، لم يكن أمراً عاما ، إذ كان يوجد رجال مفكرون لا يزالون يمنون أنفسهم بدنو الآيام ذات الاحلام السعيدة في المستقبل القريب ، وذلك بالرغم مما يعرفونه عن فساد المجتمع وما ترتب على سوء الحكم في البلاد من النتائج الوخيمة (يعنى خسوف ماعت) .

ولماكان تدهور البلاد الإدارى نفسه له دخل عظيم فى وقوع تلك النكبة الاجتماعية بالبلاد، فقد جعل ذلك بعض المتفائلين يعتقدون بأن قيام حكومة أحسن حالا مما هم فيه حليق بأن يعيد النظام المندثر ويعلن قدوم يوم أكثر إشراقا بل انبناق فجر «عهد ذهبي». وإذكانت الحال كذلك فهلموا إلى حكومة حسنة ولمنخسأ الفساد!

تلك هي الألفاظ التي ذاعت وشاعت إذ ذاك. على أنه لوكان في مقدور أولئك المفكرين الذين يرجع تاريخهم إلى نحو ٤٠٠٠ سنة مضت للآن — أن ينظروا إلى المستقبل البعيد، وهم بحسب ما وصلت إليه معلوماتنا أول من حاولوا أن يوجدوا حكومة صالحة، لفقدوا شيئا من شجاعتهم عند انعام النظر في تحقيقات نظام «تماني(١)» أو محاكمة «كابون(٢)». وكيف على كل حال يستطاع الوصول إلى حكومة أحسن حالا مماكان ؟

⁽١) تمانى Tammany : نظام ديمقراطى فى مدينة نيويورك ، وهذا النظام له سمعة سيئة للأثر الفاسد الذي أحدثه في سياسة المدينة .

إن الجواب عن ذلك كان واضحا جليا عند المفكر الاجتماعي المصرى القديم. فقد كان بعض أولئك المفكرين مقتنعا بإمكان الدخول في عصر جديد على أساس جيل من الموظفين الأمناء العدول. ورأى آخرون أن تحقيق ذلك يتأتى على يد ملك عادل مخلص مجدد ينقذ المجتمع مما فيه.

فعندما فحص رجال الطائفة الأولى الحياة رأوا وجوب التمسك بالمبادى العملية السليمة للحياة الحقة التي يمكن أن تطبق على الحياة اليومية لطائفة الموظفين. وهؤلاء المفكرون كانوا لا يزالون يؤمنون بوجوب سيادة الحق الحالد؛ الذى هو « ماعت » القديمة . وقد استمروا على تمسكهم بأهداب ذلك الأمل ووجوب إعادتها للسيطرة على الحياة المصرية . وهذه الآراء قد عبر عنها في مقال يمكننا أن نسميه « الفلاح الفصيح » . ومن حسن الحظ أن ذلك المقال لم يصل إلينا عن طريق نسخة متأخرة محرفة مثل الكثير غيرها من و ثائق ذلك المعال العصر التي وقعت بأيدينا ، بل بقيت محفوظة حتى وصلت إلينا في لفافة من البردى الفخم الذي كتب في ذلك العصر الإقطاعي ، و تلك اللفافة محفوظة الآن متحف « ولين » .

على أننا لم نهتد إلى معرفة اسم مؤلفها ، وهو أمرجرت به العادة فى مخلفات ذلك العصر المجهول . وقد وضع المؤلف بين أيدينا فى ذلك المقال مناقشاته فى هيئة قصة شرقية ممتعة مؤلفة ، ضمنها وهى فى شكلها المسرحى سلسلة من الأبحاث عن خلق الموظف المستقيم وما انطوت عليه روحه ، وما ينجم عن ذلك من إقامة العدالة الاجتماعية والإدارية نحو الفقير .

ولعلنا بهذه المناسبة نذكر الكايات الدالة على اليأس التى فاه بها وخع — خبرو — رع — سنب » حيث قال: « وصار الرجل الفقير لا قوة له تحميه من هو أقوى منه ». ولعلنا كذلك نذكر أن « مريكارع » قد حدثه والده فيما

⁼ فى الأرض الفساد عدة أشهر بسبب الرشوة ، ولما ألق القبض عليه فى النهاية بدأت محاكمته بصعوبة كبيرة ، ويرجع السبب فىذلك إلى الرشوة التى كان يأخذها شهود الزور من جهة والى إرهاب كل من كان يتقدم للشهادة ضده من جهة أخرى .

تصحه به قائلا له : « إن الموظف الذي يقول : « ليت لى ، ليس عادلا بل يظهر التحيز إلى جانب الفرد الذي بيده الهدية ، (يعني الرشوة). وقد كان العلاج الذي بُنصح به الأمير « مزيكارع ، من والده في « أهناسية » لإصلاح تلك الحال هو أن يجعل لمكل موظف مرتبا وفيراً.

وسنرى الآن أن ذلك العلاج وحده كان غير ناجع ، لاننا سنجد فيما يأتى بعد ، أنه وقع على مشهد من القصر الملكى بجوار . أهناسية ، اضطهاد غاشم أقدم على ارتكابه موظف فاسد الآخلاق فيضيعة والمدير العظيم لبيت الملك، في ذلك الزمن . وهو يدل دلالة قاطعة على أن الوظيفة ذات المرتب الضخم لا تغرس في نفس صاحبها العدالة ولن تغنى الفقير شيئا من اضطهاد رجال الحكومة له .

ومن الأمور الشائقة أن نرى ذلك المفكر القديم الذى كتب « قصة الفلاح الفصيح ، منذ . . . ؛ سنة وهو يجاهد ليظفر بالتغلب على تلك العقبة الكأداء ، عقبة فساد الحكم التي بقيت منذ ذلك العصر من أعقد المسائل المستعصية على المشرفين على الإدارة في الشرق ، وهي في الواقع مسألة لم يهتد الى حلها حلاكاملا للآن في مصر الحديثة حتى بعد وجودها تحت الإدارة الإنجليزية الحاذقة المجربة .

و بحمل هذه القصة أن فلاحا من أهالى إقليم « الفيوم » فى منطقة وادى النطرون الواقعة فى الصحراء الغربية كان يقطن قرية تسمى «حقل الملح» وجد أن مخزن غلال أسرته أشرف على النفاد ، فحمل قطيعا صغيرا من الحمير بحاصلات قريته وسار به نحو مدينة « أهناسية » الواقعة بالقرب من مدخل « الفيوم » ، يريد أن يستبدل بحاصلاته غلالا . وكانت الحالة تحتم عليه المرور من طريق به منزل رجل يدعى « تحوتى ناخت » ، وهو موظف صغير من موظنى « رنزى » الذى كان إذا ذاك من الاشراف وكان يحمل لقب « المدير العظيم لبيت الفرعون » . وكانت بلدة « أهناسية » مقر الللك ، فعندما رأى العظيم لبيت الفرعون » . وكانت بلدة « أهناسية » مقر الللك ، فعندما رأى « تحوتى ناخت » حمير ذلك الفلاح تقترب منه دبر حيلة لاغتصابها بما عليها ،

فأرسل على الفور أحد الخدم إلى منزله قجاء بصندوق مملوء من نسبج الكتان، فأخرج النسيج ونشره على الطريق العامة حتى غطاها كالها ، من حافة حقله المزروع قمحا الواقع على الجانب الأعلى من الطريق إلى ماء الترعة الذي يقع في الجانب المنخفض منها . وكان ذلك الفلاح البرى و _ كما تقول القصة _ يتقدم . في سيره « على الطريق العامة لـكل الناس » وهي التي سدها « تحوتي ناخت » المذكور ينسيجه ذلك ــ ويلاحظ هنا ما تكشف عنه عبارة كاتب القصة من الفضب ــ ولما كان الفلاح يخشى السير في الماء الذي في الجهة المنخفضة من الطريق فإنه آثر السير بحميره المحملة في الجهة العليا منها محازيا حافة حقل للقمح، وفى أثناء السير النقم أحد الحمير بضع سيقان من جذور ذلك القمح المغرى . فتهيأت بذلك في الحال الفرصة المدبرة التي تمناها . تحوتي ناخت ، ألماكر الذي كان يترقب ذلك عن كثب. وفي هذه اللحظة تقدم الفلاح إلى « تحوتى ناخت ، مقدماً له الاحترام والخضوع بكلامه وهيئته، ولكن بما لا يحط من كرامته. فما كان من ﴿ تحوتى ناخت م المذكور إلا أن زمجر وسخط وقبض على الحمير ..عند ذلك عاود الفلاح إيضاح ظروفه في أدب واحتشام ، ثم أردفه باحتجاج جرى ً فأنبرى يقول: « إن طريق مستقيمة ، وقد سد أحد جانبيها وعلى ذلك سرت بحميري على تلك الحافة . أتغتصب حميري لأن واحدا منها التقم مل فيه من سيقان قحك ؟ إنى أعرف رب هذه الضيعة ، فهي ملك « مدير البيت العظيم » « رنزی بن مرو ، ، وأعرف أنه هو الذي يقضي على كل سارّق في أنحاء هذه البلاد، فهل أسرق في ضيعته » ؟ فلما أحفظت « تحوتى ناخت » جسارة هذا الفلاح أمسك بغصن من الأثل الأخضر وأخذ يضرب فريسته بدون رحمة ولامبالاه بصياح الفلاح واحتجاجاته المتكورة ، واستاق كل الحمير إلى منزله . وقضى الفلاح المسكين أربعة أيام يرجوه فيها إرجاع الحير بدون جدوى ، وطوال هذه المدة كأن يتألم لمعده عن أسرته ألى أشرفت على الموت من الجوع ، فصمم على رفع شكو أه إلى , مدير البيت العظيم ، نفسه الذي حدث في ضيعته ذلك الاعتداً. الصارخ. وزاد الفلاح شجاعة في رفع شكايته إليه ما اشتهر به و مدير البيت العظيم، من حبه للعدالة حتى صار مضربا للأمثال في عدالته. وبينها يقترب

الفلاح من المدينة إذ قابله لحسن حظه « مدير البيت العظيم » المقصود خارجا من باب ضيعته الواقعة على النهر وهو يسير في طريقه للركوب في قاربه الرسمي فى الترعة . وعند ذاك استطاع الفلاح ، بما أو تيه من أدب جم وسيطرة على أَسْاليبِ البيان وتوجيه للأقوال الحسنة التي تليق لمثل ذلك المقام ، أن يسترعى أذن ذلك الرجل العظيم، فأصعى إليه بعض لحظات في أثناء مسيره لركوب قاربه . ثم أرسل بأحد خدمه ليسمع قصة ذلك الفلاح . فلما رجع الخادم وأخبر « ريزى ، بنلك السرقة التي ارتكبها . تحوتى ناخت » لم يسع . مدير البيت العظيم » إلا أن يبسط ذلك الأمر على حاشيته من الموظفين ، فـكان جوابهم إزاء ما حصل هو بيت القصيد الذي احتال المؤلف بمهارته حتى جعله فرصته لأن يضع أمام القارى عبين عليق ــ صورة واضحة المعاملة الشائعة التي كانت تقابل بها مثل شكاية ذلك الفقير في الدوائر الحكومية ؛ إذ انجاز في الحال زملاء مدير البيت إلى جانب مر.وسهم « تحوتى ناخت ، السادق ولذلك كان جو ابهم على « رنزى ، جو ابا ملؤه عدم المبالاة قائلين له : « إن القضية يحتمل أن تكون قضية فلاح قد دفع ما يستحق عليه من الضرائب إلى رئيس غير رئيسه خطأ ، وإن « تحوتي ناخت ، قد استولى على ما يستحقه من الضرائب بحق من الفلاح ، ثم تساءلوا بغضب : « هل يعاقب « تحوتى ناخت ، بسبب قليل من النطرون والملح ؟ أو على أكثر تقدير فى موضوع كهذا ، يصدر إليه الأمر بإعادتها ، وهو بلا شك معيدها له » . وبما يلفت النظر هنا وينطبق على ما اعتادته طبقة أولئك الموظفين أنهم تجاهلوا الحميركلية وهى التى كان ضياعها معناه موت ذلك الفلاح وأسرته جوعا .

وفى ذلك الوقت نفسه كان الفلاح واقفا على مقربة يسمع بضياع ماله وخرابه المحتم، يتغاضى عنه رجال السلطة ويتجاهلون أمره. وفى تلك الأثناء كان دمدير البيت العظيم، يجلس شبه حالم فى صمت. وهذا المشهد يمثل لنا باختصار طابعا طبعت به عصور كاملة من التاريخ الاجتماعى فى الشرق. فن ناحية نرى تلك الطائفة المنعمة من أتباع ذلك الرجل العظيم، بما نشأوا عليه من المطاوعة والملق، وهم فى ذلك يمثلون الطراز الغالب فى طبقة الموظفين.

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نشاهد صورة ذلك الفلاح المنكود الحظ الذى لا صديق لله ينصره وقد اغتصب متاعه فتتمثل فيه صورة مؤثرة للمطالبة بالعدالة الاجتماعية . وهذا المنظر يعد من أقدم الأمثلة الدالة على المهارة الشرقية فى تصوير المبادى المعنوية فى شكل مواقف ملموسة ، وهى التى صورت فيما بعد أبدع تصوير فى أقوال «عيسى» (عليه السلام).

أما ما كان من شأن ذلك الفلاح ، فإنه لما رأى أن « مدير البيت العظيم » لم يحرجو ابا ، حاول مرة أخرى أن ينجى نفسه وأسرته من الموت الذى كان يتهددهم جميعا بسبب الجوع ، فتقدم إلى الأمام خطوة وخاطب بفصاحة مدهشة ذلك الرجل العظيم الذى كانت قضيته الآن بين يديه ، متمنيا له سياحة طيبة عند نزوله فى قاربه الذى كان فى الترعة ، ثم لهج بشهرة « مدير البيت العظيم ، فى فعل الحير ، عاكان يعلل به نفسه عند رفع قضيته إليه . فكان من قوله له : « لأنك والد اليتيم و زوج الأرملة وأخ لمن هجره الأهلون وستر من لا أم له . دعنى أضع اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل . يأيها القائد الذى لا يشوبه طمع . ويأيها الرجل العظيم الذى يتجنب الصغائر ، ويحطم الظلم ويثبت الحق ، أجب إلى الصبيحة التى ينطق بها فمى فإذا تكلمت فعليك أن تسمع ، أقم العدل أنت يامن قد مُدحت ويا من يمتدحه الممدوحون ، اكشف عنى الضر ، أنظر إلى فإنى أحمل أثقالا فوق أثقال . حقق أمرى . أنظر ، فإنى في حيرة . (1) »

وقد شعر «مدير البيت العظيم » بسرور عظيم من لباقة الفلاح ، الخارقة للعادة ، البادية فى حسن منطقه وفصاحة لسانه ، حتى أنه تركه دون أن يقطع فى قضيته برأى وذهب على الفور إلى البلاط حيث قال للملك : « يامولاى لقد عثرت على أحد أولئك الفلاحين يحسن القول بحق » . فسر الملك سرورا عظيما ، وكلف «مدير البيت العظيم » أن يصحب الفلاح معه دون أن يقطع فى

⁽١) أن خاتمة هذا السكلام في بردية أقدم من هذه في « برلين » تقرأ كالآتي : « -قَقِ أَعرى (أو الحَص أمرى) انظراني قليل » .

قضيته برأى ، رغبة فى أن يرتجل له الفلاح خطبا أخرى أيضا . وكذلك أمر الملك بتدوين أقواله بدقة وأن يقدم له الطعام وكل مايلزمه ، وأن يرسل خادم لى قريته ليتحقق أن أسرته ليست فى حاجة إلى شىء ما خلال تلك الفترة التى يقضيها عند الملك . وقد نتج عن تلك الإجراءات أن أخذ الفلاح يلتى على أسماع « رنزى ، ما لا يقل عن ثمانى شكايات .

وعند هذه النقطة تنتهى هذه المقدمة التمثيلية ، وهى التى كان الفرض منها أن تسبغ على ذلك المقال الاجتماعى ثوبا يجعله فى صورة قصة . وبعد ذلك تبتدئ الخطب الثمانية التى يتألف منها جميعا ذلك المقال الاجتماعى .

وتلك الخطب الموجهة إلى «مدير البيت العظيم » «رنزى » تصور لنا في أول الأمر خيبة الأمل المحزنة التي صادفها الفلاح في اعتقاده بما اشتهر به ذلك الرجل العظيم من أنه لا يحيد عن العدل .

وعلى ذلك يبتدى حطابه الثانى بالتقريع، فيقاطعه «رنزى» فىذلك بالتهديد، فلا يثنى ذلك من عزم الفلاح ويواصل تقريعه.

أما خطابه الثالث فيعود فيه إلى مدائح كالتي كان ذكرها في أول شكاياته « إلى رنزى »، فتراه يقول: « يا أيها المدير العظيم للبيت الملكي » ، مولاى ، إن أنك « رع » رب السماء مع حاشيتك ، إن أقوات في الإنسان منك لانك كالفيضان ، وأنت إله النيل الذي يخلق المراعي الحضراء ويمد الأراضي القاحلة . ضيق الحناق على السراق ، واحم التعس ، ولا تكون كالسيل ضد الشاكي . احذر ، فإن الابدية تقترب . وفضل أن تعمل حسب المثل القائل : « إن نفس الانف إقامة العدل أو الحق (ماعت) » . ونفذ العقاب في من يستحق العقاب ، وليس هناك شيء يعادل استقامتك . هل يخطيء الميزان ؟ يستحق العقاب ، وليس هناك شيء يعادل استقامتك . هل يخطيء الميزان ؟ وهل تميل عارضة الميزان إلى أحد الجانبين ؟ . . . لا تنطقن كذبا لانك عظيم (وأنت بذلك مسئول) . لا تكن خفيفا لأنك ذو وزن . ولا تتكلمن بهتانا لانك الموازين ، ولا تحيدن لانك الاستقامة . إفهم إنك والموازين سيان ، فإذا مالت فإنك تميل (كذبا) . ولسانك هو المؤشر العمودي للميزان ، وقلبك فإذا مالت فإنك تميل (كذبا) . ولسانك هو المؤشر العمودي للميزان ، وقلبك هو المثقال وشفتاك هما ذراعاه » .

وهذه المقارنات بين أخلاق « مدير البيت العظيم » وبين الموازين تظهر مرات متكررة فى خطب ذلك الفلاح (١). والعبرة التى تؤخذ من ذلك واضحة ، إذ أن مفتاح الطريق الحق بأيدى الطبقة الحاكمة فإذا هم أخفقوا فى اتباعه فنى أى مكان آخر يمكن الحصول عليه ؟ إذ كان المرجو منهم أن يوازنوا بين الحق والباطل ثم يفصلوا فيه بقرار عادل كالموازين الدقيقة التى لا تخطى ، وبتلك الكيفية كانت الموازين تؤلف رمزا شاع تداوله فى الحياة المصرية حتى صارت كفتا الميزان تظهران (فى النقوش) بمثابة رمز مجسم لتصوير عاكمة كل روح فى عالم الحياة الآخرة .

وقد وجدت الموازين فى ذلك المقال لأول مرة فى تاريخ الأحلاق ، وقد بقيت صورتها وهى منصوبة فى يد الهة العدالة العمياء رمزا لذلك إلى يومنا هذا .

والحقيقة أن ذلك الرمز ترجع نشأته إلى ظهوره بين رجال الفكر في العهد الإقطاعي بمصر منذ أربعة آلاف سنة . ولم يكن الأمر قاصرا على تصوير الميزان بأكله بمثابة رمز للاستقامة في ذلك العهد الإقطاعي ، بل كانت أجزاؤه كذلك تستعمل على الدوام لذلك الغرض أيضا . فنجد «العامود» الذي يرتكز عليه الميزان . كما نجد «عارضة » الميزان التي تندلي منها كفتاه . وكذلك نجد بوجه خاص «خيط الميزان »، ونجد «الثقل » المربوط فيه وهو الذي يتدلى من قطعة خشبية بارزة عند قمة العامود الذي يرتكز عليه الميزان . ونجد كذلك «لسان » الميزان (المؤشر) الذي يمتد عموديا إلى أسفل من وسط العارضة التي تحمل كفتي الميزان ويتحرك معها كلما تحركت . وعند الوزن يمكن العارضة التي تحمل كفتي الميزان ويتحرك معها كلما تحركت . وعند الوزن يمكن موازنة اللسان على استقامة واحدة مع خيط الثقل فإن عارضة الميزان تكون أفقية اللسان على استقامة واحدة مع خيط الثقل فإن عارضة الميزان تكون خيط الميزان عنا الخطأ .

^{· (}١) وهذه المقارنة كان عظهاء الأشراف في العهد الإقطاعي مغرمين باستعمالها في النقوش التي كانوا يدونونها على لوحات قبورهم .

ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا أن الفلاح كان يذكر . مدير البيت العظيم ، بظهوره أمام محاسبة الموازين التي لا تتحيز إلى جهة دون الآخرى ، إذ يقول له : « احذر لأن يوم الآخرة يقترب ، . وهذا المثل من الأمثلة القليلة التي يلتجأ إليها في الشكايات بتحذير الظالم بما يتعرض له من المسئولية في الحياة الآخرة ، ويوجد كذلك مثال آخر من ذلك النوع في تلك الوثيقة بالخطبة الثانية من خطب الفلاخ .

وقد صارت الآن تهديدات الفلاح و لمدير البيت العظيم ، أكثر مما يحتمل في شدتها أثناء وقو فه أمام القصر ومن أجل ذلك أرسل خادمين ليجلدا ذلك الرجل التعس ولكن بالرغم من ذلك فإن الفلاح انتظر قدوم ورنزى ، من غير خوف وهو خارج من معبد العاصمة وواجهه بخطبة رابعة ، ثم تلاها بخطبة خامسة . وبالرغم من أنهذه كانت أقصر خطبه كلها فإنها ألذعها في الاتهام، إذ يقول: لقد نصبت لتسمع الشكاوى ، وتفصل بين المتخاصمين وتضرب على يد السارق ، ولكنك تتحالف. مع السارق . والناس تحبك رغم ألك معتد . ولقد نصبت لتكون سدا للرجل الفقير يحميه من الغرق ، ولكن أنظر فإلك أنت فيضانه الجارف ، .

كل هذا و « رنزى » كان لايزال ملازما للصمت. فيبندى الفلاح خطابه السادس لاجئا من جديد إلى عاطفة العدالة التى اتصف بها « مدير البيت العظيم » وما اشتهر به من حب الخير ، فيقول له : « يامدير البيت العظيم » ، اقض على الظلم وأقم العدل وقدم كل ماهو خير وامح كل سيء ، حتى تكون كالشبع الذى يقضى على الجوع ، أو كاللباس الذى يخنى العرى ، أو كالسماء الصافية بعد سكون العاصفة الشديدة ، أو كالنار الني تطهو الطعام ، أو كالماء الذى يطفىء الغُلة » .

ولما استمر درنزى ، لا يحير جوابا أيضا على ذلك الاستعطاف اهتاج الفلاح الشقى وعاد إلى نغمة القدح من جديد ، فأخذ يقول له : إنك متعلم ، إنك مهذب . لقد تعلمت ولكن لا لتكون سارقا . إنك متعود لأن تفعل ما يفعله كل الناس وقد وقع مثلك أقاربك فى نفس الأحبولة . وأنت يامن تمثل

الاستقامة بين كل الناس قد صرت على رأس البغاة فى كل البلاد. إن البستاني الذى يزرع الشر ، يروى حقله بالعسف ليثمر زرعه البهتان ، وبذلك تغمر الضعة بالشر . »

ومع ذلك فإن هذه الاتهامات لم تحرك ساكنا قط عند «مدير البيت العظيم». فأحذ الفلاح يفتتح خطبته السابعة . فيبدأ بالمديح المعتاد ، فنراه يصف «مدير البيت العظيم » بأنه « السكان الذي توجه بأمره سفينة كل البلاد » . ثم يرجع فجأة إلى وصف حالته التعسة ، فيقول : « إن جو في (١) مفعم ، وقلى مثقل ، وإن في السد لكسرا يتدفق منه الماه ، ولهذا فإن في مفتوح ليتكلم » . غير أن استمرار تغاضي ذلك الحاكم وعدم اكتراثه ، وهو ذو الشهرة الذائعة بالعدل والرأفة ، قد زاد في غيظ ذلك الفلاح التعس وبلغ مبلغا جعله يرى أن في صمت مدير البيت العظيم ما يطلق ألسنة أكثر الناس غباء وعيا ، فنراه يقول له ت « لايوجد فرد صامت لاتحفزه حالتك إلى الكلام ، ولامن نائم لا تجعله حالتك يستيقظ من رقدته ، ولا من إنسان مكتئب إلا جعلقه يثور ، ولا من في أرتج عليه إلا افترت شفتاه ، ولا من جاهل إلا صيرته حالتك حكيما ، ولا من غي إلا جعلته حالتك يتعلم ، .

ولما لم يكن في مقدور ذلك الفلاح أن يكبح جماح غضبه ، فإنه أخذ يلقى خطبته الثامنة . واستمر في قدحه فيقول : « إن قلبك جشع ، وذلك لا يليق بك ، إنك تسرق ، وذلك لا ينفعك . . . إن الموظفين الذين ُنصبوا لدر . الظلم هم مأوى لمطلق العنان ، وحتى الموظفين الذين أقيموا لمنع الظلم أصبحوا أنفسهم ظالمين » .

ومع كل ذلك فإن ذلك الفلاح لم ين عن المطالبة بتحقيق العدالة ، ولذلك يعود من جديد إلى المطالبة بها فى أعظم عبارات فاه بها فى ذلك المقال العظيم، إذ يقول: « أقم العدل لرب العدل وهو الذى أصبح عدله حقاً . أنت يا من

⁽١) « الجوف » (البطن) كان مقر العواطف . وتوجد نفس الفكرة تصف شاكيا خاثفا فى نصائح « بتاح حتب » يطاب فيها معاملة الشاكى بشفقة .

تمثل القلم والقرطاس واللوح ، بل تمثل ، تحوت ، (1) لانك بعيد عن عمل السوء . على أن العدل عندما يكون قائما يكون حقيقة عدلا ، لان العدالة (يعنى ماعت) أبدية ، فهى تنزل مع من يقيمها إلى القبر عندما يوضع فى تابوته ويثوى على الآديم ، واسمه لا يمحى من الارض بل يذكر بسبب عدله . وهكذا تكون استقامة كلمة الله ، .

على أن السؤال الذي ينشأ عن ذلك طبعا بعد ذكر هذه الكامات المؤثرة هو: هل لا يزال هناك بجال للظلم رغم ذلك. ولقد أخذ الفلاح (يسأل هذا السؤال) فقال: وهل هو ميزان يد لا يحيد؟ هل هو ميزان ثابت لا ينحرف؟ وهل مجرد العجز عن الوصول إلى مسحيح الخطأ المشين الذي حاق به هو الدافع إلى هذا الموقف، مع أن الحاكم العادل الذي في قدرته أن يصلح هذا الخطأ كان حاضرا منذ البداية؟ وإنك لم تكن مريضا، إنك لم تفر، إنك لم تمت الولكن ما لم تجازئي حسب السكلمة الطيبة التي خرجت من فم «رع» نفسه هي : و تكلم الصدق وافعل الصدق وافعل الصدق حق الشيخوخة الموقرة».

ولما لم يفه «رنزى» بجواب على هذه الكلمات السامية ، رفع الفلاح صوته عاليا مرة أخرى ، وألتى مرافعته النهائية اليائسة وهى خطبته التاسعة ، التى يذكّر فيها « مدير البيت العظيم » بخطر الانضام إلى جانب الغش ، لأن من يأنى فعلاكهذا « لا يرزق أولادا ولا يجد من يرثه على الأرض ، ومن يقلع فى سفينته (الغش) فلن يرسو على الأرض ولن تربط مراسى سفينته فى الميناه ٠٠٠ ومن لا يكترث لا أمن له ، ولاصديق لمن يصم أذنه عن الحق ،

⁽١) إله الكتابة والقضاء .

⁽ ٢) في كلام كهذا يجدر بنا أن نذكر أن كلة الصدق « ماعت » هي دائما نفس المكلمة التي يستعملها المصرى لتدل على « الحق » « والعدالة » « والعدل » حسب المقام الذي تقع فيه . فني مثل المقام الذي نحن بصدده الآن لا يمكننا أن نميز أي معنى يقصده الفلاح بالذات من ممانى هذه السكلمة دون الأخرى .

والجشع لا يحظى بيوم سعيد . . . انظر فإنى أبث شكواى إليك ولكنك لا تنصت ، فسأذهب إذن وأبث شكايتى منك إلى « آنوب ، . ولما كان د آيوب » هو إله الموتى فإن الفلاح كان يقصد من ذهابه إليه أنه سينتحر . وعندئذ يرسل و مدير البيت العظيم ، خادمه ليجى و بالفلاح ثانية بعد أن هم بالرحيل وإذ ذاك يتبادلان سويا بعض العبارات المبهمة المعنى . على أن ورنزى » كان فى خلال ذلك الوقت قد دون فى بردية جديدة كل شكايات الفلاح بحسب ترتيبها . والمفروض أن ما انحدر إلينا من تلك الوثائق هو نسخة من هذه البردية ، ولكن مما يؤسف له أن خاتمها عمزقه أشد النمزيق . ويمكننا أن ندرك أن لفيفة البردى التى أعدها أمناء أسرار و رنزى ، قد حملها و رنزى » هذا إلى الملك : وقد وجدها الملك «سارة لقلبه أكثر من أى شي و في البلاد » .

وبعد ذلك يأمر الملك ، مدير البيت العظيم ، أن يفصل فى قضية الغلاح ، وإذ ذاك يحضر المختصون بهذا العمل سجل الضرائب الذى يحدد الناحية التابع لها ذلك الفلاح بالصفة الرسمية ، كما يبين موقفه القانونى والاجتماعى وعدد أفراد أسرته ومقدار ثروته . ثم يعقب ذلك فى الوثيقة بعض كلمات مفتتة ، يقل عددها عن اثنتى عشرة كلمة ، يمكننا أن نفهم منها على وجه التقريب أن متحوتى ناخت » قد عوقب ، وأن ممتلكات ذلك الموظف الجشع المغتصب قد أعطيت للفلاح .

ومما يسترعى النظرحقا أن نجد أشراف رجال البلاط الفرعوني منذ أربعة آلاف سنة مضت يهتمون بإسعاد حال الطبقات الدنيا لدرجة أنهم كانوا يكلفون أنفسهم مشقة تدوين مثل تلك المقالات ، التي لم تكن بداهة إلا بمثابة دعاية إلى نظام قو امه العدل والشفقة بالفقراء . وأمثال أولئك الرجال كانوا حملة أقلام لإعلان حرب مقدسة لنصرة العدالة الاجتماعية ، وقد جعلوا ذلك المقال بالذات عمتعا في قراءته لطبقة الأغنياء الموجه إليهم ذلك المقال. وبالرغم من الغموض المستمر في لغنه ، وأسلوبه الرنان واستعاراته القوية وتشبيهاته الغريبة ، مما جُعل الكثير من فصاحة ذلك الفلاح مستعصية الفهم على أبناء هذا

العالم الحديث ، فإن ذلك المقال قد اكتسب فى عصره مكانة جعلته أدبا من الطراز الراقى . ولا شك أنه كتب بالأسلوب الذى كان مستحسنا عند أهل ذلك العصر ، وأن ذلك التهكم الفكه اللاذع الذى يبدو فى بعض نواحيه كان عما يزيد فى شهرته الأدبية عند قدماء المصريين الذين كانوا محبين بطبيعتهم للتفكه ، ولكنه مع ذلك كان أدبا يرمى إلى غرض خلقى .

وقصة ذلك الفلاح الفصيح تعد تصويرا حيا ناطقا عن عجز أولئك الموظفين الأمناء إذا لم يكن يشد أزرهم ملك عادل رءوف . وقد كان هناك في ذلك العصر مفكرون اجتماعيون يحسون بالحاجة إلى وجود حاكم عادل، وكان من بين الحكم الذين يتطلعون إلى وجود مثل هذا الملك العادل، الحكيم وكان من بين الحكماء الذين يتطلعون إلى وجود مثل هذا الملك العادل، الحكيم وقد ألف مقالا في شكل تمثيلي مؤثر، لم يقتصر فيه على اتهام أهل عصره بحرارة فحسب، بل ضمن مقاله أيضا وصايا إيجابية يرمى من ورائها إلى إيجاد نهضة يتجدد بها المجتمع، بل ذهب به الأمل أيضا إلى ترقب عصر ذهبي يأتى به ذلك الإصلاح المنشود.

وتلك « الوثيقة ، المذكورة تعد من أهم الوثائق التي تسترعى النظر بين كافة بحموعة تلك المقالات الاجتماعية والخلقية التي كتبت في ذلك العهد الإقطاعي، ويصح لنا أن نسميها « تحذيرات إبور ، (١) . ومما يدعو إلى الأسف أن بداية هذه البردية قد فقدت ، وهي الجانب الذي كان يحتوى على بيان الأحو ال التي دعت ذلك الحكيم إلى الإدلاء بتحذيراته الواردة في هذه الوثيقة ، وإن كانت تلك الأحو ال في ظو اهرها الرئيسية واضحة .

ويمكن تلخيص تلك الوثيقة فيها يأتى: يقوم الحكيم ، إبور » بإلقاء اتهام طويل مفعم بالفضب عن حالة عصره أمام ملك (لم يعرف اسمه بالتحقيق الآن)، وبحضور آخرين يحتمل أنهم كانوا حاشية ذلك الملك مجتمعين عنده

⁽١) وقد ترجمها الأستاذ « جاردنر » فى طبعة ستبقى نموذجا . راجع :

Alan H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig (1909).

فى ذلك الوقت ، وينتهى بالنصيحة والتحذير من الإهمال فى الأخذ بالإصلاح ، ويلى ذلك رد قصير من جانب الملك ، ثم ينتهى المقال بتعقيب قصير للحكيم المذكور على الرد الملكى .

وهذا الخطاب الرئيسي الطويل الذي قام بإلقائه ذلك الحكيم يشغل الجانب الأكبر من المقال ، كما أن الاتهام يشغل من الخطاب ما لا يقل عن الثلثين [أي بنسبة نحو عشر صفحات من الأربع عشرة صفحة التي يحتويها الخطاب] . على أنه لم يراع في ذلك الاتهام أي ترتيب منطق في عناصره ، بالرغم عما بذل من الجهد الظاهر في تنسيق أقوال ذلك الحكيم بوضعها على هيئة مقاطع مقفاة وكل مقطوعة منها تبتدئ بنفس العبارة السابقة لها ، على النمط الذي رأيناه في شعر الرجل التعس .

وسنحاول فى الفقرات التالية أن نلخص أهم محتويات ذلك الاتهام على ساس المواضيع التى تناولها ، كما أننا سنورد بعض العبارات بنصها ليتبين منها نوع الكلام الذى أفضى به ذلك الحكيم. ولما كانت هذه البردية عزقة ، ولغتها عويصة صعبة ، فإن ترجمتها ترجمة متصلة من الأمور المستحيلة ، حتى ولو توافرت الشروح التى تكفل إزالة هذه الصعوبة (١).

يبدأ ذلك الحكيم بإلقاء نظرة ثاقبة على نظم الحياة لأهالى وادى النيل في ذاك الوقت، فيجد أن كل شيء قد آل إلى الفوضى. فالحكومة قد وقفت حركتها تقريبا، « وقوانين قاعة العدل قد ألقى بها ظهريا، فصارت تدوسها الناس بالأقدام في المحال العامة، والفقراء يفضونها على قارعة الطريق (٢) ».

⁽١) تراجم القطع المقتبسة هنا معظمها من ترجمة « جاردنر » الذي كان محترسا في ترجمته مما يستحق عليه الثناء .

⁽٣) لقد كانت هذه فعلة شنعاء فى نظر النظام المصرى إذا كان سحب المكتابات والوثائق من المصالح العامة للاستشهاد بها أو للاطلاع عليها من الأمور المنظمة تنظيما دقيقا ، فالقواعد التى كانت تحدد وظيفة الوزير قد بقيت لنا . راجع :

Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol. II, p. 279

ويرجع السبب فى سوء النظام هذا إلى حالة الهياج والحروب الدائرة فى داخل البلاد: « فالرجل يضرب أخاه من أمه . فما العمل فى ذلك ؟ . . . انظر فإن الرجل يذبح وهو بحانب أخيه ، فى حين أن أخاه يتركه حتى ينجو هو بنفسه . . . والرجل ينظر لابنه نظرته إلى عدوه . . . ويذهب الرجل إلى الحرث والزرع وهو مسلم بدرعه

ويضاف إلى سوء النظام وإلى النورة الداخلية أهوال الغارات الاجنبية على البلاد ، فإن أملاك مصر بعد أن صارت فريسة لسوء النظام والفتنة الصاربة أطنابها بالبلاد قد صار رجالها أيضا غير قادرين على صد غزوات الاسبويين عن حدود شرق الدلتا ، وحاق الهلاك بالأملاك المصرية ووقف سيل الحركة الاقتصادية : «أنظر فإن كل أصحاب الحرف لا يقومون بأى عمل قط ، وأعداء البلاد يفقرونها فى حرفها . [انظر أن الذى يحصد] المحصول لا يعرف عنه شيئا ومن لم يحرث الارض [يملا أهرا.ه] ... أنظر إن الماشية قد تركت ضالة فى السبيل ولا يوجد أحد يجمعها ويلم شتاتها ، فكل النسان يأخذ لنفسه منها ما يسمه (يعني بالكي) . . . والحروب الداخلية لا تأتى بضريبة . . . ومائدة بيت المال الذى لا دخل له ؟ »

والتجارة الخارجية تنحط وتختني في مثل تلك الأحوال التي كانت عليها داخلية البلاد. « فأصبح القوم لا يقلعون بسفنهم شمالا إلى « جبيل^(۱) »، وإذن ماذا نصنع للحصول على خشب الأرز اللازم لمومياتنا، وهو الذي من خراجه تدفن الكهنة ومن زيته تحنط الأمراء حتى بلاد «كريت » ، وقد أصبحت (يعني الأخشاب) لا ترد » .

والوقوع فى مثل تلك الأحوال كان محتملاً ، لأن الأمن العام والتجارة قد اختنى أثرهما . « وبالرغم من أن الطرق كانت محروسة فإن الناس كانوا يترصدون فى الأدغال حتى يمر السائح الذى دهمه الليل ويسلبوه ما يحمل ويجردوه بما معه بالعصى ويذبح ذبحا شنيعا » . « وفى الحق أن البلاد كانت

⁽١) وكانت ببلوص (جبيل) فى ذلك العهد أعظم ثنمر تجارى فى فيغيقيا .

تدور على عقبها (أى أن نظام الأشياء مقلوب رأسا على عقب) كما تدور عجلة صانع الفخار، فمن كان لصا صار رب ثروة، والغنى صار إذ ذاك إنسانا منهوبا، وهكذا انقلبت أوضاع كل الأشياء، طبقا لما يدل عليه مفهوم تشبهها بعجلة صانع الفخار، فانهارت الشئون الاجتماعية انهيارا بماما.

وإننا نجد في أطول، مجموعة من فقرات تلك الوثيقة — التي أنشئت على وتيرة واحدة — أن ذلك الحسكيم يضع أمامنا صور تغير الاحوال بالنسبة لأفراد معينين وطبقات حاصة من المجتمع، فيضاهي في الفقرة الواحدة بين ماكان عليه الماضي وما هو جار في ذلك الوقت، إذ نراه يقول: « انظر إن الذي لم يكن يملك زوجا من الثيران صار الآن صاحب قطيع منها، وذلك الذي كان لايجد ثورا لحرثه صار الآن يملك قطيعا، أنظر أن الذي لم يكن يملك غلالا صار الآن صاحب مخازن من القمح، وذلك الذي كان يذهب للبحث عن الغلال لنفسه صار هو الآن يخرجها من مخزنه ».

ولاشك أن للانحطاط الخلق شأناً فى ذلك الخراب الشامل الذى حاق بالبلاد، وإن كان لم ينص صراحة على أنه هو السبب الظاهرى لذلك البؤس العام، إذ نراه يقول: « إن المتحلى بالفضائل يسير وهو محزون لما حدث فى البلاد. ويقول آخرون: « لو كنت أعلم أين يوجد الإله لقدمت له قرباما . وفى الحق أن [العدالة] موجودة فى البلاد باسمها فقط، وما يلقاه الناس حينها يلتجئون إليها هو العسف (١٠)».

فلا عجب إذن من وجود ذلك اليأس الشامل: « وفى الحق أن السرور قد مات ولم نعد نتذوقه بعد ، ولا يوجد فى الأرض إلا الأنين الممزوج بالحسرات.

⁽١) إن مل، النقص الدى فى الوثيقة بكلمة « العدالة » (ماعت) هو اقتراح الأستاذ « زيته » وذلك بالنسبة إلى وجودها كثيرا مقابلة للكلمة التى استعملت هنا بمعنى « العسف » (أسفت) وذلك منذ عهد متون الأهرام وما بعده ، وتكملة النقص بتلك الكلمة يتفق مع المتن تماما ، ولكن الأستاذ « جاردنر » يقول إن الآثار التى يقيت في هذا الفراغ من المتن لا تتفق مع هذا الإصلاح الذى اقترحه « زيته » . غير أن « جاردنر » لم يضمن طبعته الأصل الهيراطيقي لهذه الفقرة .

• وفى الحق أن كلا من العظيم والحقير صار يقول: ليتنى كنت مينا ، ويقول الأطفال الصغار: ليتنا لم يعلنا أحد ومتنا قبل هذا . . . ، وفى الحق أن قلوب كل القطعان صارت تبكى ، والماشية تئن بسبب حالة البلاد » .

على أنه لم يكن فى مقدور ذلك الحكيم أن يشاهد كل ذلك دون أن تثور عواطفه ، فكان بدوره متأثراً عميقاً لتلك السكار ثة العامة ويطلب من الله أن يقضى على كل شى ، إذ يقول : « ليت الناس يفنون ، فلا يحدث حمل ولا ولادة ، وليت البلاد تخلو من الغوغاء حتى يقضى على الشجار ، . وكان ذلك الحسكيم يقرع نفسه لأنه لم يسع من جهته لإنقاذ ذلك الموقف من قبل ، إذ يقول أيضا : « ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت ، حتى كنت أنقذ نفسى من الألم الذى أنا فيه الآن ، فالويل لى لأن البؤس عم فى هذا الزمان ، .

تلك هي الصورة القاتمة التي صورها لنا ذلك الحكيم المصرى القديم. ويجب أن نعتبر تلك الشكاية ، التي سبق أن قلنا إنها تشغل ثلثي الوثيقة كما حفظت لنا، أنها وصفت الحالة عند قدماء المصريين في عهد مدين ، على أن العلاقة الوثيقة التي بين ذلك المقال والمقالات الآخرى التي من ذلك العهد الإقطاعي ، من حيث اللغة والفكر ووجهة النظر ، لا تدع للشك مجالا في تحديد تاريخ عهدها بالضبط ، ولا شك أن حالة مصر السيئة التي صورها لنا ذلك الحكيم هي ظواهر الحالة التي أعقبت انهيار نظام الحكومة والاعتداء على البلاد الذي حاد إثر سقوط الدولة القديمة ، أي في نهاية عصر الآهرام ، وانحلال الاتحاد الثاني .

ولآن « إبور » كان فى شدة النائر لتلك الحال الموئسة التى صورها ، لم يشأ أن يتخلى عن أهل الجيل الذى عاش فيه بل عمد فى النهاية ، كما كان منتظراً ، إلى تبين السبب الذى يدعو إلى الأمل . ومع أنه تصادفنا عند الوصول إلى هذه النقطة فجوة كميرة فى تلك البردية ، فإننا نجد فى النهاية أهم فقرة فى جميع مقال ذلك الحكيم ، وهى تعتبر من أروع ما دون فى كل الأدب المصرى القديم . ففي هذه الفقرة العظيمة يتطلع ذلك الحكيم إلى المستقبل ، متوقعا إعادة البلاد إلى سيرتها الأولى ، وذلك فى نظره بلا نزاع نتيجة طبيعية للنصائح البلاد إلى سيرتها الأولى ، وذلك فى نظره بلا نزاع نتيجة طبيعية للنصائح

الإصلاحية التي كان قد فرغ من غرسها في قلوب مواطنيه . فهو يرى الحاكم الأمثل الذي يتوق إلى قدومه ، وهذا الملك المثالي الذي قد حكم مصر في يوم من الآيام باسم إله الشمس « رع » ·

ولما كان ذلك الحكيم يرى فى سلطته المقدسة العصر الذهبي فإنه يوازن بينه وبين الحمكم الغاشم الذى ترزح تحت عبثه البلاد فى عصره ، فنراه يقول: «فهو يطنى طيب (الحريق الاجتماعي) ، ويقال عنه إنه راعي كل الناس (۱) ولا يحمل فى قلبه شرآ . وحينها تكون قطعانه قلبلة العدد فإنه يصرف يومه فى جمع بعضها إلى بعض وقلوبها محمومة (۲) (من الحزن) . ليته عرف أخلاقها فى الجيل الأول ، فعندئذ كان فى مقدوره أن يضرب الشر وكان فى قدرته أن يمد ذراعه ضده (يعنى الشر) . وكان فى مقدوره أن يقضى على بذرتهم هناك وعلى وراثتهم ... فأين هو اليوم ؟ هل هو بطريق المصادفة نائم ؟ .. أنظر إن بأسه لا برى ... »

فنجد فى ذلك صورة الملك الامثل، وهو الحاكم العادل الذى لا يحمل فى قلبه شرا، وهو الذى يجول بين رعيته كالراعى يجمع شتأت قطيعه المتناقص الظمآن إن مثل ذلك الحكم العادل الذى نجد له نظيراً فى حكم نبى الله د داود، (عليه السلام) عند العبرانيين قد حدث، ويمكن أن يحدث ثانية. على أن عنصر الامل فى ظهور الملك الصالح المنتظر كان فى نظره أقرب من حبل الوريد، بل كان محققاً عنده، كما تدل الكلمات الحتامية التى وردت بالفقرة السابقة عند قوله: «أين هو اليوم، هل هو يطريق المصادفة نائم ؟ انظر إن بأسه لايرى». ولا يسعنى (لا براز المعنى المقصود) إلا أن أضيف إلى الجلة الاخيرة لفظى وحتى الآن ».

⁽١) أو « الراعى » . و « إله الشمس » يسمى « راعيا شجاعا يسوق ماشيته » فى أنشودة شمسية من عهد الأسرة الثامنة عشرة . وفى التعاليم الموجهة إلى « مم يكارع » تسمى الناس « قطيع الله » ، وهو إله الشمس كما يستدل على ذلك من المتن .

⁽ ٢) يحتمل أنّ معنى ذلك ظمأن ، وربما كان ذلك رمزا المحزون ، قارن قاوب « القطعان » (الماشية الصغيرة) تبكى كما ورد فى ص ٢١١ .

على أن الأهمية الخاصة التى نستنجها من تلك الصورة تنحصر فى أن المثل العليا الاجتماعية أو الحلم الذهبي لمفكرى ذلك العصر البعيد على أقل تقدير ، إن لم نقل منهجهم الاجتماعي ،كانت تشمل الحاكم الأمثل الطاهر النقي الخير المقاصد الذي يعز عشيرته ويحميها ويسحق الأشرار . وسواء أكان التنبق بقدوم هذا الحاكم محددا أم لا ، فإن صورة أخلاقه وأعماله قد كشف النقاب لنا عنها ذلك الحكيم القديم . وقد كشف النقاب عنها في حضرة الملك الموجود عنها ذلك الحكيم القديم . وقد كشف النقاب عنها في حضرة الملك الموجود وذلك بطبيعة الحال هو عين التبشير بالمسيحية قبل أن تظهر بين العبرانيين بما في من من العبرانيين بما في من من العبرانيين بما في من من العبرانيين بما

وقد أدت الموازنة الفظيعة التي كانت تجول فى ذهن ذلك الحكيم المصرى القديم بين حكم الملك الأمثل وبين حكم الفرعون الجالس على العرش، الذى يقف فى حضرته، إلى أن ينطق الحكيم بأقسى الاتهامات ضد مليكه، فكان مثله فى ذلك مثل «ناثان (١)» عندما وجه كلماته اللاذعة إلى «داود»

فقال « ناتان » لداود : « أنت هو الرجل » (صموئيل إصحاح ١١ و ١٢) : وقد ذكر « ناثان » هذه المقارنة لأن « داود » رغم أنه متزوج من كثير ، لم يكن قانعا بهن ، بل كان لابد له أن يأخذ زوجة « أوريا » أيضا .

⁽١) وقد لحظ هذه المشابهة جاردتر: ناثان هو النبي العبراني الذي أرسله الله لتأ نيب «داود» على فعلته الشنعاء. وذلك أن «داود» أحب « بتشبع » بنت « إليعام» واممأة « أوريا » الحيثى ، وقد عزم «داود» على الزواج منها بعد أن حملت منه سفاحا ، فأم سرا أن يرسل « أوريا » زوجها إلى ميدان القتال في موضع بحيث لا يكون مفر من قتله ، وقد حدث ذلك فعلا . وبعد أن أتمت « بتشبع » أيام الحداد التقليدية تزوج منها «داود» ، ولكن الله غضب عليه من أجل ذلك وأرسل إليه النبي « ناثان » ليؤنبه على فعلته تلك ، فقال له : «كان رجلان واحد منهما غني والآخر فقير ، وكان للغني غنم وبقر كثير جدا ، فأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه جميعا و تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام في حضنه ، وكانت له كابنة ، فاء ضيف للرجل الغني ، فأبي أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيء غذاء للسجل الذي جاء إليه . الفقير وهيئها غذاء للرجل الذي جاء إليه . «فحمي غضب « داود ي على الرجل جدا وقال لناثان : «حي هو الرب وأنه يقتل الرجل الفاعل ذلك ويرد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمم لأنه لم يشفق » .

(عليه السلام) قائلا: «أنت هو الرجل». فلقد وضع الحكيم مسئولية كل ما صوره من مساوى وقوعاتق الملك، إذ يقول لمليكه ؛ «إن الأمر الملك، والمعرفة، والعدالة (يعني ماعت) في قبضة يدك، ولكن ما تضعه في البلاد هو النزاع وصوت القلاقل. ولقد فعلت ذلك لتشتد علينا هذه الأمور، لقد نطقت زورا و متانا ».

وعندما انتهى ذلك الحكيم من خطابه الطويل، أجابه الملك بنفسه على أقواله . غير أنه ليس فى وسعنا أن نصل إلى ما قاله الملك فى إجابته على الحكيم عا بقى لنا من تلك النتف المفتتة من الصفحة الممزقة التى دونت عليها الإجابة .

وقد وصلت تقريعات ذلك الرجل الحكيم إلى قتها فى قوة التعبير حين أشار إلى أخلاق الفرعون التقليدية وهى التى كانت تشمل الأمر الملكى والمعرفة والعدالة (يعنى ماعت)، أى النظام الإدارى والخلق القديم الذى حافظ عليه ملوك الإتحاد الثانى مدة ألف سنة ، وهو الذى قد حلت الآن محله الفوضى .

فيتضح الآن تماما من ذلك أن حالة سوء النظام الشاملة التي وصفها في أقواله « إبور » قد ظهرت في فترة من العهد الذي جاء بعد سقوط الدولة القديمة . ويستحيل علينا الآن أن ندرك مو قف ملوك « أهناسية » الذين أنتجوا مثل تلك المقالات المثالية المدهشة ، أو نحدد علاقتهم بانهيار نظام الحمم . فهل كان احتذاؤهم المثل الأعلى الاجتماعي في مثل ذلك العصر ، سببا من أسباب ضعفهم السياسي ؟ لقد لاحظنا أنه في وسط ذلك الحراب القومي الذي صور لنا بتلك الكيفية من غير تحفظ ، أن الحكيم « إبور » كان لايزال يحمل في نفسه بعض الأمل في إنقاذ البلاد من ذلك الحراب . فهل كان في ذهنه بعض الرجال المعروفين بقوة الشكيمة بمن أبق عليهم الدهر من أسر الأمراء بعض الرجال المعروفين بقوة الشكيمة بمن أبق عليهم الدهر من أسر الأمراء القدامي ؟ على أنه من الجائز أن آماله كانت موجهة إلى قائد كان « بأسه لا يرى » : يؤيد ذلك مافاه به حكيم آخر كان يعيش في نفس ذلك العصر (وسنصغي الكلامه وشيكا) كما يؤيده ما تساءل به حكيمنا المذكور بتدبر وإنعام إذ يقول : وأين هو اليوم ؟ هل هو بطريق المصادفة نائم ؟ »

والواقع أن حكيها آخر من نفس ذلك العصر كان يجول فى ذهنه شخصية الملك المنتظر الذى سيكون فاتحة للعصر الجديد المنتظر ، لأنه لم يتردد فى ذكر اسمه ، كما سيأتى الآن قريبا .

ولدينا في بردية أخرى عثر عليها وجولنيشف (۱) ،، وهي موجودة الآن بمتحف و لنينجراد »، نبوءات كاهن مرتل اسمه و نفرر وهو ، وهو يدعى أنها ألقيت في حضرة الملك و سنفرو » أي قبل العصر الذي نحن بصدده بما يقرب من ألف سنة .

والواقع أن ذلك مجرد وضع تمثيلى ليسبغ على كلمات « نفر روهو » الهامة قوة التأثير . ومن حسن الحظ أن كاتبا من عهد الدولة الحديثة بمن عاشوا فى القرن الحامس عشر ق · م · قد ظهرت له أهمية ذلك المقال ، حتى أنه لما لم يحد لديه برديا جديدا ينقله فيه أخذ جوءا من بعض أوراق مستعملة فى تدوين حسابه هو ونقل تلك النبوءات على ظهرها . وبذلك بقيت نبوءات « نفر روهو » فى تلك الصورة التى وصلتنا عفوا بما تحويه من غموض بسبب أغلاطها الكثيرة التى حدثت عند نقله لها بطريق المصادفة كما ذكرنا .

يبدأ و نفرروهو ، بالمقدمة التاريخية المزعومة ، ثم يصف الخراب والفوضى اللذين كانا يحيطان به . ومثله فى ذلك مثل و خع خبرورع سنب ، إذ يتكلم مع قلبه ، فنراه يقول : « انصت ياقلبى وانع الكارض التى فيها نشأت لقد أصبحت هذه البلاد خرابا ، فلا من يهتم بها ، ولا من يتكلم عنها ، ولا من يتكلم عنها ، ولا من يذرف الدمع . فأى حال عليها تلك البلاد ؟ لقد حجبت الشمس فلا تضى عتى يبصر الناس ، وقد كان من جراء تعطيل أعمال الرى العظيمة العامة أن و أصبح نيل مصر جافا فيمكن الإنسان أن يخوضه بالقدم ، وصار الإنسان عندما يريد أن يبحث عن ما ، (يعنى النهر) لتجرى عليه السفن يحد طريقه قد صار شاطنا والشاطئ عار ماه . وكل طيب قد اختنى ، وصارت البلاد طريحة الشقاء بسبب طعام البدو الذين يغزون البلاد . وظهر الأعداء

⁽١) جولنيشف أحد عاماء اللغة الصرية الحاليين.

فى مصر ، فانحدر الاسيويون إلى مصر ... وسأريك البلاد وهى مغزوة تتألم. وقد چدث فى البلاد ما لم يحدث قط من قبل ... فالرجل يجلس فى عقر داره مو ليا ظهره عندما يكون الآخر يذبح بجواره

سأريك الابن صار مثل العدو، والآخ صار خصها، والرجل يذبح والده، وكل فم ملؤه (حبنى) [صياح المتسول؟]، وكل الأشياء الطيبة قد ولت، والبلاد تحتضر وأملاك الرجل تغتصب منه وتعطى الاجنبى . . . »

وسأريك أن المالك صار فى حاجة والأجنبى فى غنى . . . وأن الأرض قد نقصت وفى الوقت نفسه تضاعف حكامها ، وصارت الحبوب شحيحة فى حين أن المكيال صار كبيراً ، وتكال الحبوب [أى بجابى الضرائب] حتى يطفح الكيال

« سأريك البلاد وقد صارت مغزوة يتنألم ، وأن منطقة عين شمس لن تصير بعد ُ مكان ولادة كل إله » .

وبعد ذلك يتحول ، نفرروهو » من غير تردد أو تشكك عن تلك الصورة التي يصف فيها القحط الذي وقعت فيه البلاد وينادى بالكلمات التالية الهامة معلنا قدوم الملك الذي سيخلص مصر بما حاق بها ، إذ يقول : • سيأتي ملك من الجنوب اسمه «أميني »، وهو ابن أمرأة نوبية الأصلوقد ولد في الوجه القبلي، وسيتسلم التاج الأبيض ، ويلبس التاج الأحمر ، فيوحد بذلك التاج المردوج ، سينشر السلام في الأرضين (يعني مصر) على الوجه الذي يحبه أهلها . . . » .

« وسيفرح أهل زمانه ، وسيجعل ابن الإنسان (۱) اسمه باقيا أبد الآبدين . أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر ودبروا الفتنة فقد أطبقوا أفواههم خوفا منه ، والأسيويون سيقتلون بسيفه ، واللوبيون سيحرقون بلهيبه ، والثوار سيستسلمون لنصائحه ، والعصاة سيخضعون لبطشه ، وسيخضع المتمردون للصل الذي على جبينه » .

⁽١) يقصد « بابن الإنسان » الملك القصود . وقد أطلق هذا الاسم على المسيح عليه السلام .

وسيقيمون وسور الحاكم، حتى لايتمكن الاسيويون من غزو مصر، وسيستجدون الماء حسب طريقتهم التقليدية لكى تردها أنعامهم. والعدالة (ما عت) ستعود إلى مكانها، والظلم ينقى من الارض. فهنيئا لمن سيرى ذلك ومن سيكون من نصيبه خدمة ذلك الملك،.

فنرى في ذلك القدوم الفعلي للملك المخلص للبلاد بالفعل ، الذي كان مجيئه هو الأمل الذي ينشده الحكيم « إبور » ، وقد ذكر « نفرروهو » ذلك الملك بالاسم . ورسم كتابة الاسم « أميني » الذي استعمله « نفرروهو » هو اختصار مشهور للاسم الكامل « امنمحات » ، وواضح أنه المؤسس العظيم للأسرة الثانية عشرة والمصلح الذي أعاد توطيد سلطان مصر في العهد الاقطاعي حوالي سنة ٢٠٠٠ ق . م . ، وقد ذكر عنه في نقش تاريخي بعد ذلك العصر بثلاثة أجيال بشكل يسترعي الانظار: ، أنه قد محى الظلم لأنه أحب العدل كشيراً (يعني ما عت(١)). وقد كان عرافنا هنا واثقا من أن بطله . أمنمحات ، سيستولى على التاجين اللذين يرمزان لحكومة البلاد المتحدة مصر السفلي ومصر العليا، وأنه سيفتتح عصراً جديدا غير أنه يرجى. الاصلاح العظيم على وجه عام إلى المستقبل. وذلك يضع أمامنا سؤالا جديرا بالاهتمام وهو : هل هذا التأكيد الصارخ مجرد نبوءة عن حادثة بعد وقوعها؟ أوكان ذلك إعلانا ناجحا عن بطل منتصر قد نجح نجاحا عظيما في إصلاح مصر العليا حتى أن انتصاره النهائي وإصلاحه لـكل مصر كان متوقعاً حدوثه ؟ أو هل كان « نفر روهو » مر سلا من-قبل « أمنمحات » إلى مصر السفلي ليعلن قدومه إليها؟ أو هل كان كأى شخص من أنصار « أمنمحات ، يعظم إصلاحاته بتصويرها بجانب صورة ما صارت إليه الهلاد من الدمار والخراب قبل مجيئه ؟

Breasted. Ancient Records of Egypt, Vol. 1P. 283 . وقد يجوز أن السياح الذين يسيحون فى نهر النيل يذكرون أنهم قد شاهدوا هذا النقش العظيم منقوشا حول قاعدة جدار المزار العظيم لمقبرة « خنوم حتب » المنحوتة فى صخور جبال بنى حسن م

وإنه لمن المستحيل أن يعطى الإنسان جوابا شافيا عن تلك الأسئلة ، ولكن الأرجح على ما يظهر أن « نفرروهو » كان حقيقة محاطا فى زمنه بالخراب الذى صوره لنا فى تلك الصورة القوية ، وأن تاريخ حياة «أمنمحات المقرونة بالنجاح فى مصر العليا قد جعل نجاحه فى إعادة وحدة البلاد إلى ما كانت عليه وإرجاع مجدها القديم متوقعا . وقد يبدو من المدهش حقا أن يذكر « نفرروهو » صراحة أن الفرعون الجديد ليس من سلالة البيت المالك يذكر « على أنه لا شك كان فى البلاد إذ ذاك مطالبون بالعرش أو مدعون له كثيرون ، لدرجة أن ظهور مطالب آخر مثل « أمنمحات » قد أصبح لا يثير تأثيرا يذكر .

كا أن تسمية «أمنمحات » « بابن الإنسان » كا ذكر ذلك فيها سلف عن السان ذلك المتنبى على النظر ويوحى إلينا في الحال بوجود علاقات قد لا زى لها وجودا ، إذ أن ذلك التعبير قد استعمل في النصيحة الموجهة إلى « مريكارع » ليدل على « ابن رجل ذي أهمية » . وقد جرى في بلاد بابل القديمة استعمال تعبير مشابه لذلك التعبير . وذلك الاعلان الذي أعلنه ذلك المتنبي يشمل قيام مليكه بعملين هما من الأهمية للشعب البائس في مصر الطريحة يشمل قيام مليكه بعملين هما من الأهمية للشعب البائس في مصر الطريحة مكان ، وهما :

(أولا) القضاء على المغيرين وأخذ العدة لدفع الغارات المقبلة .

(ثانيا) إصلاح النظام الداخلي.

أما . سور الحاكم ، فكان قلعة قديمة لحماية الدلتا الشرقية واقعة على التخوم الأسيوية ، وقد بنى لحراسة الطريق من آسيا إلى مصر فى عهد بناة الأهرام . وقد أعلن . نفرر وهو ، أن الملك الجديد سيعيده كماكان من قبل .

والصورة التي رسمها لنا ذلك المتنبئ عن مآل الأسيويين تذكرنا بما ورد في الرواية العبرانية الحاصة برحلة دخول أجدادهم إلى مصر .

وأما اعلان الإصلاح الذي سيحدث في النظام الداخلي فإنه يسترعى الانظار لقصره وبساطته، إذ يقول: ﴿ إِنَّ العدالة ستعود إلى مكامها والظلم ينفي من الارض » إذن هي ﴿ ماعت ﴾ القديمة التي سيعيدها الملك الجديد في شكل

نظام ثابت ليكون مرة أخرى رقيبا ومهيمنا على حياة الشعب المصرى الاجتماعية. أى أن دماعت ، وهى ذلك النظام القديم الذى مكث ألف سنة مرشدا ومهيمنا على الحاكم وحكومته ، ستعود مرة أخرى وتبسط سلطانها من جديد . ومن المفهوم أن الابتهاج الذى يبشربه ذلك المتنبى العتيق يشير إلى عودة المثل العليا القديمة للأخلاق الفاضلة والسعادة القديمة .

غير أن ذلك كان حمع الأسف بعيدا عما وقع فعلا. فإن «أمنمحات» كان حقا من كبار الإداريين في العالم القديم، وقد استطاع بما وهبه الله من فطنة عظيمة أن يعيد بلا نزاع ذلك النظام القديم بقدر ما سمحت له الأحوال، ولكنه مع ذلك قد حتمت عليه الظروف أن يتخذ عماله وموظفيه في إدارة شئون الأمة من بين أولئك الرجال الذين ترعرعوا وشبوا في عهد ذلك الانحطاط الذي جاء عقب عصر الأهرام، وأشربت قلوبهم بطبيعة الحال الارتياح إلى الفوضي والفساد اللذين هوى إلى حضيضهما الشعب المصرى خلال عدة أجيال بل قرون حتى أنقذهم «أمنمحات» منها في ذلك الوقت.

وقد كشفت لنا النظرات الحلقية التي جال بها أمثال «الرجل التعس» و «خع خبرورع سنب » و «كاهن عين شمس » — ولا يقل عنهم جميعا « إبور » — عن حالة مزعجة من الانحطاط الاجتماعي . أما ما كان يشعر به « بتاح حتب » القديم من اقتناع واطمئنان نراهما في قوله: « إن كل شيء على ما يرام » ، فقد اختنى إلى الأبد .

وقد كان الملك وأمنمحات ، نفسه يشعر بهذه الحقيقة ، إذ أنه وجد بعد حكم طويل ناجح امتد أكثر من جبل من الزمان ، أن عدم الثقة بالناس ، التي كان يحسبها الملك المسن طوال حيانه ، حقيقة لامراء فيها لمبهها لمسا عندما حاول بعض القوم اغتياله . وحينها بدأ يشعر بوطأة كبر السن وجه إلى ابنه «سنو سرت » — وهو أول من سمى بهذا الاسم من ملوك مصر — كلمة في صورة نصيحة مختصرة ، جريا على الطريقة التي اتبعها والد الأمير « مريكارع » ولكن بروح تختلف عن تلك ، فيقول لا بنه معر في العدالة : «أنصت لما أقوله لك ، حتى تصير ملكا

على البلاد وحتى تصبح حاكم الشاطئين ، وحتى يكون فى مقدورك أن تزيد فى خيرات البلاد . قو " نفسك أمام جميع كل أتباعك ، لأن الناس يصغون لمن يُرهبهم . ولا تقتربن منهم على انفراد ، ولا تملأن قلبك بأخ ، ولا تعرفن صديقا ، ولا تتخذن لنفسك خلانا (تضع فيهم ثقة) لا نهاية لها . وحينها تنام حافظ بنفسك على قلبك ، لأن الإنسان لا أناسى له يوم الكريهة . لقد أعطيت السائل وأطعمت اليتيم ، وقبلت الحقير والعظيم (فى حضرتى) ، غير أن الذى أكل زادى قد عصانى ومن مددت له يدى قد بعث فيها الخوف » .

وهذه الصورة التى تدل على سوء الظن بالناس المفعم بالنشاؤم قد أعقبها الملك بقصة محاولة اغتيال حياته، وهى حادثة تفسر إلى حدما شدة سخط ذلك الملك المسن الحانق على العالم، وعدم اغتراره بالمظاهر.

و تلك الآراء عن المجتمع البشرى، بما فيها من دلالة قاطعة على منتهى الريبة وسوء الظن بالناس، كان شعور النفوس بها عميقا إلى حد أنها عكست آثارها على أعظم أنواع الفنون فى ذلك العصر، وأعنى بذلك فن نحت التماثيل البشرية فى العهد الأقطاعى، إذ نجد فى هيئات التماثيل السامية التى تمثل فراعنة الدولة الوسطى نفس الوجوه الحزينة التى كانوا يواجهون بها الحياة فى عصرهم.

وعندما تنعم النظر فى تلك الوجوه التى تتمثل فيها الجرأة والبطولة، والتى ظللنها ظلال اليأس والقنوط، نرى أن نفس هذه الوجوه تعد كشفا جديدا فى ميدان الفن، يميط لنا اللثام من غير شك عن روح ذلك العصر الذى يعتبر أقدم عصر معروف تخلص من الأوهام ولم ينخدع بالمظاهر.

الفيصال لثانى عشر

أقدم جهاد في سبيل العدالة الاجتماعية

وتعميم المسثولية الخلقية

لم يشاطركل رجال الفكر الاجتماعيين الذين كانوا فى البلاط الملكى فى العهد الأقطاعى الفرعون تشاؤمه المطلق الذىكان يشعر به . وقد رأينا بعض أولئك المفكرين قد أدركوا أن الملك العادل الذى يتوقع مجيئه لإنقاذ البلاد قد يكون عاجزا عن أداء رسالته بدون مساعدة طائفة من الموظفين العدول . كما بينا أن الغرض المقصود من المقال المصرى القديم الذى سميناه والفلاح الفصيح » هو المساعدة على إنشاء طائفة من الموظفين المتصفين بالكفاية والأمانة يقوم على أكتافهم بناء العصر الجديد الذى تسوده العدالة الاجتماعية .

والآن نتساءل غما إذا كانت تلك المقالات الاجتماعية التي ظهرت في العهد الاقطاعي قد صارت حقا قوى اجتماعية ؟

والواقع أنى فى سنة ١٩٢٧م . اشتريت من أحد تجار الآثار بمدينة «الاقصر » شظية من الحجر الجيرى كبيرة الحجم سطحها مغطى من الوجهين بالكتابة الهيراطيقية ، وعلماء الآثار الحاليون يطلقون على مثل تلك الشظية كلمة «ستراكون» (Ostrakon « شقفة ») ، وقد لاحظ زميلي الدكتور جاردنر : بين مالاحظه عندما عرضتها عليه — أن من بين محتويات كتابتها جملة مقتبسة من قصة « الفلاح الفصيح » مع أن تاريخ كتابة تلك الشظية يرجع حسب ما يبدو إلى القرن الثاني عشر أو الثالث عشر ق . م . فذلك الاقتباس إذن يدلنا على أن قصة ذلك الفلاح كانت لاتزال ذات قيمة أدبية إلى أواخر الدولة الحديثة ا؟ والآن فهل المصادر الباقية حتى الآن — مما يكشف لنا عن حالة قدماء المصريين الاجتماعية والحكومية فى العهد الإقطاعي — تدل على أن ذلك الجهاد المصريين الاجتماعية والحكومية فى العهد الإقطاعي — تدل على أن ذلك الجهاد

فى سبيل العدالة الاجتماعية قد أدى إلى نتيجة ما؟ أو أن الآمال فى ظهور المحلّص وقيام المثل العليا للحياة الاجتماعية وهى التى تكلم عنها المتنبئون الاجتماعيون فى ذلك العصر صراحة ــ قد بقيت مجرد أحلام ؟!

وهل استمرت تلك الصور القاتمة المحزنة التي وجدناها في مقالات رجال الفكر المتشائمين أمثال « الرجل التعس » و « خع خبرو رع سنب » والملك « أمنمحات الأول » تدل على الحقيقة الواقعة ١ ؟

وهل أن إدراك عصر الإقطاع لما بدا أنه طبيعة المجتمع الإنساني الحقيقية وما أسفر عنه ذلك من انقشاع الوهم، قد بتى بغير نتائج إنشائية مثمرة ؟

وقد شاهدنا أن آمال الذين ينتظرون ظهور المخلص كانت مؤسسة على ظهور ملك عادل ، فى حين أن غيرهم من المصلحين الاجتماعيين -- بمن امتازوا بالآراء العملية - كانوا يرون قلب نظام المجتمع عن طريق إيجاد جيل جديد من الموظفين العدول . ورغم تشاؤم ، أمنمحات الأول ، فقد ظهرت لنا أدلة قاطعة على أنه هو تفسه قد قام بمجهودات ومشروعات دبرت بعناية حتى تضمن له عهد حكم عادل . وقد كان رئيس الوزارة أو الوزير الاعظم لسان حال الفرعون ، ويعتبر أهم عضو فى الحكومة بعده .

وقد حفظت لنا نسخ من خطاب وجهه الملك مشافهة إلى وزيره الأعظم يرجع تاريخها جميعا إلى عهد الدولة الحديثة ، أى بعد العهد الاقطاعى ببضعة . قرون . وقد كان الملك يلتى ذلك الخطاب كلما أسندت مسئولية الحـكم إلى وزير أعظم جديد .

ذلك الخطاب العظيم يقدم الدليل على أن أحلام المتنبئين أمثال « إبور ، و « تفرروهو » اللذين كانا يتنبئان بظهور مخلص قد تحققت فيها له علاقة بالاخلاق الملكية ، أى أن روح العدالة الاجتماعية التي كانوا يشعرون بها قد وصلت إلى العرش نفسه ثم انتشرت حتى في نفس كيان الحكومة . والخطاب هو كما سبأتي :

النظام الذي ألتي على كاهل الوزير الأعظم « س ، (')

« اجتمع أعضاء المجلس في قاعة مجلس الفرعون (لَهُ الحياة ! والفلاح ! والعافية !) وقد أمر الواحد (يعنى الملك) باحضار الوزير الأعظم « س » الذي نصب حديثا (إلى قاعة المجلس) . وقال له جلالته : تبصر في وظيفة الوزير الاعظم ، وكن يقظا لمهامها كلها . افظر إمها الركن الركين لكل البلاد » . واعلم أن الوزارة ليست حلوة المذاق ، بل إنها مرة فالوزير الاعظم هو النحاس الذي يحيط بذهب بيت [سيده] واعلم أنها (يعنى الوزارة) لانعنى اظهار احترام أشخاص الأمراء والمستشارين ، وليس الغرض منها أن يتخذ بها الوزير لفسه عبيدا من الشعب ، . . .

« واعلم أنه عندما يأتى إليك شاك من الوجه القبلى أو من الوجه البحرى أو من أنه عندما يأتى إليك شاك من الوجه القبلى أو من الوجه البحرى أو من أى بقعة فى البلاد، فعليك أن تطمئن إلى أنكل شيء يجرى وفق القانون، وأن كل شيء قد تم حسب العرف الجارى، فتعطى كل ذى حق حقه . وأعلم أن الأمير يحتل مكانة بارزة وأن الماء والهواء يخبران بكل ما يفعله لا يبق مجهولا أبدا ، . . .

وبعد ذلك يضع الفرعون لوزيره الأعظم التفاصيل التي يجب أن يسير على نهجها في القضايا التي تقدم إليه ، ثم يستشهد له في ذلك بقضية حكم فيها خطأ وزير يسمى « خيتى » ، وهو وزير قديم ذائع الصيت من عهد الأهرام ، إذ يقول له : « انظر لقد كان ماألقيه عليك مثلا مدونا في مرسوم تعيين الوزير الأعظم في « منف » وكان ينطق به الملك ليحث به الوزير على الاعتدال . . . ، « احذر ما قد قيل عن الوزير « خيتى » ، فإنه يحكى أنه جار في حكمه على بعض عشيرته الأقربين منحازاً للغرباء خوفا من أن يتهم بمحاباة أقاربه خيانة منه ، وأنه عندما استأنف أحدهم ذلك الحكم الذي أصدره ضدهم أصر على اجمحافه . واعلم أن ذلك يعد تخطيا للعدالة (يعنى ماعت) » .

⁽١) كان هناك طبعا اسم الوزير، وكان يختلف باختلاف اسم الوزير الذي يمين.

، فلاتنس أن تحكم بالعدل ، لأن التحين يعد طغيانا على الإله ، وهذا هو التعليم (الذي أعلمك إياه) فاعمل وفقا له » ·

"أوعامل من تعرفة معاملة من لاتعرفه ، والمقرب من الملك كالبعيد عنه . واعلم أن الأمير الذى يعمل بذلك سيستمر هنا فى هذا المكان ... ولا تغضبن على رجل لم تتحر الصواب فى أمره ، بل اغضب على من يجب الغضب عليه . اجعل نفسك مهيبا ودع الناس يهابونك . والأمير لايكون أميرا إلا إذا هابه الناس . . . واعلم أن الخوف من الأمير يأتى من إقامته العدل » .

« واعلم أن الإنسان إذا جعل الناس يخافونه أكثر بما ينبغى دل ذلك على ناحية نقص فيه فى نظر القوم، فلن يقولوا عنه (انه رجل بمعنى الكلمة). واعلم أن رهبة الأمير تبعث الرعب فى نفس الكاذب عندما يعامله (الأمير) بما يفزعه منه » .

« واعلم أنك ستصل إلى تحقيق الغرض من منصبك إذا جعلت العدل رائدك في عملك . افظر ! إن الناس ينتظرون العدل في كل تصرفات الوزير . وهي سنة العدل المعروفة منذ أيام حكم الإله في الأرض . والناس يقولون عن كاتب الوزير « انه كاتب عادل » . أما الذي يقيم العدل بين جميع الناس فهو الوزير » .

«انظر! دع الرجل الذي يؤدى وظيفته يعمل حسبها يؤمر به . واعلم أن نجاح الرجل هو أن يعمل حسبها يقال له ، ولا تتوان قط في إقامة العدل، وهو القانون الذي تعرفه . واعلم أنه جدير بالملك ألا يميل إلى المستكبر أكثر من المستضعف » .

, انظر فى القانون الملقى على عاتقك (تنفيذه) ، .

ويلاحظ هنا أن أهم تشديد فى كل هذه الوثيقة الحكومية ينصب على العدالة الاجتماعية . فلم يكن الغرض من الوزارة إظهار تفضيل الامراء والمستشارين على غيرهم أو استعباد أحد من أفراد الشعب . بل إن كل عدالة تجرى يجب أن تكون حسب القانون فى كل قضية ، على ألاينسى الوزير أن

وظيفته بارزة جدا ولذلك كانت كل تصرفاته معروفة ظاهرة بين الناس حتى إن المياه والرياح كانت تذيع أخباره بين كل الناس . ولا تعنى العدالة أن يقع أى ظلم على من لهم مكانة سامية كما حدث فى القضية الشهيرة التى ينسب أمرها إلى الوزير القديم « خيتى » المننى الأصل، وهو الذى حكم فيها ضد أقاربه مع أن الحق كان فى جانبهم، وليس هذا من العدل فى شىء .

وتعنى العدالة من جهة أخرى الحياد المطلق والتسوية بين الناس دون تميير فرد على فرد، فيكون سواء الديك من تعرفه ومن لا تعرفه ومن قرب من الملك ومن لا علاقة له بأحد من بيت الملك . إن إدارة الامور بتلك الكيفية تضمن للوزير الاستمرار الطويل في منصبه . ومع أن الواجب المحتم على الوزير أن يظهر منتهي الحكمة عند الغضب ، فيجب عليه أن يجعل من موقفه ما يكسبه احترام الشعب له بل رهبتهم مئه ، ولكن هذه الرهبة يجب أن يكون عمادها الوحيد إقامة العدل من غير تمييز ، لأن « الرهبة الحقيقية من الأمير هي إقامته للعدل ، : ومن ثمملا يكون في حاجة إلى تـكر ار ارهاب الناس بالشدة والغطرسة ` إذ أن ذلك يولد تأثير اكاذ ما عنه بينهم . فإقامة العدل كافية وحدها لأن تكون لهم رادعاً . والناس يتطلعون إلى العدالة في ديوان الوزير ، لأن العدالة كانت قانونه المعتاد منذ أن قام بالحكم إله الشمس فوق الأرض. بذلك كان قدماء المصريين في العهد الاقطاعي ينظرون إلى الوراء خلال ألف السنة التي مكتما الاتحاد الثاني وما قبله إلى عهد الاتحاد الأول الذي كان قائمًا في دهليو يوليس، مدينة الشمس. ومنذ ذلك العهدكان الوزير هو الشخص الذي يذكر في أمثالهم بأنه والذي سيقيم العدل بين الناسكلهم . ونجاح الرجل كان يتوقف على مقدرته في تنفيذ التعليمات واتباعها، وعلى ذلك لا يتوانى في تصريف العدالة، ولا ينسى أن الملك يحب الضعيف ومن لا ناصر له أكثر من المستكبر.

أما فيما يختص بالأراضى التي يحتمل أن تكون أملاك الملك وكذلك ما يتعلق بملاحظة الموظفين المكلفين برعايتها، فإن الملك قد ختم ذلك القانون الذي يعتبر بحق. دستور اعلان الحقوق للفقراء، (Magna Carta) بالكلمات التالية: . راع القانون الذي ألق على عاتقك ، .

هل هي رؤية الملك الأمثل الذي ذكره ، إبور ، أمام البلاط؟ أوصورة الفساد القاتمة التي صورها « الرجل التعس »؟ أورؤية ذلك المنظر المؤثر الذي دل على الاضطهاد الرسمي وكشفته لنا قصة ، الفلاح الفصيح »؟ أي هذه العوامل هي التي أحاطت أخيرا العرش الملكي بجو من العدالة الاجتماعية حتى أن تنصيب رئيس الوزراء وقاضي القضاة في الدولة — (لأن الوزير الاعظم كان يلقب أيضا بذلك اللقب الأخير) — جعل الملك يلتي خطاب عرش ليكون بمثابة تصريح رسمي من رئيس البلاد الاعلى إلى أكبر موظف في الهيئة المتنفيذية يضمنه المبادئ الأساسية التي تقوم عليها العدالة الاجتماعية !؟

إننا الآن بالطبع نستطيع القول بأن تلك الوثيقة الرسمية المفعمة بروح العدالة الاجتماعية كانت هي النتيجة المباشرة لتلك المقالات المصرية الاجتماعية التي طالعناها فيما تقدم . وتوجد بعض الادلة على صحة ذلك الاستنتاج ، إذ أن نفس الرعاية التي أظهر ها الملك في هذه التعليمات بتفضيله الضعيف على المستكبر أو العنيف القلب ، يوجد مثلها في تحذيرات « إبور » . وعلى وجه عام فإن خطاب تنصيب الوزير يتفق تمام الاتفاق مع تعاليم تلك المقالات المصرية الاجتماعية .

وسواء أكان المقصود من سياسة الملك الاجتماعية المذكورة فى مقاله ذلك هو استجابة ظاهرة لتلك المقالات أم لا ، فليس لذلك أهمية ذات شأن ، إذ أنه من الظاهر جدا أن موضوع « الضمير » فى ذلك العصر الاقطاعى قد صار يعد شيئا أكثر من كو نه مجرد تأثير خاص بسلوك الفرد ، فقد صار « الضمير ، فى الواقع قوة اجتماعية ذات تأثير عظيم فى الحياة الاجتماعية لأول مرة فى التاريخ البشرى .

ومن الواضح أن الملك قد صار منقادا لنفوذ المفكرين الآخلاقيين فى ذلك العصر ، وأن سياسة العدالة الاجتماعية صارت تكون جزءا من هيكل النظام الحكومى . وقد انتهى عهد نمك الأيام الحالية التيكان يعتبر فيها سلوك الإنسان الخلق مرضيا إذا رضى عنه الآب والام والإخوة والاخوات ، وجاء العهد

الذي يصح أن نسميه عصر « الضمير ، الاجتماعي ، وهو الذي بحلوله بزغ عصر الأخلاق .

وقد رأى أنصار ظهور المخلص الاجتماعى أن حلمهم ذلك قد تحقق فيما يختص بظهور الملك العادل وذلك عندما اعتلى « امنمحات الأول^(۱) » عرش الملك . فاذا كان من أمر المصلحين الذين كانوا أقل خيالا فى مطامحهم وأعنى بهم الذين كان أساس آمالهم إنشاء جيل جديد من الموظفين العدول ؟ الحقيقة الواقعة أنه لا يمكن فصل أحن المنهجين عن الآخر ، لأن حكم الملك العادل لا يكون له بمفرده تأثير يذكر إذا لم يعتمد على طائفة من الموظفين العدول ليقوموا بتنفيذ السياسة الملكية العادلة . وقد كان الملك « أمنمحات الأول » ليقومو ابتنفيذ السياسة الملكية العادلة . وقد كان الملك « أمنمحات الأول » يؤمن بتلك الحقيقة إيمانا راسخا ، ولعدم ثقته بالناس كان ضعيف الأمل في أن تأتى استقامته بمفرده بالنفع المأمول . على أن مفكرا مثل مؤلف قصة « الفلاح الفصيح » (الذي نجهل اسمه الآن)كان يتطلع إلى ظهور نتائج ماكتبه ، ولدينا بعض الأدلة التي تثبت أنه لم يخب ظنه .

ومع أنه لم يصل إلينا شيء يذكر من الوثائق التي تكشف عن كيفية سير نظام الحكومة المصرية في ذلك العهد، فإننا نجد من جهة أخرى أن النقوش الجنازية التي دونت على مقابر حكام المقاطعات والموظفين في ذلك العهد الاقطاعي قد كشفت لنا عن عقائدهم الاجتماعية . وإن السائحين الذين صعدوا في النيل في وقتنا هذا ليذكرون زيارتهم لتلك المقابر إذكانت تحملهم البواخر النيلية لمقابر « بني حسن » . ومن الجائز أن قبر «أميني » ، ذلك الآمير الاقطاعي ورئيس الحكومة الاقطاعية في تلك الجهة ، لم يترك إلا أثرا بسيطا في أذهان أمثال أولئك السائحين . ولكن الواقع أن ذلك القبر يعد أثرا جليل القدر في التاريخ الاجتماعي لذلك العهد ، إذ نجد فيه على الأقل مثلا يثبت أن الرجال الذين قاموا بالحملة الاجتماعية المقدسة قد كان لحملتهم بعض التأثير على جيل الموظفين الجدد ، إذ يقص علينا « أميني » هذا في نقش كتب على باب مزار الموظفين الجدد ، إذ يقص علينا « أميني » هذا في نقش كتب على باب مزار

⁽١) أول ماوك الأسرة الكانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٩٧٠ ق.م.)

«لا توجد بنت مواطن قد عبثت بها ، ولا أرملة عذبتها ، ولا فلاح طردته ، ولا راع أقصيته ، ولا رئيس خمسة سلبته رجاله مقابل ضرائب (يعني لم تسدد) . ولا يوجد بائس بين عشيرتي ، ولا جائع في زمني . وعند ماكانت تحل بالبلاد سنون مجدبة كنت أحرث كل حقول مقاطعة «الغزال » (يعني مقاطعته) إلى حدودها الجنوبية وإلى حدودها الشمالية ، محافظا بذلك على حياة أهلها ومقدما لهم الطعام حتى أنه لم يوجد بها جائع قط . وقد أعطيت الأرملة مثل ذات البعل ، وإنى لم أرفع الرجل العظيم فوق الرجل الحقير في أي شيء أعطيته . ثم أقبل بعد ذلك الفيضان العظيم بالغلال الغنية والخيرات الكثيرة ، ولكني مع ذلك لم أجمع المتأخر على الحقول (يعني من الضرائب) » .

ويخيل إلينا أننا نسمع فى ذلك السجل صدى الأوامر التى صدرت إلى الوزير الاعظم عند تنصيبه ، وبخاصة فى العبارة التى يقول فيها «أمينى » (١): (إنى لم أرفع الرجل العظيم فوق الرجل الحقير فى أى شىء أعطيته » .

وإنه لمن السهل علينا أن نعتقد أن أميراكذاك الأميركان حاضرا بالبلاط الملكي وسمع الفرعون وهو يلتي تلك الأوامر على رئيس وزرائه عند تنصيبه وإذا كانت إدارة « أميني » لمقاطعته قد وصلت إلى أى حد بما يدعيه فيماكتبه فإنه يجب علينا أن نستخلص من ذلك أن تلك التعاليم الاجتماعية التي فاه بها الحكاء أمام البلاط الملكي كانت معروفة لدى العظهاء في طول البلاد وعرضها وإذا وصل بنا الاستنتاج إلى أن ماكتبه « أميني » مغالى فيه حتى جعل حكمه يبلغ درجة عظيمة من المثالية ، فإنه لايزال أمامنا المغزى الذى نستخلصه من رغبته في إحداث مثل ذلك التأثير بما نقرؤه في ترجمة حياته .

وهذه الحالة تنطبق على سجلات بعض حكام المقاطعات الآخرى فى نفس ذلك العصر ، كالتى نجدها منقوشة فوق محاجر المرمر فى «حَتنوب»، وهى تحتوى على عدة تأكيدات من ذلك الصنف ، تقص علينا أن الشريف كان رجلا ، أنقذ الأرملة وواسى المتألم ، ودفن المسن ، وأطعم الطفل ، وعال كل

⁽١) « أميني » مختصر اسم « المنمحات » .

مدينته فى زمن الجدب ، وهو الذى أطعمها فى وقت القحط ، وهو الذى زودها بسخاء بلا تمييز ، فكان عظهاؤها فى ذلك مثل أصاغرها . .

كذلك ذكرنا فيما تقدم أنه في عهد «سنوسرت (۱) الأول » بن «امنمحات الأول » قد افتخر شريفان في ترجمة حياتهما الجنازية بأنهما كانا قاضيين يقو مان بتأدية وظيفتهما بالعدالة وبدون محاباة أو تفكير في أي مكافأة (يعني رشوة) يأخذانها، وقد قصاعلينا افتخارهماذاك بنفس لغة النصائح الموجهة إلى «مريكارع » فدلا بذلك على أن المثل العليا الاجتماعية التي فاه بها ذلك الحكيم الملكي فدلا بذلك على أن المثل العليا الاجتماعية التي فاه بها ذلك الحكيم الملك ذلك العصر الاقطاعي . فن البديهي إذن أن المثل العليا للعدالة الاجتماعية التي تشغل مكانا بارزا جدا في آدب ذلك العصر لم يقتصر تأثيرها على الملك في الملك في الملك في المناب بل أحدثت كذلك تأثيرا عميقا بين طبقة الحكام في كل مكان .

ولا شك أننا نجد فى ذلك انقلابا عظيما. فالتشاؤم الذى كان ينظر به رجال العصر الإقطاعى الأول إلى الحياة الآخرة، أو يتأملون به مصير الجبانات المخربة التى يرجع تاريخها إلى عصر الأهرام، أو اليأس الذى كان ينظر به بعضهم إلى الحياة الدنيوية، كل ذلك قد قوبل بتيار مضاد فى انجيل من الحق والعدالة الاجتماعية أخرج للناس فى نصائح ملؤها الأمل على لسان أولئك المفكرين الاجتماعيين الأكثر تفاؤلا، وهم رجال رأوا الأمل فى القيام بجهود إيجابية توصل إلى الاحوال المرضية.

ويجب علينا أن نعتبر تحذيرات ، إبور » وتنبؤات ، نفرروهو » وقصة « الفلاح الفصيح » أمثلة رائعة للقيام بمثل تلك الجهود ، وأن كتاباتهم هي الأسلحة التي استعملتها أقدم طائفة قامت بالجهاد في سبيل الاصلاح الخلق والاجتماعي .

والواقع أن منتهى ما كان يرغب فى الوصول إليه رجل مثل « إبور » يتمثل فى خطاب العرش الذى ألقاه الملك عند تنصيب رئيس وزرائه. فإن

⁽١) سنوسرت الأول « سوزستريس » (١٩٨٠ – ١٩٣٥ ق٠م٠)

الملك الذي في قدرته أن يلقى خطاباكهذا يقرب في سموه من ذلك الملك الأمثل الذي كان يحلم بظهوره « إبور » ومن الملك الذي اعتقد « نفرروهو » أنه قد عثر عليه . ولدينا ما يحملنا من جهة أخرى على الاعتقاد أن « أميني » الذي كان أميرا لمقاطعة « بني حسن » يمثل تمثيلا صادقا جيل الموظفين الجدد العدول الذين كان يأمل مؤلف قصة « الفلاح الفصيح » أن يراهم قائمين بأعباء الحكومة في مصر .

وقد لاحظنا فيما سبق أن مجرد استحسان الأسرة لسلوك الفرد لم يعد بعد كافيا فى ذاته . فقد أتى عصر التفكير بمثل عليا للسلوك الشخصى ير تبط أمرها بطبقات بأسرها من المجتمع ، فصار السلوك عرضة لحكم المجتمع عليه ، وهذا الحسكم الاجتماعي قد وضع الآن فى فم إله الشمس . فقد قال الفلاح الفصيح لمدير البيت العظيم : « أقم العدل لرب العدل » ، وكذلك أشار فى كلامه إلى « هذه العكمة الطيبة التى خرجت من فم « رع ، نفسه و هى تكلم الصدق و افعل الصدق » ، و فيها كما نذكر أن « الصدق ، معناه كذلك الحق و العدالة « ماعت » .

كذلك رأينا في أو امر الملك للوزير الأعظم أن ذلك المنهاج الخاص بالشفقة الاجتماعية والعدالة الاجتماعية ، وهو الذي يفضل فيه الملك الرجل الضعيف ومن لا ناصر له على الرجل القوى المستكبر ، كان يرمى بوضوح إلى غرض دينى ينسب إلى الإله ، فيقول الملك في ذلك: « إنها لعنة من الإله أن يظهر الإنسان ضيراً ، فنرى من ذلك أن آراء العدالة الاجتماعية عندما وجدت منفذا عمليا لظهورها أولا في الملكية المثلى ، ثم بعد ذلك في أخلاق الفرد المسكلف بإقامتها ، انعكست صورتها على أخلاق إله الشمس ونشاطه ، وهو الملك الأمثل . أي أن وجوب المحافظة على العدالة الاجتماعية التي أخذ الناس يشعرون به في قرارة أنفسهم قد صار أمرا إلهيا واعتقدوا في الحال أن مقت أنفسهم للظلم في قرارة أنفسهم قد صار أمرا إلهيا واعتقدوا في الحال أن مقت أنفسهم للظلم مو نفس مقت الإله للظلم ، وبذلك صارت مثلهم العليا في الاخلاق هي كذلك مثل الإله فاكتسبت بهذا المظهر الجديد قوة مسيطرة جديدة .

وبذلك كان من السهل الاعتقاد ، زيادة على ما ذكر ، بأن العدالة هي

القانون التقليدى لوظيفة الوزير منذ الزمن الذى كان يحكم فيه إله الشمس مصر. وكذلك حكم الفرعون الذى جرى وراثيا مدة ألنى سنة منذ تأسيس الإتحاد الأول، وكان المفروض فيه أنه كان استمر ارا لسريان دم « رع » وسلالته ، كان كذلك استمر ارا لإقامة نظام العدل القديم الذى أقامه إله الشمس على الارض. وفد ألتى الملك أمره بكل وضوح على الوزير، غير أنه لم يتردد فى الوقت نفسه فى الالتجاء إلى المحكمة العليا، فسكان على الوزير أن يقيم العدل الان الإله الأعظم الذى يشرف على الدولة يمقت الظلم، وليس ذلك اتباعا الأمر الملك فقط.

ثم إنه بعد انقضاء حوالى إثنى عشر أو ثلاثة عشر قرناً من الزمان على ذلك العصر نجد أن أنبياء بنى إسرائيل يعلنون بقوة سيادة ديهوه ، الخلقية على سيادة الملك عندهم . ولكن كم كان عدد الأجيال التي لابد أنهم سلخوها فى خدمة الدين بغير فائدة ظاهرة قبل أن يتغلب صراع الأنبياء هذا ويحرز النضرحتى عبر عن روح الحكومة العبرانية ، وإن كان ذلك التعبير فيها أقل بكثير عما عبر به الملوك فى العصر الإقطاعى عند قدماء المصريين ، مع أننا لم نعتد ربط مثل تلك المبادئ الحكومية بالشرق القديم بل ولا بالشرق الحديث .

ويرجع تأثير تلك المثل العالية للعدالة الاجتماعية التى وجدت سبيلها إلى الحكومة بدرجة عظيمة ، إلى الشكل الذى انتشرت به بين كل طبقات الشعب فإن مثل تلك العقائد لو كانت أعلنت بين القوم فى شكل ممادى مجردة لما لفتت إليها الأفكار ولما أحدثت إلا تأثيرا قليلا ، بل ربما لم تحدث أى تأثير مطلقا . فإن المصرى كان يفكر دائما فى الأشياء المعينة والصور المجسمة . فهو مثلا لا يفكر فى السرقة بل يفكر فى السارق نفسه ، ولا يفكر فى الحب فهو مثلا لا يفكر فى الفقر بل فى الرجل الفقير وهلم جرا . ولذلك لم ير بل فى المحب ، ولا يفكر فى الفقر بل فى الرجل الفقير وهلم جرا . ولذلك لم ير الفساد الاجتماعى بل شاهد المجتمع الفاسد . ولهذا كان الوزير « بتاح حتب » ، الفساد الاجتماعى بل شاهد المجتمع الفاسد . ولهذا كان الوزير « بتاح حتب » ، وهو رجل يقوم بأعباء الوظيفة بإيمان سليم فى قيمة السلوك الحق والإدارة الحقة ليخلق بذلك السعادة ، وسلم إرث تلك التجربة إلى إبنه . وكذلك « الرجل

التعس، كان رجلا حل به الظلم الاجتماعى فعبرعنه فى صورة روح يائسة تعبر عن يأسه وأسبابه . وكذلك أيضاً كان « إبور » رجلا تسكن فى نفسه الرؤية التى أدركت كلا من الفساد الفتاك بالمجتمع والحلم الذهبى بظهور الملك الأمثل الذى يصلح كل شىء . وكذلك أيضا كان «الفلاح الفصيح» رجلا يتألم من اضطهاد الموظفين له ويصرخ بأعلى صوته مستغيثاً من ذلك ، وكذلك أيضا كانت أوام ، أمنمحات » صيغت فى قالب ملك يتألم من الخيانة المخزية التى حدثت له وجعلته يفقد كل ثقة بالناس فألقي تجاريبه تلك إلى ابنه .

فكانت النتيجة اللازمة لذلك أن تلك العقائد التي تعزى إلى أولئك المفكرين الاجتماعيين قد وضعت في شكل تمثيلي، وأن العقائد نفسها قد عبر عنها في هيئة محاورات نشأت عن تجارب وحوادث مثلت كأنها حقائق واقعية.

وإننا نكرر هنا أن مثل تلك التعاليم كانت بلا شك تلاقى فى الشرق، بل ما زالت تلاقى فى كل بقاع العالم، أعظم الإقبال والإنتشار بوضعها فى تلك الصور، وهى الصور التى صورت بها بكل بساطة مشكلة الألم الإنسانى التى مثلت لنا بشكل بارز فى قصة «أيوب» (عليه السلام). كما أن قصة «إحقار» التى كشف حديثا عن أصلها الآرامى القديم تعد بلا شك مقالا معبرا عن غباوة جحود الجميل و نكر انه، وقد صيغت فى نفس ذلك الطراز. فى حين أن أمثال عيسى » (عليه السلام) وهى أجمل تلك القصص جميعاً ، تتبع فى تصويرها نفس الطريقة والصورة اللذين كانتا شائعتين فى الشرق مدة أزمان مضت . و «أفلاطون » عندما أراد أن يتحدث عن خلود الروح اتخذ لمن موت «سقراط» موضوعا مسبرحيا عبر فيه عن العقائد التى أراد أن يضعها أمام «سقراط» موضوعا مسبرحيا عبر فيه عن العقائد التى أراد أن يضعها أمام الناس فى تضاعيف محادثة جرت بين «سقراط» وصحبه (۱).

وبما هو جدير بالنظر هل أن تلك الأبحاث الاخلاقية والفلسفية ، التي تلقى في صورة محاورات بعد التمهيد لها بمقدمة تجعل الموضوع كله في هيئة قصة ،

⁽١) أن وجه الشبه بمحاورات « افلاطون » قد لاحظه الأستاذ « جاردنر ». في كتابه.

كان لها أثرها فى ظهور الشكل الحوارى فى آسيا وأوربا؟ على أن انتشار قصة و إحقار ، انتشارا عاما فى أنحاء العالم يدل على مدى تنقل مثل ذلك الإنتاج الأدبى . وقد يكون من الأمور الجديرة بالذكر فى موضوعنا أن أقدم صورة لقصة واحقار ، هذه قد نبتت فى مصر .

وقد لاحظنا من قبل أن المثل العليا الاجتماعية التي نبتت في العهد الإقطاعي قد أضيفت إليها سلطة مقدسة وعزيت إلى أصل إلهي . ومن المهم أن نفحص الدليل على قيام تلك الجقيقة ، وأن نثبت بصفة قاطعة شخصية ذلك الإله المقصود الذي كان يلتجيء إلى سلطانه رجال المثل العليا في الاجتماع . إن هذه المثالية الاجتماعية — التي هي أقدم شيء من نوعها — كانت بلا جدال مر تبطة بحكم إله الشمس على الأرض . وقد لاحظنا فيها تقدم أنه كان إلها للشئون البشرية في عالم الأحياء ، في حين أن «أوزير» كان إلها للموتى . ولا نزاع في أن الملك الأمثل هو «رع» إله الشمس الذي كانت تجدد فجامة حكمه الخلق في الفرعون الذي كان خليفة له على الأرض .

ولقد التجأ الملك في أو امره لرئيس وزرائه إلى التصريح بأنها أتت وفقاً لحمكم إله الشمس وجرياً على تقاليده المتبعة . فالإله « رع » هو الذي كان صاحب السيادة على أفكار أولئك الفلاسفة الاجتماعيين في العهد الإقطاعي ، لاننا نجد في « أغنية الضارب على العود » حتى مومية المتوفى قد وضعت أمام إله الشمس ، وإليه كان يتطلع « الرجل التعس » ليبرئه في الآخرة . وقد كان «حع خبرورع سنب » كاهنا لإله الشمس بمدينة « هليوبوليس » . كما أن رؤية « إبور » للملك الأمثل الذي سيأتي في المستقبل قد برزت إليه من ذكريات النعيم المقيم لحمكم « رع » على الأرض بين الناس ، في حين أن ملخص كل شكاوي « الفلاح الفصيح » كانت تنحصر في « تلك الكلمة الطيبة التي خرجت من فم «رع » نفسه : تـكلم الصدق وافعل الصدق (أو الحق) لانه عظيم وأنه قوي وأنه دائم » .

فالواجبات الحلقية التي تظهر في اللاهوت الشمسي ليست إذن إلا صورة نجر الضمير

لأقدم بعث اجتماعى جديد لم نعرف نظيرا له فى تاريخ العالم. وقد كان من أهم نتائج الملكية المثلى لحسكم إله الشمس الأمل فى تكرار مثل ذلك الحسكم الطافح بالخير ، وكان ذلك الأمل هو الذى جلب معه فكرة انتظار ملك مخلص يأتى فما بعد .

ومن الواضح هنا ، كما فى منون الأهرام ، أن علاقة و أوزير ، بالمثل العليا للحق والعدالة فى ذلك الوقت كانت أمرا ثانويا ، لأن و أوزير ، كان قد حوكم ثم اتضحت براءته فى قاعة و هليو بوليس ، العظمى ، أى أنه حوكم أمام محكمة الشمس التى كان معترفا بها أنها المحكمة التى لابد أن يفوز الإنسان ببراءته أمامها ، وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه أسطورة و أوزير ، لا تزال فى دور التكوين والتأليف .

أما رفع « أوزير » إلى منصب قاض فيما بعد فليس إلا صبغا لوظائفه بالصبغة الشمسية على أساس القضاء الشمسي السائد في متون الأهرام ، إذ نجد في تلك المتون أن « أوزير ، قد صعد بالفعل فوق عرش « رع » السماوى . ثم نراه الآن يستولى على كرسي القضاء الخاص « برع » ؛ وبتلك الكيفية صار إله الشمس المتصرف الخلق العظيم الذي يحاكم أمامه الجميع بمقتضي العدالة ، ولم يستثن من بينهم أحدا حتى ولا « أوزير » هذا . ولا داعي لأن ننكر هنا وجود بعض المبادىء الخلقية في العقيدة الأوزيرية المبكرة ، وهي المبادىء التي غيد بعض الدلائل على وجودها في المذاهب المحلية لعدة آلهة مصرية من عصر الأهرام . ولكن يجب علينا لهذه المناسبة ألا ننسي أن متون الأهرام ملكا أمثل وصديقا للإنسان ، لأنها تميط اللثام عن عداوته للموتي وخصومته ملكا أمثل وصديقا للإنسان ، لأنها تميط اللثام عن عداوته للموتي وخصومته العهد الإقطاعي . وسنري الآن أن «أوزير » و « رع » قد وضعا جنبا إلى جنب في التفكير الخلقي في ذلك العصر .

وكان لابد فى ذلك الوقت لـكل عظيم وكل قوى أن ينتظر المحاكمة أمام

محكمة العدل، على أن يكون ذلك على قدم المساواة مع الفقير ومن لاناصر له في المعاملة وفي الأحكام، وتلك المعاملة لم تذكر فقط في الاعتقادات الدينية والمبادى. الاجتماعية، بل ذكرت كذلك رسميا في السياسة الملكية. ولا يكاد يكون هناك أي شك في أن مثل تلك العقائد الحاصة بالعدالة الاجتماعية كا وجدناها في ذلك العصر قد ساعدت مساعدة عظيمة على نمو الاقتناع بأن الإنسان الذي يصير مقبولا أمام محكمة عدالة الإله العظيم ليس هو الرجل الذي يكون صاحب سلطان وثروة وإنما هو رجل الحق والعدالة (١):

وقد تأثر الكهنة الذين كانوا مشتغلين باللاهوت في ذلك العصر تأثراً عظيما بذلك الميل إلى نشر الديمقر اطية (أى تعميم المساواة بين الناس)، ويكشف لناعن مبلغ ذلك التأثير خطاب أساسي هام لإله الشمس عثر عليه في متون التوابيت الخشبية التي يرجع تاريخها إلى ذلك العصر الإقطاعي، إذ يقول: هلقد خلقت الرياح الأربعة ليتنفس بها الإنسان مثل أخيه الإنسان مدة حياته. ولقد خلقت المياه العظيمة ليستعملها الفقير مثل السيد».

« لقد خلقت كل رجل مثل أخيه ، وحرمت عليهم إتيان السوء، ولكن. قلوبهم هي التي نكثت ماقلته ، .

« لقد جعلت قلوبهم لا تغفل عن الغرب (الموت والقبر) ليقربوا القرامن للالهة المحلية (٢٠) .

وإنه لامر هام جدا أن نجد فى ذلك المتن المساواة التامة بين بنى الإنسان فى قوله: ولقد خلقت كل إنسان مثل أخيه ،

⁽١) إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

⁽٢) لقد شاهدت تلك الفقرة أولا بتابوت «ست حزحتب» Cairo 28085 وهي التي وضعت في طبعة المعهد الشرقي تحت B 3 C Bersheh 3 Cairo والى مدين للأستاذ « دى بك » (De Buck) لأنه استلفت نظرى إلى تلك المتون المماثلة لذلك المتن إذ يوجد أحدها في القاهرة والآخر في متحف برستول، والمتن الآخر هو الأصح ولكن المتن (B 6C) يعطينا صورة أوفي من غيره وقد استعملت كل الثلاثة في ترجمتي هذه.

وقد نظر إلى ذلك البيان فورا من ناحيته الخلقية فى قوله: « ولقده حرمت عليهم إتيان السوء ولكن قلوبهم هى التى نكثت ماقلته ». وإن ظهور مثل تلك النظرة _ إلى الإنسائية _ التى قضت على كل الفوارق الاجتماعية فى نظر الحفالق العظيم عند خلقه للناس وجعلهم سواسية أمام المسئولية الحلقية _ يعد أمرا غريبا ، ويزيد فى غرابته ظهوره قبل عصر المسيح (عليه السلام) بألنى سنة ، أى أنه كما نلاحظ كان معاصرا على وجه التقريب لعهد الملك « حورابى ، (۱) الذى سن فى قانو نه العظيم : « إن كل العقوبات والاحكام القضائية تدرج حسب مراكز المذنبين الاجتماعية أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية ، وهذه الحقيقة تفسر لنا على الفور ، السبب الذى من أجله نعتبر أن ما أضافته المدنية البابلية إلى إرثنا الخلق فى غربى آسيا ، فى حكم العدم .

ومن ثم نرى أن الحقوق الحاصة التي كان يدعيها العظهاء والأقوياء لانفسهم من الإجلال والسعادة في عالم الآخرة ، أخذت تختني وتزول . ومن هنا أيضا بدأت عقيدة المساواة بين البشر في التمتع بنعيم الآخرة تأخذ مجراها، بمعنى أن عالم الحياة الآخرة قد صار ديمقر اطيا لـكل البشر على السواء .

والآن يجب علينا أن نحاول إدراك تأثير الآراء الحاصة بالعدالة الاجتماعية التى ظهرت فى العهد الإقطاعي إزاء تطور الاعتقادات المصرية القديمة فيما يتعلق بمصير الأرواح البشرية فى عالم الحياة الآخرة .

⁽١) هو ملك بابل حكم حوالى عام ١٩٠٠ ق . م . ومن أهم أعماله القانون الشهير الذي وضعه لبلاده .

الفصل لتالث عشر إقبال عامة الشعب على اعتناق مثل الآخرة الملكية وانتشار السحر

إن عقيدة التشكك إزاء الاستعداد للحياة الآخرة ، بما فيه من بناء قبرضخم بجهر بالاساس الجنازى الوفير ، ثم التسليم بعدم فائدة العتاد المادى للمتوفى ، لم غرج أمرهما عن كونه موجة عكسية صغيرة وسط تيار محيط الحياة المصرية ، وذلك بالرغم مما رأيناه من المبالغة فى شأنهما فى العصر الإقطاعى . والواقع أن مثل تلك الاتجاهات كانت ، من جهة ، من مستلزمات عقيدة التشاؤم واليأس المطلقين ، كما كانت من جهة أخرى من مستلزمات الاعتقاد (الآخذ فى النو) بضرورة التزود بالقيم الحلقية للحياة الآخرة ، ولم تخرج تلك الآراء عن كونها ثورية لم تحمل فى تيارها الجم الغفير من الشعب المصرى ، ولذلك لما صارت سمادة الآخرة حقا مشاعا لجميع المتوفين سارع عامة الشعب إلى التعلق بهذا الامتياز الجديد الذى يحمل لهم حق التمتع بذلك المصير السماوى الفخم الذى كان من زمن بميد موقوفا على الفرعون فقط ، فأقبلوا على تلك الشعائر الجنازية وواصلوا القيام بالمحافظة على طقوسها .

وقد استمرت العناية بإقامة تلك الشعائر تزداد و تنتشر دون أى التفات إلى ذلك الصمت البليغ والخراب البادى اللدين كانا يخيان فوق هضبة الأهرام وفوق جبانات أولئك الأجداد . وباستعراض الماضى نجد أن والد مريكا رع » ، بالرغم من أنه كان يشعر شعوراً قوياً بتلك الأهمية الخطيرة للحياة الفاضلة ، لم ير أن يزين لابنه الاستغناء عن القبر ، إذ يقول له : « زين مثواك (يعنى قبرك) الذى فى الغرب وجمل مقعدك فى الجبانة » ، ولكنه لم يفته

فى الوقت نفسة أن يضيف إلى ذلك قوله: «كإنسان مستقيم أقام العدالة، لأن ذلك هو ما يعتمد عليه القلب».

ويتضح من ذلك أن هذا الملك المسن لم يكن يعتبر القبر المتين وحده كافيا لضمان السعادة فى الحياة الآخرة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نرى أن « إبور » قد قال للملك : « وفضلا عنذلك فإنه من الخير أن تقيم أيذى الناس الأهرام وتحفر البحيرات وتغرس خمائل جميز الآلهة » .

وقد كان يعد فقدان القبر فى نظر طائفة الموظفين الأثرياء أرهب عاقبة مكنة لعدم ولاء المتوفى الملك ، ولذلك قال أحد الحكاء لأولاده : « لا قبر لإنسان خارج على جلالة الملك ، بل إن جثته سيلقى بها فى الماء (١) . .

ومن أجل ذلك اتجه الأشراف في ذلك العصر إلى بناء المقابر وتجهيز معداتها طبقا لما كانت عليه الحال قديما. والواقع أنه لم يعد بعد في قبضة يد الملوك ذلك السلطان المطلق على الحكومة حتى يمكنهم أن يتخذوا منها بجرد هبئة منظمة لإقامة المقبرة الملكية الهائلة ، ومع ذلك فإن طبقة الموظفين المحكفين بإقامة مثل تلك المبانى لم يترددوا في موازنتها بالجيزة (جبانة الجيزة) ، فقد أظهر ومرا ، أحد مهندسي الملك ، سنوسرت الأول ، ارتياحا عظيما عندماكلف من قبل الملك ، ليقوم له ببناء مثوى أبدى تفوق شهرته «رُستا» (يعني الجيزة) ويكون أثاثه أحسن من أثاث أي مكان آخر وفي المنطقة الممتازة الخاصة بالآلهة . فكانت عمد ذلك المثوى تخترق السماء ، والبحيرة التي حفرت فيه قد وصلت إلى النهر ، وأبو ابه العظيمة التي تناطح السماء قد أقيمت من أحجار طرة البيضاء . وقد فرح «أوزير » ، أول أهل الغرب ، بكل آثار سيدى (الملك) ، كما سررت أنا نفسي وابتهج قلي بما قد قمت بإنجازه (٢) » . و « المثوى الآبدى »

⁽١) إن « الرجل التعس » يشير إلى المصير المشابه لذلك بالجثة المنبوذة .

⁽٢) والواقع أن الحفائر التي قام بها متحف المتروبوليتان بمدينة نيويورك قد كشفت ما عليه تلك المنطقة التي ضمت ذلك الهرم الذي أقامه «سنوسرت الأولى» باللشث من الفخامة التي تفوق حد العادة المألوفة .

المذكور هنا هو قبر الملك ، وهو يشمل كذلك المزار أوالمعبد الجنازى الذى يكون قبالته ،كما يدل على ذلك الوصف المذكور .

ومع أن مقابر أشراف الإقطاعات لم تعد تبنى بعد حول هرم الملككا كان يفعل الأشراف ورجال الإدارة فى زمن عصر الأهرام، وصارت الآن منبثة فى إقطاعاتهم فى طول البلاد وعرضها، فإنهم استمروا يتمتعون إلى حدما بالهبات الجنازية التى كانت تصرف من الخزانة الملكية، تشهد بذلك الصيغة الدينية المألوفة: «هى قربان يهديه الملك»، وهى الصيغة التى كانت شائعة فى المقابر التى حول الأهرام — فصارت الآن تنقش بكثرة بمقابر الأشراف.

على أن هذه الحال لم تعد مقصورة على مقابر الأشراف ، إذ أنه بعد التطور الآخير فى معتقدات الطبقات الراقية عن الآخرة وانتشارها بين الشعب ، صار من العادات المعروفة المرعية أن يتضرع كل إنسان إلى الملك حتى يعطيه نصيبا من تلك الهبات الجنازية الملكية ، ولذلك نجد كل طبقات الجتمع حتى أحقر العال حلافونين فى العرابة المدفونة كانوا يتضرعون لنيل «قربان يهبه إليهم الملك » بالرغم من أنه كان من المستحيل طبعا أن تتمتع غمارة الشعب بالمتمازكهذا .

على أننا لا نحصل على فكرة وافية عن تلك العادات الطلية الخاصة بنموين المتوفى فى الحياة الآخرة إلا فى ذلك العهد الإقطاعى . ولا غرو ، فقد صارت تلك العادات الآن متأصلة فى حياة الشعب . وقد حفظت لنا المقابر التى لاتزال باقية إلى الآن فى مقاطعات الوجه القبلى بعض بقايا تلك الشعائر اليو مية والعادية ، وكذلك ماكان خاصا منها بالاحتفالات والأعياد ، مماكان الشعب يظن انه بوساطتها يدخل السرور على الذين قد رحلوا إلى الدار الآخرة حتى تصير حياتهم أكثر مرحا ، وذلك على النمط الذى لاحظناه فى الاحتياطات التى كان يتخذها الأشراف فى عصر الأهرام .

فإن الشريف الثرى «حبزاف» الأسيوطى (حاكم مقاطعة أسيوط) الذي كان يعيش في القرن العَشرين ق . م . أقام لنفسه قبل وفاته تمثالا في

كل من معبدى المدينة الرئيسيين : أحدهما في معبد الإله « وبوات » ، وهو إله محلى قديم لذلك المـكان في صورة ذئب ، ومن ذلك الاسم اشتقت المدينة اسمها « ليكو بوليس » (يعني بلدة الذئب) على يد اليو نان . وأمَّا التمثال الآخر فقد أقامه في معبد « أنو بيس » ، وهو إله معروف في صورة الكلب أو صورة ابن آوى ، وقد كان ذلك الإله يوما ما أحد الآلهة المناهضين « لأوزيرَ » . وكان معبد الإله « وبوات » يقع في وسط المدينة ، في حين أن معبد الإله « أنوبيس » كان يقع بعيدا عنه على ظاهر حدود الجبانة في سفح الجبل الذي نحت في واجهته على مسافة من ارتفاعه ، قبر « حبزافي الفخم . وفد نصب في ذلك القبر تمثالا ثالثا لنفسه أيضا يقوم برعايته كاهنه الجنازي . ولم يكن له إلاكاهن واحد يعني بقيره، ويقوم بالاحتفالات التيكان يرغب فيها، ولكن « حيزافى » دبر ما يازم للكاهن من المساعدة عند الاقتضاء ، بأن عهد بهذه المساعدة إلى كهنة المعبدين وبعض موظني تلك الجبانة ، وقد تعاقد على ذلك مع كل أو لئك كما تعاقد مع الكاهن الجنازي ، معينا بالضبط ما يجب عليهم عمله وما بجب أن يتسلموه من غلات ذلك الشريف في مقابل قيامهم بتلك الخدمات أو مقابل القربان الذي كان يقدم بانتظام كل يوم وفي المواسم الخاصة فيما بعد موت هذا الشريف.

وتلك العقود البالغ عددها عشرة قد دونها ذلك الشريف فى نقوش ظاهرة إلى الآن فوق الجدار الداخلي لمزار قبره . وهي تقدم لناصورة قريبة جدا من تقويم الأعياد التي كان يحتفل بها فى تلك المدينة الأقليمية التي كان يحكمها و حبزافى ،، وهي أعياد كان الاحتفال بها يعم الأحياء والأموات على السواء .

فإذا اتخذنا محتويات تلك العقود أساسا فإن الصورة الخيائية التالية التى نستنبطها من ذلك كفيلة على ما نأمل بالتعبير عن الحياة التى توحى بها تلك العقود.

إن أهم تلك الاحتفالات تلك التي كانت تقام بمناسبة مقدم السنة الجديدة ، فــكانت تقام قبل حلولها ، وعند بدايتها وبعد بدايتها ، فتبدأ الاحتفالات قبل

نهاية السنة القديمة بخمسة أيام فى أول يوم من أيام النسى و الحسة التى تنتهى بها السنة . فكان يرى فى ذلك اليوم كهنة الإله « وبوات ، سائرين فى موكب ، مخترقين شوارع أسيوط وأسواقها ، وكانوا فى نهاية المطاف يخرجون من المدينة حاملين إلههم « وبوات » إلى معبد «أنوبيس ، الذى كان يقع فى سفح جبل الجبانة ، وهنالك يذبح ثور للإله الزائر (يعنى للإله « وبوات ») ، وكان كل كاهن إذ ذاك يحمل بيده رغيفا كبيرا أبيض مخروطى الشكل ، وعند دخو لهم ساحة معبد «أنوبيس » هذا يضع كل منهم رغيفه عند قاعدة تمثال « حبزافى » .

وبعد مضى خمسة أيام من ذلك التاريخ كان ينحدر مدير الجبانة وبصحبته تسعة من موظفيه من فوق تلك الجبال عند حلول المساء ، مارين بأبواب القبور المفتوحة ، التي كانت حراستها موكلة إلى هؤلاء الموظفين ، ثم يدخلون في ظلال المدينة التي في سفح تلك الجبال . وكانت المدينة في تلك الآونة يخيم عليها الظلام إذ كانت تقع في ظلال تلك الجبال المشرفة عليها ، وكان هذا في ليلة رأس السنة الجديدة ، وكانت الأنوار المبعثرة التي أشعلت ابتهاجا بالعيد قد بدأت تنبعث عند الشفق من داخل البيوت ومن الشرفات .

وحينها تكون تلك الفئة ماضية في سيرها بالشوارع الضيقة الواقعة في أطراف المدينة تعترضهم فجأة الأسوار العالية لمعبد الإله وأنوبيس، وعندما يدخلون من بابه العالى العظيم يسألون عن والكاهن العظيم، فيقدم لهم هذا على الفور حزمة من المشاعل، فيأخذونها ويعودون أدراجهم مصعدين في الجبل بتؤدة ومشرفين على المدينة كلما تسلقوا الجبل في عودتهم وحينها يشرفون من فوق الجبل على أسقف المدينة الملتفة في الظلام الدامس كانوا يكشفون في وسطها مجموعتين منعزلتين من الأنوار، إحداهما تقع بالضبط تحت أقدامهم في حضيض الجبل، والأخرى تقع على مسافة بعيدة في قلب المدينة . فيكاننا تشبهان جزيرتين متلائبتين بالنور في بحر من الظلمة يمتد إلى مسافة من تحت أرجلهم . وهاتان المجموعتان من النورها ساحنا المعبدين اللذين كانت الأنوار تسطع في أرجائهما .

وبالرغم من أن سيدهم القديم (۱) ، حيزافى » كان مدفونا فى بلاد النوبة النائية فإنه كان حاضراً بتمثاله المقام فى وسط تلك الأفراح والأعياد التى كانت تعج بهما ساحة ذينك المعبدين . فقد كان تمثاله المنصوب فى المعبد ينعم بعينيه الملتين كان يشرف بهما على الجموع التى كانت تزخر بهم هاتان الساحتان المختالتان بجيال أعمدتهما الزاهية . وكان (يعنى التمثال) يتمتع مثل أصدقائه الأحياء الموجودين أسفل منه بروح ذلك الفيض العميم الذى كان مبسوطا أمامه عندما يشاهد رغفان القربان موضوعة عند قدميه ، وهى التى ذكرنا فيا من أن الكهنة كانت تضعها هناك . وكانت أذناه (يعنى التمثال) تملا نبضجيج آلاف أن الكهنة كانت تضعها هناك . وكانت أذناه (يعنى التمثال) تملا نبضجيج آلاف الإصوات التى كانت تتحالى بالفرح المنبعثة من جماهير المدينة المجتمعين بمعبدى الإلهين يترقبون انقضاء ذلك العام الراحل ويستقبلون العام الجديد ، وكأن أصواتهم اصطفاق بحر يزخر بأمواجه ، ينبعث من بعيد فوق الأسقف المظلمة أصواتهم اصطفاق بحر يزخر بأمواجه ، ينبعث من بعيد فوق الأسقف المظلمة الى أن يصل جرسه المتصائل إلى آذان طائفة حراس الجبانة المرتفعة القائمة بين ظلمات الجبال وهم يشرفون على المدينة في صمت رهيب .

وكانت تطل من فوق رءوسهم بالضبط واجهة تلك المقبرة التي كانت قد أعدت لتضم جثمان سيدهم الراحل «حبراني » . وقد كان المتقدمون في السن من بين أولئك الحراس يذكرونه جيدا ويذكرون الكرم الذي طالما لاقوه على يديه . وأما المحدثون منهم فكان في نظرهم اسم «حبراني » مجرد اسم لا يحمل معنى ما ، فكانوا لا يجيبون إلا متباطئين ومتثاقلين عندما كان شيوخهم يحثونهم على إضاءة أنوار القبر ، وحينما كان يتعجلهم صوت كاهن «حبراني » من أعلى الجبل قائلا : « لا تتأخروا أكثر من ذلك في إضاءة الأنوار » ، وعندئذ يخرج الشرر من قدح الزناد ، وعلى إثره تضاء أول شعلة ومنها تضاء المشاعل الأخرى بسرعة . وكان الموكب الذي يشمل أولئك

⁽١) كان «حبرافي » قد أرسل فيا بعد إلى بلاد النوبة حاكما عليها فمات ودفن بها ، وقد كشف « رزنر » قبره بجهة «قرمة » عام ١٩١٣ . أى أنه لم يشغل قط القبر الذي أعده بأسيوط . ومع ذلك بقيت تقام له الشعائر وتقدم القرابين كما لو كان القبر يضم جنانه .

الحراس يسير حول مرتفع من الجبل فسيح الأرجاء ثم يعود الموكب ثانية للى باب القبر العالى ، حيث يكون فى انتظارهم كاهن « حبزافى » فيدخلون من غير توان إلى مزار القبر العظيم .

وكان يشاهد انعكاس أنوار تلك المشاعل المتألقة في غير نظام فوق جدار ذلك المزار، فترىعليه صورة ضخمة للسيد الراحل ترتفع عالية حتى تختني رأسه وسط الظلمة التي لم تصل إليها أنوار تلك المشاعل المتضائلة . ويبدو على صورته كأنها تحثهم على تأدية واجباتهم نحوه بالدقة والعناية عملا بما هو مدون بالعقود العشرة المنقوشة فوق جدار المزار نفسه . وكان « حيزافي » يبدو في الصورة مرتديا لباساً بهيجا ومتوكتا في رقة على عصاه التي بيده . وطالما كان المسنون من تلك الطائفة يرونه قائمًا على هذا الوضع وهو يفصل في القضايا التي كأنت تعرض عليه حينها كان يساق المذنبون إلى داخل باب ديوانه بين صفين من ضباطه المتزلفين ، أو كما كان يشاهد في حالة أخرى وهو يراقب سير تقدم العمل فى إحدى ترع الرى الهامة حتى يفتتح بها حقل زراعة جديد. فكان هؤلاء الحراس يسجدون خضوعا أمام صورته تلك المهيبة ، يسوقهم إلى ذلك الدافع الطبعي الذي ليس لهم فيه اختيار ، كما كان يسجد أمامه الكتاب وأصحاب آلحرف والفلاحون الذين نشاهد صورهم تملأ الجدران التي أمامه ، وقد لونت بالألوان الجميلة البارزة فوق الجدران، وتلك الصور تمثل الصناعات وأسباب الترفيه التي كانت تضمها تلك الضياع العظيمة التي كان يملكها وحبزافى وقتذاك. وهي تؤلف دنيا مصفرة يرى فيها ذلك الشريف الراحل، عندما يدخل إلى مزار قبره ، أنه لا يزال يغدو ويروح بين مناظر حياة الريف ومسراتها التي كان هو السيد المرموق فيها . فقد كان بخيل إليه أن جدران مقبرته قد رجعت واتسعت حتى صارت تشمل حقول الزراعة والأسواق ، ومصانع السفن وأحواضها ، ومستنقعات صيد الطبور ، وردهات الحفلات . وقد عمر النحات والرسام الجدران بتلك المناطر، حتى صارت في الواقع كأن الحياة تدب فيها . عند ذلك توضع المشاعل الموقدة حول القرابين التي تملأ سطح مائدة القربان العظيمة المصنوعة من الحجر في المزار ، وخلف تلك المائدة تمثال « حبرانى ، جالس فى كوة منحوتة فى أصل الجدار . وبعد ذلك تنسحب جماعة الحراس الصغيرة على مهل ، ملقين عدة نظرات سريعة على الباب الوهمى المقام فى جدار المزار الخلنى ، وكانوا يعتقدون أن « حبرافى » يمكنه فى أى وقت شاء أن يبرز منه تاركا عالم الظلام المستتر خلف ذلك الباب الوهمى ليدخل إلى عالم الاحياء ويحتفل مع الاحياء من أصدقائه بعيد رأس السنة المذكور .

وأما اليوم التَّالَى ، وهو اليوم الأول من السنة الجديدة ، فيعد أعظم أيام الأعياد فىالتقويم السنوى. وكان القوم يتبادلون فيه الهدايا فرحين ،كما يتو افد أهل الضياع أيضا يحملون الهدايا إلى سيد ضيعتهم ، وقد انهمكت سلالة « حبزافی » فیملذاتها وجرت فیها إلی آخر شوطها ، ولکنشروطه التی أبرمت بانتباه وحذر ، وهي التي كانت ولا تزال مدونة في سجلات المدينة ، تضمن له الاهتمام بأمره وعدم إهماله . وفي الوقت الذي كان فيه الفلاحون ومستأجرو الإقطاعية يشاهدون مزدحمين عند الباب العظيم لبيت ذلك الشريف، حاملين هداياهم لسيدهم الحي، غير مفكرين في سيدهم الراحل ، كان حراس الجبانة العشرة بقيادة رئيسهم يجتازون أطراف المدينة مرة أخرى سائرين نحو إحدى خزائن الضيعة لتسلم ما كان من حقهم أن يتزودوا به منها ، ثم لا يلبثون أن يعودوا آدراجهم حاملين ٥٥٠ فطيرة مستديرة و٥٥ رغيفًا من الخبر الابيض و١١ إناء علوءة بالجعة ، ثم يرجعون من حيث جاءو أ مقتحمين طريقهم في تمهل وسط مرح الزحام حتى يبلغوا مدخل الجبانة عند سفح الجبل، فيجدون هناك زحاما عظيما أيضاً ، وكل وأحد من أولئك المزدحين عمل بمثل ما حملواً به ، إذكان الطيبون من أهل « أسيوط » يحملون عطاياهم من الأطعمة والشراب، بين جلبة عظيمة من الأفراح القائمة وسط تلك المناظر الخلابة التي لاعداد لها من صور تلك الحياة الشرقية ، كما يشاهد مثل ذلك إلى اليوم بالجبانات الإسلامية في مصر في أيام عيد الفطر (وباتى الأعياد الإسلامية)، ويقصدون إلى الجبل حيث يدخلون بما يحملون إلى أبواب المزارات العديدة التي كانت منتشرة في وجه الجبل على مثال عيون أقراص النحل في خليتها ، حتى تتمكن موتاهم من مشاطرتهم تلك الإعاد المرحة.

والواقع أن ذلك العيد يعد أقدم مثال من «عيدكل الأرواح^(۱)». وكان حراس الجبانة يسرعون إلى قبر «حبزانى» بما معهم من المؤن فيسلمونها على الفور إلى كاهنه الجنازى ثم يعودون أدراجهم ،حتى يحافظوا على النظام بين جمهور أفراد الشعب المرح الذين كانوا يتسلقون الجبل من كل مكان.

وكلما بليت جدة النهار قامت المعدات اللازمة للاحتفالات المسائية على ساق وقدم ، من إشعال الأنوار وتمجيد المرحومين الذين ماتوا . وكان حراس الجبانة ، مع كثرة تعبهم من تأدية واجباتهم الشاقة طوال اليوم بالجبانة المزدحة ، ينحدرون للمرة الثانية من فوق الجبل إلى معبد الإله « وبوات » بالمدينة حيث يكون جميع كهنة المعبد عن بكرة أبيهم فى انتظارهم . فيقوم « الحكاهن الأعظم » رئيسهم بتسليم حراس الجبانة عشرة المشاعل اللازمة لإنارة مقبرة « حبزافى » ، فكانت تضاء فى الحال بالمشاعل التى يحملها الكهنة ، ثم يتحرك بعد ذلك الموكب المؤلف من الحراس والكهنة معا ، فيسير على مهل مجتازا ساحة المعبد ، ثم يخترق السور المقدس سائرا نحو الركن الشمالي للمعبد ، كا ينص على ذلك لنا العقد الذى أبرمه « حبزافى » مع الكهنة ، وهم يرتلون تفخيم (٢) « حبزافى » (جعله روحا) . وكان كل كاهن يحمل معه رغيفا كبيرا مخروطي الشكل من الحبر الأبيض كالذى سبق أن وضعوا مثله أمام تمثال « حبزافى » في معبد « أنوبيس » منذ خمسة أيام مضت ، وكان الكهنة عندما يصلون إلى الركن الشمالي من المعبد يعودون ثانية مضت ، وكان الكهنة عندما يصلون إلى الركن الشمالي من المعبد يعودون ثانية الى القيام بواجباتهم فى وسط المحراب المزدحم بدهماء الشعب ، وكانوا بطبيعة

⁽١) «عيدكل الأرواح» هو عيد مسيحى يعقد في اليوم الثانى من نو فمبر . وفيه يعقد احتفال مهيب بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليتضرعوا إلى الله لأرواح الأموات المخلصين . (٢) إن طبيعة هذا الاحتفال الذي كان يحتفل به الأحياء في عيد يوم رأس السنة وغيره لأجل مو تاهم ، رغم أنه غير واضح في تفاصيله ، لابد أنه كان كما يدل عليه اسمه فنيا ، فهو يعني « إجراء جعل الإنسان مفخها » . وقد رأينا فيا سبق أن من النعوت التي يتصف بها المتوفى هو التفخيم ، وعلى ذلك كان هذا الاحتفال يقام لتحويل المتوفى إلى « واحد مفخم » . وذلك بالضبط كما كان يحوله إلى « روح» (با) باحتفال مشابه يقيمه الأحياء ويمكن اعتباره في الواقع مماثلا كثيرا لعيد « التفخيم » .

الحال يسلمون رغفانهم إلى حراس الجيانة لأن هذه الرغفان كانت كنص العقد خاصة بتمثال « حبرافى » الذى فى « قبره » . أما موكب الحراس الصغير المؤلف من عشرة أشخاص فسكان يخترق شوارع المدينة المتألقة بالأنوار ، والحراس يقتحمون طريقهم بمشقة عظيمة و سط زحام الشعب ، وفى النهاية يبلغون الباب العظيم لمعبد «أنوبيس» حيث تكون الأنوار قد بلغتغايتها من البهجة والرواء ، ولا ينسى فى ذلك تمثال «حبرافى » . وحينها يظهر الموكب خارج المدينة ثانية نراهم لا يزالون يشقون طريقهم بصعوبة بسبب دهماء الناس الذين يسيرون فى نفس طريقهم ، وكانت واجهة الجبل المظلمة التى تشرف عليهم يتخللها هنا وهناك معالم من النور تسير و ثيدة مصعدة فوق الجبل . وكانت تلك الأنوار صادرة من مشاعل أهل المدينة الذين صعدوا مبكرين ووصلوا إلى الجبانة لوضع تلك الأنوار بها أمام تماثيل أمواتهم وقبورهم . وأما الحراس فإنهم يصعدون إلى مقبرة « حبرافى » كما فعلوا فى الليلة المنصرمة ، ويسلمون المشاعل والحبن المريض لكاهن «حبرافى » الذى ينتظرهم . وهكذا يشترك ذلك الشريف المتوفى مع أولاده ورعاياه الأحياء فى الاحتفال بأعياد رأس السنة .

و فوق تلك الاعياد وغيرها من الاعياد الكبرى التي كان يتمتع بها المتوفى على الوجه المذكور، فإنه لم ينس في أى عيد من الاعياد الموسمية الصغيرة التي كان يحتفل بها في أولكل شهر وفي منتصف الشهر أو في أى يوم من « الايام المحتفل بها » .

وأما حاجاته اليومية فكان يقوم بأدائها طائفة خارجة عن هيئة الكهنة تخدمه بالتناوب بمعبد وأنوبيس، ولأن ذلك المعبدكان على مقربة من الجبانة كان أولئك الخدم يذهبون كل يوم بعد الفراغ من تأدية أعمالهم في المعبد حاملين نصيبا من الخبز مع إناء بملوء بالجمة ويضعونهما أمام تمثال «حبزاف» (الذي يكون منصوبا فوق السلم السفلي لقبره). وعلى ذلك كان لا يمضي يوم واحد من أيام السنة لا يتسلم فيه «حبزاق» ما يلزمه من الطعام والشراب(۱).

⁽١) لقد سعينا في البيان السابق أن نشير يبعض التفاصيل إلى مركز المتوفى في احتفالات الأعياد السنوية بشكلها الذي كان الناس يرعونه في حياتهم، ومن المحتمل

وإن مثل تلك الاعتقادات والعادات لتدل على شدة تمسك قدما، المصريين بتلك التقاليد المادية الحاصة بالحياة فى عالم الآخرة ، التى هى فى نظرهم الصان الوثيق لاستمرار بقاء جثمان المتوفى بعد الموت ، بالرغم مما ظهر من الأفكار التى ألقت ضوءا جديدا على ضرورة التحلى بالأخلاق الفاضلة استعددا لاستقبال الحياة الآخرة فيما بعد الموت .

على أن بقاء إمداد الأشراف المتوفين بمثل ذلك العتاد المادى إلى الأبد، كان بالطبع من المستحيل. ولذلك قال « خنوم حنب» أحد الأمراء الإقطاعيين ذوى البأس في « بنى حسن ، فيما يختص بأوقافه الجنازية : « وأما فيما يتعلق بالكاهن الجنازى أو أى شخص آخر يعبث بها فإنه لن يستمر بعد وابنه لن يستمر بعده في هذا المكان» (يعنى مشرفا على حراسة مدفنه). فيظهر من هذا يستمر بغده المذكور من عدم دوام تقديم العتاد المادى له بعد الموت ، ومثل هذه المخاوف كثيرة تردد ذكرها الوثائق التي من هذا القبيل .

وكذلك قد شاهدنا أيضا أن « حبرافى » ذاككان يبدى مخاوفه من انقطاع فراريه عن تقديم العتاد المادى لحياته الآخرة . وليس ذلك بغريب ، فنحن أبناء هذا العصر الحديث لا يكاد يدفعنا البرنحو الاهتمام بقبر جد من أجدادنا الذين رحلوا عنا إلى الحياة الآخرة . وفى بلاد جديدة مثل بلادنا (يقصد الولايات المتحدة بأمريكا) لا يوجد إلا النزر اليسير من بيننا الذين يعرفون أبن دفن آباء أجدادهم .

فالمفهوم أن كهنة «أنوبيس» و « وبوات » وحراس الجبانة بأسيوط كانوا يواصلون أداء واجباتهم ما دام كاهن « حبزانى » الجنازى يتسلم مرتباته ، وما دام مخلصا فى القيام بالتزاماته بأن يذكرهم بالقيام بما عليهم من الواجبات ويلاحظ تنفيذها .

⁼ أننا قد أرخينا العنان للخيال فيها . أما الحقائق المجردة فنجدها « فى شروط وصية حبرانى « فى كتاب المؤلف Thought in ه كتاب المؤلف Ancient Egypt, P. 268 & 269.

Ancient Records, Vol. I, والشروط نفسها نجدها مترجمة في كتاب المؤلف P. 258 — 271.

وقد رأينا أن وقفا من مثل تلك الأوقاف استمر نافذ المفعول إلى ما بعد تغيير الأسرة نفسها (من الأسرة الرابعة إلى الخامسة) واستمر على أقل تقدير حوالى ثلاثين أو أربعين سنة في منتصف القرن الثامن والعشرين ق.م.وحتى في الاسرة الثانية عشرة نجد أنه كان لايزال يوجد احترام عظيم في مصر العليا الرَّجداد من الدو لة القديمة . فقد قام حكام مقاطعة « البرشة (١) في القرن التاسع. عشر والعشرين من قبل الميلاد بإصلاح مقابر أجدادهم التيكانت ترجع إلى عصر الأهرام، مع أن تلك المقابر كان قد مضى عليها حيننذ أكثر من ٩٠٠ سنة وكانت متداعية خربة . وقد اعتاد الحاكم التقى الورع أن يسجل مايفعله من مثل هذه الإصلاحات بالكلمات التالية: « إنه (يعني حاكم المقاطعة) قد عملها تخليدا منه لذكرى أجداده الذين في الجبانة الذين هم أرباب ذلك المرتفع. فأصلح ما وجده مخربا وجدد ما وجده مهدما، ولم يقم أسلافه الذين كانوا قبله بذلك ، . ونجد أن أشراف تلك المقاطعة قد استعملوا تلك الصيغة في مقابر أجدادهم خمس مرات. كما نجد أن و أنتف ، أمير و أرمنت ، قد أتبع نفس تلك الطريقة ، حيث يقول : « لقد وجدت مزار الأمير « ناخت يوكّر » آل إلى الدمار ، فجدرانه قديمة وتماثيله محطمة ولم يعتن به أى إنسان، فبنيته من جديد وزدت في بنائه ، وجددت تماثيله ، وأقبت بالحجارة أبوابه ، حتى يصير مكانه ممتازا عن أماكن الإمراء العظام الآخرين ».

على أن القيام بمثل ذلك البر للأجداد الراحلين كان نادرا جدا ، وفى الحالات التي تم فيها شيء من ذلك لم تكن له فائدة أكثر من تأخير وقوع ذلك اليوم المشئوم الذي تزول فيه تلك الآثار جملة . والمدهش في ذلك أنهم ، مع وجود مقابر أجدادهم مخربة أمامهم ، كانوا لا يزالون يقيمون لانفسهم تلك الأضرحة التي كان محتوما عليها أن تلقي مثل ذلك المصير .

⁽١) المقاطعة الحامسة عشره من مقاطعات الوجه القبلي (انظر مصر القديمة خريطة الوجه القبلي) .

ولدينا قبر « خنوم حتب »، وهو أكبر القيورالتي تركها لنا أمراء مقاطعة « بني حسن » منذ ٤٠٠٠ سنة مضت ، تتضمن جدرانه ــ بين تلك الرسوم الملونة الجميلة التي تزينها ـ كتابات حشرت بين النقوش الأصلية ، تستغرق مددكتابتها نحو ١٢٠ جيلًا من الناس، وقد خطها كاتبوها على عجل، بالملغة المصرية القدعة القبطية واليونانية والعربية والفرنسية والإيطالية والانجليزية. وأقدم هذه الكتابات كانت لكاتب مصرى دخل إلى ذلك المزار المذكور منذ ٣٠٠٠ سنة مضت وكتبها باليراع (يعني الغاب) والمداد فوق الجداد ، وهذا ما جاء بها من الكلمات: « لقد حضر الكاتب « أمنموسي » ليرى معبد « خو فو » وقد و جده كالسهاء تسطع فيها الشمس ، . وكان قد مضى على بناء المزار المذكور نحو ٧٠٠ سنة عندما زاره ذلك الكاتب المصرى . وبالرغم من أن صاحبه الشريف المذكور كان أعظم أشراف عصره ، فإن أمره قد صار نسيا منسيا ، حتى أن ذلك الزائر لما وجد اسم « خوفو » قد كتب عرضا فوق الجدار في سياق نقش جغرافي ، ظن ــ خطأ ــ أن ذلك المزار هو مرار الملك « خوفو » بانى الهرم الأكبر في الجيزة . وذلك بما يشعر باختفاء كل معرفة تدل على ذلك الشريف أو أوقافه الجنازية التي كانت تمده في العالم الآخر ــ وذلك بالرغم من تلك الاحتياطات التي قام بتسجيلها فوق جدران قبره . فما أتفه قيمة تلك اللعنات (١) التي نجدها فوق تلك الجدران التي طمس معالمها الدهر وما أقلها جدوى ١ ؟

ولكن المصرى لم يكن عاجزا العجر كله عن علاج هذه الشدة البالغة ، وحاول مقاومتها بنقش صلوات فوق واجهة قبره كان يعتقد أنها ذات تأثير قوى في إمدادها للمتوفى بكل ما يحتاجه فى الآخرة ، وضمن هذه الصلوات نصا يستحلف به كل مار _ فى رجاء حار _ أن يتلو فوق قبره تلك الأدعية المنقوشة .

⁽۱) کانت تکتب لعنات علی جدران القابر بقصد بها أن تضر من سبث بها . فجر الصعید

وهذه الآدعية تمثل لنا اعتقاد القوم فى تأثير تلك الكلمات النافذ حينها كانت تقرأ من أجل المتوفين. وقد نما هذا الاعتقاد نموا عظيما منذ عصر الأهرام، وهو نمو سار جنبا لجنب مع تعميم تلك العادات الجنازية التي كانت من قبل خاصة بالطبقة العليا من الشعب. وكان مثل تلك الصيغ الدينية فى عهد الأهرام ينحصر استعماله كما سبق ذكره فى عهود الأهرام المتأخرة، كما أنها كانت مقصورة على مصير الفرعون فى عالم الآخرة، فصارت الآن تستعملها الطبقة الوسطى مع طائفة الموظفين بكثرة.

وفى الوقت نفسه برز إلى عالم الوجود طائفة أخرى من « الأدب الجنازى »، وهو مانسميه نحن الآن « متون التوابيت ». وهذه المتون هي صيغ مشابهة لسابقتها و تتحد معها في الغرض الذي تر مي إليه ، غير أنها كانت أكثر ملاءمة لحاجات غمارة الناس ، ولذلك شاع استعالها بين دهماء الشعب في العهد الإقطاعي ، وإن كان بعض أجزائها يرجع عهده إلى زمن أقدم بكثير من ذلك الوقت . كما أن «كتاب الموتى » الذي ظهر فيما بعد لا يخرج عن كونه مؤلفا من منون التوابيت » .

وهذه المتون تتألف من مقتبسات كثيرة أخذ بعضها من «متون الأهرام» وبعضها من الأدب الجنازى الشعبى ، وكانت تكتب إذ ذاك على الأوجه الداخلية للتوابيت المصنوعة من خشب الأرز السميك . ولا يزال عدد متون التوابيت آخذا فى الازدياد ، إذ مازالت تكشف توابيت من ذلك العصر فتضاف متونها إلى المجموعة التى لدينا . وكان كهنة كل بلدة يمدون كل صانع تابوت بنسخ من تلك المتون أو التعاويذ ، وقبل تركيب قطع التابوت كان الكتاب التابعين لصانع التابوت يملئون أوجهه بالقلم والمداد نَسْخًا مما قدم كان الكتاب التابعين لصانع التابوت يملئون أوجهه بالقلم والمداد نَسْخًا مما قدم الكتاب إذ ذاك منصر فا إلى مل متلك الألواح بالكتابة بأسرع ما يمكن ، الكتاب إذ ذاك منصر فا إلى مل متلك الألواح بالكتابة بأسرع ما يمكن ، حتى أنهم كانوا فى بعض الأحابين يكررون كتابة الفصل الواحد مرتين أو ثلاث مرات فى نفس التابوت الواحد ، وقد وجدنا مرة أن فصلا

واحدا قد كتب ما لا يقل عن خمس مرات في تابوت واجد (١) .

وفيها يختص بالناحية التى اتحدت فيها متون التوابيت مع متون الأهرام فإنا قد ألفنا وظيفتها ومحتوياتها على وجه عام ، فإن عالم الآخرة الذى كان يتطلع اليه الأهلون فى ذلك العهد الإقطاعي كان لا يزال إلى درجة عظيمة عالما سماويا وشمسيا كما كان الحال فى عصر الأهرام ، فإن «متون التوابيت » تسودها بدرجة مدهشة فكرة الآخرة السماوية ، إذ نجد نفس توحيد المتوفى مع إله الشمس كما وجدناه فى متون الأهرام ، بل إنه يوجد فصل عنوانه «صيرورة المتوفى « رع آتوم » ، ثم عدة فصول أخرى عنوانها : «صيرورة المتوفى صقرا » (وهو الطائر المقدس الممثل لإله الشمس) .

على أنه كما تُدخل و اللاهوت الأوزيرى و في متون الآهرام قد تدخل أيضا في متون التوابيت ، بل في الواقع استولى عليها وأحسن مثال لذلك هو المتن الذي صار فيها بعد جزءا من وكتاب الموتى و باسم الفصل السابع عشر المشهور والذي اعتبر في العصر الإقطاعي الذي نحن بصدده من الفصول المحبوبة وهو أذ نجده يتقدم على كل المنون الأخرى المكتوبة على عدة من التوابيت وهو في جملته يعبر عن توحيد المتوفى مع إله الشمس وإن كان يذكر معه بعض الآلهة الآخر بن أيضا ، فيقول فيه الرجل المتوفى :

⁽١) إن متون التوابيت يتألف منها أعظم وأكبر مجموعة من المصادر المصرية التى لم تنشر بعد (لقد نشرت الآن) ويوجد من هذه التوابيت نحو مائة بالتحف المصرى وهذا فوق ما يوجد في المتاحف الأوربية والأمريكية، فيكون مجموعها كاها ١٣٨٨ تا بوتا . وفي عام ١٩٢١ أخذ معهد جامعة شيكاجو الشرق على عاتقه إنقاذ هذه المجموعة الضخمة من الأدب الديني المصرى من الضياع ، وهو الآن على وشك نشرها بأجمعها في مؤلف واحد . وقد قام الدكتور « دى بك » بنقل هذه المتون فاستغرق مدة عشر سنين ، وقد تم نقلها الآن . وهذه النسخ محتوى على ١٠٠٠ مسطر واقعة في ١٨٢٥ صفحة من الخطوطات، وهي تشغل ٣٧ مجلدا من الأوراق السائبة. على أن طبع هذه المتون في أربعة أو خسة مجلدات سيحتاج عدة سنين . ويجد القارىء بيانا تاما عن الفهرس القديم لهذه المتون في كتاب المؤلف :

« إنى أتوم » أنا الذى كنت وحيدا . وإنى « رع ، عند أول ظهوره . وإنى « الإله العظيم » خالق نفسه . والذى سوى أسماءه ، ورب الآلهة . والذى لا يدانيه أى إله بين الآلهة . البارحة ملكى ، وإنى أعرف الغد » .

وقد عثر على شرح لهذا المتن الشمسى القديم ، يرجع تاريخه إلى العهد الإقطاعى ، وعند التعليق فى هذا الشرح على السطر الذى جاء به « البارحة ملكى ، وإنى أعرف الغد ، أضيفت جملة « ذلك هو أوزير » مع أنه من الواضح تماما أن ذلك النص كان خاصا بإله الشمس فقط . وقد كان من جراء صبغ تلك المتون بالصبغة الأوزيرية أن أدخل العالم السفلي الأوزيرى حتى فى المتون الشمسية والسياوية . وبذلك لم يقتصر الأمر فى متون التوابيت على امتزاج بحموعة المعتقدات الشمسية والأوزيرية بعضها ببعض بحالة أتم وأكثر عما كانت عليه من قبل — بل كانت النتيجة أن « رع ، قد حشر الآن فى عالم الآخرة السفلى . ويمكن التعبير عن مجرى هذه الحوادث (بشيء من المبالغة) بقولنا : إن « أوزير » في متون الأهرام قد رفع إلى السماء ، في حين أنه في متون التوابيت وكتاب الموتى قد نزل « رع » إلى الارض .

غير أن الارتباك الذي نتج عن ذلك كان أدهى وأمر بما جاء فى « متون الأهرام » ، ويذكر نا ذلك الامتزاج بين المصير السيماوى المتألق الفاخر وبين عالم آخرة مظلم واقع فى ظلمات العالم السفلى بما جاء فى روحيات الأمريكيين السود من النص على الإقامة فى مكان ما على نهر الاردن فى الارض الموعودة وإلى جانب ذلك مثوى فى السيماوات (۱) ، أو تذكر نا بالقول بمطهر سفلى يكون بمثابة تمهيد للوصول إلى جنة سماوية .

⁽١) إن « الروحيات » هي الأغاني الدينية التي كان يغنبها في الأصل العبيد السود الأمريكيون الذين اعتنقوا الديانة المسيعية .

وإنه لمن الأمور الصعبة أن يكون الإنسان أية فكرة متصلة الحلقات عن الحياة الآخرة التى كان يأمل أهل ذلك العصر فى الوصول إليها . إذ نجد الصور الشمسية الأوزيرية المركبة التى ذكرت فيها سبق فى متون الأهرام ، كما نجد أن أولئك الكهنة — الذين يرجع إليهم جمع متون التوابيت — قد أرخوا لخيالهم العنان ليتجول فى تحويرها كيف شاءوا . فالمتوفى المصرى القديم الذى كان يشاطر الآن «أوزير » مصيره — وكان يسمى كذلك «أوزير » باعتراف ابنه «حور» للآن «أوزير » منابنه المقدس المذكور . ثم تنتقل تلك الصور الأوزيرية فجأة فتصور الامتيازات الشمسة هكذا :

« إنك تطوف حول الأقطار مع « رع ، فيجعلك ترى الأماكن الممتعة ، وتجد الأودية مفعمة بالمياه لعسلك وإنعاشك ، ثم تقطف أزهار البطاح ونور « هنى » ؟ وأزهار السوسن والزنبق ، و تأتى إليك طيور البرك بالآلاف جائمة في طريقك ، وعندما ترى خطافك لصيدها يسقط منها ألف برنين صوته ، وهي أوز (رو) ؟ والعصفور الأخضر والسمان وطيور «كونوست » ؟ . وقد أمرت بأن يؤتى إليك بالغزلان الصغيرة والعجول البيض ، وأمرت بأن يؤتى إليك بالغزلان الصغيرة والعجول البيض ، وأمرت بأن يؤتى إليك بالخزلان المعنية بالحبوب . وقد ربطت لك سلم السماء ، والإلهة « نوت » تفتح لك ذراعيها ، ثم تبحر بسفينتك في بحيرة الزنبق » .

فنى تلك الصورة نشاهد المتوفى يصطاد فى البطاح ـــ وهى التسلية المحببة إلى الفرعون وأشرافه ـــ ولكنه ينتقل فجأة إلى بحيرة علوية فى السماء .

فيتضح من ذلك أن المصير الذى كنا نراه خاصا بالملوك فى كل الصيغ التي جاءت بها ه متون الأهرام ، قد صار من نصيب كل إنسان ، بل إن الحياة التي كانت أبسط من تلك التي وصفناها ، أى التي كان المواطن المتواضع يصبو إلى دوام استمرارها فى عالم الآخرة ، صار لها أيضا مكان مرموق فى « متون التوابيت ، فكان فى وسع المتوفى وهو راقد فى التابوت أن يقرأ التعويذة الخاصة « ببناء بيت لرجل فى العالم السفلى ، وحفر بركة حديقة وغرس أشجار

فاكهة » . وعند ما يصير المتوفى صاحب بيت تحيط به الحديقة وبه البركة وحولها . الأشجار الوارفة ، فإنه بجب أن يضمن له استيطانه فيه . ومن ثم أعد له « فصل يتناول وجود الرجل في بيته ». غير أن سكناه لذلك البيت منفردا من غير مرافقة أسرته وأصحابه ، كانت أمرا لا يمكن للنفس احتماله ، ومن ثم أعد فصل آخر لذلك عنوانه « ختم مرسوم خاص بالأسرة لإعطاء الرجل أهل بيته في العالم السفلي » . ونجد في هذا المتن أن تفاصيل المرسوم قد ذكرت خمس مرات في صيغ مختلفة . فنجد فيه أن : « جب » إله الأرض « قد قرر أن يعطى إلى أهل بيتي وهم أولادي وإخوتي ووالدي ووالدتي وعبيدي وكل مؤسستي». وخشية أن يصادرها أي تأثير خبيث نجد الفقرة الثانية من ذلك الفصل تؤكد أن : « جب » قد قال : « إنه سينطلق لى في الحال سرا- و أهل بيتي أي أطفالي وإخوتي وأخواني ووالدي ووالدتي وكل عبيدى وكل مؤسستي ناجين من كل إله ، ومن كل إلهة ومن كل موت (أو أى إنسان ميت غيره) » . ولضمان تنفيذ ما جاء بذلك المرسوم أعا. فصل آخر عنو نه «ضم أهل بيت الرجل إليه في العالم السفلي » ، ونص في هذا الفصل على « اجتماع شمل أهل البيت من الأب والأم والأطفال والأصدقاء والأقارب والأزواج والحظيات والعبيد والخدم ، بل وكل ما يملحه الرجل ليكون معه في العالم السفلي ».

ولأن فكرة إعادة بيت الرجل وأهله إليه فى عالم الآخرة تتضمن الاعتقاد القديم القائل بضرور ؟ القديم الطعام باستمر ار إلى المتوفى ، فقد وجد فصل آخر لذلك عنوانه : أكل الخبز فى العالم السفلى » . أو « أكل الخبز على مائدة « رع » والبذل بسخاء فى هليو بوليس » . ويصف لنا الفصل الذى يلى هذا الفصل مباشرة كيف « يقعد القاعد ليا كل الخبز عندما يقعد «رع » ليا كل الخبر أيضا أعطنى خبزا عندما أكون جائعا ، وأعطنى جعة عندما أكون عطشان » .

وقد ظهر لنا فى « متون التوابيت ، هاته اتجاه ظاهر جدا بلغ غايته فى « كتاب الموتى » . وهذا الاتجاه ينحصر فى أن عالم الآخرة هو مكان تحفّ

به إلا خطار والمحن التي لاعداد لها ، وأن معظم تلك الأخطار مادية ولو أنها كانت في بعض الأحيان تمس عناد المتوفى العقلى . وكان السلاح الذي يستعمل للنجاة من تلك الأخطار وأضمن الوسائل التي يمكن الحصول عليها لحماية المتوفى ، هو تمكين المتوفى من بعض القوى السحرية بتزويده فى العادة برقية خاصة تتلى عند اللحظة الحرجة ، وقد عظم شأن هذا الاتجاه بعد ذلك ، فجعل من «متون التوابيت » ، ومن بعدها «كتاب الموتى » الذي نبت منها ، مجموعة من التعاويذ كانت تزداد على ممر الأيام . وكانت تعتبر فى نظر القوم ذات أثر فعال لا شك فيه فى حماية المتوفى أو تزويده فى الحياة الآخرة بما يلزمه من نعيم .

فن ذلك أنه كانت توجد تعويذة «يصير بها المتوفى ساحرا» . وهي موجهة إلى الأشخاص المعظمين الذين في حضرة «آتوم» إله الشمس . وهذه التعويذة في ذاتها لا تخرج بالطبع عن كونها رقية ، وتختتم بالسكلمات الآتية : « إنى ساحر» . وخوفا من فقدان المتوفى قوته السحرية كان من تقاليد القوم « وضع رقية سحرية مع المتوفى حتى لا تنزع منه قواه السحرية حينها يكون في العالم السفلى » . ولا شك أن أبسط تلك الآخطار التي عملت من جلها تلك الرقى كان منشأه تلك التخيلات الصبيانية الساذجة التي كان دهماء الشعب يتخيلونها ، وكانت في الغالب سخيفة إلى أقصى حد ، إذ نجد تعويذة عن « منع أخذ رأس الرجل في الغالب سخيفة إلى أقصى حد ، إذ نجد تعويذة عن « منع أخذ رأس الرجل منه » ، ومن قبل نجد في « متون الأهرام » تلك الرقية القديمة التي تمنع إجبار المتوفى على أكله برازه . ولما كان لابد لجسم الإنسان من التحلل فقد وجد لمنع ذلك التحلل رقيتان لضمان « أن الرجل لا يتحلل جسمه في العالم السفلى » .

وقد كان من جراء ثقة الناس العمياء بمثل تلك التعاويذ أن صار فى يد الكهنة فرصة لاحد لها للكسب، وقد ازداد خصب خيالهم فى انتاج التعاويذ الجديدة باستمرار، وقد كانت تباع بطبيعة الحال للمشترين السذج الذين كان عددهم فى إزدياد. وفد ساعدت تلك الوسيلة كثيرا بلا شك على زيادة مخاوف الشعب من أخطار الحياة الآخرة، كما ساعدت على نشر الاعتقاد فى كفاية مثل هذه الوسائل لدرثها.

ومما لايدع مجالا للشك فى أن ذلك كله من صنع الكهنة تخيل القوم صورة كاتب سرى اسمه «جِبجا» عدو للموتى، وعلى ذلك ألفت رقية خاصة لمساعدة المتوفى على تكسير الاقلام وتهشيم أدوات الكتابة وتمزيق الملفات الخاصة «بجبجا» الشرير .

ومثله فى ذلك ، الخطر الداهم الذى كان أيضاً موضعاً للخوف فى متون الأهرام وهو مهاجمة الثعابين السامة للمتوفين ، فسكان أهل العصر الإقطاعى يحبون أن يدرأوه أيضا عن أنفسهم . ولذلك كان المتوفى يجد فى لفافته ، التى تكون صحبته ، رقى لاجل ، دفع الثعابين ودفع التماسيح عنه » .

وفضلا عن ذلك كانت الطريق الخاصة بالمتوفى. تعترضها النيران ، وكان لا بدله من الهلاك إذا لم تكن لديه زقية « ليخرج بهـا من النار » أو يتمكن « بها من الخروج من النار التي خلف الإله العظيم (۱) » . وعند ما كان المتوفى يضطر بالفعل إلى الدخول في النار فقد كان في قدرته أن يدخلها وهو في أمان منها بوساطة « تعويذة لدخول النار والخروج من النار خلف السماء » .

والواقع أن الكهنة قد رسموا للمتوفى مصورا للرحلة التى تنتظره ، ليكون مرشدا له عند باب النار العظيم فى المدخل وليريه الطريقين اللذين يمكنه أن يسلكهما ، وكان أحد ذبنك الطريقين بريا والآخر مائيا ، وبينهما بحيرة من نار . وكان ذلك المصور ملونا بالألوان المختلفة على صفحة قاع التابوت من الداخل حيث يكون جمان المتوفى فوقها ، إذ أن ذلك المكان هو الملائم لرسم مصور العالم السفل .

وكان مع ذلك المصور دليل سحرى يسمى «كتاب الطريقين »، وكان أيضا مسجلا فوق التابوت. على أنه كان يخشى بالرغم منكل تلك الإرشادات أن يتجول المتوفى لسو. حظه فى مكان إعدام الآلهة ، ولكنه كان ينجو من ذلك بتعويذة «عدم الدخول فى مكان إعدام الآلهة ».

⁽١) لقد أصبح من الثابت على وجه التقريب أن سيدنا إبراهيم كان يعيش في هذا المصر أى عصر الدولة الوسطى الذي ظهرت فيه متون التوابيت، وربما كان من معتقدات هذا المصر الدخول في النار والخروج منها بواسطة السحر: «قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم » .

وخوفا من أن يحكم على المتوفى بالمشى منكوسا على رأسه ، فإنه كان يجهز «بتعويذة تمنعه المشى على رأسه منكوسا » . وكان أولئك الموتى التعساء الذين يجبرون على المشى بذلك الوضع المنكوس أشد أعداء الإنسان فى عالم الآخرة ، ولذلك كانت الحيطة منهم أمرا ضروريا جدا ، إذ يقال للبتوفى : « إن الحياة تأتى إليك ولكن الموت لا يأتى إليك ... وهى (الجوزاء والشعرى ونجم الصباح) تنجيك من حنق الموتى الذين يمشون ورءوسهم إلى أسفل ، وأنت لست منهم ... استيقظ للحياة فإنك لن تموت ، قم للحياة فإنك لن تموت » .

وبتلك الكيفية ظل الاعتقاد فى قوة تأثير السحر آخذافى الانتشار، وكان بمثابة سلاح لا يخطىء فى يد المتوفى . وسنرى السحر فى النهاية يسود كل المعتقدات الجنازية الاخرى كما سيكشف لنا ذلك «كتاب الموتى» بعد مضى عدة قرون على ذلك العهد الذى نحن الآن بصدده .

وليس من شك فى أن المذهب الأوزيرى كان له أثر عظيم فى انتشار استعمال تلك الوسائل السحرية الجنازية . إذ أن أسطورة وأوزير ، التى كانت منتشرة فى ذلك الزمن انتشارا عاما قد جعلت لكل طبقات الشعب إلماما بنفس تلك الوسائل التى اتخذتها وإزيس ، لإحياء زوجها وأوزير ، من الموت ، وهى الطرق التى صار كل مصرى قديم يعتقد فى تأثيرها العظيم فى حالته الاخروية كما أثرت في وأوزير ، من قبل .

الأوزيرى فى الحياة الآخرة على كل الناس جعلها ذات جاذبية قوية شاملة لا تضاهيها أى جاذبية أخرى منافسة لها . وإذا كانت تلك النعم المذكورة فى يوم ما مقصورة على الفرعون وحده ، كما كان المصير الشمسى فى متون الأهرام مقصورا عليه ، فإننا قد شاهدنا أنه حتى الآخرة الشمسية الملكية قد صارت الآن من حق الجميع .

ومن بين القبور المبحلة التي يرجع تاريخها إلى عهد الاسرة الاولى في «العرابة المدفونة» قبركان يعتبره القوم في العصر الذي نحن بصدده، قبر وأوزير » (مع أن عمره كان وقتئذ ما بين ١٤ ، ١٤ قرنا) ، وقد طار صيته بسرعة حتى صار المقام المقدس في مصر ، فكانت تحبح إليه كل طبقات الشعب، وكانت أعظم البركات التي يطمع فيها الإنسان أن يدفن بجوار ذلك القبر المقدس ولذلك كان أكثر من موظف عن قاموا بمأمورية أو رسالة رسمية في هذه الجهة ينتهز الفرصة لإقامة قبر له هنالك ، وإذا تعذر بناء قبر حقيق لمن يريد ذلك كان من الخير أن يقيم لنفسه مقبرة وهمية على الأقل ، يكتب عليها سهه وأسماء باقي أسرته وأقاربه ، وإذا تعذر ذلك أيضا أقام لنفسه نصبا تذكاربا أو لوحة ينقش عليها صلوات للإله العظيم توسلا من الزائر وأسرته ، وقد فعل ذلك الكثير من الحجاج والزوار من الموظفين . وفي ذلك يقول موظف من عهد الملك « سنوسرت الأول » : « لقد أقمت هذا القبر عند طريق سلم الإله العظيم لاكون من بين أتباعه ، ولكي يقدم الجنود الذين يأتون في أسوة بكل رسول ملكي يأتي للنفنيش على حدود جلالته ، وقد فعلت ذلك أسوة بكل رسول ملكي يأتي للنفنيش على حدود جلالته » . وقد فعلت ذلك أسوة بكل رسول ملكي يأتي للنفنيش على حدود جلالته » .

وكان داخل سور معبد ، أوزير ، وما جاوره مزدحما بتلك التذكارات ، وهي كما نجدها اليوم تؤلف جزءا هاما من المصادر التي يصح الاعتماد عليها في تاريخ ذلك العصر .

وأغرب من كل ما تقدم أن بعض حكام المقاطعات الأقوياءكان يأمر بحمل جثمانه إلى د العرابة المدفونة ، لتقام له شعائر خاصة هناك ، ثم تجلب معه

بعض الأشياء المقدسة لتودع معه فى قبره المقام له فى وطنه ، كما يحمل المسلمون الآن معهم الماءمن «بئر زمزم، إلى أوطانهم، أو كما كانت تحمل السيدات الرومانيات المياه المقدسة من معبد « إزيس » بفيلة إلى حيث يتبركون بها فى بلادهم .

وقد رسم «خنوم حتب» فوق جدران مزار قبره « ببني حسن » هذه الرحلة في النيل ، وفي ذلك المنظر نرى جسمه المحنط محمو لا فوق قارب جنازى صاعدا في سيره نحو الجنوب ، وخلفه الكهنة والمرتلون . وقد أطلق في النقوش على ذلك المنظر اسم « الرحلة صعودا في النهر لمعرفة أشياء العرابة (۱) » . ويو جد مع ذلك المنظر منظر آخر يمثل الرحلة منحدرة في النهر ومعبرا عنها بالكلمات الآتية : « العودة محملين بأشياء العرابة » . ولا ندرى بالضبط كنه تلك الأشياء المقدسة التي يؤتى بها من العرابة ، ولا سبيل لدينا الآن لمعرفتها ، غير أنه من الواضح أنه في تلك الزيارة الخاصة بالإله العظيم في « العرابة المدفونة » يقدم المتوفى نفسه شخصيا للإله العظيم ، وبتلك الكيفية بضمن المنوفي المذكور لنفسه عطف الإله في الحياة الآخرة .

وكان الزوار الذين يأتون إلى « العرابة المدفونة » بهذه الصفة ، قبل الوفاة أو بعدها ، يحملون معهم الكثير من القرابين التذكارية ، لدرجة أن الحفارين المحدثين عثروا على قبر « أوزير » المزعوم مدفونا على عمق بعيد تحت أكداس

⁽١) يقول نص العنوان ان كلا هذين المنظرين قدرسا لتوضيح الرحلة إلى العرابة المدفونة »، غير أن الواضح من عبارة النقوش « السياحة صعودا فى النهر والعودة » ومن المناظر المرسومة نفسها أن السياحة إلى العرابة والعودة منها هى التى مثلت ، فالسفينة الصاعدة إلى أعالى النيل أى صند التيار تشاهد شراعها منتشرا بهيئة تنبئ بذلك ، على حين أن السفينة الأخرى التى للعودة يشاهد صاربها قد أزيل من مكانه كا هو المعتاد عند السير مع التيار فى أيامنا هذه ، وفضلا عن ذلك فإن وضع السفينتين كا تشاهدان فعلا فى الرسم الذى على جدار القبر يدل على أن واحدة منهما ذاهبة إلى العرابة والأخرى عائدة منها ، على أن التعبير بالرسم على هذا الوجه لا يقتصر على هذا العرابة والأخرى عائدة منها ، على أن التعبير بالرسم على هذا الوجه لا يقتصر على هذا المرابة والأخرى بعضها متجهة إلى « بنت » (بلاد الصومال) وبعضها آتية منها .

عظيمة من الفخار المهشم وغيره من الهدايا التي تركها الحجاج في هذا المكان منذ آلاف السنين .

ولا بد أنه كان يجتمع هناك فى الواقع الجم الغفير من أولئك الحجاج الزائرين لذلك المقام المصرى المقدس فى كل الأوقات ، وبخاصة فى ذلك الموسم الذى كانت تمثل فيه حوادث أسطورة الإله فى شكل مسرحى يمكننا أن نسميه بحق « مسرحية الآلام » (المأساة) .

وبالرغم من أن تلك المسرحية قد فقدت تماما ، فإن لدينا لوحة « إخرنو فرت » التذكارية المحفوظة الآن بمتحف برلين تمدنا بالملخص الذى يمكننا أن نستخلص منه ولو على الأقل عناوين أهم فصول المسرحية المذكورة.

كان « أخرنو فرت » موظفا من رجال حكومة « سنوسرت الثالث » ، أرسله الملك ليقوم ببعض الإصلاحات في معبد « أوزير » بالعرابة المدفونة .

ويتبين لنا من العناوين المدونة بتلك اللوحة التذكارية عن المسرحية المذكورة أن تمثيلها كان حتما يستمر عدة أيام ، وأن الأرجح أن تمثيل كل فصل من قصولها الهامة كان يستغرق على أقل تقدير يوما كاملا ، وأن الجمهور كان يشترك في كثير بما كان يحدث في تمثيلها . ويتضح لنا من ذلك المختصر المدون على لوحة « أخرنو فرت » أن تلك الرواية كانت ذات فصول ثمانية :

فالفصل الأول يكشف لنا عن ذلك الإله الجنازى القديم «وبوات» عارجا في موكب ليشتت أعداء « أوزير » ويفتح له الطريق .

وفى الفصل الثانى يظهر لنا «أوزير » نفسه فى قاربه المقدس ، فينزل فيه بعض الحجاج ، ومنهم «أخر نو فرت » كما يقص ذلك علينا فى نقوش لوحته التذكارية بزهو وافتخار . وكان «أخر نو فرت » هذا يساعد «أوزير » فى صيد الاعداء الذين يعترضون مسير القارب . ولا شك أنه كانت تحدث «ن الجمهور إذ ذاك معركة عامة كالتي شاهدها «هر دوت » فى بابر يميس » ، بعد ذلك بألف و خمسمائة سنة . فكان بعضهم يقوم بحماية الإله فى القارب ، بينما يمثل بألف و خمسمائة سنة . فكان بعضهم يقوم بحماية الإله فى القارب ، بينما يمثل

الآخرون دور أعدائه المزد حمين فى خارج القارب، وقد يعودون برأس أحدهم مهشماً، فى زهو من أجل ذلك الاحتفال. ويلاحظ هنا أن ، أخرنو فرت ، مهشماً ، فى زهو من أجل ذلك الاحتفال. ويلاحظ هنا أن ، أخرنو فرت ، مثل « هردوت » — قد مر على موضوع موت الإله من الكرام دون أن يذكر شيئا عن ذلك ، وقد كان ذلك فى نظره موضوعا مقدسا لا يصح وصفه، وذكر لنا فقط أنه قام بتنظيم « الموكب العظيم » للإله — وهو احتفال مظفر نوعا ما — عند ما لاقى الإله حتفه . وهذا هو موضوع الفصل الثالث .

وفى الفصل الرابع يخرج « تحوت » رب الحكمة ، ولا شك أنه يجد الجثة ، وإن كان ذلك لم يرد له ذكر .

ويتألف الفصل الخامس من الاحتفالات المقدسة التي يجهز الإله بوساطتها للدفن .

فى حين أن الفصل السادس يشاهد الجهور يسير فى زحام عظيم إلى المقام المقدس بالصحراء الواقعة خلف « العرابة المدفونة » ، حيث يضعون جثمان ذلك الإله الراحل فى قبره .

وأما الفضل السابع فلا بد أنه كان مشهدا رائعا . فعلى شاطى . (أو ما .) « نديت » القريبة من العرابة المدفو نة يهزم أعدا . « أوزير » — ومن بينهم طبعا الإله « ست » واتباعه — فى موقعة عظيمة على يد « حور » بن «أوزير » . ولم يذكر لنا « أخرنو فرت » شيئا عن بعث الإله وقيامه ثانية من بين الأموات . ولكن فى الفصل الثامن وهو الاخير فشاهد « أوزير » وقد عاد إلى الحياة يدخل معبد « الغرابة المدفو نة » فى موكب مظفر .

فيتضح إذن من كل ما ذكر أن المسرحية المذكورة قدمثلت أهم الحوادث الواردة في أسطورة « أوزير » .

وقد كان لمثل ذلك العيد الشعبي الكبير مكانة عظيمة في قلوب القوم، إذ نشاهد مرارا وتكرارا في الألواح المنصوبة تضرع الحجاج بالصلاة للإله العظيم لينالوا بعد الموت حظوة الاشتراك في هذا الاحتفال العظيم، وذلك يماثل بالضبط ما رتبه «حبزافي » لنفسه ليشاطر بنصيبه فيما بعد الموت في الاحتفالات بالاعماد الاسيوطية.

وقد كان لصياغة حوادث أسطورة «أوزير » فى شكل مسرحى على الوجه المتقدم أثر قوى فى أنفس عامة الشعب ، واستو لتمسرحية آلام «أوزير» هذه فى أى شكل من أشكالها على خيال عدة مجتمعات مصرية . وكما أن «هردوت» قد وجدها فيها بعد فى « بابريميس » كذلك ظلت تنتشر من بلدة إلى أخرى حتى حازت المكانة الأولى فى تقويم الاعياد السنوية . وبذلك نال «أوزير » مكانة سامية فى حياة عامة الشعب وآمالهم لم ينلها أى إله آخر . وقد كان مصير «أوزير » الملكى وانتصاره على الموت كما صور بتلك الصورة المسرحية الناطقة ، سببا فى انتشار الاعتقاد بين الشعب بأن ذلك المصير ، الذى كان فى وقت ما وقفا على الملك فقط ، قد صار من نصيب كل إنسان ، ولم يكن يلزم لأى مشخص يرجو مثل ذلك المصير إلا أن يحصل ، كما ذكر نا من قبل ، على نفس العوامل السحرية التى استعملتها «أزيس » لإرجاع الحياة إلى زوجها الميت الذى هو «أوزير » المقتول ذبحا ، وتلك العوامل تجلب لكل انسان ذلك المصير المبارك الذى ناله ذلك الإله الراحل .

وقدكان حدوث مثل ذلك النطور فى العقيدة المأتمية الشعبية على الوجه الذى شاهدناه مدعاة لازدياد ثقة الناس باطراد فى كفاية السحر وقوة تأثيره ونفعه فى الحياة الآخرة.

ومن الصعب أن يفهم العقل الحديث كيف أن مرافق الحياة جميعها قد تسرب اليها الاعتقاد فى السحر بحالة صيرته صاحب السيطرة على العادات الشعبية ، وظاهرًا على الدوام حتى فى أبسط الأعمال اليومية المنزلية العادية ، فصار من الأشياء التى يزاولها الانسان بطبيعة حياته كالنوم أو تجهيز الطعام ، بل لقد صار السحر يتألف منه نفس الجو الذى كان يعيش فيه عالم الشرق القديم .

فكانت الحياة المنزلية فى الشرق قديما غير مكنة فى نظر القوم إلا بالالتجاء دائما إلى نفوذ تلك العوامل السحرية ، ولولا نفوذها لأبادت القوى المهلكة الحفية الحرث والنسل.

ولاعتقادهم أن مثل تلك الوسائل لا غنى عنها وبخاصة ضد الامراض، فإن الامور العادية الخاصة بالحياة المنزلية والاقتصادية كانت توضع دائما تحت حماية السحر . فكانت الآم لايمكنها أن تهدى من روع طفلها المَتَأَلَم الريض وتجعله يضطجع طلبا للراحة إلا بعد الاستنجاد بالقوى الخفية لتقوم بتخليص الطفل من المرض ومن الحسد ومن سلطان أشباح الشر السوداء ، التي كانت تكمن في جميع الأركان المظلمة من البيت ، أو التي كانت تتسلل من الأبواب المفتحة عندما يسدل الظلام خيامه فوق البيت ، وتدخل جسم ذلك الطفل الصغير فتنشرفيه الحمي.

وكان من هؤلاء الشياطين من يمكنهم التشكل في صورة محبوبة ، فيقترب الواحد منهم من المريض الصغير مظهراً له العمل على شفائه وتخفيف آلامه . ونستطيع أن نسمع صوت الام وهي تنحني على طفلها وتختلس النظر خلال ذلك الباب المفتوح إلى الظلمة المسكونة بقوى الشر هذه ، وتقول :

 هرول إلى الخارج أنت يا من تأتى في الظلمة ، يا من يدخل إلينا خلسة وأنفه إلى خلفه ، ووجهه فوق ظهره . ويا من تفقد ما قد جئت من أجله . . « هرولى إلى الخارج يا من تأتين في الظلمة ، ويا من تدخلين إلينا خلسة

وأنفها إلىخلفها ووجهها فوق ظهرها . ويا من تفقدين ماقد جئت من أجله » .

« هل أتيت لتقبل هذا الطفل؟ إنى لن أسمح لك بتقبيله ! »

« هل أتيت لتخفف آ لامه ؟ إنى لن أسمح لك بتخفيف آ لامه »

« هل أتيت لتلحق به ضرا ؟ إنى لن أسمح لك بأن تضره » « هل أتيت لتأخذيه ن ؟ إنى لن أسمح لك بأن تأخذيه منى »

« لقد أعددت له ما يحميه منك : من نبات « إفت ، إنه يسبب الآلام ، ومن البصل الذي يلحق بك الضرر ، ومن الشهد الحلو المذاق (للأحياء) من الرجال ومر المذاق لمن هم هنالك (يعني للموتى) ، ومن الأجزاء المؤذية من . سمك و إبدو ، ، ومن فك و مررت ، ، ومن العمود الفقرى للسمكة » .

ولم تقتصر الأم الوجلة على ابنها على استعمال التعويذة الآنفة الذكر بمثابة رقية ، بل كانت تشفعها بمزيج شهى تعطيه الطفل المريض فيبتلعه . وهو مريج مصنوع من الأعشاب والشهد والسمك وكان خاصا بطرد الشياطين الشريرة (ذكورا وإناثا) بمن كانت تصيب الطفل بالمرض أو تهدد باختطافه . وإننا نجد في وصف الشهد بأنه و حلو المذاق (للناس الاحياء) ومر المذاق لمن هنالك (يعنى للأموات) ، مايشعر بنوع هذه الشياطين ، إذ أنه من الواضح أن بعضا من الشياطين التي تشير الاغنية إلى الفزع منها هم نفس الأموات الذين تجردوا من أجسامهم . وعلى ذلك كانت حياة أهل الدنيا في تصادم مع الأموات طول مدة حياتهم من هذه الناحية . فكان من اللازم حينئذ العمل على كبح جماح أولئك الأموات الأشرار ووقفهم عند حدودهم ، ومن هنا كانت التعاويذ والحيل السحرية التي دلت على تأثير فعلها ضدهم في الحياة الدنيا ، ولابد أن لها قيمتها في الحياة الدنيا ، ولابد أن

ومن ذلك أن تلك الرقية السالفة الذكر التي منعت خطف الطفل من أمه كان يمكن استعمالها كذلك ضد من يسعى لسلب قلب أى رجل فى العالم السفلى ، ولكى يتمكن الرجل المتوفى من الدفاع عن نفسه ما عليه إلا أن يقول:

« هل حضرت لتأخذ قلبي هذا الحي ؟ إن قلبي هذا الحي لن يعطى لك! ،

وعلى ذلك فإن الشيطان الذى كان يريد أخذ قلبه ليفر به يضطر حتما إلى التسلل بعيدا عنه .

وبتلك الطريقة أخذ السحر الذى يستعمل فى الحياة الدنيا اليومية يستعمل بحالة مطردة للنفع فى الحياة الآخرة ويوضع تحت طلب الموتى وتصرفهم .

لقد رأينا فيما تقدم ذكره عن عصر الأهرام أن الاعتقاد الديني وقتئذ لم يقل بعد بوسود محاكمة عامة تجرى حتما على كل الناس في الحياة الآخرة ، وكل ما في الأمر أن الذي اقترف ذنبا خاطئاكان يطلب للمحاسبة في عالم الآخرة على ذنبه ، فكان إله الشمس يعقد هنالك محكمة للفصل في مثل تلك القضايا . وفي العهد الاقطاعي صار إله الشمس يؤكد كما يستدل من متون التوابيت وفي العهد الاقطاعي صار إله الشمس يؤكد كما يستدل من متون التوابيت وقد أن كل انسان مسئول عن خطيئته : «لقد جعلت كل رجل مثل أخيه ، وقد حرمت عليهم إتيان الشر ، ولكن قلوبهم هي التي نكثت بما قلت ، كذلك حرمت عليهم إتيان الشر ، ولكن قلوبهم هي التي نكثت بما قلت ، كذلك

ذكرنا فيما تقدم في النصائح الموجهة إلى « مريكارع » : « ان ذنوب الرجل كانت تكوم بحانبه كالجبال في حضرة القضاة المهيبين في عالم الآخرة » . فنرى من ذلك أنه مهما كانت حياة الإنسان نقية فإنه كان من مستازمات معتقدات العهد الاقطاعي أن الإنسان لابد له من اجتياز امتحان الحاكمة الخلقية للحصول على السعادة المنشودة في الحياة الآخرة وقد . صارهذا الشعور بالمسئولية الخلقية في العد الموت من العوامل القوية في حياة الشعب المصرى القديم ، غير أنه كان هنالك عاملان قويان يعملان على هدم تلك المسئولية ، وهما :

(أولا): استمرار اعتقاد عامة الشعب فى كفاية العوامل المادية، مثل إقامة القبور وإعداد معداتها، لضان سعادة المتوفى فى الحياة الآخرة.

(ثانيا): ازدياد الاعتماد على نفع قوة السحر فى عالم الآخرة ، وهو اعتقاد نال تشجيع الكهنة فتطرفوا فيه واشتطوا ، إلى حد أنهم حاولوا انتاج تعاويذ سحرية تضمن للمتوفى قبوله خلقيا عند محاكمته فى عالم الآخرة .

الفصالرابع عيثثر

الحساب في الآخرة والسحر

لقد تتبعنا ذلك التطور الطويل الذى مرفيه الاعتقاد بالمسئولية الخلقية في الحياة الآخرة ، وهو اعتقاد — كما نذكر — كان حاضرا في أذهان بناة الأهرام ، غير أنه كان منحصرا في ذلك الوقت في تعرض المتوفي للمثول أمام إله الشمس ، بصفة كونه قاضيا وذلك استجابة لطلب إنسان قد أخطأ الميت في حقه ، لا ليحاسب حسابا شاملا . فكان الاعتقاد القائم إذ ذاك أنه إذا لم يطلب الانسان للمحاكمة بتلك الصفة فإنه من المحتمل ألا يتعرض في الآخرة لأي حساب آخر . وبعد عصر الأهرام ببضعة قرون — أى في وقت ظهور النصائح الموجهة إلى الملك ، مريكارع ، — نجد أن ذلك الاعتقاد قد أخذ يحدد ويعين بحالة أوضح مما كان عليه من قبل .

فإن ذلك الملك المسن الذى ألق بتلك الكلمات الحكيمة إلى ابنه مريكارع » كان متأثرا تأثيرا عيقا بالحقيقة القاتلة إنه كان حقا حتى على الملك نفسه أن لا يغفل عن تبعته فى عالم الآخرة عن حياته فى هذه الدنيا من الناحية الاخلاقية ، ولعلنا بذكر نصيحته الهامة التى يقول فيها : « إنك تعلم أن محكمة القضاة الذين يحاسبون المخطى ، لا يتسامحون فى ذلك اليوم الذى يحاسبون فيه الشرير وقت تنفيذ الحكم . . ولا تركنن إلى طول الآيام ، لأنهم ينظرون فيه الشرير وقت تنفيذ الحكم . . ولا تركنن إلى طول الآيام ، لأنهم ينظرون ويعيش بعد الموت وأعماله تكوم بجانبه كالجبال . لأن الحياة الآخرى أبدية ولا يهمل أمرها إلا الغي . أما من يصل إليها دون أن يرتكب إنما فإنه سيبق هناك كإله يسير بخطى واسعة مثل أرباب الخلود (يعنى الآموات البررة) » .

⁽١) وفى القرآن الكريم : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » (آية ٤٧ من سورة ٢٢ الحج) .

وإذا كان الإنسان يعد لنفسه قبرا فى الجبانة فإن « مريكارع » كان يذكّره والده بأن يقيم قبرا لنفسه « بصفته إنسانا مستقيم الحال وبصفته إنسانا أقام العدل (يعنى ماعت) لأن ذلك هو الذى يركن القلب إليه » .

و « الفلاح الفصيح ، الذي لاصديق له كان يقول « لمدير البيت العظيم » عند مرافعته عن نفسه مطالبا إياه بتوخي العدالة : « إحذر إن الابدية تقترب ، .

وقد رأينا أن «أميني » أمير مقاطعة « بنى حسن » العظيم ، نقش على باب قبره سجل أعماله الصادرة عن العدالة الاجتماعية فيما يختص بمعاملته لرعيته ، راجيا أن يكون ذلك السجل خير جواز مرور يتخذه للذهاب في سفره إلى عالم الآخرة .

وقد ملت محاجر المرمر بجهة « حتنوب » (بيت الذهب) ، الواقعة في الصحراء الشرقية خلف ، تل العيارنة ، ، بالنقوش التي دونت فيها حياة أمراء ذلك العهد الإقطاعي الذين جاوروا تلك البقعة ، حيث ذكروا مرارا وتكرارا ما كانوا عليه من حب الخير والعدالة . وبمثل هذا التكرار دون أولئك الرجال الذين عاشوا في العهد الاقطاعي فوق مقابرهم ما كانوا يعزونه لانفسهم من الاخلاق العادلة . فيقول موظف من موظفي ذلك العصر اسمه مسينبيف، في نقش على ناووسه : « إنه أقام العدالة وكان يمقت الباطل ،الذي لم يره » .

وتبين لنا متون التوابيت بجلاء أن الشعور بالمسئولية الخلقية فى عالم الآخرة قد تعمق تعمقا عظيما فى نفوس القوم منذ عصر الأهرام إلى ذلك الزمن . فنجد أن موازين العدالة ،التى كثيرا ما ذكرها ذلك و الفلاح الفصيح » فى تظلمه المسرحى ضد و مدير البيت العظيم » ، قد صارت إذ ذاك تحتل مكانة واقعية عظيمة ، عثلة فى مشاهد حساب الآخرة ، حيث يقول قائل للمتوفى : « إن أبواب السماء مفتوحة لجمالك . إنك تصعد ... وذنبك مغفور ، وظلمك قد محى بأيدى أولئك الذين يزنون بالموازين فى يوم الحساب » .

وكما كان ذلك « الفلاح الفصيح » يسمى « مدير البيت العظيم ، في كثير

من الأحيان «موازين العدل » كذلك كان من الممكن أن يكون المتوفى متحليا بالأخلاق الفاضلة الحقة التي تشبه فى استقامتها كفتى الميزان اللتين لا تحيدان . ومن ثم نجد «متون التوابيت » تقول : « تأمل أن فلانا هذا (إشارة إلى المتوفى) هو موازين « رع » التي يوزن بها الصدق (يعنى الحقى) » . وهنا يتضح لنا لمن كانت موازين الصدق هذه ، ومن هو ذلك القاضى الذى يشرف عليها ، فنجده كاكان الحال قديما — « إله الشمس » الذى كان قد حوكم أمامه نفس الإله «أوزير » . ونجد فى مناسبة أخرى خاصة بمحاكمة المتوفى أمام الإله « رع » ان هذه المحاكمة كانت تعقد بحجرة القارب الشمسى .

وقد صار المطلب الخلق الذي يشترطه القاضى الأعظم من الأمور الطبيعية المفهومة ، ولذلك يقول المتوفى : « إنه يحب الحق ويكره الباطل ، وهو الذي تسير الآلهة في سبيل عدالته المحبوبة » . وعندما يدخل المتوفى تلك السبل الإلهية الحقة ، يكون بداهة قد ترك وراءه الرذا ال الخلقية ، ولذلك يقول المتوفى أيضا : « إن خطيئتي قد أقصيت عنى ومحى إثمى ، ولقد طهرت نفسى في تعنك المحر تان العظيمتين المتين في أهناس » .

و تلك الحمامات التطهيرية الرسمية التي كثيرا ما نصادفها مذكورة في «متون الأهرام » قد صارت الآن تدل بوضوح على معنى خلق ، حيت يقول المتوفى محدثا عن نفسه : « إنى أسير فوق الطريق التي أغسل فيها رأسي في بحيرة الحق » .

وكثيرا ما نجد المتوفى يقرر مرارا أن حياته كانت نقية ، إذ يقول : « إنى إنسان أحب الحق ، وماكرهته هو الباطل » .

د إنى أقعد بريثا وأقوم بريثا » .

« لقد أقمت العدل ومحوت الباطل » .

ولقد ذكرنا أن القاضى الذى تقف أمامه كل الأرواح كان فى الأصل « رع » ، ولكن « أوزير ، كذلك ما لبث أن أظهر نفسه من زمن مبكر فى موقف ذلك القاضى ، حيث نقرأ فى « متونالتو ابيت » عن « المجلس العظيم (أو محكمة العدل) للإله أوزير » ، وكان ذلك منذ زمن بعيد يرجع إلى الاسرة التاسعة أو العاشرة (من القرن الرابع والعشرين إلى الثانى والعشرين ق . م .)

فى أيام حكم الملك « مريكارع ، . ولا شك أن انتشار عبادة « أوزير » التى كانت آخذة فى الازدياد له علاقة عظيمة بانتشار الاقتناع ـــ الذى صار الآن عاما ــ بأن كل روح لا بد أن تلقى ذلك الحساب الخلقى العسير الذى ينتظرها فى الآخرة .

وقد صار من المتبع عادة منذ بداية الدولة الوسطى أن يضاف إلى اسم كل متوفى نعت « المبرأ ». وهذا النعت هو الذى كان قد ناله « أوزير » فيما مضى بصفته الخصم الظافر على أعدائه ، المبرأ أمام محكمة إله الشمس. وقد كان ذلك النعت _ كما نعلم من « متون الأهرام » _ لا يضاف إلا إلى اسم الفرعون فقط ، غير أنه صار بالتدريج امتيازا تمنحه كل روح ، أو على الأقل صار من حق كل روح متسمة بالأخلاق الفاضلة .

وكذلك نجد أنه بعد ما نال المذهب الأوزيرى القبول عند البلاط الملكي صار الملك يوحّد مع «أوزير المبرأ »، وصار الكهنة يضعون كلمة «أوزير » قبل اسم كل ملك متوفى، وقد رأينا فى «متون الأهرام » أن الملك «بيى » كاكان الملك « تيتى » يسمى «أوزير بيبى » ، كاكان الملك « تيتى » يسمى «أوزير تيتى » .

وقدكان من نتائج انتشار عبادة «أوزير » الآخذة فى الازدياد أن المهج الذى كان يرمى إلى صبغ الحياة الاخرى الملكية الفاخرة بالصبغة الديمقر اطية قد صار حينئذ يوحدكل متوفى ، ذكر آكان أو أنثى ، بالإله «أوزير » . وعلى ذلك لم يقتصر المتوفى على دخول بملكة «أوزير » — كماكان الحال قديما — ليتمتع بحيايته وعطفه ، بل صار المتوفى — ذكر اكان أو أنثى — «أوزير » نفسه واعتبر ملكا .

ولذلك نجد حتى فى دفن الفقراء — أن المومية كانت تصور فى شكل «مومية أوزير » وموضوعة مثلها على ظهرها . وكانت التعاويذ التى تمثل شارات الملك الفرعونى ترسم على داخل جوانب التابوت ، أو كانت توضع بهيئة تماثيل بجانب جثمان المتوفى . وقد ظهرت قوة عبادة « أوزير » بحالة تلفت النظر فى العادة الجديدة ، وهى إضافة اسم « أوزير » قبل اسم المتوفى . فإنه وإن كان

من الجائز للمتوفى أن يوحد مع إله الشمس أيضا — كما كان يحدث كثيرا — فإنه بالرغم من ذلك كان ينعت باسم «أوزير» فى حين أن اسم إله الشمس «رع» لم يضف قط قبل اسم المتوفى.

وبظهور الدولة المصرية الحديثة بعد سنة ١٦٠٠ ق . م نجد أن الأدلة التي تكشف لنا عن ذلك النطور الحلق الطويل الأمد — الذي اقتفينا أثره في هذا البحث — قد ازدادت في كميتها وفي أهمية قيمتها ، وبخاصة فيها يبين لنا شعور المصرى المتزايد بمسئوليته الشخصية عن نوع أخلاقه . ذلك بأن مرحلة التفكير لهذا التطور الحلق قد تقدمت تقدما محسوسا ، لآن المصرى القديم في ذلك الوقت كان قد تعمق في التفكير في طبيعة نفسه البشرية ، وكان من نتائج ذلك أن صار المفكرون من المصريين — أنئذ — يرون أن المسئولية الحلقية أن صار المفكرون من المصريين — أنئذ — يرون أن المسئولية الحلقية الحكل إنسان مترتبة بصفة قاطعة على إدراكه (فهمه) الشخصي .

ولعلنا نذكر بمناسبة هذا التصور الآخير الهام عن «الفهم» أنه لم يكن للعقل اسم فى اللغة المصرية القديمة غير كلية «القلب» القديمة . فنى عصر الأهرام وجدنا أن «بتاح حتب» ذلك الوزير الحكيم المسنكان يذكر «القلب» على أنه مركز المسئولية والإرشاد، إذ قال فيما ذكرناه له سابقا : «إن المستمع (يعنى إلى النصيحة الطيبة) هو المرء الذي يحبه الإله، أما الذي لا يصغى فهو الذي يبغضه الإله، والقلب هو الذي يجعل صاحبه مصغيا أو غير مصغ. وحظ الإنسان الحسن هو قلبه» . كما نجد في نصائح « بتاح حتب » أيضا أن قلب الرجل قد صار دليله، بل في الواقع قد صار ضميره .

على أن القلب الإنساني صار في عهد الدولة الحديثة يعتبر أكثر من مستمع بجيب إلى النصيحة الطيبة، بل صار أكثر من مرشد إلى حسن الحظ.

حقا إن آراء «بتاح حتب » عن القلب من حيث نعته له بالمرشد الحكيم قد استمرت ، إذ فى خلال القرن الخامس عشر نرى أحد حجاب بلاط الفاتح « تحتمس الثالث » يذكر خدماته التى أداها للملك ، فيقول : « لقد كان قلبي هو الوازع لأن أقوم بها ، بإرشاده لى فى شئونى . وكان . . . كأنه شاهد ممتاز ، فلم

أهمل كلامه ، وخشيت أن أتخطى ارشاده ، وبذلك كان الفلاح حليني لدرجة عظيمة . وقد كنت بسبب ما أوحى إلى [أى قلبي] أن أعمله ناجحا ، وكنت بإرشاده نابها . تأمل ... فقد قال القوم إنه وحى من الإله يوجد فى كل إنسان . وإن من أرشده إلى الصراط السوى فى إنجاز العمل ، لسعيد . تأمل . . فإنى كنت هكذا ».

على أننا نجد أن أقارب «بحيرى» ــ وهو أمير من أمراء « الكاب » ــ قد خاطبوه بعد موته داعين له بقولهم : « ليتك تعيش فى الآخرة بقلب فرح وفى كنف الآله الذي فيك ».

كا نجد ميتا آخر يقرر: « أن قلب الإنسان هو إلهه ، وقد كان قلبي مرتاحاً لأعمالي . .

فكل ذلك يدل على أن المصرى القديم قد صار حينئذ شديد الحساسية بدرجة لم يصل إليها من قبل لل لما كان يوحى به إليه ذلك الوازع الباطنى المنبعث من قلبه ، وهو الذى سمى لل ببعد نظر مدهش لله المرء » .

وذلك لأن القلب قد صار الآن ذا شعور أكثر اتزانا وأكثر سيطرة وسلطانا على الإنسان مماكان عليه فى عهد ذلك الوزير الحكيم « بتاح حتب » ، فصار يعلن استحسانه لما يكون عليه المرء من السلوك الحسن أو استياءه لما يكون عليه من السلوك السي .

ولما صار المصرى القديم يشعر بسلطان ذلك الوأزع القلبي شعورا كاملا أخذ ــ إذ ذاك ــ يلبس كلمة « القلب » معنى أوفى حتى صار أقرب بكثير ما فى عصر الأهرام من مدلول كلمتنا « الضمير » .

وقد صرنا الآن فى مركز يجعلنا نفهم أهمية التحديد والدقة اللذين بهما صور لنا المصرى ، عند بزوغ فجر الدولة الحديثة ، فكرته النامية عن الحساب فى الآخرة .

وهذه الآراء ــ التي نجد فيها تفصيلا أوسع من قبل عن الحساب في يوم الميعاد ــ قد وصلتنا عن طريق «كناب الموتى». وقد اجتمعت عندنا ثلاث

روايات مختلفة عن الحساب فى الآخرة عثر عليها فى أتم وأحسن اللفائف البردية التى وصلت إلينا للآن، وكانت هذه الروايات فى الأصل بلاشك مستقلا بعضها عن البعض الآخر، وعنو ان الرواية الأولى منها هكذا: « فصل فى دخولة عند البعض الآخر، وهى تحتوى على ما يقوله المتوفى عند الوصول فى دخولة الصدق عند ما يطهر فلان (يعنى المتوفى) من كل الذنوب التى اقترفها، ثم يوجه نظره إلى وجه الإله ويقول: «سلام عليك أيها الإله العظيم رب الصدق، لقد أتيت إليك يا إلهى وجى عبى إلى هنا حتى أرى جمالك. إنى أعرف اسمك، وأعرف أسماء الاثنين والاربعين إلها الذين معك فى قاعة أعرف اسمك، وهم الذين يعيشون على الخاطئين ويلتهمون دماه هم فى ذلك الصدق (هذه)، وهم الذين يعيشون على الخاطئين ويلتهمون دماه هم فى ذلك اليوم الذي تمتحن فيه الأخلاق أمام «ونفر» (أوزير)».

أنظر ... لقد أتيت إليك.

أنى أحضر العدالة إليك، وأقصى الخطيئة عنك.

إنى لم أرتكب ضد الناس أى خطيئة ...

إنى لم آت سوءا في مكان الحق،

وإنى لم أعرف أية خطيئة .

إنى لم أرتكب أى شيء خبيث ...

وإنى لم أفعل ما يمقته الإله.

وإنى لم أبلغ ضد خادم شرآ إلى سيده .

إنى لم أترك أحدا يتضور جوعا،

ولم أتسبب في بكاء أي إنسان .

إنى لم أرتكب القتل ،

ولم آمر بالقتل ؛

إنى لم أسبب تعسا لأي إنسان.

إنى لم أنقص طعاما في المعابد،

ولم أنقص قربان الآلهة .

إنى لم أغتصب طعاما من قربان الموتى .

إنى لم أرتكب الزنا.

إنى لم أرتكب خطيئة تدنس نفسى داخل حرم إله البلدة الطاهر.

إنى لم أخسر مكيال الحبوب.

إنى لم أنقص المقياس.

إنى لم أنقص مقياس الأرض.

إنى لم أثقل وزن الموازين.

إنى لم أحول لسان كفني الميزان .

إنى لم أغتصب لبنا من فم الطفل.

إنى لم أطرد الماشية من مرعاها .

إنى لم أنصب الشباك لطيور الآلهة ،

إنى لم أتصيد السمك من بحيراتهم (أى الآلهة).

إنى لم أمنع المياه عن أوقاتها .

إلى لم أضع سدا للمياه الجارية (١).

إنى لَمْ أُطْنَى ۗ النار في وقتها (أي عند وقت نفعها (٢)).

إنى لم أستول على قطعان هبات المعبد .

إنى لم أتدخل مع الإله فى دخله » .

والآن ننتقل إلى منظر آخر يمثل الحساب أيضا ، حيث نجد القاضى «أوزير، يساعده اثنان وأربعون إلها يجلسون معه لمحاسبة المتوفى . وهم شياطين مخيفة يحمل كل منهم إسما بشعاً مزعجاً ، ويدعى المتوفى أنه يعرف أسماءهم ولذلك يخاطبهم واحدا واحداً بالاسم ، وهاك بعض أسمائهم :

« خطوة واسعة _ خرجت من عين شمس » .

⁽١) هذه إشارة إلى تحويل مياه ترع الرى فى وقت الفيضان إلى غير أصحابها ، هذه الطريقة لاتزال للان من أهم الطرق المستعملة فى مصر للغش فى الرى .

⁽ ٢) المتن ظاهر هنا ولكن المعنى غامض بعض الشيء .

و « محتضن اللهيب الذي خرج من طرة » .

و «آكل الظل الذي خرج من الكهف ».

و «عينان من لهيب خرجتًا من « لتوبو ليس » (أوسيم).» .

و «كاسر العظام الذي خرج من أهناس ».

و • آكل الدم الذي خرج من مكان الإعدام ، .

فكان المتوفى ينادى أصحاب هذه الأسماء وأمثالها من الأسماء التى اخترعها خيال رجال الكهانة المصريين ، ويوجه لكل إله منها _ بدوره _ اعترافا ببراءته من خطيئة معينة .

ومن الظاهر حسطها حسان أولئك الاثنين والأربعين قاضيا ليسوا ألا أسماء يخترعة ، وهم يمثلون حكما هو معروف منذ مدة طويلة حسالاربعين مقاطعة أو أكثر ، أو الأقسام الإدارية ، التي تتألف منها البلاد المصرية . ولا شك أن الكهنة ألفّوا تلك الحكمة من اثنين وأربعين قاضيا قصد الإشراف على أخلاق المتوفى من أى ناحية كانت من أنحاء البلاد ، حيث يجد المتوفى أن نفسه تواجه قاضيا على الأقل من بين أولئك القضاة قد جاء من «البلدة التي كانت موطنا له » ، فيكون ذلك القاضى على علم بسيرة ذلك المتوفى المحلية وشهر ته في أقصى وأدنى «الشارع الرئيسى » في بلدته وبذلك لم يكن في امكانه أن يخاتله أو يغشه .

وتتناول هذه الاعترافات الاثنان والأربعون نفس موضوع الاقرارات الني ذكر ناها فى الخطاب السالف تقريباً . وقد وجد الكهنة الذين حرروا هذه الاعترافات بعض الصعوبة فى ايجاد الخطايا الكافية لمل قائمة مؤلفة من اثنين وأربعين خطيئة ، ولذلك نجد من بينها عبارات كثيرة معادة ، هذا عدا التكرار الظاهر الذى ورد مع تغيير طفيف فى بعض الألفاظ . والجرائم التى يكن اعتبارها من أعمال العنف هى التى يتبرأ منها المتوفى بقوله :

« إنى لم أقتل رجالا » (ه)

د إنى لم أسرق » (٢) .

هذا ونجد المتوفى كذلك يُنكر الغش وغيره من الصفات المذمومة ، إذ يقول:

كماكان المتوفى أيضا بعيدا عن ارتكابُ الرذائل الجنسية ، إذ يقول :

وإنى لم أسب الإله، (٣٨).

« إنى لم أذبح الثور المقدس » (١٣) .

« إنى لم أسرق هبات المعبد » (٨) .

« إنى لم أنقص طعام المعبد » (١٥).

﴿ إِنِّي لَمْ أُرْتُكُبِّ شَيْئًا تَكُرُهُهُ الْآلَمَةُ ﴾ (٤٠).

وإن انكار هذه النقائص وغيرها بما لم يمكننا فهمه هو الذي يتألف منه ذلك الإقرار بالبراءة . ويسمى هذا الجزء المذكور من كتاب الموتى في العادة السم « الاعتراف» .

ومن الصعب على الإنسان أن يبتدع اسما مخالفا لطبيعة بيان المتوفى الحقيقية أكثر من مخالفة تلك التسمية لها . إذ هي إعلان واضح عن براءة المتوفى ، فتكون بطبيعة الحال ب عكس مايفهم من كلمة «اعتراف » هذه . ولهذا السبب قد صار فساد تلك التسمية من الأمور الظاهرة ، لدرجة أن بعض محررى ذلك الفصل أضافوا بعد كلمة « اعتراف » كلمة « إنكارى » ، وصاروا يسمونه « اعتراف إنكارى » ، مع أن هذه التسمية ليس لها أى معنى قط ، لأن المصرى القديم لم يعترف بشي ، في تلك المحاكمة . وهذه الحقيقة في غاية الأهمية في تطور المصرى الديني القديم كما سيتضح فيها نذكره بعد .

والواقع أن الخطأ فى حسبان ذلك الجزء من كتاب الموتى اعترافاً ــ معناه الوقوع فى خطأ بين فى فهم ذلك التطور الذى كان يسير بالمصريين الاقدمين ــ إذ ذاك ــ على مهل نحو اعترافهم التام بخطاياهم وإظهارهم لها بتواضع، وهو أمر لاوجود له مطلقا فى أية ناحية من نواحى كتاب الموتى .

ثم بعد أن يذكر المتوفى براءة نفسه أمام هيئة المحكمة العظمى يوجه خطابه إليهم بوثوق، فيقول:

سلام عليكم ياأيها الآلهة

إنى أعرفكم وأعرف أسمامكم.

وإنى لن أسقط أمام أسلحتكم.

لاتبلغوا عنى شرا لذلك الإله الذي تتبعونه .

إن قضيتي لم تأت أمامكم.

قولوا عنى الصدق أمام (الرب المهيمن).

لأنى أقمت الصدق (يعني العدل) في أرض مصر .

وإنى لم أسب الإله .

وإن قضيتي لم تأت أمام الملك الحاكم وقتئذ.

سلام عليكم أيها الآلهة الذين في قاعة الصدق (هذه)

والذين خلت أجسامهم من الخطيئة والكذب.

والذين يعيشون على الصدق فى عين شمس . . . أمام حور الساكن فى قر ص شمسه (۱) .

انظروا إنى آت إليكم بدون خطيئة وبدون شر وبدون ذنب.

إنى أعيش على الحق،

وأتغذى من عدالة قلى .

لقد فعلت ما يقول به الناس وما يرضى الآلهة .

ولقد أرضيت الإله بما يرغب فيه .

فأعطيت الجائع خبزا

والصادي ماء

والعريان لباسا

ولمن لاقارب له رَمَثا .

وصنعت قربانا مقدسا للالهة وقربانا من الطعام للموتى .

فنجونى أنتم واحمونى أنتم.

ولا تقدموا ضدى أية شكاية أمام الإله العظيم

لانى أنسأن طاهر الفم وطاهر اليدين .

وإنى من قال له كل من رآه : مرحبا ، مرحبا » .

وبتلك السكلمات تتحول إدعاءات المتوفى عن خلقه العظيم إلى تأكيدات

⁽١) يجب أن نلاحظ هنا ان ذلك برهان آخر على أن الحكمة أصلها شمسي .

بأنه قدراعي كل مستلزمات المذهب الأوزيرى الرسمية . وهذه يتألف منها أكثر من نصف ذلك الخطاب الحتامي الموجه إلى آلهة المحكمة .

وأما الرواية الثالثة عن المحاكمة فهى التى – من غير شك – أثرت أعمق تأثير على نفس المصرى ، فهى تشبه تمثيلية « أوزير » في « العرابة المدفونة » فقوة تعبيرها وشدة تأثيرها ، وتصور لنا المحاسبة فى الآخرة عن طريق الموازين . فنشاهد الإله « أوزير » — فى بردية « آنى » الفاخرة المحلاة بالصور — جالسا فوق عرشه فى نهاية قاعة المحاكمة ، وخلفه كل من الإلهتين « إزيس » وقد أصطف على طول أحد جوانب القاعة الآلهة التسعة و « نفتيس » ، وقد أصطف على طول أحد جوانب القاعة الآلهة التسعة المعروفون بتاسوع « عين شمس » يرأسهم إله الشمس . وهم الذين ينطقون فيما بعد بالحكم ، دالين بذلك على أن ذلك المنظر الثالث من المحاكمة كان فى بدايته شمسى الأصل ، وهو الذى احتل فيه « أوزير » الآن المكان الأول ، ونشاهد فى وسط المنظر «موازين « رع » التى يزن بها الصدق » ، طبقا لما سبق ذكره في وسط المنظر «موازين « رع » التى يزن بها الصدق » ، طبقا لما سبق ذكره عن تسميتها بذلك الاسم فى العهد الإقطاعى .

ولكن المحاكمة التي تظهر فيها تلك الموازين صارت – وقتئذ – أوزيرية الصبغة ، حيث كانت الموازين في يد الإله الجنازي القديم وأنوبيس » الممثل برأس ابن آوى ، ويقف خلفه وتحوت ، كاتب الآلهة ليشرف على الميزان وفي يده القلم والقرطاس حتى يسجل النتيجة . وخلف وتحوت » يقعى حيوان بشع الهيئة يسمى والملتهمة ، له رأس التمساح وصدر الآسد ومؤخرة فرس البحر ، ويكون متحفزا لالتهام الروح إذا وجدت ظالمة . وقد صور بجوار الميزان بدقة موحية – صورة القدر وفي رفقيه الآلهتان ، رننوث الميزان بدقة موحية – صورة القدر وفي رفقيه الآلهتان ، رننوث الميزان بدقة موحية الولادة ، على أهبة التأمل والتدبر في مصير تلك ومسخنت ، وهما آلهتا الولادة ، على أهبة التأمل والتدبر في مصير تلك الروح التي أشرفنا عليها حينها جاءت إلى هذا العالم قبل ذلك . ويجلس خلف الآلهة المتربعين فوق عروشهم إلها الآمر والعقل .

على أنناكشيراً ما نجد فى لفائف بردية أخرى ــ فى هذا الموضوع ــ إلى قاعة المحاسبة المحدل بنت «رع» قائمة عند مدخل قاعة المحاكمة ، لتقود إلى قاعة المحاسبة الروح التى جاءت حديثاً .

وفى بردية «آنى » يدخل «آنى » وزوجه القاعة التى يقرر فيها المصير مطأطى الرأس بهيئة تدل على الخضوع ، ويطالب «أنوبيس » فى الحال بقلب «آنى » . والإشارة الهيرغليفية التى تدل على القلب — وهى التى تمثل هنا قلب «آنى » — تشبه كثيرا الإناء الصغير . ومن ثم نرى هذه الإشارة القلبية موضوعة فى إحدى كفتى الميزان ، كما نرى فى الكفة الأخرى ريشة — وهى الرمز الهيرغليني الدال على الصدق أو العدالة أو الحق (يعنى ماعت) . ويخاطب «آنى ، قلبه فى هذه اللحظة الحرجة قائلا:

« يا قلمي الذي أتيت من أمي
ياقلبي الحناص بكياني
لا تقفن شاهدا ضدى
ولا تعارضني في المجلس (يعني محكمة العدل)
ولا تكونن حربا على أمام رب الموازين
ولا تدعن اسمى يصير منتن الرائحة في المحكمة
ولا تقولن ضدى زورا في حضرة الإله.

والظاهر أن هذا إلاستعطاف لم يأت بالأثر المطلوب ، لأن «تحوت» رسول التاسوع العظيم الموجود فى حضرة الإله ، أوزير » يقول على الفور : اسمع أنت هذه الكلمة بالحق:

إنى قد حاسبت قلب أوزير [آني] (١)

إن روحه شاهدة عليه

وأخلاقه قد وجدت مستقيمة على حسب ما أظهره الميزان العظيم ولم يوجد له أى ذنب.

فيجيب الآلهة التسعة على الفور:

« ما أحسن ذلك الذي يخرج من فيك العادل »

وقد شهد ذلك « أوزير آنى ، المبرأ من الذنوب : إنه ليس له ذنب ا

⁽١) ترك السكاتب ذكر اسم «آنى » بعد «أوزير » سهوا .

فلم نجد أنه اقترف شرا

وأن يكون للملتهمة سلطان عليه

وليؤمر بإعطائه الخبز الذي يوضع أمام « أوزير »

والصيعة التي في حقل القربان كما عمل لاتباع « حور » .

وبعد أن يحكم له بهذا الحكم المرضى يقود «حور » بن (إزيس) » آنى » المحظوظ ويقدمه إلى « أوزير » حيث يقول له فى الوقت نفسه:

« إنى آت اليك يا « وننفر » (أوزير) وانى أحضر لك « أوزير آ نى » إن قلبه المحق يخرج من الميزان وليست له خطيئة في أى إله أو إلهة .

لقد حاسبه (تحوت ، كتابةً

وقد شهدت له الآلهة التسعة شهادة عادلة جدا

فليؤ مر بإعطائه الخبر والجعة اللتين توضعان أمام . أوزير وننفر ، مثل أتباع « حور » .

وبعد ذلك يضع «آنى » يده فى يد « حور » ويخاطب « أوزير ، فيقول : « تأمل إنى أمامك يارب الغرب

إن جسمي خال من الذنوب

إنى لم انطق كذبا على علم منى

وإذا كان ذلك قد فرط مني فإنى لم كرره ثانية

دعني أكن مثل أصحاب الحظوة من أتباعك . .

وعندئذ يركع أمام الإله العظيم، وعند تقديمه مائدة القربان يصير مقبولاً ويدخل في مملكة « أوزير » (١)

فتلك البيانات الثلاثة عن الحساب فى الآخرة ، برغم ما فيها من الحواشى والملحقات التى زخرفها بها الكهنة ، ذات أثر فعال فى النفوس حتى فى نظر الباحث الحديث حينها ينعم النظر فى تلك المفائف البردية التى مضى عليها الباحث من أن تلك المناظر ليست إلا تصويرا مجسها لنفس الشعور عصم سنة ، ويرى أن تلك المناظر ليست إلا تصويرا مجسها لنفس الشعور

⁽١) انظر الصورة ١٥

بالمسئولية الخلقية ونفس إيحاء الوازع الباطني الذي لا نزال _ نحن الآن _ نطالب به أنفسنا ، إذ نجد أن «آنى » يتضرع لقلبه _ الذي هو الكلمة المعبرة عنده عن «الضمير » _ بألاينم عليه ، مما نرى صدى صيحته تنحدر على مدى الآباد والدهور في مثل هذه الكلمات التي قالها « ريتشارد » (۱) (Richard) حيث قال :

« إن ضميرى له ألف لسان مختلف وكل لسان يأتى معه بقصة مختلفة وكل قصة تقضى على بأنى شرير ».

وقد أصغى المصرى إلى نفس ذلك الإيحاء وحافه وحاول إخفاءه وإسكاته. أى أنه اجتهد فى إسكات وحى القلب ولم يعترف إلى ذلك الوقت بذنوبه بل تشبث فى إلحاح ببراءته. ولقد كانت الخطوة الثانية عندما ارتقى فى تطوره فصار يظهر — فى خضوع أسعوره بخطيئته إلى ربه. وقد وصل إلى تلك الخطوة فيما بعد. ولكن حدث إذ ذاك أن تدخل عامل آخر فعاقه إعاقة شديدة عن تحرير ضميره تحريرا تاما.

وليس هناك من شك فى أن هذه المحاكمة الأوزيرية التى صُورت لنا بذلك الوضوح المجسم ، مضافا إليها ذلك التقدير العام لعبادة « أوزير ، فى عهد الدولة الحديثة ، يرجعان لدرجة كبيرة إلى نشر الاعتقاد بالمسئولية الحلقية فيها بعد الموت ، وإلى تعميم تداول تلك الآراء الحاصة بالقيم السامية الأخلاق الطاهرة النقية ، مما شاهدناه سائدا بين علماء الأخلاق والفلاسفة الاجتماعيين الذين نشئوا فى البلاط الفرعوني من عدة قرون خلت فى العهد الإقطاعي . فإنه بتلك الكيفية قد أضنى مذهب « أوزير » على الأخلاق الفاضلة قوة عظيمة فى نظر الشعب ، ومع أن بابه كان مفتوحا على مصراعيه ليدخله جميع الناس فإنه فى نظر الشعب ، ومع أن بابه كان مفتوحا على مصراعيه ليدخله جميع الناس فإنه كان من واجب الجميع أن يبرهنوا على أهليتهم لرضاء الإله « أوزير » من الناحية الحلقية .

⁽ ۲) هو ريتشارد الثاني ملك انجلترة (۱۳۷۷ – ۱۳۹۹م) وهذا الاقتباس من رواية للشاعر الإنجليزي « شكسبير » كتبها بهذا الاسم « ريتشارد الثاني » . فجر الضمير

فلو أن الكهنة تركوا الأمر على هذه الحال لكان فيه الحير ، ولكن السوء الحظ _ كان انتشار الاعتقاد فى نفع قوة السحر وتأثيرها فى الحياة الآخرة لا يزال مستمرا ، إذكان المعتقد أن كل النعم المادية يمكن الحصول عليها _ من غير نزاع _ باستعمال الرقية الملائمة ، بلكان فى الإمكان كذلك أن يعاد إلى الإنسان بتأثير تلك العوامل السحرية كل شىء حتى العتاد العقلى ، ألا وهو فقد رأينا _ في السبق _ كيف أن نفس تلك الرقية التى كانت تمكن الأم فقد رأينا _ في السبق _ كيف أن نفس تلك الرقية التى كانت تمكن الأم الملوع من منع الشيطان الرجيم من خطف طفلها كان فى الإمكان كذلك استعمالها لمنع أخذ قلب الإنسان منه (أى سلب عقله منه) . وقد وضعت الكهنة فى متون التوابيت ، فى عصر العهد الإقطاعي _ رقية لذلك الغرض عنوانها : « فصل فى عدم السماح بأخذ قلب الرجل منه فى العالم السفلى » . وقد أضيفت الآن هذه الرقية إلى كتاب الموتى . وبذلك نجد أن السحر قد دخل أضيفت الآن هذه الرقية إلى كتاب الموتى . وبذلك نجد أن السحر قد دخل إلى عالم جديد وهو عالم « الضمير » والصفات الشخصية والأخلاق .

وقد أغرت الكهنة أبواب الكسب والارتزاق — التى كانت لاتقف حيلتهم فيها عند حد — على اتخاذ خطوة خطيرة للاحتيال على الكسب ، ألا وهى السماح لمثل تلك العوامل أن تتدخل بثلك الكيفية فى القيم الخلقية ، برعمهم أنه فى مقدور السحر أن يصير عاملا للوصول إلى الغايات الخلقية .

وسنرى فيها يأتى أن كتاب الموتى هو على الاخص كتاب للرق والتمائم السحرية ، وأنه حتى الجزء الخاص منه بحساب الآخرة لم يستمر طويلا خاليا من ذلك ، حيث نجد أن تلك الكلمات المؤثرة التي وجهها « آنى » إلى قلبه عندما كان يوزن بالموازين الأخروية وهى قوله له : « ياقلبي لا تقم شاهدا ضدى » صارت تدون إذ ذاك على « جعل مقدس » مصنوع من الحجر (وهو ما الجعران ») يوضع فوق قلب الميت ، حتى يكون بمثابة أمر له نفوذ سحرى فعال يمنع القلب من أن ينم على أخلاق المتوفى .

وقدصارت ألفاظ تلك الرقية فصلامستقلا من فصول كتاب الموتى عنوانه: . فصل لمنع قلب الرجل من معارضته له فى العالم السفلى » . وكانت مناظر المحاكمة فى الآخرة ومتن إعلان البراءة تنسخ بكثرة على صفحات البردى ، يقوم بنسخها الكتبة ثم تباع لكل الناس . ولا يكتب اسم المتوفى فى هذه النسخ ، بل يترك مكانه خاليا ليملأه المشترى بعد حصوله على تلك الوثيقة .

وكانت كلمات الحسكم التي تعلنأن المتوفى قد فاز فى المحاكمة وبرى من كل شر تدون فى كل بردية من تلك الصحف. وعلى ذلك كان فى إمكان كل إنسان مهما كانت أخلاقه فى الحياة الدنيا _ أن يستولى من الكتبة على شهادة تقول بأن فلانا _ الذى ترك مكان اسمه خاليا _ كان رجلا فاضلا (يعنى من قبل أن يعرف من سيكون فلانا هذا).

وقد كان فى مقدور الميت أن يحصل حتى على صيغة سحرية شديدة القوة والتأثير لدرجة تجعل « إله الشمس » — الذى يعتبر القوة الحقيقية الكامنة وراء تلك المحاكمة — يسقط من سماواته فى النيل إذا لم يخرج ذلك الميت برىء الساحة تماما من محاكمته .

وبذلك نجد أن أقدم انتشار للأخلاق الفاضلة أمكننا تتبعه فى حياة الإنسان القديم، قد توقف فجأة ، أو على الآقل قد صدم صدمة عنيفة ، بتلك الحيل الممقوتة التي كان يستعملها أولئك الكهنة الدجالون جريا وراء الكسب.

ولسنا فى حاجة إلى بيان ما أدى إليه تدخل السحر فى ذلك الشأن الدينى من الخلط بين العوامل الحقيقية وغير الحقيقية . وذلك الارتبائ هو بعينه ماكان ينتج قديما من عجز الإنسان عن فهم الفرق بين » « مايدخل فى نفس الإنسان » وبين « مايخرج منها » .

فتلك البراءة التي تصدر صدورا آليا بعوامل خارجية لتنجية الإنسان من العقوبات التي مصدرها من الخارج ، لا يمكن — بطبيعة الحال — أن تزيل الأضرار التي نشأت في باطن الإنسان ، وإن الإيحاء الباطني ، الذي كان يحس به المصريون الأقدمون أكثر من أية أمة أخرى في الشرق القديم ، والذي بنيت عليه كل فكرة عن الحساب الخلق العسير في عالم الآخرة ، لا يمكن محوه بنيت عليه كل فكرة عن الحساب الخلق العسير في عالم الآخرة ، لا يمكن محوه

بمثل تلك الوسائل الخارجية التي ابتدعها لهم السحر ، ولا بد أن الاعتقاد العام الذي سرى في الاعتماد على مثل تلك الحيل ، الفرار من المسئولية الخلقية عن حياة مرذولة ، قد سمم حياة الشعب الفطرية .

ومع أن كتاب الموتى يكشف لنا أكثر من أى مصدر قبله فى تاريخ مصر عن صيغة المحاكمة الحلقية فى عالم الآخرة وكيفيتها وتوخى المصريين الحقيقة فى تصوير المسئولية الحلقية ، فإنه كذلك مظهر لمدى انحطاط المبادى الحلقية فى ذلك الوقت ، بل إنه بتحول كتاب الموتى إلى سلاح لضان البراءة الحلقية فى عالم الآخرة بدون مراعاة لقيمة أخلاق الشخص نفسه قد صار قوة إيجابية مفسدة .

ويزيد من شر هذا الإنتاج الكهانى (أى كتاب الموتى) أنه ينتظم طائفة من الرقى والتعاويذ السحرية التى يعتقد فيها القوم القدرة على جلب مايرضى الميت من الحاجات المادية والجثمانية فى عالم الآخرة .

وقد ازدًاد عدد تلك الرقى عهدالدولة الحديثة، وكان لكل منها عنوائه الدال على ما تؤديه للميت من الأعمال. وقد تكون من هذه الرقى السالفة الذكر، مضافا إليها بعض الأناشيد الدينية القديمة فى مديح « رع » و « أوزير » ماكان بعضه ينشد أمام الجنائز، ويحتوى عادة على بعض البيانات عن الحساب فى الآخرة ، مجموعة كانت تدون إذ ذاك بصفتها متو نا جنازية على صحف من البردى وتوضع مع الميت فى قبره . وهذه الأوراق البردية هى التى صارت تعرف — عندنا عادة — باسم كتاب الموتى .

والوقع انه لم يكن موجودا — فى عهد الدولة الحديثة — كتاب كهذا يعرف بذلك الاسم ، بل كانت كل لفافة بردى تحتوى على مجموعة من المتون الجنازية تؤلف حسما اتفق بما يقع تحت يد الكاتب ، أو من المتون التى كانت سوقها رائجة وقتئذ — أى المتون التى كانت محببة إلى الناس أكثر من غيرها . وقد كانت توجد لفائف فحمة ذات بها عبلغ طول الواحدة منها من ٢٠ إلى ١٨ قدما ، وتشتمل على فصول أو رقى يتراوح عددها من ٧٥ إلى ١٣٥ أو ١٣٠ . ف حين

كان الكتبة من جهة أخرى ينسخون لفائف صغيرة متواضعة ، لا يزيد طول الواحدة منها على بضعة أقدام ولا تحتوى إلا على منتخب صغير من تلك الفصول التي تعد أكثر أهمية من غيرها . والواقع أنه لم توجد بين لفائف ذلك الزقت لفافتان تحتوى كل واحدة منهما على نفس بحموعة التعاويذ التي تشتمل عليها الإخرى ، وقد بتي الحال كذلك إلى عهد البطالسة (أى بعد القرن الرابع ق . م . بقليل) حينها جمع منتخب شبه معتمد من تلك الفصول تقرر استعماله تدريجا . ومن ذلك يتضح ، كما ذكرنا فيما سبق ، أنه لم يكن هناك كتاب يعرف باسم كتاب الموتى – بصحيح العبارة – في عهد الدولة الحديثة ، بل كانت توجد مجاميع متنوعة فقط من الفصول الجنازية تماك الأوراق البردية الجنازية التي وجدت في ذلك العصر . وقد بلغ بجموع تلك الفصول أو التعاويذ التي كانت تولف منها تلك اللفائف ما يربو على مائين ، مع أن أكبر لفافة منها كانت لا تحتوى على تلك الفصول جميعا .

وقد كان استقلال كل فصل بذاته — أو بعبارة أخرى تمييز كل فصل عن غيره من باقى الفصول — واضحا فى ذلك العهد بفضل اتباع العادة التى جرب بوضع عنوان لكل فصل قبله. وقد كانت بداية تلك العادة فى متون التوابيت، حيث وضعت عناوين لبعض فصوطا.

وكانت توجد مجاميع من الفصول تتألف منها أكبر نواة متداولة لكتاب الموتى وتسمى غالبا: « فصول للصعود فى النهار » ، وهى تسمية نجدها مستعملة فى متون التوابيت أيضا . وبالرغم من كل ذلك لم يكن هناك عنوان شائع عن لفافة كاملة لكتاب الموتى باعتباره وحدة شاملة .

ومع أن بعض نبذ ضئيلة من متون الأهرام قد استمرت طويلا مستعملة في كتاب الموتى ، فإنه يمكننا القول بأن تلك المتون قد اختفت على وجه عام تقريبا . وأما متون التوابيت فقد ظهرت ثانية بمقدار عظيم جدا وساهمت مساهمة كبيرة في تكوين المجاميع المتنوعة التي يتألف منها الآن و كتاب الموتى » وقد ابتدع في هذه المجاميع عنصر لانرى له إلا أثرا يسيرا فقط في و متون التوابيت » ، ذلك هو إضافة صور فاخرة في لفائف الموتى من الدولة الحديثة ،

تصور حياة المتوفى فى عالم الآخرة. وقد كان القوم يعتقدون فى تأثير مفعولها اعتقادا عظيما وبخاصة ما شاهدناه فيما سبق من منظر المحاكمة فى الآخرة ، الذى صار ـــ إذ ذاك ـــ يصور بهيئة متقنة .

ويمكن القول عن تلك الصور الواردة فى كتاب الموتى , بأنها ليست الامثالا آخر لإحكام الطرق السحرية بقصد تحسين أحوال الحياة الآخرى . والواقع أن كتاب الموتى نفسه — على وجه عام — ليس إلا مثلا مركبا بعيد المرمى يوضح مدى اعتماد القوم المتزايد على السحر فى الحياة الآخرة .

المرامى يوضح مدى الواضح أن وكانت المكاسب التي تجبى بتلك الطريقة لاحد لها . ومن الواضح أن ذكاء أولئك الكهنة المرتزقة قد لعب دورا عظيما فيما حدث من التطور بعد ذلك ، إذ أن أشر اف الدولة المنزفين لم يروا في تصوير الآخرة بمناظر الفلاحة مستقبلا جذابا ، إذ كان من الممكن للمتوفى أن يحرث فيها وأن يزرع ويحصد الثمار من حقله السعيد حيث كانت الحبوب تنمو إلى إرتفاع سبعة أذرع (حوالى ١٢ قدما) (١) . فلم يعد يروق في نظر أولئك العظهاء المنعمين ، في عصر يزخر بالثراء ، أن يكلفوا القيام بعمل ما ، أو أن يجبروا على الذهاب حتى إلى حقول المنعمين ، لمحكدوا وينصبوا .

ولذلك كانت توجد منذ الدولة الوسطى دمى مصنوعة من الخشب تمثل خدم الميت فى الحياة الآخرة ، توضع معه فى القبر لتقوم بدلا منه بأداء ما يلزمه القيام به من العمل بعد الموت ، كما كان يقوم له بذلك خدمه فى الحياة الدنيا .

وقد تدرجت هذه الفكرة إذ ذاك بعض الشيء فى سبيل النطور فصارت تصنع تماثيل صغيرة للمتوفى يحمل كل منها حقيبة وفأسا. وكان يدون على صدور مثل تلك التماثيل رقية ماكرة هى:

ما أيتها الدمية (٢) المتخذة لفلان (هنا يكتب اسم المتوفى) إذا نوديتُ أو إذا طلبت للقيام بأي عمل في العالم السفلي . . . فإنك تعدين نفسك لى في كل

⁽١) كتاب الموتى الفصل ١٠٩.

⁽ ٧) إن السكلمة التي تعبر عن هذه الدمى تكتب عادة « يوشابتي » أو « شوابتي.» وتترجم بكلمة مجاوب. وعلى أية حال فإن أصل هذه الكلمة غامض جدا ومعناها غير مؤكد.

الأزمان لنزرعى الحقول ولتروى الشواطئ ولتنقلى الرمل من الشرق إلى الغرب ولتقول إنني ههنا » .

وهذه الرقية كانت ضمن الرقى التى تدون فى بردى المتوفى تحت عنوان: « فصل فى جعل الدمية تقوم بعمل المرء فى العالم السفلى (١٠) . . ثم تفنن القوم فى إتقان هذه الحيلة فصار يخصص لـكل يوم من أيام السنة دمية من تلك الدمى الصغيرة وتوضع جميعا مع الميت فى قبره . وقد عثر على تلك الدمى بمقادير عظيمة فى الجبانات المصرية القديمة ، حتى أن المناحف (والمجاميع الخاصة) فى كل العالم قد صارت الآن آهلة بها .

ولا غرابة إذن إذا كان كهنة ذلك العصر وكتبته قد انتهزوا تلك الفرصة السانحة لابتزاز أموال الناس حبا في الكسب الذي كان يأتي إليهم بتلك الطريقة السهلة . ولذلك ضاعفو ا أخطار الآخرة وأهوالها إذ ذاك مضاعفة عظيمة ، واد عوا أنه كان في مقدورهم إنقاذ المتوفى لدى كل موقف حرج بالتعويذة الفعالة التي تنجيه من ذلك الخطر حتما . فإنه فضلا عن التعاويذ العديدة التي تساعد المتوفى على الوصول إلى عالم الآخرة ، كانت توجد أيضا تعاويذ تمنع فقدان المتوفى فمه أو رأسه أو قلبه ، وأخرى لتساعده على استذكار اسمه ، كاكن منها ما يمنعه أكله لبرازه ، ومنها ما يمنعه أكله لبرازه ، ومنها ما يمنع الماء الذي يشربه من أن يتحول إلى لهيب . ومنها ما يحول الظلام نورا . كاكان من التعاويذ ما يحجب عن الميت كل الثعابين والوحوش المؤذية . وغير ذلك كثير من تلك التعاويذ .

وكذلك ازداد الآن موضوع التقمصات التي كان يرغب الميت في أن تتقمصها روحه ، وقد وضع فصل صغير لـكل حالة يرغبها الميت ، ليساعده على أن يتقمص في صورة «صقر من الذهب» أو «صقر إلهي» أو «زنبقة » أو «مالك الحزين (فنكس) » أو « بجعة » أو «الثعبان المسمى ابن الأرض » أو «تمساح » أو «إله » والأدهى من كل ذلك هو اختراع فصل قوى المفعول يمكن الإنسان باستعماله أن يتخذ لنفسه أى شكل يريده .

⁽١) أنظر كتاب الموتى الفصل السادس .

فن مثل ذلك الإنتاج الذي تقدم ذكره يتألف الجزء الإعظم من مجموعة المتون التي نسميها الآن «كتاب الموتى». فإذا سميناه بعد ذلك «إنجيل المصريين (١) الاقدمين ، نكون إذن قد أسأنا فهم وظيفة هذه اللفائف ومحتوياتها.

وإن ذلك الاتجاه الذي نتجت عنه تلك المجموعة من التعاويذ أو الرق وهي التي يطلق عليها اسم و فصول ، نجده ظاهرا أيضا بشكل بميز في كتابين آخرين يكون كل منهما وحدة متماسكة متصلة . وأولهما وكتاب الطريقين ، ويرجع عهده - كما تقدم ذكره - إلى عصر الدولة الوسطى ، وقد ساهم ذلك الكتاب من قبل مساهمة عظيمة في تأليف كتاب الموتى فيما يختص بالبوابات النارية التي كان يمر بها المتوفى حتى يصل إلى عالم الآخرة وإلى الطريقين اللذين كان يسير فيهما في سياحته .

وعلى أساس مثل تلك النصورات أنتج خيال الكهنة أيضا «كتاب الملوجودين فى العالم السفلى أو ما فى العالم السفلى ». وهذا الكتاب يصف لنا الرحلة السفلية التى تقوم بها الشمس خلال الليل ، حيا تخترق المرات ذات الكهوف الأثنى عشر التى فى أسفل الارض ، وكل منها تمثل مسيرة ساعة . وباجتياز الأثنى عشر كهفا تنتهى الشمس من آخر مطافها و تبلغ النقطة التى تطلع منها فى الشرق صباحا .

وأما الكتاب الثانى فيسمى عادة باسم «كتاب البوابات»، وهو يمثل الوصول إلى كل من الآثنى عشركهفا بالدخول إلى كل كهف من بوابته، وهو عاص باجتياز تلك البوابات(٢).

⁽١) إن التسمية « أنجيل المصريين الأقدمين » يرجع عهد إطلاقها على كتاب الموتى على أقل تقدير إلى وقت انعقاد المؤتمر الشرقى فى لندن عام ١٨٧٤ م حيث رتب لنشر كتاب الموتى . أنظر :

Naville, Todtenbuch Einleitung, Berlin, 1886, P. 5. (٢) ومن المحتمل أن السياح الذين ساحوا في نهر النيل يذكرون رؤية هذه البوابات المظيمة في مقار الماوك بالأقصر . مثال ذلك ما يشاهد في قبر « رعمسيس السادس » الواقع فوق مقبرة « توت عنخ آمون » بالضبط .

ومع أن تلك التصانيف لم تنتشر قط الانتشار الذى حظى به «كتاب الموتى» فإنها كانت تعد عم ذلك حكتب إرشاد سحرية ألفها الكهنة للكسبكا فعلوا فى معظم الفصول التى يتألف منها «كتاب الموتى».

والأمر الذي خلص «كناب الموتى» نفسه من وصمة أنه كناب سحرى وكنى يستعمل فى عالم الآخرة ، هو بسطه للآراء القديمة الحاصة بالمحاكمة الخلقية فى عالم الآخرة وتقديره الظاهر لمسئولية «الضمير».

وقد رأينا فيها تقدم أن علاقة الإنسان بالآلهة كانت قد صارت من قبل حلول العهد الإقطاعي شيئاً أكثر من إقامته للشعائر الدينية الظاهرة، فالآن قد أصبحت هذه العلاقة أمرا يتعلق بالقلب والأخلاق.

ولقد كان الشعور الخلق عند المصرى قويا جدا ، لدرجة أنه لم يحعل قيمة الحياة الفاضلة موقوفة على قبوله عند ، أوزير ، فى عالم الآخرة فحسب . ومن ذلك يتضح لنا تقصير النظرية الأخلاقية الأوزيرية ، التى تأمر الإنسان بالنفكير فى العواقب الحلقية فى عالم الآخرة فقط . فإن « أوزير » لم يخرج عن كونه إله الموتى كما ذكرنا ذلك كثيرا فيما تقدم ، وقد نادى فلاسفة الاجتماع الاقدمون فى العهد الإقطاعى بالفضائل التى شرعها « رع » إله الشمس وطالبوا بالعدالة الاجتماعية فى هذا العالم كما طالب بها « رع » .

ولم يعدم أولئك الفلاسفة بعض الأخلاف في عهد الدولة الحديثة ، بمن رأوا في المذهب الشمسي واجبا يحتم عليهم أن يحيوا حياة حقة في هذه الدنيا ، كما أدركوا أنه ينالهم الثواب في الدنيا إذا عاشوا عيشة صالحة . فإله الشمس لم يكن بوجه خاص به إله الموتى ، بل كان الإله الذي يحمكم في شئون البشر الدنيوية ، وقد شعر الناس بالمسئولية الخلقية التي فرضها عليهم « رع » في كل ساعة من حياتهم الدنيوية . فحوالي سنة ١٤٠٠ ق . م . وجه أحد مهندسي الملك « أمنحتب الثالث » أنشودة مدح إلى إله الشمس ، قال :

لقد كنت ُ قائدا مغوارا بين آثارك ، مقيما العدل لقلبك .
 وإنى أعلم أنك مستريح للعدالة .

وأنك تجعل من يقيمها على الأرض عظيما . ولقد أقمتها ، ولذلك جعلتني عظيما ،

وكذلك حينها كان الفرعون يعقد يمينا ، فإنه كان يحلف «بحب « رع » لى و بمقدار عطف والدى « آمون » على " » (وقد وحد « آمون » مع « رع » منذ زمن بعيد) .

كما أن الفاتح , تحتمس الثالث » ، عندما كان يقسم بذلك القسم توكيدا لل يقوله و تعظيما لاحترامه للصدق عند الإله ، يشير عند حلفه إلى وجود إله الشمس ، هكذا:

ولأنه يعرف السهاء ويعرف الأرض

ويرى جميع العالم في كل ساعة ، .

ومع أنه من الأمور المسلم بها أن عالم الآخرة السفلى فى المذهب الأوزيرى يصور لنا إله الشمس بأنه ينتقل من كهف إلى كهف تحت الأرض ، مارا فى عالم «أوزير » السفلى وجالبا معه النور والفرح إلى الساكنين هناك ، فإن تلك الفكرة لم تكن معروفة فى اللاهوت الشمسى كما هو مذكور فى « متون الأهرام ».

والواقع أن إله الشمس كان يعتبر فى عهد الدولة الحديثة قبل كل شىء إله عالم الأحياء من البشر ، حاضرا معهم ، نشطا فى مراقبة شئونهم الدنيوية على الدوام . ولذلك كان الناس يشعرون بمسئوليتهم أمامه الآن وفى هذه الحياة الدنيا . وكانت سيطرته تلك قد تعمقت فى قلوب الناس واتسع أمامها المجال باتساع أفق ذلك العهد الإمبراطورى ، إلى أن انبثق لأول مرة فى تاريخ العالم ، لأعين سكان وادى النيل القدامى ، فحر رؤية الإله العالمى .

الفصال نحامه عشر

السيادة العالمية وأقدم عقيدة للتوحيد

لقد ترك النفوذ الاجتماعي مدة العهد الإقطاعي في مصر أعظم أثر له في الدين والأخلاق ، كما فعل ذلك من قبل النفوذ السياسي أى الحكومة المصرية في عصر الأهرام. وكلا الأثرين كانا منحصرين في القطر المصري.

حقا إن عصر الأهرام قد اهتدى إلى فكرة — مبه، ة نوعا — عن دولة إله الشمس ذات الاتساع الشاسع المدى ، وخوطب إله الشمس فى «متون الأهرام » مرة باللقب الطنان « الذى لاحد له » . كما رأينا أن عصر الأهرام كان قد أوجد ، بالادراك الاجتماعى الذى قام به أمثال « بتاح حتب » دولة للقيم الخلقية العامة ، وفى إعطاء إله الشمس السيادة على مثل هذه الدولة دليل على أن المصريين كانوا قد بدأوا يسيرون بالفعل فى الطريق المؤدى إلى « التوحيد » . كما أننا نتذكر عما سبق أن نصائح الملك الأهناسي المجهول الاسم قد سارت بالمصريين شوطا بعيدا فى ذلك الطريق . وقد كان وقتئذ فى مقدور المصريين بما تصوروه من النظام الإدارى الخلق العظيم ، الذى أو جدوا له من قبل كلمة تدل عليه ، أن يتقدموا نحو الوصول إلى المعرفة التامة للوحدانية .

ولكن على الرغم من ذلك قد بقى هذا النظام الخلق فى عصر الأهرام فكرة قومية لم يمتد نظامها حتى يشمل العالم كله.

فقد كان إله الشمس يحكم مصر فحسب ، حيث نجده فى أنشودة الشمس العظيمة بمتون الأهرام يقف حارسا على الحدود المصرية، فيقيم هناك الأبواب التي تمنع الأجانب من دخول مملكته المحروسة.

وكَان إله الشمس في عصر الأهرام أيضا قد بدأ عملية إدماج آلهة مصر الآخرين في ذاته ، وهي عملية استحالت حتى في ذلك العصر السحيق إلى صورة

قومية من العقيدة الحلولية القومية التي تقول بأن الإله يحل فى كل شيء ، وبأن جميع الآلهة تستحيل فى النهاية من حيث الاشكال والوظائف إلى وحدة واحدة . ولكنه مع تلك العملية وبالرغم من استمرارها طويلا ، فقد تركت دولة ذلك الإله العظيم مقصورة على مصر . ولذلك كان هذا الإله بعيداكل البعد عن أن يكون إلها عالميا .

والواقع أن المصريين ظلوا إلى ذلك العهد غير مدركين للفكرة العالمية، أى لفكرة الامبراطورية العالمية ، التي يمكنهم أن يسيطروا عليها محاكم دنيوى واحد.

ولكن تأثيرات البيئة المقصورة على حدود وادى النيل كانت قد امتدت إلى أقصى مداها، وإذا بمسرح الفكر والعمل ينفسح للقوة القومية، بتلك التوسعات الخارجية الرائعة. فإن اللاهوت الشمسى السريع الاندماج والتجاوب مع أحوال ذلك العالم الصغير المكون من وادى النيل، قددل على أنه لا يقل حساسية وتجاوبا مع ذلك العالم الأكبر الجديد الذى وصل الأفق المصرى إلى مداه.

وإن توسع مصر الإمبراطورى شمالا وجنوبا ، إلى أن شمل سلطان الفرعون الأقطار الاسيوية والأفريقية المجاورة ، وكون منها أول امبراطورية ثابتة الاركان في التاريخ ، لهو أبرز حقيقة في تاريخ الشرق في القرن السادس عشر قبل الميلاد . كما يعد توطيد تلك السلطة على يد . تحتمس الثالث ، في مدى عشرين سنة بما قام به من الغزوات في آسيا ، حادثا عظيما في تاريخ العاهليات الحربية ، نرى فيه لأول من في تاريخ الشرق ، دى ما تستطيعه القوات العاملة المنظمة لدولة عظيمة .

إذ أن تلك القوات بهجومها المتواصل على ممالك آسيا الغربية قد جعلت السيادة المصرية لاينازعها منازع ، من الجزر الإغريقية فسواحل آسيا الصغرى ومرتفعات أعالى نهر الفرات شمالا ، إلى الشلال الرابع لنهر النيل جنوبا .

وقد ذكر ذلك القائد الحربي العظيم نفسه تلك الملاحظة التي اقتبسناها آنفا عن إلهه ، رهي التي قال عنه فيها :

« إنه يزى جميع العالم فى كل ساعة ،

وإذا كان ذلك القول صحيحا فما ذلك إلا لأن سيف ذلك الفرعون كان قد مد سلطان إله مصرحتى نهاية حدود الإمبراطورية المصرية. بل إن « تحتمس الأول » قد أعلن قبل ذلك العهد بخمسين سنة أن ملك يمتد « إلى نهاية ما تحيط به الشمس » ، وقد كان القوم في عهد الدولة القديمة يتصورون أن إله الشمس هو فرعون ، ومملكته في مصر . فلما اتسع نطاق المملكة المصرية وصارت عاهلية عالمية كان من المحتم كذلك أن يمتد سلطان الإله بهذا القدر . ولما كانت الملكية قد انبثت مظاهرها في العقائد الدينية منذ زمن بعيد ، فكان الإبد للأمبراطورية كذلك من أن تؤثر تأثيرا قويا في الفكر الديني .

ومع أن ذلك قد جرى بكيفية آلية لا تمكاد تحس، فإبه كان مصحوبا باستيقاظ عقلي هز التقاليد المصرية القديمة من أساسها وجعل رجال ذلك العصر يفكرون في عالم من النفكير أوسع أفقا من قبل. فقد مضى على إله الشمس ألفا سنة وخمسائة وهو فرعون مصرى، أى فرعون حاكم لمصر، ولكن بعد سنة ١٦٠٠ ق.م. صار ذلك الفرعون سيدا على العالم المتحضر إذ ذاك. وكان «تحتمس الثالث» الفاتح أول شخصية ظهرت لها نواح عالمية في التاريخ البشرى، ويعتبر بذلك أول بطل عالمي. ومن ثم كان له تأثير عميق في عصره، وتمثلت فكرتا السيطرة والامبراطورية العالمية في لاهوت الدولة يرجع سبها المباشر إلى حيانه. وقد ظهرت آنتذ بوادر للعالمية في لاهوت الدولة يرجع سبها المباشر إلى التأثيرات التي أحدثتها شخصية « تحتمس الثالث ، وأخلافه. وقد اضطرت مصر إلى الخروج من عزلتها العريقة في القدم في أحضان واديها الضيق والاشتراك في العلاقات العالمية التي كان لا بد أن يحسب لها في لاهوت ذلك العصر حساب فعال ، إذ أنها كما أوضحنا علاقات كان لإله الشمس بها صلة العصر حساب فعال ، إذ أنها كما أوضحنا علاقات كان لإله الشمس بها صلة لا انفصام لها .

أما العلاقات التجارية التي كانت قاعة منذ أزمان سحيقة جدا فلم تكن كافية لإدخال العالم الخارجي في دائرة التفكير المصرى بدرجة محسوسة. فقد كانت

أطراف عملكات الآلهة محددة ومحصورا أقصاها في تخوم وادى النيل الخارجية ، وذلك منذ زمن بعيد وقبل أن يصير العالم الخارجي مألوفا لسكان وادى النيل، فلم يكن في مقدور المعاملات التجارية وحدها مع عالم أوسع من مصر أن يزحزح تقاليد البلاد عما كانت عليه . فكم من تاجر رأى حجرا يسقط في « بابل » لنائية كما رأى مثله يسقط في « طيبة » المصرية أيضا ، ولكنه مع ذلك لم يخطر بباله ، ولا ببال أى رجل آخر في ذلك العصر العتيق، أن القوة الطبيعية التي تجذب الحجر الساقط هي واحدة في كلتا ها تين المملكتين اللتين تفصلهما مسافات شاسعة ، إذ كان العالم في الواقع وقتئذ لا يزال بعيدا جدا عن زمن ذلك الصي الراقد تحت شجرة التفاح (١) ، الذي كشف عن قوة عالمية وراء سقوط التفاحة . وكم من تاجر في ذاك العصر أيضا قد رأى الشمس تبزع خلف معابد « بابل ، البرجية كماكانت تبزغ بين المسلات المتجمعة في « طيبة » ، ولكن تفكير ذلك العصر لم يكن قد وصل بعد إلى إدراك مثل هذه الحقائق ذات تفكير ذلك العصر لم يكن قد وصل بعد إلى إدراك مثل هذه الحقائق ذات الأثر البعيد ، وذلك بالرغم مما قاله « تحتمس » الفاتح عن إله الشمس :

« إنه يرى جميع العالم في كل ساعة »

فإن العالمية التي تصورها أولا خيال رجال الأمبر اطورية المفكرين وكشفت لهم المجال العالمي الطبعي لدولة إله الشمس هي العالمية كما بدت في السلطة العاهلية . أما التوحيد فليس إلا العاهلية في الدين .

وعلى ذلك لم يكن من باب الحدس أو الصدفة أن نجد أن أول هذه التصورات حوالى سنة ١٤٠٠ ق . م . في عهد « أمنحتب » (١) الثالث الذي كان أعظم أباطرة مصر أبهة ، إذ نجد أن تو أمين من رجال العبارة هما «سوتى» و حور »كانا يعملان في «طيبة ، لحساب الملك « أمنحتب » الثالث ، وقد تركا لنا أنشودة للشمس على لوحة توجد الآن في المتحف البريطاني . وهذه الأنشودة توضح لنا مدى ميل ذلك العصر والمجال الآخذ في الاتساع والذي

⁽١) يشير بذلك إلى نظرية « نيوتون » وجاذبية الأرض .

⁽٢) أمنحتب الثالث حكم من ١٤١١ - ١٣٧٥ ق ٠ م٠

كان ينظر به رجال الأمبراطورية إلى العالم مدركين مبلغ امتداد دولة إله الشمس التي لاحد لها .

وهذه الآنشودة الشمسية تحتوى على الأسطر الآنية الجليلة المعنى ، وهى : « إنك صانع مصور لاعضائك بنفسك

ومصور دون أن تصور .

منقطع القرين في صفاته مخترق الأبدية

مرشد الملايين إلى السبل.

وعندما تقلع في عرض السهاء يشاهدك كل البشر

(رغم أنك) فى ذهابك خنى عن أنظارهم .

إنك تجتاز سياحة مقدارها فراسخ ،

بل مثات الآلاف وملايين المرات .

وكل يوم تحتك (تحت سلطانك).

وحينها يأتى وقت غروبك،

فإن ساعات الليل تصغى إليك أيضا .

وعندما تجتازها فإن ذلك لا يكون نهاية كدك.

وكل الناس تنظر يو اسطتك .

أنت خالق الـكل ومانحهم قوتهم ،

أنت أم نافعة للآلطة والبشر ،

وأنت صانع مجرب

وراع شجاع يسوق ماشيته

وأنت ملجؤها ومانحها قوتها.

.

هو الذي پري ما خلق ،

والسيد الأحد الذي يأخذ جميع الأراضي أسرى كل يوم

بصفته واحدا يشاهد من يمشون عليها ،

مضىء فى السياء وكان كالشمس . وهو يخلق الفصول والشهور ، فالحرارة عندما يريد والسرد عندما يشاء

فكل بلاد في فرح عند بزوغه كل يوم ، لكي تسبّح له . .

ومن الواضح فى مثل هذه الأنشودة أن مدى جولة إله الشمس الشاسع حول كل البلاد، وفوقكل شعوب الأرض، قد لقى فى النهاية اهتماما . . . وأنه قد أتخذت الخطوة الاخيرة وهى مد سلطان إله الشمس على كل الاراضي والشعوب .

ولم تصل إلينا وثيقة أقدم منها بما أنتجه التفكير المصرى تضم تعبيرات صريحة يتمثل فيها ذلك التفكير كالتي نجدها هنا في قوله:

د السيد الاحد الذي يأخذ جميع الاراضي أسرى كل يوم بصفته واحدا يشاهد من يمشون عليها . .

ومن الامور الهامة أن نلاحظ أيضا أن ذلك الاتجاه كانت له علاقة مباشرة بالحركة الاجتماعية فى العصر الإقطاعي المصرى، إذ نجد أن النعوت. التي نعت بها إله الشمس، نحو قوله:

الراعى الشجاع الذى يسوق ماشيته

وهو ملجؤها وما نحها قوتها » .

ترجع بنا إلى عهد النصائح التى وجهت إلى « مريكارع » ، وهى التى سميت فيها الناس « قطعان الإله » ، كما ترجع بنا أيضا إلى أفكار « إبور ، حيت يقول : « إنه راع لجميع الناس » .

ومثله النعت الآخر الخطير الشأن وهو قوله: • أم نافعة الله والبشر ، ، فإنه يحمل فى ثناياه فكرة مشابهة تشعر بالاهتمام ببنى البشر . أى أن النواحى الإنسانية فى سلطان إله الشمس ، التى اشترك فى ايجادها بوجه خاص رجال الفكر فى العهد الإقطاعى ، لم تختف بين العوامل السياسية القوية لذلك التسلط العالمي الجديد .

وحدث أنه عندما خلف و أمنحتب الرابع ، والده و أمنحتب الثالث ، حوالى سنة ١٣٧٠ ق ، م قام نزاع شديد بين البيت المالك من جهة وبين نظام الكهانة الذي كان على رأسه الإله و آمون ، من الجهة الآخرى . وقد كان من الواضح أن ذلك الملك الشاب ينحاز إلى معاضدة جانب إله الشمس القديم ضد الجانب المنتصر للإله و آمون ، الذي كان رجال كهانته الطيبيون الآقويا، قد أخذوا يدعون إلههم الذي كان من قبل إلها محليا خامل الذكر باسم مركب هو و آمون رع ، مدللين بذلك على أنه صار موحدا مع إله الشمس و رع » . وقد أخذ و أمنحتب الرابع ، في باكورة حكمه يناصر في حماسة فكرة جديدة وقد أخذ و أمنحتب الرابع ، في باكورة حكمه يناصر في حماسة فكرة جديدة للمذهب الشمسي ربماكانت نتيجة أريد بها التوفيق بين المذهبين .

وفى الوقت الذى كان فيه موقف البلاد المصرية السياسي فى آسيا فى غاية الحرج — أخذ الملك ينهمك بكل حماسة فى تعضيد التسلط العالمي لإله الشمس الذى أدركنا كُنْهه فى أيام والده . فأعطى هذا الملك إله الشمس اسما جديدا خلص به المذهب الجديد من التقاليد المحفوفة بخطر الشرك فى اللاهوت الشمسي القديم، فصار إله الشمس يسمى «آتون»، وهو اسم قديم يطلق على الشمس المجسمة .

ومن المحتمل أن هذه التسمية لاتدل إلا على قرص الشمس فقط . وهذا الاسم الجديد ذكر مرتين فى أنشودة رجلى عمارة , أمنحتب الثالث ، التى أقتبسنا منها جزءاً فيما تقدم ، كما لاقى بعض الإقبال فى عهد ذلك الملك ، إذ قد سمى به أحد قواربه الملكية , أتون يسطع » .

ولم يقتصر الحال على إعطاء إله الشمس اسما جديداً ، بل منحه ذلك الملك الشاب كذلك رمزا جديدا . فقد ذكرنا فيها مر سابقا أن أقدم رمز لإله الشمس كان الشكل الهرمى ، كما كان يرمز له كذلك بالصقر ، لأن الصقر من أسمائه .

على أن هذين الرمزين كانا مفهو مين بين سكان وادى النيل فقط ، ولكن « أمنحتب الرابع ، كان فى مخيلته وقتئذ مسرح أفسح وأوسع من القطر المصرى . « منحتب الرابع ، كان فى مخيلته وقتئذ مسرح أفسح وأوسع من القطر المصرى إذ أن الرمز الجديدقد مثل لنا الشمس بقرص تخرج منه أشعة متفرقه متجهة إلى أسفل ،كل شعاع منها ينتهى طرفه بصورة يد بشرية (١).

وقد كان ذلك الرمز يشعر بالسيادة ويدل على السيطرة القوية الحارجة من منبعها السياوى وهي تضع أيديها فوق العالم وعلى شئون البشر الأرضية . هذا فضلا عن أن أشعة إله الشمس منذ عصر متون الأهرام قد شبهت بذراعين له ، واعتبرها الناس إذ ذاك نائبة عنه في الارض :

« إن ذراع أشعة الشمس قد رفعت مع الملك « وناس » صاعدة به إلى السماوات »

وقدكان ذلك الرمز الجديد سهل الفهم لكل البشر الذين يسيطر عليهم الفرعون ، كاكان معناه واضحاكل الوضوح حتى أنه كان فى استطاعة سكان نهر الفرات أو رجال بلاد النوبة على النيل السودانى أن يدركوا عظم شأنه على الفور ، بمعنى أن ذلك الرمز لم تقنصر دلالته على السيطرة العالمية فحسب ، بل صار خليقا أن يكون رمزا عالميا إلى أقصى حد .

وكذلك بذلت بعض الجهود لتعريف القوة الشمسية التي رمز لها بتلك الصورة. فقد كان اسم إله الشمس الكامل: «حور أختى (حور الأفق) فرحا في الأفق باسمه (الحرارة التي في رآتون،).»

وكان ذلك الاسم يوضع فى طغراءين ملكيين، مثل اسم الفرعون المزدوج (يعنى اسمه ولقبه). وهذا الوضع مأخوذ من مشابهة سلطان آتون اسلطان الفرعون، كما أنه برهان آخر يدل بوضوح على التأثير الذى أوجدته الأمبراطورية المصرية بصفتها الحكومية فى مذهب اللاهوت الشمسي. غير أن الاسم الموضوع فى الطغراءين حدد لنا بوجه عام مقدار القوة المحسوسة الواقعية للشمس فى العالم الظاهر، ولم تكن له أى دلالة سياسية قط.

⁽١) أنظر الشكل ١٦.

والسكلمة المصرية القديمة التي ترجمتها في اسم ذلك الملك وحرارة » قد يكون معناها أحيانا « نورا » أيضا ، ومن الواضح أن ماكان الملك يعبده هو قوة الشمس التي نشعر بها على الأرض. وهذه النتيجة تنسجم مع العبارات العديدة التي سنجدها في أناشيد و آتون » ، وهي التي نرى فيها و آتون » نشطا باسطا أشعته على كل مكان فوق وجه الأرض.

ومع أنه من الواضح أن ذلك المذهب الجديد قد استى وحيه من مدينة وهليوبوليس ، حتى أن الملك الذى اتخذ لنفسه منصب الكاهن الاعظم للإله « آتون » سمى نفسه ، الناظر الاعظم »، وهو نفس لقب كاهن «هليوبوليس » العظيم، فإنه بالرغم من ذلك كان قد أزال معظم سقط المتاع القديم من الطقوس التى كانت تتألف منها ظواهر اللاهوت التقليدية ، ولذلك نرانا نبحث عبثا فى ذلك اللاهوت الجديد عن القوارب الشمسية ، كما نرانا نبحث عبثا عن باقى الإضافات التى أدخلت فيما بعد على المذهب الشمسي مثل السياحة فى كهوف الاموات السفلية ، وغير ذلك ، فإنها كلها قد محيت منه جملة .

فإذا كان الغرض الذي رمت إليه حركة مذهب ، آتون ، هو النوفيق بينها وبين كهنة « آمون » فإنها قد فشلت ، وقام بينهم ألد الخصام ، الذي اشتد وبلغ الدروة عندما صم الملك على أن يتخذ مر. « آتون » إلها واحدا الإمبرطورية المصرية ويقضى على عبادة « آمون » . وقد نتج عن ذلك المجهود الذي بذل لحو كل الآثار الدالة على وجود « آمون » (ذلك الإله الحديث العهد) أن اتخذت إجراءات غاية في التطرف . إذ نجد أن الملك قد غير اسمه من « أمنحتب » (يعني « آمون » مر تاح أو راض) إلى « إخناتون » (يعني « آتون » راض) . وذلك الاسم الجديد الذي اتخذه الملك لنفسه هو ترجمة الاسم القديم للملك إلى ما يما ثله في المعنى في مذهب « آتون » . هذا من جهة ، لا من « آمون » من الجهة الأخرى يمحى أينها وجد فوق آثار « طيبة » العظيمة ، حتى أن الملك ، تنفيذا لفكرته هذه ، لم يحترم في ذلك حتى ولا اسم العظيمة ، حتى أن الملك « أمنحتب الثالث » . مع أن الأمر لم يكن قاصرا على محو اسم والده الملك « أمنحتب الثالث » . مع أن الأمر لم يكن قاصرا على محو اسم

رآمون » ، بل تعداه حتى إلى كلمة الآلهة (بصفتها جمع إله) فسكانت تمحى أيضا أينها وجدت (كأنه رأى أن الجمع مظنة لتعدد الآلهة فمحاه) ، وكذلك عوملت أسماء سائر الآلهة الآخرين معاملة « آمون » فسكان مصيرها المحو .

وقد هجر الملك « إخناتون » طيبة برغم ما كان لها من السيادة والأبهة عندما وجد الارتباك فيها بالنقاليد اللاهو تية القديمة أكثر بما يحتمل ، وأقام لنفسه حاضرة جديدة فى متتصف الطريق بين « طيبة » والبحر تقريبا ، فى بقعة تعرف فى وقتنا هذا باسم « تل العبارنة » ، وسماها « أخيتاتون » (أفق آتون) ، كما أسس فى بلاد النوبة مدينة لآنون مشابهة لها ، ومن المحتمل جدا أنه أقام مدينة أخرى لذلك الإله فى آسيا ، وبذلك صار لكل من الثلاثة الأجزاء العظيمة التى تتألف منها الدولة وهى مصر والنوبة وسوريا مقر لمذهب « آتون » . وقد بنيت كذلك معابد أخرى لآتون فى أماكن مختلفة من مصر نفسها .

ولم يتم ذلك طبعا دون تأليف حزب قوى من رجال البلاط الملكى يمكن للملك به أن يناهض أولئك الكهنة المنبوذين، وبخاصة كهنة «آمون». وقد أثرت الفتنة التى نتجت عن ذلك الانقلاب بلا شك تأثيرا خطيرا فى قوة البيت المالك. إذكان حزب ذلك البلاط الذى نما إذ ذاك فى ظل وإخناتون، يعمل منه متضامنين على نشر ذلك المذهب الديني الجديد، الذى يصح أن تعد قصته أروع الفصول وأكثرها إمتاعا فى تاريخ الشرق القديم، يدلنا على ذلك ما بق من نقوشه على جدران تلك المقابر التى نحتها الملك فى الصخر الاشراف ما بق من نقوشه على جدران تلك المقابر التى نحتها الملك فى الصخر الاشراف رجاله قبالة الجبال المنخفضة التى تقع فى الهضبة الشرقية القائمة خلف تلك المدينة الجديدة والواقع أننا مدينون لمقابر مشل هؤ لاء من أعوان الملك . بمعلوماتنا عن مشتملات تلك التعاليم الهامة التى كانت تنشر فى تلك الآونة . وهي تحتوى على سلسلة أناشيد فى مدح إله الشمس ، كا تحتوى على مديج إله الشمس والملك بالتبادل . وهذه التعاليم تمدنا على الأقل بلمحة عن عالم الفكر وهي تحتوى على مديم إله الشمس والملك بالتبادل . وهذه التعاليم تمدنا على الأقل بلمحة عن عالم الفكر عاولين بذلك إدراك بجالى الذات الإلهية فى بهائها الذى لاحد لقوته ولا نهاية ، عاولين بذلك إدراك بجالى الذات الإلهية فى بهائها الذى لاحد لقوته ولا نهاية ،

وهى الإلهية التي لم يعد سلطانها منحصراً في وادى النيل، بل امتد بين جميع البشر وفي العالم كله .

ولا يمكننا ألآن أن نأنى بشيء عن هذه السانحة أفصح من تلك الاناشيد، التي تقص علينا بنفسها شيئا عن تلك التعاليم. وأطول أنشودة بينها وأهمها هي الآتية (۱):

بها. « آتون » وقوته العالمية · تشرق و تضي.

السرق و تصيم « أنت تبزغ بجهالك فى أفق السماء أنت يا « آتون » الحى الذى كنت فى أزلية الحياة فينها كنت تطلع فى الافق الشرقى كنت تملأ كل البلاد بجمالك

أنت جميل وعظيم ومتلألى ومشرق فوق كل أرض وأشعتك تحيط بالارضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك أنت « رع » (٢) . وأنت تخترق حتى نهايتها القصوى (يعنى الارضين) وأنت توثقهم (يعنى البشر) لابنك المحبوب (الفرعون) ورغم أنك قصى جدا فإن أشعتك فوق الأرض ورغم أنك تجاه البشر فإن خطواتك خفيّة (عنهم) » .

⁽١) يلاحظ بعض التغيرات في ترجمة هذه الأنشودة عند مقارنتها بالترجمة التي دونها المؤلف في كتابه تاريخ مصر ، ويرجع السبب في ذلك لقراءة جديدة لبضع تغييرات في نسخة «ديفز» التي راجعها مراجعة دقيقة , بالتي راجعها مراجعة دقيقة . ويرجع المسبب في ذلك لقراءة الوثيقة . فالترجمة التي عملها الأستاذ « زيته » قد أضافت بعض تراجم جديدة لقطع قد أخذت بالكثير منها . انظر Schafer, Amarna in Rel und Kunst, P. 63-70, (Leipig 1931) على أن تقسيم القصيدة إلى مقطوعات لا يوجد في الأصل المصرى ولكذا اتبعناه هنا للإيضاح ، كما وضعنا عناوين المقطوعات لمساعدة القارى، الحديث .

⁽ ٢) يوجد في الأصل المصرى جناس بين كلة « رع » وبين كلة « نهاية » .

الليل والإنسان

« وحينها تغيب في أفق السماء الغربي فإن الأرض تظلم كالموات المز أمير

تجعل ظلمة فيكون ليل فيه يدبكل حيوان وعر

المزمور (۲۰۰ – ۲۰)

فينامون في حجراتهم ورءوسهم ملفوفة ومعاطسهم مسدودة ولا رى إنسان الآخر في حين أن أمتعتهم تسرق وهبى تحت رءوسهم وهم لايشعرون بذلك » .

الليل والحيوان

روكل أسد يخرج من عرينه (ليفترس)

وكل الثعابين تنساب لتلدغ

والظلام يخيم والعالم فى صمت

في حين أن الذي خلقهم ق في أفقه» |

المزامير الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها

المزمور (۱۰۶ -- ۲۱)

النهار والإنسان

و الأرض زاهية حينها تشرق في الأفق

وعندماتضي، بالنهارمثل (آتون، الشرق الشمس فتنصرف وفي

فإنك تقصى الظلمة إلى بعيد

وحينها ترسل أشعتك

تصير الأرضان (مصر) في عيد ا

والناس يستيقظون ويقفون على أقدامهم

عند إيقاظك ليميم

مأويها تربض • الانسان بخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء

(المزمور ۱۰۶ - ۲۲ و ۲۳)

وبعد غسلهم لأجسامهم يلبسون ثيابهم ثم يرفعون أذرعتهم تعبداً لطلعتك ثم بعد ذلك يقومون إلى أعمالهم فى كل العالم » النهار والحيوان والنبات

« وجميع الماشية ترتع فى مراعيها والاشجار والنباتات تينع والطيور فى مستنقعاتها ترفرف وأجنحتها منتشرة تعبدا لك وجميع الغزلان ترقص على أقدامها وجميع المخلوقات التى تطير أو تحط تحيا عند ما تضى عليها »

النهار والمياه

« والسفن تقلع فى النهر صاعدة أو منحدرة فيه على السواء وكل فج مفتوح لأنك أشرقت والسمك يثب فى النهر أمامك وأشعتك تنفذ إلى وسط البحر الأخضر العظيم ».

هذا البحرالكبيرالواسعالأطراف هناك دبابات بلا عدد صغار حيوان مع كبآر . هناك تجرى السفن . لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه (المزمور ١٠٤ - ٢٥ و ٢٦)

خلق الإنسان

« أنت خالق الجرثومة فى المرأة
 والذى يذرأ من البذره أناسيا
 وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه
 ومهدئا إياه حتى لا يبكى
 مرضعا إياه حتى فى الرحم

وأنت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته وحيثها ينزل من الرحم (أمه) فى يوم ولادته فأنت تفتح فمه كلية وتمنحه ضروريات الحياة ،

خلق الحيوان

وحینها یصیر الفرخ فی لحاء البیضة
 فأنت تعطیه نفسا لیحفظه حیا فی وسطها
 وقد قدرت له میقاتا فی البیضة لیخرج منها
 وهو یخرج من البیضة فی میقاته (الذی قدرته له)
 فیصیح ویمشی علی رجلیه حینها یخرج منها ه

الخلق العالمي

ما أعظم أعمالك يارب كلها بحكمة صنعت ملا ًنة الأرض من غناك (المزمور ١٠٤ — ٢٤)

ما أكثر تعدد أعمالك الناس خافية الناس خافية يا أيها الإله الاحد الندى لا يوجد بجانبه إله آخر الندى لا يوجد بجانبه إله آخر القد خلقت الارض حسب رغبتك خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان، وجميع ما على الارض، على رجليه، على رجليه، وما في عليين بما يطير بأجنحته. وقو الاقطار العالمية سوريا،

فإنك تضع كل إنسان في موضعه .

وتمدهم بحاجاتهم . وكل إنسان لديه قوته وأيامه معدودات . والالسنة فى الكلام مخبلفة ، وكذلك تختلف أشكالهم وجلودهم ، لانك تخلق الاجانب مختلفين . .

ری الاُراضی فی مصر وخارجها 🛒

وأنت تأتى به كما تشاء
ليحفظ أهل مصر أحياء (كلمة أهل التى استعملت هنا مقصورة فى اللغة على أهل مصر).
كانك خلقتهم لنفسك
وأنت سيدهم جميعا
وأنت الذى تنهك (١) نفسك من أجلهم .
وأنت ربكل قطر
وأنت شمس النهار عظيم الافتخار .
وجميع الاقطار العالية القاصية
وجميع الاقطار العالية القاصية
انت تخلق حياتها أيضا .
وحينما ينزل لهم يصنع أمو اجا فوق الجبال
وحينما ينزل لهم يصنع أمو اجا فوق الجبال

⁽١) وفى القرآن الكريم : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب (سورة ق ٥٠ — الآية ٣٨)

فیروی حقولهم فی مدنهم .

ما أكرتم مقاصدك يارب الابدية .

ويوجد نيل في السماء للأجانب

ولأجل غزلان كل الهضاب التي تنجول على أقدامها .

أما النيل فإنه يأتى من العالم السفلي لمصر ، .

فصول السنة

﴿ أَشْعَتُكُ تَعْذَى كُلُّ بِسَتَانَ (كُلَّةِ التَّغْذَيَّةِ هَنَا تَعْنَى تَغْذَيَّةِ الْأُمْ لَطَفْلُهَا).

وعند ما تبزغ فإنها تحيا ،

فهي تنمو بك . خ

أنت تخلق الفصول

لأجل أن ينموكل ما صنعت.

فالشتاء يأتى إليهم بالنسيم العليل،

والحرارة لأجل أن يذوقوا أثرك (أي أن يكون لهاطعم لذيذ في فهم)».

السيطرة العالمية

وأنت خلقت السموات العلى لنشرق فيها

ولتشاهدكل ما صنعت حينها كنت لا تزال وحيدًا (لا شيء غيرك) .

مضيتًا في صورتك أنت ﴿ آثون ، الحي ،

وبازغا وساطعا وٰذاهبا بعيدا وآيبا (في الغدو والآصال) .

أنت تخلق الملايين من الصور وحدك بنفسك :

من مدن وقرى وحقول وطرق عامة وأنهار .

وجميع العيون تراك تجاهها ،

لانك « آنون » (شمس) النهار فوق الأرض.

وحينها تغيب،

فإن جميع الناس الذين سويت وجوههم لكى لا ترى نفسك بعد وحيدا يغشاهم النعاس حتى لا يرى واحد منهم ما قد خلقته . ومع ذلك فإنك لا تزال فى قلى » .

وحى الملك

ذ ليس هناك واحد آخر يعرفك إلا ابنك « إخناتون » . لقد جعلته عليها بمقاصدك وبقو تك . .

الرعاية العالمية

« العالم يعيش بصنيع يدك ، أنت الذى خلقتهم فيحيا حينها تشرق

ويموت حينها تغيب ،

لأن حياتك طول مدى نفسك

والناس يعيشون بو اسطنك .

إن أعين الناس لا ترى الا جمالك حتى تغيب ،

وكل عمل يطرح جانبا

حينها تغيب في الغرب.

وحينها تشرق ثانية

فإنك تجمل كل كف تنشط لأجل الملك

والحنير في أثركل قدم،

لأنك خلقت العالم

وأوجدتهم لابنك

الذي ولد من لحمك

ملك الوجهين القبلي والبحرى

العائش في الصدق، رب الأرضين

« نفر خبرو رع وان رع » (إخناتون)
ابن «رع » العائش فی الصدق ، رب التیجان
« إخناتون » ذو الحیاة الطویلة
(و لا جل) کبری الزوجات الملکیة محبوبته
سیدة الارضین « نفر نفرو آتون » (نفر تیتی)
عاشت وازدهرت أبد الآبدین » .

ويحتمل ألا تمثل هذه الانشودة الملكية العظيمة إلا قطعة منتخبة أو سلسلة منتخبة من شعائر «آنون » كما كانت تقام من يوم لآخر فى معبد «آنون » بتل العبارنة .

ومما يؤسف له أن هذه الأنشودة لم تدون فى تلك الجبانة الا بمقبرة واحدة فقط. وقد فقد منها نحو، ثلثها من جرا. تعدى المخربين من الأهالى الحاليين، ولذلك لم يصلنا من الجزء المفقود إلا نسخة حديثة نقلت من غير اعتناء وعلى عجل منذ خمسين سنة (أى فى سنة ١٨٨٣م).

وأما المقابر الآخرى فقد كتبت نقوشها الدينية بالنقل عن الفقرات والجمل التى كانت شائعة الاستعبال وقتئذ، والتى تنكوتن منها بحمل مذهب وآتون، كما فهمه الكتاب والرسامون الذين قاموا بزخرفة تلك المقابر. وعلى ذلك يجب علينا ألا ننسى أن البقايا التى وصلت الينا عن طريق جبانة « تل العبارنة » من مذهب «آتون »، وهى مصدرنا الرئيسى، قد مرت بشكل آلى بأيدى فئة قليلة من الكتبة المهملين غير المدققين ذوى العقول الخاوية الفائرة، بمن لم يخرجوا عن كونهم أذنا بالحركة عقلية دينية عظيمة . وفيها عدا هذه الآنشودة الملكية غير أن أولئك الرسامين كانوا يقنعون فى كل مكان بالقطع والنتف، التى نقلت في بعض الاحوال من تلك الآنشودة الملكية نفسها أو عن قطع أخرى، ويضعونها مرقعة فى هيئة أنشودة قصيرة، ثم ينقشونها كلها أو بعضها بدون أدنى تصرف، وهم يتنقلون من قبر إلى آخر.

ولماكانت المواد التي في متناولنا عن ذلك المذهب ضئيلة إلى هذا الحد، مع أهمية الحركة التي أماطت لنا عنها اللثام ، فإن تلك المعلومات الجديدة القليلة التي تمدنا بها تلك الانشودة القصيرة، تعتبر ذات قيمة عظيمة (').

وقد عزيت تلك الانشودة فى أربع حالات إلى الملك نفسه ــ أى أن الملك يشاهد وهو ينشندها أمام «آتون». وهاك نصها كما جاءت:

«أنت تشرق بجمالك يا «آتون » الحي يارب الأبدية

إنك ساطع وقوى وجميل

وحبك عظيم وكبير

أشعتك تمد بالبصركل واحد من مخلوقاتك

ولونك الملتهب يجلب الحياة الى قلوب البشر

عندما تملأ بحبك الأرضين.

إيه أيها الآله الذي سوى نفسه بنفسه

خالق كل أرض

وبارى كل من عليها

حتى الناس وكل قطعان الماشية والغز لان

وكل الأشجار التي تنمو فوق التربة

فإنها تحيا عندما تشرق عليهم

وأنت الاب والأم لكل من خلقتة

وعندما تشرق فإن عيونهم

ترى بو اسطتك.

⁽١) لقد جمعت الأنشودة القصيرة في متن مؤلف من كل القراءات في الجزء الثاني من كتاب المؤلف (De Hymnis in Solem) الذي لم ينشر بعد . وقد أضيف إلى ذلك المنسوخات التي نقلتها بنفسي . وكذلك قد جمع « دافيز » متنا مركبا من نقوش خمس مقابر في كتابه (Amarna, Vol. IV, Pls XXXII-XXXII) . والترجمة التي أور دناها هنا مستقاة من كلا المصدرين .

إن أشعتك تضيءكل العالم وينشرح بسبب رؤيتك كل قلب عندما تشرق بصفتك سيدهم . وعندما تغبب في أفق السماء الغربي فإنهم ينامون كأنهم أموات ؛ رءوسهم ملفوفة بالغطاء وتقف معاطسهم حتى يعود شروقك في الصباح في أفق السماء الشرقي . وعندئذ يرفعون أذرعتهم إليك تعيدا ، فإنك تجعل قلوب البشر تحما بجمالك ، لأن الناس تحيا عند ما ترسل أشعتك ويكون جميع الكون في عيد : فالغناء والموسيق وتهليل الفرح تكون في قاعة بيت بنبن^(١) في معبدك في « أخيتاتُونَ ، مكان الصدق (ماعت) الحائز لرضاك. فيه يقدم لك الطعام والمتونة ، ويؤدى لك ابنك الطاهر احتفالاتك السارة . يا «آثون » الحيي في مو اكبه الهجة ، كل ما خلقته يطرب أمامك ، ويفرح ابنك الجليل وقلبه في حبور .

⁽١) كان البنبن حجرا هرى الشكل مثل الهرم الصغير الذى يتوج المسلة. وقد كان هذا الحجر يمتبر في غاية القداسة ، دكان في الأصل يحتل مكانة ممتازة في المعبد أو في بيت معبد الشمس الذى في « هليو بوليس » وهذه الفقرة تدل على أن « أخناتون » قد أدخل في معبد « تل العارنة » بنبن مماثلا للذى كان في « عين شمس » (هليو بوليس) .

آه يا «آتون» الحى المولودكل يوم فى السياء. إنه يلد ابنه الجليل « وإن رع » (إخناتون) : مثل نفسه دائما .

ابن و رع ، اللابس جماله و نفر خبرو رع وان رع ، (إخناتون) .

فأنا ابنك الذي تسر به،

والذي يحمل اسمك.

قو تك و بطشك يسكنان في قلمي،

أنت يا و آثون ، العائش على الدُوام . . .

لقد خلقت السماء العليا لتشرق فيها ،

لكي تشاهدكل ما صنعته

عند ماكنت لا تزال وحيدا (لا شيء غيرك).

آلاف الألوف من الآنفس موجودة فيك لتحفظها حية ،

لأن مشاهدة أشعتك (١) هُو نفس الحياة في المعاطس.

وجميع الازهار تحيا وكل ما تنبت الارض

يصير ناميا لأنك تشرق.

فهی نشوی أمامك ،

وجميع الماشية تطفر على أقدامها ،

والطيور تطير فى المستنقع من الفرح،

وأجنحتها التّي كانت مطويّة تنتشر ،

مرفوعة لآتون الحي تعبدا .

أنت ياخالق . . . (٢) .

فنى هذه الآناشيد نرى قوة عالمية ملهمة لم توجد من قبل، لا فى الفكر المصرى القديم ولا فى فكر أية مملكة أخرى. فهى تشمل فى مداها العالم كله.

⁽١) وفي رواية أخرى « أن النفس يدخل في المعاطس عندما تظهر نفسك لهم » .

⁽ ٢) بقية هذا السطر قد فقدت . ولم يصل إلى هذا الحد من الحسة المتون لهذه الأنشودة الامتن واحد وتجده كذلك قد انقطع عند هذه النقطة .

ويقول الملك إن الاعتراف بسيادة إله الشمس العالمية كان هو كذلك أمر عالمي ، وإن جميع البشر يعترفون بسلطانه ، وكذلك قال الملك عنهم فى لوحة الحدود العظيمة :

> ر إن آتون ، خلقهم (لنفسه هو) . فجميع الأراضى وأهل بحر إيجة يحملون ضرائبهم وجزيتهم فوق ظهورهم إلى الذى أوجد حياتهم والذى بأشعته تحيا البشر وتستنشق الهوا. » .

فن الواضح أن و إخناتون ، كان يريد بذلك دينا عالميا ، يحاول أن يحله مجل القومية المصرية التي سبقته ، وسارت عليها البلاد مدة عشرين قرنا مضت .

وبجانب تلك القوة العالمية ، نجدكذلك أن وإخناتون ، كَانَ مَثَاثُرا تَأْثُرا عَيقا بَازَلِية إلهه . وكان الملك نفسه يتقبل — بسكينة واطمئنان — أنه نفسه مصيره للفناء ، فنراه فى باكورة حكمه فى و تل العمارنة ، يعلن التعليمات الدقيقة الخاصة بدفنه فيما بعد الموت ، ويستجلها باستمرار فوق اللوحات التي أقامها على الحدود المصرية ، ولكنه مع ذلك كان يعتمد على علاقته الوثيقة بآثون ليضمن له شيئا من خلود إله الشمس ، ومن أجل ذلك كان يحتوى لقبه الرسمى دائما — بعد ذكر اسمه — على النعت الآتى : و ذو الحياة الطويلة » .

على أنه فى بداية كل شىء قد بَرأ «آتون » نفسه من الوحدة الأزلية — أى أنه الخالق لكينو نة نفسه — إذ نجد فى إحدى لوحات (١) حدود «تل العمارنة » العظيمة أن الملك يسميه هكذا :

«سورى المكون من مليون ذراع .
 ومذكرى بالابدية
 وحجتى فى إدراك الاشياء الابدية
 وهو الذى سوى نفسه بنفسه بيده هو
 والذى لا يعرفه صانع » .

⁽ ١) هذه لوحات أقامها «إخناتون» على حدود مدينته «أخيتاتون» (تل العمارنة).

ونجد أن الأناشيد تبدى انسجاما مع هذه الفكرة وتميل إلى ترديد تلك الحقيقة القائلة :

« بأن خلق العالم الذي يلي ذلك قد حدث

حينها كان الإله لا يزال وحيدا (لا شيء غيره) . .

و تكاد الكلمات : «حينها كنت لا تزال وحيدا (لا شي. غيرك)، تكون ندا. بردد في تلك الاناشيد .

وهو الخالق العالمي الذي ذرأ كل أجناس البشر وميز بعضهم عن بعض في لغاتهم وألوان جلودهم، ولا تزال قوته المنشئة مستمرة تأمر بالخروج من العدم إلى الحياة حتى من البيضة الجامدة.

ولم يظهر عجب الملك من قوة إله الشمس المانحة الحياة بشكل بارز فى أى مكان آخر أكثر مما نجده مذكورا بسذاجة فى تعبيره عن تلك المعجزة ، النى تتمثل فى أنه داخل لحاء البيضة الذى يسميه الملك « حجر البيضة » — أى أنه فى هذا الحجر الذى لاحياة فيه — تجيب أصوات الحياة نداء أمر « آنون » فيخرج مخلوق حى بعد أن أنعشه النفس الذى يمنحه إياه (ذلك الإله) .

وتلك القوة المانحة الحياة هي مصدر الحياة والزاد الدائم، والواسطة المباشرة لها هي أشعة الشمس التي تجلب النور والحرارة إلى الناس. وهذا الإدراك المدهش لقوة الشمس بصفتها منبع كل الحياة فوق الأرض يردد باستمرار دائم، إذ نرى الأناشيد تميل إلى الإمعان في ذكر أن أشعة الشمس قوة عالمية عتيدة على الدوام:

دأنت فى السهاء ولكن أشعتك فوق الأرض أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر الاخضر العظيم أشعتك فوق ابنك المحبوب.

ذلك الذي يجعل بأشعته الإبصار كاملا إن مشاهدة أشعتك هي نفس الحياة في المعاطس وطفلك (يعني الملك) الذي ولد من أشعتك لقد سويته (يعني الملك) من أشعة نفسك. أشعتك تحمل مليونا من الأفراح الملكية وحينها ترسل أشعتك فإن الأرضين -

تكون في فرح

أشعتك تشمل الارضين وحتى كل ما صنعته

وسوا. أكان في السماء أم في الأرض فإنكل الأعين تشاهده دائما وهو يملأ (كل الكون) بأشعته

ويجعل كل البشر يعيشون » .

كما أن اعتماد مصر فى حياتها على النيل بداهة جعل من المستحبل تجاهل ذلك المنبع الحيوى فى عقيدة الملك و إخناتون ، والواقع أنه لا شىء يكشف لنا بوضوح قيمة عقيدة و إخناتون ، وميله إلى الاعتماد على العقل ، أكثر من أنه محا بلا تردد طائفة الاساطير والتقاليد التي كانت محترمة والتي كانت تقول بأن النيل هو الإله و أوزير ، عدة أزمان . ثم نسب الفيضان فى الحال إلى قوى طبعية يسيطر عليها ذلك الإله الذى يعبده ، وهو الذى خلق – بمثل ذلك الإهتمام – للبلاد الاخرى نيلا آخر فى السماء .

وقد تجوهل الإله « أوزير ، كليـة ، فلم يذكر قط فى كل الوثائق الإخناتونية ، بل ولا فى أي قبر من قبور « تل العمارنة ، .

بهذه الآراء الأخيرة ينتقل تفكير « إخناتون » إلى ما وراء الإدراك المادي المحض لنشاط الشمس فوق الارض ، ويقدر مبلغ اهتمام « آتون » الابوى بجميع المخلوقات .

وهذا النفيكير هو الذي يرفع من شأن الحركة التي قام بها « إخناتون » إلى حد بعيد فوق كل ماكانت قد وصلت إليه ديانة قدماء المصريين أو ديانات الشرق بأجمعه قبل ذلك الوقت . فقد كان إله الشمس في نظر « إبور » راعيا , شفيقا ، كما تقدم ذكره فيما سبق ، كما كان الناس في نظر « مريكارع » - كما سبق ذكره أيضا _ قطعانه التي من أجلها صنع الهواء والماء والطعام . ولكننا نجد أن « إخناتون » يذهب إلى أبعد من ذلك ، حيث يقول الإله الشمس : « أنت

أب وأم لـكل ما صنعت » . وهذا التعليم هو الذي مهد الطريق لكثير من التطور الذي ظهر في الديانة فيها بعد حتى إلى عصرنا الحالى .

فكان جميع العالم الحى ، فى نظر تلك الروح الحساسة التى كانت تدب فى نفس ذلك الحيالى المصرى ، يملؤه شعور قوى بوجود « أتون » مع التقدير لشفقته الآبوية . فستنقعات السوسن ، بأزهارها النشوانة التى تينع بإشعاع « آتون » الاخاذ ، وطيورها التى تنشر أجنحتها تعبداً « لآتون » الحبى ، والماشية التى تطفر فرحة فى ضوء الشمس ، والسمك الذى يثب فى النهر مرحبا بالنور العالمي الذى تنفذ أشعته » حتى فى وسط البحر الاخضر العظيم ، «كل أولئك تكشف لنا عن مدى إدراك « إخناتون » لذلك الوجود العالمي للإله وسيطر ته على الطبيعة ، وعن إدراك باطني لذلك الوجود عند كل المخاوقات .

وهذا التقدير لتجلى قوة الله في العالم الحسى هو مثل الذي نجده بعد ذلك العهد بنحو ٧٠٠ أو ٧٠٠ سنة في المزامير العبرية ، ومثل ما جاء على لسان شعراء الطبيعة بيننا منذ عصر « ورد زورث » (١) (wordsworth) ، ومن الظاهر أن اعتمادها على المثامل في عالم الطبيعة ، كا نراه في الحض على « تأمل سوسن الحقول» . ولأن « إخناتون » كان رجلاماً خوذ ابالإله ، فقد انقاد عقله بحساسية وإدراك مدهشين إلى ما حوله من المظاهر المرئية الدالة على وجود الإله ، فقد كان ما خوذا بهال النور الآبدي العالمي ، ولذلك نرى أشعته تغمره في كل فقد كان ما تاره التي بقيت لنا . واقتصر في ذلك على شخصه وعلى الملكة وأولاده ، لأنه كان يدعو ربه بقوله :

وليت عينيّ تقرآن بمشاهدته يومياً

. حيما يشرق في بيت « آنون·» هذا ويملؤة

⁽۱) « وردزورت » شاعر انجلیزی (۱۷۷۰ — ۱۸۵۰) وهو مشهور بأشعار. فی وصف الطبیعة .

هو بأشعته هذه ـــ هذا التيل في حبه ـــ ويرسلها على في حياة راضية أبد الآبدين »

ويمرح الملك فى ذلك النور ، الذى وحده أكثر من سرة مع الحب ، كم هو الحال هنا ، أو مع الجال باعتباره البرهان الظاهر الدال على وجود الإله ، وذلك بنشوة قل أن يكون لها نظير ، وفرح يبلغ حد الوله كالذى كانت تشعر بهروح كروح « رَسْكِن » (١) عندما كان ينعم النظر فى النور ، فقد وصف « رسكن » النور وهو يسطع فوق المناظر الطبعية الجميلة ، قال :

د النور المتنفس الحى المبتهج الذى يشعر ويتسلم ويفرح ويعمل ويختار شيئا وينبذ آخر وينحث ويجد ويفقد ثانية متنقلا من صخرة إلى صخرة ومن ورقة شجر إلى ورقة متر هجا أو مارقا أو متلالئا

بحسب مايصيب أو (كما فى أقدس مظاهره) يكون ممتصًا ساتراً لـكل شيء فى كمال سكونه العميق ،

وعندئذ نراه يفقد ثانية في حيرة وشك وظلمة

أو يمحى ويختني واقعا في حبائل الضباب الجارف

أو يذوب في الهو اء مكتتبا ،

ولكنه ـــ سواء أكان متأججا

أم خافتاً ، لامعا أم ساكنا _

هو النور الحى ، الذي يتنفس فى أعمق سكونه ، وهو النور الذي ينام ولكنه لا بموت أمداً ،

⁽١) هو « جون رسكن » المكاتب الإنجليزى الشهير (١٨١٩ ــ ١٩٠٠). ويمتاز بنقده وطول باعه في المكتابة عن الفن .

فنجد فى هذا الوصف الافتنان الحديث بهجة النور، وهو الإنجيل الحقيق لجمال النور، الذى كان أول مبشر به هو ذلك الحيالي الوحيد وإخناتون ، الذى عاش فى خلال القرن الرابع عشر ق. م. ، وقد كان من الجائز كذلك فى نظر وإخناتون ، أن النورينام، كما يتصنح من قوله : « يذهب خالق الأرض ليستريح فى أفقه »، غير أنه كان (فى نظره كما كان فى نظر ورسكن »)(١) « ينام ولكن لا يموت قط ، .

وقد نجح الاستاذ « زيته ، فى ترجمة فقرة مهشمة فى الانشودة الكبرى فأظهر معناها بأنه بالرغم من أن الظلمة قد خيمت والناس قد نامت فإن « إختاتون ، يمكنه أن يشعر به ، حيث يقول ، ومع ذلك فإنك لاتزال فى قلبى ، •

فتلك الناحية من حركة وإخناتون ، تدل إذن على أنها إنجيل الجمال والرأفة في نظام الطبيعة ، وإدراك لرسالة الطبيعة إلى روح الإنسان ، مما جعلها تعتبر أقدم النهضات التي نسميها والرجوع إلى الطبيعة »، وهي التي ظهرت في إنتاج أمثال الفنانين و ملت » (Millet) و « بربيزون (Barbizon) ، أوفي آراء وردزورث » (Wordsworth) وأخلافه . فالرسامون في ذلك الوقت كانوا يصورون حياة المستنقعات البرية بروح جديدة تختلف عن روح السرور الهادى الذي صور به رسامو و مصاطب الأهرام » ، تلك الصور الهادئة التي تمثل نزهات الاشراف في حقول البردي ، نما تتحلي به جدران صرارات قبورهم بالجبانة المنفية الكائنة « بسقارة » .

وأما الصور التي رسمت فوق الجص وتزين رقعة قاعة قصر و إخناتون ه ذات الأعمدة وبتل العبارنة ، ففعمة بروح مرح جديدة تسود الحياة ، وتشعر نا عند رؤيتها بشيء من العاطفة القويه التي أنارت يد الفنان وهو يرى بعيني ذهنه الثور الوحشي يقفز في أدغال البردي ضاربا برأسه نحو الطيور الهلوعة المشقشقة فوق يراع المستنقع كأنها تؤنب ذلك الطفيل الفنا الذي ينزل الضرر بأوكارها.

Ruskin, Modern Painters, Vol. I, P. 250 (New York : أنظر (١) 1873).

ولكن مما يؤسفنا أشد الأسف أن تلك النقوش الفاخرة التى كانت تتألق فيها الحياة والحركة، والتى طالما تمتعت بهما أعين الناظرين فى عصرنا الحالى و بتل العمارنة ، قد دمرت إلى الأبد بأيدى أولئك المخربين الاحداث من أهالى القرى المجاورة لبلدة « تل العمارنة » .

وهذه الروح الجديدة ــ في عصر إخناتون ــ التي استمدت إلهامها من جمال الطبيعة وفيضها ، كانت كذلك ذات حساسية شديدة لحقيقة الحياة الإنسانية والعلاقات البشرية ، دون تأثر بشي. من العرف أو التقاليـد ، إذَّ مثلت بدون تسكلف أو تحفظ علاقات « إخناتون ، الطبعية البهيجة بأسرته ، وظهر ذلك حتى فوق الآثار العامة ؛ فقد عثر على تمثال صغير غير تام الصنع في مصنع أحد المثالين الملكيين « بتل العمارنة » ، لم يقتصر فيه صانعه على تمثيل الملك جالسا وابنته الصغيرة فوق حجره وهوا يضمها كما يضم الآب الملكي أميرة صغيرة ، بل مثل الفرعون وهو يقبل ابنته الصغيرة كما يفعل ذلك أى ــ والدمعتاد . وليس من الصعب على الإنسان أن يتصور الحنق والهلم اللذين أثارتهما مثل تلك الصورة الملكية في شعور طائفة المحافظين على التقاليــد في عصر « إخناتون » ، وهم أولئك الأشراف من رجال التقاليد في البلاط الملكى الذين يرون وجوب تصوير الفرعون كما جرى تصويره من ألني سنة في هيئة حضرة سامية جالسة في جلال جامد ، أي في صورة شخصية رزينة مقدسة لا يشوبها أي مظهر من مظاهر المشاعر البشرية أو جهات الضعف الإنسانية . وقد بق محفوظا لنا للآن ذلك الكرسي الجميل الذي جي. به من قصّر « تل العبارنة » وأودع في مقبرة « توت عنخ آمون » ، وهو مزين بمنظر · يظهر فيه الملك الشاب جالسا في استرخاء يحالة تدل على التبسط وعدم التكلف، إذ نشاهد إحدى ذراعيه ملتى بها في استهتار فوق ظهر كرسيه، وأمامه الملكة الشابة الجميلة واقفة وفى يدها إناء صغير من العطور تصب منه برشاقة أنيقة بضع نقط من الطيب فوق ملابس زوجها الملك. ونجد هاهنا لأول مرة في تاريخ الفن منظرًا موضوعه العلاقات الإنسانية ، اتخذ فيه الفن المعتبر الحياة الإنسانية موضعا لبحثه. وهذان مثلان فقط من بين الأمثلة العديدة التي يمكن ذكرها للاستدلال على شخصية « إخناتون » القوية واستعداده لطرح قيود التقاليد بغير أدنى تردد في سبيل تأسيس عالم من الأشياء على حقيقتها الفطرية السليمة.

ولذلك نرى من المهم أن نلاحظ أن « إخناتون ، كان رسولا لمكل من عالمي الطبيعة والحياة الإنسانية . فكان مثله فى ذلك مثل « عيسى » استق دروسه من سوسن الحقل وطيور الهواء وسحب السماء من جهة ، ومن المجتمع الإنساني الذي يحيط به من جهة أخرى ، كما يتمثل فى مثل قصة « الابن المبذر » (١) أو « المرأة التي أضاعت قطعة نقودها » (٣) . وعلى أو « الطيب السامرى » (٢) أو « المرأة التي أضاعت قطعة نقودها » (٣) . وعلى

⁽١) ذكرت قصة الابن المبدر في إنجيل لوقا (الاصحاح ١٥ – ١١ – ٣٣) وتتلخص في أن رجلا غنيا كان له ولدان أحدها مستقيم الحال والثاني جاميح ، وقد استولى الثاني على ما يستحقه من المال وترك بيت والده ولم يلبث أن أضاع كل ما يملكه في الفساد ولم يكن لديه في النهاية ما يقتات به ، غير أنه قدم وعاد إلى بيت والده وطلب إليه أن يكون خادما عنده لأنه لايستحق أن يكون ابنه ، ولسكن الأب بدوره فرح لندم ولده وعودته إلى بيته فأقام له وليمة فرحا به . أما الابن الطيب فإنه غضب من تصرف والده ولكن والده أجابه قائلا يا بني إنك معى وكل ما أملك هولك ومن الصواب أن تفرح وتسر لأن أخاك هذا كان ميتا وعاد إلى الحياة ثانية وكان قد فقد ثم وجد .

⁽۲) أما السامرى الطيب فقد ورد ذكره كذلك في إنجيل لوقا (إصحاح ۲۰ – ۳۰ – ۳۰ – ۳۰ وذلك أن رجلا كان مسافرا من «أورشليم» إلى «أريحا» فهاجمه اللصوص وسرقوا متاعه وتركوه مشرفا على الموت على قارعة الطريق . وقد مر بالرجل الجريح قسيس ولكنه لم يساعده . ومر به كذلك «لاوى» ولم يأخذ بيده . ولكن مر به فى النهاية سامرى فأشفق عليه عندما رآه ، وضمد جراحه و حمله على حماره إلى أن أتى به إلى فندق واعتنى به ، وفى الغد أعطى صاحب الفندق دينارين وقال له اعتن به ومها أنفقت أكثر "ففند رجوعى أوفيك حقك .

⁽٣) وقصة المرأة التي أضاعت قطعة نقودها كذلك مذكورة في إنجيل لوقا (٣) وقصة المرأة التي أضاعت على عشر قطع من الفضة ففقدت واحدة منها . وبدلا من إهمالها فإنها أضاءت شمعة وكنست كل البيت بمكنستها وبحثت بعناية حتى عثرت على قطعة النقود . وعندئذ نادت كل أصدقائها وجيرانها قائلة لهم : افرحوا معى لأنى عثرت على قطعة النقود التي كنت قد فقدتها .

ذلك النمط استقى ذلك الرسول المصرى القديم الثائر تعاليمه من التأمل في مشاهد عالمي الطبيعة والحياة الإنسانية معا.

ومع أن الفن المعبر عن تلك الحركة الثورية التى كان زمامها فى يد إخناتون، قد وجد مرتعا جديدا فى حياة الإنسانية، فقد كان هناك شىء كثير لم يكن فى مقدور « إخناتون ، أن يتجاهله من التجاريب المصرية عن المجتمع البشرى. فقد قبل « إخناتون ، عن طيب خاطر المذهب الشمسى الموروث الذى ينطوى على نظام خلق عظيم ، وإذا كنا قد خصصنا فى هذا المختصر التاريخي للأخلاق عند قدماء المصريين جزءا لا بأس به عن « عقيدة التوحيد، الإخناتونية الثورية ، فما ذلك إلا لأن تلك الحركة التوحيدية هى ذروة التقدير القديم للنظام الخلق الذى نودى به على لسان المفكرين المصريين القدماء الذين عاشوا فى عهد الأهرام وأسسو على عالمة عظيمة من القيم الخلقية العالمية التي تتمثل فى تلك السكلمة الشاملة الجامعة « ماعت » (العدالة) التي أوجدها إله الشمس فى « هليو بوليس » وقد بنى هذا التوحيد الجديد على أسس ثلاثة:

أولها: كما رأينا كان سياسيا ، حتى أن اسم إله الشمس الجديد كان يوضع في الطغراء الفرعوني باعتباره شعارا ملكيا مزدوجا .

والثانى: اعتبار سلطان إله الشمس وسيطرته العالمية قوة طبعية ملموسة حاضرة فى كل مكان تتمثل فى حرارة الشمس ونورها.

والثالث : كان التطور المنطق لمذهب. هليو بو ليس ، الخاص بالنظام الخلق ، الذي كان أقدم من عهد . إخناتون ، بنحو ألني سنة . .

بقى علينا الآن أن نفحص آخر هذه الأسس الرئيسية التى قام عليها التوحيد عند « إخناتون » . على أنتا عند هذه النقطة نشعر بقلة ما لدينا من المصادر المدونة وضآلتها ، وإن كانت هذه المصادر النادرة التى بقيت لتا من ذلك العصر تكشف لنا عن مدى التقدم فى تفكير ذلك الملك الشاب خلال نصف الجيل الذى حكمه .

ولا يمكن الباحث أن يظن أن حركة حية نامية ذات تقدم مثل الحركة التي قام بها . إخناتون ، لم تكن قد أنتجت أبحاثا دونت فيها تعاليمه ، بل إن لدينا

من الدلائل ما يثبت وجود مثل تلك الأبحاث. فني مقابر و تل العيارنة ، التي ولع أسحابها من أشراف رجال البلاط الاختاتوني بأن يرسموا فوق جدرانها ماكانت عليه علاقاتهم مع مليكهم ، نجدا نهم كانوا يشيرون باستمرار إلى ذلك المذهب الجديد ، ولم يكن لديهم للتعبير عنه إلاكلة واحدة وهي كلة و التعليم ، وهذا التعليم منسوب للملك وحده . ولا يمكن أن يتسرب إلينا شك في أن ذلك التعليم هو الاسم العام للبيان الرسمي لمذهب « إخناتون ، الذي كتب طبعا في رسالة من نوع ما على أوراق البردى .

على أنه بعد سقوط « إخناتون » لم يترك أعداؤه حجرا واحدا لم يقلبوه لإزالة كل أثر باق يدل على حكمه الممقوت عندهم، وقد دمروا بطبيعة الحال مخطوطات الملك هذه المدونة على البردى. وأما معلوماتنا عن تلك الحركة من ناحية العقائد الدينية فهى مستقاة بأجمعها من نتف وقطع وقعت لنا عرضا، وبخاصة تلك الأناشيد التى زين بها أشراف رجاله جدران مقابرهم.

وحبنها نقرأ أنشودة «آتون» العظمى لأول مرة يدهشنا أن مثل هذه الأنشودة ، التى تعبر عن الوحى الدينى ، لا تشتمل الاعلى اشارات قليلة عن موضوع الاخلاق والسلوك الإنسانى ، وهو الذى كان قد احتل مكانة بارزة — كا نعلم — بين عناصر الديانة الشمسية الهليوبوليسية التى تضرب إليها حركة « اخناتون » الدينية بوشائج قوية ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن القوة الرئيسية التى حركت روح « اخناتون » كانت العاطفة .

والواقع أن ثورة « اخناتون » كانت فى روحها أولا وقبل كل شى عاطفية بدرجة قوية ، نجد هذه الحقيقة ظاهرة جلية فى الأناشيد ، كما نجدها كذلك بارزة جدا فى الفن . فعندما يرسم لنا أحد فنانى « تل العمارنة » صورة « اخناتون » أو أحد رعاياه وهو يتعبد ، رافعا ذراعيه تضرعا إلى إله الشمس ، فإن وسائله العاطفية فى مثل تينك الذراعين المر فوعتين تبلغ فى شدة جاذبيتها روعة ذراعى « إلونورادوز » (١) (Eleonora Duse) حيما تبسطهما باستعطاف لاستقبال محبوبها

⁽١) « الونورا دوز » ممثلة ذائعة الصيت فى الروايات المحزنة ، وهى فرنسية الأصل عاشت فى أواخر القرن الناسع عشر م . وقد كانت مشهورة على وجه خاص بعمق =

• أرماندو » (Armando) • فالذى كان يعبده « إخناتون » هو جمال إله الشمس وفيضه • وهذه العاطفة هى التى نقلتها إلينا أناشيد « تل العبارنة » • فهى لذلك لا تحتوى على لاهوت أو خلقيات اجتماعية . وبالرغم من ذلك فإنه من الواضح تماما أن « إخناتون » قد قبل قبولا شاملا اعتناق الخلقيات الهليو بوليسية ، التى كانت قد بلغت الدروة فى سموها ، بل انه فى الواقع أبرز النظام الخلق للتعاليم الشمسية القديمة فى شكل أوضح بماكان عليه فى أى وقت ، كان قبل حكم « اخناتون » .

على أن علاقة حركة « إخناتون » هذه الوثيقة باللاهوت الهليوبوليستى طاهرة فى كل نواحيها . فقد كان توحيدالسلالة الملكية بسلالة إله الشمس على يد كهنة ، هليوبوليس ، في متون الأهرام ، وماتر تب عليه من اعتباركل فرعون ابنا لإله الشمس ، قد نقل إلى الإله « رع » كا ذكر نا من قبل صفات الحكم الكريمة التي تشبع بها فراعنة العهد الإقطاعى . فني ذلك الحين كان الفرعون قد صاد « الراعى الطيب » أو « راعى الماشية الطيب » . وهذه الصورة التي تنطق بعطف الملك الأبوى وحمايته لرعاياه قد نقلت إلى « رع » ، وبذلك اكتسب « رع » انفسه ، بشكل مدهش ، صفات إنسانية وعطفا أبويا نتيجة لذلك التطور الذي حدث في تصوير الملكية في العهد الإقطاعي .

وبذلك كانت تلك القوى الاجتماعية التى أوجدت هذا المثل الأعلى للملكية ، هى المؤثرات النهائية التى – بمعونة الملكية – قد زادت من سلطان «رع ، وأكسبته صبغة إنسانية ، بعد أنكان مركزه قبل ذلك سياسيا لايخرج عن كونه فكرة آلية مهملة . فكأن هذه الصفة الانسانية التى كسبها «رع » كانت قريبة من التى كان ينشدها «أوزير » نفسه .

وكانت التعالميم الآخنانونية منجذبة بكليتها نحو هذا الميل الذي ينعطف إليه المذهب الشمسي، إذ قد عثرنا على أنشودة للشمس من عهد والد « إخناتون »

⁼ عاطفتها والابداع الذي كانت تمثل به أدوارها العاطفية . أما « أرماندو » فهو بطل في إحدى الروايات التي جعلت « إلونورا دوز » ذات شهرة عالمية .

سمى فيها إله الشمس « الراعى الشجاع الذى يرعى قطعانه ، ، وهذه إشارة تربط بوضوح مذهب «آتون » بالحركة الاجتماعية الخلقية التى ظهرت فى العهد الاقطاعى .

وحينها نعيد إلى ذاكرتنا الآن الأصل الهليوبوليسي لماعت (الحق، الصدق، العدالة) التي صارت تمثل في إلهة ، هي بنت إله الشمس ، يجب أن نلاحظ ماجاء في كتاب الموتى من أن جماعة الآلهة الذين يجلسون في قاعة «ماعت» لا يوجد بأجسامهم إثم ولا بهتان وأنهم يعيشون على الصدق «ماعت»، وهناك يؤكد الميت براءته لأولنك الآلهة بقوله: « إنى أعيش على الصدق وأنزود من صدق (أو عدالة) قلى ».

فهذا المذهب الشمسي الذي كان يشد أزره أولئك الآلهة في هليوبوليس، قد اعتنقه الآن « إخناتون ، بجوارحه ، حتى انه كان على الدوام يذيل اسمه الملمكي الرسمي في كل آثار الدولة العظيمة بهذة السكلمات : « العائش على الصدق (ماعت) ، ، وهذا النعت الهام الذي ألحق باسم « اخناتون ، جعله الممثل الرسمي والمعاضد للنظام الخلق القومي العظيم ، الذي تصوره كهنة المذهب الشمسي قديما في دهليوبوليس، في عهد يرجع تاريخه إلى عصر الآهرام ، وألبسه المفكر ون الاجتماعيون والرسل في العهد الإقطاعي المصري أهمية خلقية فاقت ماكان عليه في أي زمن من قبل . فإذا أعدنا إلى ذاكر تنا ماكان يرمي إليه من وراء من النسلط على سائر العالم بلا برهان ، ظهر لنا أن ماكان يرمي إليه من وراء إضافته تلك الكلمات إلى اسمه الملكي إنما هو امتداد سلطان النظام الخلق القديم القومي حتى يصير نظاما مسيطرا على سائر العالم الدولي العظيم الذي كان هو سيده إذ ذاك .

وبذلك نجد أن سيطرة مملكة الشمس القديمة للقيم الخلقية ، وقد امتدت إلى حدودها العالمية المنطقية ، وأن , التوحيد ، الذىكان منطويا فى ثنايا تعليم كهنة هليو بوليس ، قد نطق بهما . « إخنا تون ، نطقا لا إبهام فيه ولاخفاء .

وتمشيا مع هذه الحقيقة قد سمى « إخناتون ، عاصمة ملكم الجديدة في

تل العمارنة و مقر الصدق (ماعت) »، كما جاء فى الأنشودة القصيرة و قدكان أتباعه على علم تام باعتقاده المنين فى وماعت » ولذلك كان رجال البلاط الملكى يعظمون « الصدق » كثيرا ، إذ يقول أحد أعلام أعوان الملك ، وهو رآى ، الذى قام بخلع الملك و توت عنخ آمون » فيما بهد عن عرشه :

« إنه (يعنى الملك) أحل الصدق في جسمي

وإن الذي أمقته هو الكذب

وأنى أعلم أن ، وان رع ، (يعني إخناتون) يمرح

فيه (يعني الصدق) · »

ثم يؤكد نفس هذا الرجل أن إله الشمس: «قلبه مرتاح الصدق وأن الذي يلعنه هو الكذب » .

كما يذكر لنا موظف آخر فوق جدران قبره فى « تل العهارنة » :
 « سأتكلم لجلالته (لأنى) أعلم أنه يعيش فيه (أى فى الصدق)
 وأنى لا أفعل ما يكرهه جلالته لأن الذى أمقته

هو حلول الكذب في جسمي

ولقد قررت الصدق لجلالته لأنى أعرف أنه يعيش فيه .

إنك درع، والدالصدق....

وأنى لم آخذ رشوة للكذب

كما أنى لم أقص الصدق لأجل الرجل العسوف ».

ويجب أن نذكر هنا مرة ثانية حكدليل هام على تفانى « إخناتون » فى الصدق ح أنه لم يقصر فضيلة الصدق على السلوك الشخصى فحسب ، بل أدخله كذلك فى ميدان الفن ، حيث صارت له فيه نتائج ذات آثار بارزة فى التاريخ .

وعلى ذلك كان « رع ، لا يزال فى ذلك الانقلاب الذى قام به « إخناتون » المنشى المعاضد للصدق أو الحق (ماعت) ، أى لذلك النظام الحلق والإدارى كما كان الحال منذ أكثر من ألنى سنة مضت . وإذا كنا لم نسمع عن حساب الآخرة فى مقابر « تل العيارنة » ، فن الواضح أن ذلك إنما يرجع إلى نبذ

الحاتمة في حاب الآخرة بشكلها الموضح في كتاب الموتى . فأولئك الآلهة قد بادوا الآن، واحتى ما يظهر حمنظر المحاكمة التمثيلي باختفائهم، قد بادوا الآن، واحتى حيل ما يظهر حمنظر المحاكمة التمثيلي باختفائهم، وإن كان من الراضي أن المستلزمات الحلقية في المذهب الشمسي حالدي نشآت فيه فيكرة المحاكمة في الآخرة وانتشرت حلم تعته المطالبة بها في التعاليم الاختاتيونية ولم نفتر.

وكدالك الحلة التي قام بها الكهنة على عالم الاخلاق بالعوامل السحرية الآلية لضبان براءة الميت فيها بعد الموت، فقد أقصاها « إخناتون ، بداهة عن تعاليمه ، فصارت الجعل القلبية (الجعارين) ، المي كانت مألوفة من قبل ، لا ينقش فوقها التعاويذ السحرية لإخماد وحي ، الضمير ، عند المتهم ، بل صارت آنثذ ينقش فوقها أدعية بسيطة موجهة إلى « آتون » طلبا لحياة طويلة وعطف وطعام . وما ذكرناه عن « الجعل » (الجعارين) ينطبق تماما على الدى (يوشبتي) ، التي هي تماثيل صغيرة كان الغرض منها القيام بالاعمال بدلا من الميت إذا طلب لذلك فيها بعد الموت في الحياة الآخرة .

وإذا فكرنا مليا فيما ذكر نجد أن أمثال تلك التغييرات الاساسية تبسط أمامنا عظم المد الجارف، من الفكر والعادات والتقاليد الموروثة عن الاقدمين، الذي تحول عن مجراه على يد ذلك الملك الشاب الذي كان يقود ذلك الانقلاب، وأننا إنما نبدأ في تقدير قوة شخصية «اخناتون» العظيمة عندما ندرك هذه الناحية من حركته الدينية إدراكا واضحا. فقد كانت الوثائق الدينية قبل عهده تنسب عادة إلى الملوك القدامي والحكاء الاولين، وكانت قوة أي عقيدة ترتكن بوجه خاص على ما يعزى إليها من الاقدمية الساحقة وعلى قدسية العادة العريقة في القدم. وقد كان معظم تاريخ العلم حتى عهد وإخناتون، عبارة عن سير الحوادث بمجرد سطوة التقليد الذي كان سلطانه لا يعارض، وليس لدينا الحوادث بمجرد معطوة التقليد الذي كان سلطانه والمهندس العظيم وإحمت النادي أدخل على فن العهارة البناء بالاحجار فأقام أول مبني من الحجو، وهو الذي أدخل على فن العهارة البناء بالاحجار فأقام أول مبني من الحجو، وهو

ذلك القبر الهرمى الشكل الذى يرجع تاريخه إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد . وفيها عدا هذه الشخصية من المصريين الاقدمين لم يكن الناس سوى نقط من الماء فى تيار الحياة الجارف العظيم .

فإذا استثنينا و إمحتب ، هذا كان و إخناتون ، أول شخصية مستقلة ظهرت في التاريخ ، فإنه قد أحرز مكانته السامية بنفاذ بصيرته وحسن تدبيره و تفكيره العقلي ، ثم نهض بنفسه علانية وقام فى وجه كل التقاليد ونبذها ظهريا . ولم يلجأ فى توطيد مذهبه الجديد إلى أية وسيلة من وسائل الاساطير والروايات العتيقة السائدة عن سلطان الآلهة ، ولا إلى شىء من العادات القديمة التي اكتسبت قداسة بمر الدهور ، بل اعتمد فقط على البراهين العتيدة الظاهرة الدالة بنفسها على سلطان إلهه وهى أدلة ظاهرة للعيان أمام ألجميع .

وأما من جهة التقاليد، فإنه اجتهد فى القضاء عليها أينها وجد فى السجلات التى يمكن الوصول إليها أى مظهر مادى الآلهة الآخرى. على أن هذه السياسة، التى كان قو امها الهدم إلى هذا الحد، كان لا بدحتها من أن تصادف معارضة قوية فناكة. وسنفحص الآن بعض عوامل تلك المعارضة.

الفصالاتبارعشرر

ســـقوط « إخناتون »

عصر انتشار التنسك الشخصي – الكهانة وخاعتها

قامت حركة « إخنائون ، بين شعب عظيم ما لبث أن وقف مجرى حياته فِحْمَانَ وَحُولُ إِلَى اتِّجَاهُ غُرِيبِ عَنْهُ بِالرَّغِيرُ مِن قَوْةُ انْدَفَاعُهُ الَّتِي كَانْتُ لَا تُكَادُ تقاوم . فأصبحت أماكنه المطهرة وقد عبث بها ، ومزاراته المقدسة المحاطة بذكريات آلاف السنين وقد أوصدت وطردت كهنتها ، كما صودرت الإموال المربوطة على القرابين والمعابد، ومحى ذلك النظام العنيق جملة واحدة . فني كل مكان كانت طوائف بأجمها تسير مدفوعة بالغرائز التي تجرى في أجسامهم منذ قرون لا يحصيها العد وفق عادات وأخلاق موروثة ، فإذا ذهبوا إلى أماكنهم المقدسة وجدوهاكأن لم تغن بالامس، وهناك يقفون ذاهلي العقول أمام تلك المعابد القديمة الموصدة الابواب. وتلك القاعات المبجلة عند القوم منذ الطفولة. الأولى ، والتي كانت فيما مضي تزخر بأفراح الجماهير أيام الاعياد المقدسة في وأسيوط، ، قد صارت الآن صامتة خاوية . وفي كل يوم ، عندما كانت المواكب الجنازية تعرج على حافة الصحراء وفوق هضبة الجبانة كانت تفاجأ بأن . أوزير ، ذلك المعزى والصاحب العظيم والمحامى عن الأموات أمام كل خطر ، قد نني من البلاد ولم يعد في إمكان أي إنسان أن يذكر اسمه وحتى فى الايمان التي كان يعقدها القوم ، وهي التي اختلطت بدمائهم مع ألبان أمهاتهم في الرضاعة، فإنه كان محظورا عليهم أن تخرج من شفاههم تلك الأسماء الني تكاد تنطق بها ألسنتهم عفوا ، فكان لابد ألا يشتمل اليمين القديم أمامالقاضي في المحكمة إلا على اسم الإله وآتون، فقط. فكانكل ذلك في نظر القوم كما لو طلب الآن إلى رجل من عصرنا أن يعبد . س ، ويحلف باسم . ص . . ولإ بدأن كثيراً من الكهنة المتذمرين الذين كانوا يكظمون غيظهم الشديد في صدورهم، قد مزجو اسخطهم ذلك بسخط طو اثف بأسرها من الباعة وأصحاب الحرف الحانقين ،كالخبازين الذين لم يعودوا يكسبون عيشهم من بيع « فطائر الشعائر » _ كما كان قديما _ خلال أيام الأعياد التي كانت تقام في المعابد ، وكالصناع الذين لم يعد في مقدورهم الآن بيع تعاويذ الآلهة القدامي عندأبواب المعابد ، وكالحفارين المرتزقة الذين أصبح ماصنعوه من تماثيل الإله « أوزير » مكدسا تحت الاتربة المتراكة في عدة من المعامل التي صار عاليها سافلها ، أو كجارى الجبانة الذن وجدوا أن ما صنعوه من شواهد القبور المزخرفة بالنقوش الزاهية المنقولة من كتاب الموتى قد استبعد من مدينة الأموات، وكالكتاب الذين كانت لفاتفهم البردية المخطوطة المنقولة منكتاب الموتى أيضا - تعد إذ ذاك - لعنة لمن يستعملها إذا كانت علوءة بأسماء الآلهة القدامي ، أو إذا كانت تحمل كلمة الإله بصيغة الجمع ، وكرجال الكهانة المسرحيين والممثلين الذين صاروا يطردون من تلك الأماكن المقدسة في الأيام التي اعتادوا فيها أن يمثلوا للشعب تمثيلية والمأساة الاوزيرية ، ، وكطوائف الحجاج المتذمرين في « العرابة المدفونة ، بمن كانوا يعتزمون الاشتراك في تلك التمثيلية التي تعبر عن حياة «أوزير» وموته ثم بعثه بعد الموت، وكالمشعوذين الذين حرموا كل أمهم تجارتهم الخاصة بالاحتفالات السحرية التي كانت تستعمل بنجاح منذ أيام أقدم الملوك منذ ألني سنة ، وكالرعاة الذين صاروا لا يجسرون بعد أن يضعوا رغيفا وإناء من الماء تحت شجرة راجين بذلك الفرار من غضب الإلهة التي تسكن تحت الشجرة والتي كان في مقدورها أن تبزل المرض بأهل المنزل عند غضمًا ، وكالفلاحين الذين صاروا يخافون أن ينصبوا تمثالًا ساذجاً « لأوزير » في الحقل ليطردوا به الشياطين المؤذية المسببة للجدب والقحط ، وكالأمهات اللائى يخشين وهن يدللن أطفالهن عند الشفق أن ينطقن بتلك الأسماء المقدسة القديمة وبالصلوات التي تعلنها في طفو لنهن ليبعدن عن صغارهن شياطين الظلام الراصدة لاختطافهم. وفي وسط هذه البلاد جميعها، وقد عمتها ظلمة سحب التذمر الخانق ، ضرب ذلك الملك الشاب المدهش هو ومن حوله من تلك الطائفة المؤيدة له ، سرادق دينه فى رائعة النهار ، وفى هدو. لا شعو ر معه بذلك الظلام الدامس ، الذى شملكل ما يحيط به والذى يزداد فى كل يوم ظلمة منذرة بعظيم الخطر .

فإذا رسمنا حركة « إخناتون » ، ومن خلفها ذلك التذمر الشعبي الذي سبق وصفه ، ثم أضففا إلى تلك الصورة ما هو أقرب من ذلك خطراً وهو معارضة الكهانة القديمة السرية ، ومعارضة حزب «آمون » الذي لم يكن بعد قد غلب على أمره تماماً ، وطائفة الجنود الأشداء الذين كانوا ساخطين على سياسة الملك السلمية في آسيا وعدم اهتمامه بإدارة أملاكه الدولية والمحافظة عليها ، أدركما شيئًا عن تلك الشخصية القوية لذلك القائد الأول في عالم الفكر في التناريخ . ويعدحكمه أقدم محاولة لسيطرة آراء الحاكم التي لا تحفل بحالة الشعب الذي فرضت عليه تلك الآراء ومدى استعداده لقبولها . وقد عبر عن مثل ذلك « ما ثيو أرنولد » (Mathew Arnold) تعبيرا حسنا عند تعليقه على الثورة الفرنسية بقوله: «ولكن شدة الولع بالإسراع في القيام بتطبيق سياسي لحل تلك الآراء الجميلة التي يمليها العقل كان سيء العاقبة . . . فالأفكار لا يمكن أن تقدر فوق قيمتها ولا تعشق لذاتها ، كما أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في حدودها أكثر مما يجب ، ولكن إذا نقلت الأفكار فجأة إلى عالم السياسة والحياة العملية بقصد قلب نظام العالم بما تحويه من الأوامز ، فإن هذا شي. آخر من جميع الوجوه . . ولكن « إخناتون » لم يكن لديه سابقة ما مثل الثورة الفرنسية للرجوع إليها والاعتبار منها ، بلكان هو نفسه أول ثائر عالمي ، وقدكان مقتنعاكل الاقتناع بأن في مقدوره أن يضع في قالب جديد عالم الديانة والفكر والفن والحياة بعزم ثابت لا يقهر ، وأنَّ يجعل آراءه في الحال ذات. تأثير عملي فعال .

وعلى ذلك قامت مدينة سهل « تل العهارنة » الجميلة ، فكانت جزيرة خيالية للنعيم فى وسط بحر من التدمر ، بلكانت حلما علوءا بالآمال الخيالية فى عقل غاب عنه تماما أن الماضى لا يمكن محوه . والعجب أن ظهور مثل ذلك الرجل عجر الضميد

لأول مرة لم يكن إلا فى الشرق وفى مصر بالذات ، حيث لم يكن يوجد رجل آخر يستطيع نسيان الماضى غير « اخناتون » على أن عالم أمم البحر الأبيض المتوسط العظيم ، الذى كانت مصر تسوده حينذاك ، لم يكونوا أحسن استعدادا لقبول ديانة دولية أكثر من سادتهم المصريين . ويذكرنا خيال « إخناتون » الدولى بآمال « الاسكندر الاكبر » الذى جاء بعده بألف عام ، ولكنه كانسابقا لعصر الاسكندر بعدة قرون ،

على أن الحقيقة التى كانت تحيط به والمركز المهدد، اللذين كان « إخناتون » يدعو حزبه لتبصرهما كل يوم ، قد صورا فى وصف كتبه زوج ابنته , توت عنخ آمون » بعد موته بمدة ، حيث قال :

. وأغلقت معابد الآلهة من « الفنتين » (يعنى الشلال الأول) إلى مستنقعات الدلتا

وهجرت أماكنهم المقدسة ونبت فوق دمنها المرعى وصارت معابدهم كأن لم تغن بالأمس، وبيوتهم صارت طرقا معبدة والبلاد

كانت فى مأزق سيى ً

وأما الآلهة فقد هجرت هذه الأرض

وإذا أرسل قوم إلى سوريا لمد حدود مصر لم يكن الفوز حليفهم قط.

وإذا دعا الناس إلها لإنقاذهم لم يجب دعوته ، وكذلك إذا استعطف الناس إلهة لم تجب قط . فكانت قلوبهم في أجسامهم عليها أقفالها » .

وكان أتباع « إخناتون » فى مثل هذه الأحوال يدعون أن يستمر حكمه حتى , تصير البجعة سودا، ويصير الغراب أبيض ، وإلى أن تتحرك الجبال وتسير ويجرى الماء من أسفل إلى أعلى » .

أما سقوط ذلك الثورى العظيم فيحوطه الغموض التام . وكانت النتيجة المباشرة لسقوطه هي إعادة عبادة «آمون» والآلهة القدامي ، فرضها كهنة «آمون» على «توت عنخ آمون» ، ذلك الشاب الضعيف زوج ابنة «إخناتون» ثم أعادوا النظام القديم إلى ما كان عليه . ونجد في بيان « توت عنخ آمون»

عن إعادة عبادة الآلهة إيضاحا شائقاً للحالة العقلية والدينية لقادة رجال الحكم بعدما اختفى « اخناتون » . وقد أشار الملك الجديد إلى نفسه فى هذا البيان بقوله : « إنه الحاكم الطيب الذى قام بأعمال عظيمة لو الدكل الآلهة (يعنى «آمون ») والذى أصلح له كل ماكان مخرباحتى صار آثارا خالدة .

ومحيت من أجله الخطيئة فى الأرضين (مصر) وبذلك دامت العدالة (يعنى ماعت)....

وجعل الظلم شيثا تمقته البلادكماكان الحال في البداية . .

ويتضح من ذلك أن سقوط « اخناتون » اعتبر فى نظر أعدائه المنتصرين إعادة للنظام الخلقي القديم « العدالة » (يعنى ماعت) وإقصاء للظلم . وبعد ذلك أخذ « توت عنخ آمون » يصف الحالة التي ورثها ، فى فقرة ذكر ناها فما تقدم .

وهكذا لعنت ذكرى ذلك الرجل العظيم صاحب المثل الأعلى ، ولم يظهر اسم اخناتون قط فى القوائم الملكية العظمى المسجلة فوق الآثار بين أسماءكل ملوك مصر الماضين . وعندما كانت الإشارة إلى اسمه ضرورية فى الوئائق الحكومية فى عهد الفراعنة الذين أتوا فيما بعد كان يسمى « مجرم أخيتاتون » .

وقد كان فرح كهنة «آمون» باسترداد سلطانهم فرحا عظيما ، ولدينا أنشودة لآمون من ذلك العصر تصف لنا فوز أتباعه وتنطق بشماتهم عند ماكانوا ينشدونها ، حيث جاء فيها :

« إنك تصل إلى من يبغى عليك

والويل لمن يهاجمك .

مدينتك تبقي

ولكن من يهاجمك يهوى

وشمس من لا يعرفك تغيب . . . يا آمون ا

وأما من يعرفك فإنه يضيء

ومعبد من هاجمك في ظلبة

بينها جميع الارض فى نور . ،

فني هذه الآنشودة يظهر جليا حقد أعداء ، إخناتون ، المسبع بالتشنى والسخرية المملوءة بالشماتة عند ما تقول:

« وشمس من لا يعرفك (يعنى اخناتون) تغيب يا آمون ، و « معبد من هاجمك (يعنى إخنائون) فى ظلمة ، .

وهكذا كانت حالة معبد الشمس « بتل العبارنة » الذي كان فنانو « إخناتون » يصورونه دائمًا مغمورا ببحر من ضوء الشمس ، بينها كان « آتون » المشع يشرق من فوقه وقد ضمه في أحضان أشعته الفياضة .

ولم يبق الآن شيء من معبد ذلك النور الأبدى ، الذي كان يوما ما ساطعا، إلا بقايا ضئيلة من أساسه . فهل بق أى شيء آخر ؟ وهل تجرى أقدم ثورة للعقل البشرى مجراها ولا تترك خلفها نتيجة باقية ؟

إن ثورة « إخناتون » كانت عنيفة فى طرقها أكثر بما يجوز ، فلم يخلد شى الما أحدثته من الانقلاب . فالفن المدهش الذى أحدثته كان مهذبا أكثر بماكان يلزم فى التصور وقوة التعبير فلم يعش طويلا . وقد كشفت لنا معامل الملك التى كانت فى « تل العمارنة ، عن منزلة حب ذلك الفن المدهش عند أولئك الفنانين الملكيين ، وقد ترك عملهم هذا أثره فى فن العصر الذى جاء بعده ، غير أن فنى النحت والتلوين لم يستردا قط تلك الحرية التامة التى نعما بها فى عهد وإخناتون » ، كما أنهما لم يلقيا ثانية جو تلك الحقيقة الدقيقة التى كانت تسود فن معامل « تل العمارنة » .

وأما في الأخلاق فلم يعد تعظيم الصدق بتلك الدرجة السامية التي بلغها في تصور وإخناتون ، وبما لاشك فيه أن تقديره العاطني للجهال والفيض اللذين شاهدهما في صنع الإله قد ترك أثرا لم ينس قط بأكمله وليس من شك مطلقا في أن تلك الأنشودة المصرية قد بقيت في شكل ما بعد موت وإخناتون » ، حتى عرفها العبرانيون بعد قرون مضت واستعملها مؤلف المزمار الرابع بعد المائة ، وبذلك لم تختف جملة روح مذهب وآتون »، وسنجد فيما بعد برهانا آخر على تأثيرها ، وعلى أن عنف هجوم إخناتون التعصبي على التقاليد قد جعل من الطبيعي أن ينزل عليه وعلى حركته الانتقام الجزائي الذي كانت خاتمته الدمار النام .

فلا غرابة إذن فى أن تلك العاصفة حينها هبت اكتسحت على وجه التقريب كل أثر لأقدم باحث عن المثل الأعلى . وليس لدينا ما ينبئنا عنه إلا القليل فوق ما عثر عليه من بقايا مدينته ، التى كانت بمثابة مركز منعزل للمثل العالية ، التى لم يدركها غيره أو يعرفها ، إلا بعد مضى قرون عدة ، حينها تألف أولئك البدو الذين كانوا إذ ذاك ينزحون إلى أقاليم « اخناتون » الفلسطينية وكونوا أمة ، كان لها من المطامح الاجتماعية والخلقية والدينية ما كان من نتائجه ظهور أولئك الرسل العبرانيين وأصحاب المزامير ، ليواصلو السير بالروح والرؤيا اللتين سبقهم فيهما أصحاب الأحلام الاجتماعيو نمن المصريين الأقدمين .

وكان من جراء انهماك « إخناتون » فى معنويات ثورته العظيمة أن عكفته على التأمل والتيه فى الأحلام بقصر الشمس فى « تمل العيارنة » ، فى حين أن الحيثيين ، وهم الأعادى الجدد أصحاب البأس الشديد فى غربى آسيا ،كانوا قد قامو ا بفتح سريع لدولة مصر الأسيوية ، وفى حينأن السكهنة والجنود بين شعبه نفسه قد قوضوا سلطان الأسرة الثامنة عشرة تقويضا تاما ، وهى أسرة ذلك الفرعون ذات الصولة التى سادت الشرق القديم نحو ما تنين و ثلاثين سنة . وبهدم سلطان « إخناتون » بدأت مصر عصرا جديدا يختلف عما قبله . حقا إن بهاء عظمتها الظاهرى وذلك المظهر الزائع لثباتها الطويل المدى كان ذكر هما لا يزال يتردد فى تعابير الافتخار اللفظية التقليدية ، ولكن الحاله الواقعية أخذت تضمحل بعض الشيء عند ما اقترب القرن الرابع عشر ق . م . من نهايته .

وكان أصداء المذهب الاخناتونى لم ينقطع ترددها بعد ، كما كانت علاقته بالتعليم الشمسى الهليوبوليسى القديم لا يزال معترفا بها . بل ان نفس الأنشودة المعبرة عن الفوز (المفعم بالشهانة) الذي أحرزه كهنة «آمون» ضد مذهب «إخناتون» تنم عن اتصالها بالمذهب الشمسى القديم ، وعن تعبيرها عن أبوة «رع» عندما تنتقل إلى مديح «آمون» وتصفه بأنه «الراعى الطيب» و « النوتى » ، وهى أفكار نبتت في أثناء الحركة الاجتماعية للعهد الاقطاعى المصرى كما تقدم ذكره فيها سبق .

والواقع أنه بالرغم من العودة إلى عبادة « آمون » فإن الأفكار والاتجاهات التي نشأت منها ثورة « إخناتون » لم تختف جملة . حقا لم يكن فى الإمكان اتباعها على أنها توحيد يشمل القضاء على الآلهة الاقدمين ، غير أن نواحى « آتون » الإنسانية والحنيرية التي تتمثل فى عنايته بكل البشركانت قد استولت على خيال الطبقة المفكرة . ولذلك نجد نفس تلك الصفات التي كانت لآتون تنسب آنئذ إلى « آمون » ، حيث كان الناس برتلون له ما يأتي (١) :

« زب الصدق ووالد الآلهة خالق الناس وبارى الحيوان رب كل كان ومنشى شجرة الحياة خالق الأعشاب ورازق الماشة لتحيا » .

وهذه الأنشودة التي اقتبسنا منها هذه الأسطر لا تتردد في تسمية ذلك الإله الممدوح باسم « رع » أو « آتوم » ، دالة بذلك على أن حركة « آتون » قد تركت السيادة التقليدية لإله الشمس « رع » الهليو بوليسي دون مساس بها . وكذلك نجد فيها قطعة أخرى تحتوى على ترديد لأصداء مذهب « آتون » ، حيث جاء بها ما يأتى :

« سلام لك ! يا رع يا رب الصدق الذى أمر فو جدت الآلهة يا آتوم الذى خلق الناس والذى حدد صورهم وخلق أرزاقهم وخلق أرزاقهم والذى ميز لون (كل جنس) عن الآخر والذى يسمع دعوة من فى الاسر

⁽۱) من أنشودة « آمون » الكبرى ، وهى بردية بدار الآثار بالقاهرة . ويرى بعضهم أنها أقدم من عهد « إخناتون » .

والذى تتدفق من قلبه الرحمة عند ما يدعوه إنسان والذى يخلص الضعيف من المستكبر

والذي يفصل بين الضعيف والقوى.

رب المعرفة الذي في فمه الأمر السائد

والذي يأتى النيل حبا فيه

رب الحسن عظيم الحب

الذي مجيته يحيا البشر ..

وكذلك بقيت الجمل الدالة على التوحيد منبثة بين سطور هذه الأنشودة بلا تردد، وإنكانت الأنشودة دائما تشير إلى الآلهة. فنقول:

« الفريد في ذاته ، الخالق لكل كائن

الواحد الآحد ، خالق كل موجود

والذي نشأ الناس من عينيه

وخرجت من فمه الآلهة

خالق الاعشاب للماشية

وشجرة الحياة لبنى الإنسان

والذي يضع قوت السمك (في) النهر

والطيور التي تجوب السهاء

والذي يمنح النفس مايوجد في البيضة

ويجعل ابن الدودة يعيش

والذى يضع مايعيش عليه البعوض

وكذلك الدود والحشرات

والذى يمد الفيران بحاجاتها فى أجحارها

والذى يعول الطيور فى كل شجرة فتعيش .

سلام عليك يا من خلقت كل ذلك

أنت يا واحد يا أحد يا ذا الأذرع العديدة وأنت (يا نائم) صاح بينهاكل الناس تنام ساع فى البحث عن الأشياء الطيبة لماشيته فالماشية جميمها تقول: السلام عليك وكل مملكة تقول: العزة لك

بمقدار علوا السماء وعرض الأرض وعمق البحر ، .

على أنه توجد أنشودة لأوزير من نفس ذلك العصر ، يخاطب فيها بما يأتى : « أنت أب الناس وأمهم

وهم يعيشون من نفسك » .

وفى كل ذلك نجد روح التضرع الإنساني، التي سبق أن ظهرت ، كما ذكرنا آنفا ، إبان التعليم الاجتماعي في العهد الاقطاعي المصرى . فإن تفضيل المستضعف على المستكبر المتجـبر ، والأمر السائد والمعرفة ، وهي صفات مقصورة على الملكية والإلهية ، قد عثرنا عليها كلها من قبل في تلك المقالات الاجتماعية لأمثال « إبور » ، بل أيضا في الوثائق الحسكومية مثل الوثيقة الخاصة بنصيب الوزير الاكبر في الاسرة الثانية .عشرة من ملوك المصريين القدماء . وكذلك القول بأن الإله هو الاب والام لمخلوقاته يرجع بالطبع إلى ماكان عليه الاعتقاد في مذهب « آتون » .

ومع أن أمثال تلك الآناشيد لاتزال كذلك تحتفظ فى ثناياها بالعقيدة العالمية ، والتغاضى عن فكرة القومية ، وبالنظر الواسع البعيد المرمى ، مماكان شأنه بارزا فى تعاليم « إخناتون » ، فإنها بالرغم من ذلك تكشف لنا عن ثقة فردية بطيبة الإله ، فهى بذلك برهان هام على ظهور الوجدان الشخصى وتكشف لنا عن بداية عصر جديد ساد فيه التدين الإنفرادى الذاتى .

وعندما نمضى فى انعام النظر فى المعتقدات البسيطة الخالية من تعقيدات رجال الدين فى خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر، أى فى القرنين اللذين أعقبا عصر وإخناتون ، نجد أن ثقة المتعبد فى عناية إله الشمس بكل المخلوقات. حتى بأقل مخلوقانه قد تطورت إلى روح تعبدية وشعور فياض بالاتصال الذاتى بالإله ، مما ظهرت بوادره من قبل فى قول وإخناتون ، لإلهه : « وإلى الآن فإنك ما زلت فى قلى » .

وعلى ذلك نجد أن النا ثير للباقى لمذهب « آنون » وعقائد العدالة الاجتماعية للعهد الإقطاعى ، قد بلغ أوجه فى أعمق تعبير ، عن الروح الدينية الخالصة ، وصل إليه رجال مصر . ويضاف إلى ذلك أن هذه المعتقدات ، ذات العلاقة الوثيقة الشخصية بين المتعبد وإلهه، بالرغم من تأصلها أولا فى تعاليم فئة قليلة محصورة ، قد صارت آنذ بمرور القرون ، ومع التطور التدرجي البطيء ، منتشرة انتشارا واسعا بين طبقات الشعب . وكانت النتيجة انبثاق فجر عصر التقوى الانفرادية والإلهام الباطني الذي يناجي به المراديه .

والواقع أنه تطور هام ، وأنه كالكثير من الانقلابات التي تعقبناها في هذا الكتاب ، يعد أقدم تطور رأيناه من نوعه في تاريخ الشرق القديم ، وبالنسبة لهذا الموضوع بالذات ، في تاريخ البشرية جميعا .

وفى مقدورنا أن نتعقبه فى «طيبة ، وحدها ، ولا يخنى ما فى ذلك من الامتاع الشائق ، ما دام فى مقدورنا أن نتعرف ما كان يجول فى نفوس عامة الشعب الذين كانوا يملئون الطرقات والاسواق ، والذين حرثوا الحقول وزرعوها ونهضوا بالصناعات ، والذين أمسكوا بدفاتر الحسابات وقاموا بأعمال السجلات الرسمية ، والذين قطعوا الاخشاب ورفعوا المياه، وغيرهم من الرجال والنساء الذين وقع على كو اهلهم عبء الحياة المادية العظيم فى تلك الحاضرة الشاسعة للدولة المصرية القديمة فى خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر ق

فنجد ـــ مثلا ـــ أن كاتبا فى أحد مخازن الخزانة فى جبانة وطيبة ، يدعو « آمو ن » فيقو ل :

« الذي يأتي إلى الصامت (١)

ألذى ينجى الفقير

ويعطى النفس لكل إنسان يحبه

⁽۱) وفى القرآن الـكريم: « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (سورة البقرة (۲) — آية ۱۸۸) .

امدد إلى" يدك

نجني ، اسطع على

لانك تخلق قوتى

أنت الآله الآحد لا إله غيرك

فأنت نفس رع الذي يشرق في السهاء

وآتوم خالق البشر

الذي يسمع دعاء من يدعوه

والذي ينجى الإنسان من المتكبر

والذي يجرى النيل لأجل من هو بينهم

والهادى لجميع الأنام .

وعندما يشرق يعيش البشر

وقلوبهم تحيا عندما يرونه

والذى يمنح النفس ما فى البيضة

والذى يجعل البشر والطيور تعيش

والذى يرزق الفيران بحاجاتها فى أجحارها

وكذلك الديدان والحشرات.

فالإله الذي يوجه عنايته إلى كل شيء حتى المحافظة على العصافير ، مثل إله «عيسى» ، رأى فيه أهل «طيبة » مو ثلا يشكون إليه مصائبهم وهمومهم في حياتهم اليومية ، واثقين في شفقته وحنانه وفيضه . كذلك نصب أحد الرسامين الذين يقومون برسم المناظر الجنازية في جبانة «طيبة» لوحة تذكارية في أحد من ارات الجبانة ، تبين كيفية نجاة نجله من مرض ألم به بفضل «أمون» وشفقته العظيمة . فكان «آمون» في نظره الإله الجليل الذي يسمع شكاية الشاكين ، ويحيب الفقير المعذب إذا استغاث به ، ويمنح النفس من قو"س الدهر قناته . ويقص علينا قصة رحمة الإله «آمون» فيما يأتى :

إنى أنظم الأناشيد باسمه وإنى أقدُّم له الحمد بقدر علو السماء وعرض الأرض. وأتحدث عن قو ته إلى الذي يسير في النهر منحدرا والذى يسير فى النهر صاعدا. إحذره! وكرر ذلك الابن والبنت وللصغير والكبير وخبر بذلك الجيل بعد الجيل من الذين لم يولدوا بعد وأخبر بذلك السمك فى النهر والطيور في السماء وكرره لمن لا يعرفه حتى الآن وللذي يعرفه . احذره! أنت يا آمون إنك رب الصمت الذي يأتي عند استغاثة الفقير. وعندما استغيث بك فى كريتى فني الحال تأتى وتنجيني . ليتك تمنح نفسا من يقوس الدهر قناته وليتك تنجيني وأنا في الأغلال. وعند ما يستغنث الناس بك فإنك أنت الذي تأتى إليهم من بعيد » .

« الحمد لآمون

« إن » نب رع « رسام آمون » فى مدينة الأموات ، وهو ابن « باى » رسام « آمون » فى مدينة الأموات ، قد أقام هذه اللوحة التذكارية باسم ربه « آمون » رب « طيبة » الذى يأتى لإجابة الفقير المستغيث به ، مقدما له التسبيحات باسمه لعظم قوته ومقدما التحميدات أمامه وأمام كل الأرض لأجل الرسام « نخت آمون » ، وذلك عندما رقد مريضا مشرفا على الموت ، وكان فى قبضة « آمون » بسبب خطيئته .

« لقد وجدت أن رب الآلهة أتى كريج الشمال وأمامه الهواء العطر حتى ينجى الرسام « نخت آمون » فى الجبانة « نب رع » وان سيدة البيت « بشد » .

ويقول: « بالرغم من أن العبد اعتاد ارتكاب الخطيئة فإن الرب من شأنه الرحمة . لأن رب «طيبة» لا يصرف كل اليوم غاضبا ، فإذا غضب لحظة فإن ذلك الغضب لايدوم طويلا . . . بل يلتفت إلينا في شفقة . إن « آمون » يلتفت إلينا بنفسه .

ثم يقول: «سأضع هذه اللوحة باسمك وسأسجل هذه الأنشودة بكتابتها فوقها، إذا شفيت لى الرسام «نخت آمون». هكذا خاطبتك وقد أجبتنى، والآن انظر إلى وقد انجزت وعدى. إنك رب من يدعوك. أنت الذى ترضى عن الحق والعدالة. أنت وب وطيبة،

صنعها الرسام « نب رع » وابنه « خاى » .

وهكذا صار إله الشمس أو « آمون » الذي قام مقامه ، ملاذا للمحزونين. فهو الذي يسمع الشكوى ويجيب دعاء من يستغيث به ، والذي يحضر عند ذكر اسمه ، وهو الإله الحجب الذي يسمع الصلوات ، والذي يمد يده إلى الفقير وينجى اليائس. وبمثل ذلك الام المصابة التي أهملها ابنها « ترفع ذراعيها للإله فيسمع استغاثتها » .

وصارت آنئذ العدالة الاجتماعية التي نشأت في عهــد الدولة الوسطى

المصرية حقاً يطالب به كل فقير أمام الإله ، الذي صار هو نفسه قاضيا عادلاً لا يقبل الرشوة ، رافعا للحقير ، حاميا للفقير ، غير باسط يده للغني .

وعلى ذلك يدعوه الفقير فيقول: «يا آمون اصغ لمن يقف وحيداً فى المحكمة فقيرا وخصمه غنى ، فتضطهده المحكمة (حيث تقول) : « فضة و ذهبا للكتاب الوثيابا للخدم » ولكن « آمون يستحيل بنفسه إلى وزير أول (۱) ليجعل الفقير فائزاً ، فيتضح أن الفقير على حق وينتصر الفقير على الغنى . فأنت يا « آمون » فائزاً ، فيتضح أن الفقير على حق وينتصر الفقير على الغنى . فأنت يا « آمون » أنت النوتى فى المقدمة الذى يعرف الما « وأنت سكان السفينة ، والذى يعطى الخبر لمن لا خبر عنده ، ويحفظ خادم بيته حيا ، . ولأن الإله وقتئذ هو « آمون رع » الذى كان فى الصورة الأولى ملكا فإننا نجده يخاطب هكذا : « أنت يا وزير الفقير الذى لا يأخذ المكافأة الدنيئة ، والذى لا يقول : « إيت بشهود » ، أنت « آمون رع » الذى يعدل على الأرض بأصبعه ، والذى كلماته أمام القلب ، فيجعل النار مأوى لمن يرتكب الخطيئة فى حقه ، والمحق مثواه فى الغرب (يعنى النعيم فى الدار الآخرة) » .

فالغنى والفقير يحنى بهما غضب الإله على السواء إذا وقعت منهما الخطيئة، واليمين الذي يصدر استخفافا أوكذبا _ يجلب غضب الإله فيصيب الحانث المرض أو العمى، وذلك ما لا يمكن النجاة منه كما ذكرنا إلا إذا أتبع المذنب ذلك بالتوبة والندم والتجأ إلى التذلل والخضوع راجيا عطف إلهه.

وهذه أول مرة نجد فيها أن « الضمير » قد تحرر تماما ، فيعتذر المذنب ويندم على جهله وارتكابه الإثم ، فنراه يقول :

« أنت يا واحد يا من لا أحد غيره أنت يا إله الشمس الذى لا مثيل له يا حمى الملايين ومخلص مئات الألوف الذى يحمى من يستغيث به

⁽١) كان من أكبر الوظائف الذي يتولاها الوزير الأول منصب رثيس القضاة .

أنت يارب وهليو بوليس » (عين شمس) لا تعاقبنى على ذنو بى العديدة فإنى أمرؤ جاهل بنفس جسمه إنى رجل لا عقل له لأنى طيلة اليوم أنبع أهوائى كا يتبع الثور علفه . »

و نلاحظ هنا على الفور الفرق الشاسع بين هذا الاعتراف وكتاب الموتى الندى لا تعترف الروح فيه بأى خطيئة بل تدعى البراءة التامة . على أنه فى هذا الموقف الذى يعترف فيه الإنسان الآن بخطيئته مع إبداء غاية التذلل والخضوع، نجد أنه على اتصال باطنى بالإله ليلا ونهاراً ، كما نرى فيما يأتى :

« تعال إلى يارع » حور أختى حتى ترشدني '»

وكما أننا نجد العبرى التقى يحب « بيت المقدس » موطن ربه منذ القدم ، كذلك كان ذلك المصرى القديم يولى وجهه فى تعبده شطر مدينة الشمس العظيمة التى نشأ فيها مذهب آبائه منذ حو الى ثلاثة آلاف سنة ، حيث يقول :

« إن قلى يتطلع إلى « هليو بو ليس »

فإن قلبي ينشرح وصدرى يفرح

وتضرعاتى يستمع إليها

وحتى صلواتى اليومية وأناشيدى الليلية

وتوسلاتي ستزدهر في فمي لانها سمعت هذا اليوم » .

فالاناشيد القديمة كانت تتألف من أوصاف الحوادث الحرافية ، وكلها أمور خارجية بالنسبة لحياة المتعبد ، حتى أنه كان فى مقدور كل إنسان أن يبتهل إلى الإله بنفس الصيغة التى يبتهل بها غيره . فصارت الابتهالات آنئذ مظهرا لإحساسات باطنية ، أى أنها تعبير يراد به الاتصال الذاتى بالإله ، وهو اتصال يرى فيه المتعبد أن إلهه يغذى الروح كما يغذى الراعى قطيعه ، ونجد ذلك فى القول الآتى :

, یا آمون أنت یا مخرج القطعان فی الصباح ومرشد المتألم إلى المرعى وكما يقود الراعى القطعان إلى المرعى فأنت كذلك تفعل

يا آمون خذبزمام المتألم إلى الطعام لأن آمون رع يرعى من يتكل عليه .

يا «آمون رع» إنى أحبك وقد ملأت قلبي بك

وستنجيني منَّ أفو اه الناس في اليوم الذي يفترون فيه على الكذب

لأن رب الحق يعيش في الحق

وإنى لن استسلم للخوف الذى فى قلبى

لأن ما قاله « آمون » يعلوو يزدهر . »

حقا إنه كانت توجد وسائل ظاهرية ومادية تزيد فى هذا الاتصال الروحى بالإله، وقد رأينا الرجل العاقل يحث غيره بحكمة على « الاحتفال بعيد إلهه وأن يعيد الاحتفال فى مواسمه ، لإن الإله يغضب على من يتعدى حدوده » . ومع ذلك فقد كانت أعظم الوسائل تأثيرا لكسب عطف الإله ورضاه

ومع دمن قمد فات الطفم الوسائل البراكسي المسك الم الوطائد وهو ماكان يراه حتى هو التدبر والتفكر في أناة وصمت مع الاتصال الباطني، وهو ماكان يراه حتى الحكاء الذين بميلون إلى عدم الخروج جملة على العادات التقليدية ، كما نرى فيما يأتى :

« لا تكن كثير الكلام ، فبالصمت تنال الخير ...

أما من جهة أمر الإله فلعنته في رفع الصوت.

تعبد بقلب سليم كلّ كلمة من كلماته باطنة

فبذلك تنال ما تحتاجه ويسمع كلمانك

و يتقبل قربانك . »

بمثل هذه الروح كان يتجه المتعبد إلى ربه كأنه عين ماء روحانية منعشة . ومن ذلك أيضا :

« أنت أيتها البئر العذبة للصادى فى الصحراء

إنها موصدة لا تفتح للثرثار ــ ولكنها مفتوحة للصامت

فعندما يأتى الصامت فإنه يجد البئر » .

على أن هذه الروح ـــ روح الاتصال الصامت ـــ التى يرجى بها طيبة الإله الرحيمة ، لم تكن وقفا على فئة قليلة مختارة ، ولا على جماعات الكهنة المتعلمين .

فإننا نجد فوق أحقر الآثار لعامة الشعب أن « آمون » كان يدعى بالذى « يأتى للصامت » أو « رب الصامت » كما لا حظنا ذلك فيها تقدم .

وقد كان من جرا. ذلك التطور النهائى للشعور الدينى الذى توجت به ثورة « إخناتون » الدينية والعقلية ، كما توجت به كذلك عقائد العدالة الاجتماعية التى ظهرت فى العهد الإقطاعي، أن وصلت الديانة المصرية القديمة إلى أسمى تطوراتها.

وأما فى الأخلاق وفى موقف الإنسان تجاه الحياة فإن الحكاء استمروا فى المحافظة على روح الاحترام لأسمى المثل العليا العملية . وهو موقف ندرك فيه تقدما محسوسا على النعاليم العتيقة الآباء ، فصاروا يحفلون بحسن الذكر وطيب الأحدوثة ويتشددون فى المحافظة على السمعة ، فيقول الحكيم (آنى): « دع كل مكان تحبه نفسك معروفا عند الناس » .

وكانت أحوال السكر وعيشة الحلاعة تعرض بكل نتائجها الوخيمة أمام الشباب ، كما كانت أخطار الفحش والفجور تعرض للشباب بدون تحفظ وبصراحة عارية من كل ستر أوحجاب ، حسث بقول :

احذر المرأة الأجنبية التي لا تعرف في بلدتها ،

ولا تنظرن إليها ،

ولا تعوفنها في جسدها .

لأنها فيضان (من الشر) عظيم وعميق لا يعرف الرجل دورانه .

والمرأة التي يكون زوجها بعيدا جدا ، تقول لك فى كل يوم انى جميلة .

وعندما تكون بعيدة عن الأعين تقف (أمامك) لتوقعك

فى أحاميلها . . . يالعظم الجريمة التي تستحق الموت

عندما يرتكبها الإنسانُ ولو لم يعلم بذلك الملاً .

لأن الإنسان يسهل عليه بعد ارتكاب

هذه الخطيئة أن يرتكب كل خطيئة.

أما أطايب الحياة ومتاعها فيجب على الإنسان أن ينظر إليها بتحفظ فلسنى ، ومن الحاقة أن يعتمد الإنسان على الثروة الموروثة ويظنها مجلبة

السعادة : « لا تقل إن جدى من أى له بيت فى ضيعة كذا وكذا ، فإنه حين تأتى للقسمة حسب الوصية مع أخيك لا يكون نصيبك إلا حظيرة فقط » .

فإن مثل هذه الأشياء في الواقع لا دوام لها ولا ثبات :

« وهكذا نجد أن الناس إلى الابد لاشي. ،

فواحد غني وآخر فقير . . .

ومن كان غنيا في السنة الماضية قد صار شريدا هذا العام .

ومجرى الماء في العام المنصرم قد صار هذا العام مكانا آخر .

والبحار العظيمة تصير جافة والشواطئ تصبح بحاراً ».

فنجد في هذا الكلام مثلا لذلك الاستسلام الشرقي للمقابلة بين أحوال الحياة الدنيوية الذي كان على ما يظهر قديما وانتشر بين كل الشعوب الشرقة القديمة (١).

ولما انتقل الشعب المصرى القديم إلى ألف السنة الأخيرة ق . م . كان عمو الضمير الذى تتبعنا بجراه فى نحر ألنى عام ، قد وصل إلى نهايته بتحقيق هذا الانتقال العميق الهام ، الذى كان يمهد لمجيئه من عدة قرون . فإن الوازع الباطنى الذى نما فى الأصل من المؤثرات الاجتماعية ثم زاد تطوره خلال قرون مضت فى المتفكير العميق ، قد صار المتعبدون يعترفون الآن من غير تحفظ بأنه أمر الاله نفسه .

وقد رأينا أن هذه الفكرة كانت قد ظهرت قبل ذلك بنحو ٥٠٠ سنة ، أى فى بداية عهد الامبراطورية المصرية . ولكن فى هذا العصر الذى هو عصر الورع الشخصى ، صار الضمير هو صوت الإله بدون أدنى شك ، وذلك مالم يحدث من قبل مطلقا .

وإزاء ذلك لم يكن هناك بالطبع مجال لإخفاء الخطينة أو إنكارها بعد وقوعها من المخطىء، وإذكان المؤمن يشعر بأنكل أمره معلوم عند ربه فقد

⁽١) انظر مثلا أغنية « سندباد الحمال فى حاشية بيت الرجل المثرى (طبعة الجزائر المكتاب سندباد البحرى — المتن العربي صفحة ٤) .

أصبح يضع نفسه – بدون أدنى تحفظ – فى يد الله المرشد والمهيمن على كل حياته وحظوظه . ومع أن رضاء المجتمع كان لايزال أمرا هاما ، وضغط المؤثرات الاجتماعية محسوسا ، فإن ذلك صار فى المرتبة النانية إزاء الإله العليم بكل شىء .

وهذا الموقف الجديد قدكشف لنا غطاؤه فى رسالة عظيمة بمكننا أن نسميها « رحكم « أمينمو بى » ، وبرديتها محفوظة الآن بالمتحف البريطاني^(۱) .

وكما كان يحدث كثيرا في مثل تلك النصائح التي كانت تصدر من رجال الحكمة المصريين القدماء، قد اعتبرت حكم «أمينموبي» أيضا ملقاة من هذا الحكيم على ابنه . وهي في نظمها ووضعها تعد أكثر ترتيبا من أي وثيقة أخرى من نوعها مما فحصناه من تلك الوثائق للآن . فقد قسمت بنظام إلى ثلاثين فصلا وكل فصل منها خاص بموضوع معين ، وتبدو مقسمة إلى مقطوعات كل منها يشتمل على أربعة أسطر أو ستة أو ثمانية ، كما يوجد بعض مقطوعات كل منها يشتمل على أربعة أسطر أو ستة أو ثمانية ، كما يوجد بعض مقطوعات كل منها يشتمل على أربعة أسطر أو ستة أو ثمانية ، كما يوجد بعض مقطوعاتها مؤلفا من سطرين فقط . ويلاحظ أنه لم يبذل في تأليف تلك الحكم أي جهد لتنسيق فصولها أو ترتيبها ترتيبا منطقيا .

ولقد قال الاستاذ « لَنج » أحد أسانذة جامعة كوبنهاجن ، وهو بمن لهم الفضل الاكبر فى فهم ذلك المقال المدهش ، عند تناوله الموازنة بين «أمينمو بى» وغيره من أسلافه السابقين : « إن آراء « آمينمو بى » الدينية أعمق بكثير من سابقاتها ، كما أنها تنفذ إلى الأعماق بدرجة عظيمة تفوق فيها آراء أسلافه من الحكاء ، إذ كانت التقوى فى نظر أصحاب الحكمة الآخرين تعد فضيلة ، وأن فكرة الموت والحلود الابدى قوة دافعة للمرء على السلوك الفاضل ، وأن الله وحده هو الذى يعطى الغنى والحظ . فى حين أن الشعور بالإدانة لله وحده

Sir E. Wallis Budge, Facsimiles of اشرها السيرولس بدج (۱)
Egyptian Hieratic Papyri, in the British Museum, etc. Pls. I—XIV.
Admonitions of Amenemapt, the Son of Kanekht (Second Series London 1923).

H. O. Lange, Das Weisheitsbuck des Amenemope, : راجع (۲) . P. 18 (Copenhagen, 1925 .

هو في نظر « آمينموبي » العامل الفاصل في كل تصوراته عرب الحياة وسلوكه فيها ».

ولذلك كان «أمينمو بى » يتمسك أمام ابنه دائما بهذه النظرة إلى الحياة الدنيا فى المعاملات الشخصية والرسمية ، مع الشعور التام بتلك المسئولية أمام الإله فى كل حين . ومما يزيد فى أهمية تلك النصائح ووصولها إلى هذه القمة من تقدير الضمير والإحساس برقابة الله ، وذلك فى تعاليم مفكر مصرى فى القرن العاشر ق . م . ، وقبل أن يكتب أى شى من التوراة ، أننا نعرف الآن أن حكم أمينمو بى « هذه قد ترجمت إلى العبرية وقرأها العبرانيون . وإن قسما هاما منها قد وجد سبيله إلى كتاب العهد القديم .

وإننا نجد حكيمنا هذا عند تناوله موضوع تهيئة ابنه للانخراط فى سلك الوظائف الحكومية المصرية، يبين له تلك المغريات التى قد تدفعه إلى استغلال الفرص الرسمية ابتغاء المكسب من ورائها. فنراه يعددها الواحدة تلو الأخرى، ويحذر ابنه الشاب من الاستسلام لمثل تلك المغريات. فإذا كان فى وظائف مسح الارض فنصبحته له هى:

لا تزحرجن الحد الفاصل الذي يفصل (بين) الحقول
 ولا تكن جشعا من أجل ذراع من الارض

ولا تتعدين على حد أرملة

وارقب آنت من يفعل ذلك فوق الارض فىنته عدو للىلد

وأهراؤه تخرب

وأملاكه تؤخذ من أيدى أطفاله .

ومتاعه يعطاه غيره.

لا تطأن حرث الغير

وخير لك أن تبتى بعيدا عنه

احرث الحقول حتى تجد حاجتك

وتتسلم خبزك من جرنك الحاص بك.

وإن المكيال الَّذي يعطيكه الله خير لك

من خسة آلاف تكسبها بالبغي.

والفقر مع القناعة والرضا) عند الله خير

من الثروة (المغصوبة بالعدوان) القابعة في الحزائن

وَأَرغَفَةَ لِديكَ مَعَ قَلْبَ فَرَحَ خَيْرَ لَكَ

من الثروة مع التعاسة » .

ومن المهم أن نلاحظ أن أمينمو بي كان لا يزال يجترم الرأى العام في مثل تلك المواقف، لأنه عند ما ينصح ابنه بمراعاة الأمانة في السجلات المالية

« وخير لك المدح (تناله)كفرد يحبه الناس

من الثروة (المجموعة) في الحزائن ،

وذلك لأن الغني مع « الضمير » الشاعر بالذنب لا قيمة له :

« وما فائدة الملابس الجميلة

إذا كان الإنسان باغيا (متعديا على غيره) أمام الله ؟ »

ولماكان موظفو بيت المال عند المصريين القدماء لهم علاقة كبيرة بالموازين والمكاييل، فقد اهتم بها « أمينمو بي » كثيرا، حيث يقول لابنه:

ولا تجلعن إحدى كفتي الميزان تحيد غشا

ولا تعبث بالموازين

ولا تنقصن من عدد(أنصبة أو مقادير) مكاييل القمح

ولا ترغبن في مكاييل الحقل (لأنها ربماكانت عظيمة كما في أيامنا)

ولاترغبن عن مكاييل الخزانة (لأنهاكانت بالطبع أنقص من مكاييل الحقل) فقوة الجرن أكبر

من القسم (اليمين الرسمية للحكومة) بالعرش العظيم .

وهذه المقارنة المبهمة الواردة في السطر الأخير وضرب مثل، يحتمل أنه يعنى به أن قوة المخزن الملكي الضارة المفسدة أكبر في تأثيرها من « يمين الإخلاص الرسمي للعرش ، الذي يقسم به الموظف عند تسلمه عمله . والاستقامة فى الأعمال الرسمية . لا بد من مراعاتها بالدقة فى الصغيرة والكبيرة ، ولذلك يبدأ الحكيم فصلا آخر بالكلمات الآتية :

« لا تطمعن في مناع رجل حقير » ،

مم يعقبه مباشرة بابتداء آخر قال فيه:

« لا تطمعن في متاع رجل عظيم . .

ثم نجد كذلك أن , أمينمو بى ، كان يهتم كثيرا بمحافظة ابنه على الاستقامة التي لا تراخى فيها ولا هوادة فى المعاملات الشرعية وفى التقاضى أمام المحكمة، حث يقول:

" لا تجبرن رجلا على الذهاب أمام المحكمة

لأنك لن تجعل العدالة تلتوى

فلا يتجه وجهك نحو الملابس البراقة (يعنى التي يلبسها الخصم)

بينها تطرد من تكون ملابسه قدرة بالية .

لا تأخذن العطايا من القوى

ولا تضطهدن الضعيف من أجله،

فالعدالة هية عظيمة من الله مهما من يشاء .

فقوة من كان مثله (أى مثل الله)

تنجى المكتئب من ضربانه (يعني ضربات القاضي).

أعط المتاع أصحابه

وبذلك تبغى لنفسك الحياة .

ومع أن قلبك يعمر فى بيتهم (يعنى فى بيت الملاك الذين تحابيهم)

يكون جسمك مصيره لمقصلة الجلاد ».

وإن الكلام الرزين والأخلاق السلسة تعتبران من الأمور الهامة في نظر حكيمنا ، كما أن التهديدات الصاخبة الجوفاء لا يقوم لها وزن أمام تدابير الله ضد. أعدائنا :

« لا تقولن : لقد و جدت رئيسا قو يا

والآن يمكنني أن أهاجم رجلا في مدينتك.

ولا تقولن: لقد وجدت حامياً

والآن يمكنني أن أهاجم الرجل الممقوت .

فالحقيقة أنك لا تعلم تدبير الله

وأنك لا تدرك الغدّ

ضع نفسك بين يدى الله

إلى أن يهزمهم صمتك (أى إلى أن يهزم الله أعداءك بسبب صمتك). "

تم يستمر «أمينموبى» فى نصائحه حاضا ابنه على النباعد عن الصراحة الخارجة عن الحد، بل إنه يعود كثيراً فيحذره من هذه العادة الخطرة فى كل مقاله ، فن ذلك قوله:

« إذا سمعت خيرا أو شرا

فاتركه وراءك غير مسموع.

وضع الكلام الحسن على لسانك

وأما السكلام السيُّ فابقه مخفيا في جو فك . .

وبنفس هذه الفكرة التي تجول فى ذهن ذلك الحكيم نراه ينصح ابنه بألا يسترق السمع فى البيو ت العظيمة ، وأخذ يحثه بهذه المناسبة على مراعاة التواضع فى مسلكه إذا كان على مائدة رجل عظيم . وقد قدمت مثل هذه النصيحة وببعض تعبيراتها قبل مقال «أمينمو بى» بنحو ثمانية عشر قرنا ، وهى تلك الحكم التي ألقاها « بتاح حتب » على ابنه فى عهد الأسرة الخامسة. ولأنها حكمة بالغة فى السلوك الواجب نحو الرؤساء ، ظل المصريون القدما. يحترمونها مدة تنوف على ألنى سنة ، فقد و جدت سبيلها إلى الحياة العبرانية ، وهى تعد من غير شك أقدم قطعة جاءت فى التوراة .

ونجده كذلك يحذر ابنه الشاب من المراءاة والمعاملة ذات الوجهين فى كل . علاقاته مع العظياء، حيث يقول:

لا تطلّقن قلبك من لسانك فإنك بذلك تحظى بنجاح كل مقاصدك ، وسينجم عن ذلك أنك تكون رجلا ذا وزن أمام الجهور ومقبولا بين يدى الله ،

لآن الله يمقت الرجل صاحب القول الـكاذب

وأكبر ما يمقته الرجل ذو القلبين 🗥 » .

وإذا كانت مصاحبة العظيم تغرى بالنفاق ، فإن مصاحبة المنسرع والأحمق خطرة أيضا ، لأنها تؤدى بالإنسان إلى فحش القول وهجره :

« لا تؤاخين الرجل الأحمق

ولا تلحفن عليه في المحادثة . .

والمقال على هذه الوتيرة مفعم بالتحذير من الرجل المشاغب والرجل المستهتر . وأما الأخلاق الفاضلة فهى أخلاق الرجل المتحلى بالرقة والتواضع وضبط النفس ، على عكس تلك الأخلاق الذميمة التى تعرف عن الرجل الأحمق . وقد وضع « أمينمو بى » فى بداية نصائحه مقابلة بين الأخلاق وأضدادها الذميمة بهيئة شجر تين ، إحداهما شجرة برية نشأت فى الغابة ولا يتعهدها أحد ، والأخرى تزدان بها الحديقة . وفى ذلك يقول :

« إن الرجل الأحمق ، الذي يخدم في المعبد

مثله كمثل شجرة نامية في الغالة .

فني لحظة يفقد أغصانه

ويكون مصيره إلى مرفأ الآخشاب

وينقل بعيدا عن مكانه

والنار مثواه . »

وأما الرجل الحازم حقا 1 الذى يضع نفسه جانبا (حيث يجب) فثله كمثل شجرة ماسقة في الحديقة

⁽١) وجاء ذم المراءاة فى القرآن المكريم فى مناسبات منها: «فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون» (آية ٦١٣ من سورة الماعون (١٠٧)). وفى الحديث أيضاكثير، ومنه: «ملعون ذو الوجهين».

يفلح وتتضاعف ثمرته ويثمر فى حضرة سيده فظله وارف وثمرته أكلها حلو وبجد فى الحديقة مصيره...

وينهى « أمينموبى » عن الاشتباك مع السفيه ، فيقول : « لا تشتبكن فى نزاع مع سفيه اللسان . »

و يحض الشاب على عدم الدخول فى علاقة ما مع أمثال أولئك الرجال . والكلمة التى عبر بها ذلك الحكيم عن الرجل الطائش والمشاغب والاحمق هى النعت «حار»، وفيها مايوضح المعنى وزيادة . وهذه الكلمة المصرية القديمة معادلة للكلمة العبرية التى ترجمت بها فى كبتاب الأمثال من الكتاب المقدس وهى « المستخف » ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى نجد أن التسمية التى استعملها ذلك الحكيم أيضاً للدلالة على « المتواضع » و « الضابط لنفسه » هى « الصامت حقا » الذى يعامل الجميع بلطف وتواضع . وهذا المعنى يتصل اتصالا وثيقا بالعابد المنبتل الصامت الذى تحده تقدم ذكره فيما مضى ، وهو يماثل على ما يظهر « الرجل الحازم » الذى نجده في الأمثال العبرية . ومثل ذلك الرجل يعامل الأرملة التى يجدها تتلقط فضلات الحقل برفق وأناة ، كما ذكر « أمينموبي » ابنه بأن :

« الله يحب الذي يدخل السرور على الرجل المتواضع

أكثر من الذي يحترم الرجل العظيم» .

وهذه الروح الرقيقة العطوفة هي التي تنصح بأن الفقير والمحزون لا يعاملان بالقسوة ، كما يقول الحمكيم :

« لانضحکن من رجل أعمى ولا تهزأن بقزم
 ولا تؤذين زمنا (يعنى مقعدا)
 ولا تستهزئن برجل يكون فى يد الله (يعنى بين يدى الله)
 ولا تقسون عليه عندما يبغى (يعنى يجور أو يذنب) .

وأما البشر فهم من طين وقش (يعنى اللبن المصنوع من الطين مخلوطا بالنبن) والله هو بانهم .

> فهو يهدم ويبنى ثانية كل يوم فخفض ألفاكما يشاء

> > وألفا يجعلهم مشرفين

ما داموا في الحياة الدنيا .

وأنه لسعيد من يصل إلى الغرب (يعني الدار الآخرة)

وهو ناج في يد ألله ، .

وإن عدم ثبات أحوال الإنسان ، وتوقفها على مشيئة الله تعالى ، قد حدا « بأمينمو بى » إلى تحذير ابنه من الاعتزاز بالثروة الزائلة : حيث قال له :

« لا تدعن قلبك يحرى وراء الثروة

ولا تجهدن نفسك في طلب المزيد

عندما تُكُون قد حصلت (بالفعل) على طاجنك .

وإذا جاءت إليك الثروة من طريق السرقة

فإنها لا تمكث عندك زمن الليل،

فينما ينبلج الصباح فإنها لم تكن في بيتك بعد

لأنها تكون قد صنعت لنفسها أجنحة مثل الأوز وصعدت إلى السماء

أعبد « آتوم » إله الشمس عندما يشرق

وقلَ امنحني سلامة وصحة ،

وسيمنحك ماتحتاجه مدى الحياة

و تأمن من الخوف » ·

والواقع أن هذه النتيجة الحكيمة التي يقول فيها « أمينمو بى » إن « الثروة (المغصوبة) تصنع لنفسها أجنحة » وتطير بعيدا ، وصورها لنا في تلك الصورة البارزة عن الئروة الآرضية التي لاتدوم وتكون عرضة للزوال والفناء ، نعرف لها مثيلا في صورة أخرى انحدرت إلينا عن طريق محرر « كتاب الأمثال » العبرى وانتشرت في حياة العالم الغربي بعد ظهورها بين سكان مصر بثلاثة آلاف سنة .

ويرى حكيمنا أن الاعتباد على مثل تلك الموارد الدنيوية الزائلة لايجدى نفعا، وأن الضبان الوحيد لذلك هو الله، فيجب أن نعبده، وبذلك « تنجو من الخوف ». وعلى هذا فإن راحة البال والتخلص من الخوف يمكن الحصول عليهما بالاعتباد على الله وحده فقط.

وعلى ذلك نجد هـذا الحكيم المصرى القديم يقول في أنبل فقوة من نصائحه لابنه:

« لا تنم فى الليل وأنت خائف من الغد ،

لا ننا لا ندرى عندما ينبثق الفجر ماذا يكون عليه الحال في الغد؟

فالإنسان لايعلم ماسيكون عليه الغد.

الله في كماله

والإنسان في عجزه

والكايات التي يتكلمها الناس تختلف في اتجاهها

على حين أن أعمال الله مختلفة الإنجاه(١).

لا تقولن: لست أحمل خطيثة

ولا تجهدن نفسك فى إثارة النزاع.

أما الخطيئة فأمرها عندالله

وهو الذي يختمها بأصعه .

وليس في مد الله إنسان كامل

ولا يقف العجز حائلا أمامه

فإذ أجهد الإنسان نفسه ليصل إلى الكمال

فإنه في لحظة يهدمه (بنفسه).

كن رزينا في عقلك . و ثبت قلبك

ولا تجعلن من لسانك سكانا،

⁽١) ومما يجرى مجرى الأمثال أو هو من الأقوال الشائعة: «أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد » ، وجاء هذا برواية أخرى: « بينما يقطع الجريد يفعل الله ما يريد » ،

فإن كان لسان الإنسان كسكان السفينة فإن رب الجميع هو ربانها . .

فهل كان هناك عندما نصح السيد المسيح (عليه السلام) تلاميذه بقوله:

« لا تفكروا فى الغد » أى صدى لتلك الحكمة المصرية القديمة فى تلك الكلمات ؟؟ إنه من المحتمل ألا يكون فى مقدورنا قط الإجابة على هذا السؤال، غير أن حكم «أمينموب» قد قدمت لنا مساعدة جوهرية فى الكشف عن مدى انتشار التعاليم الخلقية المصرية القديمة فيما وراء شواطى النيل وبخاصة فى فلسطين . على أن أعظم الأجزاء انتشارا من حكم «أمينموبي» قد تجاوزت فلسطين إلى مدى شاسع ولا تزال مستعملة بين ظهرانينا .

وقد أوضح الاستاذ « زيته » أن السطرين الغامضين فى ظاهرهما ، وهما الخاصان باختلاف اتجاه كلمات الناس وأعمال الله ، لا يمكن أن يكون المقصود منهما سوى الفرق الشاسع بين كلمات الناس (أى مقاصدهم) وما يتلوها من أفعال الله (سبحانه وتعالى) ، وعلى ذلك تكون الترجمة ببعض النصرف هكذا: «الكلمات التي يتكلمها الناس تختلف فى اتجاهها وأعمال الله تختلف فى اتجاهها ، وتكون المقابلة هنا على البديهة هى بين «كلمات الناس » و «أعمال الإله » . وعدما يذكر أنهما « يختلفان » فإن المعنى المقصود يكون بداهة «أنهما يختلفان عن بعضهما » ، وعلى ذلك يكون لدينا هنا المئل العالمي فى أقدم صورة له : « الإنسان يريد والله يفعل ما يريد » .

وإن مثل ذلك الانتشار الواسع للرأى المصرى القديم عن علاقة الله بالإنسان يفتح لنا ذلك الموضوع الواسع، وهو تأثير النطور الحلق المصرى القديم لا فى تاريخ المدنية الغربية أيضا. القديم لا فى تاريخ المدنية الغربية أيضا. ولما كان بحث ذلك الموضوع بجب أن تتألف منه خاتمة هذا الكتاب، فيجب قبل أن نتناوله بالبحث أن نلق نظرة قصيرة على المراحل الاخيرة من ذلك التفكير الحلق المصرى القديم قبل أن يحشر سكان وادى النيل إلى معمعة عاهليات البحر الابيض المتوسط آلاسيوية.

ذلك بأنه بعد سقوط العاهلية المصرية في القرن الثاني عشر قبل المسيح كانت قوى حياة البلاد الداخلية والحارجية قد اضمحلت وفقدت كل تأثير لها في إذكاء نار التفكير الحلق مرة أخرى حتى يقوم بأى نشاط حيوى يسمو به إلى أكثر بما وصل إليه ، بل قد حل مكان ذلك ركود وجمود قاتلان لا يأبهان لشيء من عوامل البمو والنشاط ، وكأنما اعترى حياة تلك الأمة التي كانت بمتلئة نشاطا وحيوية ذهول خامد . ولذلك نجد أن التطور الذي أعقب ذلك الأوان كان مجرد ظو اهر رسمية آلية لا تتناول أي تقدم في التفكير والإنتاج العقلي . وكانت قوة الكهانة بصفتها ذات نفوذ سياسي قد جعلت الملك «تحتمس الثالث » في القرن الخامس عشر ق . م . ينصب رئيس كهنة «آمون » رئيسا لجميع كهنة مصر في ذلك الزمان ، أي أنه صار الرئيس الديني للدولة .

ومع أن هذه «البابوية الأمونية » قد قاست عنفا شديدا على يد « إخناتون » فإنها قد استردت فيها بعد كل مافقدته ، بل زادت عليه كثيرا حتى أن « رعمسيس الثانى ، سمح لوحى « آمون » أن يرشده فى تعيين الكاهن الأعظم للإله . ولذلك كان من السهل فى تلك الأحوال على الكاهن الأعظم لآمون أن يجعل منصه هذا وراثيا .

ولما لم يكن فى مقدور البلاد أن تقاوم تلك القوة السياسية الكهنية ، التى كانت بمثابة دولة داخل الدولة ، وكانت البلاد دائما فريسة لتعديها الاقتصادى ، فإن مصر هوت بذلك إلى الانحطاط بسرعة ، إلى أن صارت حكومة كهانة فقط ، حتى أنه حوالى سنة ١١٠٠ ق.م. سلم الفرعون صولجانه إلى رئيس القوة الحاكمة التي صارت وقتئذ هي حكومة المعبد .

وفى خلال النطور الطويل، الذى كان من جرائه استيلاء طائفة الكهنة على إدارة شئون العرش، لبست المظاهر الحارجية والرسمية للندين من حلل المخامة والآبهة مالم تصل إليه من قبل أى قوة دينية فى تاريخ التدين للقديم. ولذلك فإن معابد ذلك العصر ستبقى دائما من أروع الآثار الباقية من العالم القديم.

والواقع أن تلك القصور ، الإلهية ، الضخمة قدرفعت من قيمة الشعائر الدينية الظاهرية إلى مستوى لم تتمتع به من قبل ، لا فى فخامة مبانيها فحسب بل فى معداتها العظيمة الرائعة أيضا .

وقدصار آنئذ «آمونطيبة » وهو متوجبتاج من العظمة لم يسمع بمثله فى بذخ الشرق قط ، فى أيدى كهنته الماكرين ، مجرد مصدر للقرارات السياسية والإدارية ، مل إن الأحكام القضائية المعتادة كان يصدر الفصل فيها بإيحاء من الإله ، كما كان غير ذلك من أمور الوصايا والهبات خاضعا كذلك لما يوحى به الإله ، فكأن الدعاء القديم الذى كان يبتهل به المظلوم إلى الإله «آمون» أن يستحيل بنفسه إلى وزير الرجل الفقير قد نفذ تنفيذا حرفيا بحتا ، وأفضى إلى نتائج لم تكن فى حسبان الذي قامو ابتأليف هذا الدعاء .

أما الدين بصفته قوة شخصية خلقية فقد بقى فى قلوب الفقراء وحثالة الشعب من المتدينين فقط، من أمثال أو اثلث الذين عثرنا على أدعيتهم الناطقة بورع أصحابها وإيمانهم الشخصى على أحقر اللوحات المقدمة للنذر فى جبانة «طيبة» وهذه الألواح المنذورة ، مجتمعة مع نصيحة «آبى، وحكم «أمينموبى» قد كشفت لناعن روح عصر ساد فيه الورع الشخصى وكان خاتمة تطور الآراء الخلقية عند قدماء المصريين، وكان ذلك بعد مرور بضعة أجيال من ألف السنة الأخيرة ق.م، وفى نفس الوقت الذى انهارت فيه المملكة العبرانية المتحدة، التي لم يقم بالحكم فيها غير ثلاثة ملوك ثم انقسمت إلى مماكمتين. ومن المهم جداً أن التطور الخلق عند قدماء المصريين كسائر عناصر ثقافتهم قد وقف وانتهى أمره تقريبا قبل بداية الحياة القومية العبرانية ، بعد أن سار فى تدرجه نحو خمسة وعشرين قرنا .

وعند ما انتقل ذلك الانحطاط المصرى القديم الذى دام نحوا من خمسمائة سنة إلى دور إصلاح ونهضة بعد سنة ٧٠٠ ق . مكان عصر الابتكار والتجديد في النمو الباطني للتدين والاخلاق قد مضى وقضى عليه قضاء أبديا .

فبدلا من أن نجد نشاطا فياضا يبدو من تلقاء نفسه فى شكل آراء ومظاهر جديدة ، كما كان الحال فى بداية كل تلك العصور العظيمة التى مرت بها البلاد ،

فإننا نجد أن مصر قد رجعت إلى الماضي للأخذ بما كان لها فيه من مجد تالد، وحاولت عن رغبة أن تصلح الحكومة وتعيدها إلى ماكانت عليه حال المملكة المنقرضة في تلك الايام الخالية قبل أن تحدث عصور الامبراطورية المصرية تلك التغييرات والتجديدات . إذ كانت مصر القديمة في نظر هؤ لاء القوم كما بدت لهم من خلال ضباب ألني سنة مضت ـــ صورة أسبغت عليها نعمة الكمال المثالي ألذي سادها من قبل في عهد حكم الآلهة . ولا شك أن جماعة الرجوع إلى القديم، عند محاولتهم بعث الديانة والمجتمع والحكومة من جديد على الأسس القديمة ، كان لابد أن يعترضهم على الدوام ذلك التقلب الذي لا مناص من حدوثه ــ سواء أشعروا به أم لم يشعروا ــ بسبب أحوال الشعب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. فإنه لم يكن في الإمكان محو ألني السنة التي انقضت منذ عصر الأهرام، ولذلك كانت الأحوال الواقعية الجديدة تبدو صارخة من خلال ذلك الستر القديم الزائف الذي أحيطت به الشئون الحاضرة. ولما عثر على حل تلك المعضلة ، كان العلاج مما ثلا لما حاوله العبر انيون فيما بعد عندما وقعوا في مثل هذا المأزق، فنسب القوم للعناصر الجديدة كذلك ماضيا مجيدا سحيقا، كما نسبت كل بحموعة التشريعات العبرية إلى سيدنا « موسى » . (عليه السلام) وبذلك أنقذوا هذا الإحياء النظرى .

فكتابات الأهرام الجنازية القديمة ، وهي ما نسميه « متون الأهرام » ، بعثت من جديد ، وبالرغم من أنها لم تكن في الغالب مفهومة كانت تنقش فوق التوابيت الحجرية الضخمة . وكذا ، كتاب الموتى » الذي كان لا يزال يحدث في تأليفه بعض التغيير ، قد ظهرت فيه آثار واضحة تنم على هذه الحركة . وفي مزارات المقابر أيضا ذات الصور الجديدة نجد المناظر السارة المأخوذة من حياة الشعب في المستنقعات والمراعى وفي المعامل ومرافئ بناء السفن ، وكلها صورة نقلت بدقة مدهشة عن المناظر المنقوشة في مقابر عصر الأهرام التي بنيت على هيئة المصاطب . وقد وصلت الدقة في نقلها لدرجة أن الباحث لأول بنيت على هيئة المصاطب . وقد وصلت الدقة في نقلها لدرجة أن الباحث لأول وهلة كثيرا مايشك في تاريخ الأثر الذي نقشت فوقه . والواقع أن شخصا من

رجال «طببة » يدعى «آبا » أرسل فنانيه الرسامين إلى أحد القبور التي من عهد الدولة القديمة بالقرب من «أسيوط» لينقلوا عنه النقوش التي يريدها في القبر الذي كان يعده لنفسه في «طببة »، وكان كل السبب في ذلك أن صاحب القبر القديم كان يسمى هو الآخر «آبا» أيضا

كذلك رأينا فيما تقدم في الفصل الثالث من هذا الكتاب أن « المسرحية المنفية » قد وصلت إلينا لأن الفرعون الأثيو بي الذي وجد في القرن الثامن ق . م . أخذته روح التقوى فأمر بإعادة تدوين كاتاب قديم ، كان مكتو با على بردية من عهد الأسر القديمة ، باعتبار « أنه من صنع الأجداد وأنه قد أكله الدود»، فنقش على حجر من البازلت الأسود يو جد الآن بالمتحف البريطاني . وهكذا جرى البحث وقتئذ بشغف عن الكتابات واللفائف القديمة المقدسة التي بقيت من عهد تلك الأيام الخالية ، حيثكانت تجمع وفوقها تراب تلك العصور الماضية ثم تفرز وترتب. لقد صار الماضي القديم صاحب السيادة العليا. ولا شك أن الـكاهن الذي كان يحبذ ذلك الماضي العتيق كان في الحقيقة يعيش في عالم من الخيالات ، حيث لم يكن لكل ذلك أي معنى حيوى لأهل العصر الذي يعيش فيه . وبمثل ذلك كانت نفس الروح الرجعية في « بابل » هي السائدة ، وقت أن كانت المبراطورية دنبو خاد نزر ، (بحننصر) هي الأخرى تقوم محركة بعث جديد . كما سادت نفس تلك الفكرة أيضا فيما بعد بين العبر انيين العائدين من المننى . فكأن العالم قد أخذ يطعن في السن ، وكان القوم يتحدثون بولوع وشغف عن أيام شبابه الغابر. على أن هذا المنهاج الذي كان يجرى مجراه للاحتفاظ بالقديم هوى بذلك الندين العتيد عند المصريين القدماء من حضيض. إلى حضيض أبعد منه غورا نحو الانحلال والجود، حتى آل أمره إلى ما وجده عليه المؤرخ الإغريق « هردوت » من مجرد شعائر ظاهرية جامدة وتقاليد كهنوتية لاحصر لها ،كانت تؤدى بحذق ودقة ، اشتهر المصريون بسبيهما بأنهم أكثر شعوب العالم تمسكا بالدين . غير أن تلك الشعائر لم تعد بعد تعبر عن حياة باطنية نامية متطورة ، كما كانت عليه الحال في تلك الأيام الخالية ، وقبل أن تخمد الحيوية المبتكرة عند الجنس المصري.

هذا وقد كنا نتبع فيما تقدم على وجه عام نمو تلك الأفكار الخلقية عند ذلك الشعب المصرى العظيم ، الذى ظل يتطور خلال مدة تنوف على ثلاثة آلاف سنة تتنازعه فيها القوى الباطنة فى ذلك الإنسان القديم مع العوامل الحيطة، حتى هيأت تصوره للقوى الإلهية وتكييفه لمقاييس السلوك البشرى . فالإلهية كاكان يدركها الإنسان فى كل مكان من العالم الشرقى القديم ، هى من نتائج الخبرة البشرية ، والآراء القديمة عن الإله ليست إلا تعبيرا عن أحسن ما أحس به الإنسان وتخيله ممثلا فى أرقى كائن تصوره . والواقع على ما أظن أن ما قصده « روبرت ج . إنجرسول » عندما قال فى سخر ية لاذعة : « إن أسمى عمل قام به الإنسان هو صنعه لإله أمين » هو قول — بالرغم من كل ذلك — عمل قام به الإنسان هو صنعه لإله أمين » هو قول — بالرغم من كل ذلك — صادق حتى الأعماق . فقد رأينا كيف وصل المصريون القدماء فى تطوراتهم البطيئة إلى « إيجادهم الإله الأمين » ، ونحن (١) بدورنا قد حصلنا على إلهنا بالوراثة عن العبرانيين .

وقد وصلنا الآن إلى مركز يمكننا من الإجابة عن كُنه تلك الوراثة للأفكار الخلقية والدينية ، أهى من صنع وإنتاج المدنية العبرانية فقط؟ أم أن التاريخ يكشف لنا أن إرثنا الخلقي قد تكون إلى درجة عظيمة في عصر أقدم بكثير من العهد العبراني ، وأنه قد انحدر إلينا على شكل إنتاج تألف من طائفة من المدنيات العظيمة ، وعلى ذلك يعد أعلى وأسمى تعبير انتجته الحياة الإنسانية القديمة برمتها ، أى أنه يعد أسمى رسالة قام بتقديمها إلينا والدنا « الإنسان القديم » .

⁽١) يريد بقوله « نحن » الغرييين .

الفصالاتابع عنزر

مصادر إرثنا الخلقي

لقد فحصنا بشيء من الإيجاز ـ في الفصول السابقة ـ أهم المصادر الأصلية التي تكشف لنا عن ظهور المبادىء الخلقية وتطورها في أفريقية الشمالية الشرقية منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد إلى أن انطوت مصر في غمار عاهليات البحر الأبيض المتوسط الأسيوية في القرن السادس ق . م . وعلى ذلك قد استغرق النطور الخلق الذي كشفت لنا عنه هذه الوثائق الأصلية مدة تقرب من ثلاثة آلاف سنة . وكان غربي آسيا في خلال تلك المدة الطويلة كذلك يتمخض بدوره هو الآخر عن طائفة من المدنيات العظيمة ، كانت لها أهمية أساسية في مستقبل تقدم الجنس البشرى . وأقدم تلك المدنيات هي المدنية البابلية ، التي يمكننا الآن أن نتتبع نشأتها خلال بضعة القرون الأولى من الألف السنة الرابعة ق . م . ولقد أحرزت الحضارة البابلية بعض التقدم السامى في عالم الفن في خلال ألف السنة الثالثة ق . م . فإن استعمالها المبدع للصور الحيوانية ـ المتباينة الأشكال في تراكيب متزنة تكاد تنطق بما تمثله من مناظر القوة والخركة، قد أثر في الفن الزخرفي في جميع أدوار العالم التاريخية التالية لذلك . وقدكان هذا الفن متأثرًا تأثرًا عميقًا بالأساطير العتيقة التي نشأت في غربي آسيا ، ولا سيما البابلية منها ، بما عبر عنه الآدب المبكر أبلغ تعبير وظهرت له حيوية مدهشة ، حتى صارت هذه الأساطير شائعة الانتشار إلى ما ورا. تخوم «بابل» بمسافة بعيدة ، وكانت ذخراً كبيرا لموضوعات الفن الزخرفي المبكر في غربي آسياً . على هذا النحو شقت أسطورة الطوفان البابلي طريقها متجهة غربا شطر البحر الابيض المتوسط حتى انتشرت في سورية وفلسطين، إلى أن فتحت في النهاية طريقًا لها إلى الادب العبراني ، ومن ثم وصلت إلينا عن طريق

« العهد القديم » . وتوجد في جميع الأدب العبراني إشارات لتلك الأساطير ، وبخاصة في الأناشيد الدينية التي نسميها « المزامير » .

على أننا إذا استثنينا اهتهام الحضارة البابلية الأولى بالفن ، نجد أن تلك الحضارة بقيت مادية محضة لدرجة مدهشة ، وأنه إنماكان بعد ظهور المملكة الكلدانية (بابل الجديدة) في القرن السادس ق.م. ، وما تبع ظهورها من سيادة الفرس بعد عهد «كورش» ، أن كشف لنا البابليون عن نشاط ذهني بارز ، حيث وضع فلكيوهم العظهاء الأسس التي شاد عليها علماء اليونان فيها بعد علم الفلك .

وكان البابليون - بطبعهم - شعبا تجاريا على الأخص ، وجل اهتمامه منصر فا إلى المعاملات و تنظيم شئونها حسب القانون . وقد قال أحد علما الإنجليز البارزين في التاريخ الآشوري (١) عن ذلك الشعب : « لم يوجد شعب آخر كان منصر فا على الدوام إلى طلب المال والحصول عليه ومنهمكا بكلياته في البحث وراء النجاح في هذه الحياة (أكثر من البابليين)» . فقد كانت قافلاتهم وقافلات « الآشوريين» تتوغل غربا في آسية الصغرى وسورية فلسطين من أزمان سحيقة ترجع إلى الآلف الثالث ق . م . وكانت وثائق المعاملات المكتوبة بالخط المسماري متداولة الاستعمال قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م . في آسية الصغرى ، كما كان استعمال تلك الكتابة المسمارية في فلسطين أمرا مألو فا ذائعا عند حلول القرن الخامس عشر ق . م وقد سرت بجانب هذه المعاملات البابلية التقاليد والقوانين التجارية التي كان التجار البابليون يسيرون على مقتضاها . وبعض هذه القوانين نفسها - مما انحدر إلينا عن طريق و قانون مقتضاها . وبعض هذه القوانين نفسها - مما انحدر إلينا عن طريق و قانون مقر وسلت عن طريق « العهد القديم» إلى الحضارة الغربية ، حيث يقابل للمرة موصلت عن طريق « العهد القديم» إلى الحضارة الغربية ، حيث يقابل للمرة الثانية ، فوق مكتب دراسات المستشرق الحديث ، القانون العبراني قوانين الثانية ، فوق مكتب دراسات المستشرق الحديث ، القانون العبراني قوانين

Early History of Assyria. P. 338 by Sidney Smith, : (1) Keeper of the Department of Egyptian & Assyrian antiquities in the British Musivn, Vol. I, New York 1928.

« حمورابي » البابلية . ولا شك فى أن مثل نظام عطلة يوم السبت قد دب إلى الحياة الفلسطينية عن طريق مثل هذه الاتصالات العملية التي كانت تستند عليها المعاملات التجارية ، فإنه سواء أراد رجل الأعمال الغربي الذي يعيش اليوم في الشرق الأدنى أم لم يرد ، فإنه يتحتم عليه مراعاة السير في المعاملات التجارية حسب التقويم المتبع ، فيما يختص بالايام المقدسة التي لا يجرى فيها بيع ولا شراء . ولا بد أن مثل هذه الحال هي ما كان يسير عليه التجار الفلسطينيون حينها كانوا يتعاملون مع التجار البابليين .

وعلى ذلك نجد أن الفلسطينيين لم يأخذوا عن البابليين شيئا يذكر من معتقداتهم وآرائهم الدينية سوى ما يتعلق بالأوضاع الظاهرية والشعائر المرعية ما العقائد الجوهرية المكونة لأركان الدين فلم يكن الأخذ عنها بمثل هذه السهولة . وقد تصور البابليون الأوائل آلهتهم بمثلة فى القوى الطبيعية ، وهم فى ذلك مثل المصريين القدماء ، فكانت أقدم معبوداتهم من آلهة الطبيعة . ولذلك نجد فى أنشودة عظيمة كانت لا بد مستعملة فى عبادة « سن ، إله القمر فى معبده بمدينة «أور » — أن مؤلفها الكاهن كشف فيها عن أصل عالم الطبيعة حيث رأى عفوا إله القمر يقوم بعمله ، نم يذكر أن عمل ذلك الإله ينتقل فى الوقت نفسه إلى دائرة الشئون البشرية . وهو فى ذلك لم يسند إليه خلق كل الأشياء المادية فحسب ، بل عزا إليه أيضا تأسيس كل النظم البشرية خلق كل الأشياء المادية فحسب ، بل عزا إليه أيضا تأسيس كل النظم البشرية الشعب الخلقية ، حيث يقول :

« إن كلمتك يتو لد منها الصدق والعدالة

وعلى ذلك يتكلم الشعب الصدق. .

وهذه الأنشودة الرائعة ، بما تحويه من صورة سامية تنطق بسؤدد إله القمر ، بما فى ذلك من إنشائه الحياة الطاهرة وصيانتها ، تدل على أنه كانت توجد هناك عقول مفكرة بين الكهنة الدين كانوا يقومون بالواجبات الدينية الرسمية فى « بابل » القديمة . على أنه من المؤكد أن الكاهن الذى ألف هذه الأنشودة لم يخصص منا غير جزء يسير جدا لسلطان القمر من الناحية الخلقية . منقد كان

أكثر اهتمامه موجها لما لذلك الإله من السلطان الذى لا حدله على موارد البلاد المادية ، ولذلك كان معظم الأنشودة منصرفا إلى تلك الناحية من الصورة التى صورها لنا . فمن بين النمانية والاربعين سطرا التى تشملها تلك الأنشودة لا يوجد إلا نحو سطرين — بل سطر واحد على وجه التأكيد — خصصه ذلك المؤلف الكاهن « للصدق والعدالة » . والأنشودة هى كما يأتى بعد حذف بعض سطورها :

رأيها الآب الرحيم الشفيق الذى فى قبضته (١) حياة الأرض قاطبة اليالب إن ألوهيتك كالسياء العالية : أيها الرب إن ألوهيتك كالسياء العالية : غهر عريض مفعم بالأثمار ، هو الذى يخلق الأرض ويؤسس المعابد ويسمّى أسماءها ويسمّى أسماءها والوالد الذى يلد الآلهة والناس ويجعل المساكن تقام وينشىء القرابين وهو الذى يدعو الملكمية ويعطى الصولجان ويحدد ما هو مقدر للإنسان فى الأيام البعيدة وهو الأمير ذو البطش لا يرى ما فى قلبه الفسيح أى إله وهو الأمير ذو البطش لا يرى ما فى قلبه الفسيح أى إله

والرب الذي يقرر حكم السماء والأرض والذي لا مبدل لأمره والقابض على النار والماء والمرشد للمخلوقات الاحياء ، فمن ذلك الإله الذي يعادلك؟ من المعظم في السماء؟ إنك أنت وحدك المعظم

⁽١) يلاحظ أن عدم انسجام ضائر الأفعال في القصيدة موجود في الأصل.

ومن المعظم فوق الأرض؟ إنك أنت وحدك المعظم

وحينها يتردد صدى كلمتك فى السماء فإن آلهة العالم العلوى يسجدون لك، وحينها يتردد صدى كلمتك فوق الارض فإن آلهة العالم الدنيوى يقبلون الارض لك،

وحينها ترتفع كلمتك إلى عليين كالهواء فإنها تجعل المراعى تنمو وعيون الماء تغزر

وحينها تنزل كلمتك إلى الأرض فإن الكلاً يخرج شطأه وكلمتك تصيّر الحظائر بما فيها من قطعان سمينة

وتنشر المخلوقات الحية .

وكلمتك يتولد منها الصدق والعدالة وعلى ذلك يتكلم الناس الصدق وكلمتك السهاء العلا، والأرض المستورة التي لا يخترق حجبها نظر ومن يَفهم كلمتك؟ ومن يضارعها ؟

أشمل بنظرك بيتك ا انظر إلى مدينتك ا أنظر إلى وأور ، (١) .

فنجد في هذه الأنشودة طموحا دينيا في مستوى عالى ، لابد أنه كان قد أحدث تأثيرا واسع النطاق في آسية الغربية . والواقع أن هذه الأنشودة تذكرنا بالمزامير العبرانية ، مع أنها ترجع إلى ما قبل ظهور الدين العبراني برمن بعيد . وعلى أية حال فإن مهمتنا الحاصة هنا لاشأن لها بالدين على وجه عام ، بل تتعلق خاصة بالآراء والمبادى الحلقية . وإذن ما الذي كانت تشتمل عليه الحياة البابلية من المبادى الحلقية ؟ وما الأفكار الخلقية التي تركها لنا البابليون؟ والواقع أن فن النحت عنده لا يمدنا بأى برهان محسوس على براعتهم والواقع أن فن النحت عنده لا يمدنا بأى برهان محسوس على براعتهم في رسم الصور الإنسانية ، وهو دليل على قلة اهتمامهم بالتعبير عن أخلاق الإنسان عن طريق الرسم أو بتصوير الملامح البشرية ، ذلك بأنهم لم يهتموا بالتفكير في الفروق بين مختلف أنواع الأخلاق كما تبرز لنا عندما نقابل بين بالتفكير في الفروق بين مختلف أنواع الأخلاق كما تبرز لنا عندما نقابل بين

Hugo Gressman, altorientalische Texte zum Alten: نقلاعن (۱)
Testament P. P2 41 — 242 (2rd enl. Berlin, 1926).

حياة الطيبين وحياة الأشرار. والدليل الذي يلفت النظر لتلك الحالة العقلية هو عدم معرفتهم شيئا عن المحاكمة في عالم الآخرة فيما بعد الموت ، فكل الناس عندهم، الطيب والخبيث ، كان مرجعهم إلى « شول » الذي هو نفس المثوى السفلي المظلم للجميع .

و بالرغم من ذلك فإن شعب بابل قد تقدم فى معتقداته فصار يؤمن بأن ، شماش » إله الشمس ، الذى يمثل عندهم إله العدل — كما كانت الشمس تمثل إله العدالة عند المصريين القدماء — كان يبغض الساوك الذى لا ينطوى على المودة . وهذا المذهب قد عبر عنه فى أنشودة « لشماش » جاء فيها :

« ما شماش أنت الذي لا يفلت من شباكك شرير

ولا يفر من فخك خاطى. .

أما من يحنث في يمينه فإنك تعجل له العقاب،

ومن لا يحترم كل مقدس فلن يستطيع الفرارمنك .

شباكك العريضة مطروحة لمن يقترف الشر

ولمن رفع بصره إلى زوجة رفيقه

إذا أشهرت سلاحك عليه فلا منجى له

فإذا وقف أمام المحكمة فليس في استطاعة أحد مساعدته ولوكان والده .

وليس هناك من يعارض كلمة القاضي حتى إخوته

فهو يحبس في فيخ نحاسي لا مناص له منه .

وأما من يضمر السوء فإنك(١) تحطم قرنه

ومن يتحير إلى المسيء فإن الأرض التي تحت قدميه تميد يه

.

والقاضى الجائر تجعله يشاهد الأغلال ، ومن يقبل الرشوة ويلتوى فى الحق

A. Ungnad, Die Religion der Bolylonier und • نقلاعن (١) assyrer, PP. 187 — 188.

فإنك تثقله بالعقاب.

أما من يأبى الرشوة ويتحيز إلى جانب الضعيف فإنه يدخل السرور العظيم على « شماش » ويعيش طو يلا . والقاضي الحذر الذي يقضي بالعدل

يعد لنفسه قصرا ويكون مثواه مقرا ملكيا

كمثل ما. الينبوع الأبدى فيه بذرة لا تنفد

لمن يعمل بتق وطيبة ولا يعرف الغش

أما المرء الدنىء العقل فإنه يسجل (على نفسه) ذلك بالقلم، أما الذين يرتكبون الشر فإن بذرتهم لابقاء لها .

فنجد في هذه الأنشودة مبدأ الجزاء الحسن للرجل الفاضل والعقاب للمذنب ، مع الاعتراف بالصفة الاجتماعية للأخطاء . غيير أن مثل هذا الاعتراف لم يسُد تيار الحياة العريض في « بابل » ولم تميز به الآراء المنبئة في أنحاء الآدب البابلي عن كنه الشر ، ومع أن المزامير البابلية الحاصة بالتوبة يستشهد بها عادة على أنها تعبر عن شعور البابليين المرهف من جهة الخطيئة ، فإنه يتضح منها في الحقيقة ، أنها لا تحتوى على أي بيان يدل على أنَّ الخطيئة هي ضد الجتمع الإنساني . وقد لاحظ الاستاذ فستر مارك (Westermarck)(١) بنظر ثاقب أنَّه لا يوجد في أي « مزمار ، معروف لنا من التي وضعت للنوية أية دلالة على أن فكرة الخطيئة فيها تشتمل الذنوب التي ترتكب ضد بني البشر . فقد كان شعور البابليين أن الذنوب لم تكن إلا مجرد تعد ظاهري على حقوق الإله ، وقد لا يكون فيها في الواقع ما يدعو إلى غضب الإله . وتدل من امير التوبة صراحة على أن العاقبة الوخيمة التي يتضرع المذنب بحرارة للنجاة منها لا يرجع سببها إلى سخط الإله على الأخلاق الشريرة ، بل كانت ترجع — كما لاحظ الأستاذ « فستر مارك » — إلى « اللعنات التي كان يصبها على المذنب من حاق به الضر » ، وهذا الاستنتاج يتفق تمام الاتفاق

Vol. II, PP. 702 ← 703 : أنظر : (١)

مع ما لوحظ بوجه عام من أن المبادئ الخلقية عند الشعب البابلي – وهي التي لم نر إلى الآن مايدل بصفة قاطعة على نموها و تطورها ـــ لم تكن من العناصر الجوهرية في حياة الشعب أو حياه حكامه . وهذه الحقيقة تتضح لنا صحتها ـ بصورة بارزة ـ من قانون « حموراني » الشمير ، الذي وردت فيه الجرائم والاحكام مدرجة حسب الدرجات الاجتماعية التي يشغلها المتقاضون أوالمذنبون فكان الرجل صاحب المنزلة السامية ينال فيه رعاية ظاهرة أكثر من الرجل الوضيع الأصل . وقد رأينا فيما سبق أن الحكاء المصريين الاقدمين ووجهاء القوم كانوا دائمـا يكررون ذكر عدم اكترائهم للفوارق الاجتماعية بين طبقات الناس . فقد جا. في قول أحدهم : « إني لم أرفع من شأن العظيم على الوضيع » . وهو تعبير يدل على الرجل صاحب المكانة العظيمة ومقارنته بمواطنه . المعتاد ، ، وبالنص الحرفي . الرجل الصغير ، . والواقع أن المنزلة الاجتماعية أو المرتبة العالية لم تعط المصرى القديم أية ميزة في نظر القانون . ونذكر بهذه المناسبة ما أوردناه فيما سبق من أن الفرعون قد نبه وزيره الأكبر إلى أن واجبه يقضي عليه: , بألا يظهر احترامه للأفراد بصفة كونهم أمراء أو مستشارين ، أي أن هذا المبدأ كان من صلب دستور الدولة المصرية قديما. أما عند البابليين فكانت العدالة الاجتماعية التيهي بعينها الأساس الذي يقوم عليه الرقى الخلقي ، ناقصة جدا ، بل معدومة بالمرة ، وعلى ذلك لم تساهم مدنيتهم مساهمة جوهرية في تاريخ آسيا الغربية الخلق .

وهناك مصدر آخر يمكن اعتباره من أمثال تلك المؤثرات فى تاريخ آسية الغربية المبكر ويجب علينا أن نعيره التفاتا حتى فى مثل هذه النظرة العاجلة وهو ما يستمد من الشعور الخلق السامى عند الحيثيين، وبين أيدينا الآن قطع من قوانينهم. وإن أبرز مثل نذكره فى هذا الشأن مانراه من تقديرهم للمسئولية الخلقية فى الالتزامات الدولية التى أقرها أحد الملوك الحيثيين فى القرن الثالث عشر، حيث يعترف هذا الملك بهجوم — لا مبرر له — قام به ضد الدولة المصرية فى عهد « رعمسيس الثانى ». ولما كان هذا الملك يشعر الدولة المصرية فى عهد « رعمسيس الثانى ». ولما كان هذا الملك يشعر

بالخطأ لحلق الذى ارتبكبه ، فقد نسب الوباء الذى كان شعبه يعانيه إذ ذاك إلى غضب إلهه عليهم بأن أرسل عليهم هذا الوباء بمثابة عقاب على تلك الخطيئة التي ارتبكها . كما يلاحظ أيضا نمو شعورهم بالحق والاعتدال فى الصورة المنقحة من القانون الحيثى التي أحدثها الملك د خاتشيل ، وجعلها أكثر رأفة من قبل ، حيث قد قابل الملك ذلك التنقيح بالصرامة التي كان عليها القانون القديم المعمول به قبل حكمه . وقد بقي لنا من هذا القانون نحو ٢٠٠ فقرة ، وهى تكوّن جزءا كبيرا منه ، مدونة على لوحات من الطين .

وما تجدر بنا ملاحظته أن الحيتين كانوا كذلك قد جعلوا العقوبات القانونية مدرجة حسب المركز السياسي الذى يشغله المذنب. فكانت تخف وطأة العقاب إذا كان المجرم من أهل البيئة المحلية، فيكون أقل من العقاب الذى يوقع على أحد عايا الحكومات المجاورة (١٠). على أنه لايزال أمامنا مقدار عظيم من الحفائر والابحاث التي لابد من درسها وإتمامها قبل أن تكون لدينا المعلومات الوافية عن كنه المدنية الحيثية. وإلى أن يتم ذلك، تشير الدلائل إلى القول بأن الحيثيين كان لهم بعض التأثير في التقدم الخلق في آسيا الغربية. على أنه من المهم أن تلاحظ هنا أن المدنية الحيثية بقيت ضئيلة التأثير إلى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، وهو وقت متأخر بالنسبة إلى تاريخ المدنية الشرقية القديمة.

وقد اتصل العبرانيون خلال أسرهم في الشرق ـ وهم في مرحلة متأخرة من مراحل تقدمهم الديني ـ اتصالا وثيقا بالمدنية الفارسية ووقفوا على الكثير من ديانة «زُروستر». ومذهب «زروستر» هذا مذهب مردوج يدعوكل إنسان أن يقف إلى جانب قوة من اثنتين؛ فإما أن يملاً روحه بالخير والنور، وإما أن يخلد إلى الشر والظلمة. وقد مثلت هذه القوى جميعها في كائنات حية، وأية طريقة منها يسلكها الإنسان لا بد أن ينتظر بعد موته حسابا عنها في عالم الآخرة . وإن ظهور فكرة الحساب في الآخرة ـ وهو شيء لم يعرف في

⁽١) لقد بقى الحال عندنا في مصر على العكس من ذلك إلى أن محيت الامتيازات الأجنية .

آسيا الغربية قبل « زروستر » — قد أوجد نظرية قوية أن « زروستر » قد أخذ الكثير من ديانته عن الديانة المصرية القديمة .

وبعد فوات ستة أسابيع على كتابة البيان المتقدم ــ وكان تحت الطبع بالفعل ــكنت قائمًا لأول مرة بين الدمن الضئيلة الباقية من قصر «كورش» الأكبر ، وهو واقع على مسيرة أقل من نصف ساعة من قبره في « بازارجادة » (Pasargadae)، ولم يبق من هذا المبنى (الذي كاد أن يختني) إلا عمو د مربع أو عمودان من الاحجاركانا لا يزالان قائمين ، منقوشا عليهما بالخط المسماري باللغة الفارسية القديمة العبارة الموجزة الآتية: « أنا «كورش » [قد أقمته] » . وأحد هذين العمودين عبارة عن قائمة باب ولا يزال ظاهرا فُوقه نقش بارز يمثل صورة إنسان طويل القامة _ في شكل أحد أنصاف الآلهة له زوجان من الاجنحة المنتشرة في وضع رائع _كأنه واحد من سلالة الملائكة المذكورين في التوراة . وقد عرفت فيه نقشا رأيته من قبل في بعض المطبوعات (١) ، غير أنى عندما حققت النظر بدقة فما كان متآكلا من النقش ظهر لى في الحال شيء لم يسبق أن جذب نظري من قبل قط. ذلك أن رأس تلك الصورة المجنحة كان يعلوها تاج. أوزير ، إله الحساب المصرى في عالم الآخرة عند قدماء المصريين . ولمثل هذا الرمن دائمًا أهمية في الفن الشرقي القديم. فهذا النذر (بحساب الآخرة) ذو الجناحين ، بتي قائمًا في مدخل قصر « كورش ، نحو ٢٥٠٠ سنة ، وكل زائر دخل القصر كان يشاهده لإنسا تاج الحساب لعالم الآخرة عند قدماء المصريين، وعلى ذلك يكاد يكون من الأمور التي لا شك فيها أن المحاكمة الزروستورية في الآخرة مأخوذة عن قدماء المصريين ، كما أخذ الفرس الكثير غيرها في العمارة والفن عن المصريين القدماء. وبعد أن غادرت بلاد الفرس كتب إلى الاستاذ « ارنست هرز فلد »(٢)

Friedrich Sarre, Die Kunst des alten Persien: انظرالكتابين (١) أنظرالكتابين (١) (Berlin, 1922). Friedrich Sarre & Ernst Herzfeld, Iranische Felsreliefs, Tafel XXVIII & PP. 155 — 165 (Berln, 1910).

= الأستاذ « ارنست هرزفاد » هو مدير حفائر البعثة الفارسية التي أوفدها (٢)

(Ernest Herzfeld) فى تقرير عن أعماله فى الآثار الفارسية القديمة أنه كان ينقل نقوشا طويلة ، لم تكن قد نشرت بعد ، على واجهة قبر الملك « دارا الآكبر . ، وأن هذا النقش يحتوى على بيان خلق وعلى المثل الأعلى للسلوك . فيقول « دارا » مثلا :

« لقد أحببت الصواب ، وأما الخطأ فلم أحبه وكانت إرادتى عدم ارتكاب أى ظلم ضد أية أرملة أو يتيم وم تكن إرادتى أن يحيق ظلم باليتامى أو الارامل ولقد عاقبت الكاذب عقابا صارما وأما الذي يكد فإنى كافأته مكافأة حسنة » .

ويجب علينا أن ننتظر نشر النص الـكامل لهذه الرسالة الجديدة المدهشة التى جاءتنا من الملك « دارا الآكبر » ، غير أنه من المدهش أن المقنطفات التى أرسل بها إلى الاستاذ « هرزفلد » يشبه رنينها فى الآذن صدى التعاليم الاجتماعية التى نطق بها الحـكاء المصريون القدماء ، هذا ولدينا الآن الادلة الوافرة على أن التطور الديني الذي أحرزه العبرانيون بعد عودتهم من المننى الوافرة على أن التطور الديني الذي أحرزه العبرانيون بعد عودتهم من المننى (فى بابل) كان مناثرا بتعاليم « زروستر » ، وأنه يجب لذلك ، أن نضيف إلى المؤثرات الدولية التي تعرضت لها الخلقيات العبرانية ، التعاليم التي جاء بها هذا النبي « الميدي الفارسي ، العظيم « زروستر » .

وكان قد نما قبل ظهور الملكية العبرانية فى أواخر القرن الحادى عشر ، مجموعة كبيرة من الأمم المتحضرة على طول الطرف الشرقى للبحر الأبيض ، تقع بين بلاد الجيثيين شمالا وتخوم مصر جنوبا . والأرجح أن أهم هذه الشعوب من وجهة تاريخ المدنية هم الفينيقيون . وقد كانت بعض العناصر الهامة فى المدنيةين البابلية والمصرية القديمة عاملا جوهريا فى تكييف الحياة والثقافة

الته الشرق (Oriental Institute) التى تفوم الآن بأعمال الحفر فى قصور برسيبوليس وفى مقابر أباطرة الفرس المجاورة الواقعة فى نخشى رستم (Nakhshi Rustum) . ومواقع أخرى بالقرب من مدينة « برسيبوليس » (Persepolis) .

فى مدن الساحل الفينيق الزاهرة التى كانت تتألف منها المراكز التجارية الفينيقية ، ومن ثم كان من السهل أن تدخل هذه الحيوط الاجنبية فى نسيج ثوب الحياة العبرانية . وعلى أية حال فنحن لا نعلم شيئا تقريبا عن نوع التطور الخلق عند الفينيقيين .

وأما فى بلاد فلسطين التى احتلها العبرانيون فيما بعد ، فإن الكنعانيين ، الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين ،كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينها غزا العبرانيون البلاد .

وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة ، وكذلك من الحفائر الآثرية ، شيئا كثيرا عن هذه المدنية الفلسطينية الراقية النامية السابقة لعهد العبرانيين . كا أنه كان المثقافة البابلية كما ذكرنا من قبل أثر هام خالد فى فلسطين الكنعانية ، وعن طريق الكنعانيين — بوجه خاص — وصل أثر البابليين فى الفن والآدب والدين إلى العبرانيين . يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعا تحت تفوذ الحضارة المصرية القديمة . فقد بدأ المصريون يبسطون سيطرتهم على الساحل الفينيق قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألني سنة ، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل فنتحهم إلى نهر الفرات فى خلال القرن السادس عشر ق . م . بقيت فلسطين فتحهم إلى نهر الفرات فى خلال القرن السادس عشر ق . م . بقيت فلسطين مستعمرة فى أيديهم أكثر من أربعة قرون ، والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قرنين بعد دخول العبرانيين فيها . وبذلك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية فى القرون التى احتلتها فيها مصر . فلما غزاها المبرانيون كانت قد صبغت مرادا و تكرارا بالعناصر المصرية .

وكا نمن نتائج ذلك أن العبرانيين حيثما دخلوا فلسطين صاروا على اتصال مباشر بتلك الحضارة الكنعانية المركبة ، التي أنشى معظمها من العناصر البابلية والمصرية القديمة معا . هذا فضلاعن أن تلك المدنية الكنعانية ، بمرورها في تجاريب اجتماعية طويلة ، كسبت كذلك عناصر ثقافية كثيرة من صنع

الكنعانيين أنفسهم. والواقع الذي لاشك فيه أن اللغة التي وجدها العبرانيون الفاتحون، وهي اللغة الكنعانية لغة البلاد وقتئذ، قد اتخذها العبرانيون أنفسهم لغة لهم، وهي التي انحدرت إلينا فيها بعد في ثوب اللغة العبرانية التي كتبت بها التوراة. وبما يؤسف له أننا لا نعرف شيئا يذكر عن التاريخ الحلق لذلك الشعب قبل الغزو الإسرائيلي.

وبتلخيصنا لموقف فلسطين من نواحيه المختلفة ، نرى أن تلك البلاد من الوجهة الجغرافية تقع على جسر طبيعى ضيق بين البحر الأبيض المتوسط من جهة والصحراء العربية من جهة أخرى ، وهو جسر يقع بين قارتين طالما التخذ طريقا عاما لربط إفريقية بآسيا منذ عهد ما قبل التاريخ .

أما من الوجهة السياسية فإن فلسطين كانت قديما كما هي الآن : كرة قدم دولية .

وأما من الناحية الثقافية فإنها ، كما أوضحنا الآن ، كانت داخلة ضمن الإقليم النجارى الذى طالما كانت المعاملات البابلية تسيطر عليه ، كما كانت فى الوقت ففسه تقع مباشرة فى ظل صرح المدنية المصرية العظيمة . فالقوم الذين استقروا فى أرض فلسطين لم يجدوا أنفسهم فى وسط حضارة قديمة تكونت بالإقليم نفسه ومصبوغة إلى حد كبير بالصبغة المصرية القديمة فحسب ، بل كانوا يطاون أيضا على مدنيات أعرق منها بكثير على كلا الجانبين فى آسيا وإفريقيا . فن هدنه البيئة الدولية البعيدة الآثر بالشرق الآدنى الذى كان يضم فلسطين بين جوانحه نشأت تلك الأفكار الخلقية التى غذت العالم الغربى فى النهاية بالآراء الخلقية السائدة فيه الآن ، إذ وصلت إلينا عن طريق بقايا الآدب العبرانى ، وهو الذى كانت محتوياته الخلقية كما أسلفنا بعيدة كل البعد عن أن تكون من أصل عبرانى محض .

ومن الحقائق المدهشة أن يكون ذلك الإرث الخلق العظيم قد وصل إلى المدنية الغربية من شعب خامل الذكر سياسيا منزو فى الركن الجنوبى الشرقى من

وض البحر الآييض المتوسط. فإن هذا الشعب لم يقبله نظام قومى خاص به الإمند العشر أو العشرين سنة السابقة لعام ١٠٠٠ ق م ، و لم يبق أمة موحدة الا نحو قرن واحد على أكبر تقدير . وعلى إثر انحلال تلك المدولة الصغيرة نجد أن الجزءين الملذين قاما على تراثها ظلا يكا فحان البقاء ، فاستمر أحدهما مدة قرنين تقريبا . وأما الجزء الآخر فإنه بعد أن مكث مدة قرن وربع قرن من سقوط الجزء الأول قضاها في حياة قلقة شبه مستقلة ، تداولته فيها أيدى ممالك الشرق العظيمة قديما ، قد حاق به كذلك الفناء التام بعد سنة ١٠٠ ق ، م . برمن قليل . بذلك تكون حياة العبر أنيين القدامي القومية المستقلة — أو حياة جزء منهم — التي بدأت لأقل من ثلاثين سنة قبل عام ١٠٠٠ ق . م . — قد مكثت حو الى أربعة قرون وربع قرن وختمت في باكورة القرن السادس ق . م . أي من هذا العهد من الحياة العبر أنية القومية قد وقع بأ كمله تقريبا في النصف الأول من ألف السنة الأخيره قبل الميلاد المسيحي . وفي تلك الفترة كان تقدم الثقافة في مصر وفي بابل قد نضب معينه وصار يعد خبرا من أخبار التاريخ القديم . في مصر وفي بابل قد نضب معينه وصار يعد خبرا من أخبار التاريخ القديم .

وإنه لمن المستحيل علينا طبعا أن نضمن هذا الكتاب المحدود الحجم التاريخ الديني والحلق للعبر انيين القدامي حتى ولو بطريق التلخيص. على أن مهمتنا في هذا الكتاب تضطرنا إلى الكشف عن العوامل الاجنبية الهامة التي عملت في التطور الخلق عندهم. ولكي نتمكن من القيام بذلك يجب أن نعيد إلى ذاكر تنا بعض الحقائق البارزة في التاريخ العبر اني ، إذا كنا نريد حقا معرفة العناصر الاجنبية في التطور الخلق العبر اني .

كان ظهور العبرانيين لأول مرة فى ميدان التاريخ فى خطابات « تل العبارنة » التى يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ ق . م . بقليل ، أى فى عهد يسبق بكثير أى أدب عدانى وصل إلينا .

وهذه الخطابات المسمارية تكشف لنا عن وجود جماعات من العبرانيين الرحل كانوا ينزخون إلى فلسطين ، التى كانت وقتئذ تحت سيطرة مصر ، حيث كانوا يدخلون هناك في سلك الجنود المرتزقة . ولا نعرف من شأنهم بعد ذلك شيئا مدة قرنين من الزمان ، إلى أن كان وقت ذلك الآثر المصرى الذي أقامه

قى «طيبة» (الأقصر) «مَرْ نبتاح» بن «رعمسيس الثانى» قبل سنة ١٢٠٠ ق.م. بنحو عشر سنين أو عشرين سنة . فقد حفظت لنا فيه أنشو دة نصر نجد فيها ذلك الملك يفتخر بقوله : « وإسرائيل قد دمرت وبذرتها محيت » .

وقد كان ذلك الحادث فى « عهد القضاة »(١) ، وقت أن كانت الحياة العبرانية القومية لاتزال خاملة لاتكاد تعرف شيئا من الحمكم المركزى أو النظام القومى ، فقد كان العبرانيون لا يزالون متأثرين كل التاثر بحياة القرون الطويلة التى قضوها فى الرعى وتلمس السكلاً على حدود الصحراء قبل أن يدخلوا فلسطين ، فكانوا لايزالون متمسكين بالعادات الساذجة المتبربرة الشائعة بين قبائل الصحراء ، بل ببعض النقاليد القريبة من الوحشية التى تلازم الحياة الفطرية ، مثل ذبحهم الولد البكر قربانا لإله القبيلة . وهذه الآلهة المحلية قد تكون مثل الشيطان الرجيم الذي كان فى ظنهم يسكن فوق قمة الجبل أو عند غدير الماء ، على غرار جنى الليل المعتم الذي صارعه ، يعقوب » (عليه السلام) عند غدير ، جابوك » حتى أجبره على الفرار فزعا قبل انبثاق الفجر .

ومثل هذا الجنى المحلى كان يطلق عليه فى الصحراء الواقعة جنوبي «يهودة» السم « إيل » . وهذا اللفظ ليس اسم علم وإنما هو الكلمة السامية القديمة التي كانت تطلق على أى إله محلى ، وقد انحدر إلينا فى اسم « اسرائيل » ، وهو الاسم الذى أطلقه على « يعقوب » الكائن الذى صارعه ، وقد بق لناكذلك فى طائفة من الاسماء مثل « ميخائيل » ، ومعناه « الذى يشبه الإله » . وفى الأنحاء الشمالية من «كنعان » كانت الآلهة المحلية عند الكنعانيين تسمى « بعولا » أو « أربابا » .

ومن الواضح أن بعض العبرانيين الرحل كانوا قد استُعبدوا بعد لجوتهم إلى مصر فى زمن قحط حدث عندهم. وقد قام من بينهم عبرانى امتاز بحسن سياسته وقوة قيادته البلرعة ، ونصب نفسه عليهم وخلصهم من العبودية ، وبدلك صار يعد أول قائد عبرانى عظيم وصل إلينا اسمه .

⁽١) انظر سفر القضاة من الكتاب المقدس (التوراة) .

ومن المهم أن نلاحظ أن «موسى» — وهو اسم ذلك القائد — كان اسما مصريا، بل هو نفس الكلمة المصرية القديمة « مس » ومعناها «طفل »، وهى مختصرة من اسم مركب كامل كالاسماء «أمن مس » ومعناه «آمون الطفل » أو « بتاح مس » ومعناه «بتاح طفل ». وهذه الاسماء المركبة نفسها هي الاخرى مختصرات للتركيب الكامل «آمون (أعطى) طفلا » أو « بتاح (أعطى) طفلا ». وقد لتى اختصار الاسم إلى كلمة «طفل » قبو لا منذ زمن مبكر ، إذ كان سريع التداول والتناول بدلا من الاسم الكامل الثقيل .

على أن الاسم و مس ، (طفل) نجده كثير الانتشار على الآثار المصرية القديمة . ولا شك فى أن والد و موسى ، كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصرى مثل و آمون ، أو « بتاح » ، ثم زال ذلك الاسم الإلهى تدريجا بكثرة التداول حتى صار الولد يسمى « موسى » ..

على أن ما أظهره «موسى» من الحذق فى القيادة مع الشجاعة والمهارة فى تخليص شعبه من العبودية الاجنبية ، وكذلك حادثة التخليص نفسها التى صاحبتها بعض الكوارث الطبيعية التى قضت على الجيش المصرى المقتنى لآثار «موسى» ومن تبعه — كل ذلك لتى مكانة لا تمحى فى المعتقدات العبرانية وجعل للعبرانيين إرثا أصليا من الفخار كان هو أقدم الاسباب التى ألفت بينهم وجعلت منهم أمة واحدة .

وفى خلال مرحلة مبكرة من مراحل تلك الاحداث تخلف « موسى » في الصحراء جنوبى فلسطين عند قبيلة من القبائل البدوية التى تعرف بأهل «مَدَّيَن » ، وكان مكثه هناك كثيرا وبخاصة مع أحد خدامهم المقدسين الذى يدعى «شعيب» (Jethro) حتى أنه عرف منه شيئا عن إلههم المحلى «يهوه» (۱).

⁽١) وقد أدى أزدياد تقديس هذا الاسم عند الهود إلى أنهم لفظوا بكلمة عبرانية ندل على « رب » بدل كلة « يهوه » . وهذا الاستعال أدى فى النهاية إلى فقدان . النطق القديم لمكلمة « يهوه » وصارت حروفها الأربعة الساكنة « ى ه ف ه » تلفظ بإضافة الحركات التي تستعمل مع كلة « رب » فى العبرية وبذلك أصبحت كلة « « يهوه » تلفظ جهوفه (يهوفاه) وهو صورة لهذا الاسم ليس له أصل قديم قبط .

وهذا الإقليم الممتد من «سيناء » شمالا ، وبخاصة على طول الاخدود العظيم الذى نتج فيه «البحر الميت » ووادى نهر الاردن ، تتوافر فيه البينات الجيولوجية الدالة على وقوع ثوران بركانى حديث نوعا . ولا شك في أن الرواية العبرانية التي ذكرت في سفر التكوين (١٩: ٢٣ — ٢٨) عن تخريب «سدوم» و «عمورة »، وهما مدينتان كانتا في تلك البقعة ، مبالنار والكبريت ، من السماء ليست إلا إشارة مهمة عن حدوث انفجار بركاني لم تنس ذكراه القبائل المحلية في العهد العبراني المبكر .

وقد صحب خروج العبرانيين من مصر خوارق جاء وصفها فى كتاب العهد القديم ، لاشك فى أنها ذات صبغة بركانية ، فالمظهر الغريب الذى ظهر به «يهوه » فى صورة «عمود فار » أو «عمود من دخان »، ثم تجليه فوق «طورسينا» نهارا محدثا «للرعد والبرق والسحاب الكثيف »، هى بالبداهة خطواهر بركانية ، وعلى ذلك كان من المعترف به منذ زمن بعيد أن «يهوه» اليس إلا إلها محليا للبراكين وكان مقره المختار «طورسينا» . ولكن العبرانيين تخلوا بتأثير من «موبى ، عن آلهتهم « إلوهيم » القدامي واتخذوا «يهوه » لهم إلها واحداد ،

على أنه لا بد من باعث آخر دعا إلى ذلك الانقلاب العظيم أقوى من تأثير موسى ، قائدهم الكبير . فمن الواضح أن التخلص من النير المصرى كان مصحوبا ببعض الظواهر الرهيبة التى عزيت إلى بطش ويهوه » الشديد . وإن الرأى القائل بحدوث انفجار بركانى فى وسينا ، حينما ساق الخناق على العبر انيين فى خروجهم يجدمن الاسباب ما يبرره ، إذ يمكن أن نفرض أن الزلزال الذى صحب ذلك الانفجار ، وموجة المد التى نتجت عن ذلك ، هما اللذان أفضيا إلى ابتلاع الجنود المصريين الذين كانوا يتعقبون أثر القوم الفارين .

ومهما يكن من أمر فإن الاعتقاد بأن العبر انيين عند مادخلو ا منطقة . يهوه . الواقعة بالقرب من جبل سينا نجاهم هو ببعض المظاهر العظيمة لقوته وعطفه

⁽١) جمع كلة « إيل » هو إلوهيم ..

أما آلهة العبرانيين القدامي و إيل ، التي لم يكن لها لون ولا أسماء أعلام يستدل بها على كل منها ، وليس لها شخصية ولا أصل تريخي ، فإنهم استمروا طويلا منافسين ضعفاء لإلههم ويهوه ، بعد أن استوطن الإسر اثيليون فلسطين . وأما الآلهة التي كانت أشد بأسا في مناهضة «يهوه » فهم « البعول ، الكنعانيون ، وبالرغم من أن العبرانيين كانوا قد اتخذوا «يهوه » إلههم القومي فإنه كان يوجد الكثير من بينهم من تمسك باعتقاده في الآلهة الآخري مثل البعول ، وكثيرا ماكانوا يتخذونها معبودات لهممن دون إلههم -على أن وجود نفس اسم ويهوه ، كأنه علم مثل « أبولو » أو « المريخ » لدليل على وجود آلهة أخرى لها أسماء أعلام مثل « أبولو » أو « المريخ » لدليل على وجود آلهة أخرى لها أسماء أعلام مثل ، ونجد في التعليم الآول الذي وضعه «يهوه » نفسه لبني إسرائيل أنه كان يعلم بوجود الآلهة الآخرى ، ولذلك قال : « لن تكون لمكم آلهة أخرى قبلي ».

وقد كان سير الإسرائليين في الانتقال من عبادة آلهة عدة إلى عبادة إله واحد لجميع العالم بطيئا وتدريجيا حتى لقد استغرق عدة قرون . كا نجد كذلك أن تصور العبرانيين فيها يختص بأخلاق إلههم قد من في عدة أطوار ، منذ الوقت الذي كانوا فيه مبهجين بقوة إلههم الطبيعي التي كانت تحطم الكنعانيين وتذبحهم ، إلى أن وصلوا إلى تصور الإله أبا رحيما عادلا . وإن الذي يجعل في استطاعتنا للآن أن نتعرف بعض الخطوات في ذلك التطور ، الذي به تخطى الإسرائيليون في تفكيرهم إله الطبيعة ، هو كتا بات الانبياء العبرانيين بوجه خاص ، حيث يتبين لنا أن ذلك الإله ، مع استمراره في حمل اسم إله البركان القديم ويهوه ، ، فإن الشعب العبراني أخذ ينظر إليه تدريجا بمثابة قوة فعالة في بهوه ، ، فإن الشعب العبراني أخذ ينظر إليه تدريجا بمثابة قوة فعالة في المجتمع البشرى .

ولا بد أن النشأة المصرية القديمة التي يرجع إليها الفصل في جعل موسى قائدا قوميا عظيما قد ساهمت في إدراكه لنلك الصورة الواجبة « ليهوه » في حياة قومه . فإننا نرى مثلا أن نشأة « موسى » في مصر و تسميته باسم مصرى جعلاه يحض مو اطنيه على الاخذ تشعيرة الخنان ، وهي عادة مصرية قديمة جدا كانت مراعاتها عامة في أيامه بين سكان وأدى النيل ، ويرجع عهدها إلى مالا يقل عن ثلاثة آلاف سنة أو تزيد قبل عصره (١) . وننسب المعتقدات العبرائية دائما أصل تلك الشعيرة إلى « موسى » (عليه السلام) . هذا وإن اتخاذ « موسى » لعادة مصرية مقدسة واعتبارها علامة ابني إسرائيل ، مع أنها شعيرة ألفها بداهة في مصر منذ نعومة أظفاره ، يعد في الوقت نفسه برهانا قاطعا على أنه كان يستقى تعاليم ما كان يعرفه عن الديانة المصرية القديمة . على أن « موسى » لم يكن عبدا لحاكاة التقليد المصرى القديم ، يظهر لنا ذلك عند ما نراه اتخذ عن أهل «مدين» لحاكاة التقليد المصرى القديم ، يظهر لنا ذلك عند ما نراه اتخذ عن أهل «مدين» هوه » إلها له . ولماكان أهل « مدين » قوم بدو سنج ليس لهم من المهارة في الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لإلههم ، فإنه ترك « يهوه » دورن أن يصنع له الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لإلههم ، فإنه ترك « يهوه » دورن أن يصنع له الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لإلههم ، فإنه ترك « يهوه » دورن أن يصنع له صورة أو تمثالا ما ، كاكان الحال عند أهل « مدين » من قبل .

على أننا نجد أن «موسى » كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية . فقد كان هو نفسه يحمل عصا سحرية عظيمة ، لا شك فى أنها كانت في صورة ثعبان ، تسكن فيها قوة «يهوه » ، كما كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق البشنى به الناس . وكان هذا الثعبان بطبيعة الحال أحد تلك الثعابين المقدسة العديدة فى مصر ، وقد بقيت صورة ذلك الإله المصرى القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمن طويل ، واستمروا فى إطلاق البخور له

⁽١) إن الأجسام المصرية التي استخرجت من أقدم جبانات اعصر ما قبل الثالا يخ ، قبل ٥٠٠٠ ق . م ، ، تمكشف عما يدل على الحتال ، وذلك حينا يكون الجسم محفوظا للدرجة أيمكن من فحصه . وقد مثلت عملية الحتان ، يقوم بها جراح مصرى ، على جدران قبر في جبانة « منف » يرجع عهده إلى القرن السابع والعشرين أو الثامن والعشرين ق . م .

مدة خمسة قرون بعد عهد « موسى » ، ولم يُبعد من البيت المقدس إلا فى حكم « حرقيائيل » فى أواخر القرن الثامن ق . م . (سفر الملوك الثانى ١٨ : ٤) .

على أنه قد احتفظ العبرانيون إلى العهد المسيحى بقول مأنور عندهم يقرر أن «موسى» كان متفقها « فى كل حكمة المصريين » (الإصحاح السابع الآية ٢٢) ، وهو قول لا يكاد يوجد ما يدعو إلى الشك في صحته . على أنه لم يكن في مقدورنا إلا في السنين الآخيرة أن نفهم المصادر التي وصلت إلينا عن حياة المصريين القدماء فهما كافيا ندرك به أن « حكمة المصريين » كانت قبل كل شي، عبارة عن التأملات والتدبرات الاجتماعية . ولا شك أن « موسى » كان ملما بأقوال أولتك الآنبياء الاجتماعيين الذين كانت أقدم كتاباتهم — كما ذكرنا فيما سبق — متداولة بين المصريين منذ . . ١٥٠ سنة عند ما ابتدأ موسى في تعليم قومه . ومن الديهي أن رجلا مثله نشأ محاطا بمثل ذلك النوع من الآدب كان لزاما عليه أن يشعر بالحاجة إلى دين يشتمل على تعاليم خلقية يزود به قومه .

وإنه من الصعب علينا الآن أن نعين بالضبط مقدار ما خلفه « موسى » لقومه من التعاليم الخلقية والآدبية . على أن الباحث يمكنه أن يحكم بنفسه فيما إذا كان القائد الذي أقام تمثال ثعبان نحاسى ليعبده قومه — وهو صورة بقيت محفوظة تعبد عدة قرون في معابد القوم — في مقدوره كذلك أن يفرض على كل صاحب بيت من العبرانيين الأمر التالى :

« محظور عليك أن تصنع لنفسك تمثالا منحوتا أو (صورة) أى شكل في السهاء أو في الأرض أو في المساء الذي تحت الارض ، ويلاحظ أن كل وصية من الوصايا العشر موجهة إلى صاحب كل بيت ، وأنها في صيغة المفرد. المخاطب «أنت » .

ومن الواضح أنه حينها كتبت الوصايا العشر كان العبرانيون قد انتقلوا فعلا من حياة المرعى فى الأرض الصحراوية ذات السكلاً إلى حياة الزراعة المستقرة فى المدن ، حيث كانت المؤثرات الاجتماعية تعمل فى تكوين الاعتقاد الدينى وتزيد فى موارده . ثم إن الملكية ، التى يجهلها البدو ، وكذلك الحياة التجارية إلى حدما فى المدن ، قد أخذتا فى تكوين طبقة صغيرة من الأثرياء فى المدن ، فى حين أن أكثرية الشعب كانت لا تزال على حالتها الأولى من الفقر . ومن ثم بدأ ظهور المناقشات بين طبقات الشعب ، وما نجم عنها من الاحقاد التى لا مفر منها ، وما نشأ عن ذلك من اكتساب خبرة اجتماعية مفيدة .

وقد كانت الفوارق الاجتماعية بعد تأسيس المملكة العبرانية تلاحظ بدرجة أكثر من ذى قبل . كما ظهر ميل القوم للثراء والحياة التجارية حتى عند ملوك العبرانيين الجدد . وذلك أن ملوك فينيقية الأغنياء قد أثروا بطبيعة الحال في مطامح الحكام الإسرائيليين . فاشترك « سليمان » (عليه السلام) فى تجارة مع « هيرام » ملك « صور » ، وكان هو نفسه يتجر فى الحيول فيجلب نسل الحيول الجياد المنسبة من مصر ، حيث كان يتمتع هنالك بامتياز خاص عن طريق الفرعون حميه ، ومن ثم كان يصدر هذه الحيول شمالا ويبيعها فى أسواق الحيل الحيثية . وقد كانت له حظائر للخيل فى جهات متعددة فى طول البلاد وعرضها . ويتضح لنا ذلك الامر جليا ملبوسا حينها نقف بين دمن حظائر خيول سليمان الاصلية التى كشف عنها بين أطلال قلعته الإقليمية القوية بمدينة خيول سليمان الاصلية التى كشف عنها بين أطلال قلعته الإقليمية القوية بمدينة «عجدو» (أرما جدون) (١٠ الواقعة فوق هضبة الكرمل .

وقد أنبسط في هذا الموقف الذي نمت فيه الطبقات الاجتماعية وتباينت تباينا شديدا ، ميدان اجتماعي كإلذي شاهدنا ظهوره على ضفاف النيل قبل ذلك بنحو ألني سنة . فقد كانت أمثال هذه الأحوال هي التي أيقظت في مصر إحساساً جديدا بالقيم الاخلاقية الثابتة ، وبمثل ذلك ظهر بين العبرانيين رجال توافرت لهم الروح الإنسانية والنظرة الاجتماعية ، فأخذوا يشعرون بإيجاء والضمير ، كقوة اجتماعية ، واستجابة لندائهم أخذ عصر الاخلاق في الظهور بين بني إسرائيل كما سبق ظهوره في مصر قبل ذلك بزمن طويل . ولذلك نجد أن الشعائر العتيقة والعادات الدينية البالية ، بما فيها من الطقوس والضحايا ، أخذت تنحط في قيمتها بموازنتها بالاخلاق الفاضلة .

⁽١) شهدت هذه البلدة عدة مواقع حربية منذ عهد « تحتمس الثالث » حتى الحرب العالمية الأخيرة ، وقد نال في هذا المسكان « اللورد اللنبي » فوزا مبينا .

وبهذه المناسبة نذكر تلك الكلمات السامية التى وجهها ذلك الملك الاهناسى المجهول الاسم إلى ابنه « مريكارع » قبل عهد « موسى » عليه السلام بألف سنة ، وهى : « إن فضيلة الرجل المستقيم أكثر قبولا من ثور الرجل المذى يرتكب الظلم » .

على أن ما أظهره ذلك الفرعون المسن من قوة البصيرة فى تعمقه الخلق لم يكن أثره بالبداهة قاصرا على مصر ، ولا بد أن لفافة البردى التى كانت تشتمل على نصائحه الحكيمة الموجهة إلى ابنه قد وجدت سبيلا لها إلى فلسطين، لأن نفس هذه المعانى ، مكتوبة بكلمات مشابهة جدا للكلمات السابقة ، قد ظهرت فى أوائل التطور الخلقي العبراني بالنص الآتى :

« انظر إن الطاعة أفضل من التضحية

والإصغاء أفضل من الكبش السمين ، .

وهذًا الحث على حسن الإصغاء يتردد صداه فى الآذان كأنه صدى نصائح « « بتاح حتب » الذى نصح بها أبنه منذ أكثر من ١٥٠٠ سنة قبل عهد صمو تميل وبين له فيها قيمة الإصغاء.

وأما تفضيل الآخلاق على الشعائر الدينية فقد أورده حكاء العبرانيين في ركتاب الآمثال، في كلمات ليست هي أيضا إلا صدى لمكلمات ذلك الحكيم الأهناسي المصرى القديم. فقد جاء في سفر الآمثال:

« فعل العدل والحق أفضل عند الرب (يهوه) من الذبيحة » .

(من سفر الأمثال ٢١ - ٣)

ومما يوضح لنا أن الحكيم العبرانى كان مقتفيا أثر الفكر المصرى القديم في هذه النقطة ما ذكر قبل تلك الآية مباشرة (من سفر الأمثال ٢١ – ٢) حيث جاء فيها :

« والرب (يهوه) وازن القلوب » .

إذ لم يكن فى الشرق القديم إلا عقيدة دينية واحدة تقول بأن الإله يزن القلب الإنسانى ، وهى الديانة المصرية القديمة بما تشتمل عليه من المحاكمة الأوزورية. وقد رأينا فيما تقدم أن ذلك التمييز بين قيمة الخلق ومجرد الشعائر

الدينية الظاهرية كان من غير شك نتيجة للخبرة الاجتماعية فى مصر . فهذه الحبرة الاجتماعية نفسها كانت سائرة فى تكونها بين الإسرا ثيليين بخطى سريعة ، ويرجع ذلك إلى الإرث الأدبى والخلق الذى ورثه العبرانيون ، إذ قد وجدوا تلك الحقائق الأساسية فى كتابات وتجاريب جارتهم الأفريقية العظيمة وأخذوا يعملون بسرعة أيضا على تهيئة هذه الحبرة لتكون ملكا لهم . إذ من الواجب أن يكون إدراك الشعب نفسه للقيم الخلقية الإنسانية الثابتة هو حجر الزاوية لبناء أى تقدم خلق ثابت مضمون . ومن المعلوم بطبيعة الحال أن دائرة القيم الخلقية السامية فقط هى التى توجد البواعث وتهىء الأحوال لظهور أدب ذى قوة حقيقية ، ولذلك لم يكن من باب الصدفة أن نرى القرون الثلاثة الأولى من حياة الشعب العبراني بعد تأسيس لللكية قد انتجت أرقى فن أدبى عزفه العالم القديم إلى ذلك الوقت .

وأعظم مثل مقنع يدل على مهارة العبرانيين الجدد فى القصص المسرحى الخلاب الذى تنجذب إليه النفس البشرية هو قصة يوسف (عليه السلام)، ويبلغ مغزى هذه القصة الجيلة قمته فى الثبات الخلق الذى كانت تنطوى عليه نفسية ذلك الشاب المبعد عن وطنه، فنراه وهو غريب فى بلدة أجنبية يجازف بحياته بلا تردد محافظة وإبقاء على سلامة أخلاقه وطهارتها، مع أنه لم يأت بذلك العمل تمسكا بالمثل الأعلى فى إنكار الذات والعفة والتنسك، بل قياما بواجب الاحترام لشرف سيدوضع كل ثقته فيه. ومن الحقائق المدهشة أن هذه الحادثة التى توجت القصة كلها، بتاج الفخر مستقاة من قصة مصرية قديمة شعبية كانت لابد _ قد انتشرت فى فلسطين الكنعانية حيث سمع بها ذلك الكاتب الموهوب الذى ألف قصة يوسف .

وهذه القصة المصرية تعرف الآن عادة « بقصة الآخو بن » ، والإلهان اللذان يظهران فيها بشكل الآخوين ، اللذين يعتبران أهم شخصيات القصة ، قد مثلهما الخيال القصصى الساذج في صورة اثنين من الفلاحين وسماهما بالتوالى «انوبيس» و « باتا » ، وهما اسمان يكشفان عن أن بطلي القصة يمثلان إلهين كانت لهما مكانة في الديانة المصرية القديمة منذ زمان متو غل في القدم .

فـكان « انوبيس » أكبر الأخوين متزوجاً . وكان « باتا » أصغرهما يعيش مع الزوجين كأنه ابنهما ، إلى أن قدر لتلك الحياة الريفية الخلابة الني احتسو ا كؤوسها أن يقضَى عليها بإقدام الزوجة على أمر شائن . وذلك أنها كانت ذات يوم تنظر إلى الشاب الصغير وهو يحمل فوق منكبه القوى خمس حقائب مملوءة قمحاً دفعة واحدة ، فاستولى حيه على قلمها ، ولما أُخذت تراوده عن نفسه انقلب الشاب ثائرا غاضيا كأنه فهد من فهو د الوجه القبلي، هاج من جرا. تلك الكامات الأثيمة التي وجهتها إليه . وخافت الزوجة عند ذلك خَوفا شديدا من افتضاح أمرها . ثم خاطبها قائلا « انظرى إنك عندى بمنزلة الأم وزوجك بمنزلة الوالد لأنه أكبر مني سنا وقد رباني ، فما معني هذا الآمر المخزي الذي تذكرينه لي ؟ لاتعيديه على مرة ثانية وأنا بدوري لن أفوه به لاحد و لن أجعل شفتي تفتران عنه لأى إنسان ، ، ثم حمل حمولته وخرج إلى الحقل . غير أن زوجة . أنوبيس ، الكاذبة خدعت زوجها فجعلته يصدق رواية معكوسة لفقتها هي للحادث، وكانت العاقبة أن د أنوبيس ، تربص لقتل أخيه الصغير . فكن له خلف باب حظيرة البيت وسلاحه بيده، وحينها اقترب الشابُ الصغير من البيت وهو يسوقأمامه قطيع أنعامه حذرته البقرتان اللتان كانتا في مقدمة ماشيته وفاء له بالجميل ، لأنَّ ذلك الراعي الصغير كثيرًا ما ساقهما إلى أحسن المراعي وأنضرها . فقفلُ الشاب موليا هاريا.

ويعتبر ذلك الامتحان الخلق الذى اجتازه ذلك الشاب فى قصة الاخوين، أروع مثال لنزاهة النفس ومتانتها ، لافى الادب المصرى وحده بل فى كل الادب الشرقى القديم حتى ذلك الوقت . ومن الامور الهامة جدا أن تكون هذه الحادثة بالذات من بين كل الادب المصرى هى التى جذبت نظر المؤلف العبرى حتى ساقه ذلك إلى اتخاذها برهانا سامياً على طهارة أخلاق بطل قصته .

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى هذه القصة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن(١) بعد ذكرها في التوراة بنحو ١٤٠٠ سنة . وقد ظهرت هذه القصة

⁽١) إن هذه هي الصيغة الإسلامية لأصل عبارة المؤلف ، وهي تنافي العقائد الإسلامية .

فى صور متنوعة فى أوقات مختلفة من تاريخ الأدب لمدة تبلغ نحو ٣٠٠٠ ستة منذ أول ظهورها فى وادى النيل. وكذلك نجد لها بعض الآهمية فى تاريخ فن التصوير الغربى. والفحوى الحلق لاختيار تلك القصة ضمن الآدب العبرانى أمر له أهمية أساسية ، لأن مجرد وجودها فى الآدب العبرانى يعتبر برهانا قاطعا على أن الإسرائيليين فى القرن الثامن قبل الميلاد كانوا قد دخلوا فى عصر الاخلاق فعلا.

وفى هذا العصر الذى سادت فيه التأملات الخلقية أخذ إله الطبيعة القديم الذى ينتمى إلى صحراء مدين ، والذى قاد الإسرائيليين إلى فلسطين ووجد لذة وحشية فى تقتيل الكنعانيين يتحول تدريجاً فى نظر العبرانيين إلى أن صار إله عدالة ، يتطلب بدوره أن يتصف عباده أيضا بالعدالة فى أخلاقهم ، ومع أن هذا التحول الذى نبت فى الاذهان نتيجة لتجارب العبرانيين الاجتماعية الشخصية يرجع بدرجة عظيمة إلى العبرانيين أنفسهم ، فإن التفكير الدينى عند هؤلاء القوم الذين سكنوا فلسطين اعتمد جوهره فى هذه الحالة — كما اعتمد فى تجاريب كثيرة مشابهة لها — على الاستقاء من تراث الماضى كما وجدوه باقيا فى الجاعات الكنعانية التى اندبجوا فيها تدريجاً .

وكان هذا التراث مفعماً بالأفكار المصرية القديمة التي تتناول صفات إله الشمس وتعده حاكماً عادلا بين الناس. ولذلك نجد أن نبيا من العبرانيين يقول لقومه: —

البكم يامن تخافون اسمى

. تشرق شمس العدالة بالشفاء في أجنحتها^(١) ».

رأينا فيها سبق أن والعدالة ، كانت ممثلة فى شخص الإلهة وماعت ، التى كان يعتقد المصريون أنها بنت إله الشمس . وبما أن و شمس العدالة ، العبرانية وصفت بأن لها أجنحة فلا يمكن أن يكون المراد بذلك شىء سوى الإشارة إلى إله الشمس ذات الاجنحة ، لأنه لم يكن يوجد بين جميع التصورات العبرانية القديمة للإله ويهوه ، أى صورة تمثله بأجنحة .

⁽١) سفر « ملاخي » – الإصحاح الرابع .

هذا وقد دلت الحفائر الحديثة في « سامرا » على أن هذه التصورات المصرية لإله الشمس العادل كانت شائعة الانتشار في الحياة الفلسطينية . فقد كشف الحفارون في خرائب قصر ملوك بني إسرائيل في « سامرا » بعض ألواح من العاج منقوشة نقشا بارزا كانت تستعمل يوما ما في التطعيم الزخر في الذي كان يحلى به أناث الملوك العبرانيين ، ومن بين تلك القطع قطعة نقشت عليها صورة إلحة العدالة « ماعت ، يحملها إلى أعلى ملاك شمس هليو بوليس في وضع نفهم منه أنه كان على ما يظهر يقدم تلك الصورة لاله الشمس . وتصميم الرسم مصرى في كل نواحيه ، إلا أن صناعته تدل بوضوح على أن نقشه من صنع أياد فلسطينية . ومن ذلك يتضح أن الصناع العبرانيين كانوا على علم ومعرفة بمثل تلك الرسوم المصرية القديمة ، وأن وجهاء العبرانيين كانوا على علم ومعرفة بفض الكراسي التي يجلسون عليها . ولم يكن إله الشمس ذات الأجنحة المتأصلة في وادى النيل معروفا عند العبرانيين بأنه إله عدالة فقط ، بل كان كذلك معروفا بأنه الإله الحامي لعباده الرءوف بهم ، وقد أشارت المزامير العبرانية أربع مرات إلى الحماية الموجودة « تحت (أوفى) ظل أجنحتك ، .

على أننا لم نجد قط ــكا ذكر نا ذلك فيما تقدم ــ أن « يهوه »كان يصور على أننا لم نجدة ، فى حين أنه قد عثر على صور رائعة سنحو تة للفرعون وإله الشمس يرفرف عليه فى شكل صقر له جناحان منتشران يحميان المليك(١).

وعلى ذلك نرى أن تصور إله الشمس المصرى القديم كأنه ملك عادل يعد من بين العوامل التي ساهمت في تحويل «يهوه» هذا إلى حاكم عادل بين الناس.

وقد كان ظهور الملكية العبرانية عاملا قويا فىذلك التطور، لأن العبرانيين كونوا فى أذهانهم بالندريج صورة لما يجب أن يكون عليه الملك الأمثل، فكان لذلك التصور أكبر تأثير فى تخيل عيموه، فى شكل ملك عادل.

⁽١) انظر الصورتين ٩ و١٩٠

وقد رأينا فيما تقدم انه قبل ظهور الملكية العبرانية بألف سنة كان الحكاء ١٠ الاجتماعيون المصريون القدماء قد رفعوا أصواتهم مطالبين بالعدالة الاجتماعية ، آملين بذلك الوصول إلى عصر يكون فيسه المثل الأعلى للسعادة البشرية في ظل حكم عادل يهيمن عليه ملك روف ، ولذلك نددوا بالغش والظلم اللذين يرزح تحت عبتهما كل من الفقير والوضيع على يد الغنى والقوى . وكثيرا ما أعلنت شكوى هؤلاء الحكاء في حضرة الملك نفسه .

وقد كانت أمثال مقالاتي ، أبور ، و « نفر روهو ، شائعة الانتشار كما سبق ذكره حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، ولدينا ما يدل بوجه قاطع على أن هذه الكتابات قد وجدت مجالا مبكرا لانتشارها في آسيا الغربية وبخاصة بين الفينيقيين الذين أثروا فىالعبرانيين تأثيراً عظيما لقربهم الشديد منهم كما تقول التوراة نفسها . وقد حدث منذ عشرة أعوام أن سقطت صخرة من واجهة الجبل المشرف على البحر الأبيض المتوسط في « ببلوص ، (جبيل) القديمة الواقعة على الساحل الفينيق شمالي بيروت ، فكشفت غن حجرة للدَّفن منحوتة في الصخر لاحد ملوك ذلك العصر الذيكان يعيش فيه أولثك الحكاء(١) الاجتماعيون المصريون القـدماء الذين كنا بصدد ذكرهم. وهذا الكشف مضافا إلى أعمال الحفر التي عملت في جنانة , جبيل ، الملكية التي أعقبت ذلك قد أماط لنا اللثام عن سلسلة من المقابر التي استعملت لدفن ملوك « جبيل » الفينيقيين . وهذه المقار مصرية في طرازها وبنائها ومحتوياتها لانها تشتمل على تو ابيت حجرية ضخمة من الطراز المصرى القديم وضعت فيها الجئث الملكية وجهزت بأوان وحلى غاية في البهاء، وجميعها ما بين مصنوع في مصر ويحمل أسماء فراعنة من الأسرة الثانية عشرة المصرية أو مصنوع في فينيقية على الطريقة المصرية القديمة . وهذه المقابر تدل بدون شك على آنتشار العادات الجنازية والدينية المصرية في فينيقية في ذلك العصر . على أن وجود مثل هذه العادات المستقاة من وادىالنيل لا يكاد يدع لدينا أى شك في أن لفائف البردي التيكتبها الحكماء(١) الاجتماعيون المصريون القدماء كانت كذلك معروفة في

^{- (}١) كانت بالأصل: الأنبياء.

فينيقية فى ذلك الوقت . هذا إلى أنه قد كشف عن عدد عظيم من المقابر فى منحدرات تل بلدة « مجدو ، عثر فيها على مقدار كبير من الجعلان « الجعارين » المصرية وغيرها من الرموز المقدسة التي يرجع عهدها إلى أيام حكماء الاجتماع المصريين القدما.

فن المحتمل إذن أن العقائد التبشيرية الاجتماعية التي قامت في مصر كانت معروفة في آسيا الغربية منذ عصر مبكر يرجع إلى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وأن الكنعانيين كانوا على علم بها قبل قيام العبرانيين بغزو فلسطين بزمن طويل. وقد صرح « زَكر بعل » ملك « ببلوص » (جبيل) الفينيتي في القرن الثاني عشر قبل الميلاد (أى في زمن القضاة العبرانيين) لرسول مصرى في بلاطه ، رغم امتهانه له ، أن المدنية قد جاءت إلى فينيقية عن طريق مصر ، فقال ما نصه : —

د إن آمون يمدكل الاقطار، وهو يمدها بعد أن أمد مصر التي جئت منها، إذ أن المهارة في الحرف قد خرجت من مصر لتصل إلى مكان مقامي، والتعليم قد خرج منها ليصل إلى مكان مقامي (١) ، . ومن الجلي أن هذه الكليات تكشف لنا عن الاعتراف بأن مصركانت منبعا لمدنية سامية في ذلك العهد.

ومن المهم أن نشير هنا فى هذه المناسبة إلى أن ذلك الرسول المصرى قد شاهد بنفسه شاباً فينيقيا يقع فى غيبوبة نبوة تماثل بالضبط ماكانت تمتاز به صورة النبوءة العبرانية المبكرة بين بنى إسرائل كما حدث مثلا فى أمر شاءول ومنه جاء المثل الذى يقول: أشاءول أيضا بين الانبياء ، ('').

ولا بد إذِن أن تعاليم الحكماء المصريين القدماء الاجتماعية كانت قد

⁽١) أنظر كتاب المؤلف: PP. 282 — 283): « ولما رآه جميع (٢) في سفر صمويل الأول (الأصحاح العاشر ١١ — ١٢): « ولما رآه جميع الذين عرفوه منذ أمس وما قبله أنه يتنبأ مع الأنبياء قال الشعب الواحد لصاحبه ماذا صار لابن قيس أشاءول أيضا بين الأنبياء . فأجاب رجل من هناك وقال ومن هو أبوهم . وكذلك ذهب مثلا أشاءول أيضًا بين الأنبياء .

كونت جزءا من التقاليد الدينية لدى الفينيقيين والكنعانيين وبقيت بينهم عدة قرون قبل أن تظهر و المسألة الاجتماعية ، وتشحد عواطف الرجال ذوى الشعور الخلق الحى من العبرانيين أمثال وعاموس ، و ه هوشع ، في خلال القرن الثامن قبل الميلاد . وكما حصل في مصر من قبل ،كانت رسالة أنبياء العبرانيين في أول أمرها أيضا لا تكاد تخرج عن كونها سخطا على سوء حالة العبرانيين في أول أمرها أيضا لا تكاد تخرج عن كونها سخطا على سوء حالة العدالة الاجتماعية (١) ، كما كان المسرح والإخراج التمثيلي لذلك السخط يقام في غالب الاوقات في البلاط الملكي ، بل كان يواجه به الملك نفسه ، كما كان عدث مالضبط في مصر .

وكانت أقوال النبي العبراني هي أيضا مثل ما كان يحدث ف مصر بالضبط، تنتقل من مجرد السخط إلى تصوير لعصر جديد يحل عندما يتولى الحكم ملك عادل يسود في عهده حكم العدالة ، ولعلنا نذكر تلك الصورة التي صورها ، ففر روهو ، لذلك الحكم حيث قال :

العدالة ستعود إلى مكانتها . والظلم سينبذ . .

وعند هذه النقطة نجد أن النبي العبراني يرتفع في تصريحاته إلى تصورات سامية تصور لنا أن رسالة قومه الحلقية موجهة لجميع العالم. فهي بذلك تسمو تماما على صورة المستقبل الذهبي الذي رسمه الحبكاء الصريون المبشرون القدماء ومع ذلك يجب ألا يغيب عن أذها ننا أن فكرة التبشير بعصر جديد قد نشأت بحذا فيرها من التفكير الاجتماعي الذي قام به رجال الفكر المصرى في وقت لم تكن قد أشرقت فيه بعد على روح الإنسان مثل تلك الصور للمثل العليا الإنسانية في أي بقعة من بقاع الارض ، فني عالم كانت فيه القوة دائماً هي الحق ، وكانت السكلمة العليا للقوة ، قد نظر المفكر المصرى الاجتماعي إلى ما وراء الأمور الواقعة وتجاسر على الاعتقاد بحلول عصر عدالة مثلي . وحينما علق بذهن النبي

ان المشابهة بين رسالة الأنبياء العبرانيين ورسالة الحكماء المصريين قد ذكرها العربين قد ذكرها العداد (١) إن المشابهة بين رسالة الأنبياء العبرانيين ورسالة الحكماء المصريين قد ذكرها القداد (١٥٠ العبرانيين العبرانيين العبرانيين العبرانيين العبرانيين العبرانيين قد ذكرها العبرانيين العبرانيين العبرانيين قد ذكرها العبرانيين العبرانيين قد ذكرها العبرانيين العبرانيين العبرانيين العبرانيين العبرانيين العبرانيين قد ذكرها العبرانيين العبرانيين المسابهة بين رسالة الأنبياء العبرانيين العبرانيين العبرانيين العبرانيين العبرانيين العبرانيين العبرانيين المسابهة بين رسالة الأنبياء العبرانيين العبرانيي

العبرانى بهاء تلك الرؤيا وارتفع إلى أفق أعلى منها فإنه كان فى الواقع يقف فوق كننى المصرى القديم . وحرى بالعالم الحديث أن يدرك أن تلك الرؤيا التبشيرية كان لها تاريخ يرجع إلى ما قبل وجود الآمة العبرانية بأكثر من ألف سنة .

والواقع أن هذه الرؤيا السامية للمثل العليا الاجتماعية هي تراث ورثناه عن ماضي بني الإنسان بأجمعه ، ولم يكن ميراثا عن شعب واحد بذاته .

وكذلك الحال في عالم السلوك، حيث نجد أن العبر انيين قد استقو اكثيرا من مؤلفات أو «أدب» الامثال والأساطير التي كانت منتشرة إذ ذاك انتشارا عالميا قبل سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد.

وحينها حاول النبي , أشعيا » أن يبرهن على أن « آشور » لم تكن إلا آلة فى يد , يهوه » ضرب لذلك مثلا عن الآلات الجامحة ، يتضح أنه بلا شك يرجع إلى أصل أجنبي ، قال :

« هل تفتخر الفأس على القاطع بها ، أو يتكبر المنشار على مردده ؛ كأن القضيب يحرك رافعه ،كأن العصا ترفع من ليس هو عوداً » .

(أشعيا الإصحاح العاشر - ١٥)

وكان يظن أولا أن مصدر ذلك النوع من القصص أو الأمثلة الخرافية هو بلاد الهند، ولكن الاستاذ « مسبرو » وجد منذ زمن طويل أقدم خرافة معروفة من تلك الخرافات على لوح كتابة مصرى بمتحف « تورينو » .

وقد تأثر الانبياء العبرانيون أيما تأثر بالمقابلة بين الرجل المستقيم والرجل الحبيث كما صورتها كتابات ذلك الحكيم المصرى القديم: فقد اقتبس وأرميا » تلك الصورة الهامة للشجر تين اللتين تصورهما وأمينمو بى » . كما يتضح ذلك من المقارنة الآتية: __

أمبنمو بي: (الحكيم المصرى القديم) والرجل الاحمق الذي يخدم في المعيد مثله كمثل شجرة نامية في غابة ، فني لحظة يفقد فروعه ويجد نهايته في [مرفأ الحشب] وينقل بعيداً عن مكانه ،

والنار مأواه .

والرجل الحــازم حقاً يغتقى لنفسه مكانا.

فإنه مثل شجرة نامية فى حديقة يزدهر ويتضاعف ثمره ويجلس فى حضرة سيده .

وَثَمْرَتُهُ حَلَوَةً وَظُلُهُ وَارْفُ ، ويجد آخرته في الحديقة .

(أمينموبي ١،١ - ١٢)

النبي أرميا: (من أسفار الكتاب المقدس) . ملعون ذلك الرجل الذي يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه ،

وعن الرب «يهوه » يحيد قلبه ويكون مثل العرعر في البادية ، ويكون إذا جاء الحير .

بل يسكن الحرة فى البرية أرضاً سبخة وغير مسكونه

ومبارك ذلك الرجل الذي يتكل على الرب هيهوه»، وكان الرب متكله . فإنه يكون كشجرة مغروسة على مياه وعلى نهر تمد أصولها . ولا تخشى إذا جاء الحر . ويكون ورقها أخضر، وفي سنة القحط لا تخاف ولا تكف عن الإثمار .

(أرميا ١٧،٥ - ٨)

وحينها يتأمل الباحث تلك الصورة الشيقة التى رسمها «أمينمو بي» للشجر تين أ فإنه يثب إلى ذهنه المزمور الأول الذى جاء فيه : ــــ

المزامير :

- (١) طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الاشرار،، وفى طريق الخطاة لم يقف ، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس .
- (٢) لكن في ناموس الرب ويهوه ، مسرته ، وفي ناموسه يلهيج بهار ا وليلا .
- (ُ ٣) فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه التي تعطى تُمرها في أوانه به وورقها لا يذبل ، وكل ما يصنعه ينجم.

(٤) ليس كذلك الأشرار لكنهم كالعصافة التي تذروها الربيخ

(ه) لذلك لا تقوم الاشرار في الحساب ولا الخطاة في جماعة الأبرار. (المزمور الأول: ١ – ٥)

والاحظ أن الحساب المذكور هنا لم يرد ذكره في دسفر المزامير، كله إلا هذه المرة . وهذه ملاحظة لها خطرها ، لأن فكرة الحساب في عالم الآخرة الحراينا فيها تقدم ــ هي من ثمرات التمدين المصري القديم .

وكذلك نلاحظ أن توكيد ذكر بجارى الميساه فى الصور العبرانية أمر هام أيضاً ، وذلك لأن النصف الجنوبي من فلسطين شبه صحراوى ، وكانت قلة الماء فيه من أسباب المتاعب الشديدة كما هي الحال هناك إلى يومنا هذا .

ونلاحظ من جهة أخرى أن العلامة والهيروغليفية ، الدالة على كلمة «حديقة ، كانت ترسم بصورة وبركة حديقة ، ولذلك كان مجرد ذكر كلمة «حديقة » دلالة على الماء لاعتبار ذلك عندهم من الاشياء البدهية ، ومن ثم لم تذكر كلمة وماء ، بعينها في الوصف الذي وضعه وامينمو بي »

ولذلك نرى أن مشابهة الصور المصرية للصور العبرانية أدق بما يبدو في الظاهر .

ويما يلفت النظر ذلك التعديل الذي أدخله كاتب المزامير بتركه كلمة وشجرة، واستعاله بدلا منهاكلية والعصافة ، للتعبير عن الرجل الشرير ، كما أن وأرميا ، فضل ذكر كلمة والعرعر ، البرى الجاف الذي يكثر وجوده في وطنه «يوده » وقد صاركل من الزمان والمكان اللذين عاش فيهما رجال الإصلاح الاجتماعيين الدينيين — وهم الذين نسميهم الأنبياء العبرانيين — مما يدخل في تاريخ تعاور حياتهم الحلقية والدينية — أمرا مفهو ما ذائعا الآن ، بفضل ما قام به العلماء المحدثون ومن ناحية أخرى لا نستطيع أن نقول مثل هذا القول عن العلماء العبرانية الدينية ، إذ قد قامت بشأنها اختلافات عريضة بين العلماء العبرانيين ومؤرخيهم من حيث تحديد تاريخ و المزامير » . فقد كان هناك رأى فيه غلى ينسبها إلى أصل متأخر جدا حتى لقد اعتبر تاريخ وضعها كلها بعد فيه غلى ينسبها إلى أصل متأخر جدا حتى لقد اعتبر تاريخ وضعها كلها بعد

عهد نفي العبرانين في بابل ، ولكننا نعرف أن الأناشيد الدينية كانت منتشرة في عهد مبكر جدا في كل من « بابل » و « مصر » ، ولم يكن هناك من الأسباب على ما يظهر ما يدعو أهل فلسطين — سواء أكانوا من الكنعانيين أم من العبرانيين — إلى عدم استعبال ذلك النوع مر الأدب قبل عهد « النفي العبراني » بزمان طويل ، أسوة بما رأيناه من اقتباس أنبياء العبرانيين للاراء الاجتماعية المصرية . ولا يمكننا أن نشك في أن النبي « أرميا » كان على علم بالصورة التي صورها الحكيم المصرى « امينمو بي ، للشجر تين ، ولا بد منأن نلك الصورة كانت كذلك معروفة عند مؤلف « المزمور » الأول .

وقد لاحظنا فيما سبق أن مؤلني «المزامير » العبرانيين قد رسموا صورة تدل على الحماية الإلهية المستمدة من تحت جناسي إله الشمس المصرى الظليلين ولا بد أنهم كانوا كذلك على علم بأنشو دة اخناتون » العظيمة التي وضعها لإله الشمس . وهنا أيضا يحتمل أن يكون الأصل المصرى القديم لتلك الأنشو دة قل التشر في فلسطين أو فينيقيه قبل ظهور المزامير العبرانية بزمن طويل . انتهى « اخناتون » من إخراج أنشو دته هذه قبل منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ومن البدهي أن أعداءه الحانقين عليه ما كانوا يتركونها تنتشر في مصر مدة سنة أو سبعة قرون (أي إلى ما بعد سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد بكثير) وهو الوقت الذي ابنداً فيه العبرانيون يبدون اهتمامهم بها ، وعلى ذلك يجب التسليم بأن تلك الأنشودة انتقلت إلى آسيا في عهد. «اخناتون » نفسه وأنها بذلك أفلت هناك من الدمار المحقق على يد أعدائه .

وقد حدث فيها تغيير عظيم بعد أن ترجمت إلى بعض اللهجات السامية من لهجات آسية الغربية ،كاللغات الفينيقية أو الأرامية أو العبرية على الأرجح على أنه بفحص محتويات الفقرات المشابهة لها (من المزمور ١٠٤) التى أوردناها فيها تقدم مع ترجمة الانشودة ، يظهر لنا مدى الشبه المدهش بين الصورتين ، لا من حيث مضمون «أنشودة أخناتون ، فحسب بل انتا كذلك نجده فى تتابع الافكار وترتيبها الظاهرى ، فإن ذلك بتى فى الرواية الاسيوية فجده فى تتابع الافكار وترتيبها الظاهرى ، فإن ذلك بتى فى الرواية الاسيوية فجده فى تتابع الافكار وترتيبها الظاهرى ، فإن ذلك بقى فى الرواية الاسيوية

كما كان فى أنشودة اخناتون ، ولا يمكن بحال أن تكون تلك المشابهات من قبيل الصدفة بل إنها بالعكس دليل على وجود جزء عظيم من الانشودة المصرية الدينية القديمة منشورا بشكل معدل فى المزامير العبرانية .

وقد مضى الآن ما يقرب من جيل منذ أن لفت المؤلف الحالى الانظار إلى التشابه المدهش الموجود بين المزمور ١٠٤ وبين الانشودة الاخناتونية المنظومة لإله الشمس^(۱). ولم يكن في استطاعتي في ذلك الوقت أن أتمرّض لأكثر من بيان وجه الشبه فقط، إذكان من الحكمة ألا تبني أية نتيجة على مجرد وجود تلك الحقيقة، ولكن الأبحاث والكشوف التي تلت ذلك العهد قدعيرت موقفنا تغييرا جوهريا، حيث صار لدينا الآن الأصل الميروغلبني المصرى الذي ترجمت ونشرت منه فقرات كاملة برمتها في «كتاب العهد القديم العبراني». فقد تعرف الاستاذ المأسوف عليه هو جو جرسمان» (Hugo Gressman) البحاثة الضليع وصاحب الرأى التاقب في الأدب العبراني، بلا تردد على المنهل المصرى الذي استق منه (المزمور ١٠٤) المذكور الذي انحدر إلى فلسطين المصرى الذي استق منه (المزمور ١٠٤) المذكور الذي انحدر إلى فلسطين على ما يعتقد عن طريق فينيقية ، بل قد ذهب الاستاذ «جرسمان» هذا إلى ابعد من ذلك ، بأن تعرف على وجود مؤثرات أجنبية في المزامير العبرانية، عيول:

« إن أقدم موضوع أسطورى تناولته « الآناشيد العبرانية » هو خلق العالم ، وهو وأسطورة الحلق نفسها يحتمل أنهما نشئا فى بابل ، وأما موضوع العناية الربانية بالعالم فإنها فكرة جاءت فيما بعد وقد شقت طريقها إلى المزامير الفلسطينية بتأثير مصر القديمة » .

وبذلك تكشف لنا أنشودة إخناتون عن المنهل الذى استق منه مؤلف المزمور العبراني إدراكه لرحمة الله في عَوْن مخلوقاته حتى أصغرها ،أى أنموقف العبرانيين من جهة الطبيعة بصفتها عالم الكون ، وتصورهم لعناية الخالق الرءوف

⁽١) أنظر كتاب المؤلف:

History of Egypt PP. 371-374 (1st. Ed., New York, 1905)

بخلقه ، يرجع أصله إلى أنشودة إخناتون وما يشبهها من الأناشيد الدينية بمصر القديمة ، ومن المحتمل كذلك أن الشعور بهذه الطيبة والشفقة الإلهية المعبرعته في الأنشودة الإخناتونية ـ والذي ظهر فيما بعد على الأخص في عصر النسك الشخصي في مصر ـ كان له أيضا تأثير هام في ظهور الندين الشخصي بين العرانيين .

ومن المهم كذلك أن نعرف ما إذاكانت أنشودة إخناتون بين العوامل التى أدت تدريجاً إلى اعتراف العبرانيين بالوحدانية ، ولا شك أنه من المحتمل جدا أن يكون لها بعض المسكانة بين مثل هذه العوامل . ذلك بأنه لما كان إخناتون ملكا على أمة ذات سيطرة عالمية فقد أكسبه ذلك تلك النظرة الأولية الواسعة التى رأينا صورتها من قبل منعكسة في أنشودته العظيمة ، والواقع أن أنشودة لها نظرة شاملة كهذه تتردد في أنفاسها الوحدانية الإلهية المطلقة وتنتشر في آسية الغربية قبل ظهور الأدب العبراني الذي جاء به الأنبياء العبرانيون بعدة قرون ، لا يستغرب أن يكون لها بعض التأثير في تكوين النظرة العالمية التي فرضت فيها بعد على الأنبياء العبرانيين بسبب حرج الموقف الذي وجد فيه شعبهم حيث فيها بعد على الأنبياء العبرانيين بسبب حرج الموقف الذي وجد فيه شعبهم حيث قد صاروا ألعوبة في يد المهالك العظيمة وقتئذ ، وقد بقيت حالهم تزداد حرجا إلى أن غيروا نظرتهم إلى « بهوه » الذي كان يوما ما معبودهم الحلي البدوى ، فصار في نظرهم إلها مسيطرا على كل الآمم ، يدير حركات جميع ملوك الأرض في النهاية السيطرة على كل مقاصدهم العدائية وتحويلها لخير بني إسرائيل مم لخير ويستطيع السيطرة على كل مقاصدهم العدائية وتحويلها لخير بني إسرائيل مم لخير جميع العالم في النهاية .

على أن وجهة نظر كهذه تؤدى — طبعا — إلى الاعتراف بنظام خلق عالمى ، ولعلنا نذكر أنكلة « إخناتون » العليا حينا حاول نشر عقيدة التوحيد الشمسية خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد كانت هى « العدالة » ، فكانت الحركة التى قام بها هى النطور المنطق للعقيدة الشمسية القديمة التى اعترفت بسيادة « ماعت » أى « العدالة ، بصفة كونها نظاما خلقيا قوميا . فكان مرمى الانشودة الإخناتونية النوسع فى تلك السيادة القومية للعدالة وجعلها نظاما

خلقيا عالميا تحت سيطرة إله واحد . على أنه ليس من السهل أن يستدل الباحث على انتقال الأفكار من جهة إلى أخرى ، غير أن البحوث الحديثة قد وضعتنا في موقف يمكننا من إثبات الحقيقة الجوهرية في هذا الشأن ، وهي أن العبرانيين اطلعوا على الادب الحلق والديني عند الامم الاخرى ونقلوا ما عثروا عليه من أفكارهم ، بل إنهم كانوا ينقلون هذه الآراء أحيانا بنفس التعابير التي صبغت فيها تلك الاصول الاجنبية .

والواقع أنه لا يوجد شيء في كل مجال الأدب العبراني كان له من التأثير العميق في الحضارة الغربية أكثر من تأثير نصائحهم في السلوك المستقيم عن طريق الامثال، وهي التي نسميها وسفر الامثال»؛ إذ أن ما في هذا الكتاب من التصوير السامي للأخلاق وما احتواه من الحكمة الحلقية النافذة قد امتزج بنفس مادة تصوراتنا الحديثة للحياة الفاضلة . ونجد في الترجمة الحلابة التي أقر بها و الملك جيمس و () من الامثال السائرة الحاذقة ما يتمثل به بيننا يوميا .

وقد أدت العبارة الشائعة وأمثال سليمان وإلى اعتقاد القارئ المعتاد أن أمثال ذلك السكتاب هي من عمل والملك سليمان الحسكيم، وفي الحق أنه يبتدئ بنسبة الكتاب إلى «سليمان» في مطلع الفصل الأول، شم تكررت تلك التسمية في بداية الفصل العاشر في شكل عنو أن لمجموعة أخرى من وأمثال سليمان» كا أنه توجد به مجموعة ثالثة تحمل اسم و سليمان» و تبتدى " بالفصل الخامس والعشرين ، في حين أن الفصلين النهائيين من الكتاب ينسبان إلى مؤلفين آخرين مجهولي الإسم وأحدهما منسوب إلى امرأة . فيتضبح من ذلك ومما يشهد به وكتاب الدهد القديم ، نفسه أن كتاب الإمثال هو مجرد مؤلفة جمعت من محموعات متفرقة ، ويوجد بالكتاب فضلا عن هذه المجاميع الحنس التي كانت يوما ما متفرقة ، مجموعة سادسة ، لأننا نجد في صلب الفصل الرابع والعشرين (حتى في الترجمة الإنجليزية) ما يكشف لنا عن عنوان جديد بهذا النص و هذه

⁽١) يقصد بذلك النسخة المنقحة من كتاب المهد القديم التي عملت بأمر الملك جيمس ملك انجلترا علم ١٦١١ بعد الميلاد .

أيضا «كلمات ، الحكاء ، ويلى ذلك مباشرة جزء قصير يجوز أنه ملحق وضعه مؤلف مجهول كما نجد دفونا في قلب الفصل الناني والعشرين ، دون أى إشارة تعليقية من جانب المترجمين حتى في النسيخة المنقحة ، ما هو بالتأكيد بداية جزء آخر إن لم يكن عنوانا له (٢٢ – ١٧) يسمى «كلمات الحكاء» مثل ما وجدناه في الفصل الرابع والعشرين سواء بسوا. . فمن هم يا ترى (هؤلاء الحكاء) المعلمون الاجتماعيون ؟ – لأن كلمة «حكاميم» العبرية يدل معناها على صيغة المعلمون الاجتماعيون ؟ – لأن كلمة «حكاميم» العبرية يدل معناها على صيغة المعلمون الاجتماعيون ؟ – لأن كلمة «حكاميم» العبرية يدل معناها على صيغة المجمع – الذين قاموا بكتابة هذا الجزء الذي يبلغ نحو فصل ونصف فصل ؟؟

الواقع أن هذا السؤال قد عجز عن الإجابة عنه كل الباحثين إلى وقت قريب جداً ، غير أنه قد طبعت ورقة بردية كانت قد مكت مدة طويلة في المتحف البريطاني ، فكشفت لنا عن أن مؤلف ذلك الجزء لم يكن سوى صديقنا المصرى القديم أمينمو بي ! وجميع العلماء بكتاب العهد القديم الذين يتعدّ بآراثهم وأبحاثهم فيه يجزمون الآن بأن محتويات ذلك الجزء الذي يؤلف نحو فصل ونصف فصل وكتاب الامثال، قد أخذ معظمه بالنص عن حكم الحكيم المصرى القديم أمينمو بي ، أي أن النسخة العبرانية هي تقريبا ترجمة حرفية عن الاصل الهيروغليني العتيق . وكذلك صار من الواضح أيضا أن حكم د أمينمو بي ، شائمة في مواضع عدة من كتاب العهد القديم ،حيث نراها مصدر التلك الافكار والتشبيهات والمقاييس الحلقية وبخياصة لروح الشفقة الإنسانية الحارة ، لا في كتاب الامثال فحسب بل في القوانين العبرانية وفي سفر «أيوب» وكما ذكرنا سابقا في سفر شاءول و « إرميا ، أيضا . وقد أشرنا آنفا إلى وجود عناصر أجنبية في كتاب الامثال لم يتردد المصنف القديم في الإشارة إليها في العناوين ،لأن الحكيم « أجور ، الذي تؤلف حكمه الفصل الثلاثين والملك لمويل ، الذي يدين ألامه بحكمه التي تؤلف الفصل الحادي والثلاثين لم يكونا مداهة من أصل عبراني . •

ویتضم بجلاء من « سفر الملوك » ۳۰۰۶ ــ ۳۱ ، أن أمثال « سلیمان » نمت فی جو سلمی ، إذ نری فیه ما یأتی : ـــ وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق (البدو) وكل حكمة مصر .

وكان أحكم من جميع النباس من إيثان الازراحي وهيمان وكلكول ودردع بي «ماحول»، وكانصيته في جميع الأمم حواليه».

(من سفر الماوك ٤ ، ٣٠ - ٣١)

فأسماء هؤلاء الأشخاص التي لا تنتمي إلى أصل عبراني تدل على أن كل أولئك الحكاء كانوا أجانب بالنسبة إلى العبرانيين .

وقد كان المعروف من زمان طويل أن « محاكمة » (١) سليان المشهورة ترجع إلى أصل هندى شرق ، ومع ذلك فإن الأبحاث العلمية لم تكشف لنا من قبل عن مؤلف شرقى قديم بلغة غير فلسطينية ترجم عنه بالتحقيق جزء بأكمله من «كتاب العهد القديم ، كا نرى في هذه الحالة . ولهذا الكشف أهمية بعيدة المدى لدرجة أننا مع اشفاقنا من ملل القارى " نرى أنه لا بد من إيراد بعض الأمثلة الدالة على ما تقدم ، فكلمات الحكما ، في «سفر الأمثال ، العبراني وفي حكم « أمينمو بي " تبتدى " بما يأتي :—

أمينموبى المصرى أمل أذنيك لتسمع أقو آلى واعكف قلبك على فهمها لآنه شيء مفيد إذا وضعتها في قلبك .

ولكن الويل لمن يتعداها .

سفر الأمثال العبراني ۱۷ ـــأملأذنكواسمع كلام الحكاء ووجه قلبك إلى معرفتى . ۱۸ ـــ لأنه حسن إن حفظتها

في جو فك .

إن ثبتت جميعا على شفتيك . سفر الأمثال (٢٢ ، ١٧ – ١٨)

والمقصود من مثل تلك النصائح قد عرّفته والإمثال »، وهو ما أشار إليه وأمينمو بى » من أن المهارة العملية أصل جوهرى فى المعاملات الرسمية ، كما زي فى نص كل منهما : ـــ

⁽١) يشير إلى قضاء سلمان بين المرأتين اللتين ادعت كل منهما أمومة الطفل .

أمينموبي المصرى لاجل أن تردعلي تقرير لمن قد أرسله .

سفر الأمثال العبراني ٢١ – لأعلمك قسط كلام الحق لترد جواب الحق للذين أرسلوك (سفر الأمثال ٢٢: ٢١)

غير أن العبارة «كلام الحق» الواردة في «سفر الأمثال» هي بالطبع تحريف لما يقابل كلمة «تقرير» الواردة في الأصل المصرى القديم.

وعلى أية حال فإننا نجد فى كل من « سفر الأمثال » وحكم ، امينمو بى » أن الغرض الخلق من تلك النصائح ظاهر فىكافة ثناياهما ، ولذلك ترى أن ايراد بعض أمثلة هنا مفيد جدا ، فن ذلك :

سفر الامثال العبراني ١٠ – لا تنقل التخم القـديم ولا تدخل حقول الايتام. (سفر الأمثال ٣٣ : ١٠)

أمينمو بي المصرى لاتز حزحن علامات حدود الحقول ... ولا تكونن شرِها من أجل ذراع . أرض، ولاتتعدين غلى حدود أرملة. (اسينمو بي ۷ ، ۲۲ – ۱۵)

ومن المهم أن نلاحظ أنه قبل انكشاف النقاب عن حكم « امينمو بى » هذه أبدى نقاد « العهد القديم » أنكلة « قديم » التى تشبه فى اللغة العبرانية كلمة «أزملة» هى بلا شك غلطة فى النسخة الخطبة صحتها « أرملة » ، وعلى ذلك ا تفقو العلم على جعل تلك الفقرة كالآتى : __

« لا تزحزحن حدود الأرملة
 ولا تدخلن فی حقول الیتامی »

وقد جاء انكشاف الأصل المصرى القديم مؤيدا لذلك التصحيح ومثبتا له. وقد يكون من أهم المشابهات العديدة البارزة التي يمكننا إبرادها هنا تلك التحذيرات الخاصة بالثراء، وهي: ـــ

أمينموبى المصرى

لاتمين نفسك فى طلب المزيد حينها تكون قد حصلت بالفعل على حاجتك

وإذا جلب إليك المال بالسرقة فإنه لا يمكث معك سواد الليل وعندما يأتى الصباح لا يكون بعد في منزلك

بل یکون قد صنع لنفسه أجنحة كالأوز وطار إلى السماء . (أمينموني ٩ ، ١٤ -- ١٠ ، ٥)

سفر الأمثال العبرى ٤ ـــ لاتتعب لكي تصير غيبا

لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحوه السماء . (سفر الأمثال ٣٣ : ٤ -- ٥)

والسطر الذى حذفناه هنا من نص « الأمثال » مشوه فى الأصل العبرانى ، ومن المحتمل أنه يمكن إصلاحه بفحص الأصل المصرى القديم ، غير أن تناول مثل هذه المسائل التحليلية لا يمكن فى مثل هذا الكتاب .

وفيما قبل سنة ٢٠٠٠ ق. م. كان حكاء الاجتماع المصريون قد وازنوا بين الغنى والآخلاق وفضلوا ، بصراحة ، الآخلاق على الغنى ، واعترفوا تمام الاعتراف بتفاهة الثراء المادى وأنه لا يجدى شيئا وبخاصة فى عالم الآخرة . وقد وفى المفكرون الاجتماعيون البحث فى حماقة الاتكال على الغنى فى نواح كثيرة مختلفة ، ونجد فى المواضع الكثيرة التى تناولت فيها الأمثال العبرانية هذا الموضوع ما يدل على أنها كانت واقعة بالبداهة تحت تأثير أقوال الحكاء المصريين القدماء . وقد تكون الموازنة الآتية إيضاحا آخر لذلك :

سفر الأمثال العبراني (يهوه) خير من كنز عظيم معهم.

١٧ – أكلة من البقول حيث تكون المحبة تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه بغضة (سفر الأمثال ١٥: ١٦ – ١٧)

أمينمو بى المصرى الفقر فى يد الله خير من الغنى فى الهُرْى (المخزن) وأرغفة (تحصل عليها) بقلب فرح خير من ثروة (تحصل عليها) فى تعاسة .

(أمينموبي ٩:٥ - ٨)

والمثال الآتي في نفس الموضوع أيضاً :

سفر الامثال العبراني 1 - لقمة يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام (سفر الأمثال ١٧ - ١)

أمينموبى المصرى والثناء على الإنسان كشخص محبوب عندالناس خير من الغنى فى الهُرْى (المخزن) (أمينموبى ١٦: ١١ – ١٢)

على أن تاريخ العبرانيين فيما يلى هذا العصر لا يترك بجالا للشك فى أنهم كانوا لا يكترثون بالقرة المالية ، أو النجاح فى الاعمال ، فضلا عن أن المصنف لسفر الامثال فى « العهد القديم » لم يتجاهل الحكمة المصرية القديمة التى من هذا القبيل كما سيأتى ذكره . وربما لاحظ الباحث أن تلك التحذيرات التى جاءت فى سفر الامثال بشأن الغنى والترف ليست مستقاة من «كلام الحكاء » فى التوراة (« الامثال ، ۲۲:۲۲ ، ۲۲) .

وهذه حقيقة جديرة بالاهتمام ، فإذا ما درست تلك الأمثال درسا أوفى فإن ذلك بلا شك يكشف لنا عن أن أفكار المصنف العبرانى فى كافة موضوعات سفر الأمثال كانت تعتمد على حِكم ، أمينمو بى ، ولدينا فيما يلى مثال آخر ، لا يدخل فى حدود ، كلمات الحكاء ، يحذر مر الحقد والانتقام (الامثال ٢٠:٢٠) .

ويهتم ، أمينمو بى ، كثيرا بتحذير الشباب من الحماقة أو مخالطة رجال ذلك الطراز ، كما ترى المصنف العراني أيضا محذر من ذلك ، حيث قالا :

أمينموبي المصرى

لا تصاحبن رجلا حاد الطبع ولا 'تلحن' في محادثته

(أمينموبي ١١، ١٣٠ – ١٤)

سفر الأمثال العبراني ٢٤ – لاتستصحب غضو با ومع رجل ساخط لاتجىء (سفر الأمثال ٢٢ : ٢٤)

ونجد أن المحكمة العادية التي تعبر نحن الرجل الطائش صاحب الطبع الحار في حكم « أمينموبي » هي بكل بساطة « الشخص الحاد ، ، ومن المهم أن نلاحظ هنا أن الاصل العبراني لنلك الفقرة إذا ترجم حرفيا يكون معناه « الرجل ذو الحرارة ، وهي عبارة لاتوجد قط في أية جهة أخرى من كتاب « العهد القديم ، وهي بالبداهة محاولة من المصنف لنقل التعبير المصرى القديم إلى العبرانية . وعلى كل حال نجد أن الغضب الطائش والانتقام مذمومان في كل من «سفر الامثال العبراني، وفي حكم «أمينمو بي المصرى» ، وإليك ماقالاه في شأن ذلك :

أمينموبى المصرى

لاتقوان قد وجدت حاميا والآن يمكنني أن أهاجم الرجل الممقوت.

ضع نفسك فى ذراعى الإله يهزمهم صمتك (يعنى الأعداء) (أمينموبى ٢٢ ، ١ – ٨)

شفر الامثال العبراني لاتقل انى أجازى شرا انتظر الرب (يهـــوه) فيخلصك

[لاتقل أجرى على الشر بل انتظر الرب فسخلصك] (سفر الأمثال ٢٠ : ٢٢)

وقدكان « أمينموبى » ينصح ابنه بنفس هذه الطريقة الشديدة ناهيا إياه عن مشاحنة الشخص الحاد الفم « لأن الإله يعرف كيف يجيبه على عمله (٥ ، ١٠ — ١٧) » . وذلك يشبه أيضا ماجاء في سفر الامثال وهو : « انتظر الرب (يهوه) فيخلصك » .

وتنفق نصائح «أمينمو بي » فيها يختص بالسلوك في حضرة أصحاب المقامات العالية مع الحياة المصرية القديمة أكثر بكثير بما تتفق مع الحياة العبرانية ، ذلك لان مراعاة السلوك اللائق في مصر من جانب الموظف المصرى الشاب كان لا مناص منه لمن كان يريد مستقبلا ناجحا . فكما أن آداب المياقة الرشيقة المرعية في البلاط الباريسي في عهد اللوايسة المتأخرين من ملوك فرنسا قد انتشرت في كل العواصم الأوربية التي كانت أقل ثقافة من باريس ، كذلك كانت تلك الآداب العالية ورسميات القصور في المعاملات الرسمية المستحدثة في أخلاق شعب في أصوله خشونة الصحراء البدوية ، في عهد الملكية العبرانية في أخلاق شعب في أصوله خشونة الصحراء البدوية ، في عهد الملكية العبرانية قبض موظفوه على زمام الحكم في فلسطين مدة قرون عديدة . ومن أجل قبض موظفوه على زمام الحكم في فلسطين مدة قرون عديدة . ومن أجل ذلك لم يتردد مصنف « سفر الأمثال ، العبراني في توصية الإسرائيلين نائص المصرى والنص العبراني :

أمينموبي المصرى

لاتأكل الحبز فى حضرة رجل يم

ولا تَعْرْض فمك فى حضرته . وإذا أشبعت نفسك من طعام محرم

فإن ذلك ليس إلا لذة ريقك. وانظر فقط (وأنت على المائدة) إلى الوعاء الذى أمامك وكن مكتفيا بما فيه

(أمينموبي ۲۳: ۱۳ – ۱۸)

سفر الأمثال العبراني

۱ – إذا جلست تأكل معمنسلط
 فتأمل ما هو أمامك تأملا

۲ – وضع سكينا لحنجرتك إن
 كنت شرها

٣ - الاتشته أطايبه الانها خبر
 أكاذيب

(سفر الأمثال ٢٣: ١ - ٣)

وكان المترجمون للرواية المنقحة من «كتاب العهد القديم » غير متأكدين عا إذا كانوا يترجمون النص العبرى بقولهم : « ما هو أمامك » أو يترجمونها « بالشخص الذي أمامك » ، وقد حل تلك المسألة ماجاء عن الحسكيم المصرى « أمينمو في » حيث قال ما ترجمته «الوعاء الذي أمامك» . وقد غير المصنف العبراني ترتيب الإفكار فنقل العبارة « خبز أكاذيب » التي توازى في الأصل (المصرى القديم « طعام محرم » وحرفيا : طعام خطأ) إلى السطر الآخير .

على أن نصيحة وأمينموبي ، المصرى هذه قديمة جدا ، لأنها مستقاة من حكم وبتاح حتب ، فكان عمرها في زمن وأمينموبي ، قد بلغ حوالى ألني سنة . ولذلك نجد نص النصيحة بالكلمات الأصلية التي فاه بها الحكيم و بتاح حتب ، أكثر وضوحا . قال :

ر إذاكنت امرءاً من الذين يجلسون (على المائدة)
فى حضرة رجل أعظم منك فخد منه حينها يعطيك
ما يضعه أمامك، ولا تنظر إلى ما هو أمامه
بل أنظر (فقط) إلى ما هو أمامك. ولاتقدفنه (حرفياترمينه)
بنظرات عديدة (لا تحملقن إليه).
واخفض من وجهك إلى أسفل إلى أن يخاطبك
و تكلم فقط حينها يوجه إليك السكلام »(١)

فنجد هنا إذن حكيها عبرانيا يفرض على الشباب الإسرائيلي نصائح في آداب اللياقة كانت هي بنفسها المرشد الهادي للموظفين المصريين القدماء في البلاط الفرعوني في العهد الذي ظهرت فيه الأهرام ، أي قرأ ذلك العهد

⁽۱) توجد بينات أخرى كيثيرة تدل على اعتاد «أمينموبى » على حكم « بتاح حتب » ويتضح منها أن «أمينموبى » كان يستعمل الأدب المصرى القديم السابق لعهده في تأليف كتابه المسكون من ٣٠ فصلا . وهذه حقيقة هامة لأنها تناقض ما يحاوله بعض علماء الكتاب المقدس من ارجاع عصر «امينموبى » إلى زمن متأخر وبذلك يعتبرون حكمه مستعارة من الأمثال العبرانية .

العبراني بألني سنة . وعلى ذلك يحتمل أن تكون تلك الفقرة أقدم مادة فى كتاب العهد القديم. ونجد في ذلك مثالًا رائعًا على أن الحياة العبرانية في فلسطين كانت تتطور تحت تأثير خبرة آلاف السنين من التجاريب الاجتماعية التي قد صارت تعد تاريخا قديما حينها ظهرت الأمة الإسرائيلية في عالم الوجود.

وقد لا يوجد في كتاب والعهد القديم ، مثل من الامثال كثر اقتباسه في عصرنا الحالي الذي ساد فيه الاهتمام بالمعاملات أكثر من ذلك المثل الذي يطري من محسن عمله ، وهو : « هل ترى رجلا ماه. ا في عمله إنه سيقف أمام الملوك . .

والترجمة السبعينية (وهي الترجمة الإغريقية القديمة) • لكتاب العهد القديم ، لا تحتوى على الفعل « ترى ؛ بل كانت تبندى بكلمة «رجل ، ، وقد أوضح الاستاذ , جرم ، أن الفعل الذي تبتدي به الجملة تابع للفقرة السابقة من الآصل العبراني (١) ، ولذلك نجنه أنه بعد إصلاح ذلك الخطأ تصير الموازنة هكذا:

سفر الأمثال العبراني ٢٩ - أرأيت رجلا بحتهدا في عمله ، أمام الملوك يقف

الكاتب الماهر في وظيفتـــه مسجد نفسه كفوا لأن يكون من رجال البلاط

أمينموبي المصرى

(أمينموبي المصرى ٢٧ ، ١٦ - ١٧) ا (سفر الأمثال العبراني ٢٧ : ٢٩)

ولا حصر لما نستطيع إيراده من أمثال تلك المهائلات المتشاجة ، ولكن ما أوردناه من الأمثلة التي ذكرت يكني بلا شك للدلالة على أن وسفر الأمثال، العيراني يحمل في ثناياه جزءا جو هريا من كتاب حكم لمصرى قديم سابق له .

Weiteres Zu Amen-em - ope und Proverbien in : راجع (١) eOrientalistische Literaturzeitung, Vol. 28 (1925) Col. 59.

وقد جرى ذلك النقل عن حِكم المصريين القدماء دون ذكر المصدر المنقول عنه ، وهذا أمر طبعى حصوله فى مثل ذلك الأوان ، غير أنه من الأمور الهامة أننا عثرنا فى كتاب ، سفر الأمثال ، على إشارة تدل بلا شك على الاقتباس من كتاب ، أمينمو بى ، المصرى القديم ، ولو أن هذه الإشارة لم تكن بطبيعة الحال على شكل عنوان أو بذكر اسم ذلك الحكيم المصرى الذى عاش فى مثل ذلك العصر البعيد . ذلك بأننا نجد فى المقدمة ، لكلمات الحكاء » السؤال الغريب الآتى ، وهو الذى قد حار فى ترجمته مصنفو الترجمة المنقحة لكتاب العهد القديم ، وهاك نص السؤال :

« ألم أكتب لك أمور ا شريفة

من جهة مؤامرة ومعرفة ؟ »

(سفر الأمثال ٢٢ : ٢٠)

وقد وضعت لجنة التنقيح ملاحظة فى الهامش خاصة بعبارة « أمورا شريفة » لفتوا بها النظر إلى أن « تلك العبارة مشكوك فيها » والواقع أن المصنفين العبرانيين الأقدمين كانوا أنفسهم يشكون فيها بعض الشك أيضا ، وذلك لأنهم وضعوا هجاء آخر لتلك الكلمة على هامش النسخة العبرانية فصارت الكلمة بحسب هجاء المصنفين العبرانيين القدامي تعني « ثلاثين » . فإذا ارتضينا هذه الكلمة يصير السؤال هكذا : « ألم أكتب لك أمورا ثلاثين من جهة مؤامرة ومعرفة » . ويبدو لنا لأول وهلة أن صيرورة السؤال بهذه الصيغة يحدثنا بشيء لامعني له ، ولكننا عندما نلاحظ كما لاحظ الاستاذ « إرمان ، أن « أمينموبي ، قد قسم كتابه المذكور إلى ثلاثين فصلا ورقها ، فإن كل شيء بعد ذلك يصير واضحا .

ولا بدأن لفافة البردى المصرية الحاوية لهذا الكتاب كانت تسمى فى فلسطين باسم « ثلاثون فصلا فى الحكمة » أو مايشبه ذلك ، ثم اختصر الاسم بعد ذلك على ما يظهر إلى عنوان بسيط أطلق عليها وهو « الثلاثون » .

وعلى ذلك تعطينا تلك الترجمة الحقيقية التي وصلنا إليها عن طريق اقتراح العالم « جرم » وبدون أى تغيير في أصل المتن العبراني الموازنة التالية :

من جهة مؤامرة ومعرفة سفر الأمثال (٢٢ : ٢٠) أمنيموبي المصري تبصر لنفسك في هذه الفصول الثلاثين

حتى تكون مسرة (لك) وتعليما (أمينموبى ۲۷ : ۷ -- ۸)

وإن ذكر أحد مؤلني والعهد القديم ، — على غير المألوف — لكتاب أجنى عن العبرانية ،كان ينقل عنه من غير تحفظ ، يؤكد لنا أنه كان تحت يده ترجمة عبرانية كاملة للكتاب الذي وضعه وأمينمو في المصرى ، بمعنى أن تلك الترجمة كانت تحتوى على جميع الثلاثين فصلا التي حواها الآصل المصرى الهيرغليني ، وإلا كانت كلمة وثلاثين » بعد وضعها في كتاب الامثال لاتدل على أي معنى ولكي يحافظ الناقل العبراني على هذا المعنى نراه ، مع عدم نقله للثلاثين فصلا التي يحويها الاصل المصرى القديم برمتها ، قد استعمل بالضبط و ثلاثين ، مثلا في نسختة العبرية المختصرة (الامثال ٢٢: ٢١ — ٢٤: ٢٢) .

ولا شك أن الفارى. قد كون لنفسه ملاحظة ذات أهبية بارزة بعد أن تأمل تلك الفقرات من كتاب الحكمة العبرية القديم ووضعها جنبا لجنب مع الاصل المصرى القديم الذى اقتبست منه . على أنه يتضح لنا ، خلافا للأجزاء التي ترجمت ترجمة حقيقية ، أن مصنف ، كتاب الامثال ، لم يكن مستسلما ولاآلة جامدة في نقل تلك الحكم المصرية القديمة عن الترجمة الفلسطينية .

وليس لدينا أمل كبير فى العثور يوما ما على تلك النرجمة . ولعله من الجائز أن يكون المترجم الفلسطيني نفسه قد أخرج الترجمة غير المقيدة التي وجدناها في «سفر الامثال » ، وعلى ذلك كان مصنف الامثال ينقل عن تلك الترجمة كما هي .

ومهما يكن من الأمر فإن الحقيقة الناصعة هي أن الصورة التي ظهرت بها حكم و أمنيوبي ، مرار في و سفر الأمثال ، توضع لنا بجلاء أن المترجم أو المصنف العبراني قد اقتبس في الغالب مجرد الأفكار المصرية القديمة ونشر ها بتصرف ، يماله من نظر ثاقب إلى الحياة ، وبماله من المهارة الآدبية السامية و الدراسة باللغة التى ينقل إليها وهي عادة لغته . ويتضح ذلك تماما من إيراد بعض الأمثلة الواضحة القاطعة . فنجد مثلا أن و الغني ويتخذ له أجنحة في كل من مصر وفلسطين ، غير أن الأجنحة المصرية كانت أجنحة وأوز ، ، وأما الأجنحة في فلسطين ، حيث لم تكن هناك مستنقعات زاخرة بالأوز البرى ، فقد أبدل المترجم بها أجنحة النسر .

• وكذلك نجد فى مصر أن رجل الأعمال الناجح كان فى العادة وكاتبا ، ،أما فى السطين حيث لم تكن الاحوال كذلك فإن المترجم العبرانى قد سماه و رجلا ، فقط ثم أردف ذلك بوصفه و بالمهارة فى عمله ، ليتم تحديد صفته .

ونجد فى مصر أيضا أن أهم دَين كان يدان به الإنسان لإله الشمس قبل ظهور و سفر الأمثال ، بأكثر من ألف سنة هو هبة الماء ، وقد اتخذ من شمو لها لكل العالم دليلا على المساواة بين جميع الناس . وأما فى فلسطين حيث يندر الماء ويكثر القحط ، فإننا نجد أن خلق يهوه لجميع العالم هو الذى اتخذ سببا للمساواة بين جميع الناس بالرغم عما يوجد من الفرق بين الغنى والفقر . وهاك ما جاء من التشابه فى ذلك بين متون التوابيت المصرية القديمة وبين «سفر الأمثال » العسرانى :

متون النوابيت المصرية لقد خلقت المياه العظيمة حتى

يتمكن الفقير من استعمالها مثل الغني

سفر الأمثال العبراني الغنى والفقير يتلاقيان صانعهما كليهما الرب (يهوه) (سفر الأمثال ٣٣ : ٢)

وقد أشرنا من قبل إشارة خفيفة إلى أن وجود روح الاتكال على المشيئة الإلهية فى حكم، أمينموبى ، قد أثرت تأثيراً دينيا عبقا لاشك فيه فى حكما. قلسطين وأنبياتها. فني نصيحة «أمينموبى» الجميلة القائلة: «ضع نفسك بين ذراعى الله » لا يكاد يخنى علينا أنها المصدر الذى نجد صداه فى الكلمات التى يسميها الناس « بركات موسى » وهى:

. إن الله الأبدى مكان سكن وتحتـه ذراعاه الابديتان » .

فالرجل الأمثل فى نظر الحكيم «أمينمونى» هو الذى يتكل على الله ويصبر على تحمل الظلم فى صمت ، واثقامن نزول الانتقام الإلهى على الظالم . فهل كان من باب الصدفة أن نجد الصيغة العبرانية ، التى ظهرت فيها بعد ، تقول عن أخلاق «موسى » ما يأتى : « وأما الرجل موسى » فكان حليها جدا

أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض .. (سفر العدد ٢٢ : ٣)

على حين أن « موسى ، قد مثل فى الصيغة القديمة بالرجل القوى المعتمد على نفسه وأنه رجل عمل مهاجم لا يحتمل وقوع أى ظلم على نفسه أو على قومه ؟ ولقد لفت الاستاذ « سلن ه (Sellin) النظر إلى أن المثل لاعلى فى الاخلاق عند العبر انيين القدامي كان يتمثل فى رجل العمل والقوة والحمكة ذى المال والبنين العديدين ، ولكن ظهرت بعد منتصف القرن الثامن ق. م : فكرة مخالفة لهذه بالمرة تصور الرجل المثالى بأنه هو الحليم المتواضع المهذب الصامت المجرد من الممتلكات المادية ، ونرى هذا المثل الإعلى فى ذروته متمثلا فى صورة الحادم المتألم الذى يوصف بأنه :

« لن يصيح أو يرفع صوته أو يجعله يسمع فى الشارع » (أشميا ٢: ٢)

وأقوى من ذلك مانجده فى تصور «أشعيا » السامى عند ما يقول:
« وكان مضطهدا ، ومع ذلك فإنه حينها عذب
لم يفتح فاه كالحمل الذى يساق إلى الجحزرة
وكالنعجة الصامتة أمام من يجزها ، فهكذا
هو لم يفتح فاه »

(أشعيا ٥٣ : ٧٠)

وكان الحكيم « أمينمو بى ، يجد دائما مثله الآعلى فى الرجل الصامت الذى يترك أمر، لله .

والآن وقد علمنا أن كتابه كان يقرأ في «أورشليم»، وأن الحكاء والآنبياء العبرانيين كانوا ينتخبون منه المختارات ويقتبسون الاقتباسات، فإنه يجدر بنا أن نتساءل عما إذا كانت فكرة المتألم الصامت عند بني إسرائيل لا ترجع في أصلها إلى الاجتماعيين المصريين. وعلى أية حال فإنه صار من الواضح الآن أن المثالية الاجتماعية التي قامت على سمو التقدير للأخلاق، والتي هي أقدم ما عرف لنا من مذاهب تفويض الامور للأقدار، بل كانت في ذلك العصر المذهب الوحيد من نوعه، قد ظهرت في مصر قبل سنة ٢٠٠٠ ق. م. وكانت نفس الكتب التي تحتوى عليها يقرؤها في «أورشليم» أولئك الرجال الذين أنتجوا تلك الكتابات التي نسميها الآن «العهد القديم».

وكيفكان يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ؟ فكما أننا نجد الآداب الأوروبية الحديثة قد نمت مشبعة بما ورثناه من قديم أدب الإغريق والرومان ، كذلك كان محتما أن يتأثر العبرانيون في فلسطين كل التأثر في أفكارهم وكتاباتهم بآداب تلك الأمة العظيمة التي قبضت على زمام فلسطين ووضعتها تحت سيطرتها الثقافية والسياسية مدة تفوق مدة نفوذ ، روما ، في بلاد الغال (فرنسا القديمة).

وعلى ذلك فإن تراثنا الحلق الدينى العظيم اللهم الذى انحدر إلينا من. العبرانيين بمكن التسليم بصفة قاطعة بأنه ميراث مزدوج.

فهو أولا: قد تكو"ن من خبرة بضعة آلاف من السنين مارسها الشرق الأدنى القديم، وبخاصة مصر، قبل ظهور الأمة العبرانية.

وثانيا: أن تلك الخبرة قد رسخت قدمها بشكل مدهش وزيد عليها بما اكتسبه العبرانيون أنفسهم من التجارب الاجتماعية المتواصلة ، على يد أولئك الانبياء والحكاء الاسرائيليين .

وقد كأن تبادل عوامل الثقافة بين فلسطين وجيرانها من كل الجهات

واضحاً منذ زمن بعيد على أساس ما لدنيا من الكتابات العبرانية فقط . فهذه الكتابات تكشف لنا عن دوام مرور قوافل التجارة الاجنبية بهذه الأنحاء ، فينها كان العبرانيون في حاجة إلى الحدادين فإنهم كانوا يحلبونهم من المدن الفلسطينية ، واقتبس مهندسو «سلمان » تصميم معبده فى «أورشليم » من تصميم معبد مصرى ، وكذلك مهرة الصناع الذين قاموا ببنائه فقد أرسلهم «هرام ، ملك «صيدا » إلى صديقه «سليمان » ، وتزوج «إهاب » ملك بني اسرائيل من أميرة فينيقية وتولى حمايتها في إحضار آلهة لها أجنبية عن العبرانيين ، وغيره من تلك الأمثلة التي لا حصر لها .

ويجب علينا الآن أن نضيف إلى هذه الأدلة المبينة المستقاة من وكتاب العهد القديم ، تلك الأدلة التي أسفرت عنها الأبحاث الأثرية الحديثة ، فقد أماطت لنا الحفائر الفلسطينية اللثام عن قائمة طويلة من البضائع الاجنبية التي اشتريت هناك ومعها عدد عظيم من الرسوم الزخر فية الأجنبية التي اجتلبت مع تلك البضائع، فضلا عن أدلة أخرى لا حصر لها تنطق بتأ ثير العوامل الاجنبية. فالأثاث الذي عثر عليه في قصر الملك « إهاب » في « سامرا » كان محلي بقطع من العاج نقشت عليها صور آلهة أجنبية وبخاصة من آلهة مصر القديمة (انظر شكل ١٨). والواقع أنه يمكن كتابة مجلد بأكمله عن العناصر الثقافية الاجنبية التي انتشرت في فلسطين قبل أن يستوطها العبرانيون وظل أثرها يزداد بعد ظهور الملكية العبرانية في عالم الوجود . وربماكان من الواضح أيضا منذ زمن بعيد أن الأدب العبراني ، بصفته معبرا عن الحياة العبرانية ، لابد أنه كان بطبيعة الحال، مطعها مثل تلك الحياة نفسها، بالمؤثرات الثقافية المنحدرة من الخارج، سواءكانت في القانون أم في الأساطير أم في الدين بوجه عام . ولا يقل عن ذلك كله المبادئ الخلقية . وقد رأينا فيما سبق أن العبرانيين أخذوا الكثير من قوانينهم وأساطيرهم عن المدنية البابلية ، أما في الأخلاق والدين والتفكير الاجتماعي بوجه عام ــ الذي هو أول نواحي اهتمامنا في هذا الكتاب ــ فإننا نجدهم قد بنوا حياتهم على الأسس المصرية القديمة . فالإسرائيليون يعد

استيطانهم فلسطين كانوا فى الواقع يسكنون أرضا من الأملاك المصرية مضت عليها فى هذه الحال قرون بأكلها . وقد استمرت بلادا مصرية عدة قرون بعد استيطان العبرانيين لها ، وحتى فى عهد متأخر كعهد حكم «سليان ، نجد أن الفرعون المصرى أهدى إلى الملك العبرانى مدينة «حِزر ، ، وهى بلدة حصينة من بلدان فلسطين كانت تقع على وجه التقريب فى كنف « بيت المقدس » .

هذا إلى أن النتائج الاساسية التي قامت وستقوم عليها دعامة المبادى الحلقية في الحياة المتحضرة في أيامنا ،كانت قد اهندت إليها الحياة المصرية قبل الوقت الذي أبتدأ فيه العبرانيون تجاريهم الاجتماعية في فلسطين بزمن طويل ، كاكانت تلك المبادئ الخلقية المصرية موجودة فعلا في فلسطين بصورة مدونة منذ قرون عدة حينها استوطنها العبرانيون.

حقا إن التوسع الذي أدخل على تلك التعاليم كثمرة من ثمرات الفكر والحياة العبرانية ، يعد ذاقيمة عظيمة للإنسانية لاتقاس بأى مقياس كان ، غير أننا عندما نعترف بهذه الحقيقة بجب ألا يفو تنا أن تلك المشاعر الخلقية التي تسود المجتمع المتمدين الآن ترجع في أصلها إلى عصر أقدم بكثير من «عصر النبوات، المعترف به من زمن بعيد ، وأنها قد انحدرت إلينا نحن أهل هذا العصر الحاضر من عهد لم تكن فيه الكتابات العبرانية قد وجدت بعد . وعلى ذلك تكون مصادر تراثنا من التقاليد الخلقية بعيدة كل البعد عن انحصارها في فلسطين وحدها ، وأنه يجب اعتبارها مشتملة كذلك على الحضارة المصرية . على فلسطين وحدها ، وأنه يجب اعتبارها مشتملة كذلك على الحضارة المصرية . على فاسبيل الذي وصل منه هذا التراث المجيد إلى العالم الغربي هو على وجه خاص ما بتي لنا من الآدب العبراني وحفظه لنا «كتاب العهد القديم» .

فإن زوال مدنيات الشرق القديم التى بنيت على أسسها المدنيّة العبرانية ، ومانتج عن ذلك من حرمان العالم الغربي من فهم كل كتابة وكل لغة لتلك المدنيات البائدة حتى ظلت في عالم صمت مدة ألني سنة . قد ترك الادب العبراني يضى النا وحده كأنه شعلة وحيدة من النور تحيط بها الظلمة الدامسة من جميع جهاتها . وعلى ذلك يكون مارد إلينا حديثا بالوسائل العلمية من بعض المعلومات عن

المدنيّات الشرقية المفقودة بمثابة قبس يضى علك الظلمة و يحيط بنى اسرائيل بنور يرجع إلى ماقبل عهدهم ببضعة آلاف من السنين . ولو أن العالم الغربي لم يفقد قطكل علم بأصول المدنيّة و تطورها لما كان يخطر ببال أى باحث قط أن يجعل للعبرانيين أى منزلة في التاريخ فوق أنهم بلغوا ذروة ذلك التطور الطويل السابق في الأخلاق والدين ، وأول ما كان يحصل بالتا كيد هو عدم ظهور ذلك المذهب اللاهوتي القائل بانفراد شعب واحد بالتمتع بالوحي الإلهي ، وهو المذهب الذي أعمى أبصارنا عدة قرون عن تعرف ذلك التراث الخلق الجليل المذهب الذي أعمى أبصارنا عدة قرون عن تعرف ذلك التراث الخلق الجليل المذهب البشر بعينها .

وعلى ذلك فإن أعظم فائدة إنشائية نجنها من وراء الاهتداء إلى حقيقة تلك المدنيات الشرقية القديمة المفقودة هي أنها ردت إلينا تراثا عرضه عرض الآفق – وهو التراث الذي قد خلفته لنا حياة بني الإنسان أجمعير. ففيه نجد أعظم وحي يخطر لنا ، وبه يمكننا الآن أن نستدل على أن انبثاق إدراك الإنسان للمهيزات التي تفرق بين السلوك الطيب والخاطيء إنما هو خطوة من خطى الناريخ ونتيجة للخبرة الاجتماعية ، وأن قيمة هذا الإدراك فوق كل تقدير لأنه إدراك نام لم تكمل بعد تطوراته التاريخية . فإن استردادنا لتلك المدنيات المفقودة هو الذي أمكننا به إقامة البراهين على أننا لم نقطع مرحلة تذكر بعد خروجنا من عهد الظلمة الحالكة السابق لظهور القيم الخلقية ، وأن تذكر بعد خروجنا من عهد الظلمة الحالكة السابق لظهور القيم الخلقية ، وأن لا تنف عند مطلع شمس عصر القيم الخلقية .

وإنى أعتقد أن الاستاذ « لويس أجاسيز » (Louis Agassiz) هو الذى (بعد أن فحص التزعزع الدائم فى الجبال الثلجية السويسرية ، وراقب انحدار كتل الصخر الكبيرة والصغيرة وهى فى قبضة الثلج ، ثم انفصالها عنه بتأثير شمس الصيف الحارة فتستحيل بذلك إلى سور من الصخور المتراكمة يحف بفوهة الوادى) — أدرك فى نهاية الامر أن هذه الحركة الجليدية كانت دائبة

على عملها هذا منذ أزمان بعيدة ،ثم أشرقت على عقله فجأة تلك الحقيقة الرائعة وهى أن تلك العمليات الجيولوجية التى جرت فى أزمنة سحيقة وأفضت إلى تكون الارض لاتزال دائبة مستمرة فى طريقها إلى يومنا هذا ، وأنها لم تنقطع وان تنقطع عن عملها قط . وبعد هذه النظرة القصيرة التى ألقيناها على أدوار التطور الخلق ، قد نكون محقين إذا قررنا من باب الموازئة والقياس أن ما ذكر عن فعل الثلوج ينطبق كل الانطباق على ما نحن بصدده من التطور الخلق فى بنى الإنسان .

الخاتمية

إن زبدة جميع الأشياء، وما ترمى الحرية والمخالطة والثورات إلى تكوينه ومنحه،
 هو « الآخلاق »، كما أن غاية الطبيعية هي أن
 تصل بمليكها (الإنسان) إلى هذا النتويج (يعنى الآخلاق) ،
 تصل بمليكها (عن إمرسون Emerson من مقال له في السياسة)

د إنى أحب التاريخ لأنه يظهر لى نشأة العدالة وتقدمها ، ويزيد من تقديرى لجماله أننى أرى فيه منتهى ارتقاء الطبيعة.

(اعن رسائل للكاتب « ه · تين » (H. Taine)

١ – الطبيعة ومصادقتها للبشرية

يحكى عن « هيكل » ((Haeckel) المتخصص فى علم الحياة أن بعض الناس سأله ذات مرة السؤال المثير للنفس الآتى :

« إذا فرض أنه كان فى مقدورك أن توجه إلى « الكون » سؤالا ، وكنت واثقا من أنك ستتلقى الإجابة الحقيقية ، فما هو ذلك السؤال الذى كنت ترغب فى توجيهه إليه ؟ ،

عندئذ ظل « هيكل ، غارقا فى التفكير بضع لحظات ، ثم قال إن السؤال الذى أفضل أن أسمع الإجابة عنه أكثر بما عداه هو : « هل الكون مصادق للبشرية ؟ »

والواقع أننا هنا أمام سؤال عميق ملهم .

فإن التطور الحلق الذي تتبعنا خطواته في الفصول السابقة يمكننا الآن من مناقشة سؤال الأستاذ «هيكل» هذا في ضوء حقائق ثبتت لنا أخيرا ويحتمل أن بعضها كان غير معروف له إذ ذاك ، وإن كانت لاغني عنها في هذه المناقشة .

وقد جرى العرف من زمن بعيد بأن مهمة المؤرخ هي أن يعرض النتائج التي وصل إليها ، وأن يشير بقدر المستطاع إلى الوثائق الآصلية التي نبت منها تنائجه ، و بعد ذلك يكون قد أدى واجبه وليس له أن يدخل في المغازى الخلقية بل تعد مهمته منتهية عند ذلك الحد .

فإذا كان القارى قد احتفظ بما يلزم من الصبر فى مطالعته ، فإنه لابد قد استطاع الإلمام بأهم الادلة المدونة التي تكشف لنا عن أصول أخلاقنا الموروثة وتاريخها المبكر كما جاءت مرتبة فى فصول هذا الكتاب . وإنى كمؤرخ لا يحق لى ذكر شيء فوق ما تحتاجه هذه الادلة من مناقشة . غير أن ما لهذه الادلة نفسها وللنتائج الناشئة عنها من الاهمية البعيدة المدى يرغبنى فى الإدلال ببعض ملاحظات إضافية خارجة فى الاصل عن دائرة اختصاصى ، ولاسيما أن خاتمة كتاب ما _ إذا كان هناك شيء يسمى بهذا الاسم _ تسمح بأن يدلى المؤلف فيها بكل ما يروقه قوله .

والآن نعود إلى سؤال الاستاذ وهيكل ، وإننى مع شعورى بشيء من الاعتزاز بالرأى أقول إلى كنت أود أن أسأله هو السؤال التالى . « من أين أتيت بكلمة « مصادق ، هذه ؟ » ذلك لان الاسناذ « هيكل » قد اعتبر مدلول كلة « مصادق » أمرا بديهيا كما يعتبر المؤرخ الطبيعي المادة عاملا من عوامل عثه دون أن يطالب بتفسيره .

ولكن مدلول كلمة « مصادق » ايس أمرا بديهيا ، بل إن مجرد ظهورها في سؤال الاستاذ ، هيكل » هو في الواقع إجابة عن السؤال نفسه ، وكان من الواجب أن يسأل عن إيضاح تلك الكلمة . فلولا أن الاستاذ « هيكل » قد مات منذ زمن طويل لكان من الامور الشائقة أن تسمع إجابته عن ذلك. ومن المحتمل أن إجابته كانت تكون شيئا شبيها بما يأتي :

« ولم هذا ؟ « إن كلمة « مصادق » كلمة مألوَّقة فى جميع اللغات الحديثة المتمدينة » .

ولكن المعترف به من زمن بعيد هو أن اللغة أكثر من مجرد أداة نقل للتعبير عن الفكر . بل الواقع أن اللغة هي أداة نقل مؤلفة من تجاريب

البشر ، لدرجة أنها من الوجهة التاريخية تعتبر إلى حد ما سجلا لتجاريب البشر في جميع نواحيها المتعددة ، سواء أكانت اجتماعية أم صناعية أم علمية أُم ميكانيكية أم فنية أم خلقية أم دينية أم حكومية ، إلى غير ذلك . فإذا توجهنا بنظرنا مثلا إلى سلعة هامة من نتائج تجاريبنا الميكانيكية فى الوقت الحاضر ، وهي السيارة ، فإننا نجد أن الكلمات « جراج ، و « شو فير ، (ساتق) و دشاسي ، (الجزء الأسفل من هيكل السيارة) د وتُنتُو ، (نوع من العربات) ونحوها قد بدأ استعمالها ينتشر في اللغة الانجليزية منذ حوالي جيل من الزمن. وسيستمر ظهورهذه المجموعة الصغيره منالكلمات بأصلها الاجنى إلى ماقد يبلغ آلاف السنين برهانا على حقيقتين تاريخيتين في تجاريبنا : الأولى : ظهور استعبال والاتوموبيلات، في أواخر القرن التاسع عشر، والثانية: أن أصل و الأتومو بيل ، ومبدأ استعماله العام كمخترع عملي يرجع إلى فرنسا . ومن الأمثلة الشائقة التي يمكن اقتباسها من الحياة البشرية المبكرة كلمة « ببلوص » (Biblos) التي يحتمل أنها ظهرت في أوربا في وقت يرجع إلى حوالى عام ١٠٠٠ ق . م . وقد أدخلت في اللغة الإغريقية بمدلول كلمة « بابيروس » (ورق). ويعد ظهور هذه الكلمة في اللغة الإغريقية قبل سنة ٥٠٠ ق . م . بعدة قرون (على الأرجح) دليلا على وقت بداية دخول الورق في أوريا ، كما يعتبر اسمه غير اليوناني ــ يعني إسمه الأجنى الذي اشتقت منه كلمتنا « بيبل » ومعناها « التوراة » ــ دليلا قاطعا على أن مدينة « ببلوص ، الفينيقية الواقعة على ساحل سوريا الشمالي كانت هي المصدر المباشر لأول ورق استعمل في أوريا .

وهكذا نجد فى مدفون طيات اللغة إيضاحا لمنشأ اختراعين بشريين ملموسين تماما، وهما و الاتوموبيل، الذى بدأ استعماله فى عصرنا الحالى، والورق (البابيروس) الذى كان أول دخوله إلى أوربا منذ زمن يزيد على خمسة وعشرين قرنا . وما يسرى على هاتين الكلمتين من حيث أدلائهما بالمعلومات عن الاختراعات الميكانيكية الحديثة يسرى بطبيعة الحال كذلك بالنسبة للشئون الاقل مادية فى ارتقاء الحياة الإنسانية، عندما نهضت من حالة بالنسبة للشئون الاقل مادية فى ارتقاء الحياة الإنسانية، عندما نهضت من حالة

الهمجية أو الوحشية وسارت نحو بلوغ تلك القيم النفسية الباطنة التي أفضت إلى ظهور مثل الكلمات: «صديق» و «مصادق» و «مصادقة».

وما دام الأمركذلك أفلايكون الأستاذ وهيكل، حينها وضع سؤاله المتقدم ذكره: «هل الكون مصادق للبشرية»؟ قد فاتنه أهمية مجرد وجود كله «مصادق ، ؟ وقد رأينا عند فحصنا للوثائق المصرية القديمة أنه يوجد في لغتها وفي تاريخها ما يدل على بزوغ فجر تلك الصفات البشرية وارتقائها المبكر عند قدماء المصريين بما تنم عليه كلمة ومصادق .

ومن المؤكد أنه لوكان الأستاذ «هيكل » يشاركنا الآن في هذه المناقشة لكان له فيها تعليق يعتد به ربما كانت صيغته على الصورة الآتية: «وكيف يكون ما برهنت عليه تاريخيا من ظهوركلة «مصادق » جوابا على سؤالى الأصلى ؟ إننا إذا سلمنا أن الإنسان الطبيعي قد نشأ من أصل الكون المنطور ، ثم سلمنا أن الحبرة البشرية هي التي ابتكرت «المصادفة » وأنمتها ، فإن معنى ذلك أنك تتكلم عن الخبرة البشرية ، في حين أن سؤالي منصب على الكون ، ؟

وعلى الرغم من أن الفكرة القائلة بأن الإنسان جزء من الطبيعة ب سابقة لعهد الفيلسوف «لوك » ، فإن المقدمات التي بني عليها آراءه هي التي على ما يظهر قد أدت بالفلاسفة إلى تلك النتيجة . وهي نتيجة من عمل الفلاسفة بنوها صطبعا ب على مقدمات فلسفية . أما في أيامنا هذه فقد صار في استطاعة أبحاث علم الحفائر الجيولوجية وعلم آثار ما قبل التاريخ أن يتتبعا تاريخ الإنسان الطبعي وهو يهض من العصور الجيولوجية ويخرج من العالم الطبعي ، وعلى ذلك تزداد الأدلة باطراد على أن الإنسان جزء من الطبيعة ، ولو من ناحيته الطبعية على الأدلة باطراد على أن الإنسان جزء من الطبيعة ، ولو من ناحيته الطبعية على الأقل . ثم إن أقدم الوثائق المدونة التي وصلت إلينا عن ماضي البشرية تكشف لنا أيضا عن أر تقائه حتى بلغ عهد الوعي الأخلاق .

ومن العجيب أن هذه الحقيقة قد خفيت _ على ما يظهر _ على المفكرين. وعلى كل حال فقد صرنا الآن لانعتمد على أقوال الفلاسفة ، كما كان

الحال في عهد , جيته ، (Geothe) ، في مجرد الافتراض بأن الإنسان فيض من انتساح الطبيعة ، ووثائق الشرق الأدنى القديمة تبرهن بالدلائل التاريخية هذه الحقيقة .

وقصة نشأة بنى البشركما أماطت عنها اللشام الأبحاث الأخيرة فى الشرق الآدنى القديم تظهر لنا بأجلى بيان ، لا من الوجهة الفلسفية بل من الوجهة التاريخية ، أن خبرة بتى البشر هى آخر مرحلة فى تاريخ الكون، أى أن الخبرة البشرية ، هى بقدر ما وصلت إليه معارفنا ، ثمرة من ثمرات ذلك التاريخ .

وفى قصة حياة الرقى البشرى التى كنا نتتبع سير خطواتها فى هذا الكتاب التقطنا خيوط الحياة الإنسانية الآخذة فى الارتقاء عند النقطة التى صار فيها الإنسان أول مخلوق عرف بمقدرته على صنع الآلات فى زمن لا يقل 'بعده عن مئات الآلاف من السنين بل قد يبلغ مليونا من السنين . ونحن الآن نعتبر الابحاث عن تلك المرحلة من حياة الإنسان ملكا شائعا بين علياء الحفائر وعلماء الجيولوجية من جهة وعلماء الآثار من جهة أخرى .

ونحن علماء الطبائع الإنسانية عند ما نريد البحث عن ذلك اليصر السحيق نتكاتف مع علماء التاريخ الطبعى ــ لما نجنيه كلانا من جهودنا المشتركة ــ فهى تجربة نافعة لكلينا.

فالإنسان _ فى الحالة التى وجد عليها فى فجر العصر الحجرى _ يعتبر موضوعه داخلا فى أبحاث العلماء الطبعيين ، وإن كان العلم لم يبين لنا النقطة التى انقطعت عندها صلة البشرية بذلك الكون المنطور فلم تعد جزءاً منه .

ولنرجع بالبصركرة عاجلة بالرغم مماسيو قعنا فيه ذلك من بعض التكرار، ناظرين في مدى تاريخ الحياة البشرية منذ ذلك الوقت، للبحث عما إذا كان في مقدورنا أن بجد نقطة لم تعد البشرية بعدها جزءاً من ذلك الكون.

و بالرغم من السرعة التى اتبعناها فى هذا الكتاب فقد استطعنا أن نقتنى أثر أقدم من عرفنا من أجداد الحضارة فى أدوار حياتهم التى قامت على الصيد فى أنحاء هضبة الصحراء الكبرى، المترامية الآطراف، فى ذلك العهد السحيق الذى كانت فيه مرتفعاتها – الماحلة الآن – لا تزال خضراء يكسوها الكلائ

الآخضر. ويقول علماء الحفائر العلمية إن ذلك الصائد الفطرى الذى كان يهيم في غابات الصحراء خلال عصر ما قبل التاريخ ، كان مخلوقا نشأ من تطور حباة الكون ، أى أنه كان لا يزال جزءاً غير منفصم من ذلك الكون .

ثم نرى آنه فى أنحاء جميع شمالى إفريقية أخذت تلك الحلة الحضراء المترامية الأطراف تذوى وتنقبض ببطء فى خلال مائة ألف سنة أو تزيد، حتى صرنا نرى تلك الخائل والغابات البرية تتلاشى وتختنى تدريجاً ، كا كانت المياه التى تنخفض فى بحيرة صحراوية ما، على امتداد وادى النيل، كالرمل المتناقص فى ساعة رملية زجاجية، تقيس لنا مدى تلك الازمان الطويلة التى كان يتناقص فى خلالها سقوط الامطار فى شمالى إفريقية فيحيل تلك الصحراء الشاسعة تدريجاً إلى بيداء ماحلة لا تشتمل إلا على صخور ورمال جامدة . وعندما اضطر أولئك الصيادون المتوحشون إلى هجر هضبة تلك الصحراء بهذه الصورة والنزول إلى وادى النيل، ألم يعودوا جزءاً من ذلك الكون المتطور؟

وحينها قاموا على أثر ذلك بحبس حيواناتهم المتوحشة في الحظائر العظيمة ليتخذوا منها ماشية أنيسة كالبقر والغنم والمعز والحمير ، وحينها أصبحوا لا يكتفون بأكل بذور الحشائش البرية، وصاروا يزرعونها ويتعهدونها كالشعير والقمح ، ثم خلعوا عن أنفسهم حياة الصيادين المتجولين واستوطنوا قرى صغيرة رعاة وزراعا — ألم يعودوا جزءا غير منفصم من ذلك الكون المستمر في الارتقاء ؟

وبعد بناء تلك القرى التى من عصر ما قبل التاريخ ــ وهى التى كان يقطنها أولئك الرعاة والحراثون ــ والتى كانت مبعثرة فيما يبلغ ٧٠٠ أو ٨٠٠ ميل على طول وادى النيل ، وبعد تحولها بنأ ثير عدة آلاف من السنين من النطورات الاجتماعية إلى أقدم دولة معروفة فى غضون التاريخ يتألف سكانها من عدة ملايين من النسمات ، تعرف المعادن والكتابة وتسيطر عليها حكومة منظمة تنظيما ساميا وتقوم ببناء أضخم المبانى التى لم 'يبن مثلها قط فى ذلك العالم القديم، دالة بذلك على قوة تغليما الهائل على العوامل المادية ــ ألم يعودوا بعد كل ذلك بأية حال جزءا من ذلك الكون المتطوّر ؟

وحينها بدأ تخمر تلك العوامل الاجتماعية عند فجر ما يسمى عصر التاريخ — أى قبل عام ٣٠٠٠ ق . م . ببضعة قرون ، وظهر تأثير أقدم عصر عرف فيه الاحتكاك الاجتماعي ، الذي استمر نحو ألف سنة نم ظهر أخيرا قبل عام ٢٠٠٠ ق . م . في صورة أقدم حرب مقدسة في سبيل العدالة الاجتماعية وابتغاء إيجاد عهد جديد قوامه الشفقة الأخوية ، أي حكم المصادقة — فهل يجب بعد ذلك أن نفصم أولئك النفر الذين هم أقدم دعاة للمثل العليا في الاجتماع عن تلك المراحل السابقة في ذلك الكون المنطور ؟

وهنا نجد القيمة الاساسية لنتائج الكشوف التي كشفتها أنا الطبقات الجيولوجية ومدائن الشرق القديمة وجباناته. فإن هذه الكشوف تميط لنا اللثام عن بحموعة من الصور الرائعة نرى فيها المرحلة تلو المرحلة في طريق تقدم البشر وارتقائه . فني بداية الطريق نرى الإنسان يبدو بشكل واضح خارجا من العصور الجيولوجية ، وبعد مضى عدة مئات من آلاف السنين ينهض من ذلك الفتح المادي المحض إلى المستوى الذي يدرك فيه معنى الشفقة الآخوية: فهنالك نرى ظهور الإنسان الطبعي في وحشيته الحيوانية التي ترجع إلى العصور الجيولوجية ، وهنا نجد دنيا رحيمة رفيقة تستعمل كلمة . مصادقة ، التي هي موضوع السؤال الثاقب الذي أراد الأسناذ « هيكل » أن يوجهه إلى الكون ! وبين هاتين المرحلتين نرى ذلك التقدم الذي يربط بعضهما ببعض، وهو تقدم لم نجد للآن ما يبرهن عليه من الشواهد والأدلة غير الحياة الإنسانية المبكرة فوق ضفاف النيل ، حيث رأينا ذلك التقدم وكأنه معمل اجتماعي عظيم ، بما كان يحويه من الحياة البشرية التي ترجع بدايتها إلى قلك التقلبات السحيقة في القدم التي كونت سطح الكرة الأرضية في شكله الحالى . وبذلك نجد أن وادى النيل هو الميدان الفريد الذى نستطيع أن نرقب فيه صراع الإنسان وهو يخطو بحياته في سبيل الرقى ، من أول ظهور الإنسان الطبعي ، إلى ما تلا ذلك من جميع انتصاراته على ما اعترض حياته الناهضة ، إلى أن رأيناه في آخر المطاف يصل إلى إدراك ما تشمله الإنسانية من الإخاء والمصادقة .

٢ ــ الانتقال العظيم وبطء التقدم البشرى

ما تقدم يتضح أن الاعتراض الذي نفترض ابداءه من الاستاذ هيكل (وربماكنا غير منصفين في ذلك الافتراض) وهو أن الحبرة الانسانية ليست مرحلة من مراحل تقدم الكون ، قد فند لاول مرة تفنيداً تا ريخيا في قصة مصر القديمة . وقد فحصنا فيها سبق ، على عجل ، بعض الإشارات والمعالم الموضحة لذلك الطريق الطويل الذي اجتازه الانسان منذ فتوحه في عالم المادة إلى أن وصل إلى تلك الكشوف المدهشة للقيم النفسية الباطنة ، أي إلى ذلك الانتصار الذي أحرزه على ذاته وإدراكه للمسئوليات الاجتماعية ، فبفضل هذه الوثائق الاجتماعية صرنا نعرف أنناكنا نقتني منها حركة لا تتصل بتاريخ المكون اليه معلوماتنا .

والحقيقة أن ذلك الانتقال هو موضوع هذا الكتاب، ويضاف اليه أيضا تلك الحقيقة العظمى وهي أن والانتقال العظيم » كما سنسميه هنا الايزال ناقصا أي أنه لا يزال سائرا في طريقه نحو الرقى وقد حاولنا فيما تقدم الكشف عن تكوينه واقتفاء تاريخه المبكر، فرأينا أنه أوجد لأول مرة الكشف عن تكوينه وحدها بل في الكون نفسه كما هو معروف للانسان المعانى جديدة وكلمات جديدة للدلالة عليها، وهي معان لقوى تسمو على تقلبات المادة وتنتقل بنا إلى عالم البواعث والاحتمالات النفسية، الفردية منها والشعبية، عا بدأ بنو البشر يشعرون به الآن فقط شعورا مهما.

وبداية و الانتقال العظيم » هي التي تنميز على وجه خاص بظهور كلمات جديدة خطيرة الشأن. فإن كلمة الاستاذ هيكل و مصادق » ليست إلا كلمة من مجموع كلمات من هذا القبيل ظهرت لأول مرة وكانت أشبه شيء بصور إشارات الاصبع إلى طريق جديد ، فصارت بذلك عندنا بمثابة آثار تاريخية مؤذنة بحلول و العصر الاخلاق » أو و عصر الخلق ».

وقد سبق أن أشرنا فيما تقدم إلى ما ذكر فى مقال عن الجراحة والتشريح عند قدماء المصريين كتب فى باكورة الألف الثالث ق. م ويحتوى على أقدم استعمال لكلمة « مخ » . ولما لم تكن هناك ب بطبيعة الحال ف ذلك الوقت كلمة شائعة الاستعمال للدلالة على المخ يمكن لمؤلف ذلك المقال استعمالها ، فإيه أخذ كلمة معتادة تعنى « آين » أو « شبه سائل تخين » يشبه النخاع . ولسكى يتجنب التباس المعنى بغيره أضاف إليها كلمة « الجمجمة » ، فصار التعبير الجديد بذلك «عجينة الجمجمة » أو ونخاع الجمجمة » وأطلق التعبير حتى صار علما على والمنج ، وذلك فى أقدم بحث تناول هذا الموضوع . وهذا الطبيب المختص فى التشريح الجراحى الذي يرجع عهده إلى نحو • • • ه سنة مضت ، كان يعرف فعلا أن الجراحى الذي يرجع عهده إلى نحو • • • ه سنة مضت ، كان يعرف فعلا أن المخت هو المركز الحساس الشعور والسيطرة على أعضاء الجسم الإفساني . غير المنح فته العلمية كانت حديثة العهد فى زمنه لدرجة أنها لم تستطع أن تحل محل الاعتقاد القديم القائل بأن القلب هو مكان الفهم .

وعلى ذلك لما صار أولتك القوم المبكرون يشعرون بوظيفة الفهم الإنسانى الذى يميز بين السلوك المستقيم الصائب وبين ضده من السلوك المعوج الخاطئ استعملوا له حكرها لاطوعا ح تلك النكلمة القديمة «قلب » بريدون بها الإدراك الخلق الذى يقوم به القلب . وبذلك صار المعنى الجديد وهو قدرة الإنسان على إدراك المميزات الخلقية (أى ضميره) على يسمى فى نهاية الأمر كذلك بكلمة ، قلب » . وهذا الاسم « القلب » لم يبدأ هذا المعنى الجديد (الضمير) تاريخه كقوة اجتماعية فحسب ، بل استمر يحصل هذا الاسم كذلك آلافا من السنين ، كما رأينا ، إلى يومنا هذا .

وربما كان من المهم لرجال الكهانة وغيرهم من معلمي الأخلاق في أيامنا هذه أن يعرفوا أن ذلك المعنى (الذي كان في يوم ما جديدا) لكلمة وقلب، القديمة ، وهو ذلك المعنى الذي اكتسبته منذ حوالى خسة آلاف من السنين الماضيات ، قد جعل هذه الكلمة تذكارا أثريا لذلك الانتقال العظيم الذي نحن بصدد بحثه الآن.

وهذه الوظيفة الجديدة للعقل الإنساني هي التي سهلت علينا إدراك معنى الآخلاق أو الخلق. وانه لمن الممتع حقا أن نعرف الوقت الذي بدأت تظهر فيه نفس كلمة أخلاق أو «خلق، لأول مرة في كلام أبناء البشر. لقد بدأ ذلك في عصر الاهرام، وسرعان ماصارت متداولة في موضوعات التعليق والتأمل. ففي حكم « بتاح حتب ، نرى ذلك الوزير الحكيم المسن يذكر ابنه بأن «الفضيلة في الابن لها قيمة عظيمة عند الوالد، وأن الإخلاق الحسنة شي، جدير بالذكر، وبذلك ينسب أقدم استعمال لتلك الكلمة إلى القرن السابع والعشرين. ق م وبعد انقضاء نحو خمسة قرون على ذلك العهد نجدها في تلك النصائح التي وجهها أحد الفراعنة إلى ابنه « مريكارع » ، حيث يقول إن الله عز وجل هو «الذي يعرف الأخلاق » .

على أن كلمة وأخلاق ، أو وخلق ، فى حد ذاتها كلمة تثير اهتهاما كبيرا ، لأن معناها الآصلى مأخوذ من فعل معناه ويشكل ، ويكون، ويبنى ، وقد كانت تستعمل فى عصر مبكر للدلالة بنوع خاص على العمل الذى يقوم به صانع الفخار أثناء تشكيله للأوانى الصلصالية فوق عجلته . ومعنى كلمة وأخلاق ، المشتق من أصلها يشبه بصورة تلفت النظر كلمتنا وأخلاق ، التى معناها فى الأصل اليونانى والطابع الذى يتركه الحتم المنقوش فوق الطين الطرى أو الشمع ، أو والطابع الذى فوق المعدن فى صك النقود » .

وقد رأينا كيف أن العوامل الجديدة التى تنطق بها هذه الكلمات الجديدة أخذت تعمل عملها بمثابة قوى اجتماعية حتى أفضت إلى نظام جديد أبرزه أيضا حكما، الاخلاق المصريون وصار يعبر عنه عندهم بكلمة «ماعت» التى يريدون بها «الحق» و «الاستقامة و «العدل» و «الصدق»، كا.كان يراد بها عندهم أيضا النظام الحلق الذى كانت فيه تلك الصفات هى القوى المسيطرة وهذه الإلفاظ ، مضافا إليها «الضمير » والاخلاق، تعد آثارا خالدة لذلك الانتقال الذى ظهر في الحياة فوق كوكبنا الارضى ، وقد ظهرت لنا ظهورا تاريخيا عن طريق الوثائق المصرية القديمة التى دونت فيها بين سنتى تاريخيا عن طريق الوثائق المصرية القديمة التى دونت فيها بين سنتى

وفى هذا الانتقال التاريخي ، الذي حدث لأول مرة فوق كرتنا الارمنية — بل فى الكون على ما نعلم — نجد أن المصريين هم السكاشفون للأخلاق .

ومن الأمور ذات الأهمية الأساسية أن يعرف العالم الحديث مبلغ حداثة ذلك الكشف. فإن الحضارة البشرية مبنية على الآخلاق، وإذ ان هذه الأسس لا تزال حديثة جدا فلا داعى لأن نشعر بشيء من القنوط أو خور العزيمة إذا وجدنا أن هذا البناء لم يظهر عليه بعد ذلك الثبات الذي كنا نتمنى وصوله إليه.

ولا نزاع فى أن سخرية المستر و منكن » (Mencken) اللاذعة كثيرا ما تكون فى محلها ، كما أن شدة الحاجة البادية للعيان لعمل إصلاحات فى البناء شهى " الفرص الكثيرة للغمزات المسلية التى نراها على صفحات مجلى و بنش « (۲) و « لايف » (Punch & Life) أو فى روايات و برنار دشو » (Bernard Shaw) أو فى روايات و برنار دشو » (المنحصيات والاوضاع عملا أسهل وأربح بكثير جدا من أية محاولة للنظر إلى تقدم الإنسانية نظرة جدية .

وكذلك يوجدكثير من الاتهامات أكثر خلوا من الغرض وقائمة على اعتبارات جوهرية تقول بأن البناء مصدع بدرجة لا تدع بحالا لإصلاحه . فنجد أن رأز فالد سبنجلر (۲) (Oswald Spengler) يصرح عبنا بالسقوط النهائي للمدنية الغربية ، مع أنه ليس من الصعب أن نبرهن على أن مراثيه المحزنة مبنية على جهل فاضح بحقيقة التقدم الإنساني . فإنه يلاحظ أن « سبنجلر » يشير إلى المدنية المصرية القديمة بتوسع في كتابته ، فلو كان لديه علم كاف بهذه المدنية لما وجد فيها سندا لنتائجه التشاؤمية . فإن المدهش العجيب هو أن نجد مخلوقا

⁽١) مجلة مصورة هزلية أسست سنة ١٨٤١ م .. ولا تزال تصدر إلى الآن . وهي مشهورة بنكاتها وتندد في صورة مضحكة في انتقاداتها بالحالة الاجتماعية في عصرنا .

⁽ ٢) أزفالد سبنجار فيلسوف عصرى ألمانى الأصل. وقداًلف كتابا عنوانه « أفول شمس الحضارة الغربية»، وقد استندكثيرا على الحضارة المصرية وشاد بذكرها. أنظر: Das Undergang des Abends Lands.

ناهضا من الوحشية الحيوانية يرتق إلى درجة تجعله يبتدى هذا الانتقال العظيم، ولذلك يجب ألا نقلق كثيرًا إذا رأينا هذا الإنسان يتردد تارة أو يضل أخرى حينها يخطو متقدما إلى الامام في سبيل الارتقاء بهذا الانتقال.

على أن ذوى العقول الرزينة جميعهم يقفون فى حيرة مؤلمة ، بينها يطرح بعضنا ثوب الأوهام جملة ، عند تأمل حال الإنسان الحديث وقد استولت عليه قوة التخريب التى وضعها فى يده العلم الحديث بماوصل إليه من المقدرة والتفنن فى صنع الآلات الحربية .

والواقع أن رجال العلوم الطبيعية يهتمون أيما اهتمام بأن قوة الإنسان ، المنشئة منها والمخربة ، فى تقدم مستمر منذ أزمنة سحيقة ، وبخاصة بعد أن كشف أخيرا عن و رجل بكين ، الذى يحتمل أن يرجع زمنه إلى نحو مليون من السنين الماضيات ، إذ قد اتضح أنه لم يكن فى قدرته أن يوقد النار فحسب (أى أنه أقدم مثل معروف لإشعال الإنسان للنار) ، بل إنه أيضا و صنع الاسلحة من الحجر ، ، وبذلك صرنا نعتبره أول بشر معروف لنا كان فى قدرته صنع الاسلحة فى عالم الوجود .

غير أنه قد فات رجال العلوم والمؤرخين على السواء تقدير مركز الإنسان الحالى تقديرا كافيا بالنسبة لوقت ظهور الضمير كعامل من العوامل الاجتماعية، لأن ذلك لم يكن إلا فى الأمس القريب، وهو فى الحقيقة حادث جدير بأن يؤرخ به كما يؤرخ بعهد استعمال المعادن التدريجي، وإن عصر الاخلاق الذي نتج عن ظهور الضمير لايكاد يزيد عمره على أربعة آلاف من السنين. والواقع أن تطور حياة الإنسان، كالتطورات الطبيعية الأخرى، يسير فى بطء، وقد يكون سير الانتقال العظيم نحو السكال كبطء النشوء والتطور الإنساني فى الطبيعة، لأنه فى مدة مئات آلاف السنين العديدة التي تقع بين « رجل بكين ، المكشوف حديثا وبين « رجل ناياندر تال » (Neanderthal) قد ازداد المخ البشرى نحو ٥٠٪ من حجمه ، في حين أنه من وقت « رجل ناياندر تال » البشرى نحو ٥٠٪ من حجمه ، في حين أنه من وقت « رجل ناياندر تال » البشرى خو ٠٥٪ من حجمه ، في حين أنه من وقت « رجل ناياندر تال »

شيئا قط، أى أن نسبة تطور الإنسان بطيئة بدرجة هائلة ، وعلى ذلك يكون أوج ذلك اليوم الخلق الذى انبثق فجره علينا الآن فقط لا يزال بعيدا جدا عنا ، ويجب أن نتذرع بالصبر الطويل ، وبعبارة أخرى بصبر ذلك الذى يعرف كيف ينتظر في سكون واطمئنان إذا لزم الأمر ذلك .

ولعله لا يوجد مثل يدل على بطء ارتقاء الروح البشرية وتقدمها أوضلح من المو ازنة التالية بين أفكار أحد الحكماء المصريين القدماء الذي يرجع عهده إلى نحو ٣٠٠٠ سنة مضت وبين أفكار أحد الروائبين المفكرين الحديثين في عصرنا الحالى. وها هي ذه:

حكيم مصرى قديم من منذ حوالى

ديا آمون أنت أيها الينبوع الحلو الذى يشغى الظمأ فى الصحراء . إنه لموصد لمن يتكلم ، ومفتوح لمن يتذرع بالصمت ، وحينها يأتى الصامت تأمل فإنه يجد الينبوع . .

شارلسمورجان فى كتابه الينبوع(١) فى سنة ١٩٣٢ :

و ومع ذلك فإنه كان فى سكينة، بل يظهر أنه قد دخل الردهة القصوى للسكينة نفسها حيث كان ينبوع الروح ينبثق كجدول من الماء فوق الارض » • (ص١٠٧)

ومن المعلوم أن مثل هذه المعانى عن الروح المتأملة كانت بطبيعة الحال من عميزات الشرق القديم ، غير أنه يمكننا أن تقتبس موازنة أخرى كهذه من حياة العمل والمخاطرة ، وهي :

السندباد المصرى حو الى ٢٠٠٠ق.م: سعيد من يتحدث عن مآسيه بعد مضيما

فرجيل ومن المسرات أحيانا ذكر تلك التجاريب

وبعد انقضاء الحياة ، سواء أكانت حياة تأمل أم حياة مخاطرة مملوءة بالأحداث ، نجد أن أفكار «سبنسر» (Spenser) في مدح الموت تماثل صدى أقو الأيوب مصر القديمة ، وهو الذي سميناه في هذا الكتاب باسم والتعس ، كالآتي :

The Founfain, by Charles Morgan. (1)

أيوب المصرى

د إن الموت أماى اليوم كمثل المريض الذى يقرب من الشفاء ومثل الذهاب إلى حديقة عند النقاهة من المرض . إن الموت أماى اليوم مثل مجرى الفيضان من الماء ومثل رجوع الرجل من سفينة حرية إلى منزله »

سبنسر الإنجليزي من كتابه Faerie Queene »

إنه ينعم الآن براحة أبدية .
أليس الألم القصير الذي يحتمله الإنسان هو الذي يجلب له الراحة الطويلة ويطرح بالروح لتنام في قبرصامت ؟
إن النوم بعد النعب والوصول بالسفينة

إلى المرسى بعدانهاء العاصفة البحرية والراحة بعد الحرب والموت بعد الحياة: فيه السرور العظيم (خطبة اليأس)

على أن مثل هذه الأصداء الحديثة العهد نسبيا ليست نادرة حتى فى المدافن الكنسية الانجليزية ، (حيث نجد فوق لوحة أحد قبورها ما يماثل لوحة أحد قبور قدماء المصريين) . وإليك البيان :

لوحة قبر شریف مصری قدیم من حوالی ۳۰۰۰ ق . م:

« إن فضيلة الرجل هي أثره ولكنالرجل السي ُ السمعة منسي».

لبيان: لوحة قبر لأحد الانجليز في مدنن كالمنطق مدنن المنطق المنطق

(Burford ,Oxfordshire) من القر ف الثامن عشر م :

إن المدائح المدونة فوق الحجر ليست إلا ألقابا مستعارة بالباطل،

وحسن سمعة الرجلهو أعظم أثرله .

ومن الممكن أن نورد هنا ما لا حصر له من الأمثلة التي تبين كيف تمر الأجيال، ألف السنة تلو الآخرى، وكل جيل يجمع تجاريبه الخاصة به ومع ذلك يعيد ويكرر الكثير بما أوحت به تجاريب العصور التي جاءت قبل عصره، وهكذا دواليك في جميع الأزمأن.

٣ ــ الانتقال العظيم بصفته تعبيراً عن تجاريب البشرية

مهما يكن من بط. تجمع التجاريب الإنسانية فن المهم جدا أن نعترف بالحقيقة الناريخية التى تنطق بأن الانتقال العظيم الذى كنا نناقشه أخيرا هو تمرة التجاريب البشرية ونتيجتها، وأن القوة المحركة للتقدم الإنساني منذ ذلك الوقت كانت هى الخبرة البشرية، وأن خبرة الإنسان نفسه كانت وستبقى دائما أعظم معلم له.

فإن سن قانون التعديل الثامن عشر إنما كان محاولة من أهل الولايات المتحدة الامريكية للقيام بتجربة جديدة، ولكن الحبرة الاجتماعية أثبتت أن محاولة السيطرة على العادات الاجتماعية كان نصيبها الفشل. فالحبرة الاجتماعية إذن هي المعلم الذي لا تلين قناته لغامن.

حقاً إنه ليس من عالم مفكر من علماء الأدب العبراني الذي نسميه والعهد القديم ، إلا ويشعر بقوة ذلك الكتاب ويقدر الدور الإساسي الهام الذي لعبه في تقدم المدنية الغربية . غير أنه يجب علينا أن نعترف أيضاً بأن وكتاب العهد القديم ، كجزء من الأدب العبراني القديم لايخرج كذلك عن كونه سجلا للتجاريب البشرية القديمة . فقد كنا في الصفحات السابقة نربط الحياة السامية في عالم مدنيتنا الغربية الحديثة بمصادرها الأصلية الأولى من حياة الإنسان في الشرق القديم في زمن يرجع عهده إلى ماقبل بداية التاريخ العبرى بأكثر من ألني سنة ، وبعملنا على هذا النهج لم نعثر على أصول الشعور الخلق فحسب ، بل عثر ناكذلك على فصول بحذافيرها من التاريخ الاجتماعي ، ونقصد بذلك قصة حياة أمة عظيمة على فصول بحذافيرها من التاريخ الاجتماعي ، ونقصد بذلك قصة حياة أمة عظيمة كا تجلت أمامنا في مدة تقرب من ثلاثة آلاف من السنين ، أنتجت في خلالها أقدم التصور التالخلقية العميقة وتمخضت تجاريبها عن المبلدي الخلقية الناضجة التي عُبِرُ عنها فيها خلفته من الأدب الضخم . ولم يقتصر الام على ذلك ، بل رأينا ذلك التقدم يسير في طريقه حتى أنتج ذلك الآدب قبل بداية ما يسميه

علما، اللاهوت القدامى ، بعصر الأنبياء ، بعدة قرون ، وقد برهنا بالأدلة الناريخية على أن ذلك الأدب لم يبق فقط إلى العهد المسمى بعصر الأنبياء ، بل كان له أيضا تأثير عميق فى التطور الخلق والدينى عند العبرانيين ، وهم الذين ورثنا عنهم تراثنا الخلق العظيم .

على أن مصادر تراثنا الخلق كانت تمند إلى مسافة بعيدة جداً وراه الحدود الفلسطينية ، إذ كانت تشمل كل أنحاء الشرق الأدنى القديم وبخاصة مصر التى ظهرت فيها أقدم التصورات الروحية السامية فى المثل العليا الاجتماعية . ولم يكن فى مقدورنا قط من قبل أن ندرك تلك المصادر الكبرى التى أخذنا عنها ذلك التراث الخلق المنعدم المثيل ، لأن السبيل الذى وصل منه إلى العالم الغربي هو الأدب العبراني وحده ، بل إننا لم نكن نعرف من قبل ذلك الأصل العالمي المركب الذي تألف منه ذلك الأدب .

وإن الفكرة المنبوذة الآن التي تفترض وحياً مُمَيِّزًا منحصرا في شعب واحد دون سواه ، نمت في وقت كانت فيه المدنية الغربية تجهل تمام الجهل قصة نهوض الإنسان و تاريخ المدنيات البائدة التي سبقت عهد العبرانبين . وعلى ذلك نعيد هنا ما قلناه من قبل من أن مثل ذلك التصور الذي يقصر الوحى على شعب واحد ما كان ليظهر قط لو لم تكن لغات الشرق القديم قد فقدت ولم تعد سجلاتها مفهومة لأى إنسان ، مما أدى إلى اختفاء الأدب الأخلاقي والديني لتلك المدنيات العظيمة التي يزيد عمرها على عمر العبرانيين بضعة آلاف من السنين .

ولعل أجل خدمة خدمتها لنا الحفائر الآثرية هي إماطتها اللثام عن التقدم الاجتماعي والخلقي الذي أحرزته تلك الجماعات الشرقية القديمة قبل نهوض للأدب العبراني وقيامه يزمن طويل .

وإن هذا الكشف الذى وصل إليه العلم الحديث يعد من أمم الكشوف العميقة البعيدة المدى . فلقد أبان لنا أنناكنا الوارثين لحياة الإنسان المبكرة على وجه عام ، وبخاصة تلك الحياة التى سارت فى مدارج التقدم حول الطرف الشرق من البحر الأبيض المتوسط.

ومن الظاهر بالطبع أنه لا يدخل فى دائرة أبحاثنا هنا تلك الزيادات النفيسة التى أضيفت إلى ذلك النراث نتيجة للتفكير الحلق فى أوربا القديمة والحديثة وفى اعتقادى أن تصورنا الجديد للأدب العبرانى ، بما أثبت التاريخ صحته ، لا يحط من شأن ذلك الأدب بل على العكس يرفع من قدره ، إذ أنه يكشف لنا فى الواقع عن صورة جديدة للمصادر الكبرى التى نبعت منها تلك المؤثرات الإنسانية التى ضربت بأعراقها فى مادة المدنية الغربية . وكثيرا مانسمع عما يسمى « النزعة الإنسانية الجديدة ، . فهذه النزعة تتجلى روحها فى البحث الحديث الذى يجرى فى التربة التى غرست فيها أول حبة خلقية فنمت وآتت أكاها . وقد كشفت لنا الأبحاث الشرقية عن حقيقة واضحة ، هى أن التربة التى أخرجت أجمل زهرة من المثل العليا الاجتماعية هى الحياة البشرية . ومتى أقتنعنا ، عن هذا الطريق ، أن تصور الإنسان للأخلاق البشرية المثلى أقدم بكثير من «عصر الأنبياء» ، فإننا نكون قد وصلنا إلى أساس جديد عريض

ع _ الماضي الجديد كمؤثر خلقي جديد

للثقة ببني الإنسان .

لقد أصاب اللورد « أكتون » كبد الحقيقة حين قال : . إن إماطة اللئام عن العالم القديم يعد بعد كشف الدنيا الجديدة ، الحادث الثانى الذي يفصل بيننا وبين القرون الوسطى ويميز الإنتقال إلى الحياة الحديثة » . وتجد فى رأى هذا المؤرخ الفذ أن العاملين العظيمين اللذين أخرجا الناس من العصور الوسطى إلى الحياة الجديدة ينحصر ان فى الرؤية التى تنظر إلى الأمام وإلى الوراء معا ، وهى التى لم تفطن فقط إلى المجال الذي لاحد له أمام مستقبل العالم الجديد بعد سنة ١٤٩٢ م . ، بل استمدت كذلك أعمق الإلهام من الماضى الذي الشف عنه حديثا بصورته التى تعرقها الناس من مدوناته التى وصلت إلينا ومن كشف عنه حديثا بصورته التى تعرفها الناس من مدوناته التى وصلت إلينا ومن الأعمال العامة الاخرى التى قام بها أعاظم رجاله . فاذا كان ذلك « العالم القديم » أى الماضى الذي أشار إليه اللورد « أكتون » ؟

الواقع أنه لم يَكشف لأوائل أهل العصر الحديث عن أقل إشارة تدل على ذلك والانتقال العظيم، الذي نحن بصدده ، إذ أن كل ما كان يعرفه أولئك الذين برزوا من العصور الوسطى عن الماضي هو كما نعلم كلنا قصة وكتاب العهد القديم، ، ومن بعدها تاريخ اليونان والرومان . لكننا الآن نعرف أن الجهد الذي بدأ عند فجر عصر النهضة لتمرّف أخبار العالم القديم، لم ينقطع حبله في عصر النهضة ، بل إنه كما رأينا قد استمر متو اصلا فى خلال جميع القرون التي مضت منذ ذلك الوقت ، وسائرًا بخطى سريعة ، وبخاصة في خلال الجيلين الأخيرين . فنحن الآن لا نصغى فقط إلى صوت . أشعياً ، و . داود ، و « سقر اط » و. شيشرون ، كماكان يصغى إليهم وحدهم رجال عصر النهضة ، بل اننا نصغى كذلك إلى أصو ات ملوك الشرق العظام في قصصهم التي يفاخرون فيهابفتو حاتهم في البحر الابيض المتوسط ، وإلى أصوات الحكماء المصريين وهم يبشرون بحلول العصر الذهبي للعدالة الاجتماعية ، وإلى صوت دخوفو ، الذي ينطق مبناه الهائل المنيُّ عن انتصارات أول دولة عظيمة منظمة ، وإلى صوت أقدم سباك للمعادن يعني في رنات سندانه الحديدي الساذج نشيد تغلب الإنسان المقبل على أنحاء الأرض ، وإلى صوت أولئك الأجيال من الناس الذين تقادمت علمم العهود فصاروا نسيآ منسيا فلا تسمع أصواتهم الآن إلا عن طريق رسالة تلك الآلات الحجرية المنقطعة النظير في دقة صنعها ، وإلى أصوات أهل العهود الجيولوجية الذين كانوا يهمهمون بحناجرهم الحشنة بتلك الكلمات البشرية الساذجة التي يخيل إلينا أننا نسمع رنينها يدوي في أنحاء الغابات التي يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ ، مرددا صدى أولكلام واضح لتلك المخلوقات التي يصعب تمييزهم وهم على وشك أن يصيروا بشرا بالمعني الذِّي نعرفه .

ونحن الآن ننظر إلى الوراء من خلال تلك الآباد والعصور ، من تاريخية وسابقة للتاريخ ، ونصغى إلى الأصداء التى تأتى الينا من مشاهد تلك الأزمان . وقد تمثلت هذه الرؤية أمام الشاعر الانجليزى « تنيسون ، وهو ينظر في مهد بكر أولاده ، حيث يقول : «من الأعماق ياولدى» .. ومثل هذه الصورة لهذا «الماضى الجديد ، انما أخذت تشرق الآن فقط على عقول رجال هذا العصر الحديث ،

ولها من القيم ما لم نبرهن بعد على شيء منه . وأن من يدرك هذه الرؤية على حقيقتها فإنه يكون قد بدأ يقرأ قصة وأوديسي ، بني البشر الجليلة ، وهي التي تظهر لنا الإنسان وهوخارج من ظلام الأبديات ، مندفعا بجبهة مرفوعة إلى شمس حياة جديدة سامية تفوق أحلامه . أعنى بذلك مغامرته السامية على مدى العصور .

وأحياناكانت تأخذنى الحيرة فيما إذاكانت الرؤيا التي قد تشرق على الروح الإنسانية فى الفن والآدب وتكون باعثا لها على التعبير عن نفسية صاحبها، يمكن موازنتها بما تحقق من الإمكانيات الإنسانية كما رأيناها فى ذلك الانتقال فى الحياة البشرية الذى حاولنا تتبعه فى هذا السكتاب.

وليس هناك من شك في أن ما رآه و إمرسون » في نفس الموضوع الذي ذكر ناه هنا في شكل تطور مؤيد بالادلة التاريخية لم يكن إلا بجرد حدس محض و فيها عدا ذلك فإن الروج البشرية لم تعبر عن ذلك قط اللهم إلا مايحتمل حصوله في الموسيق . فإنني حينها أستمع إلى القوة الهائلة التي يفتتح بها مطلع سيمفو نية و بتهو فن ، الخامسة ، ثم أتتبع انتقاله إلى انتصاره الهادي في آخر حركة في هذا الإيقاع ، فإنه يخيل إلى أن وبهو فن » مثل وإمرسون » قد أشعر ته الإلهامات النبيلة التي أشرقت على روحه السامية بالحقيقة العميقة الأساسية التي يقوم عليها الامل الإنساني ، وهو ما يجعلنا نتوقع للاخلاق من تأثير بالغ يقوم عليها الامل الإنساني ، وهو ما يجعلنا نتوقع للاخلاق من تأثير بالغ يقوم عليها الامل الإنساني ، وهو ما يجعلنا نتوقع للاخلاق من تأثير بالغ يقوم عليها الامل الإنساني ، وهو ما يجعلنا نتوقع للاخلاق من تأثير بالغ

على أننا حينها ننظر إلى الوراء فى ماضى تلك الجهود البشرية الهائلة ، فإننا لا نجد لها قيمة أو أهمية إلا حينها نراها تنهض نهوضا باهرا نحو « الانتقال العظيم ، ونحو العثور على القيم البشرية المثلى فى عصر الاخلاق .

والواقع أن عدم تكامل والانتقال العظيم و هو الذي يجعلنا ننتظر من وراء رحلة بنى الإنسان الطويلة عاملا خلقيا فعالا ، على ألا يكون ذلك عن طريق استيعاب الإنسان لمحتويات أى دين من الاديان القديمة بحيث تصير جزءا من كيانه ، بل يجب أن يكون ذلك عن تصور ما للتَحَجّة العليا التي لا تخرج مثل هذه الآديان عن كونها علامات مرشدة إلى الطريق التي تؤدى إليها . إذ من السهل أن يسىء الإنسان فهم قيمة تجاريب الشرق القديم من ناحية الدين والآخلاق .

وأنه لمن المناظر الشائعة والباعثة على أشد الأسف ، وبخاصة فى أمريكا وانجلترا ، ما نشاهده الآن من بعض تلك الأنوثة المخبولة وهن ينأملن الحقائق السامية ، معتقدات فى بلاهة ، أنها منحصرة فى دين ما من أديان الشرق القديم دون سواه ، ناسيات بذلك كل ما قدمته عصور التجاريب الإنسانية لإنماء ورفعة وإغناءكل ما وصل إلينا من الديانات التى ترجع إلى أصل قديم .

على أن تجاهل القرون الآخيرة وما أحدثته من تقدم مشرف، والرجوع إلى الوراء والتعلق بالمراحل الأولى الأصلية لدين ما دون تغيير، يكون مثله كمثل إنسان اشتد به الظمأ في يوم شديد القيظ، فالتمس ما يشنى به غلته في الرقود تحت شجرة من البلوط ثم حاول إطفاء عطشه ببذرة من البطبخ.

وقد حذرنا صديق «جيمس هار في رُ بنسون» (James Harvey Robinson) من الخضوع للماضي في كتابه المنبه للآرا، بدرجة عظيمة ، المسمى « العقل في التكوين » (The Mind in the Making) ، غير أني أعتقد أنه يقصد بذلك الاستسلام الأعمى للماضى . على أن طريق التقدم السليم هو أن يتخذ الإنسان وسطا متزنا بين الدروس المستقاة من الخبرة ، والرؤية الجديدة .

على أن ما أرمى إليه بهذه الآراء الحتامية لهذا الكتاب هو أن أذكر الباحث بأن دراسة التجاريب الإنسانية بدون تحيز و بخاصة إذا كان قد كشف عنها حديثا، هى التى تكون فى الغالب الدافع الملهم إلى رؤية جديدة. فليتأمل القارئ بعض الحقائق البارزة التى كشف عنها فحص التاريخ القديم للأخلاق البشرية، مما كنا بصدد بحثه فيما تقدم، ونعيده الآن فيما يأتى: ولقد وجدنا أولا أن الارتقاء الحلق فوق كوكبنا هو تطور لم يكمل بعد، وفي هذه الحقيقة نجد أكر سبب لاملنا فى المستقبل.

وثانيا نجد ــ كنتيجة للحقيقة السابقة ــ أن الإنسان من الوجهة الخلقية

لا يزال طفلا يلعب فى داخل حجرة مملوءة بلعب خطرة جدا لم يتعلم بعد كيفية استعالها، وبذلك يحدث باستمرار أضرارا جسيمة ، لا لنفسه وكفى ، بل لكل المبنى الذى يعيش فيه .

ويدل تاريخ الاقتصاد الحديث على أن القصور الطفلي في الإنسان لا ينحصر في حدود الأخلاق فقط.

وأخيرا فإن الإنسان الحديث، وقد عرف طبيعة الرقى الخلق الذى أظهر التاريخ البشرى المبكر أنه إنتاج وفيض للخبرة الاجتماعاعية، قد صارلاً ول مرة في مركز يؤهله لأن يمديده للتعاون عن قصد مع العوامل الغريزية في كيانه، للتأثير في تطور الرقى الخلق وتعجيله.

وقد أظهر الاستاذ و توماس ه. مورجان ، بكل وضوح أن التطور الطبعى ليس إلا نهجا بجب أن يدرس جوهره وقوانينه بالنجرية الفعلية . وإذا كان الارتقاء الاجتماعى شيئاً من حقنا أن نسميه « تطورا » فإن إجراء تجاربه تعترضه بلا شك بعض العقبات . غير أن وجود معمل تجارب اجتماعى كمصر كفيل بأن يلق ضوءا ذا قيمة على خطوات ذلك التطور الإنسانى السامى ، ويبشرنا بإمكان وجود عالم تنمكن فيه الحكومة والقيادة — مع تجنب الوقوع في مهاوى تشريع باهظ النفقات — من العمل بجد على إيجاد جو صالح تتقدم فيه الاخلاق الراقية ، ويظهر فيه من العوامل المؤثرة ما يكون أكثر قوة من العوامل التي تحيط بنا الآن .

وها نحن أولا. الآن أول جيل من الناس يستطيعون أن ينظروا إلى الوراء فى الماضى، وبإلقائنا نظرة على ذلك الماضى الطويل لحياة الإنسانية برمتها يمكننا أن نتتبع بجرى ذلك الانتقال العظيم إلى الحد الذى بلغه الآن من التقدم. وعقولنا بحكم مركزها هى أولى العقول التى تدرك أن نشأة الضمير والشعور بالمسئولية الاجتماعية، فيما بعد سنة ٢٠٠٠ ق. م.، وهما اللذان كانا بداية الانتقال العظيم، لم يكونا إلا من حوادث الأمس القريب.

وتلك الحوادث كانت بمثابة دليل على اقتراب وأبينا الإنسان ، من خدود ولم بملكة جديدة ، وها نحن أولاه أولاده فى أيامنا هذه لم نكد نعبر تلك الحدود حتى أخذنا فى استطلاع ماوراءها من مشاهد تلك والمملكة الجديدة ، ونقف فى حيرة المتردد عند تخومها الخارجية ، يخفى عنا جمالها وسمو مستقبلها البعيد ضباب الضعف البشرى أو يغشاهما سواد دخان ذلك الطمع الخانق والأنانية والحرب العالمية . وبما نزل على أعيننا من غشاوة وما حل بنا من ضعف ، زلت بنا القدم حتى اضطربنا على مقربة من سفح تلال تلك المملكة الجديدة ، وهى تلال كلها ما ثلة أمامنا ، ولو كلفنا أنفيينا مئونة رفع أعيننا إلى ما وراءها لحظينا برؤية تلك المشاهد البديعة التى تطل علينا من تلك والجبال التى لم البية ، وتدل المحجة الطويلة السامية التى خلفنا على مرتفعات هذه الجبال التى لم يتسلقها أحد بعد ، كاشفة لنا فى نهوضها بالإنسان من عهد الوحشية إلى عهد الأخلاق عن تسام لا يقهر فى الروح الإنسانية ، التى قد خرجت بطريقة ما من الأعماق وارتقت حتى بلغت هذا الارتفاع الشاهق .

على أننى باستعبال السكلمات « تسام لا يقهر فى الروح الإنسانية » لم أكن أستعمل مجرد عبارة بليغة جو فاء خالية من المعنى . ولقد استعملت هذه الكلمات لأول مرة فى محاضرة طلب منى إلقاؤها منذ بضع سنوات على أثر عودتى من رحلة قمت بها بين أطلال المدن البائدة بالشرق القديم . فنى تلك الرحلة شعرت عما لم أشعر به قط من قبل من معنى تلك الحقيقة البالغة ، وهى أنه ، فى الحياة التى كانت ذات يوم تدب فى شوارع تلك المدن التى صارت منذ زمن بعيد أثرا بعد عين ، نهض الإنسان لأول مرة من التغلب على الموارد المادية إلى إدراك قيمة تلك المثل العليا الاجتماعية التى كان لها من الحيوية ما جعلها قوة باقية بيننا غن الذين نقيم صرح المدنية الغربية على ضوء الحقائق التى لا تزال تسطع علينا من الشرق .

والواقع أن عبارة « التسامى الذى لا يقهر فى الروح الإنسانية ، تنطوى على معنى أكثر مما تغبر عنه مجردكلماتها ، ولكننى أؤكد للقارى أن هذه الكلمات

تمثل حقيقة واقعية فى الحياة الإنسانية لا يمكن دحضها سواء أكان ذلك فى الماضى أم فى الحاضر، وهى حقيقة لم يتناولها أمثال وأزفالد سبنجلر، وجميع من على شاكلته من أصحاب مبدأ التشاؤم، لأنهم على مايظهر لم يشعروا بها أصلا والواقع أنها شى موجود فى روح الإنسان يمكن الاستدلال على وجوده كا يستدل على الدورة الدموية فى جسمه الطبعى وأية قوة أخرىكانت هى الدافع الذى ساق الإنسان إلى ذلك الانتقال المدهش من الوحشية إلى السمو الحلق الذى كنا ننتبع بدايته فيما تقدم ؟ بل ما الذى نقل ذلك الإنسان المبكر من الفتح المادى المحض إلى تقدير المراثى الباطنية وجاذبيتها التى لا تقاوم ؟

وفى هذا يذيع علينا فيلسوف مثل «برجسون» (Bergson) شيئا يسميه «الدافع الحيوى» (Elan Yital) ، غير أنى لا أبحث هنا فى الأفكار الفلسفية لأنى لست فيلسوفا ، وإنما أنا أناقش تاريخ الإنسان وأناقش شيئا يكشف عنه التاريخ صراحة ، وبخاصة فى مراحله الأولى ، ويبرزه قوة ظاهرة ما ثلة أمام العيان تعمل من مئات آلاف السنين البائدة ولا تزال على ما أعتقد تؤدى عملها للآن. وهذه القوة لا يمكن أن يحددها أحد أو يعرفنا بكنهها ، غير أنها ، مثل قوة الجاذبية ، يمكن مشاهدة ما تفعله . وإنى أستعمل هنا التعبير بصيغة المضارع عمدا ، فانه ليس علينا إلا أن ننظر فيها حوالينا من أمر ذلك الهبوط الذي بلغ قمته فى سنة علينا إلا أن ننظر فيها حوالينا من أمر ذلك الهبوط الذي بلغ قمته فى سنة علينا إلا أن ذلك التسامى التاريخي فى الروح الإنسانية لا يزال معنا .

ومنذ ذلك اليوم المتوغل فى القدم المظلم الذى صنع فيه الإنسان أول آلة من الظران إلى يومنا هذا ، الذى نشاهد فيه الإنسان يحيط الكرة بالإذاعات الأثيرية ويرسم الخطط لمحو مدن برمتها بقذفها بقنابل الغازات السامة من السماء ، كان مجرى الجياة البشرية فى جميع تلك العصور فى مجال تسوده الرغبة فى إحراز الانتصارات المادية ، وقد سار هذا الفتح المادى فى طريقه مدة مئات الآلاف من السنين ثم هو لا يزال يسير فى هذا الطريق إلى الآن .

غير أنه حدث حادث وكأنه بالأمس ، وهو أن رأبانا الإنسان ،، في وسط غبار معمعة متعقد ، أخذ يدرك إدراكا مبهما جلال تلك المرتبات الخلقية

المستورة ويستمع إلى صوت جديد باطنى ، يطلب الاستجابة له عن ألف من خواطره ، القديم منها والحديث . فكان هذا الصوت مزيجا من حب البيت والزوجة والأولاد ، وحب الأصدقا ، وحب الجيران ، وحب الفقير والوحيد والمظلوم ، وحب الوطن وإجلال المليك ، ومع حب كل هذه الأشياء الجديدة امتزج تقديسه لأشياء ترجع إلى أقدم المراحل البشرية عهدا فى التاريخ ، كب الإنسان للسحاب و قمي التلال ، وحب الغابة والغدير ، وحب الأرض والنجم والسماء ، ولا يقل عنها حس الإنسان للحلة السندسية الخضراء التي تمده على مدى السنين بما تنبته من حاجات الحياة والغذاء اللازم الأطفال بنى الإنسان .

وبذلك انتقلت آلهة الطبيعـــة القداى إلى عالم جديد زاخر بالعوامل الاجتماعية ، وبذلك اندبحوا فى إله واحد ، هو إله الحاجات الإنسانية والمطامح الإنسانية . فهو الآب العالمي الذي بدأ الناس يرون فيه جميع القيم السامية التي كشفت عنها تجاريبهم الاجتماعية نفسها .

على أن مثل هذا الماضى قد تكدست فيه حتما طائفة من النجاريب الإنسانية لاتقدر بقيمة ، وقد أقرها محبوالهوض الإنساني ويرون أنها لاتزال تحتوى على عناصر عظيمة للقوة يكون من الوبال إهمال الاستعانة بها في حياتنا الحديثة .

وقد بحث ، والترامان » (Walter Lippmann) في كتابه البديع: «مقدمة في الأخلاق » (A Preface to Morals) بنظر ثاقب عظيم موضوع انهيار أسس السلطة الخلقية ، وإني أعتقد إزاء ذلك أننا نستمد قوة خلقية من التأمل في اتصال حلقات هذه الأشياء التي هي أنفس ما في الحياة الإنسانية ، فإن أثمن متلكات الروح الإنسانية ، إصرارنا الشديد على التمسك بشعور حب الاستقامة ، والعمل على التقدم إلى الامام نحو فتوحات جديدة في الأخلاق ، وكلها أشياء لم تكن أرومتها ثابتة في تجاريب الإنسانية فحسب ، بل ان ظهورها في حياة الإنسان إيما كان في شكل قيم جديدة نابتة من تجاريبه نفسها ، وقوتها باعتبارها مؤثرا ناميا في المجتمع البشرى لم يطرأ عليما شيء من الاضمحلال . وإن ما وصل

إلينا من الوثائق يدلنا دلالة تاريخية على أن الشيء الذي كان يسمى منذ زمان طويل وشعور بني الإنسان الحلق » قد نما معكل جيل من النظم والعواطف الحاصة بحياة الآسرة ، مضافا إليها أفكار ونصائح الشيوخ المجوبين ومن ذلك نرى ، كقيقة تاريخية ، أن القيم العالية التي تكمن في الروح الإنسانية قد جاءت إلى الدنيا لاول مرة عن طريق التأثر بتلك العوامل الرقيقة المشروفة التي نشعر بها على الدوام في حياتنا الاسرية . ولن نصل قط إلى معرفة ما إذا كان لها من قبل بداية سابقة في مكان ما خارج عالمنا في ذلك الكون الشاسع ، غير أنها لم تكن في أي مكان فوق كرتنا الارضية إلى أن أوجدتها حياة الاب والام والأولاد والواقع أن شمس أقدم البيوت الإنسانية وبيئها هما اللذان أوجدا المثل العليا في السلوك الاخلاقي عند الأنام وكشفا عن جمال إنكار النفس في سبيل الغير .

وقد ذكر لنا « برتر اند رسل » (Bertrand Russel) فى أحدث كتاب له (۱) فى تحبيد اعتناق مذهب الشيوعية أن أهم تغيير ترمى الشيوعية إلى إحداثه هو العمل على محو الأسرة . وهو يدافع عن ذلك مقصيا التجاريب البشرية أصالة عن حياتنا . على أنه رغم هذا الانقلاب الذي يقوم به الجيل الحديث فإن الحبرة البشرية لا يمكن القضاء عليها ومحوها ، كما لا يمكن محو الصفات التي غرستها فينا ولا تجاهلها .

حقا إن شباب اليوم قد ثار على السلطة سواء أكانت سلطة الكنيسة أم أوامر الكتب المقدسة، وما ذلك إلا لأن المناداة باستعمال السلطة تكون دائما موضعا للمعارضة وبخاصة في عقول الشباب، ولكن ماضي البشرية يسطع علينا بنوره العظيم وليس ثمة ما يدعو إلى طلب تطبيق السلطة . وإذا تصفح أي باحث كان من الشباب هذا الكتاب فلست أرجو منه إلا تأمل حقائق تلك التجاريب الإنسانية التي كشفت لنا الآن بحالة واضحة لم نر مثلها من قبل في أي وقت كان . على أنه توجد هناك مصادر أخرى تدعو إلى الإجلال علاوة على ما جاه في الكنب المقدسة أو تعليمات الكنيسة . فإن رجالا من أمثال على ما جاه في الكنب المقدسة أو تعليمات الكنيسة . فإن رجالا من أمثال

Education and the Social Order, London, 1932. (1)

, وليم مورس » (William Morris) و « والت ويتمان » (Walt Whitman) قد أحبوا ووقروا حياة الإنسان فوق الأرض ، ووجدوا في تأمل علاقاتها مصدرا للإلهام والإرشاد . على أنه توجد علاقة واحدة سامية تفوق كل العلاقات الإنسانية الأخرى ، وهي تلك العلاقات التي كونت البيت وجعلت من حول موقد الآسرة المصدر الوحيد الذي نمت منه أنبل الصفات الإنسانية التي كان لها شأن عظيم في تغيير حالة العالم(۱) .

ومن الحقائق التاريخية أننا مدينون إلى أبعد حد لحياة الأسرة بأعظم دين يمكن للعقل الإنسانى تصوره. فإن نفس أصداء ماضينا الآتية من أزمان سحيقة تنادينا فى صراحة بالاعتزاز والاحترام والمحافظة على علاقة الأسرة، المدينة لها حياة الانسان مهذا الدين الجليل.

ه _ القوة والأخلاق

لقد صارت حياة الإنسان فوق الأرض بسبب ذلك « الانتقال العظيم » عراكا مستمرا بين المثل العليا الجديدة فى إنكار النفس (الأمر الذى لم يكن ظهوره إلا بالامس القريب) وبين شهوة حب القوة الشديدة التأصل والقديمة قدم الجنس الإنساني نفسه .

فإن حب الإنسان للقوة أقدم بكثير جدا من العصر الأخلاق ، ولذلك كانت القوة هي المنتصرة انتصارا خطرا على الضمير والحلق المولودين حديثا ، لدرجة أننا صرنا أمام معضلة خطيرة ، هي مسألة بقاء المدنية . ولقد لخص «السير الفريد إيونج » (Sir Alfred Ewing) مركز الإنسان الحالى في خطاب الرياسة

⁽١) وقد جاء ذكرذلك في كثير من الآيات القرآنية الكريمة ، فني سورة النحل : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون و بنعمة الله يكفرون » (سورة النحل ١٦ : ٧٧) . وفي سورة الروم : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (سورة الروم ٣٠ : ٢١) .

الذى ألقاء أمام بحمع تقدم العلوم البريطانى فيها يأتى : « لقد وضع فى يديه (يعنى الإنسان) قيادة الطبيعة قبل أن يعرف كيف يقود نفسه » .

وإنى مقتنع تمام الاقتناع بأن تصور , الماضى الجديد ، على حقيقته كفيل بالتأثير فى سلوك الفرد . أما أن الامم أو البشرية بأكملها ــ بعد أن تدرك حقيقة هذه الصورة ــ تستطيع أن ترى فيها مؤثرا قويا يكفل حقيقة شفاء غلة الاحقاد الدولية ، أو يأتى بما هو أعظم من ذلك من توثيق عرى المودة والمراعاة الكريمة ، فهو أمر تحوطه الشكوك الخطيرة .

ولقد أبدى المستر ، ه . ج . ولز ، (H. G. Wells) تفاؤلا كبيرا في تصريحاته عن هذا الموضوع . وكنت أود أن أشاركه تفاؤله ، غير أنى لما كنت قد قضيت سنين عدة أتأمل في خلالها كل يوم تقريبا آثار القوة البشرية ، فقد ترك ذلك في نفسي شعورا ليس من السهل على محوه .

وقدكنا نرقب فى هذه الصفحات ارتقاء بميزات الروح البشرية المبكرة مع الاهتمام بوجه خاص فى عملنا هذا بملاحظة ظهور القيم العليا . غير أنه من جهة أخرى كان فى مقدورنا أن نستعين بعدد عظيم من الآثار القديمة لتكشف عن الجانب الآخر لتلك الصورة ، وبخاصة عن أعظم قوة مضادة لتلك القيم ، وأعنى بذلك ازدياد شراهة الإنسان لحب الاستئثار بالسلطة كلما ارتق النظام القومى ، إلى أن صارت آلة الحكومة البشرية هى التعبير المنظم عن التعطش للسلطة ... أى الشهوة الحافزة على استعال القوة .

وقد تأثرت فى خلال تجوالى فى أنحاء الشرق الأدنى عدة سنين بالحقيقة الساطعة الآتية وهى : «إن الآثار التى لا تزال باقية فى جميع تلك البلاد النائية كانت قبلكل شىء عنوانا لمدى قوة الإنسان » . فكأن عراكه مع عوامل الطبيعة ــ وهو عراك يسير فى طريقه من مدة بعيدة يحتمل تقديرها بنحو مليون من السنين ــ قد أشربه شعورا عدائيا بأنه لا يمكنه أن يفوز بغرضه إلا بالمحاربة على طول الخط كما كانت حالته مع قوى الطبيعة المناوئة التى كانت تنازله من كل جانب . وبهذه الروح نفسها كان ينازل اخوانه من بنى البشر نبير النسيد المناوئة التي كانت حالته مع قوى الطبيعة المناوئة التي كانت تنازله من كل جانب . وبهذه الروح نفسها كان ينازل اخوانه من بنى البشر

عندما انتهى الأمر بقيام ذلك النزاع الطويل على السيادة بين أقدم الأمم وفي أيامنا هذه قد تدخل إلى أحد الأودية المهجورة في وسينا ، فتواجهك هناك على حين غفلة صورة فرعون طويل القامة نقشت فوق واجهة جدار الصخر وقد ظل الفرعون واقفا هناك منذ القرن الرابع والثلاثين ق م م مثلا في هذه الصورة التي هي أقدم الآثار التاريخية في العالم ، وهو واقف بسلاحه شاهر اإياه عايشعر أنه على وشك تحطيم جمجمة أحدالاً سرى الأسويين، وقد أرغمه على أن يحثو على ركبتية أمامه وهذا الآثر الدال على القوة الغاشمة كان اعلانا للتملك بحق الفتح ، نقش هناك بمثابة بلاغ قاطع للأسيويين ينذرهم بأن ملك مصر قد عبر من افريقية إلى آسية واستولى على مناجم النحاس والفيروز المحيطة بذلك المحكل . ففي هذه البقعة ، التي فيها بدأت الآثار الناريخية والسجلات المحدونة ، نرى الاستيلاء على الموارد الطبعية باعثا أساسيا للعمل القومى ، ونرى الأثر المعر عن ذلك يضرب على وتر نغمة القوة التي ظلت تسود التاريخ البشرى منذ ذلك العهد .

وعلى أثر انهقاد الهدنة فى أوربا (فى سنة ١٩١٨ م .) مباشرة ، بينها كانت الحرب الجزئية لا تزال مشتعلة فى نقط متفرقة فى غربى آسيا ، قمت برحلة عند نهر الفرات فى وسط قبائل العرب المعادين ، بقصد العودة إلى المدتية الغربية ثانية . وقد كانت بعثة « معهدنا الشرقى » أول جماعة من الغربيين حاولوا ، منذ عدة شهور ، عبور تلك الصحراء الغاصة باللصوص ، من « بغداد » إلى البحر الابيض المتوسط . فني اليوم السابع من مغادر تنا « بغداد » دخلنا قلعة شاسعة الارجاء واقعة عند منتصف نهر الفرات تعرف عند الأهالي الآن « بالصالحية » ، الارجاء واقعة عند منتصف نهر وفا بعد . وحينها صرنا داخل جدرانها الضخمة ومررنا حول أحد أركانها ، ظهر أمامنا فجأة جدار عال يملز وجهه رسم فخم ذو ومررنا حول أحد أركانها ، ظهر أمامنا فجأة جدار عال يملز وجهه رسم فخم ذو ألوان عدة يشمل صورة جماعة مؤلفة من أحد عشر شخصا بحجمهم الطبعي

⁽١) لا شك أنه يقصد بذلك الملك « سمرخت » أحد ملوك الأسرة الثانية المصرية القديمة . أنظر كتاب مصر القديمة الجزء الأول ص ٧٧٥ .

وهم عاكفون على الصلاة بخشوع . وقد وقفنا محملقين مشدوهين أمام تلك الأشكال العجيبة التي تنظر الينا في جد ووقار ، وقد كشف عنهم فجأة كا تما قد استدعوا بعزيمة سحرية صادرة من فيافى تلك الصحراء الشاسعة الصامتة التي كانت تمتد تحت أقدامنا . وكان قد كشف عن ذلك الأثر قبل ذلك بيضعة أيام على يد جنود , الهند الشرقية الإنجليزية ، أثناء التِجائهم إلى هذا المكان للاحتماء من قبائل العرب المعادية الذين كانوا يحيطون بهم من كل جانب. وفي اليوم الثاني من قدومنا أخذنا نعمل بشغف بمساعدة هؤلاء الجنود أنفسهم، فكشفنا عن جدران أخرى عديدة ، فظهر لنا فوق جدار منهاكان ينكشف أمامنا بالندريج أثناء إزاحة الاتربة المتساقطة من فوقه ببط. _ رسم طائفة من الجنود الرومانيين وعلى رأسهم قائدهم (التربيون) • يوليوس ترنتيوس ، ، فقد كتب اسمه أمام صورته فوق الجدار ، وكان يؤم المصلين من جنود الحامية الرومانية النيكانت في وقت ما تحتل هــذا المعقل الصحر اوى الماحل ، الذي يقع على مسافة بعيدة خارج الحدود الشرقية التي توطدت نهائيا للدولة الرومانية على نهر الفرات . وقد عثرت كذلك على نقش في الصورة يبين بالإغريقية الاسم القديم لتلك المدينة المفقودة ، وهو د دورا . . ولم يعثر قبلَ هذا على أثرُ تصويري يمثل وصول جنود الرومان إلى مثل هذا المدى شر قا(١) .

ولقد كانت لحظة مؤثرة تلك التي تحققت فيها أنني وأنا في قلب الصحراء السورية، على مسافة تقرب من ٣٠٠ ميل شرقي البحر الأبيض المتوسط، أنظر إلى أقصى مدى شرقى بلغته قوة تلك العاهلية الحربية الهائلة التي كانت تمتد من الشطر الاسيوى الغربي وكل أوربا حتى شواطى الاطلنطى والجزر البريطانية غربا عايربي على مسافة ٣٠٠٠ ميل. وقد امتد خاطرى عندمذ بعيدا إلى ماوراء

⁽١) أنظر كتاب المؤلف:

Oriental Forerunners of Byzantine Painting, (University of Chicago Press 1924).

وهذا الموقع تقوم فيه الآن حفائر منظمة يعثق فرنسية أمريكية أرسلتها الأكاديمية الفرنسية.

الصحراء تجاه صورة الفرعون العظيمة المنقوشة فوق جانب الصخر فى الوادى المهجور الواقع فى «سينا » ، حيث نشأت أولى الآثار التى تمثل هذه القوة . ثم تعاقبت الآمم وقامت الدول الواحدة إثر الآخرى لمدة تناهز أربعة آلاف سنة حتى بلفت القوة ذروتها فى تلك الإمبر أطورية الرومانية الضخمة التى امتدت من المحيط الاطلنطى غربا إلى نهر الفرات شرقا .

ومع مافى كلمة «إثارة» من المبالغة ، فإننا نجد فى النظر إلى مظهر تلك العظمة الباهرة التى بلغتها الدولة الرومانية ما يثير ناحقاً ، وذلك عندما نتأمل فى الصورة المرسومة فوق ذلك الجدار ونرى فيها علم لواء الجنود الرومانية القرمزى اللون يحمله الدليل سائراً به أمام أولئك الجنود الذين كانوا يقومون بالمحافظة على عظمة قوة الرومان الحربية فى فيافى هذه الصحراء فوق شواطى نهر الفرات النائية فى هذا الزمن البعيد . وهذا الوقت ، أى وقت وجود الرومان عند الفرات، يبعد كماذ كرت بنحو من عسنة إلى الوراء من عهد ذلك الأثر المهجور الذى أقامه الفرعون لنفسه فى مناجم النحاس بسينا . ومع ذلك فإنه فى نهاية هذه الآلاف الأربعة من السنين كانت القوة — ظاهرا — هى العامل السائد فى حياة الإنسان السائرة فى سبيل التقدم .

وبعد أن مضى على ذلك الحادث بضعة أسابيع كنت جالسا مع السير «هربرت صمويل» (Sir Herbert Samuel) أول حاكم بريطانى لفلسطين، فى الحدائق الجميسلة بدار المندوب السامى البريطانى الواقعة فوق « جبل الزيتون » . وكانت مدينة « أورشليم » المقدسة تقع خلفنا تجاه الشمس الغاربة ، على حين كان أمامنا أخدود « وادى الاردن » و «البحر الميت » وخلفهما جبال «مواب » ذات اللون الازرق واللون الارجوانى . وقد صور « اللورد اللنى » فى صورة حية انخفاض ذلك الشق الهائل فى قصة ذكرها لى عن حملته فى فلسطين. فقد أرسل إلى وزارة الدفاع ذات يوم رسالة هذا نصها :

القد أطلقت حاملات قنابلنا هذا الصباح قذائفها على المواقع التركية فى وادى الاردن وهى محلقة على ارتفاع ٢٠٠ قدم تحت سطح البحر . .

على أن مصب نهر الأردن وسطح البحر الميت كانا يقعان على مسافة ودم تحت هذه القاذفان ، أى أن سطح « البحر الميت » يقع تحت مستوى سطح البحر بألف و ثلثمائة قدم . أما عمق « البحر الميت » نفسه فيبلغ ١٣٠٠ قدم من تحت سطح مياهه الملحة ، وعلى ذلك يكون قاع « البحر الميت » منخفضا عن مستوى سطح البحر بألفين وستمائة قدم ، فهو بذلك يعد أسفل أخدود في سطح الأرض ، وتشرف عليه الجبال التي حول « أورشليم ، التي يبلغ ارتفاعها في سطح البحر بمقدار المخفاض قاع « البحر الميت » عن ذلك السطح . فالفرق إذن يكون أكثر من خمسة آلاف قدم أى ما يكاد ببلغ ميلا بالضبط . فهذا المشهد حينها تشرف عليه العين من قمة « جبل الزيتون » يمثل صورة هائلة لنلك القوى المروعة التي أحدثته . فيكأن يدا ماردة قد دست أصابعها الضخمة في الأرض ففلقتها شطرين حتى تخلف عن ذلك أخدود يبلغ عمقه ميلا كاملا .

وحينها كنت أتأمل مع « السير هربرت » السالف الذكر هذا المشهد خيل إلينا أنه أكبر برهان مروع يمكن أن تقع عليه العين لتمثيل شدة القوى الطبيعية .

ولم يكن يوجد بعد اناس ما حينها انفاق ذلك الأخدود ، وعندما ظهر الإنسان فوق وجه البسيطة كانت تعترضه قوى من هذا القبيل أينها حل . وقد كان التاريخ الأرضى يسير فى طريقه بفعل مثل هذه القوى ، وإننا لنجد صدى لبعض أهو الها فى قصة «سدوم» و «عمورة» ، إذ قد رأى أهل هذا الإقليم القدامى آلهم تتمثل فى مثل هذه الظواهر المروعة . وقد أدرك العبرانيون فى شخص تلك القوى البركانية التى كنا نطل عليها أقدم إله لبنى إسرائيل ، وقد مضى وقت طويل قبل أن يُشربوا طبيعته المنطوية على تلك القوى المخيفة بصفات إنسانية تنطوى على المصادقة .

و بعد ذلك مددنا بصرنا إلى مسافة بضعة أميال شمالا ، وهناك فوق منحدرات تلال الأردن المشرفة على ذلك الأخدود المخيف رأينا تلك الهوية الصغيرة الني كانت مسقط رأس ، أرميا ، ذلك النبي العبراني وموطنه . لقد أشرف بنظره

طول حياته على ذلك المنظر الهائل الذى يدل على قوة التطورات الطبعية وعنفها، ومع ذلك فإنه كان يشعر بعالم تلك القوى الباطنة التي كان يعتقد عدم فنائها، ونجد ذلك فيها عزاه من الأقوال إلى إلهه فيها يأنى:

واقد أثبت لنا ذلك المشهد فعلا حقيقة ما قيل من أن ذلك الانتقال المدهش من عالم القوى الطبعية المحضة إلى عالم القيم الإنسانية التي لا تفي، قدحدث فعلا على وجهما في الشرق الأدنى القديم. وبينها كنا جالسين بعد ذلك مشرفين على قرية ذلك النبي «أرميا» الصغيرة، إذ حو لنا أعيننا نحو الجنوب الغربي، عبر قلال «يهودا» الماحلة التي يقع خلفها وادى نهر النيل، موطن الغربي، عبر قلال «يهودا» الماحلة التي يقع خلفها وادى نهر النيل، موطن أقدم شعب وصل إلى الشعور بقوة المثل العليا في السلوك الخلق وهي المثل التي بدأت «الانتقال العظيم» و وتذكر نا أنه، قبل مولد «أرميا» بألني سنة، كان حكماء الاجتماع المصريون أسبق الناس إلى إدراك قيم الأخلاق ومعرفة القيم القلبية الباطنة عند الانسان، وكيف أن كتاباتهم قد انتقلت إلى فلسطين فأثمرت ثمرتها في حياة العبرانيين. وبذلك صار الأنبيا، العبرانيون، الذين نبهتهم الظو اهر الاجتماعية التي نهضت فوق صفاف النيل، منارا يستضاء به في كل أنحاء العالم. وهنالك بدأنا ندرك بالندريج مدى تأثير قصة البشرية الطويلة، على وجهها العام، حينها أخذت تنتشر بسرعة في أقطار الشرق الأدنى القديمة.

وقد كانت ذكرى عظيمة عندما نظرت مرة ثانية فى خلال يوم آخر من قمة تل وأرماجِدّون ، نحو الشمال عبر ذلك السمل ذى الطبقات المسمى باسم التل ، و تأملت مرتفعات أراضى الجليل . فهنالك بين جبال قرية الناصرة لابد أن الطفل عيسى كان يشرف كثيرا على هذه الساحة التى كانت ميداناً للحرب على مدى العصور ، وقد كانث إذ ذاك ظلال السحاب تزحف وئيداً فوق تلال الناصرة التى كان يخيم عليها الضباب مع أنها لا تبعد عنا إلا ثمانية أميال فقط . وكانت شرفات حصون و أرماجدون ، تطل من تلك الاتربة التى كنت واقفاً فوقها ، وكانت أعمال الحفائر التى كنا نقوم بها وقتئذ فى ذلك المكان آخذة فى إزالة تلك الاتربة ، وكانت هذه الشرفات تشرف على كل ذلك السمل التاريخي . أما مدينة الاتربة ، وكانت هذه الشرفات تشرف على كل ذلك السمل التاريخي . أما مدينة

« أرماجدون ، الحصينة التي تعد أثراً من آثار تلك القوة البشرية فكانت لابد ظاهرة للعيان من خلال تلال قرية «الناصرة»، وقد كانت تشرف طوال أزمان حكم القوة على مشاهد الفتح وسفك الدماء التي كانت تقع في ذلك السهل الواقع أسفل منها _ وهي أزمانكانت أسمى آلهتها آلهة العنف والنقتيل الذي كانت تبتهج به نفوس أمثال أولتك الأنبياء الاشداء كالنبي « إيليا ». ثم قضت على ذلك بالتدريج تلك المثل العالية للسلوك الأخلاق التي جاءت من وادى النيل، إلى أن أشرق نور ذلك الإله الرحيم فوق تلال والناصرة، ، وهو مارآه ابن بحاريهو دى المنبت (١) نشأ في قرية صغيرة من قرى والجليل، تقع خلف حافة التلال الشهالية بالضبط وتشاهد بجلاء من شرفات رأرماجدون . وكاكان النبي « أرميا » يشاهد وهو ينظر منخلال قريته فعل تلك القوى الطبعية الهائلة ويبقى فى الوقت نفسه متمسكا بعقيدته فى القيم النفسية الباطنة ، كذلك كان نى قرية « الناصرة » ، ذلك الشاب الذي شب وترغرع فيها ، ترى عيناه كل يوم تلك المناظرالتقليدية الدالة علىوحشية القوة البشرية ويدقىمع ذلك متمسكا بأهداب وحيه عن تلك المملكة الجديدة التي كانت قائمة في قرآرة نفسه . ففي فلسطين كان هذا في الواقع هو الانتقال السامي من النبي « إيليا ، إلى يسوع ، ومن جبال الكرمل و مأرماجدون» إلى قرية «الناصرة».

على أن الوصول إلى هذه الذروة الرفيعة فى فلسطين إنما أنى فى وقت متأخر نسبيا ، فهو ثمرة مهد لها الطريق ذلك الانتقال المبكر – وهو الذى سميناه والانتقال العظيم ، – والذى رفع الإنسان من النصال الذىكان مقتصرا على الطبيعة ونقله إلى ميدان آخر جديد هو ذلك النزاع القائم بينه وبين نفسه للتغلب على روحه نفسها ، واحتضان تلك القيم الجديدة التى تسمو به فوق عالم المادة فتكورن مادة لحقيقة جديدة ، وهى التى نسمها الاخلاق أو الحلق .

وقد رأينا أن العوامل التيكونت ذلك الانتقال المبكر نشأت في مصر ، ثم انتقلت منها إلى فلسطين ، ثم إلى سائر أمم العالم التي ظهرت بعد ذلك .

⁽١) هذه بالطبع عقيَّدة المؤلف ، وقد رأيناها في الصفحات الآخيرة تخالف أيضاً عقائدنا بشأن نشأة بعض الأديان وقدرها .

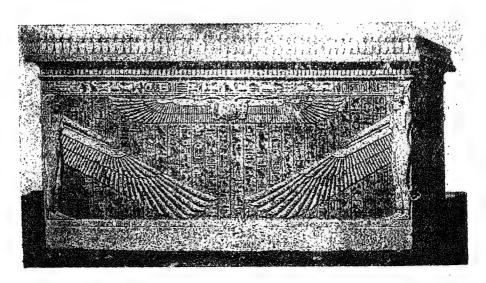
فلم يكن من باب بجرد الاتفاق والصدفة أن يتتبع التاريخ العبراني أصول القومية العبرانية إلى وادى النيل ، الأمر الذى نجد صدى تقاليده باديا في العقيدة المسيحية ، حيث نجد في الاسفار المسيحية ما يأتى : «من مصر قد ناديت ابنى» وفي عهدنا الحاضر نبحث نحن أيضاً في بلاد الشرق القديم عن أعمال الطبيعة وعن أعمال الإنسان ، وفي القيام بجهاد جديد من المحاولة العلمية لاسترداد قصة كل منهما . ولكننا قد أدركنا مما مضى ما فيه الكفاية لأن يثبت لنا أن قصتهما واحدة ، أى أن حركات الطبيعة وحياة الإنسان السائرة نحو التقدم هما في الوافع فصول من قصة واحدة عظيمة ، وأن في النظر إلى ذلك الاخدود المخيف الذي يتكون منه الآن « البحر الميت » ، والذي يواجهنا في صورة رهيبة بسؤ ال «هيكل » ، قد نجد جو ابا عليه ليس في استطاعة العلوم الطبعية أن تقدمه . وهو جو اب لاياً تينا إلا إذا تأملنا تلك التجاريب البشرية التي قامت في الشرق القديم ، وأدركنا أن ذروة الكون السائر في سبيل الارتقاء هي الاخلاق .

وقد كان الغرض الذى نرمى إليه فى هذا الكتاب هو تقديم الادلةالتاريخية على أن حركة الرقى البشرى الذى أنتج الاخلاق لم تتكامل بعد (١)، وأنها لاتزال سائرة فى طريقها، وأن احتمالات مستقبلها غير محدودة، وأن الواجب يقضى علينا بأن نجعل مالتلك الحقيقة الجديدة من أهمية خطيرة نصب أعيننا لتكون مؤثرا عمليا فى سلوكنا الاخلاق. فإذا عملنا بذلك نصل إلى الاقتناع التام بأننا لا نعتمد فى حياتنا على مجرد حقائق تقليدية وتعاليم موروثة ربماكانت لا تكاد تتفق مع ميولنا، ولكن كما انبثق نور الاخلاق فى ظلمة لم تكن تعرف مثل هذا النور من قبل، فكذلك لا نشك فى نمو ذلك النور حتى يضى، نواحى أخرى من الوجود لم تنحقق بعد فى العصور التى لم يسبر بعد غورها للآن، والتي إليها تتجه رؤيتنا المحدودة ولكها لاتراها.

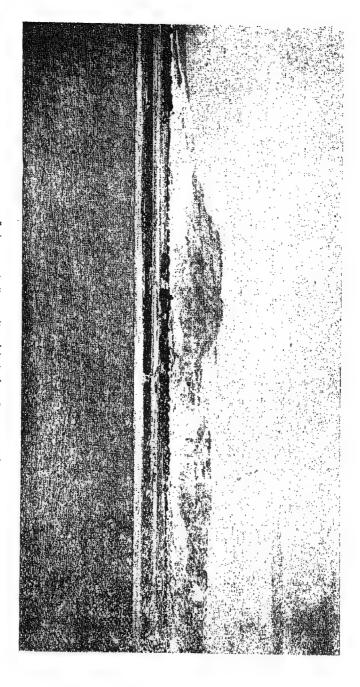
⁽١) جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم جوابا على قول من قالله في غزوة « أحد » حيمًا كسرت رباعيته وجرحت وجنته حتى سقط في احدى الحفر « ألادعوت الله على قومك كما دعا نوح على قومه » . فقال صلى الله عليه وسلم : « ما لهذا بعثت وإيما حثبت لأنم مكارم الأخلاق ، اللهم أهد قومى فانهم لا يعلمون » .



(صورة ٣) تمثال لتوت عنخ أمون فى صورة « أوزير » تحرسه « البا » (روحه) من اليسار ، و « السكا » (قرينته) من اليمين هذا التمثال البديم المصنوع من الحشب لا يتجاوز طوله ١٢ يومة ، وهو مثال لجال الصنع الذى امتازات به محتويات قبرتوت عنخ أمون حتى أصغرها حجا . وتدل التقوش المحقورة على تاعدته على أنه هدية جنازية قدمت للالك من مدير الجبانة الملكية .



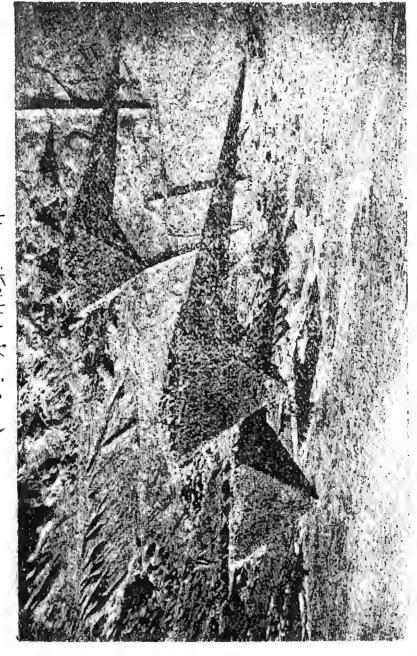
(صورة ٣) قرص الشمس المجنح يحلى به تأبوت الملك « آى » هذا التابوت الرائع المتحوّث مى قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر قد صورت على أركانه أربع الهات واقنات وقد نفرن أجنحتهن على جانبي التابوت لحمايتهما . ويزيد في جمال كل جانب نقش. بديع لقرص الشمس المجنح : « شمس العدالة . . . تحمل الشفاء في جناحيها » .



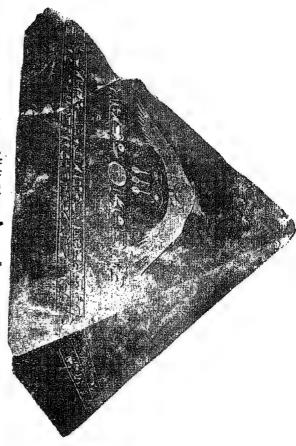
(المصورة رقم ۱) الشاطئ الغربى للنيل عند طيبة إن وادى النيل الفيق ، الذى تشرف عليه المرتفعات — ومن ورائها هضة صحراوية غير صالحة السكنى – قد تكونت -هنه بيئة مغزلة منيعة ، هيأت « معمل تجارب » احجاعي لامثيل له . وفرق الأرض السوداء التي تكونت من رواسب مياه النيل على جانبيه ، بامتداداً كثر من • · ٧ ميلى ، نشأت أول أمة زراعية في النارخ ، وبلغت عدمها عدة ملايين من الأنفس .



(صورة ٤) « بتاح الأعظم قلب الآلهة ولسانهم » رأس تمثال من الجرانيت الأسود للإله « بتاح ، معبود منف

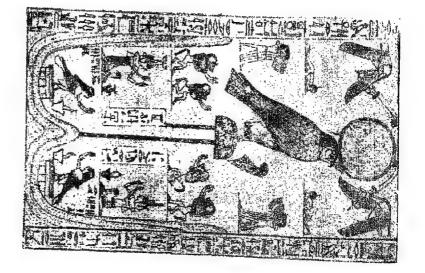


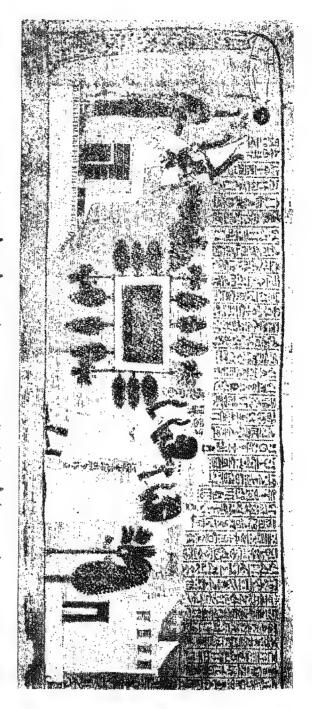
(صورة رقم ٥) أهوام الحجيزة كما ترى من الحجو الثلاثة السكبرى من هذه الأهوام شيهت لتسكون شوى أبه منها بأجدام الاثار مأود من وأسرة الرابعة بدسر التديية (بعه سنة ٥٠٠ تاق م م) ، أما الأهرام الصعيمة فهي لأعضاء من الأسرية المازسكة مكا أن القور الأخوى كانت لوجال البلاط



(صورة رقم ٣) قمة هرم أمنمجات الثالث بدهشور . الديان — النان ها عينا الملك — تنجهان شطر النسس عند شروقها فتستطيمان بذلك « رؤية جال النسس » . أما النقوش المدونة بأسفلها فراجع بشأتها ماجاء في صلب الكتاب في س ٤٤ . (عن حجر الفعة الموجود بدار الآثار المصرية).

(صورة رقم ۷) (على اليمين): إله الشمس مشرقاً فى شكل صفر: عن صورة (Vignette) ملونة من كتاب الموتى مرتين السيدة النجنان النينان فى أسفل الصورة يمثلان الصحراء الرهلية التى رسمت فوقها مرتين السيدة «إنهاى » المتوفاة فى شكل طائر برأس آدبي (يا) واقفة فوق سطح قبرها. وقد رفعة ذراعها كما رفع جميم من فوقها فى الصورة أذرعهم أيضاً — تعبداً لإله الشمس وفد صعد من الصحراء



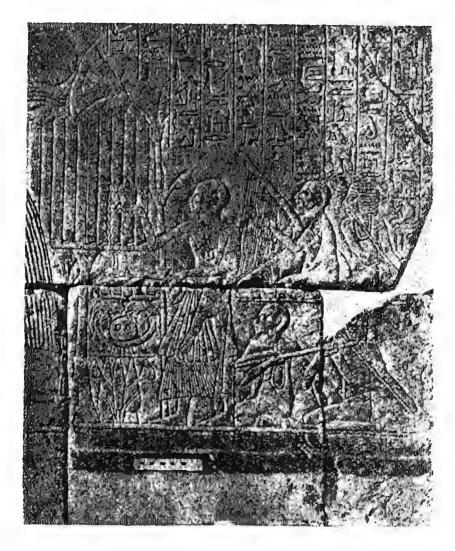


(صورة ٨) أحد السادة للصريين وزوجته وهما يتعبدان أمام « أوزير » في عرشه

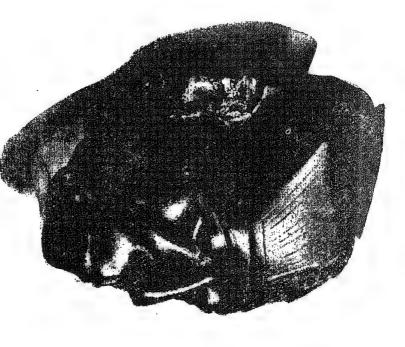
هذه الصورة الجملية المتمولة عن بردية جنازية ، تمثل المتوفى وقد خرج من منزله (إلى الحين)وأخذ يجناز حديقته إلى حضرة الإله الأعظم(إلىاليسار) الذى وقفت في حضرته وماعت» إلىة الحق. وقد كان المصرى ينتظر أن يجد فى الآخرة منزلا وضيعة شبيهين بماكان بملكه فى هذه الحياة الدنيا .ومن معالم المنزل المصرى القديم المحوفجى أن يسكون عماملا مسكنا وبركة مستطيلة الشكل تجف بهما الأشجار . وقد تمثل فى الصورة بوضوح كميم استحواذ و أوزير » بالتدريج على صفات إله الشمس : يظهر ذلك من وجود قرس الشمس فوق رأس لا ماعت » ومن أنشودة الشمس إلتى كتبت فى النطاق العبودي الوارد باعلى الصورة .



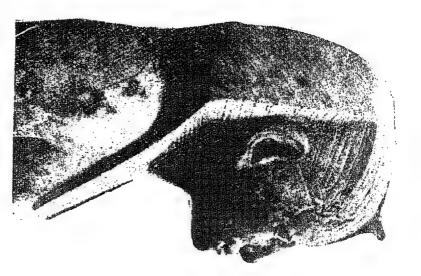
(صورة ٩) رأس تمثال من الديوريت للملك خفرع (من القرن التاسع والعشرين ق . م .) لعلهذه أعظم سورة معبرة من عصرالأهرام. فهى تبرز بشكلةوى المعالم الفردية لهذه الشخصية السامية — الملك — في عصر كانت فيه الشخصية ومعالم الغرد من الناس في دور الظهور لأول سرة



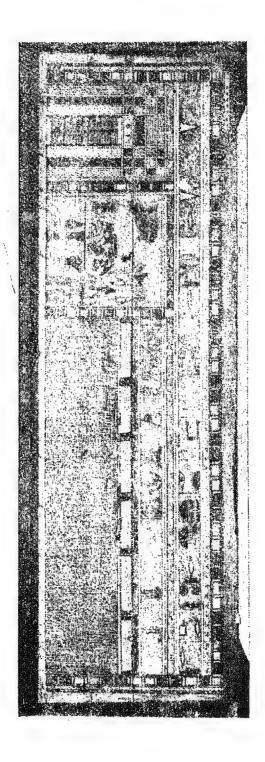
(صورة ١٠) المازف الأعمى وهو يغنى مع فرقته أغنية المازف على العود وقف الكاهن يؤدى الشمائر الدينية أمام الأمير ، الذى لم يظهر فى الصورة (إذ كان مكانه فى الجزء الذى قفد منها من اليسار) بينها كانت الفرقة الموسيقية تعزف الموسيقي المراقفة لأغنية «المازف على المود» وهى التى ألفاظها منفوشة بأعلى الصورة فوق رءوس الفرقة . وقد ضاع الجزء الأعلى من الأغنية ، غير أن ما بقى منها يكنى لمرفتنا أنها صورة من نفس الأغنية الواردة فى البردية



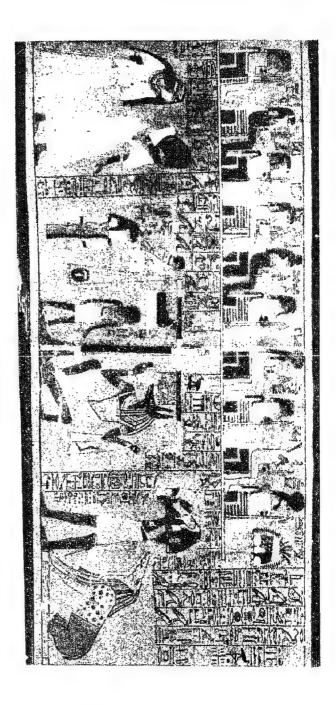
(صورة ١٧) رأس من الحجر البركانى لأمنمحات الثالث إننا نرى في هذه الصورة تعبيرا مجسم لتأثير زوال الأوهام الحادعة. ويدل منظر الوجه المسكنتب على أن سناع الخائيل المسكية أحسوا بتشاؤم المسكماء الاجماعين وعبروا عنه ببراعة فائقة في قسمات وجه الملك .



(صورة ١١) صورة الملك امنعحات الثالث من المهد الإقطاعي بحصر القديمة إن سايستل في الصورة من دلائل الحزم وضبط النفس وما تبرزه قسهات الوجه من أما إما أما الاهمام كل ذلك ينطق بأن صاحب التمثال ملك كله شعور بما يحمله من المسئوليات المخطوة ، وذلك في عصر استيماظ خلق .

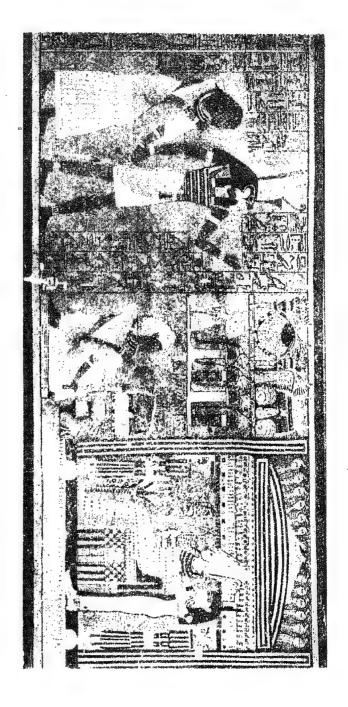


(صورة ١٩٣) منظر من الداخل لأحد جانبي تابوت خشبي لأمير من أمراء العصر الإقطاعي في الجزء الأسفل من يمين الصورة كتابة في سطور رأسية هي عبارة عن أجزاء من الأدب الجنائزي المعروف « يمتون النوابيت » . وإلى أقصى اليسار تجد الباب الوهمي الذي تستطيع روح الميت الدخول والحزوج منه . وكل هذه الموضوعات نشتت بالألوان على لوح سميك من خشب الأرز مكون لأحد جانبي النابوت .

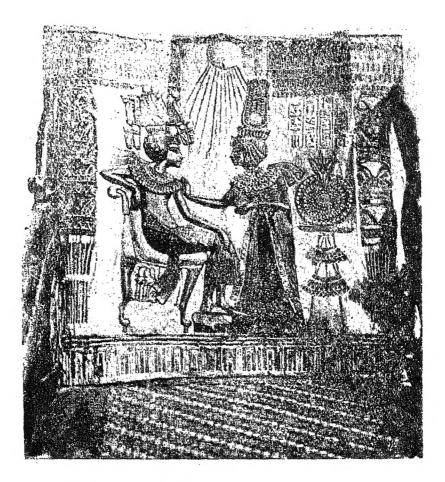


(صورة ١٤) منظر المحاكمة في الآخرة كما ورد في كتاب الموكى : وزن القلب

فسب الميزان (فى الوسط) ويدير حركته (من اليمين "وينس" (برأس ابن آوى)" ومن خلفه المعبود " يحوت" الكانب برأس " "أبيس" (أبو منجل) ليدون الحسكم، وفى أقصى اليمين تربض " الملاهمة" » يشكلها المفترس تنتظر النهام الروح إذا صدر الحسكم بأنها ظالة . "أفي يسار الميزان يقف « شاى » (القدر) ووراءه إلهنا الولادة . وإلى اليسار من أسفل نرى « آنى » وزوجته يدخلان فى خشوع ، وبحدق " أفي يسلم المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة الميزان الميسرى لموازنته فى الساد من الألهة المؤلفة على ومنم الحق أو العدالة . وفوق الميزان كتابة معلوات «آنى» يرجو فيها فلبه ألا يخونه ، وفى أعلى الصورة صف من الآلهة القدامي يشهدون المحاكمة .

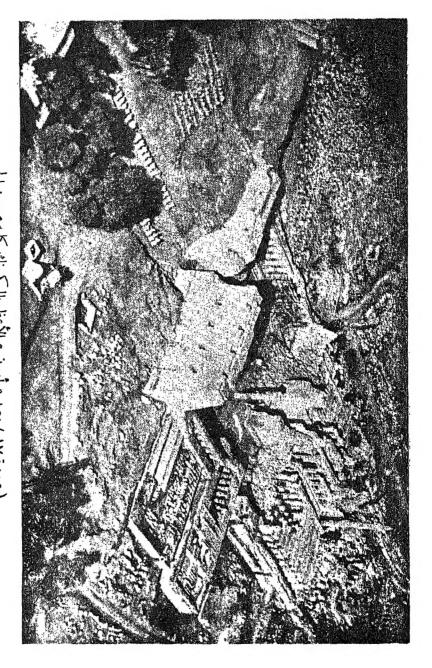


(صورة ١٥) تابع منظر المحاكمة: التوفى يقاد بعد تبرثته للمثول أمام « أوزير » وهو فى كرسى القضاء أثبتت محاكمة الميزان (المبينة فى الصورة السابقة) عدم إدانة المتوفى. وثرى « آنى » فى الصورة مرتين : الأولى وهو يقوده « حوويس ، ابن « أوزير » إلى حضرة الإله الأعظم، وفى المرة الثانية تراه را كما أمام عرش « أوزير » إجلالا للاله. ولأن « أوزير » هو إله الحضر ترى جسمه هنا ملونا باللون الأخضر الزاهى ويجلس فى كشك أخضر ؛ ولأنه إله قدمات نراه ممثلا فى شكل موميا ، وتقف خلفه « إذيس ، و « نفتيس » . وعندما يدخل « حوريس » تمسكا بيد « آنى » يعلن « أن قلب آنى برىء » .

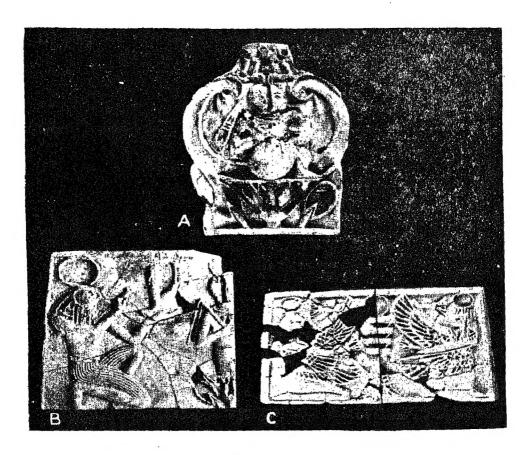


(صورة ١٦) توت عنج أمون وزوجته الملكة في إحدى حجرات قصره

الملك الشاب وقد جلس في استرغاء جلسة خالبة من كل كلفة ، مخالفا بذلك كل النقاليد المرعية في الصور الملكية وضاربا مثلا للنجر ر الذي أتت به ثورة « أتون » في الغن ، وزوجته الملكة (ابنة إخانون الثالثه) التي يغلب علمها مظهر الفتاة الصغيرة عبل نحوه في رشاقة إلى الأمام ، وقد أمكت بإحدى يديها إناء عطور صغير ، وبيدها الأخرى تصلح وضع عقد رقبة المزركش أو تعطره — فهو منظر للملائق المشخصية عبرت عنه الصورة تفصيلا وإجمالا في رشاقة ولمبداع . وفي أعلى الصورة نرى رمز معبود إخانون — قرص الشمس — وقد ظهرت أشعته منتهية بأيد بصرية ، وذلك رمز جديد يظهر التحرير الذي أتت به ثورة أنون في شئون الدين . وأرضية الصورة صفحة سميكة من الذهب ، أبرزت عليها الملابس بالفضة وأجزاء الجسم بالوجاج المائل إلى الحرة ، أما الحلية النفصيلية أبرزت عليها الملابس بالفضة وأجزاء الجسم بالوجاج المائل إلى الحرة ، أما الحلية النفصيلية رائع كان في وقته غاية في التلألؤ ، وقد خف سطوعه الآن بمضي العصور . والصورة منقولة عن ظهر كرسي عثر عليه في قبر تون عنخ أمون .

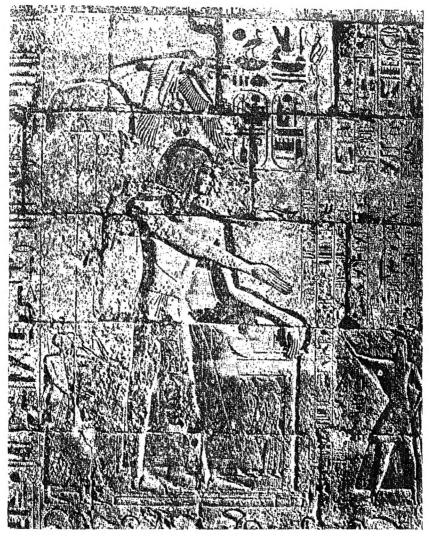


يرجع قاريخ المؤسسات الأولى لهذا المعبد إلى الفرن العشرين ق . م . على الأقل . وابتداء من عهد الملوك الأوائل في العاهلية (الفرن السادس عشر ق . م .) حرى ملوك مصر على إحداث شيء من الزيادة في مبانيه أو تجميله . (صورة ١٧) معبد ﴿ أمون ﴾ الأعظم بالكرنك كا يرى من الجو



(صورة ١٨) نقوش بارزة على العاج تمثل بعض الآلهة المصرية من قصر الملوك العبرانيين عدينة « سامرة »

وهي عبارة عن بعض النقوش الزخرفية المطعمة التي حلى بها بعض الأثاث بقصر ملوك الشهال العبرانيين (حوالى ١٥٠ – ٧٥٠ ق . م .) وهي مثل من البذخ الملسكي الذى نهى عنه الأنبياء العبرانيون . فالشكل A يمثل الطفل «حور » عند ظهوره من زهرة السوسن . والشكل B يمثل إله الشمس برأس صقر . وعلى رأسه قرص الشمس ، وهو يقدم لإلهة العدالة « ماعت » الجالسة أحد أشكال « شمس العدالة » . والشكل C يمثل الإلهتين « إذيس » و « نفتيس » (الحجاجتين) تحميان رمز « أوزير »



(صورة ١٩) في ظل الجناحين

هذه الرسوم البارزة على أحد جدران معبد « مدينة هابو » بالأقصر تمثل إله الشمس فى صورة مقر يحمى جناحيه المبسوطتين فوق رأس « رمسيس الثالث » آخر ملك عظيم فى العاهلية المصرية القديمة وهو يخاهلب وزيره الأول وغيره من رجال حكومته . وقد رأينا مثل هذه الحماية من الصقر الشمسى ممثلة نوق راس « خفرع » قبل دلك بأكثر من ٢١ قرنا (صوره ٩) . وقد ورد ذكر هذه الحماية الإلهبة (ظل الجناحين) فى المزامير (العبرانية) أربع حمات (المزامير ١١ ص ٩٠ - ٧ و ٧٠ - ١ و ٣٠ - ٧)